بُغْيَةُ المُسْتَفِيدِ

لِشَرْحِ

مُنْيَةِ المُرِيدِ

بُغيةُ المُستفيد

لِشرح

منيةِ المريد

تأليف

سيدي محمد العربي السائح الشرقي العمري التجاني

تحقيق وفهرسة

سعيد محمود عقيّل

دار الجيل



دار الجيل

للنشر والطباعة والتوزيع

الطبعة الثانية

2005م ـ 1426هـ

ISBN: 9953-78-076-5

بيروت: البوشرية ـ شارع الفردوس ـ ص.ب.: 8737 (11)

هاتف: 689950 ـ 689951 ـ 689952 / فاكس: 689953 (009611)

E.mail: daraljil@inco.com.lb.

Website: www.daraljil.com

القاهرة: هاتف: 5865659 / فاكس: 5870852 (00202)

تونس: هاتف: 71922644 / فاكس: 71923634 (00216)



﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

يقول أفقر العبيد، إلى عَفْو مولاه الغني الحميد، محمد العربي بن السائح الشرقي العمري، عامَلَه الله وإخوانَه ووالدي الجميع بمَحْضِ فَضْلِه في هذه الدار ودار الكرامة والمزيد:

الحمد لله الذي جعل سلوكَ طريق أهل ولايته، مُنْيةَ المريدِ الصادق في إرادته، والتمسُّك بعهد الأئمة الدالِّين على سُبُل طاعته، بغيةَ المستفيدِ الباذل في مُناصحة مولاه جهْدَ استطاعته. نحمَدُه سبحانه وتعالى أن أشرقَ في قلب المريد من أنوارِ الإخلاص في بدايته ما تهيَّأ به لورود مقامات الاختصاص في نهايته، ونشكره جَلَّ وعلا أنْ يسَّر للسالك من إقامة الأورادِ والوظائف في حال مجاهدته، ما هداه به سُبُل حضرةِ قُربه ومشاهدته، ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، المنفرد في عظمة ملكة بعزَة سناه وكبرياء جلالته، المنزَّه في علوِّ سلطانه عن كلِّ ما لا يليق بكمال قدسه وسموِّ مَجادته، ونشهدُ أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله إمام حضرة جبروته، الذي جعل مبايعته عينَ مبايعته، ومظهرَ أسرارِ مُلْكه ومَلَكوته، الذي أدرج طاعته في طاعته ﷺ وعلى آلِه الأطهارِ المخصوصين من الشرف الأتمِّ بغاية غايته، وعلى صحابتِه الأبرار المتبوِّئين بحسن صحبته، وكمالِ التبليغ عنه أعلى الدرجاتِ من مقاماتِ وراثته، صلاةً وسلاماً يندرج بسببهما في سلكِ من بشر من الله تعالى بالمحبة والغفران من أهل متابعته، وننالُ ببركتهما أكبرَ الرضوان في دار جزائه وكرامته.

(أما بعد) فإن أولى ما تنافَسَ فيه الأكْياسُ، وأجلُّ ما أُنفِقتْ فيه بضائعُ الأنفاس، وأفضلُ ما صرف إليه اللبيبُ عنانَ اهتمامه، وجعله الأريبُ مطمحَ عينِ قلبه في لياليه وأيامه، سلوك طريق أهل الله الأولياء، والتمسك بعهد خاصته الأصفياء، ونقل الأقدام بالمستطاع من الأعمال على أثرهم، والاستضاءة في عموم الأوقات والأحوال بلوامع أنوارهم إذ بذلك يتحلى العبد بملابس العرفان، وبه يرتقي أعلى الدرجات من مقام

الإحسان، وبه يتهيأ لقبول الإمدادات القدسية، ويستعد لتلقي واردات الأنوار العلوية، وكيف لا، وهم نواب الرسول ﷺ القاسمون عنه في الأمة بكمال الرعاية وحسن السير، المخصصون بتحقيق قدم المتابعة له في مقام الدعوة إلى الله على بصيرة: وأن ممن أحله الله تعالى من هذه المقامات أعالي ذراها، وحلاه من هذه الكرامات بواضح سناها شيخنا وأستاذنا العارف الرباني، والوارث المحقق الفرداني، القطب الجامع الصمداني، أبا العباس مولانا أحمد ابن مولانا محمد التجاني، رضي الله عنه وأرضاه، ومتعنا وسائر الأحبة برضاه، فلقد صار رضي الله عنه في ذلك كله العلم المفرد بين الأكابر، واستحق النداء بالرفع في سائر الحضرات والمظاهر، وانتهت إليه دون العصابة رياسة هذا الشأن، وخففت عليه أمام الجماعة ألوية النصر في هذا الميدان، وأظهر من كنوز الشريعة المطهرة إبريزها الخالص، وأبرز من بحار الحقيقة خصائص الفرائد وفرائد الخصائص، وجاء في أساليب الدلالة على الله تعالى لما لم يسبق إليه، وأتى في مسالك التربية والترقية بما لم يعرج أحد عليه، لبلوغه رضي الله عنه أقصى درجات الكمال، في الجمع بين العلم والحال والهمة والمقال، فأسست طريقته على تقوى من الله ورضوان، وشيدت من العالمين الظاهر والباطن على أقوم القواعد وأقوى الأركان، وأيدت من أنوار الهداية وأسرار العناية بأوضح دليل وبرهان، فعم النفع بها في سائر الأقطار وشاسع الأصقاع والبلدان، واختص ورده المحمدي اللفظ والترتيب، الأحمدي السر والتركيب، بتحقيق السير في مقامات الدين الثلاثة وسائر منازلها على الأسلوب الغريب، والمنهج العجيب، كما يتبينه المنصف الذي كحلت عينه بإثمد الأنوار الإيمانية، بالوقوف عليه مبسوطاً في كتاب ميزاب الرحمة الربانية، ويتحققه السالك المحافظ على هذا العهد في السر والعلانية، من طريق الذوق التام بالمشاهدة العيانية، فلا جرم أن الله تعالى أحيا به مراسم السنة بعد اندثارها، وأوضح معالم الطريقة بعد خفاء آثارها، وأطلع به شمس الحقيقة بعد أفولها واستتارها، ولله در العلامة المحقق شيخ مشايخ العلوم النقليات والعقليات، المبرز على زمانه في تحقيق الجزئيات منها والكليات، أبي زيد سيدي عبد الرحمن بن أحمد الشنجيطي المتوفى بفاس العليا في شوال سنة أربع وعشرين ومائتين وألف، حيث قال فيما نسجه في مدح سيدنا رضي الله عنه على أبدع منوال وأعجب مثال:

أحيا طريقة أهل الله فهي به	مؤلف شملها والكسر مجبور
شيخ المشايخ من في طي بردته	جيب على النور والأسرار مزرور
من داره جنة الفردوس وهْوَ بِها	رضوان خازنها أنكارها الحور
يفيض من سلسبيل الذكر كوثرها	فاشرب مفجرها فأنت مأجور

أوراده عـن رسـول الله قـد رويـت	كـذاك أفـعـالـه والـسـر مـأثـور
فـانـقـل فـديـتـك فـي آثـاره قـدمـاً	فـإن فـعـلـت فـذاك الـنـقـل مـدخـور
واحـرص بـأن تـنـتـمي يـومـاً لـجـانـبـه	فـحـظ مـن يـنـتـمـي إلـيـه مـوفـور

وقد كنت حين قادني رائد العناية الأزلية، الذي ليس إلا عليه المدار، وجذبني جاذب الدائرة الفضلية التي هي من وراء دوائر العقول والأفكار فألهمت فضلاً من الله تعالى الانتماء لجانب هذا الشيخ العظيم، والالتجاء إلى حمى طريقته الشريفة وحزبه الكريم بإلقاء القياد له وسلب الإرادة إليه على طريق الاستسلام والتحكيم لقيت من أصحابه الذين أخذوا عنه علومه وأسراره، واقتبسوا منه بحسن الصحبة وكمال المتابعة معارفه وأنواره، ولازموه إلى أن فارقوه وهو عنهم راض جماعة وافرة، فانتفعت بحمد الله على أيديهم بما أرجو عود بركته عليّ وعلى أولادي وسائر الأحبة والإخوان في الدنيا والآخرة، فتلقيت ممن تأهل منهم للتلقين ورده المحمدي الشريف، وأخذت عنهم عهده المصطفوي المنيف ورويت عنهم من طريق الإجازة العامة جميع ما عليه كتاب «جواهر المعاني» من الأوراد والأذكار، وتلقيت منهم سماعاً شرح الكثير من مسائله الجليلة القدر وفوائده العظيمة المقدار، وذاكرتهم بطريق الاستفادة منهم والأخذ عنهم في كثير مما لم يشتمل عليه هذا الكتاب، مما يوجد زائداً على ما فيه بغيره من المؤلفات والتقاييد التي بأيدي الأصحاب، فاجتمع عندي بحمد الله من ذلك نبذة كافية وجملة شافية مما يحتاج إليه المسترشد المستفيد ولا يستغني عن مراجعته المرشد المفيد، فكنت أهم كثيراً باستحفاظي ذلك رسالة تشتمل عليه، ليعم النفع به لمن عسى أن يحتاج من الإخوان والأولاد إليه، فيصدني عن الخوض في تلك المسالك، علمي بأنني بكل وجه وبكل اعتبار لست أهلاً لذلك، ويردني عن اقتحام مضايق ذلك الأمر الخطير، تحققي مما عليه نفسي الأمارة وعقلي الحسير، من الاتصاف بغاية القصور والتقصير، وبقيت أتردد في ذلك منذ أعوام مضين من عمري وأزمان، إلى أن اشتعل مني الفودان، وارتحل عني زمان الشبيبة وبان، ثم نظرت فإذا هاتيك الشموس الواضحة الإشراق، والبدور الكوامل من تلك العصابة قد أفلت من هذه الآفاق، واقشعرت البلاد لفقد أنوارهم أي اقشعرار، وفوح نبتها اليانع بعد الاخضرار، واتخذ جل من خلفهم من الأتباع هذا الأمر وراءهم ظهريا، حتى كاد أن يصير حديثه فيما بينهم نسياً منسيا، بيد أني رأيت جماعة من خاصة الفضلاء وأفراد الأذكياء النبلاء لا زالوا يساءلون عنه بغاية الجد والاجتهاد، وينقبون عن جهينة خبره في سائر الأغوار والأنجاد، فعلمت أنه لا بد لكل مغفول عنه أن ينتبه إليه ويطلب، ولكل مرغوب عنه أن يرغب فيه ويخطب، فانبعث مني بسبب ذلك على جمع ما كنت أتردد في جمعه الباعث القوي،

وانقدح في باطني من الإقدام عليه زند وري، فبينا أنا أستخير الله في الشروع فيه المرة بعد المرة وأستقدره، وأفكر في أي قالب من القوالب التأليفية أفرغه وبأي شكل من الأشكال التصنيفية أخطه وأصدره، إذ ورد علينا في غفلة من موانع الحوادث وصوارف صروف الدهر، ورود الفرح ولا فرح الظمآن فاجأه القطر، بعض المحبين ممن جاور بالحرمين الشريفين عدة من السنين بهذه المنظومة العظيمة القدر، الجليلة السنا والفخر المسماة (منية المريد) ليوافق اسمها مسماه بتوفيق الرب المجيد التي هي من إنشاء أخينا في الله سبحانه وصفينا وحبيبنا الأخص وولينا أعجوبة الدهر في كرم الأخلاق ولطف الشمائل وغرة العصر، الجامع لشتات الفواضل والفضائل الفقيه الأديب العلامة، المشارك الألمعي الأريب أبي العباس سيدي أحمد المدعو التجاني ابن العلامة سيدي بابا الشنجيطي العلوي على ما سيبين قريباً إن شاء الله تعالى عند التعرض للتعريف به وتحقيق القول في اسمه ونسبه وقد كان رحمه الله تعالى كتب إلى أيام إقامته بزاوية عين ماض أنار الله برهانها، وحاط بأسرار العناية عمارها وقطانها، يخبرني بإنشائه لهذه الخريدة العديمة المثال، وإبرازه لهذه الفريدة العزيزة المنال، وذكر لي منها أبياتاً تشير إلى بيان موضوعها وجدواها على جهة الإجمال، ووعدني البعث بها إلى بعد التنقيح والإكمال، ثم بعد ما اخترمته رحمه الله المنية، حقّق الله بفضله رجاءه في ذلك الوعد وتلك الأمنية، والأعمال بالنية. فقيض الله من يأتي بها إلى بعد حصول الإكمال المعنوي لها بملامسة ترب خير البرية، صلى الله عليه وسلم.

ولما سرحت في رياض كلماتها المونقة النظر، وأجلت بين حياض معانيها الغدقة طرف الفكر، علمت علم يقين أنها المنية التي كنت أتطلب، والبغية التي كنت منذ أزمان أترصد طالعها السعدي وأترقب، فقرت بها ولله الحمد مني كل عين، وعلمت أن الله تعالى كفاني ما كان أهمني من ذلك الأمر الخطير دون مين، غير أن بعض السادات الأجلاء، والسراة الأخلاء، ممن يتعين على القيام بحقوقه الأكيدة، لما هو عليه من حسن المؤاخاة في الله تعالى والسيرة الحميدة، ألح عليّ مرات عديدة في وضع تعليق عليها يكون كالتتّمات والتكملات لكلماتها الجامعة المفيدة، والتحصيلات لجملها النافعة وأقوالها الراجحة السديدة، فحداني ذلك مع ما قصدته في أداء هذا الحق الأكيد، من التعرض لنفحات المولى الغني الحميد، والتكثير لسواد هذا العصابة، والاستجلاب للدعوات الصالحة المستجابة، والاكتساب للمودة الصادقة من كل أخ صالح ينظر في هذه العجالة وهذه الصبابة، على أن لبّيت بعد الاستخارة دعوته، وأسعفت بعد الاستعصام بحول الله

وقوته رغبته وطلبته، وشرعت فيما التمسه مني من التقييد على أبيات هذه القصيدة المباركة بقدر الاستطاعة، وإن كنت في العلم والعمل والتقوى مزجى البضاعة، على أنني أعترف كل الاعتراف بأن ليس لي فيه إلا أعمال البراعة، وخدمت به الأعتاب الختمية والحضرة الأحمدية الكتمية:

عسى عناية لطف الله تلحقني بالسابقين فقد عوّقت من كسلي

ورجاء أن يغمرني من إمداداتها الوهبية، ويشملني من بركات أسرارها الغيبية، ما يكون سبباً لتطهير سريرتي وتنوير بصيرتي وغفران ذنوبي وستر عيوبي، وموجباً بمحض كرم الله تعالى لإلحاقي بدرجة الخاصة العليا من أهل هذه الطريقة الأحمدية، فأفوز من فضل الله تعالى بالحياة الأبدية، والسعادة الدائمة السرمدية، والمعيشة الراضية الهنية.

وسميته [بغية المستفيد لشرح منية المريد] ومن الله تعالى أسأل التوفيق الجميل، والإعانة على الإتمام والتكميل، وهو حسبي ونعم الوكيل. فاعلم أن جميع ما سيذكر إن شاء الله تعالى في هذا الكتاب من كل ما يسند فيه من قول وعمل إلى سيدنا قطب الأقطاب رضي الله تعالى عنه وقدس أسراره العزيزة الطاهرة، وجعلنا بمحض فضله وكرمه في حماه دنيا وآخرة، إما أن ينسب لمثبته له ورواويه وهذا لا إشكال في أصله ولا لبس يستره ويواريه وإما أن يكسىٰ حلة الإهمال والإبهام، من غير قصد مني لغرض بقدح في درجة صحته عند ذوي الأفهام، وهذا لا أذكر منه إلا ما بلغ حد التواتر أو كاد، من كل ما يلتحق بدرجته عند الجهابذة النقاد، وربما أذكر ما عدا ذلك مما ينحط إلى درجة الشذوذ أو يقاربها، لكنني أحكيه بإحدى الصيغ المتداولة في مثل ذلك كيذكر ويقال ونحو ذلك مما يدل على رتبته ويناسبها، نعم متى أطلقت في الإبهام فعبرت بالبعض أو بعضهم لا غير، فالمراد من لم يدرك الشيخ رضي الله عنه من الأصحاب أهل العلم والفضل والخير، ومتى قيدت فيه فقلت من أصحاب سيدنا رضي الله عنه عنه أو نحوها مما يجري في الكلام، فالمراد من أدركه وعاصره من أعيان أصحابه الأعلام، ﷺ وأرضاهم، وجعل الوجه الكريم متقلبهم ومأواهم، ونفعنا في الدارين بمحبتهم، وحشرنا بمنه وكرمه في زمرتهم.

والناس باعتبار النظر في هذا التقييد وبحسب الانتفاع به وعدمه أربعة لا خامس لها دون تفنيد: إما محبٌّ صادق وجده الحال قد دخل في الطريق، وتمسك في السر والعلانية بحبلها الوثيق، حتى خامر قلبه نور اليقين والتصديق، فانقدح له في باطنه من علوم الطريق وأسرارها بعض أذواق التحقيق، فحظ هذا من الانتفاع بمراجعته ما يفيض في قلبه عند مطالعته من شواهد الوجدان الحالية. ودلائل واردات الأنوار العرفانية، فيكون دليله على

صحة ما ذكرناه له المشاهدة والعيان وما بعد العيان بيان. وإما محب أيضاً قد أخذ بقسط من التصديق، لكنه لم يحظ بعد بالدخول في الطريق، والانخراط في سلك هذا الفريق، وهذا يرجى له ببركة ما معه من التسليم أن يرقى بأدنى مماسة لمسائله إلى درجة أهل الذوق السليم فيلتحق عن قريب بأول فريق ويسقى من مختوم هذا الرحيق. وإما حال عن كلتا الحالتين تتجاذبه أيدي القبضتين وهذا يرجى له أيضاً إن ساعدته الأقدار الإلهية ووافقته المشيئة الربانية فتحلى بحلية الأشراف، واتصف بأكمل الأوصاف، ونظر فيما اشتمل عليه بعين الإنصاف، أن يشرف على مدارك التحقيق أي إشراف، ويقف من عين الحق على ما يتخلى به إن شاء الله تعالى عن شبه الاعتساف، وعند ذلك يميل إلى الشوق ميلا ويخيم بحي ليلى، والله ولي التوفيق والهداية، ولا سبب في الحقيقة إلا العناية. وإما مبغض والعياذ بالله تعالى قد انهار به جرف هواه، في نار جهنم القطيعة وبئس مثواه، وهذا ليس ممن يواجه بهذا الخطاب، ولا ممن يرفع له عن وجوه مخدراته النقاب، لأنه كما قال الشيخ العارف بالله تعالى أبو سليمان سيدي داود الباخلي رضي الله عنه في شرحه لحزب البحر الذي سماه [اللطيفة المرضية في شرح دعاء الشاذلية] لا ينفع فيه البيان، ولا ينجع فيما قام بقلبه من الإعراض عن الله تعالى واضح البرهان، لأنه صرفه الهوى عن اتباع سبيل الهدى ثم قال، أعني سيدي داود، ﷺ: وموجب بغضه إما لأنه محب للدنيا مشغول بها عن الله تعالى فهو أبداً يعادي الآخرة وأهلها بطبع نفسه، ويعادي من أجل ذلك أولياء الله تعالى عداوة باطنة زرعها الشيطان في قلبه، أو مترشح بظاهر طريق رأى أثر النعمتين الظاهرة والباطنة فثار من قلبه ثائر الحسد لما جبلت الطباع عليه من حسد من كان مماثلاً أو مشاركاً في صفة كما قال سفيان بن عيينة: مكتوب في بعض الكتب: عدوك من عمل بعملك، أو منتسب إلى الفقه وقف مع الظاهر، وجمد عن النظر في أرواح المعاني ولباب العلوم يسمع أسرار العلوم ولا يجدها تنطبق عليها قوالب الألفاظ ولا بعض الظواهر، بمقتضى حظه من الفهم فينقبض عن قبولها، أو متصلح وقف مع صور ظواهر العبادات البدنية دون أسرارها وفقهها، ولم تفتح له أبواب المعارف ولا عرف العلوم القلبية ولا أعمال القلوب ولا ذاق شيئاً منها بل يظن أن الله تعالى لا يعبد إلا بحركة الجسد واللسان فقط، فتراه إذا سمع العلوم الروحانية والأعمال القلبية والأسرار اللدنية وقف قلبه وكعَّ[1] عنها وقال: لعل هذا غير دين الله عز وجل، وعادى من ظهرت على يديه، ثم قال بعد كلام نقله عن الشيخ أبي الحسن ليس من غرضنا الآن نقله ما نصه فهؤلاء الطوائف يعز

(1) كعَّ عن الأمر: هابه وجبن عنه.

إيمانها بأهل الطريق ومحبتهم لهم وقد نص على ذلك مشايخ الطريق اهـ. وقد نقله في «الجيش» عن الطوائف غير معز للشيخ داود مع تصرف في بعضه فانظره فيه إن شئت.

وقد حبب إلي أن أقدم بين يدي الشروع في الكلام على هذه المنظومة المفيدة الجامعة مقدمة كافية في بابها إن شاء الله تعالى نافعة وأن أرتب الكلام فيها في سبعة مطالب تشتمل على ما لابد منه في طريق الإرادة لكل سائل وطالب. المطلب الأول: في بيان منشأ علوم الطريق، وبعض ما اختص به أهلها من أسرار الأذواق والتحقيق. المطلب الثاني: في بعض ما يشير إلى حقيقة الأدب على جهة الإجمال، وبيان منشئه ومكانته من طريق أهل الكمال. المطلب الثالث: في الإشارة إلى نبذة من آداب الحضرة العلية، وبعض ما اتصف به من ذلك أهل المراتب السنية. المطلب الرابع: في بعض ما يختص بالمريد من آداب الصحبة والأخوة، وبيان ما يلزمه في ذلك من الوفاء وكمال الفتوة. المطلب الخامس: في بيان فضيلة حسن الاستماع وبعض ما يختص به من الآداب الموصلة بفضل الله تعالى إلى طريق الفهم وكمال الانتفاع. المطلب السادس: في بيان اختلاف أولياء الله تعالى في الطرائق والمذاهب، والإشارة إلى أن منشأ ذلك هو تباين الأذواق والمشارب. المطلب السابع: في وجه تسمية هذه الطريقة السنية بالأحمدية والمحمدية والإبراهيمية الحنيفية.

فأقول: ومن المولى العلي الأعلى الوهاب، أستمد العون والهداية إلى الصواب.

* * *

مقدمة: تشتمل على سبعة مطالب مهمة

المطلب الأول

في منشأ علوم الطريق وبعض ما اختصّ به أهلها من أسرار الأذواق والتحقيق

لا يخفى أنَّ هذا المطلبَ مما يهمُّ في هذا المقام تقويمُه، ويتأكّد في حدِّ أهل الطريق تعلُّمه وتعليمُه، إذ بالنظر فيه يرتقي المريدُ الموفق إن شاء الله تعالى عن حضيض الجمودِ على ظواهرِ الأنقالِ[1] إلى أوْجِ النظر في أرواح المعاني ولباب علوم أهل الكمال، ومن أدنى ما اشتمل عليه من الفوائدِ الجليلة والعوائد الجميلة، أن يسلم الناظرُ فيه بتوفيق الله تعالى من أن ينكرَ من كلام أهل الله تعالى ما لم يبلُغه علمُه، أو يردُ من إشاراتهم ما لم يصلْ إليه فهمُه، وناهيك بها من فائدةٍ عظيمة تُضرَبُ إليها أكبادُ الإبلِ[2] وتتفانَى في تحصيلها النفوسُ الزكية، وقد قال الشيخ أبو يزيد البسطامي[3] رضي الله عنه: إذا رأيتم مَنْ يؤمن بكلامِ أهلِ الطريق فاسألوه يَدْعُ لكم فإنه مجابُ الدعوةِ. قال الشيخ محيي الدين[4]

(1) أراد بـ(الأنقال): العلوم المنقولة نَقْلاً.

(2) هذ كناية عن استحقاق كلام أهل الله لبذل الجهد والمشقة.

(3) أبو يزيد البسطامي: طيفور بن عيسى البسطامي، زاهد مشهور، له أخبار كثيرة، كان ابن عربي يسميه: أبا يزيد الأكبر. نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق)، أصله منها ووفاته فيها (188 ـ 261هـ). وفي المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود، وأنه ربما كان أول من قال بمذهب الفناء، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية.

انظر طبقات الصوفية: 67 ـ 74، ووفيات الأعيان: 1/ 240، وميزان الاعتدال: 1/ 481، وحلية الأولياء: 10/ 33.

(4) محيي الدين: محمد بن علي بن محمد، ابن العربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر. فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسية بالأندلس وانتقل إلى إشبيلية، ثم زار الشام والعراق والحجاز، وأنكر عليه أهل الديار المصرية، فعمل بعضهم على إراقة دمه وحبس ونجا، واستقر في دمشق وتوفي فيها سنة (638هـ). يقول الذهبي: هو قدوة القائلين بوحدة الوجود. له نحو أربعمائة كتاب ورسالة. انظر فوات الوفيات: 2/ 241، وجذوة الاقتباس: 175، وميزان الاعتدال: 3/ 108، ولسان الميزان: 5/ 311.

ﷺ: أقلُّ درجاتِ أهل الطريق التسليمُ فيما لا تعلمه أنت، وأعلاها القطْعُ بصِدْقه، وما عدا هذين المقامين فحرمان اهـ.

فلِمِثْل هذه الفائدة المهمَّة آثرنا أن يكونَ هذا المطلبُ أمام مطالبِ هذه المقدمة، فنقولُ وبالله المستعان وعليه الاعتمادُ والتُّكَلَان.

فاعلم أرشدني الله وإياك إلى مناهجِ التسليم والتصديق، وأذاقنا جميعاً حلاوة الإيمان والتحقيق، أن العلمَ ينقسِمُ بحسبِ ما يجب اعتبارُه هنا إلى قسمين: علم الظاهِر وعلم الباطن.

أما علمُ الظاهر فالمراد به العلم الشرعيُّ المفيد لما يلزم المكلَّف في أمر دينِه عبادةً ومعاملة، وهو يدورُ على التفسيرِ والحديث، وعُدَّ منه النحو واللغة وأصولُ الفقه ونحوها على ما هو مبيَّن في كتب أهل العلم.

وأما علم الباطن فهو نوعان: أصولُ علم المعاملة، وحقيقته النظرُ في تصفية القلبِ وتهذيبِ النفس، باتقاء الأخلاق الذميمة التي ذمَّها الشرعُ كالرياء والعُجْب وحب العلوِّ والثناء والفخر ليتَّصف بالأخلاق الحميدة كالإخلاص والشكر والصبر والزهد والتقوى والقناعة، ليصلحَ عند إحكامِه لذلك لعملِه بعلمه ليرثَ ما لم يعلم، فعلمُه بلا عملٍ وسيلةٌ بلا غاية وعكسه جناية، واتفاقُهما بلا وَرَع كلفةٌ بلا أجرة، فأهمُّ الأمور زهد واستقامة لينتفعِ بعلمه وعمله، وهذا النوع فرضُ عينٍ في تقوى علماء الآخرة، فالمعرضُ عنه هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة، كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالكٌ بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا.

وأما النوع الثاني فهو علم المكاشفة، وهو نورٌ يظهر في القلبِ عند تزكيةِ النفس فتظهر به المعاني المجمَلة فتحصلُ لصاحبه المعرفةُ بالله تعالى وبأسمائه وصفاته وكتبه ورسله، وتنكشفُ له الأستار عن مخبآت الأسرار، فافهمْ وسلِّمْ تسلمْ، ولا تكن من المنكرين، فتهلك مع الهالكين، وهذا النوعُ هو الذي قال فيه بعض العارفين: مَنْ لم يكنْ له نصيبٌ من هذا العلم أخشى عليه سُوءَ الخاتمة، وأدنى النصيب منه التصديقُ به وتسليمُه لأهله والله تعالى أعلم اهـ وانظر إرشاد الساري.

ثم إن علم الباطن بِنوعَيْه هو غاية العمل بعلم الظاهر وزبدتُه ونتيجته المقصودة منه وثمرته، وذلك أن العبدَ إذا عمل بالشريعة ووقف عند حدودها المرسومة، بالمحافظة على شروطها المشروطة وآدابها المعلومة، يستضيءُ قلبه لا محَالَة من فضل الله تعالى بأنوارِ

الإيمان، فينقدحُ له في الباطن ما لا يكيف من غرائب العلوم والآداب، وعجائب أسرار الحقائق والعرفان فيطّلع من علوم الشريعة وآدابها على ما لا تحيط به الأفكار ويتحقق من المعارف الإلهية والأسرار الربانية بما يحيِّر أذهان النظار، فحقيقةُ العالِم بعلم الباطنِ ما أشارَ إليه الشيخ العارف بالله تعالى سيدي عبد الوهاب الشعراني [1] رضي الله تعالى عنه في كتابه [اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر] ونصُّه في المبحث الثامن والأربعين منه: اعلمْ أن حقيقةَ الصوفي فقيهٌ لا غير، فأوْرَثَه الله الاطلاع على دقائق الشريعة وأسرارِها حتى صار مجتهداً في الطريق والأسرار كما هو شأن الأئمة المجتهدين في الفروع الشرعية، ولذلك شَرَعوا في الطريق واجبات ومحرمات ومندوبات ومكروهات وخلاف الأولى، كما استنبطَ المجتهدون نظيرَ ذلك، وأبطلوا، أي مجتهدو القوم، العبادات والعقود بالإخلال بما أوجبوه وشرطوه أو بارتكاب ما حرّموه، وهذا شأنهم رضي الله تعالى عنهم، فما من أحد منهم حُقَّ له قدمُ الولاية إلا وهو مجتهد في الطريق ليس عنده تقليدٌ، إلا لما صرَّحت به الشريعة أو اجتمع عليه الأمة، فمن ادَّعى مقامَ الكمال وهو مقلّد لغيرِه فهو غير صادق. قال: وقد سمعتُ سيدي علياً الخواص [2] رضي الله تعالى عنه مراراً يقول: لا يكملُ الرجلُ عندنا حتى يأخُذَ العلمَ من حيث أخَذَه المجتهدون اهـ.

وذكر نحوه في مقدمة طبقاته، ثم قال بعده: لكنْ لا يشرفُ على ذوق أن علمَ التصوُّف تفرَّع من عين الشريعة إلا من تبحَّر في علم الشريعة حتى بلغ الغاية. وقال في المقدمة أيضاً بعد أن حكى فيها نحو ما تقدَّم من أن علماء الطريق شَرَعوا في الطريق واجباتٍ ومحرمات ومكروهات الخ ما نصُّه: وليس إيجابُ مجتهدٍ باجتهاده شيئاً لم تصرِّح الشريعة بوجوبه بأولى من إيجابِ الولي حكماً لم تصرِّح الشريعة بوجوده، كما صرَّح بذلك اليافعي وغيره اهـ وذلك لأن الكلَّ مستنبطٌ من نصوصِ الشريعة الظاهرة، ومقتبَسٌ من أنوار علومها الفاخرة، فكما أن الأئمة المجتهدين رضي الله تعالى عنهم استنبطوا من نصوص

---

(1) عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، نسبة إلى محمد ابن الحنفية، الشعراني، أبو محمد، من علماء المتصوفين. ولد في قلقشندة بمصر ونشأ بساقية أبي شعرة، وإليها نسبته، وتوفي في القاهرة سنة (973هـ) وله تصانيف كثيرة.
انظر آداب اللغة: 3/ 335، والشذرات: 8/ 372، وخطط مبارك: 14/ 109.

(2) الخواص: هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، أبو إسحاق، صوفي. كان أوحد المشايخ في وقته، من أقران الجنيد. ولد في سرّ من رأى ومات في جامع الري. قال الخطيب البغدادي: له كتب مصنفة. والخواص معناه: بائع الخوص. مات سنة (291هـ). .
انظر تاريخ بغداد: 6/ 7، والشعراني في الطبقات: 1/ 83 وفيه «إبراهيم بن إسماعيل».

الشريعة ما لا يُحصى من الأحكام والوقائع، فكذلك هؤلاء علماءُ الباطن وأئمة الطريق استنبطوا أيضاً من نصوص الشريعة أحكاماً ووقائع في الباطن لا تُحصى، والكلُّ من طريق الاجتهاد الصحيح. فالاجتهاد واقعٌ في دولة الباطن كما هو واقعٌ في دولة الظاهر، ولا غِنَى بإحدى الدولتين عن الأخرى، فحقيقةٌ بلا شريعة باطلة، وشريعةٌ بلا حقيقة عاطلة أي ناقصة اهـ وانظر اليواقيت[1].

فالفريقان لا محالة يغترفان من عينٍ واحدة وكما أنه لا يخرجُ شيءٌ من علوم علماءِ الظاهر من الشريعة فكذلك لا يخرج من علوم علماء الباطن عنها. قال في مقدمة الطبقات: وكيف تخرجُ علومُهم، أي أهل الباطن، عن الشريعة، والشريعةُ هي وصلتهُم إلى الله تعالى في كل لحظة اهـ. فقد بانَ لك أن علم الباطن زبدةُ علمِ الظاهر ونتيجةُ العمل به على الوجْهِ الأكمل من إيقاعه، غيرَ مشوبٍ بالحظوظ والعِلَل، ولهذا قال إمام الطائفة الجنيد[2] رضي الله تعالى عنه: علمُنا هذا مُشَيَّدٌ بالكتاب والسنة اهـ. رداً على من توهَّم خروجَه عنهما، ومعنى كونه مشيداً على الكتاب والسُّنة أنه نتيجةٌ عن العمل بهما، قاله الشيخ محيي الدين رضي الله تعالى عنه، ثم قال: وبذلك يفرقُ بينه وبين ما يظهرُ لأرباب النواميس[3] الحكميةِ، قال: وهذا لا يعرفُه إلا أصحابُ الذوق. قلت: وفي تعبيرِ إمام الطائفة رضي الله عنه بمشيد إشارةٌ إلى إنافةِ قَدْرِ علم الباطن وشرف درجته من حيث إنه لبُّ الشريعة وزبدتُها، وقد ذكر في اليواقيت ما يشهدُ له ونصُّه: وقد رأيتُ في كتب الرعاية للشيخ عز الدين بن عبد السلام[4] سلطان العلماء بمصر في عصره ما نصُّه: كلُّ الناس قعدوا على رسوم الشريعة وقَعَد الصوفيةُ على قواعِدها التي لا تزلزل اهـ.

---

(1) أي كتاب «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر»، للشعراني.

(2) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم، صوفي من العلماء بالدين، مولده ومنشؤه ووفاته ببغداد، كان يعمل الخز، أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد، وقال ابن الأثير: إمام الدنيا في زمانه. وعده العلماء شيخ مذهب التصوف. مات سنة (297هـ).
انظر وفيات الأعيان: 1/117، وحلية الأولياء: 10/255، وصفة الصفوة: 2/235، وتاريخ بغداد: 7/241، والكامل لابن الأثير.

(3) النواميس: القوانين والشرائع.

(4) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين، الملقب بسلطان العلماء، فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ في دمشق، وزار بغداد وعاد إلى دمشق فتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي، وانتقل إلى مصر بعد أن حبس، وتوفي بالقاهرة سنة (660هـ)، وله كتب كثيرة.
انظر وفيات الأعيان: 1/287، وطبقات السبكي: 5/80 ـ 107، ومفتاح السعادة: 2/212.

ثم قال في «اليواقيت» بعده: وقد بَلَغنا أنه، أي الشيخ عز الدين، كانَ يقولُ قبلَ ذلك: وهل ثَمَّ طريقٌ للشريعة غيرُ ما بأيدينا من النقول، ثم يقول: من زَعَم بأنَّ ثم علماً باطناً للشريعة غير ما بأيدينا من النقول فهو باطنيٌّ يقارب الزنديق، فلما اجتمعَ بالشيخ أبي الحسن الشاذلي[1] بمصرَ وأخَذَ عَنه، صار يمدحُ طريق القوم كلَّ المدح ويقول: إنها طريقٌ جمعتْ أخلاقَ المرسَلين. قال: وكان حجَّةُ الإسلامِ الغزالي[2] يقول مثل ما كان يقولُه ابن عبد السلام، فلما اجتمعَ بالصوفية وذاقَ طريقَهم صارَ يقول: ضيَّعْنا عمرَنا في البطالة، أي لما في العلم على طريقة أهل الجدل من غلبةِ القولِ على العمل، ثم قال، أعني صاحب «اليواقيت» ﷺ: والحقُّ أن الاشتغَال ليس ببطالةٍ وإنما هو أساسُ الطريقِ، فإنَّ من شأنِ أهل الطريق أن تكونَ جميعُ حركاتهم وسكناتهم محرَّرةً على الكتابِ والسنة، ولا يعرف ذلك إلا بالتبحُّرِ في علم الحديث والتفسير. فقولُ الغزالي هذا إنما هو قولٌ صدرَ منه حال عِشقه في طريق القوم، والعاشقُ حكمُه حكمُ السكران، ولو أنه تأمَّل في حاله لعَرَف ما قلناه من أن الفقهَ أساسُ الطريق، وأن غايةَ الصوفي أنه عالِمٌ عمِلَ بعلمِه لا عيراه.

ونصوصُ الكُمَّلِ من مشايخ الطريق في هذا الباب واضحةٌ، وتصنيفُهم بما لهم فيه من جليِّ العبارات وسنيِّ الإشارات طافحةٌ، واقتصرنا منه على هذا القدر اليسير مما يفيد مُطْلَق التبصير في التعريف بمنشأ علومِ الرجال، والإشارةِ إلى بعض ما امتازوا به في هذا المجال، وقد اتَّضح بحمد الله تعالى أن منشأ علومِهم إنما هو العملُ بالكتابِ والسنة بأحكامِ الشروط الإسلامية، والوفاء بالرُّبوطِ الإيمانية حتى ينقدح لهم في بواطِنهم من سواطعِ الأنوار الربانية ما يكشفُ لهم بإذن الله عن مخبآت أسرار الشريعة المطهَّرةِ وخفياتِ أنوار الحقائق العرفانية، فالعلم بعلمِ الباطنِ هو من أخَذَ حظّاً من علومِ الدراسة فأفادَه علمُ الدراسة العملَ بالعلم، وأفاده العَمَلُ علمَ الباطنِ فَصارَ مشارِكاً للعلماءِ في علومهم، وتميَّز

---

(1) هو علي بن محمد بن محمد بن خلف المنوفي المصري الشاذلي، أبو الحسن، من فقهاء المالكية، مولده ووفاته في القاهرة (857 ـ 939هـ)، له تصانيف كثيرة.
انظر خطط مبارك: 16/49، وشجرة النور: 272.

(2) الغزالي: محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، فيلسوف، متصوف، له نحو مئتي مصنف. مولده ووفاته في الطابران بخراسان، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد ثم إلى الحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته ونسبته إلى صناعة الغزل أو إلى غزالة (من قرى طوس)، وله كتب كثيرة منها «إحياء علوم الدين»، و«تهافت الفلاسفة». مات سنة (505هـ).
انظر وفيات الأعيان: 1/463، وطبقات الشافعية: 4/101، وشذرات الذهب: 4/10، وآداب اللغة 3/97.

عنهم بعلوم زائدة هي علوم الباطن، وتسمَّى أيضاً علوم الوارثة أخذاً من بعض الخبر «مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ ورَّثَه الله عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» وإنما أفادَهم العملُ بما عَلِمُوا علْم مالم يعلموا لإحكامِهم أساسَ التقوى دونَ غيرهم، وقد قال الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية 282] قال الشيخ محيي الدين: أي ما لم تكونوا تعلمونَ بالوسائط من العلوم الإلهية، ولذلك أضافَ سبحانه التعليمَ إلى اسم الله الذي هو دالٌّ على الذات، وجامعٌ للأفعال والأسماء والصفات اهـ.

فإحكام أساسِ التقوى هو السلَّم الذي يُرتَقى به إلى إدراكِ العلوم الكبار، ويشرَفُ منه على فَهْمِ دقائق الأسرار. قال في الحكم العطائية: كيف يشرقُ قلبٌ صور الأكوان منطبعةٌ في مرآته؟ أم كيفَ يرحلُ إلى الله وهو مكبَّلٌ في شهواتِه؟ أم كيفَ يطمعُ أن يدخلَ حضرةَ الله تعالى وهو لم يتطهر من جناباتِ غفلاته؟ أم كيفَ يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته اهـ. يريد أنَّ فهْمَ دقائق الأسرار لا يكونُ إلا بتحقيق مقامِ التوبة، ولا يتحققُ مقام التوبة إلا بإحكام أساس التقوى، في الظاهر والباطن، والسرّ والنجوى، فأهل الطريق ﷺ أحكموا أساس التقوى فتعلَّموا العلمَ لله وعمِلُوا بما علموا لموضعِ تقواهم، فَرَزَقهم الله علمَ ما لم يعلموا من غرائب العلوم، ودقائقِ الإشارات، ورقائق الفهوم، فاستنبطُوا من كلامِ الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم غرائبَ الأمور وعجائب الأسرار، فرسختْ أقدامهُم في العلم، فهُم العلماء الراسخون، ﷺ وأرضاهم، وأنالنا بمَحْضِ فضله وكرمه مما خصَّهم به وأولاهم آمين.

قال الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله تعالى: الراسخونَ في العلم هم الذين رَسَخُوا بأرواحِهم في غيبِ الغيب وفي سرِّ السر، فعرَّفهم الحقُّ سبحانه وتعالى ما عرفهم، وأراد منهم من مقتضى الآياتِ ما لم يرِدْه من غيرِهم، فخاضوا بحرَ العلم بالفهم لطلبِ الزيادات، فانكشفَ لهم من معاني الخزائن والمخزون ما تحت كلِّ حرفٍ وآية، فاستخرجوا الدررَ والجواهرَ ونطقوا بالحكمة اهـ. وقال يحيي بن معاذ[1] رحمة الله تعالى: الْتَقَى أحمد ابن حنبل[2] وأحمد بن أبي الحواري فقال ابن جنبل لابن أبي الحواري: يا أحمد حدثنا

(1) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا، واعظ زاهد، لم يكن له نظير في وقته، من أهل الري. أقام ببلخ، ومات في نيسابور، وله كلمات سائرة كثيرة. مات سنة (258هـ).

انظر طبقات الصوفية: 107 ـ 114، وصفة الصفوة: 4/ 71.

(2) هو أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني الوائلي، إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة، أصله من مرو، وكان أبوه والي سرخس. ولد في بغداد سنة (164هـ) ونشأ منكباً على طلب=

بحكايةٍ سَمِعْتها من أستاذك أبي سليمان فقال ابن أبي الحواري لابن حنبل: يا أحمد قلْ سبحان الله بلا عجبٍ: فقال ابن حنبل: سبحان الله، وطَوَّلها، فقال ابن أبي الحواري: سمعتُ أبا سليمان يقول: إذا عُقِدت النفوسُ على تَرْكِ الآثام جالتْ في الملكوتِ وعادتْ إلى ذلك العبد بطرائفِ الحكمة من غير أن يؤدِّي إليها عالم علماً. فقام ابن حنبل ثلاثاً وجلس ثلاثاً وقال: ما سمعتُ في الإسلام بحكايةٍ أعجبَ إلي من هذه، ثم ذكر الحديث «مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ ورَّثَه اللهُ عِلْمَ ما لمْ يَعْلَمْ» ثم قال لابن أبي الحواري: صدقتَ يا أحمد وصدَقَ شيخُك اهـ.

فعلم أن العلومَ التي امتازَ بها أهل الله تعالى عمن عداهم إنما هي كما قاله الشيخُ أبو عبد الله القرشي: أسرارٌ يبديها الحقُّ تبارك وتعالى إلى أُمَنَاه الأولياء وساداتِ النبلاء، من غيرِ سَمَاع ولا دراسة، ولم يطلع عليها إلا الخواصُّ اهـ. وقال أبو سعيد الخراز رحِمَه الله تعالى: للعارفين خزائنُ أوْدَعوها علوماً غريبة وأنباء عجيبةً يتكلَّمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارةٍ أزلية، وهي من العلم المجهول. قال في «العوارف»: وقولُه «بلسان الأبدية» وعبارة «أزلية» إشارةٌ إلى أنهم ينطقُون بالله اهـ. وقوله «وهي من العلم المجهول» أرادَ به العلمَ الذي لا يهتدي إلى فهمه والاطِّلاع عليه إلا العلماءُ بالله تعالى، وهو المشارُ إليه في الحديث الذي رواه ابن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«إنَّ مِنَ العِلْمِ كهَيْئَةِ المكْنُونِ لا يعلَمُه إلا العلماءُ بالله تعالى فإذا نطَقُوا به لا يُنْكِرُه عَلَيْهِمْ إلَّا أهْلُ الغرَّةِ بالله»** اهـ.

وممن صرَّح بأنَّ علم العارفين بالله تعالى هو المشارُ إليه[في] هذا الحديث العارفُ ابن عباد الرندي[1] رضي الله عنه فلا شك أن العارفين بالله تعالى هم الكاشفون بصريح العلم، وأن علمهم هو العلم اللدني الذي لا بقاء للجهل معه، كما أن طلوعَ الشمس لا بقاء للظلام معه، فهو العلم الصحيح الذي لا يتطرَّق إليه الفساد بحالٍ، لأنه ليس من طريق الفكر. قال

= العلم، وسافر في سبيله أسفاراً كثيرة إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام وغيرها. وصنف كتباً كثيرة. ومات سنة (241هـ).

انظر ابن عساكر: 2/ 28، وحلية الأولياء: 9/ 161، وصفة الصفوة: 2/ 190، وابن خلكان: 1/ 17.

(1) محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النضري الحميري الرندي، أبو عبد الله، المعروف بابن عباد، متصوف، باحث، من أهل رندة بالأندلس. تنقل بين فاس وتلمسان ومراكش وسلا وطنجة واستقر خطيباً بفاس، وتوفي فيها سنة (792هـ).

انظر نفح الطيب: 3/ 178، وجذوة الاقتباس.

الشيخ محيي الدين ﷺ: علومنا وعلوم أصحابنا ليست من طريق الفكر، وإنما هي من الفَيْض الإلهي، وذلك لأن علومَ الفكر يتطرَّق إليها الفساد والصحَّة، فهي مظنونةٌ فلا يوثق بما تعطيه. قال: وأعني بأصحابنا أصحابَ القول والمشاهدة لا العباد والزهاد ولا مطلقَ الصوفية إلا المحققين منهم، ولهذا يقالُ في علوم النبوة والولاية إنها وراءَ طور العقل ليس للعقل فيها دخول، ولكن له القبول إذا كان سليماً لم تغلب عليه شبهةٌ خيالية فكرية يكون من ذلك فساد نظر اهـ.

فإذن اسم الفقيه أولى بهذه الطائفة من غيرِهم، فإنهم هم الذين يدعون إلى الله على بصيرة. قال الشيخ محيي الدين عقب كلام له في هذا المعنى، وقال في «العوارف» عقب كلام في المعنى أيضاً: وهذا العلمُ - يعني علم العارفين بالله تعالى - هو الفقه في الدين، وقد قال تعالى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: الآية 122] فصارَ الإنذارُ مستفاداً من الفقه في الدين، والإنذارُ هو إحياء المنذر بماء العلم، فالإحياءُ بالعلم رتبةُ الفقه في الدين فصار الفقه في الدين أكمل المراتب وأعلاها، ومن هنا اختصَّ علماء الباطن بالدلالة على الله والهداية إلى الطريق الموصلة إليه سبحانه وتعالى دون غيرهم.

وذكر في «اليواقيت والجواهر» أن مما اختصَّ به علماء الباطن عن غيرهم علمَهم بالطريق الموصلة إلى العمل بالكتاب والسنة. قال: فإذا قلت لهم مقصودي أن أزهد في الدنيا بحيث لا يبقى عندي ميلٌ عادي إليها مثلاً يقولون لك أكثرْ من ذكر الله تعالى ليلاً ونهاراً حتى يرقَّ حجابكَ فتدرك الآخرة بعين بصيرتك، وتنظرَ ما لمن يزهد في الدنيا من الدرجات والنعيم، فإذا رأيت ذلك زهدت لا محالة في الدنيا، ولو قال لك جمهورُ الناس: ارغب في الدنيا لا تُصْغِ إليهم، قال: ولو أنك قلتَ ذلك لعالم، أي بعلم الظاهر فقط، لقال لك: إن الله أمرك أنْ تزهد فازهدْ، ولا يهتدي إلى الطريق الموصلة إلى ذلك، فحكمه حكمُ طبيبٍ يحفظ كتاباً في الطبّ ولا يعرف كيفية علاج المرض اهـ.

ومما اختصَّ به علماء الباطن أيضاً عمن سواهم معرفتهم بأمراض القلوب على كثرتها واختلافِ أنواعها باختلاف مراتب النفس، ومعرفتهم بأدويتها جملةً وتفصيلاً، ومن ذلك أيضاً معرفتهم بآداب حضرات الحقّ جلَّ وعلا في بساطِ التكاليف الشرعية في جميع مقامات الدين، فإن لكلِّ مقام منها آداباً تخصُّه لا يعرف الطريقَ الموصلة إلى العمل بتلك الآداب إلا علماء الباطن. قال الشيخ العارف بالله تعالى سيدي عبد الوهاب الشعراني ﷺ في طبقاته: وكانَ سيدي علي بن سيدي محمد وفا يقول: من المتفقهين تستفيد دعوى العلم

بأحكام الدين، ومن العلماء العاملين تستفيد العملَ بأحكام الدين، فانظرْ أي الفائدتين أقربُ قربى عند ربِّ العالمين فاستمسِك بها، وإذا قال لك المتفَقّهون: ماذا استفدت من الصوفية الصادقين؟ فقل لهم: استفدتُ منهم حسنَ العمل بما استفدته منكم من أقوالِ أحكام الدين اهـ. ومنها في ترجمة الشيخ سيدي علي المذكور ﷺ: وكما اختصَّ علماء الباطن بمعرفة الطريق الموصلة إلى الأعمال الشرعية الظاهرة والباطنة في بساط المعاملات، فكذلك اختصُّوا أيضاً بما لم يشاركهم فيه غيرهم من علوم المعارف الإلهية والحقائق الفردانية في بساط المكاشفات وحظوات المشاهدات، لأنهم حصلوا على علم التوحيد الخاصِّ بالكُمَّل من الخواصِّ من طريق الكشف الحقاني والشهود العياني، وهذا العلم هو الذي تقدَّم لنا أنه يسمَّى «علم المكاشفة» لأن صاحبه يكاشفُ من المعرفة بالله تعالى وبأسمائه الحسنى وبصفاته العليا بما لا تدركه العقول، ولا يأتي عليه المقول وهو أعلى الدرجات في التوحيد، لأنه إما تقليدي وهو توحيد العوام، وإما نظري وهو توحيد أهلِ النظر من علماء الظاهر القاصرين عن مرتبة أهل الأذواق العرفانية، وإما كشفي شهودي وهو توحيدُ العارفين بالله تعالى، وهذا العلم، حسبما تقدَّم، هو النوع الثاني من نوعَيْ علم الباطن، وهو نتيجة العلم بالنوع الأول الذي هو علم المعاملات في الظاهر والباطن كما أن علم المعاملات نتيجة علم الظاهر، فقد اتضح لك بحمد الله تعالى منشأ علوم أهل الكمال، وعثرتَ على بعض ما يشير إلى ما امتازوا به من أسرار الأذواق على طريق الإجمال.

[تنبيه] ما تقدَّم لنا من أن العالم بعلم الباطن هو العالم العاملُ بعلمه إلخ، ربما تبادر منه أن شرطَ الاتصاف بعلم الباطن تقدُّم التغلغل في علم الظاهر والإحاطة بعلومِ الشريعة وليس ذلك بمراد، وإنما المرادُ تقدّم ما تقومُ به فروضُ الأعيان، أي ما يحتاجُ إليه من علوم الشريعة من كلِّ ما يتوقف المريدُ عليه في سلوكه، إذ كثيرٌ من العلوم الظاهرة لا مدخل لها في السير والسلوك، وإلا لزم الحطُّ من مرتبة كثير من فحول الطريقة، فقد كان كثير منهم غير متضلِّعين بعلوم الشريعة، والظاهر أنه إنما تشترطُ الإحاطة بعلوم الشريعة في الكمَّل من الأولياء كالأقطاب ونحوهم اهـ باختصار من «الجيش» ناقلاً له عن المسناوي فراجعه إن شئت.

وقد نقلَ الشعراني عن سيدي علي الخوّاص ﷺ ما في الطبقات وغيرها في هذا الباب ما يشنِّفُ الأسماع[1] ويقعُ به الإمتاع، وملَخصه أن الكاملَ من الرجالِ يحيطُ من

(1) شنَّف الآذان: أمتعها.

طريق كشفِهِ الحقيقي بأحكام الشريعة كلِّها أصولها وفروعِها ومنطوقها ومفهومها وناسخها ومنسوخها وسائر أحكامها وعِلَلها ووجوه استنباطاتها وغير ذلك مما يتعلق بها، حتى لو فُرِض اندثارُ دواوينها جملةً وتفصيلاً لأملاها من صدره بحيثُ لا يترك مسألةً منها اهـ. والظاهر أن المراد بهذا الكامل الموصوف بهذه الخصوصية القطبُ الكبير لا غيره، لأنه هو الذي يُفاض عليه سرُّ القرآن العظيم. قال سيدنا أبو العباس التجاني[1] ﷺ: سرُّ القرآن لا يعلمه إلا القطبُ الكبير، وإن كان لا يحفظُ القرآن، فإنه يفسِّره بعلمٍ يُفاض عليه، بخلاف الحفظ فإنه لا يفاضُ عليه، ولابد أن يقرأه كما تقرؤه العامةُ اهـ. الغرضُ من كلامه[2] هنا ﷺ.

وقد صرَّح ﷺ في بعض أجوبته حسبما في جواهر المعاني بأنه لا يحيط بمعرفة أحكام الشريعة وجميع العلوم التي يحتاج إليها الناس إلا الفردُ الجامع، لأنه هو الحاملُ للشريعة في كلِّ عصر، ولو كان أمياً لم تسبقْ له قراءة اهـ.

[تذييل] يكون لما أوردناه في هذا المطلب كالتتمة والتحصيل بهذا الذي تقرَّر في هذا المطلب من بيان منشأ علوم أهل الله تعالى، ﷺ وأرضاهم، يتحقَّق المنصفُ المشفق على نفسه من النار وعلى دينه من اللحاق فيه بأهل البوار[3] أن جميعهم على هدًى من الله تعالى، وعلى بيِّنةٍ منه سبحانه في جميع ما يأتون وما يذَرُون[4]، لا يخرجون عن الشريعة المطهَّرة فيما يُسِرُّون به ولا فيما يجهرون، وأنهم كما قال في «اليواقيت والجواهر»: كالأئمة المجتهدين، لا ينبغي لأحد أن ينكرَ عليهم كلامَهم إلا بعد أن يدخلَ طريقَهم ويعرفَ مصطلحَهم، وأن جميع من شَطَح منهم عن ظاهر الشريعة إنما هو دخيلٌ فيهم، أو غلبَ عليه حالٌ، أو كان مبتدئاً في الطريق، وأما الكاملون فطريقُهم محرَّرة على الآداب تحريرَ الذهبِ، إذ هم حماةُ الدين وأنصاره، ﷺ اهـ الغرض من كلامه في هذا المحل.

وقال في محل آخر من هذا الكتاب أيضاً: سببُ إنكارِ بعضِ الناس على أهل الطريق

---

(1) أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد الشريف التجاني، أبو العباس، شيخ الطائفة التجانية بالمغرب. كان فقيهاً مالكياً عالماً بالأصول والفروع، ملماً بالأدب، تصوَّف ووعظ وأقام مدة بفاس وتلمسان، واستقر بفاس إلى أن مات سنة (1230هـ).

انظر شجرة النور: 258.

(2) قوله «اهـ الغرض» يعني (انتهى الغرض..).

(3) البوار: الهلاك.

(4) يذرون: يتركون، من الفعل «وَذَر».

إنما هو دقةُ مَدَارِكهم، ولو أن المنكرَ لزمَ الأدبَ لسلم للقومِ كلَّ ما خالفَ فهمه مما لم يعارض كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً اهـ. قلت: ولا سبيل له إلى معرفة ما لم يعارض الكتاب والسنة والإجماع إلّا بالإحاطة بأقوال جميع المجتهدين ومعرفة سائِر مَنَازعهم وقواعدهم التي أسسوا عليها مذاهبهم، وأنّى لهؤلاء المتهورين عَفَا الله عنا وعنهم ذلك؟ وكيف لهم الوصولُ إلى ما هنالك؟ فحسبهُم لو كانوا يفقهون التصديقَ بما أدركوه، والتسليم لما لا يفهمون، وانظر «الذهبَ الإبريزَ» فيما يتعلَّقُ بهذا الباب، فقد أجادَ مؤلِّفُه فيه بما لا يحيدُ عن قبوله إلا حائدٌ عن الصواب متنكِّبٌ نهْجَ أولي الألباب، وربما ألممْنا ببعض ذلك إن شاء الله تعالى أثناءَ هذا الكتاب.

وقال الشعراني أيضاً في الكتاب المذكور بمحلٍّ آخر أيضاً ناقلاً عن الشيخ محيي الدين ﷺ أنه قال: لا يخفى أن أصلَ الإنكار من الأعداء المبطلين، إنما ينشأ عن الحسد، ولو أن المنكِرين تركوا الحسد وسلكوا طريقَ أهلِ الله تعالى لم يظهرْ منهم إنكارٌ، وازدادوا علماً إلى علمهم،ولكن هكذا كان الأمر، فلا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال: ثم قال، يعني الشيخ محيي الدين: وأشدُّ الناس عداوةً لأصحاب علوم الوهبِ الإلهي في كلِّ زمن أهلُ الجدال بلا أدبٍ، فهم لهم من أشد المنكرين. قال: وما علمَ العارفون منهم ذلك عَدَلوا إلى الإشارة كما عدلت مريم إلى الإشارة، فلِكُلِّ آيةٍ أو حديثٍ عندَهم وجهان: وجهٌ يرونه في نفوسِهم، ووجه يرونه فيما خَرَجَ عنهم؛ قال سبحانه وتعالى ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فُصّلَت: الآية 53] فيسمون ما يرونه في أنفسهم إشارةً ليأنَسَ المنكِرون عليهم، ولا يقولوا إن ذلك تفسيرٌ لتلك الآية أو الحديث، وقايةً لشرهم ورَمْيهم لهم بالكفر جهلاً من الرامين بمواقع خطابِ الحقِّ سبحانه وتعالى، واقتدوا في ذلك بسنن من قبلهم، والحقُّ سبحانه وتعالى كان قادراً أن ينصَّ ماتأوَّله أهلُ الله وغيرُهم في كتابه كآيات المتشابهات والحروف أوائل السور، ومع ذلك فما فعل سبحانه وتعالى بل أدرج في تلك الكلمات الإلهية والحروف علوماً اختصاصية لا يعلمها إلا عبادُه الخُلَّص، ولو أن المنكرين كانوا ينصفون لاعتبروا في أنفسهم إذا رأوا الآية بالعينِ الظاهرة التي يسلمونها فيما بينهم، فيرونَ أنهم يتفاضَلُون في ذلك ويعلمون المزية لبعضهم على بعض في الكلام والفَهْم في معنى تلك الآية، ويقرُّ القاصرُ منه بفَضْلِ غير القاصرِ عليه وكلُّهم في مجرى واحد، ومع هذا التفاضُلِ المشهور فيما بينهم ينكرون على أهل الله إذا جاؤوا بشيء يغمض عن إدراكهم، قال: وكلُّ ذلك لكونهم لا يعتقدون في أهل الله أنهم يعلمون الشريعة، وإنما ينسبونهم إلى الجهل والعامية، لاسيما إن لم يقرؤوا على أحدٍ من

علماء الظاهر، وكثيراً ما يقولون: من أين أُتي هؤلاء العلمَ لاعتقادهم أن أحداً لا ينالُ علماً إلا على يد معلم وصدَقوا في ذلك، فإن القومَ لما عملوا بما علِمُوا أعطاهم الله تعالى علماً من لدنه بإعلام رباني أنزله في قلوبهم مطابقاً لما جاءت به الشريعة، لا يخرجُ عنها ذرة، قال تبارك وتعالى ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: الآيتان: 3-4] وقال ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: الآية 5] وقال في عبده خضر ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمًا﴾ [الكهف: الآية 65] وصدق المنكرون في قولهم: إن العلم لا يكون إلا بواسطةِ معلِّم وأخطؤوا في اعتقادهم أن الله تعالى لا يعلِّم من ليس بنبي ولا رسولٍ، قال تعالى ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: الآية 269] والحكمة هي العلم، وجاءَ بـ«من» وهي نكرةٌ ولكن هؤلاء المنكرون لما آثروا الدنيا على الآخرة وعلى ما يقربُ إلى الله وتعوَّدوا أخذَ العلم من الكتب ومن أفواه الرجالِ حَجَبهم ذلك عن أن يعلموا أن الله تعالى عباداً تولَّى تعليمَهم في سرائرهم، إذ هو سبحانه المعلِّم الحقيقي للوجود كلِّه، وعلمهُ هو العلم الصحيح الذي لا يشك مؤمنٌ ولا غيرُ مؤمن في كماله، ثم قال بعد كلام: فعلم أن من كان معلِّمه الله كان أحقَّ بالاتباع لمن كان معلِّمه فكره، ولكن أين الإنصافُ! ثم قال بعد كلام: وأينَ تكذيبُ هؤلاء المنكرين لأهل الله تعالى في دعواهم العلمَ من قولِ مولانا علي بن أبي طالب ﷺ : لو تكلَّمْتُ لكم في تفسير سورة الفاتحة لحملْتُ لكم منها سبعينَ وقْراً[1]، فهل ذلك إلا من العلم اللدني الذي آتاه الله تعالى من طريق الإلهام، إذ الفكرُ لا يصِلُ إلى ذلك. قال: وقد كان الشيخ أبو يزيد البسطامي ﷺ يقول لعلماء زمانِه: أخذتُم علمكم ميتاً من ميتٍ وأخذْنا عِلْمنا عن الحيِّ الذي لا يموت.

وكان الشيخ أبو مدين ﷺ يقول لأصحابه إذا سمع أحداً منهم يقول: أخبرني فلان: لا تطعمونا القديد[2]، يريد بذلك رفْعَ همَّة أصحابِه، يريدُ لا تحدِّثوا إلا بفتوحِكم الجديد الذي فتحَ الله تعالى به على قلوبكم في كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ، فإن الواهبَ للعلم الإلهي حي لا يموت، ليس له محلٌّ في كل عصر إلا قلوبَ الرجال فتلخَّصَ من هذا كله أن علومَ أهل الله تعالى مراتب ربانية ومنائح حقانية استنزلها صفاء السرائر وخلوص الضمائر، فاستعصتْ بكُنْهِها على الإشارة، وطفحت على العبارة اهـ.

وإنما استعصَت على الإشارة لأنها أمورٌ شهودية ذوقية، وما كان كذلك لا يستعمَلُ

---

(1) الوِقْر: الحمل الثقيل.

(2) القديد من اللحم: ما قطع طولاً ومُلِّح وجُفِّف في الهواء والشمس.

فيه إلا الإشارة، لأن العبارةَ لا تزيده إلا غموضاً. قال الشيخ علي الروذباري: عَلِمْنَا هذا إشارةً، فإذا صارَ عبارةً خفي اهـ. ومن هنا احتاج أهلُ الله تعالى إلى وضْعِ الإشاراتِ المصطَلَح عليها فيما بينهم فيتكلَّمون بها عند حضور الغيرِ وفي تآليفهم ومصنَّفاتهم لا غير، ولم يضَعُوها لأنفسهم لأنهم يعرفون الحقَّ الصريح في ذلك، والحاملُ لهم على وضعها الشفقةُ على الدخيل بينهم، خشيةَ أن يسمع منهم أو يرى في تأليفهم شيئاً لا يصِلُ إليه فهمُه فينكره فيعاقَبُ بحرمانِ علمه، فلا يعلمه بعد، والعياذ بالله تعالى اهـ نقله في «اليواقيت» عن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه.

قال: ومن أعجبِ الأشياء في هذه الطريق، ولا يوجد إلا فيها، أنه ما من طائفة تحملُ علماً من المنطقيين والنُّحاة وأهل الهندسة والحساب والمتكلمين إلا ولهم اصطلاحٌ لا يعلمُه الدخيلُ فيهم إلا بتوقيف من الشيخ أو من أهل هذا الفن، لابد من ذلك إلا أهل هذه الطريقة خاصةً، فإن المريد الصادقَ إذا دخلَ طريقَهم وما عنده خبرٌ مما اصطلحوا عليه وجَلَسَ معهم وسمع منهم ما يتكلَّمون به من الإشارات فَهِمَ جميعَ ما يتكلمون به، حتى كأنه الواضعُ لذلك الاصطلاح، ويشاركهم في ذلك ولا يستغرب ذلك من نفسه، بل يجدهُ علماً ضرورياً لا يقدِرُ على دفعه، فكأنه لا يزالُ يعلمه ولا يدري كيف حصَلَ له، هذا شأن المريد الصادق، وأما غيره فلا يعرف ذلك إلا بتوقيفٍ منه اهـ.

قلت: وذلك لأن المريدَ الصادق لا يرى إلا ما يسَّره وكل ما أشْكَلَ عليه في طريقه يلهمُه الله تعالى فهمَه، وذلك من ثواب صِدْقه، بخلاف غيره فإنه لا يعرفُ شيئاً من ذلك إلا بتوقيفٍ من شيخ مربٍّ أو أخ مرشدٍ لا غير، وهذا لا يجوز له الخوضُ في علم الطريق حتى يعرف ما اصطلحوا عليه، أي ما اصطلح عليه أهل الطريق فيما يتكلمون به من الإشارات في تأليفهم.

قال بعض الشيوخ: من لم يعرفْ ما اصطلحنا عليه لا يجوز له الخوضُ في طريقنا اهـ. ومن هنا كان الأستاذ القشيري[1] رضي الله عنه يقول: نهوا المريدَ أن يطالع في شيء من كتبِ القوم من غير قراءةٍ على شيخ أو أخ عارفٍ بما اصطلحوا عليه اهـ. وكان بعضُ العارفين

---

(1) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير بن كعب، أبو القاسم، زين الإسلام، شيخ خراسان في عصره، زهداً وعلماً بالدين، كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها سنة (465هـ)، ومن كتبه «التيسير في التفسير» و«لطائف الإشارات».
انظر طبقات السبكي: 3/ 243، والوفيات: 1/ 299، وتاريخ بغداد: 11/ 83، وكشف الظنون: 520.

يقول: نحن قوم يحرم النظر في كتبنا على من لم يكنْ من أهل طريقتنا، وكذلك لا يجوزُ أن يُنْقَل كلامُنا إلا لمن يؤمن به، فمَنْ نقله لمن لا يؤمن به دخَلَ هو والمنقولُ إليه جهنم. وقد صرَّح بذلك أهلُ الله تعالى على رؤوس الأشهاد، وقالوا: من باحَ بالسرِّ استحقَّ القتل اهـ. فإن قيل: هلَّا طوى العلماءُ من أهل الطريق بساطَ التأليف والتصنيف في مثل هذه العلوم وأمسكوا عن الخوض في رقائق الإشارات ودقائق السرِّ المكتوم، لأن الكلام في ذلك ربما ضرَّ بالقاصرين من الفقهاء فضلاً عمَّن عداهم، ربما خفِيَتْ وجوهُ المخرج فيه عن بعض النبلاء، فضلاً عمن سواهم! أمَا كان عندَهم من الحكمةِ والنظر للخلق بعينِ الشفقة والرحمة ما يمنعهم من الخوضِ في ذلك والتقحُّم لمضايقِ هاتيك المسالك!

قلنا: قد ذكر في «اليواقيت والجواهر» عن العارف بالله تعالى سيدي علي بن وفا ﷺ: أنه قيلَ له مثل هذا، فأجاب بقوله ﷺ: يقال لهذا القائل: أليس الذي أطْلَع شمسَ الظهيرة ونَشَر ناصعَ شُعاعها مع إضراره بأبصار الخفافيش ونحوها من أصحاب الأمزجة الضعيفة عليماً حكيماً؟ فإن قال صحيحٌ ذلك ولكن عارَضَ ذلك مصالح أُخَر تربو على هذه المفاسد. قلنا له: وكذلك الجوابُ عن مسألتك، فكما أن الحقَّ سبحانه وتعالى لم يتركْ إظهارَ أنوار شمس الظهر مراعاةً لأبصار من ضعف بصرُه فكذلك العارفون لا ينبغي لهم أن يراعوا أفهامَ هؤلاء المحجوبين عن طريقهم، بل الزاهدين فيها، بل المنكرين عليها، وأطال أعني العارف ابن وفا في ذلك، ثم قال: دوّن المجتهدون من التابعين ومن بعدهم ما استنبطوه من الكتاب والسنة ليستعان بها على هوى النفس وحبِّ الرياسة والجاه وكسْبِ الدنيا به، والمزاحمة على التقرُّب من الملوك والأمراء، والله ما كانَ ذلك قصدَهم، ولكن كان أمرُ الله قدراً مقدوراً. ثم قال ﷺ: فكما أن المجتهدين لم يمنعوا من تدوين العلم الذي يكتسب الناسُ به بعض الدنيا، بل جعل الشارعُ لهم أجر نيَّتهم الصالحة، وإن لم يعمل الناس بذلك، فكذلك العارفون لهم أجرُ نيَّتهم وقصدهم الصالح من نفع المريدين، بما وضعوه من الحقائق الكاشفة لمشكلات علم التوحيد وأمراض القلوب. ثم قال ﷺ: ومن فوائد تدوينهم تلقيحُ قلوب الناظرين في رسائلهم من بعدهم، فيظفروا من تلك المعاني بما يرقيهم ويبعث سحائبَ الرحمة على قلوبهم وعلى ألسنتهم، فتشرق أرضُ قلوبهم بنُور رشدهم، وتحيا بأثر هدايتهم، فنابتْ عنهم رسائلُهم في نصح المريدين من بعد موتهم، وكان تدوينُ معارفهم وأسرارهم من أحقِّ الحقوق عليهم، لكون غيرهم لا يقوم مقامَهم في تدوينِ أدوية أمراض القلوب، وآداب حضراتِ الحقِّ تعالى في جميع الأمور المشروعة، فإن لكلِّ مقام حضوراً وآداباً تخصُّه اهـ.

وإنما أرخينا من عنان القلم في جلبِ هذه الأنقال هنا تتميماً للفائدة المقصودة من هذا المطلب الشريف، وتنشيطاً لِهمَم المريدين على التعلُّق بمرقب هذا العلم السني المنيف، إذ لا محالة أنه العلم النافع، والنورُ الذي يقذفه الله تعالى في قلب من شاء من خواصِّ عباده بلا منازع ولا مدافع. قال الإمام المحدث الصوفي أبو عبد الله سيدي محمد ابن علي الترمذي رحمه الله تعالى ورضي عنه: العلم النافعُ هو الذي تمكَّن في الصدر وتصوَّر، وذلك أن النورَ إذا أشرق في القلب وتصوَّرت الأمورُ حَسَنُها وسيئها وقعَ بذلك ظلٌّ في الصدر، فهو صورةُ الأمور، فيأتي حَسَنها ويجتنب سيئَها، فذلك العلم النافع، فمن نُور القلب خرجتْ تلك العلاماتُ إلى الصدرِ، وهي علامات الهدى والعلم الذي تتعلّمه، وهو علم اللسان، إنما هو شيء قد استودع الحفظ، والشهوة غالبةٌ عليه، قد حاطتْ به وأذهبت بظلمتها ضوءه اهـ.

وهذا العلم ـ أعني العلم النافع ـ هو المرادُ في قول إمام الأئمة مالك بن أنس[1] ﷺ: ليس العلمُ بكثرةِ الروايات وإنما هو نورٌ يقذِفُه الله في القلوب اهـ. قال سيدي أبو عبد الله بن عباد رحمه الله تعالى ورضي عنه: ومنفعةُ العلمِ أن يقرِّب العبدَ من ربِّه وأن يبعده عن رؤية نفسِه، وذلك غاية سعادته ومنتهى طَلَبه وإرادته اهـ. وقد نَقَلَ رحمه الله تعالى في حقيقة العلم النافع عن الإمام الجنيد ﷺ عبارةً وجيزة سنية جامعة لما دارَ عليه مقصدُ علوم الصوفية، وهو معرفة الله تعالى وحسنُ الأدب بين يديه سبحانه وتعالى فقال: قال الجنيد رحمه الله تعالى: العلمُ أن تعرف ربَّك ولا تعدُو قَدْرَكَ اهـ. ثم قال رحمه الله: وهذه العلوم هي العلومُ التي ينبغي للإنسان أن يستغرقَ فيها عمرَه الطويل، ولا يقنع منها بالكثير ولا بالقليل. قال سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ: من لم يتغلغل في هذه العلوم ـ يعني علوم أهل الله تعالى ـ مات مُصِرًّا على الكبائر، وهو لا يعلم اهـ. قال سيدي محمد بن عبد رحمه الله تعالى: وما سوى هذه العلوم قد لا يُحتاج إليها وربما أضرَّ

---

(1) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية. مولده ووفاته في المدينة (93 ـ 179هـ). كان صلباً في دينه بعيداً عن الأمراء والملوك، وُشِيَ به إلى جعفر عم المنصور العباسي فضربه سياطاً انخلعت لها كتفه. ووجه إليه الرشيد العباسي ليأتيه فيحدثه فقال: العلم يؤتى، فقصد الرشيد منزله واستند إلى الجدار. صنف كتباً منها «الموطأ» ورسائل.
انظر الديباج المذهب: 17 ـ 30، والوفيات: 1/ 439، وتهذيب التهذيب: 10/ 5، وصفة الصفوة 2/ 99.

بصاحبها مداومته عليها، وقد استعاذَ رسولُ الله ﷺ من علمٍ لا ينفع[1] اهـ. وقال الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى مشيراً إلى بيان منفعةِ العلم ما نصُّه: العلمُ علمان: علمٌ لا يحتاج منه إلا مثل ما يحتاجُ إليه من القوتِ، فينبغي الاقتصادُ فيه والاقتصارُ على قدْرِ الحاجة، وهو علمُ الأحكامِ الشرعية، لا ينظر منه إلا قدرَ ما تمسُّ الحاجة إليه في الوقت، فإن تعلق ذلك إنما هو الأفعال الواقعةُ في الدنيا، فلا تأخذْ منه إلا قدْرَ عملك، وعلمٌ لا حدَّ له يوقَفُ عنده وهو العلم المتعلِّق بالله تعالى وبمواطن الآخرة، ليستعدَّ العبد لكلِّ موطن بما يليق به اهـ.

[تحذير] لا يكن هذا الذي جلبناه في هذا المحلِّ من الأنقالِ الرادعة لأهل الإنكار والضلالِ ذريعة لأكْلِ لحومِ الأئمة المهتدين الذي هم حملةُ الشريعةِ المطهَّرة وأعلامُ السنة والدين، فإن وبالَ ذلك والعياذ بالله تعالى عظيمٌ ومرتَعُه لا محالة وخيم. قال الإمام أبو القاسم بن عساكر[2] رحمه الله تعالى ورضي عنه: اعلم يا أخي وفَّقني الله وإياك لمرْضاتِه، وجعلنا جميعاً ممن يخشاه ويتَّقيه حقَّ تقاته، أن لحومَ العلماء مسمومةٌ، وعادة الله تعالى في هتكِ أستار منتقصيهم معلومةٌ، وأن من أطلقَ لسانَه في العلماء بالثَّلْبِ[3] ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: الآية 63] اهـ. بنَقْلِ العلامة الحطاب رحمه الله تعالى في أول شرحه لمختصر الشيخ خليلي رحمه الله تعالى ورضي عنه آمين. ومن الأمثال في هذا المعنى قول الشاعر:

لُحومُ أهْلِ العِلْمِ مَسْمُومَةْ ... ومَنْ يُعابِيهِم سَرِيعُ العَطَبِ

وليكنْ هذا القدرُ فيما أردْنا في هذا المطلب إيراده مما ينتفع به إن شاء الله تعالى كلُّ محبٍّ راغب في طريق الإرادة، وأعوذ بالله تعالى أن أدعي فيما أتيتُ من هذه النقول إشرافاً على شيء من أذواق أصحابها الأكابر الفحول، وإنما هو شيء أوردتُه على حسبِ ما تعلَّقته، ليكون لي ولمن وافقني في تعقله تذكرةً وتبصرةً في الغرض الذي قصدتُه، والمرمى

---

(1) وهو حديثه ﷺ «إني أعوذ بك من علم لا ينفع»، رواه مسلم في (الذكر: 73)، وأبو داود في (الوتر: 32)، والترمذي في (الدعوات: 68)، وابن ماجه في (المقدمة: 23).

(2) هو علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي، المؤرخ الحافظ الرحالة. كان محدث الديار الشامية، مولده ووفاته في دمشق (499 ـ 571هـ). وله مؤلفات كثيرة منها «تاريخ دمشق الكبير» ويعرف بتاريخ ابن عساكر وغيره.
انظر ابن خلكان: 1/ 335، والبداية والنهاية: 12/ 294، وطبقات الشافعية: 4/ 273، ومفتاح السعادة: 1/ 216.

(3) الثلْب: الانتقاص، وثَلَبَه: عابه وانتقص منه.

الذي انتحيته، وجلَّتْ علوم أهل الله تعالى أن يتصرَّف فيها ببضاعة العقل وخصوصاً في زمن انطمست فيه معالم الخير، واندرست فيه مراسم الفضل، واستولت على أهله إلا من عَصَمه الله بفضلِه عوارِضُ الهوى، فارتكموا[1] في أودية الضلالِ والجهل، ففي واسمعي، وإياكِ أعني يا جاره، وليس إلى غير نفسي يُساق حديثُ هذه الإشارة، وقديماً قال الأستاذ السهروردي ﷺ بعد أن تكلَّم في بيان شرف علم الطريق وشفوف مرتبته وعلوِّ قدرِه ومنزلته ما نصُّه: وقد اندثر كثيرٌ من علومهم كما انطمسَ الكثيرُ من حقائق رسومهم. ثم قال: وقالَ الجنيد ﷺ: علمنا هذا طوى بساطه منذ كذا سنة، ونحن الآن نتكلَّم في حواشيه اهـ. ثم قال: هذا القولُ من الجنيد في وقته مع قرب العهدِ من علماء السلف وصالحي التابعين، فكيف لنا ذلك مع بعد العهد وقلة العلماء الزاهدين والعارفين بحقائق الدين اهـ.

وأقول: هذا من الأستاذ السهروردي في زمانه الصالح المستضاء فيه بغررِ أمثاله القادة الأعيان، فأنَّى لنا ذلك ونحن في آخر ذَنَبِ الأزمان، مع ما غلب من استيلاء الغفلة واستحواذ الشيطان، وتراكم ظلم الغواية والخذلان.

اللهم إنا نسألكَ العافيةَ الكاملة الدائمة الشاملة بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

المطلب الثاني

في بعض ما يشير إلى حقيقة الأدب على جهة الإجمال وبيان منشئه ومكانته من طريق أهل الكمال

لما كانت هذه الطريقةُ الأحمدية مشتملةً من محاسن الآداب على ما لا تكاد تحيطُ به العقود العددية، وكان غالبُ مسائلها التي ينكرها البلداء الأغبياء مبنياً على كمال الأدب وتحقيقه في نظر النبهاء الأذكياء، أحببت أن يكونَ هذا المطلبُ من جملة ما يتقدَّم في هذا التقييد أمام جميع مسائله، ليكون كالغِرَّة في وجْهِ مقاصده ووسائله.

فأقولُ وبالله التوفيق والهداية إلى مسالك الإيضاح والتحقيق:

اعلم أن المشايخَ الكاملين والعارفين المحققين الواصلين قد اتفقوا على أن الأدب في طريق أهل الله تعالى آكدُ كلِّ أمرٍ وجُمَّاع كلِّ خير وبِرٍّ، ونظامه أنواعُ الطاعات

---

(1) ارتكموا: اجتمعوا.

والأعمال وملاكُ جميعِ المقامات والأحوال، ونصُّوا على أن من لازَمَ سلوكَ سبيله في جميع ذلك وصَلَ واتَّصل، ومن حادَ عن نهجه في شيء منه انقطعَ وانفصل، وذلك لأن الطريقَ كما قيل: آدابٌ كلُّها لكلِّ وقت أدبٌ، ولكل حال أدبٌ، ولكل مقام أدبٌ، فمن لَزِمَ الأدبَ يبلغْ مَبْلَغَ الرجال، ومن حُرِمَ الأدب فهو بعيدٌ من حيث يظن القربَ، مردودٌ من حيث يرجو القبول اهـ. إلى غير هذا مما سنورده إن شاء الله تعالى في هذا الباب من صريح عباراتهم وواضح إشاراتهم.

فأما ما يشيرُ إلى حقيقة الأدب عند أهل الله تعالى فالأصلُ الذي اعتمده المشايخ رضوان الله عليهم فيما عبَّروا به عن حقيقته هو ما في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله: «أدَّبني رَبِّي فأَحْسَنَ تأديبي، ثم أَمَرَني بمكَارِمِ الأخْلاقِ» الحديث. قال في «العوارف»: الأدبُ تهذيب الظاهر والباطن، فإذا تهذَّب ظاهرُ العبدِ وباطنه صارَ أديباً، قال: وسميت المأدبةُ مأدبةً لاشتمالها على الأشياءِ الحسنةِ، فلا يتكاملُ الأدب في العبد إلا بتكامُلِ مكارم الأخلاق فيه اهـ.

وقال الشيخ محيي الدين ﷺ: الأدبُ جُمَّاع الخير، وهو ينقسم إلى أربعة أقسام في اصطلاح أهل الله تعالى.

القسم الأول أدبُ الشريعة، وهو الأدبُ الإلهي الذي يتولَّى الله تعالى تعليمَه بالوحي والإلهام، به أدَّبَ الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم، وبه أدبنا ﷺ، فهم ـ يعني الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام ـ المؤدَّبون والمؤدِّبون، وفي الحديث «إنَّ الله أدَّبني فأحسَنَ تأديبي».

القسم الثاني أدبُ الخِدْمَة، وهو ما اصطلحت عليه الملوكُ في خدمة خدمها، وملكُ أهل الله هو الله تعالى. وقد شرع لنا كيفية الأدب في خدمته، وهو معاملتنا إياه فيما يختصُّ به دون خلقه، فهو خصوصٌ في خدمته، وهو معاملتنا إياه فيما يختصُّ به دون خلقه، فهو خصوصٌ في أدب الشريعة لأن الشريعةَ جامعةٌ لحقِّ الله تعالى وحقِّ الخلق.

القسم الثالث أدبُ الحقِّ، وهو الأدب مع الحقِّ في اتباعه عندَ كلِّ من يظهر عنده ويحكم به، فترجع إليه وتقبله ولا تردُّه ولا تحملك الأنفةُ إن كنتَ ذا كِبَرٍ في السنِّ أو المرتبة أن لا تقبلَ الحقَّ ممن هو أصغرُ منك سِنًّا أو قدراً، وهذا هو الإنصاف.

القسم الرابع أدبُ الحقيقة، وهو ترْكُ الأدب بعنائك، وردُّ ذلك كله إلى الله تعالى اهـ.

قلت: وقوله «ترك الأدب الخ» المرادُ تركُ شهودِهِ لا ترْك وجودِه، كما هو مصطلح

الشيخ في جميعِ التروك المترجم لها في كتابه «الفتوحات المكية»، والله تعالى أعلم. ونقل بعض شراح الرسالةِ عن بعضِهم في حقيقة أدبِ أهل الله تعالى أنه ضَبْطُ الحواس، ومراعاة الأنفاس، والاشتغالُ بالتفكُّر في مصنوعات الله تعالى اهـ. ونُقل في «العوارف» عن عبد الله ابن المبارك[1] أنه قال ﷺ: قد أكثر الناسُ في الأدب، ونحن نقولُ الأدبُ معرفةُ النفسِ اهـ. ثم قال: أثرُه هذه إشارة منه رحمه الله تعالى إلى أن النفس منبعُ الجهالات وتركُ الأدبِ من مخامرة الجهل، فإذا عرفَ العبدُ النفسَ صادفَ نورَ العرفان على ما ورد: من عرَفَ نفسه فقد عَرَفَ ربَّه، ولهذا النور لا تظهر النفسُ بجهالةٍ إلا ويقمَعُها بصريح العلم، وحينئذ يتأدب اهـ.

وفي كلام غير واحدٍ من المشايخ الكبار في تفسير هذا الخبر ما يوضِّح ما ذكره في «العوارف» عن سيدنا عبد الله بن المبارك مع ما فسّره به، قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى في فتاويه ما معناه: من عَرَفَ نفسه بالضعْفِ والافتقار إلى الله تعالى والعبودية له عرفَ ربَّه بالقوةِ والربوبية والكمال المطلقَ والصفات العليا اهـ.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله رحمه الله تعالى في «لطائف المنن»: سمعتُ شيخنا أبا العباس المرسي ﷺ يقولُ: في هذا الحديث تأويلان أحدُهما: من عرف نفسه بِذُلِّها وعجزها وفقرها عَرَفَ الله بعزِّه وقدرتِه وغناه، فتكونُ معرفةُ النفس أولاً، ثم معرفة الله من بَعْد. والثاني: من عرف نفسَه فقد دلَّ ذلك منه على أنه عرفَ الله قبلُ، فالأول حالُ السالكين، والثاني حال المجذوبين[2] اهـ.

وقال الشيخ أبو طالب المكي[3] ﷺ في «قوت القلوب»: معناه إذا عرفت صفات

---

(1) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء، التميمي، المروزي أبو عبد الرحمن، الحافظ، شيخ الإسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً، وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. كان من سكان خراسان، ومات بهيت منصرفاً من غزو الروم سنة (181هـ).

انظر تذكرة الحفاظ: 1/253، وحلية الأولياء: 8/162، وشذرات الذهب: 1/295، والرسالة المستطرفة: 37.

(2) المجذومون: المنقطعون.

(3) أبو طالب المكي: محمد بن علي بن عطية الحارثي، واعظ زاهد، فقيه، من أهل الجبل بين بغداد وواسط، نشأ واشتهر بمكة، ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال، وسكن بغداد فوعظ فيها، فحفظ الناس عنه أقوالاً هجروه من أجلها، وتوفي ببغداد سنة (386هـ). =

نفسك في معاملة الخلق وأنك تكره الاعتراضَ عليك في أفعالك، وأن يُعاب عليك ما تصنع عرفت منه صفات خالقك، وأنه يكره ذلك، فارضَ بقضائِه وعامِلْه بما تحبُّ أن تعامَلَ به اهـ. وقول الشيخ أبي طالب هذا في كتابه «القوت» الذي هو مدوَّنةُ الصوفية أصرحُ في المراد، وإن كانت هذه الأقوالُ كلُّها تتسابقُ إلى المرْمَى الذي قصدناه تسابُقَ خيلِ الطرادِ والله تعالى أعلم، وقد ذكر هذه الأقوالَ كلَّها الشيخ جلال الدين السيوطي[1] ﷺ في جوابه عن هذا الحديث بعد أن قال فيه: إنه ليس بصحيح، ونقل عن النووي أنه قال فيه في فتاويه: ليس بثابت. وذكر عن الزركشي أنه قال فيه في الأحاديث المشتهرة. ذكر ابن السمعاني أنه من كلام يحيى بن معاذ الرازي اهـ. رجع.

وقال ابن عطاء: الأدب الوقوفُ مع المستحسنات، قيل له: ما معنى ذلك؟ قال: أن تعامل الله سرًّا وعلانيةً بالأدبِ، فإن كنتَ كذلك كنتَ أديباً وإن كنت أعجمياً، ثم أنشد:

إذا نَـطَـقَـتْ جـاءَتْ بِـكُـلِّ مَـلِـيـحـةٍ ... وإنْ سَـكَـتَـتْ جَـاءَتْ بِـكُـلِّ مَـلِـيـحِ

اهـ. ذكره في «العوارف»، وما أحسنَ قول بعضهم في الأدب: الأدبُ أن يؤدب العبدُ ظاهرَه وباطنه، أما ظاهرَه فبالشريعةِ بأن يتبعَ السنةَ قولاً وفِعلاً، وأما باطنه فبالحقيقة بأن يرضى بما يردُ عليه من الله ويتلقَّاه بالقبول، ويرى أن الكلَّ نعمةٌ عليه من الله تعالى، إما عاجلةٌ وإما آجله، فالعاجلة بلوغُ النفسِ محبوبها عاجلاً، والآجلةُ كأنواع المضارِّ والمكاره، فإنه يثاب عليها آجلاً ويحطّ بها عنه من خطيئاتِه، فهي نعمةٌ بهذ الاعتبار اهـ، وصاحبُ هذا الأدب هو المخصوصُ برؤية النعمِ في طيِّ النقم، فيرى نِعمَ الله تعالى عليه ظاهرةً وباطنة.

قال العارفُ بالله سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي ﷺ في حاشيته على شرح الشيخ أبي عبد الله السنوسي لعقيدته الصغرى ما نصُّه: قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى

= انظر وفيات الأعيان: 1/ 491، وميزان الاعتدال: 3/ 107، وتاريخ بغداد: 3/ 89، ولسان الميزان: 5/ 300.

(1) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلاء الدين، إمام مؤرخ حافظ أديب، له نحو (600) مؤلف. نشأ في القاهرة يتيماً، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل، فألف أكثر كتبه، وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه المال فيرده. مات سنة (911هـ).
انظر شذرات الذهب: 8/ 51، وآداب اللغة: 3/ 228، والضوء اللامع: 4/ 65، وحسن المحاضرة: 1/ 188.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: الآية 20] كلّ ما يتلذّذ به البرايا نعمةٌ ظاهرة، وما شَقَّ عليهم من البلايا نعمةٌ باطنة اهـ. بلفظه. وحاصلُ هذه العبارة التي عبَّر بها هؤلاء المشايخ الكمل ﷺ في بيان حقيقة الأدب يرجعُ إلى أن المرادَ بالأدب ما تحسنُ به حالة العبد فيما بينه وبين الله تعالى، وفيما بينه وبين ملائكته سبحانه وكتبه ورسله وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم وأنواعهم، وعلى هذا فلا يخرجُ الأدبُ عند التأمُّلِ عن الأقسام الأربعة التي ذكرها الشيخ محيي الدين ﷺ، ولا تخرج هذه الأقسامُ الأربعة عن قسمين: أدب الفقهاء وأدب الصوفية، ويندرج الأولُ منهما في الثاني، فتصير إلى قسمٍ واحدٍ حسبما أفصَحَ به في «جواهر المعاني» ونصُّ كلامه فيه رحمه الله تعالى: والأدبُ عند الفقهاءِ عبارةٌ عن القيام بما بعدَ الواجباتِ والسنن من الفضائلِ والرغائب المتعلّقة بأحوالِ الإنسان من نومٍ ويقظة وأكل وشرب وذكرٍ ودعاء ونحو ذلك. وعند الصوفيةِ عبارةٌ عن جميع خِصال الخَير وأوصافِ البِرّ، فهو وصفٌ جامع لصفاتٍ مجيدة وأخلاق حميدة، تناسبُ أوصافَ العبودية وجلال الربوبية، من جمعها كان أديباً متأدّباً مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ. ثم قالَ: والأدبُ بالمعنى الأول مندرجٌ في هذا اهـ. وبهذا يعرف أن الحديث السابق وهو قوله ﷺ **«أدبني ربي فأحسن تأديبي، ثم أمرني بمكارم الأخلاق»** أصلٌ جامع لجميع هذه العبارات، مستوفٍ لسائر هذه التقسيمات والإشارات، ويعلم أن الأدبَ هو الجمع لمكارم الأخلاق والفِعال ومحاسن الصفات والخلال، على أتمّ ما يمكن من وجوه الكمال في حقّ الله تبارك وتعالى، وفي حقّ عبيده على التفصيل والإجمال، مع الوقوف في ذلك كله عند الحدّ المحدود فيه شرعاً، فلا يرتكب في شيءٍ منه آداب العامة التي تبعدهم عن الله تعالى ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: الآية 104] وقد كان سيدنا ﷺ كما في «جواهر المعاني» لا يحب ارتكاب شيء منها أصلاً اقتصاراً منه ﷺ على ما وَرَدَ في الشريعة، وتخلُّقاً بأخلاق السنة الرفيعة، وإذا عرفَ أن هذا الحديث الشريف أصلٌ لجميع العبارات في الأدب على ما قرر.

وعلم من ذلك أن الأدبَ هو الجمع لمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات على ما بيّن وسطر، فيجبُ أن يعلم أن منبع جميع الآداب المرضية السجايا الصالحة المركبة في طبائع النفوس الزكية، ولا شكَّ أن السجية باتفاقٍ من أهل العلم والنظر هي فعلُ الله تعالى المحض، الذي ليس شيءٌ منه في طوق البشر، ولكنَّ الله تعالى بنافِذ قدرته وصالح مشيئته وبالغِ حكمته جَعَل لمن أَهَّله من عباده للهدى والصلاح وهيَّأه بفضله وكرمه للرشد والفلاح، استخراجَها بطريق الرياضة والتربية واكتسابَها من جهةِ المجاهدة والتزكية، وذلك

كماقاله في «العوارف»، لأن الله تعالى خَلَقَ الإنسانَ وهيَّأه لقبول الصلاح والفساد، وجَعَلَه أهلاً للأدب ومكارم الأخلاق، ووجودُ الأهلية فيه كوجود النار في الزناد، ووجودِ النخلِ في النوى، ثم إن الله تعالى بقدرته ألهمَ الإنسانَ، ومكَّنه من إصلاح النوى بالتربية، إلى أن يصير نخلاً، والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نارٌ، كما جعل سبحانه في الإنسان صلاحية الخير والشرِّ أحالَ الإصلاح والإفساد عليه، فقال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: 7 ـ 8] فتسويتها بصلاحيتها للشيئين جميعاً، ثم قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: 9 ـ 10] فإذا تزكَّت النفس تدبرتْ بالعقل واستقامت أحوالُها الظاهرة والباطنة وتكوَّنت الآداب اهـ. وهذا الذي ذَكَره من أن الله تعالى أحالَ الإصلاحَ والإفساد على الإنسان، كما دلَّت عليه الآية الكريمة، هو المذهب الحقُّ والقول الأصحُّ من أن تبديل الأخلاق ممكن مقدورٌ عليه، خلافاً لمن منع مستدلاً بظاهر قوله تعالى ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الرُوم: الآية 30] وبظاهر حديث «فرَغَ رَبُّكَ مِنْ أربع» الحديث[1]، واستدلَّ لهذا القول ـ أعني القول بأن تبديلَ الأخلاق ممكن الخ ـ بهذه الآية، أعني قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ وكذا بقوله سبحانه وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: الآية 6] فقد روي عن ابن عباس[2] رضي الله عنهما ما أنه قال في تفسيرها: فقِّهوهم وأدِّبوهم اهـ. ومما استدلَّ به له أيضاً قوله ﷺ «حَسِّنُوا أخْلَاقَكُم الخ»[3] وانظر «العوارف».

نعم قد تقعُ الآدابُ في حقِّ بعض الأشخاص كما قام فيها أيضاً من غير تزكية ولا رياضة، لقوةِ ما أودع الله تعالى في غرائزهم. قال: ومن يحتاج إليها من الناس فإنما يحتاجُ إليها لنقصان قوَّة أصولها في الغريزة، ولهذا احتاج المريدون إلى صحبة المشايخ لتكون الصحبة والتعليم عوناً على استخراج ما في الطبيعة إلى الفعل اهـ. ملخصاً.

ومدار التربية والتزكية في طريقتنا هذه المحمدية الشريفة المرضية على إقامة الورد

---

(1) تمام الحديث «الخلق والخلق والرزق والأجل».

(2) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس، حبر الأمة، الصحابي الجليل. ولد بمكة ونشأ في عصر النبوة، فلازم النبي ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع علي الجمل وصفين، وكف بصره في آخر عمره، سكن الطائف وتوفي بها سنة (68هـ)، وله (1660) حديثاً.
انظر الإصابة: ت(4772)، وصفة الصفوة 1/314، وحلية الأولياء 1/314، والمحبر: 289.

(3) وثمة أحاديث كثيرة رويت عن النبي ﷺ تدعو إلى تحسين الأخلاق، ومكارم الأخلاق، منها: «إن من أحبكم إليّ أحسنك أخلاقاً»، «إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً»، «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً»، وكان ﷺ يدعو «واهدني لأحسن الأخلاق». وكلها في الكتب الصحيحة.

الأصلي المعلوم الذي لا يصحُّ الدخولُ فيها بدونه لأحد من الخصوص ولا من العموم، وكذا توابعه من الأذكار المشمولة باللزوم معه، وهي الوظيفة المعروفة وذكر الهَيْلَلةِ[1] بعدَ عصرِ يوم الجمعة بالمحافظة في جميع ذلك على الشروط المشروطة، والآداب التي هي بغاية الحسن ونهاية الكمال منوطة[2]، وآكدُ الشروط وأعظمُها المحافظة على الصلوات الخمس بآدابها على الحدود المحدودة لها شرعاً بقدْرِ الإمكان واستكمال شروطها وآدابها وتمام جميعِ ما لها من الأركان، ثم عمارةُ ما يقدر على عمارته من الأوقات والساعات بالصلاة على النبي ﷺ خصوصاً بصلاة الفاتح لما أُغلق التي هي من أسمى الذخائر، وأسنى البضاعات، على طريق المحبة والشكر والاعتماد على الفَضْل المحضِ الذي ليس إلا عليه في بساط التحقيق المعول من غير التزام خلوةٍ ولا كثرة مجاهدة ولا غير ذلك مما اصطلح عليه في التربية من بعد الصدر الأول، إذ هذه هي طريقة سيدنا رضي الله عنه التي سلكها وَأمره بالتسليك بها سيد الوجود ومنبع الإمداد والجود ﷺ.

وفي «جواهر المعاني» أنه ﷺ بعدما أعلم سيدنا رضي الله عنه بأنه هو الواسطة بينَه وبين الله تعالى والممِدُّ له على التحقيق، وصرَّح له بأنه هو كفيله ومربِّيه دون غيره من مشايخ الطريق، وأخبره أنه لامنة لواحدٍ منهم عليه، لأن جميعَ ما يصِلهُ من الله تعالى فعلى يده ﷺ وبوساطته ومنه إليه قال له في وصيته التي أوصاه بها: الزَمْ هذه الطريقةَ من غير خلوةٍ ولا اعتزالٍ عن الناس حتى تَصِلَ مقامكَ الذي وعدتَ به وأنت على حالك من غير ضيقٍ ولا حرجٍ ولا كثرة مجاهدة اهـ. ويرحمُ الله تعالى العارف البوصيري[3] في داليته رضي الله عنه حيث قال:

والفَضْلُ ليْسَ ينالُه مُتَوَسِّلٌ	بِتَوَرُّعٍ حَرِجٍ ولا بتزهُّدِ
إنْ قال ذاكَ هو الدواءُ فَقُلْ له	كُحْلُ الصَّحيحِ خلافُ كُحْلِ الأرْمَدِ
يمشي المصرِّفُ حيثُ شاءَ وغيرُه	يمشي بحُكْم الحجْرِ مَشي مُصَفَّدِ
مَنْ كان منكَ بِمَنْظَرٍ وبِمَسْمَعٍ	الحالُ مِنْهُ على حديثٍ مُسْنَدِ

---

(1) هَيْلَل الرجلُ: قال: لا إله إلا الله.

(2) منوطة: معلَّقة.

(3) البوصيري: محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين، أبو عبد الله، شاعر حسن الديباجة، مليح المعاني، نسبته إلى بوصير من أعمال بني سويف بمصر، وأصله من المغرب، ووفاته بالاسكندرية سنة (696هـ).

انظر فوات الوفيات: 2/ 205، وخطط مبارك: 7/ 70، والوافي بالوفيات؛ 3/ 105، وآداب اللغة: 3/ 120.

وقد أشار إلى ذلك العلامة الشهير العارف الكبير سيدي عبيدة بن محمد الصغير مؤلف كتب «ميزاب الرحمة الربانية» في لاميته التي امتدح بها سيدنا ﷺ فقال:

بِـلا خُـلْـوةٍ رَبَّـى ورَبُّـوا بـخـلْـوةٍ ... فشـتَّـانَ مـا بـين الـيـزيـدَيْـنِ مَـنْـهـلا

ومرادنا من كون التربية في هذه الطريقة خاليةٌ عن التزام الخلوة والاعتزال عن الناس ونحو ذلك مما فيه تشديدٌ على النفس، وتضييقُ التنبيه على أن التربية فيها جاريةٌ على طريقة السلف الصالح من الصدر الأول التي هي الطريقة الأصلية، وهي طريقة الشكر والفرَحِ بالمنعِم سبحانه والرياضة القلبية، لا على الطريقةِ الأخرى التي استَنْبَطها واصطلحَ على التسليك بها من بعد القرون الثلاثة نظراً لما اقتضتْه العوارضُ الوقتية، وهي طريقة المجاهدة والمكابدة والرياضة البدنية، وفرق بينهما، فإن السيرَ في الأولى سيرُ القلوب، وفي الثانية سير الأبدان. ومعلومٌ أن الأهمَّ الذي عليه المدارُ في طريق الوصول إلى حضرة الله تعالى هو سيرُ القلوبِ بالنظر في أحوالِ القلب وما يصلحُه وما يفسده على سنن الاعتدال والتقييد بالشريعة المطهرة والسنة الشريفة المنورة، لا على التضييقِ على النفس بالتقشُّف والاستخشان في المأكل والملبس والكدِّ والتعب من غير التفاتٍ إلى أحوال القلب على الحدِّ الذي تقرَّر، وإنما آثر من بعد القرون الثلاثةِ التسليك بالطريقة الثانية، لما كثرتْ الأهواءُ وتشعبت الآراء، فاستعانوا بذلك على تطهير النفس وتزكيتها ليستنير القلب ويتخلَّصَ من كدورات الهوى، وقد حذَّروا مع ذلك من الغلوِّ فيه بالخروج عن حدِّ الاتباع إلى حدِّ الابتداع.

قال الشيخ أبو عبد الله بن عباد: وليس طريقُ تزكية النفس بقطعِ جميع الأرفاق عنها، وردها إلى الاجتزاء بأكل الحشيش والنخالة، والمبالغة في التقشّف والتقلّل مع قطع النظر عن أحوال القلب وهِمَمِه وقُصوده وإرادته وترك الالتفاتِ إلى ما يمدح منها وما يذُّم، فذلك كله غلوٌّ وبدعة، وقد غلَطَ في هذا طوائفُ من الناس عملوا عليه في رياضتهم ومجاهداتهم ولم يقصدوا بذلك إخلاصَ العبودية لربّهم، فأداهم ذلك إلى اختلالِ عقولهم وانحلال قوى أبدانهم، ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة، وذلك لجهلهم بالسنة وما كان عليه سلف الأمة اهـ. وفرق أيضاً بين نتائجها، ويكفي أن الفتح في الأولى هجوميٌّ لم يحصل من السالك تشوُّف إليه بخلافه في الثانية، وشتانَ ما بينهما، وسيأتي لنا من مزيد بَسْطِ الكلام في التربية والتزكية بهذه الطريقة الأحمدية ما تقرّ به العيون وتبتهجُ به الأرواح، وتستنير به القلوب، بفضل مولانا الملك الفتاح.

فبالسلوك على هذا السبيل الأحمد والطريق الأقصد يفيضُ في قلبِ السالك من الأنوارِ الوهبية ما يحملُه على محاسنِ الآداب، ويقف به من أداء الحقوق الحقية والخلقية

على عين الصواب، فيصيرَ أديباً بإفاضة فيضِ كرم الله تعالى ومَنِّه وتوفيقه الجميل وعونه هذا، ولسنا نريدُ بكون التربية في طريقنا من غير خلوةٍ ولا مجاهدة، أنا لا نأخذ النفسَ بشيء من ذلك، ولا نعرِّج في طريق السير والسلوك على شيء مما هنالك كما قد يتبادرُ لذهنِ الضعيف الفهمِ أو يحمله عليه المتعسِّف المولع بالاستناد إلى الوهم كلا ومعاذ الله، وإنما مرادُنا أن لا نلتزم في سلوكنا الرياضة بطريقة المجاهدة على القانون الذي استنبطه واصطلح عليه من بعد القرون الثلاثة، كما هو مقرَّر في محالِّه، وإلا فالأخذ في الجملة بما ذكر من الخلوة والصمْتِ والاعتزال وغير هذا مما دلَّت عليه السنة المطهرة من سني الخِلال مؤكَّدٌ عند شيخنا ﷺ غاية التأكيد، فرغَّب فيه غايةَ الترغيب، ومن ترغيبه فيه وحَضِّه على العمل به ما في «جواهر المعاني» في الرسالة التي كتب بها ﷺ إلى بعض فقهاء زرهون[1] عمرها الله بذكره جواباً عن كتابٍ كتب به إليه ﷺ ولفظه فيه ﷺ: وأما ما ذكرت من صعوبة انقيادِ نفسِكَ عليك لأمر الله ودوامها على التخبُّط فيما لا يرضى، فتلك عادةٌ جارية أقامَها الله تعالى في الوجودِ لكل من أهملَ نفسَه وتَركَها جاريةً في هواها أن لا يسهِّل عليه سبيلاً إلى القيام بأمر الله، بل لا يرى منها إلا الخبثَ والمعاصي والخروج عن أمر الله، ومن أرادَ تقويمَ اعوجاجِ نفسِه فليشتغلْ بقمع نفسِه عن متابعة هواها مع دوام العزلةِ عن الخالقِ[2] والصمت وتقليل الأكل والإكثار من ذكر الله تعالى بالتدريج وحضور القلب مع الذكر وحصر القلب عن الخوض فيما يعتاده من الخوض في أمور الدنيا وتمنِّيها وحبِّها، وحصر القلب عن الخوض في جميع المرادات والاختيارات والتدبيرات، وعن الخوض في أخبار الخلق وذمِّ القلب عن الجزع من أمر الله تعالى، فبدوام هذه الأمور تتزكَّى النفسُ وتخرج من خُبثها إلى مطابقة أمر الله، وإلّا فلا ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: الآية 23] والشيخ في هذه الأمور دالٌّ ومعين لا خالق ولا فاعل، إذ الخلقُ والفعل لله، والدلالة للشيوخ والسلام اهـ. بلفظه.

ومما وقفتُ عليه من كلامه ﷺ في هذا المحط بخطِّ يمينه المباركة في جوابٍ لبعض خاصَّةِ الخاصة من أصحابه ﷺ، ومنه نقلت ما نصُّه: أما ما ذكرتَ من العوارضِ الحائلةِ بينَكَ وبين ما تقصدُ من عملِ الآخرة، فاعلمْ أن سببه ما تمكَّن من نفسِكَ من الميْلِ إلى الراحات، واقتحام ما تقدِرُ عليه من الشهواتِ، فإنها سمعت أن مقامَ المعرفة بالله تعالى حاصلٌ لها بلا تعبٍ فمالت إلى ما يقتضيه هواها من الراحات، فلو أنها

---

(1) زرهون: جبل بقرب فاس، فيه أمة لا يحصون. انظر معجم البلدان: 3/ 140.

(2) كذا، ولعله «العزلة عن الخَلْق».

عَلِمَتْ أن مقصودَها من المعرفة بالله لا يحصلُ لها إلا إذا جدَّت فيما هو من أمر الطريق معروف، وفارقتْ كلَّ مألوفٍ لأجابت إلى ما يراد منها من المجاهدة، لأنها تريدُ الظفرَ بمطلوبها، فلما سمعت أنها يحصلُ لها دون تعب لم تجبْ إلى ما يراد منها من المجاهدة ومفارقة الحظوظِ، فكل عارضٍ لابد من ظهور حكمه، فمن ظنَّ أن قيامَ العارض بالقلب على حاله يمكن معه ظهور نقيض حكمه فقد جهلَ أمر الله عز وجل، ولم يحصل له من ظنه إلا التعب لا غير، ومثال العارض كالسحاب في السماء، مثال ما وراءه من المجاهدة كالشمس، فإذا صحا السماء من السحاب طلعت الشمس، وإذا وَقَع السحاب دونها حالَ بيننا وبينها، فلا يمكن وقوعُ السحاب في السماء وطلوع الشمس ضاحيةً من ورائه، وتعقَّلْ هذا وتأمله تستفدْ منه علماً عظيماً، وحيث قامت العوارضُ بالقلب من الميل إلى الراحات واقتحام ما تقدرُ عليه من الشهوات امتلأ القلبُ بصور الأكوانِ والميل إليها، وحيث وقعَ ذلك تمكن تخليط القلب في أمر الهوى والبعد عن حضرة القدس وعن جميع مقتضياتها، فلا تزولُ منه هذه الأمور إلا بواردِ الفتح الأكبر الذي يفيض معه بحر المعرفة بالله وإلّا فلا، فلا تطمعْ أن يخلو قلبُك من الظلام والكَدرِ ما دامت في قلبك هذه العوارض، وحضرة الحقِّ جارية على النسب لا تخرج عن نسبها.

واعلمْ أن مراد الله منك في هذا الوقت ما أنتَ فيه، فوقوفك بعبوديتك فيما أقامك الله فيه في وقتك هو أولى بكَ، وأمكنُ من رمي فكرك إلى مطلب قَطَعَتْك دونه العوارضُ، ولم تحصلْ منه على طائل، فسلِّم الأمرَ إلى الله واعلم أن ما تطلبُه له أجلٌ ومقدارٌ إذا جاء وقته جاء ولا يتعجل بطلب تعجيلك، وإن رمتَ الخروجَ عما أنت فيه إلى تنوير القلب وصفائه فاذهبْ وانقطعْ عما سوى الله تعالى في مكانٍ لا ترى فيه أحداً، والزِمْ نفسَك إخراجَ مرادِك مما سوى الله تعالى، واستغرقْ أوقاتك في الذكر المفرد ترَ العجبَ من تمكين الصفاء، فإن لم تساعفْكَ نفسُك على هذا فاعلم أن مرادَ الله منك ما ذكرنا، واتركْ عنك ما يتغلغل في قلبك من خواطرِ السوء المفضية إلى سوء الأدب مع الله تعالى. ومعناه بطلبك أموراً لا نسبة لها فيك، بل ليس فيك إلا نسبة نقائضها:

لَقَدْ رُمْتَ الحَصَادَ بِغَيْرِ زَرْعٍ يَغُوصُ البَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللآلي

وهذا القدرُ كافٍ إن فهمتَ اهـ. من خطِّ سيدنا ﷺ بلفظه في الجواب المذكور.

وفي هذا القدرِ كفايةٌ فيما يشير إلى ما ذكرناه ويحقق ما قدمناه من أن المرادَ بكون التربية في هذه الطريقة الأحمدية خاليةٌ عن المجاهدة والرياضة المصطلح عليها عند من بعد الصدر الأول، هو أن المعتمد فيها ما تقدَّم شرحُه من الرياضة القلبية والسلوك على الطريقة

الأصلية وذلك لا ينافي العملَ بما دلَّت عليه الشريعة المطهَّرة واقتضته آدابُ السنة في الجملة من الصمت والاعتزال عن الناس ونحو ذلك، مع المحافظة في ذلك على عدم الخروج فيه إلى حدِّ التفريط فيه أو الإفراط والتحرُّز مما يشير إلى رؤية النفس من إظهار التعزُّز والانبساط، فحقِّقْ هذا المناطَ فإنه مهمٌّ جداً، والله الموفق.

وأما ما عليه المدارُ في التزكية والتصفية فيما عدا هذه الطريق من طرق الأولياء والأخيار والمشايخ الكبار، فإنه مذكورٌ في غير ما كتاب من كتبهم التي ألَّفوها في هذا الباب، وبالجملة فالاتفاقُ واقعٌ من المشايخ الكاملين والعارفين الواصلين على أن مطالعة كتب القومِ وسماع الحكايات والمواعظِ في الأدب لا تعملُ وحدَها في النفس كبيرَ تأثيرٍ يُرجى نفعُه في المنقَلَب، وإنما ينفع في ذلك بفضلِ الله تعالى السلوكُ بالأعمال المشروعة الفاضلة، مع الاستعانة فيه بهمم العارفين المقرَّبين الموصوفين بالمشيخة الكاملة، فلا محالة أن النفس إذا أخذت بذلك على بابه، واستعانت فيه بهمم سادات هذا الشأن وأربابه، نبعَ منها ماءُ الحياة الهنية، وتحلَّت بحلية أهل المراتب السنية، فقامت بواجب آداب جميع الحضرات أتمَّ قيامٍ، واستعدَّت لتوالي الإمدادات الوهبية الفائضة عليها من حضرة الملك العلّام، فتقرَّ عينها من فضل الله تعالى ببلوغِ كلِّ مرامٍ، وهذا القدرُ كافٍ في الكلام على حقيقة الأدبِ وبيان منشئه عند أهل الرتب.

وأما بيان مكانته من طريق أهل الكمال فقد تقدَّم في أولِ المطلب أنه باتفاق من سادات الرجال نظامُ جميع الأعمال وملاك سائر المقامات والأحوال. وفي الحديث عن معاذ[1] ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُفَّ الإِسْلامُ بمَكَارِمِ الأَخْلاقِ وَمَحاسِنِ الآداب**» وقال سيدنا أنس بن مالك ﷺ: الأدبُ في العمل علامة قبول العمل.

وقال عبد الله بن المبارك ﷺ: من تهاوَنَ بالأدب عُوقِبَ بحرمان السنين، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

---

(1) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، صحابي جليل، كان أعلم الناس بالحلال والحرام، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ، أسلم وهو فتى، وآخى النبي ﷺ بينه وبين جعفر بن أبي طالب، وشهد العقبة مع الأنصار السبعين، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها، وبعثه النبي ﷺ قاضياً ومرشداً لأهل اليمن. مات سنة (18هـ).
انظر طبقات ابن سعد: 3/ 120، والإصابة: ت(8039)، وأسد الغابة: 4/ 376، وحلية الأولياء: 1/ 228، وغاية النهاية: 2/ 301.

وقال أبو علي الدقاق ﷺ: العبدُ يصِلُ بطاعته إلى الجنة وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى.

وقال بعضُهم: التوحيدُ يوجبُ الإيمان فمن لا توحيد له لا إيمان له، والإيمان يوجبُ الشريعة فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له، والشريعة توجب الأدب، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له.

وقال الشيخ أبو الحسن النوري ﷺ: ليس لله تعالى في عبده مقامٌ ولا حال ولا معرفة تسقط معها آدابُ الشريعة، إذ الآدابُ حِلْيَةُ الظاهر، والله تعالى لا يحبُّ تعطيلَ الجوارحِ[1] من التحلي بمحاسن الآداب. وقال أيضاً رحمه الله تعالى: من لم يتأدب للوقت فوقتُه مقتٌ.

وقال ذو النون المصري[2] ﷺ إذا خرج المريدُ عن حدِّ استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء.

وقال أبو علي الدقاق ﷺ: تركُ الأدب موجبٌ للطرد، فمن أساء الأدبَ على البساط رد إلى الباب، ومن أساءَ الأدب على الباب رُدَّ إلى سياسة الدواب.

قال بعضهم: الزم الأدب في الظاهر والباطن فما أساء أحد الأدب في ظاهرٍ إلا عوقب ظاهراً، وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً.

وقال رويم ﷺ: يا بني اجعلْ عملك ملحاً وأدبك دقيقاً. وقال ابن المبارك ﷺ نحن إلى قليلٍ من الأدب أحوجُ منا إلى كثير من العلم. وقال أيضاً رحمه الله تعالى: الأدبُ للعارِف بمنزلة التوبةِ للمستأنف اهـ.

فهذه كلّها نصوصٌ صريحة، وأقوال مؤيَّدة بنور الإلهام، مسدَّدة صحيحة مفصحة أي إفصاح بعلوِّ مكانة الأدب من الطريق وسموِّ قدرِه لدى فحولِ هذا الفريق، مصرّحة بأن

---

(1) الجوارح: الأعضاء.

(2) ذو النون المصري: ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفياض، أو أبو الفيض، أحد الزهاد العباد المشهورين من أهل مصر، نوبي الأصل من الموالي، كانت له فصاحة وحكمة وشعر، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية، فأنكر عليه، واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة، فاستحضره إليه وسمع كلامه، ثم أطلقه فعاد إلى مصر وتوفي بالجيزة سنة (245هـ).

انظر وفيات الأعيان: 1/ 101، وميزان الاعتدال: 1/ 331، ولسان الميزان: 2/ 437، وحلية الأولياء: 9/ 331، وطبقات الصوفية.

جميع الأعمال الدينية الموصلة إلى الحضرة القدسية، قلبية كانت أو بدنية قولية أو فعليه، لا يعتبر شيءٌ منها في بساط التحقيق إلّا محفوفاً بالمحاسن الأدبية والمحامد الصفاتية والمكارم الخلقية، وبأن تحلية العمل بالأدب عاجلاً علامة قبوله آجلاً، وبأن الأدب كما يحتاج إليه المريدُ في أحوال بدايته، يتوقف عليه المنتهي في مقامات نهايته، لأنه كما تقدَّم عن ابن المبارك رحمه الله تعالى في حقِّ العارف بمنزلة التوبة في حقّ المستأنف، فكما أن المستأنف لا يصحُّ منه الاستئناف في الخير إلا بالتوبة أي الرجوع من كُفران النعم بارتكاب المخالفات إلى شكرها، بالتزام القيام بأنواع العبادات والطاعات، فكذلك العارفُ لا ترسخ قدمُه في مقامات العرفان إلا بالتزامه الأدب فيما قلَّ أو جلَّ من أعمال القلوب والأركان، إذ لا شك أن أدَب كلِّ إنسان دليلٌ على قدْرِ درجته في مقام الإحسان ووسْعِ دائرته في مراتب العرفان.

ومما يزيدكَ تحقيقاً بهذا الذي أشرنا إليه في الطريق من علوِّ مكانة محاسن الآداب وأنها لمريد الوصول إلى حضرة ربِّ الأرباب من أهمِّ المهمات وأقوى الأسباب، ما قرَّره فرسان هذا الميدان وعلماؤه الجهابذة الأعيان، من أن لكلِّ منزلٍ من منازل مقامات الدين آداباً تختصُّ به عند المحققين.

فمما يخصُّ أولَ المنازل الثلاثة لمقام الإسلام، وهو منزلُ التوبةِ التي هي كالأرض لبناء كلِّ حال ومقام تَرْكُ صحبة الأقران الذين كان الفهمُ على التقصير ومواصلة من يوافقه في طلب مرضاة الله تعالى على الجدّ والتشمير، واجتناب مواضع اللهو والمجون، وعدم ذكر شيء من لذاته السالفة إلا بقلبٍ متحسِّرٍ محزون، فهذه أربعة آدابٍ لا يصحُّ الاستئنافُ في الخير مع تَرْكِ شيءٍ منها لذي متاب.

ومما يختصُّ بثاني المنازل لهذا المقام، وهو منزل الاستقامة ظاهراً وباطناً في معاملة خالق الأنام، متابعةُ الحبيب عليه الصلاة والسلام في كل ما يرجع إلى العبادة والعادة من قول وفعل وحركة وسكون، بطريق المثابرة والدوام، إذ لا يصدر عنه ﷺ باتفاق من العلماء أهل العرفان، فعل لا عبودية فيه كيفما كان، والأخذ بالأعمِّ فالأعم من الأقوال والأفعال، والقصدُ لتعديل الحركات والسكنات بالمتابعة في عموم الأوقات والأحوال والبناء في أمر المتابعة على ضبط النفس بالضوابط الشرعية ودفع الخواطر العارضة عند التلبس بالإتباع، بإمضاء العزم وإلقاء الوهم بالوقوف في ذلك كلّه عند الحدود المرعية، فهذه آداب خمسة لا يصحُّ لمن أخلَّ بشيءٍ منها أن يُحلَّى بالاستقامة معناه ولا حسه.

ومما يختصُّ بثالث هذه المنازل، وهو منزل التقوى التي هي شعار كلِّ نبي ومَرْعى

قصد كل ماجد وفاضل، الاحتياطُ لبراءة الذمة بالتحفظ من الشبهات التي هي الوسائط المشكلة بين طرفي الحِلِّية والحرمية، والتوقِّي بقدر الإمكان من فضول الحلال، وتجنُّب الإفراط والتفريط في سلوك سبيلها بكمال الاعتدال والتستر بذلك وسْعَ الإمكان ليسلمَ من الرياء وجدال العامة من أبناء الزمان، فهذه أيضاً آدابٌ أربعة لا تصحُّ التقوى لمن لم يكن جميعُها معه.

ومما **يختصُّ** بأول منازل مقام الإيمان، **وهو** منزل الإخلاص **الذي هو تصحيح الوجهة إلى الله تعالى على وصف العبودية الخالصة في السر والإعلان الجزءُ من سلبِ الإخلاص بسابقةِ الإهمال والاتِّهام للنفس فيما تدَّعيه من توفية حقِّ الإخلاصِ على نعتِ الكمال، واللَّجَأ إلى الله تعالى من ذلك كلِّه بالفزع إليه سبحانه بالدعاء والضراعة والمطالبة للنفس بالإخلاص في المباحات والعادات بقدر الاستطاعة، إذْ هو الإكسيرُ لأهل هذه الصناعة، لأنه يخرقُ أعيان المباحات والعادات فيحيلُها عبادةً تامةً من أجلِ القربات وأخصّ الطاعات، فهذه أربع خصالٍ لا يمكن تصحيحُ الوجْهة إلى الله تعالى مع الإخلالِ بشيءٍ منها بحال.**

ومما **يختصُّ** بثاني المنازلِ الإيمانية **وهو** منزلُ الصدق **الذي هو صفاء المعاملة مع الله تعالى من امتزاج الخواطر النفسانية حفظُ الوقت من الخواطر، وتعلّق القلب بعالم السرائر، وتلمح الحكم من مختلفات الوجود، واتهام النفس في توفية حقوق الخلق على الحدِّ المحدود، وترك الاجتهاد بالتأويل حفظاً لرسوم القوم من التغيير والتبديل، فهذه خمسة آدابٍ لا يصحُّ لمن ترك شيئاً منها صفاءُ المعاملة مع ربِّ الأرباب.**

ومما **يختصُّ** بثالث منازل الإيمان **وهو** منزل الطمأنينة **التي هي سكون القلب إلى ثلج اليقين سكوناً عارياً عن الاضطرابات وثلجاً يشبه العيان، الحرصُ على العملِ الظاهر والباطن بالتزام الأدب فيه على طريق الملازمة والمواظبة ومباحثة الأنفاس في التصفية،** خشيةَ الفضيحة عند ورود سلطان المراقبة، وعدم الاكتراث بالطمأنينة عند حركة الانتهاض إلى مبادي المراقبة، والسعي إلى مراقيها المكينة، وخمود نار الفكر بورود نار معنى الذكر، من غير أن يبلغ به مبلغَ الشكر، فهذه خصالٌ أربعٌ مَنِ استوفاها فقد استوفى الخير أجمعَ، وذلك لأن منزلة الطمأنينة من أعظم أبوابِ الولاية، إذ هو أولُ منازل المراد المواجه بأنوار العناية، ومنه يتنسَّم المريد السالك روائحَ القرب، وتبرق عليه بوارقُ مشاهدة سَنَى حضرة الرب، ثم إن لكلِّ منزل من منازل مقام الإحسان آداباً تختصُّ به أيضاً عند أهل العرفان، منها الكتم لما يظهر ويلوحُ من مبادئ الأسرار هنالك، وتنزه الروح عن الالتفات إلى شيء مما كَتَمه من ذلك. ومنها الثبوت عند أولِ الواردات التي تغدو عليه من حضرة

المعارف وتروح، والرجوع إلى الشاهد عند ما تضعف منه عن تحمُّل أعباء المشاهدة الروح، ومنها وهي من آكد الآداب في منزل المعرفة وأكملها إعطاءُ الحكمةِ أهلَها ومنعها من غير أهلها. ولمنازل هذا المقام آدابٌ أخر يقصر عن شرح حقيقتها في هذا المحلِّ اللسانُ، ولا يفيد في إيضاح ماهيتها البيان، فمن الأدب هنا أن يثنى عن ذكرِها العنان، إحالةً على الذوق والوجدان، واكتفاءً بما يحصل للصادق من طريق المشاهدة والعيان.

سَتَكْفِيكَ مِنْ ذاكَ الجمالِ إشارةٌ وَدَعْه مَصُوناً بالجلالِ مُحَجَّبا

وبهذا تظهرُ بعون الله تعالى مكانةُ الأدبِ من الطريق، ودرجته من مقامات السلوك على التحقيق، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق.

المطلب الثالث

في الإشارة إلى نبذة من آداب الحضرة العلية وبعض ما اتَّصف به من ذلك أهل المراتب السنية

لما قدمنا في المطلب قبل هذا ما فيه بحمد الله تعالى الكفايةُ العميمة من الكلام في حقيقة الأدب ومعرفة منشئه وبيان مكانته الفخيمة، وكانت مطالعته داعيةً بتوفيق الله تعالى إلى التعلُّق بحبْلِه المتين، وسببِه القويّ، والانتهاج لنهجه الأقوم، وسبيله السوي، أحببت أن أردُفَه بما أذكرُه في هذا المطلب مما يكون إن شاء الله تعالى عوناً للمريد الراغبِ في كمال الاقتداء على ما يرومُه من تحقيق المتابعة لأئمة الاهتداءِ، فأقولُ مستعيناً بحول القوي المعين، معتمداً على فضله الواسع وفتحه المبين:

اعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين هم صفوةُ الله تعالى من البرية، أكملُ الناس آداباً مع الحضرة المقدسة العلية، وأتم قياماً بحقوها ووظائفها المرعية، من سائر من عداهم من أهل المراتب السنية، حسبما نَطَقَ به القرآن العظيم، وأفصحتْ به آياتُ الذكر الحكيم، قال مولانا جلَّ جلاله فيما خاطبَ به حبيبه المصطفى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: الآية 4] قال في «العوارف» قال مجاهد:[1] أي على دينٍ عظيم، والدين مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة. وقال

---

(1) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بن مخزوم، تابعي، مفسر من أهل مكة. قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين. أخذ التفسير عن ابن عباس. تنقل في الأسفار واستقر بالكوفة، وكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها، ويقال: إنه مات وهو ساجد سنة (104هـ). =

الحسن[1]: لأنك لم يؤثر فيك جفاء الخلق مع مطالعة الحق اهـ. وهذا غايةٌ في كمال أدبه ﷺ.

وقال الواسطي: الخلقُ العظيم أن لا تخاصِمَ ولا تخاصَم. وقال أيضاً: لأنك قبلتَ ما أسديت إليك من نُعمَى أحسَن مما قبله غيرُك من الأنبياء والرسل. وقال الجنيد: لأنه لم يكن له همةٌ في سوى الله تعالى، ولا محالة أن من كان بهذه المثابة كان أجمعَ لمكارم الأخلاق ومحاسن الآدابِ على الوجْه الأكمل.

وقيل في تفسير هذه الآية الكريمة غير هذا، فقيل: لأنه ﷺ عاشَرَ الخلْقَ بخُلُقِه وباينهم بقلبه. وقيل: سمَّى خُلُقَه عظيماً لاجتماع مكارمِ الأخلاق فيه اهـ. وقد تقدَّم لنا في حقيقة الأدب أنه الجامعُ لمكارم الأخلاق ومحاسن الفعال والخلال، على أحسن ما يكون من وجوه الكمال، والآية الكريمة على مجموع هذا التفسير دالّة على ذلك أتمَّ دلالة وأوضحها، فهي إخبار من الله تعالى بأن حبيبه ﷺ مَجْمَعُ الآدابِ ظاهراً وباطناً وأنه ﷺ أكملُ الخلْقِ أدباً وأتمهم قياماً به مع الحقِّ ومع الخلق، على الوجه الذي يدركه غيره، والله تعالى أعلم.

وقال مولانا جلَّ عُلاه ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰﴾ [النجم: الآية 17] وفي هذه الآية الكريمة أيضاً إخبارٌ من المولى الكريم الأعظم عن كمال أدبِ حبيبه الأكرم ﷺ. قال في «العوارف»: وهذه غامضةٌ من غوامض الأدب، اختصَّ بها ﷺ، ثم قرَّرها بما ملخَّصه أنه ﷺ لكمال اعتدال قلبه المقدَّس في الإعراض والإقبال، كان حاله في كلا الطرفين على أتمِّ الأحوال، فكما أعرضَ عن كلِّ ما سوى الله تعالى أتم إعراضٍ وأكمله، فكذلك أقبلَ عليه سبحانه وتعالى أحسنَ إقبال وأجملَه، فترك ﷺ في إعراضه الأرضين والسموات وما فيهن من وراء ظهره ولم يزغْ بصرُه، ولا التفت إلى شيء مما أعرض عنه، ولا لَحِقَه الأسفُ عليه في سِرِّه ولا جهره، وأدرك في إقباله مما وَرَد عليه في مقام قابَ قوسَين من المنَحِ

= انظر طبقات الفقهاء: 45، وغاية النهاية: 2/ 41، وصفة الصفوة: 2/ 117، وميزان الاعتدال: 3/ 9، وحلية الأولياء: 3/ 279.

(1) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ولد بالمدينة سنة (21هـ)، وشب في كنف علي بن أبي طالب، عظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة لائم، وله مع الحجاج مواقف. مات سنة (110هـ).
انظر ميزان الاعتدال: 1/ 254، وحلية الأولياء: 2/ 131، وذيل المذيل: 93، وأمالي المرتضى: 1/ 106.

والمواهب والأسرار ما تحيطُ به العقولُ، ولا تكيِّفه الأفكار، فلم يطغَ ﷺ بالانبساط ولا أخلَّ بشيءٍ من آداب جلالة البساط، وذلك أنه ﷺ تلقَّى تلك المواهَب التي وردت عليه من حضرة الربِّ في حجالٍ من حيائه وخفارةٍ من أدبه، بالروح والقلب، ثم فرَّ من الله تعالى هيبةً وإجلالاً، فطوى نفسه بفراره في مطاوي انكساره وافتقاره، لئلا تنبسط النفسُ بالاستغناء، كما قال تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۞﴾ [العلق: 6 ـ 7] ولا شك أن الانبساط من العبيد يسدُّ بابَ المزيد، وهذا الفرار بالنفس على ما وصفناه هو الفرارُ من الله تعالى إلى الله، وهو نهاية الأدب، وقد حظي منه ﷺ بما لم يحظَ به أحدٌ قبلَه ولا بعدَه من أهل الرتب، فدامَ له من ربِّه سبحانه وتعالى المزيد، ونال منه غاية الأرب اهـ. ما لخص من العوارف.

ونقل فيها بعدَه عن سهل بن عبد الله[1] ؓ أنه قال في الآية الشريفة: لم يرجع ﷺ إلى نفسه ولا إلى مشاهدة أوصافها وإنما كان مشاهداً بكليته لربِّه، يشهد ما يظهرُ عليه من الصفات التي أوجبتْ له الثبوتَ في ذلك المحل.

قال صاحب «العوارف»: وهذا الكلامُ لمن اعتبره موافق لما شرحناه برمز في ذلك من سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى وؓ اهـ.

وقال الشيخ محيي الدين ؓ فيما يتعلق بمعنى الآية الكريمة ما نصه: من أدبِ من يجالس الأكابر الهيبةُ والوقار، فلا يلتفت ولا يشغل سرَّه بمشاهدةِ غير جليسه، ومن شأنِه عصمةُ قلبِه من الخواطر، وعقلِه من الأفكار، وجوارحِه من الحركات، وعدم التمييز بين الحسن والقبيح، ويجمعُ أعضاءه اجتماعاً يسمع له أزيز كأزيزِ القدْرِ الذي يغلي على النار، ومن شأنه أن لا يحصلَ له عند المباسطة إدلالٌ، قال تعالى ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۞﴾ [النجم: الآية 17] اهـ. فأشار ؓ في هذا الكلام إلى جملةٍ من آداب الحضرة مما تشير إليه هذه الآية الشريفة.

وبالجملة فهذه الآية الكريمة قد دلَّت على ما يضيق عنه نطاقُ التعبير من كمال أدبه ﷺ الدالِّ على كمال معرفته بربِّه سبحانه، المعرفة التي لا مطمع فيها لأحدٍ من الخلق كائناً من كان، وقد قيل: أدبُ الإنسانِ دليلٌ على قدرِ اتساعِ دائرتِه في مقام العرفان.

---

(1) سهل بن عبد الله بن يوسف التستري، أبو محمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال، له كتاب في تفسير القرآن. مات سنة (283هـ).
انظر طبقات الصوفية: 206، والوفيات: 1/218، وحلية الأولياء 10/189.

وقد قيل في معنى الآية الكريمة غير هذا مما لا يمكننا في هذه العجالة استيفاؤه، وللمشايخ الكمل ﷺ من العبارات في كمال أدبه ﷺ مع الحضرةِ الإلهية ما لا يكادُ يدرَك حصرُه ولا استقصاؤه، وعلى هاتين الآيتين الكريمتين مدارُ كلامِ من عبَّر عن ذلك من فحول الطريقتين.

ومن أجمعِ العبارات وأوعبها في هذا الباب عبارةُ شيخنا قطب الأقطاب ﷺ وأرضاه، ونفعنا وسائرَ الأحبة برضاه، ونصُّها كما في «جواهر المعاني»: اعلم أنه ﷺ لما كملَ خلوصُه إلى أوطانِ القرب والتمكينِ من حضْرَةِ الله تعالى التي لا مطْمَعَ فيها لغيره كان قائماً فيها بتكميل الأدب وتكميل الأرب وتكميل وظائف الخدمة في كلِّ ما برز وما يبرز من الحضرة من الأسرار والتوقعات والتجليات في ظاهر العلم وباطنه وباطن الحضرة الإلهية، فلا يفترُ عن ذلك مقدارَ طرفة عين، ولا يقعُ منه التفريط في حقٍّ من حقوق التجليات، كلما برزَ من التجليات شيءٌ على كثرتها وعدم نهايتها يعطيه حقَّه من العبودية من غير إخلالٍ ولا ضعفٍ ولا تزحزح ما عن موقف الكمال، فإن أطوارَ الوجودِ بكل ما تطور به من خيرٍ أو شر أو جلب أو دفع أو إعطاء أو منع أو تحريك أو تسكين أو تلوين إلى سائر أقسام التطورات مما يعرفه العامة في ظواهر الوجود، وما يتطور في بواطن الوجود من الإرادات والتخيلات والتوهمات والخواطر والأفكار، كلّ ذلك تجليات الحق سبحانه وتعالى بآثار صفاته وأسمائه ما ثم غيره سبحانه وتعالى في كلِّ ما سمعت، وهو ﷺ في موقف كماله دائماً أبداً سرمداً يعطي جميع التجليات حقَّها ويوفي أدبها، وهو في كل ذلك لله وبالله، انتهى كلام سيدنا ﷺ بلفظه في «جواهر المعاني».

ويكفي هذا القدرُ الذي ذكرناه في هذا المحل مما أشارتْ إليه الآيات القرآنية من كمال أدب نبينا ﷺ مع الحضرة الربانية.

ومما ذكروه في هذا المقام من آدابه وآداب غيره من الأنبياء الكرام عليه وعلى جميعهم من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام آدابهم الظاهرة القولية التي هي رشحة آدابهم الباطنة القلبية، وذلك مثل ما روي، عن نبينا ﷺ من قوله «**زُوِيَتْ لي الأرضُ فأريتُ مَشَارِقَ الأرْضِ ومَغَارِبَها**»[1] قالوا: قد حفظ ﷺ أدبَ الحضرةِ حيث لم يقلْ: فرأيتُ، ومثل قوله سبحانه وتعالى حكايةً عن نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ

---

(1) الحديث «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها.. إلخ». رواه مسلم في (الفتن: 19)، وأبو داود في (الفتن 1)، والترمذي في (الفتن: 14)، وابن ماجه في (الفتن: 9).

﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83] قال الأستاذ أبو علي الدقاق ﷺ قد حفظ نبي الله أيوب عليه الصلاة السلام أدب الحضرةِ حيث لم يقل: ارحمني، ومثل قوله تبارك وتعالى حكايةً عن نبيه عيسى عليه السلام ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: الآية 116] قال الشيوخ: قد حفظ نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام أدبَ الحضرةِ، حيث لم يقلْ: لم أقله، إلى غير ذلك من الآي الكريمة الدالة على آدابهم الفخيمة على جميعهم وعلى آل كلٍّ من المولى الكريم البر الرحيم، أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وأكملُ الناس اقتداءً بهم في هذا المقام الصحابةُ الكرام ﷺ ونفعنا بمحبتهم جميعاً. ومما أثبتوه من ذل قولُ مولاتنا عائشة الصديقية ﷺ لمن سألها عن خلقِ رسول لله ﷺ «كانَ خُلُقُه القُرآن»[1] قال في «العوارف»: لا يبعد والله أعلم أن قولَ عائشة ﷺ «كان خلقه القرآن» رمزٌ غامضٌ وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمتْ ﷺ الحضرةَ الإلهية من أن تقولَ كان متخلِّقاً بأخلاقِ الله تعالى، فعبَّرت عن المعنى بقولها «كان خلقه القرآن» استحياءً من سبحات الجلال اهـ.

[تنبيه] كثيراً ما يجري في إطلاقات الأكابر كالشيخ محيي الدين ﷺ، وكذا غيره من الأكابر كشيخنا ﷺ، حسبما ستقف على بعضِه في هذا الكتاب إن شاء الله ذكر التخلُّق بالأخلاق الإلهية، ومعنى ذلك عند المحققين أن العبدَ يأخذُ من بعض الأسماء الحسنى والصفات العليا وصفاً يلائِمُ ضعفَ البشر وقصوره، مثل أن يأخذَ من الاسم الرحيم وصفاً من الرحمة على قدر ضعفِ البشر وقصوره، وهكذا في سائر الأسماء التي يصحُّ التخلُّق بها للعبد، وكل إشارات العارفين في الأسماء والصفات التي هي أعزّ علومهم على هذا المعنى وهذا التفسير.

فليحذر العبدُ أن يميلَ بقصور فهْمه وتخيلات وهمه إلى شيء مما يعطيه ظاهر عبارات الكمل ﷺ، من الحلول والاتحاد[2]، فيجرُّه ذلك والعياذ بالله تعالى إلى الزندقة والإلحاد، ومن هذه الآداب التي اتصفَ بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقتدى بهم فيها أتمَّ اقتداءٍ أكابرُ الصحابة الكرام، أخَذَ أهلُ الطريق آدابهم، ومن أنوارهم اقتبسوها، وعلى مذاهبهم المكينة بنوا قواعِدَهم في ذلك وأسَّسوها، فعمروا ظواهِرَهم وبواطنهم بحُسنِ الأدب مع أساتيذهم ومشايخهم، وحافظوا على ذلك بقدر جهدهم واستطاعتهم، فأوصلهم حسن

(1) رواه مسلم في (المسافرين: 139).

(2) الحلولُ: اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر. والحلولية: فرقة من المتصوفة تعتمد مذهب الحلول.

الأدب مع مشايخهم إلى حسنِ الأدب مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ في جميع حركاتهم وسكناتهم، فظهرتْ بسببِ ذلك جواهرُ حقائقهم فاستحقُّوا التقدُّمَ على غيرهم والترؤُّسَ على أبناء جنسهم. فأما حسنُ أدبهم مع أساتيذهم فمن أمثلته التي ينتحي المريد الموفق منحاها وينتهج نهجَها القويم مقتبساً من نورِ سناها ما ذكره في «العوارف» عن أبي منصور المغربي من أنه قيل له رحمه الله تعالى: كم صحبتَ أبا عثمان؟ فقال: خدمتُه لا صحبْته، فالصحبة مع الإخوان ومع المشايخ الخدمة اهـ. وهذا ينظر إلى ما روي في بعض الأخبار عن سيدنا العباس[1] عم نبينا ﷺ أنه قيل له: أنت أكبرُ سناً أم النبيُّ ﷺ، فقال: هو أكبرُ منّي وأنا وُلِدْتُ قَبْلَه[2] اهـ.

وأما حسنُ أدبهم مع الحضرة القدسية العلية فمنْه ما ذكروه من آدابهم الفعلية التي هي عنوانُ آداب بواطنهم المطهرة السنية. ذكر الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه عن الأستاذ أبي علي رضي الله عنه أنه كان لا يستندُ إلى شيء أدباً مع الحضرة الإلهية. قال: وكان يوماً في مجمع، فأردت أن أضعَ له وسادةً خلف ظهرِه لأني رأيته غير مستند، فتنحَّى عن الوسادة قليلاً فتوهَّمت أنه توقَّى الوسادَة لأنها لم يكن عليها خرقةٌ أو سجادة، فقال: لا أريدُ الاستناد، فتأملتُ بعد ذلك فعلِمْت أنه لا يستند لشيء أبداً اهـ.

وقال السري السقطي[3] رضي الله عنه: صلَّيتُ وردَ ليلةٍ من الليالي ومددْتُ رجلي في المحرابِ فنوديت: يا سري هكذا تجالِسُ الملوكَ! فضممتُ رجلي ثم قلتُ وعزَّتِك لا مددت رجلي أبداً. قال الجنيد رضي الله عنه: فبقي ستينَ سنةً ما مدَّ رجلَه ليلاً ولا نهاراً اهـ. وذكر عن السري أيضاً رضي الله عنه أنه سُئل عن مسألة من الصبر، فجعل يتكلَّم فيها فدبَّ على رجله عقربٌ فجعل يضربه بإبرَتِه فقيل له ألا ترفَعْه عن نفسك؟ فقال: أستحي من الله تعالى أن أتكلم في حالٍ، ثم أخالف ما أعلم فيه اهـ.

---

(1) هو عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، عم النبي ﷺ، كان في الجاهلية رئيساً في قريش، وإليه كانت عمارة المسجد الحرام. شهد مع النبي ﷺ بيعة العقبة لما بايعه الأنصار، وكان مشركاً. وكان رسول الله ﷺ يعظمه ويكرمه بعد إسلامه. مات سنة (32هـ).
انظر أسد الغابة: 3/ 60.

(2) في أسد الغابة: «كان أسنّ من رسول الله ﷺ بسنتين، وقيل: بثلاث سنين».

(3) هو سري بن المغلس السقطي، أبو الحسن، من كبار المتصوفة. بغدادي المولد والوفاة، وهو أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته، وهو خال الجنيد وأستاذه. مات سنة (253هـ).
انظر طبقات الصوفية: 48، والوفيات: 1/ 200، وصفة الصفوة: 2/ 209، وحلية الأولياء: 10/ 116.

وحكي عن بعض الشيوخ أنه قال: دخلْتُ مكة، فكنتُ ربما أقعدُ بحذاءِ الكعبة، وربما كنت أستلقي وأمدُّ رجلي، فجاءتني عائشة المكّية فقالت لي: يا أبا فلان، يقال إنك من أهلِ العلم لا تجالسه إلا بالأدب، وإلا مُحي اسمك من ديوانِ القرب. قال: وكانتْ من العارفاتِ ﵆ اهـ. انظر «العوارف».

ومن هذا ما ذكره في «جواهر المعاني» من وصْفِ آداب سيدنا ﵁ حيث قال بعد سرْدِه لجملةٍ من آدابه: وما رُؤي قطُّ مادًّا رجلَه إلى القبلةِ، وما بَصَقَ قطُّ وهو جالسٌ بالمسجدِ ولا رَفَع به صوته، وما سَمِعَ أحداً يرفع به صوتَه إلا نهاه، وما رأى أحداً أخلَّ بشيء من آداب الشريعة إلا نبَّهه، ويقول له، إذا كان له معرفة بها على سبيل الإنكار والتوبيخ: أهكذا وردَ في السنة؟ اهـ.

وانظر ما يشيرُ إلى بعض آدابه ﵁ مع حضرة الله تعالى وحضرة رسولِ الله ﷺ، وكذا مع أولياء الله تعالى في «جواهر المعاني» وغيره تعثرْ على معرفة حقيقة الأدب، وتَرَ من ذلك ما تقضي منه العجب، ويكفي من آدابه مع الحضرة العلية أخذه بكمال الاحتياط في الطهارة ثوبية ومكانية وبدنية، وأمره بذلك في جميع العبادات والتوجهات، فعليةً كانت أو قولية، وذلك من الشائع الذائع عنه وعن أصحابه ﵁، وكذلك أخذُه بالاحتياطِ في جميع المعاملات الدينية والدنيوية مما لا يسعنا الآن تفصيلُ بعضِه فضلاً عن كله، ويكفي في كمال أدبه مع حضرة الرسول ﷺ مبالغتُه في تعظيم أهلِ البيتِ الطاهر ولهجه دائماً بما خَصَّهم الله به من سَنيِّ المحامد وفاخر المآثر، وحضّه على ذلك في سائر أوقاتِه وأحواله وحثّه الناس على إمحاض الودِّ لهم ودلالته على ذلك بألسنة حاله ومقاله، فكان ﵁ يكرم الداخلَ منهم عليه بأسمى المجالس وأخصِّها، ولا يتركُ أحداً منهم يجلس بأدناها وأخسِّها، وما ترك أحداً منهم يجلس بإزاء رجلَيْه أو في محلِّ امتهانٍ على أي حالٍ كان، ولم يكنْ ﵁ يساوي بحضوصيتهم الذاتية خصوصيةً ولا بمزيتهم الأصلية مزية، وسيأتي بعضُ ما يتعلَّق بهذا أثناء الشرح إن شاءَ الله تعالى.

ويكفي في كمال أدبه مع أولياء الله تعالى حضّه على تعظيمهم وتوقيرهم أحياءً كانوا أو أمواتاً، وعدم مسامحته في الاستهزاء بهم والاستهانة بقَدْرِهم، وكان ينهى من يسكنُ بجوار واحدٍ منهم أن يمدَّ رجليه إلى جهته ولو أداه ذلك إلى مخالفةِ ما جرَتْ به العادة في نوم الناس في محالِّهم، كأن يجعلَ رأسَه إلى باب البيتِ مثلاً، لا يغفل عن ذلك ﵁ أبداً.

وقد أخبرني بعض الأفاضل من أعيانِ أصحابه ﵁ أنه اتفقتْ له السكنى بدار

مجاورة لضريحِ مولانا إدريس ﷺ على عهد الشيخ ﷺ، وكان البيتُ المعدُّ للسكنى من تلكَ الدارِ مقابلاً للضريحِ المعظَّم فلما أعلم الشيخ ﷺ، بذلك أعظمه غايةَ الإعظامِ، لأن من لازِمِ من نام بذلك البيت أن يمدَّ رجليه إلى جهةِ الضريحِ الأبرك، ثم أكدَ ﷺ على الصاحبَ المذكور أن لا يمدَّ رجليه إلى ناحية الضريح في نومٍ ولا يقظة، وبعد مدَّةٍ يسيرة أدخلت الدار المذكورة في المسجد الإدريسي، فكان بعض المحبين يرى أن ذلك من أثر تحركِ همَّةِ الشيخ لذلك، ولا بعد فيما رآه هذا المحبُّ عند من فتح الله بصيرتَه ورزَقَه الإيمان الكامل بكرامات أولياء الله تعالى، وألهم التصديقَ بأن الأشياء تنفعل لتحرّك هَمَمَهم العوالي بإذن مولى الموالي سبحانه وتعالى.

هذا، ولو تتبعنا ما نُقِل عن المشايخ ﷺ في هذا الباب واستوعبنا ذكر ما اتصفَ به سيدنا ﷺ من سِنيِّ الآداب لخرجنا إلى حدِّ الإطناب، مع أن القصد، إنما هو الإلمامُ بشيءٍ مما عسى أن يكون للناظر في هذا الكتاب تنبيهاً وتذكرةً وإعانة له على ما هو بصدده من فهم مسائل هذا النظم وتبصرة، والله تعالى المستعان، وعليه سبحانه التكلان.

[إلحاق] مما ينبغي أن يندرج في هذا المطلب وينساق ما حكاه في «العوارف» عن الشبلي ﷺ من قوله: الانبساطُ بالقولِ مع إلحاقِ ترْكِ الأدب، يريدُ رحمه الله تعالى في بساط الدعاء والطلب، قال فيها ـ أعني العوارف ـ وهذا يختصُّ ببعضِ الأحوالِ والأشخاص دون البعض، وليسَ على إطلاقه، لأن الله تعالى أمر بالدعاء اهـ. وقال الشيخ زروق ﷺ بعد ذكره ما ورد في حق الخليل عليه الصلاة والسلام حين زُجَّ به في المنجنيقِ فتلقَّاه جبريل ﷺ وقال له: ألك حاجة فقال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى، فقال له: إذن فاسأله قال: حسبي من سؤالي عِلْمُه بحالي ما نصه: وهو طريق العارفين عند تعذر الأسباب، أعني الرجوع إلى الله تعالى بالاستسلام وترْك الطلب بخلافِ حال قبوله لمحل الأسباب، فإن العملَ بها حينئذٍ مطلوبٌ. قال: واعتبر ذلك بأمرِ أم موسى ﷺ بإلقائه في البحر وإجابة الملائكةِ للوط ﷺ بقولهم ﴿قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: الآية 76] عند قوله لقومه ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: الآية 80] الآية، فهو صلوات الله عليه أرادَ مقابلتَهم بالأسبابِ، فأجيبَ بنفوذ الأمر وأنه لا محلَّ لها، ولذلك أشارَ النبي ﷺ بقوله «**يَرْحَمُ الله أخِي لُوطاً لَقَدْ كانَ يأوِي إلى رُكْنٍ شَديد**»[1] على معنى أن ترحمه عليه إنما كان لظنّه أن الأسبابَ بقي لها محلٌّ لا كما فهمه من لا حقيقة عنده.

---

(1) رواه البخاري في (الأنبياء: 11، 19)، وابن ماجه في (الفتن: 23).

ثم قال: والتوجهات ثلاثة: أولها: التوجُّهُ بالاستسلام، وذلك عند تعذر الأسباب كما تقدم. الثاني: التوجُّه بالسؤالِ والطلب، وذلك عند انشراحِ الوقت وجريانه بالمعتاد وفي موقف تذكير النفس بالافتقار والاضطرار عند غفلتها عن التوحيد، أو يكون البساطُ بساطَ تعليم أو تذكيرٍ ونحوه. الثالث: التوجُّه بالتعريض، وذلك حين يغلبُ حسن الظن والاكتفاء بالعلم وتحقيق التوحيد والاشتغال بالذكر، كقول سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿82﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 82] وكقول سيدنا موسى عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَص: الآية 24] وكقولِ نبينا ﷺ «لا غِنَى لي عَن عافِيَتِكَ، عَافِيَتُكَ أَوْسَعُ بي» اهـ كلام الشيخ زروق رضي الله عنه.

ولا يخفى أن كلَّ توجُّهٍ لحال أو وقت هو الأدب في تلك الحال أو ذلك الوقت، وبهذا الذي نقلناه عن الشيخ زروق رضي الله عنه يظهر ما أشار إليه رحمه الله تعالى ورضي عنه، ويعرف أنه ليس على إطلاقه كما تقدَّم عن صاحب «العوارف»، نعم يحتاج التوجه بالسؤالِ والطلب إلى آدابٍ تخصُّه، منها الإخلاص قال تعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [البَيِّنَة: الآية 5] الآية. قال في «تهذيب الأذكار»: وإخلاص الدعاء إلى الله تعالى أن يخلصَ الدعاءَ عما يشوبُه من الحظوظ، وأن يفرِدَ الله تبارَكَ وتعالى في القصْدِ بأنه المعطي لا غيره. ومنها أن يأتي في دعائه بما يشعرُ بعظَمَةِ الربوبية وذلة العبودية، قال الشيخ زروق رضي الله عنه: كلُّ دعاءٍ لا يشعرُ صاحبُه فيه بعَظَمَةِ الربوبية وذلّ العبودية فهو تلاعبٌ، وبه أُجيبَ عن عدم انتفاع كثير من الناس بالأدعية والأذكار الصحيحةِ الوعد، بالإجابة، المجرَّبة النفعِ عند أهل الصدق والإخلاص. ومنها الاكتفاء بعلم الله تعالى مع حسن الظنّ به والتفويض إليه في الإجابة والعطاء.

وقد نقل الشيخ زروق رضي الله عنه عن بعضهم أنه قال: من يكنْ في دعائه تاركاً لاختياره راضياً باختيار الحقِّ تعالى فهو مستدرجٌ، وهو ممن قيل له «اقْضُوا حاجَتَه فإنِّي أَكرَهُ أنْ أسمَعَ صَوْتَه» فإن كان مع اختيار الحقِّ سبحانه وتعالى لا مع اختياره لنفسِه كان محبوباً وإن لم يعطَ، والأعمال بخواتمها[1] اهـ. وذكر في «جواهر المعاني» عن شيخنا رضي الله عنه أنه كان إذا دعا لنفسه أو لأحد بشيء مما كان مجهولَ العاقبة، أو فيه حظٌّ. كان دعاؤه طلبَ الخيرة من الله، وكان يقولُ المرة بعد المرة: لا أدعو إلا بلساني وقلبي مستسلم لله تعالى، وأقولُ لا أريدُ شيئاً ولا أختار شيئاً، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، وتارة إذا طلبه أحدٌ

---

(1) الحديث «وإنما الأعمال بالخواتيم» رواه البخاري في (القدر: 5)، وفي (الرقاق: 33)، والترمذي في (القدر: 4)، وأحمد: 5/ 335.

في الدعاء يمتنع منه أدباً مع الحقّ سبحانه، واكتفاءً بعلمه واختياره لعبيده، وهذا كله فيما هو مَشُوبٌ بالحظوظ.

وأما الدعاءُ على وجْهِ العبودية فقد كان لا يزال لَهِجاً به رطباً قلبه ولسانه، لأنه مأمورٌ به شرعاً، وكان أكثرُ دعائه لمن سأله في الدعاء: الله يقبل عليك بمحض فضله ورضاه اهـ. وفي هذا الدعاء من التحقيق بوصف العبودية والاستشعار لعظمة الربوبية مع ما فيه من كمال النصح وحسن التربية ما لا يخفى، لاشتماله على جميع المطالب الدنيوية والأخروية، مع الاعتماد في جميعها على ما يبرز من الحضرة الفضلية، وراجعْ آداب شيخنا ﷺ في «جواهر المعاني» وتأملْ ما اشتملت عليه رسائلُه ومخاطبته من أدعيته لمن يخاطبه، ترَ مما خصَّه الله تعالى به من محاسن الأدب ما يشهدُ العقل والنقل بأنه لا يتأتّى مثلُه إلا للخاصة العليا من أهل الرتب ﷺ وأرضاه، ومتَّعنا والأحبة في الدارين برضاه، آمين.

واعلم أنه قد تحصَّل مما ذكره في «جواهر المعاني» من عمل سيدنا ﷺ في الدعاء على اختلاف الأحوال فيه أن الدعاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام، ولكلٍّ قسم منها أدب يخصُّه.

(القسم الأول) الدعاءُ بما كان مجهولَ العاقبة، والمراد به ما لم تتبين مصلحتُه للعبد، وقد أفادَ عملُ سيدنا ﷺ أن الأدب فيه هو أن يكون بطلبِ الخِيرة من الله تعالى، وهو واضحٌ، والتحقق فيه بوصف العبودية بيِّنٌ.

(القسم الثاني) الدعاءُ بما كان مشوباً بحظِّ النفس، وهو طلب الحوائج من الله تعالى، أعني الحوائج التي تبين للعبد أن له فيها مصلحة، وقد أفاد عملُ سيدنا ﷺ أن يطلب ذلك الشيء على التعيين مع التفويض والاستسلام وترك مراد العبد إلى مراد سيده، واختياره إلى اختياره سبحانه، وحكم مشيئته مع رؤية التأثير من الله تعالى من نفسِ الداعي، وهذا هو دعاء أهل اليقين.

قال الشيخ المحدث العارف بالله سيدي محمد بن علي الترمذي ﷺ في «نوادر الأصول»: وأما أهلُ اليقين فإنهم يدعون ويلحُّون، وهم في ذلك ساكنون مطمئنُّون منتظرون مشيئة الله، فإذا أجابَ قبلوا، وإن تأخّر صَبَروا، وإن مَنَع رضوا وأحسنوا الظن، كما قيل: مَنْع الله إياك عطاءً منه لك، وذلك أنه لم يمنعْكَ من بخلٍ ولا عدم اهـ نقله في «شرح عدة الحصن الحصين».

وبهذا الأدب يصيرُ الداعي متعبّداً لله تعالى في عين طلبه لحاجته، فلا يؤثر في عبادته إذ ذاك حظُّ نفسه. ومما يزيدُ هذا القسم بياناً وإيضاحاً ما ذكره الشيخ أبو عبدالله بن عباد

الرندي في رسائله. ونصُّه: إن الوجه في وقوع الدعاء، يعني طلب الحوائج من الله تعالى على وجه العبودية أن تكون في حال دعائك طالباً من الله شيئاً رأيت أن لك فيه مصلحة من غير أن تدعي استغناءً عن ذلك ولا سخاوة نفس به، ومن غير أن ترى دعاءك سبباً موجباً لحصولِ ذلك الشيء المطلوب، دون الحكم الأزلي، وهذا لا ينافي كونك راضياً مفوِّضاً متوكِّلاً، كما لا ينافي ذلك التسبُّب والتكسب إذا كان بحيث لا يتغيَّر قلبك ولا يضطرب عند عدم إفضاءِ سببك، إلى مطلبك، ثم قال: ولا يضرُّك ما يفاجئك أولاً بمقتضى الطبع من بغضك لعدم حصول مطلبك، إذ ذاك لا يثبتُ ولا يلبث أن ينهزم ويزول بما يكرُّ عليه من وجود إيمانك ويقينك ومعرفتك، ويكون بمنزلة الطائف الذي ينهزم بالتذكُّر اهـ نقله في الشرح المذكور بمعناه عن شيخ شيوخه العارف بالله.

قلت: هو حسن في بابه، مفيد جداً في إيقاع السؤال والطلب على الوجه الأكمل المرضي شريعةً وطريقة وحقيقة، حيث اشتمل على امتثال الأمر بالدعاء، وعلى ترْكِ دعوى النفس الاستغناءَ عن الشيء المطلوب، وعلى رؤية التأثير للقدرة الإلهية والحكم الأزلي مع الرضا التام، والله تعالى أعلم، وإلى هذا أشار ما ذكره في «الحلية» عن محمد الباقر ﷺ أنه قال: ندعو الله تعالى بما نحبُّ، فإذا وَقَعَ ما نكره أحببنا ما أحبَّ اهـ.

(القسم الثالث) **الدعاءُ** على وجه العبودية المحْضَة: **تعبُّداً لله تعالى وتقرباً إليه سبحانه** وتعالى من غير أن يشوبَ ذلك حظٌّ، وهو التوجُّه إلى الله تعالى بالدعوات المشتمِلة على أوصاف العبودية من إظهار فاقةٍ وافتقار أو عجز واضطرار على وجه التضرُّع والخضوع إلى الله تعالى، وعلى طلب التوبة والمغفرة والقبول والرحمة منه سبحانه وتعالى، وعلى هذا القسم كان عملُ من أدركناه من أصحابِ الشيخ ﷺ في جميع الأحزاب والأدعية، وعليه كانوا يحضُّون، وفيه كانوا يرغبون، ورأينا الفضلاء المعتبرين منهم يكرهون أن يذكر المريد شيئاً من الأدعية والأحزاب المتداولة في الطريق كالسيفي وحزب البحر وغيرهما بنية شيء من الخواص، ويصرِّحون بأن طريقنا أن نذكر ذلك تعبداً لله تعالى وتقرباً إليه وطلباً لمرضاته لا غير، وفي هذا القدر مما رمنا الإشارة إليه في هذا المطلب كفاية، والله ولي التوفيق والهداية.

المطلب الرابع

في بعض ما يختص بالمريد من آداب الصحبة والأخوة وبيان ما يلزمه من الوفاء وكمال الفتوة

لا خفاءَ أن حقوقَ الصحبة والأخوة وآدابها على ما سيتبيَّن قريباً، إن شاء الله

تعالى، من أعظم الحقوق وآكَدِ الآداب، إذ هي العصمة في مدارج السير والسلوك إلى حضرة رب الأرباب، وخصوصاً في طريقتنا هذه الأحمدية التجانية، لقول سيدنا ﷺ: من ابتُلي بتضييع حقوقِ الإخوان ابتلاه الله تعالى بتضييع الحقوق الإلهية. وقد سمعت بعض أصحابه ﷺ يقول: سمعتُ سيدنا ومولاناالشيخ ﷺ يقول: فإني لكثيراً ما أهمُّ بوضع مؤلفٍ في آداب الطريق، تنبيهاً منه ﷺ على أن الأدب من أهمِّ المهمات وآكدها في الطريق، وأن من تمسَّك به فيها فقد تمسَّك بالسبب الأقوى والحبل الوثيق، فلهذا جعلتُ هذا المطلب تابعاً للمطالب قبله: وآثرتُ أن يكون كالتحصيل لمسائلها والتتمَّة والتكملة، فأقول والله المستعان وعليه التكلان لا إله غيره ولا خير إلا خيره.

اعلم أن درجة الصحبة والأخوة عند الله تعالى درجةٌ شريفة، ومرتبتها من الطريق مرتبة سامية منيفة، فقد اختارها ورغِبَ فيها وآثرها جَمْعٌ من السلف، وتابعهم على ذلك الجمُّ الغفير من جماهير الخلف، ومما استندوا له فيما ذهبوا إليه من اختيارها، واستأنسوا به لما اعتمدوه من إيثارها ما رأوا من أنَّ الله تعالى منَّ على أهل الإيمان حيث جَعَلهم إخواناً فقال سبحانه وتعالى ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمران: الآية 103] وقال سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: الآيتان: 62-63] الآية، فقد دلّت هذه الإشارة الكريمة على أن الصحبةَ والأخوة منة عظيمة ونعمة جسيمة امتنَّ الله تعالى بها على من شاء من عباده المؤمنين المتحابين في جلاله، المتواخين في طلب مرضاته والوصول إلى حضرة كماله، وفي ذلك كما لا يخفى غاية الحثُّ عليها والترغيب فيها والندب إليها، وقد دلّت السنة المطهرة على ذلك أيضاً.

ففي «الدر المنثور» أخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ[1] قال: قال رسول الله ﷺ «إذا كانَ يَوْمُ القيامَةِ انقَطَعَتْ الأرحامُ وقلَّتْ الأسبابُ وذهبَتْ الأخوَّة إلا الأخوة في الله تعالى، وذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ [الزخرف: الآية 67] الآية» اهـ.

وفي وصيَّة سيدنا عمر الفاروق المثنى عليه بأن الحقَّ ينطِقُ على لسان عمَر والمأمور

---

(1) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأوسي الأنصاري، صحابي من الأبطال، من أهل المدينة. كانت له سيادة الأوس وحمل لواءهم يوم بدر، وشهد أحداً، فكان ممن ثبت فيها، وكان من أطول الناس وأعظمهم جسماً، ورمي بسهم يوم الخندق، فمات من أثر جراحه سنة (5 هـ)، ودفن بالبقيع وعمره سبع وثلاثون سنة. وقال النبي ﷺ عند موته «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ».
انظر صفة الصفوة: 1/180، وطبقات ابن سعد: 3/2، والإصابة: ت (3197)، وأسد الغابة.

بالاقتداء به في قوله ﷺ «اقتَدُوا باللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أبي بكرٍ وعمر» رضي الله عنهما، عليك بإخوانِ الصدقِ تعِشْ في أكنافهم، فإنهم زينةٌ في الرخاء وعدةٌ في البلاء اهـ.

وذكر في «العوارف» عن سيدنا عمر أيضاً ﷺ أنه قال: لو أن رجلاً صام النهار وقام الليلَ وتصدَّق وجاهدَ ولم يحب في الله ولم يبغضْ في الله ما نَفَعه ذلك اهـ. ومن لوازم الحبِّ في الله تعالى المؤاخاة فيه، ولذلك يطلق أحدُهما على الآخر. وروى في «العوارف» أيضاً بسنده إلى الأستاذ أبي القاسم القشيري أنه قال: سمعتُ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعتُ عبد الله بن المعلم يقول: سمعتُ أبا بكر الطمستاني يقول: اصحَبُوا مع الله، فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحبُ مع الله لتوصِلَكم بركةُ صحبته إلى صحبةِ الله. وروى فيها أيضاً بسنده إلى الشيخ أبي جعفر الحداد رحمه الله تعالى أنه سمع الشيخ علي ابن سهل يقول: الأُنسُ بالله أن يستوحش من الخلقِ إلا من أهل ولاية الله، فإن الأنسَ بأهل ولاية الله هو الأنسُ بالله. وذكر فيها أيضاً: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام قال: يا داود ما لي أراك منتبِذاً وحدانياً؟ قال: إلهي قَلَيْتُ[1] الخلْقَ من أجلك، فأَوْحى الله إليه: يا داود كن يقظاناً وارتدْ لنفسِك إخواناً، وكل خدن لا يوافِقُكَ على مسرتي فلا تصحَبه فإنه لك عدوٌّ يقسِّي قلبك ويباعدك مني.

ولهذا كانت الصحبةُ والصداقة عند الأحرارِ يراعى لها من الحقوق ما يراعى لأخوة النسبِ على ما قيل: الصداقةُ لحمةٌ كلُحْمةِ النسبِ، بل الحقُّ أنها ـ أعني الصداقة والأخوة في الله ـ آكدُ حقاً من أخوةِ النسب، قيل لبعضهم: أيهما أحبُّ إليك أخوك أو صديقُك؟ قال: إنما أحبُّ أخي إذا كان صديقي. قال الشيخ زروق ﷺ في شرحه للوغليسية ما نصُّه: قال العلماء: القرابة قرابتان قرابة دينية، وهي أولى من القرابة الطينية اهـ. وذكر الشيخ محيي الدين ﷺ في «الفتوحات المكية»: أن شخصاً دَخَلَ على شيخه ففاوَضَه في معنى قولهم: الأقربون أولى بالمعروف، قال: فقال الشيخ من غير توقُّف: إلى الله يا فلان اهـ. يعني: الأقربون إلى الله أولى بالمعروف من الأقربين من جهة النسب.

وقال الشيخ زروق ﷺ: الصداقةُ من قواعد الدين والدنيا اهـ.

ومما يشيرُ إلى شرف منزلتها وكمال فضيلتها زيادةً على ما تضمنته إشاراتُ هؤلاء الأعلام ما اشتملت عليه من الفوائد العظام والكرامات والبركات والخيرات الجسام. قال في «الجيش الكفيل» ما نصُّه: ثم الفوائد المطلوبة من الصحبة دينيةٌ ودنيوية، أما الدنيوية

---

(1) قليت الخلق: أبغضتهم وهجرتهم.

فكالانتفاع بالمال والجاه، وليس ذلك من غرضنا. وأما الدينية فتجتمع فيها أغراضٌ مختلفة إذ منها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة في الجاه تحصُّناً من إيذاء من يشوِّش القلب ويصدُّ عن العبادة، ومنها التبرُّك بالدعاء، ومنها انتظار الشفاعة، إلى غير ذلك اهـ.

وفي «العوارف» أنه يقع بطريق الصحبة التعاضدُ والتعاون، وتتقوَّى جنودُ القلب، وتستريح الأرواح بالتشام[1]، وتنفق في التوجه إلى الرفيق الأعلى،ويصير مثالها في الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام، وإذا انفردت قَصَرَتْ عن بلوغ المرام.

وقد وَرَد في الخبر عن رسول الله ﷺ «المُؤْمِن للمُؤْمِن كالبُنْيانِ المرْصُوصِ يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضاً »[2] وفي «العوارف» أيضاً أن من فوائد الصحبة والأخوة أنها تفتح مسامَّ الباطن ويكتسب الإنسانُ بها علمَ الحوادث والعوارض اهـ. قلت: ويريد بهذا، والله أعلم، أنه يتقوَّى نورُ الفراسة الإيمانية باستمداد البعضِ من البعض، وسَرَيان سرِّ البعض إلى البعض، إذ من فوائدها ما يسري من الفاضل إلى المفضول من السرِّ الباطني الذي هو منتهى القصد من الصحبة وغاية السُّؤل. وقد قيل: من تحقَّق بحالةٍ لم يخلُ حاضروه منها: وأحطُّ الناس مرتبةً في مقام الصحبة للأخيار المحبُّ لهم فقط، وكفاه إن لم يكن منهم أنه معهم، لحديث «المرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »[3] وفي مختصر الإحياء بعد كلام في الصحبة ما نصُّه: فاصحب الأخيارَ إن لم تكن منهم فأنتَ معهم انتهى، يريد اصْحَبْهم بالمحبة والتسليم لتكونَ معهم، وإن لم تكن منهم فإن المرءَ مع من أحب. وبالجملة ففي مخالطة الأخيار مع التسليم والمحبة خيرٌ كثير، بل المخالطة أصلٌ كبيرٌ في الانتفاع، ولهذا قالوا: إنها، أعني المخالطة تغني عن غيرها ولا يغني غيرُها عنها.

وقد ذكر عن العارف بالله تعالى سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي رضي الله عنه أنه قال لرجل من أصحاب بعض الأولياء من أهل عصره، وقد رآه لا يخالط الفقراء: ماذا يأمُرُكم به شيخُكم؟ فقال: بالسبيحة واللويحة[4]، فقال له رضي الله عنه ليست هذه الطريق بالسبيحة ولا

---

(1) التشامّ: التفاعُل من الشمِّ.

(2) رواه البخاري في (المظالم: 5) وفي (الصلاة: 88)، وفي (الأدب: 36)، والترمذي في (البر: 18)، والنسائي في (الزكاة: 67)، وأحمد 4/ 404، 405.

(3) رواه البخاري في (الأدب: 96)، ومسلم في (البر: 165)، والترمذي في (الزهد: 50)، وفي (الدعوات: 98)، والدارمي في (الرقاق: 71)، وأحمد: 1/ 392 ـ 3/ 104، 110.

(4) لعله أراد بالسبيحة أنها من السُّبْحة، وهي الدعاء وصلاة التطوع والنافلة. وقال ابن الأثير: وإنما خصت النافلة بالسبحة، وإن شاركتها الفريضة في معنى التسبيح لأن التسبيحات في الفرائض نوافل، فقيل: الصلاة=

باللويحة، وإنما هي بالمخالطة، خالط الجَذْمَى تجذَمْ[1] اهـ. وقد ذكروا أن لقاء الإخوان لقاحٌ، ولا شك أن البواطن تلتقحُ بالملاقاة وأن مجرَّد النظر لأهل الصلاح يؤثر صلاحاً، بل كلُّ نظر في الغالب يؤثر أخلاقاً مناسبة لخلق المنظور إليه، كما أن النظر إلى المسرور يؤثر سروراً، وإلى المحزون يكسب حزناً، والجَمَلُ الشرود[2] يصير ذَلولاً بمقارنة الذلول، والماء والهواء يفسدان لمقاربة الجيف، والزروع تنقى عن العروق المجاورة لها لموضع الإفساد بالمقاربة، فالمقاربة لها تأثيرٌ في الحيوان والنباتِ والجماد والماء والهواء، وإذا كانت كذلك فهي في النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيراً.

ومن فوائد الصحبة أيضاً: تحمُّل البعض من المتصاحبين عن البعض في دار الدنيا ما ينزل بهم من المصائب والأحزان، وتلقّيهم للوارد عليهم منهم في البرزخ[3] بحُسْنِ البِشْر ومزيد الكرامة والبر والإحسان، وأخْذ البعض منهم بيد البعض يوم القيامة، وشفاعته له في نيل المغفرة والدرجات العلى في دار الرضوان. وقد ذكر في «العوارف» أن أحدَ الأخوين في الله تعالى يقال: له ادْخُلْ الجنةَ، فيسأل عن منزلةِ أخيه، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يُعطى أخوه مثل منزلته، فيقال له: لم يكن يعمل مثل عملك، فيقول: إني كنت أعمل لي وله، فيُعطى جميعَ ما يسأله لأخيه، ويَرفَع أخوه إلى درجته اهـ.

فهذا بعض ما يشير إلى جلالة قدر صحبة الأخيار وإنافة مكانة مواخاة الأبرار على طريق الإيجاز والاختصار، وفيه كفاية لمريد التذكُّر والاستبصار، ولهذا الذي ذكرناه من سموِّ درجتها وشرف مكانتها خُصَّتْ بالحقوق العظيمة الأكيدة، وحُفَّت بمحاسنِ الآداب والأخلاق الحميدة، فمن آدابها الخاصة عند إرادة الدخول فيها أن يسلم المدخول معه على الصحبة والأخوة نفسه وصاحبه الداخل معه عليها إلى الله تعالى بالاجتهاد في المسألة، والدعاء والتضرُّع، لأنه يفتح على نفسه بصحبته، إما باباً من أبواب الجنة، وإما باباً من أبواب النار، فإن فتح عليهما في مصاحبتهما بخير وداما عليه إلى أن ماتا عليها فقد فتح على نفسه بتلك الصحبة باباً من أبواب الجنة. قال مولانا سبحانه وتعالى ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: الآية 67] وإلا بأن نشأ عن صحبتهما شر،

= النافلة سبحة لأنها نافلة كالتسبيحات والأذكار في أنها غير موجبة. أما اللويحة: فربما كانت من صلاة الصبح لأن اللّياح، يعني الصبح.

(1) الجُذام: علة تتآكل منها الأعضاء وتتساقط.

(2) الجمل الشرود: النافر، الذي لا يُقدر عليه.

(3) البرزخ: الحاجز بين الموت والحياة.

والعياذ بالله تعالى، قطعهما عن الله تعالى، فقد فَتَح على نفسه بصحبته باباً من أبواب النار، قال تعالى ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ [الفرقان: الآية 27] الآية، وهي وإن كانت نزلت في سبب خاصٍّ وقصةٍ مشهورة[1]، فإن الله تعالى تنبيهاً في ذلك لعباده على الحذر ممن تقطع صحبته عن الله تعالى. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهل يفسِدُ الناسَ إلا الناسُ، فالفساد بالصحبة متوَقَّع، كما أن الصلاح متوقع، وما هذا سبيله كيف لا يحذرُ في أوله، ويحكم الأمرَ فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى، وصِدْقِ الافتقار وسؤال البركة فيه، وتقديم صلاة الاستخارة إلى غير ذلك، انظر «العوارف».

قلت: وما رأيت ولا سمعت أكثر قياماً بهذا الأدبِ ولا أشدَّ اعتناءً به من أصحاب سيدنا ﷺالذين صحبوه قيدَ حياته وحصل لهم التأهلُ لتلقين ورده، فإنهم كانوا إذا أتاهم من يريدُ الدخول في الصحبة والأخوة يظهر عليهم مزيد الاهتمام بشأنه والاجتهاد في الدعاء له، ولهم معه بالثبات في الأمر مع إسناد الأمر بينهم في ذلك إلى همَّة الشيخ ﷺ بإظهارهم أن يدَهُم فيه إنما هي يَدُ نيابةٍ لا غيرَ وأنهم ليس لهم فضلٌ على من يلقنونه ولا حظّ لهم فيما يعاملونه به من بذل النصيحة وكمال الإرشاد، إلا ما يرجونه من فضل الله تعالى بسبب التبليغ ظاهراً لا غير. ورأيت منهم من لا يلقن أحداً إلا بعد صلاة الاستخارة النبوية وصدق اللجأ إلى الله تعالى على أكمل ما يمكن، ومنهم من كان يزيدُ مع الاستخارة قراءةَ ما تيسَّر من صلاة الفاتح لما أغلق ويهدي ثوابها إلى الشيخ ﷺ، ويستأذنه في تلقِينِ وِرْده لذلك الإنسان الذي طلب منه بقلبه ولسانه بأن يقول: هذا فلان طَلَبَ مني أن ألقِّنه، وها أنا ألقنه عن إذنك وببركة همتك ونحو ذلك.

وقد أخبرني الناظم قدَّس الله سرَّه أنه لما عَزَم على الدخول في هذه الطريقة الشريفة أتى هو ورفيقٌ له إلى العلامة الكبير المقدم البركة الشهير أبي عبد الله سيدي محمد المدعو محمد بن سيدي عبد الله العلوي المدعو الخليفة لقيامه بعد الشيخ الجليل سيدي محمد الحافظ العلوي بأعباء تلقين الأوراد والهداية والإرشاد، فلما طلبا منه ﷺ أن يلقِّنهما الوردَ ظهر عليه ما ظهرَ من أثر الاهتبال لذلك، ولم يقرَّ له قرارٌ حتى سارَ بِهما إلى ضريح

---

(1) قال ابن عباس في رواية عطاء الخراساني: كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ ويجالسه ويستمع إلى كلامه من غير أن يؤمن به، فزجره عقبة بن أبي معيط عن ذلك، فنزلت هذه الآية. وقال الشعبي: وكان عقبة خليلاً لأمية بن خلف، فأسلم عقبة، فقال أمية: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً عليه الصلاة والسلام، وكفر وارتد لرضا أمية، فأنزل الله تعالى هذه الآية.
وثمة رواية أخرى لقصة عقبة وأمية. انظر أسباب النزول للواحدي: 245.

سيدي محمد الحافظ ﷺ وكان على مسافة من محلِّه، فلما أدَّى الواجبَ من التسليم عليه وزيارته أمرهما أن يَدْنُوَا من القبر المبارك ثم خاطبه وهما يسمعان، بأن قال له بلسان يُعلَمُ منه الخضوعُ والانكسار والعجز والافتقار: هذا فلان بن فلان وفلان بن فلان جاءا يطلبان مني أن ألقِّنهما وردَ مولانا الشيخ ﷺ، وها أنا ألقِّنهما عن إذنك وإذن الشيخ ﷺ، ثم لقَّنهما وأكثر الدعاء بذلك المحلِّ المبارك له ولهما، وقد اتفق للناظم أيضاً رحمه الله مثل هذا بفاس فلقنه بعض مشاهير أصحاب سيدنا ﷺعند قبره الأنور ﷺ على نحو ما تقدم، وهذا من عناية الله تبارك وتعالى به، وقد ظهر عليه أثرُ ذلك، فصار أمرُه إلى ما صار إليه من التبريز في التحقيق وبلوغ درجة الكمال في الصدق والتصديق، ومنهم من كنتُ أراه إذا أراد أن يلقِّن أحداً يأمره أن يحضرَ الوظيفة مع الفقراء بالزاوية في وقتها المعلوم، فإذا ختمت الوظيفة يظهر على وجهه من أثر الحضور ما يعلم منه أنه يستأذن في ذلك الحضرةَ الشريفة، ثم بعد الفراغ من القراءة والدعاء يتوسَّم وجوهَ الحاضرين كالمستمد من بركاتهم ويقول لهم: هذا فلان قد أراد الدخولَ في عهد الشيخ ﷺ، ثم يلقنه ويجتهد هو والحاضرون في الدعاء له.

وإنما أطلتُ النفسَ في هذا الأدب تنبيهاً ونصيحة للإخوان، وإرشاداً إلى العمل على هذا الأدب والقيام به بقدر الإمكان، فربما يرى بعض المتصدِّين للتلقين إذا كان غراً بمدارك الأمور ما في كتاب «جواهر المعاني» وغيره من أن هذا الورد الشريف يلقَّن لكل من طلبه من المسلمين على أي حالة كان كبيراً أو صغيراً، ذكراً أو أنثى، طائعاً أو عاصياً، فيظهر له أن المراد بهذا الكلام الأمر بالمسارعة إلى التلقين من غير تثبُّتٍ ولا تأنٍّ ولا قيام بآداب المقام، وليس الأمرُ كذلك، بل لابد من التثبُّت والتأني، فلا يلقَّن الطالبُ لذلك إلا بعد عرْضِه الشروط المشروطة في ذلك عليه وإيناسه منه قبولها القبولَ التام، كيف يرى بإزاء هذا الكلام من جواهر المعاني قول سيدنا ﷺ: ومن أخذ هذا الورد وتركه تركاً كلياً أو متهاوناً به حلَّت به العقوبة، ويأتيه الهلاك في الدنيا والآخرة إلى آخر كلامه ﷺالمؤكد بالوصية التي هي من لفظ سيد الوجود ﷺ.

فالعمل على هذا الأدب من آكدِ الأمور في هذه الطريقة، وأهمها لما يفضي إليه تركُ العمل عليه من التسبُّب في العقوبة والهلاك والعياذ بالله تعالى، والله تعالى يلهمنا الرشدَ والصواب ويختار لنا من الحركات والسكنات في جميع التقلبات ما تحمدُ به العاقبة في الحياة وعند المآب، إنه الكريم الجواد الفتاح الوهاب.

ومن آداب الصحبة والأخوة عند إرادة الدخول فيها أيضاً أن يسأل كل منهما صاحبه

عن اسمه واسم أبيه وعن منزله، لما روي أن النبي ﷺ رأى ابن عمر[1] رضي الله عنهما يلتفت يميناً وشمالاً، فسأله فقال: يا رسول الله إني أحببتُ رجلاً في الله تعالى فأنا أطْلُبه ولا أراه، فقال له ﷺ: «**يا عَبْدَ الله إذا أحْبَبْتَ أحداً فاسْأَلْهُ عن اسمِه واسم أبيه وعن منزِلِه، فإنْ كانَ مَريضاً عُدْتَه، وإنْ كانَ مَشْغُولاً أعَنْتَه**» اهـ. وقد رأيت بعضَ الأصحاب يعمل على هذا الأدب، حتى ربما قيَّد أسماءَهم إن لم يكونوا من أهل البلد الذي هو فيه، ولا شكَّ أن ذلك من الاعتناء بحقوق الأخوة في الله تعالى، وقد علم ما في ذلك من الخير والله الموفق.

ومن آداب الأخوة التودُّد والتألُّف بكلِّ ما يُقْدَر عليه ويستطاع فعلُه مع الأخ من الأفعال التي تستجلب بها مودته وتصفو بها أخوته، وهذا الأدبُ هو الأصلُ الجامع لسائر الآدابِ كلها، وإليه مرجعُ الأخلاق الحسنة بأسرها، ولهذا كان رأسَ العقل، كما في الحديث عن النبي ﷺ «**رأسُ العَقْلِ بَعْدَ الإيمَانِ بالله تعالى التودُّدُ إلى النَّاسِ**» ويكون التودُّد بأمور هي معظمُ آداب الأخوة في الله تعالى. ومنها أن يحفظَ الأخ قلبَه بقدرِ استطاعتِه من أن يضمِرَ فيه سوءاً لأخيه إذا رأى منه ما يكره وحِفظ القلبِ من ذلك يكون بتنبيهه إياه على ما كَرِهَه منه، لكن بلطافةٍ وحسن سياسة، بحيث يفارقُ ما كرهه منه وهو لا يشعرُ أنه مقصودٌ من أخيه بذلك التنبيه، وهذا أوْلى متى أمكن لجريه على سنن الأخلاق المحمدية، ولبُعدِه عن مظانِّ الضغينة وغيرِها مما يؤدي إلى فسادِ الطويَّةِ، فإنْ لم يكن هذا وأدَّى الحال إلى التنبيه بالكلام، فليكنْ في الخلا لا في الملا، وبتقديم تمهيدٍ يأنسُ به المنصوح، بحيث يقعُ في نفسِه ذمّ ما أراد أن يأمره الناصح بالتخلية عنه قبل أن يأمرَه بذلك وبإخلاصِ القصْد في ذلك لله تعالى، والعزم على أن لا يذكر ذلك لأحد كائناً من كان.

ومن آداب المنصوح هنا: أن يروِّضَ نفسَه لتلقِّي نصيحة أخيه بالقبول، ويعلم أنه إنما فعل ذلك لكمال مودته وصفاء إخائه، فيثني عليه ويجازيه بدعاء الخير على ما أسداه إليه. وقد روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه كان يقول: رَحِمَ الله امرأ أهْدَى إليّ عُيوبي، ومعلومٌ أن الصادقَ يحب من يصدقه والكاذب بخلافه، فلا يحبُّ الناصح كما قال تعالى ﴿وَلَٰكِن لَّا

---

(1) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن، صحابي من أعز بيوتات قريش في الجاهلية. كان جريئاً جهيراً، نشأ في الإسلام، وهاجر مع أبيه وشهد فتح مكة. أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، ومات سنة (73هـ).

انظر الإصابة: ت (4825)، وتهذيب الأسماء: 1/ 278، وطبقات ابن سعد: 4/ 105، وصفة الصفوة: 1/ 228.

﴿تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: الآية 79] وليحذر المنصوحُ من ثورة النفس عند سماعِه النصيحة، فيحتقر الناصح ويقول له: مثلك ينصحني! أو ما في معنى ذلك، فإن ذلك من الجفاء ومن أعظم أسباب الانتكاس والسقوط من عين الله والعياذ بالله تعالى.

قال الشيخ محيي الدين: ومن قالَ لِنَاصِحِه على سبيل شفوفِ نفسِهِ عليه: مثلك ينصحني، أو لمثلي يقال هذا، فاعلم أنه سقَطَ من عينِ الله تعالى وقد حَجَبه الله عزَّ وجل عن عبوديته وعن الإيمان، فإن الله تعالى يقول ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: الآية 55] وبالجملة فالذي عليه المدار في هذا الأدب هو حفظ القلب من إضمار السوء للأخ، فإن أمكن تنبيهه على الكيفية السابقة أو التسبب في إزالة الوصف المكروه منه بشيء فذاك، وإن لم يكن ذلك فليجتهدْ في الدعاء له بظهر الغيب من غير تقصيرٍ، وهذا أدنى الدرجات فيما يطلبُ من حقوق الأخوة في هذا الباب، وليجاهدْ نفسَه بعد هذا في التخلّي عن إضمار السوء لأخيه ما أمكنه، وذلك لأنهم نصوا على أنّ أحدَ الأخوين إذا أضمرَ لأخيه سوءاً، وأحرى إذا أضمر كلٌّ منهما للآخر ذلك والعياذ بالله تعالى فقد ارتفعتْ بينهما الأخوةُ من أصلها، إذ الأخوة مواجهةٌ، كما أفاده من طريق الإشارة قوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: الآية 47] ومتى وقع إضمارُ السوء من أحدِهما أو منهما ارتفعت المواجهةُ وحصلت المدابرة. وبالمدابرة يرتفع وصفُ الأخوة من بينهما والعياذ بالله تعالى، ولهذا أَمَرَ سيدنا ﷺ في وصيته الشهيرة لفقراء فاس[1] أن تصحبَ المناصحةَ بالرفقِ واللين من غير ضغينةٍ ولا حقد. قال في «الجيش الكفيل» على قول سيدنا ﷺفي هذه الوصية من غير ضغينة ولا حقد: هو تأكيدُ الأمرِ بالرفق والملاطفة، إذ عنهما ينشأ الحبُّ وعن العنف البغضة والحقد. قال: ويحتمل أن يريد بذلك أن لا تكون السياسة مصحوبةً بضغينة وحقد من الناصح، لأن المؤمن ليس بحقودٍ كما في الحديث، ومعنى الحقد كما في «الإحياء» أن يلزمَ قلبه استشغاله والبغضة له والنفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى، فيثير الحسد والشماتة والهجران والاستصغار والوقوع فيما لا يحلُّ الكلام ومعنى الحق وغير ذلك، وكل ذلك حرام، وأقلُّ درجاته أن يحترز من هذا كله، ولكن يستشغله بالباطل، ولا ينتهي باطنه عن بغضه حتى يمنع من البشاشة له، والرفق والعناية به، والقيام بحاجته، ومجالسته، والمعاونة على المنفعة له، ويترك الدعاء له والثناء عليه، وهذا كلُّه ينقص من درجات الدين وإن كان لا يعرض للعقاب، اهـ من «الجيش»، وراجعه إن شئت.

---

(1) فاس: مدينة كبيرة مشهورة على بر المغرب من بلاد البربر، وهي حاضرة البحر وأجلّ مدنه قبل أن تختط مراكش. انظر معجم البلدان: 4/ 230.

واختلف إذا ظهر من أحدٍ من المتواخين ما يوجب المقاطعةَ هل يهجرْ أم لا؟ وكان أبو ذر[1] ﷺ يقول: إذا انقلبَ الأخُ عما كان عليه أبغضته من حيث أحببته. وذهب غيره إلى أن الأخ لا يبغضُ بعد الصحبة، ولكن يبغض فعلَه، كما قال تعالى ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء: الآية 216] ولم يقلْ جلَّ وعلا إني بريءٌ منكم. وكان زين العابدين[2] ﷺ يقول: لا تبغضْ ذات أخيك وابغضْ فعله، فإن تابَ منه فهو أخوك. وذكر أن شاباً كان يلازِمُ مجلس أبي الدرداء[3] ﷺ، وكان أبو الدرداء يميزه على غيره فابتُلي الشاب بكبيرة من الكبائر، وانتهى إلى أبي الدرداء ما كان منه. والذي عليه المحققون. ويمكن أن يكون كالجمع بين القولين السابقين التفصيل فيما يظهر من موجب البغض، فإن كان الموجبُ فسادَ عقيدة وسوء ظن وفسخ عهد عمداً بانقلاب عن الحالة الأولى جهاراً بإبداء العداوة والتجاهر بالمخالفة والعياذ بالله تعالى، فإن صاحبَ هذا الحال يجب هجرُه وإبعاده موافقةً للحق فيه لا احتقاراً له، وعليه يحمل قولُ أبي ذر ﷺ: أبغضتُه من حيث أحببته، فلا خير في موالاته إلا إذا تاب ورجع نادماً مستغفراً مستقيلاً معترفاً منكسراً، وإن كان الموجب ارتكاب ذنب لا يرضاه ربه، والتلبُّس بشيءٍ مما يشينُه عند الناس ملابسته وقربه، أو عثرة حدثت أو هفوة وقعت، وكان بحيث تُرْجى توبته وتتوقع فيئته[4]، فهذا لا ينبغي أن يعامل بالبغض لذاته ولكن ببغض فعله وما تلبَّس به من عوارض هفواته، ويلحظ

---

(1) أبو ذر: هو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد من بني غفار، من كنانة بن خزيمة، صحابي من كبارهم، قديم الإسلام بعد أربعة، ويضرب المثل به في الصدق وهو أول من حيّا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام. نفاه عثمان بن عفان إلى الربذة فسكنها إلى أن مات فيها سنة (32 هـ)، وكان كريماً لا يخزن شيئاً من المال.
انظر ابن سعد: 4/ 161، والإصابة: 7/ 60، وصفة الصفوة 1/ 238، وحلية الأولياء: 1/ 156، وأسد الغابة.

(2) زين العابدين: هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي، أبو الحسن، رابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، وأحد من كان يضرب بهم المثل في الحلم والورع، يقال له «علي الصغير» تمييزاً بينه وبين أخيه «علي» الأكبر. مولده ووفاته بالمدينة (38 ـ 94هـ).
انظر وفيات الأعيان: 1/ 320، وابن سعد: 5/ 156، وصفة الصفوة: 2/ 52، وحلية الأولياء: 3/ 133.

(3) أبو الدرداء: هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة. كان قبل البعثة تاجراً في المدينة، ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك. ولاه معاوية قضاء دمشق وهو أول قاض بها. كان من العلماء الحكماء، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً على عهد النبي ﷺ بلا خلاف. روي عنه (179) حديثاً، ومات بالشام سنة (32هـ).
انظر الإصابة: ت (6119)، وحلية الأولياء: 1/ 208، وغاية النهاية: 1/ 606، وأسد الغابة.

(4) فيئته: رجوعه وتوبته عمّا كان عليه.

مع ذلك بعين الوداد وينتظر له الفرج والعود إلى مواطن الصلح من مواطن الجفاء والبعاد، وهذا هو الذي يجب على أخيه أن يعامله بجميع ما تقدَّم ذكره، وأن يتحفَّظ غاية التحفُّظِ من أن يتغير عليه باطنه وسرُّه، وأحرى أن لا يشتمه مشافهةً أو يعيِّره بفعله مواجهة. وقد قال ﷺ لمن شتَم الرجلَ الذي أتى بفاحشة «مَهْ لا تَكُونُوا أَعوَاناً للشَّيْطانِ على أَخِيكُمْ»[1] وقال إبراهيم النخعي[2]: لا تقطعْ أخاك ولا تهجره عند الذنب لذنبه، فإنه يرتكبه اليومَ ويترُكُه غداً، وخصوصاً إذا كان هذا الأخُ الذي صدرتْ منه هذه العثرة، أو دهمته هذه الفترة، ممن تقدَّم له ممارسةٌ بالطريق وإشرافٌ على مدارج الأذواق والتحقيق، فإنه تجبُ معاملته بالإغضاء ومزيدِ البر والإرضاء. وفي الخبر «اتَّقوا زَلَّةَ العالمِ ولا تَقْطَعُوه وانتظِرُوا فَيْئَته» ومن الأدب هنا أن يكثرَ الأخُ من الاستغفار لأخيه المبتلى بما ذكر بظهر الغيب، وأن يهتمَّ له غايةَ الاهتمام، ويتوجَّه إلى الله تعالى بقدْرِ الإمكان في كشف ما نزل به، وأن لا يقصِّرَ في نصحه، لكن على الحدِّ الذي تقدَّم وجهه.

ومما ذكروه من الحكايات في هذا الأدب: أن أخوين ابتُلي أحدُهما بهوى، فأظهر عليه أخاه فقال: إني ابتُليت بهوى، فإن شئت أن لا تقعدَ على أخوَّتي ومحبَّتي فافعل، فقال الله تعالى ما قاله أخوه: ما كنتُ لأحلَّ عَقْدَ إخائك لأجلِ خطيئَتك، وعقَدَ بينه وبين الله عقداً أن لا يأكلَ ولا يشرب حتى يعافى أخوه من هواه، فطوى[3] أربعين يوماً في كلِّها يسألُه عن هواه فيقول لا زالَ، فبعد الأربعين أخْبَرَه أن الهوى قد زالَ، فحمِدَ الله تعالى وأكلَ وشرب اهـ.

وروي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان آخى رجلاً في الله تعالى، فخرج ذلك الرجلُ إلى الشامِ فسألَ عنه سيدنا عمر رضي الله عنه بعضَ من قدِمَ من الشام، فقال: ما فعل أخي؟ فقال: ذلك أخو الشيطان، قال: مه، قال: إنه قارفَ الكبائرَ حتى وَقَع في الخمر، فقال رضي الله عنه لذلك الرجل: إذا أردتَ الخروج يعني إلى الشام فآذنِّي، فكتب إليه سيدنا عمر رضي الله عنه ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾

---

(1) رواه البخاري في (الحدود: 5)، وأحمد: 1/ 438.

(2) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، أبو عمران النخعي، من مذحج، من أكابر التابعين صلاحاً وصدق رواية وحفظاً للحديث، من أهل الكوفة. مات مختفياً من الحجاج سنة (96هـ). قال الصلاح الصفدي: فقيه العراق، كان إماماً مجتهداً له مذهب.
انظر ابن سعد: 6/ 188، وحلية الأولياء: 4/ 219، وتاريخ الإسلام: 3/ 335، وطبقات القراء: 1/ 29.

(3) طوى: ظلَّ جائعاً.

[غافر: 1 ـ 3] ثم عاتبه تحت ذلك وعَذَله، فلما قرأ الكتابَ بَكَى وقال: صَدَقَ الله ونَصَحَ عمرُ فتاب ورجع.

ومن الأدب في هذا الباب أيضاً إذا وَقَع ونزل وحصلت فرقةٌ ومباينة أن يذكره إلا بخير لما روي عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم أنه كانتْ له زوجةٌ لا ترضِيه أخلاقُها فكانَ إذا استُخْبِر عن حالها يقولُ: لا ينبغي للرجلِ أن يقولَ في أهلِه إلا خيراً، ثم فارَقَها وطلَّقها، فاستخبرَ عن حالها فقال: امرأةٌ بعدت مني، وليست مني بشيء كيف أذكرها. قال السهروردي رحمه الله تعالى بعد حكايته لهذا: وهذا مِن التخلُّق بأخلاقِ الله تعالى الذي أظهر الجميلَ وستر القبيح اهـ.

ومنها، أي الأمور التي ينشأ عنها التودُّد والتآلف، وهي كما أسلفناه معظمُ الآداب الموافقة وترك المخالفة مع الإخوان والأصحاب ويكون ذلك بتَرْكِ المِراءِ[1] والجدال ولا ينتزع المراء إلا من نفوس زكية، قد انتزع منها الغلُّ وغيره من الأخلاق الردية، واتصفت بالأخلاق الحسنة المرضية، إذ وجودُ الغلِّ في النفوس كما قيل مراء، وإذا انتزع المراء من الباطن ذهبَ من الظاهر، وأكثرُ ما ينشأ عنه الغلُّ في الباطن المزاحمةُ على الحظوظِ العاجلة بكثرة المناصرة فيها والمنافسة، خصوصاً ممن كان بينهما مشاكلةٌ ومماثلة ومجانسة، ومن استقصى في تذويب حظوظ النفسِ بنيران الذكر على سبيل التزكية بالسلوك على أيدي الكمَّل من أهل التربية تنحَّى الغلُّ من باطنه بحيث لا تبقى فيه بقيةٌ، وتصير نفسُه أخروية بعد أن كانت دنيوية، فلا ينافس بعد ذلك في شيء من الحظوظ العاجلة من جاهٍ أو مال لكمال تعلُّق قلبه بحضرة مولاه ذي الجلال، كيف يبقى كما قيل: الغلّ في قلوب ائتلفت بالله واتفقت على محبته واجتمعت على مودته وآنست بذكره واستغرقت في شكره، فإن تلك قلوبٌ تَصَفَّتْ من هواجس النفوس وظلمات الطبائع، بل كُحِّلت بنور التوفيق من فضل الملك الصانع، ولا محالةَ أن هذه القلوب هي قلوبُ أهل الله المجتمعين على الكلمة الواحدة مع التعلُّق بشروط الطريق، والانكباب على طلب الحق، بكمال الصدق والتصديق.

قال أئمة الطريق ﷺ: والناسُ في هذا رجلان: رجلٌ طالب ما عندَ الله ويدعو إلى ما عند الله نفسَه وغيرَه فما للمحقِّ مع هذا منافسة ولا مراء ولا غلّ، لأنه معه في طريق واحدة ووجهة واحدة فهو أخوه ومعينه، «والمؤمِنُ للمُؤمِن كالبُنْيانِ المَرْصُوصِ يشدُّ بعضُه

---

(1) المِراء: الجدال والمناظرة والمخالفة.

بعضاً»[1]. ورجل مفتَتَنٌ والعياذ بالله تعالى بشيء من محبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق، فما للمحقِّ مع هذا أيضاً منافسة، لأنه زهِدَ فيما رغب فيه، فهو في وادٍ وذاك في وادٍ اهـ.

ومن الأدب أن ينظرَ إلى مثل هذا نظرَ شفقةٍ ورحمةٍ فلا ينطوي له على غلٍّ، ولا يشتغل معه بمراء ولا مجادلة لعلمه بظهور نفسه الأمَّارة في ذلك بما تقتضيه المجانسة الظاهرة والمشاكلة، وتركُ المراء خيرٌ كلُّه على كلِّ حال. وفي الحديث «مَنْ تَرَكَ المرَاءَ وهو مُبْطِلٌ بُني له بيتٌ في رَبَضِ الجنَّةِ، ومنْ تَرَكَ المراءَ وهُو محقٌّ بُنِي له بيتٌ في وَسَطِها، ومن حَسَّنَ خُلُقَه بُنِي له في اعلاها»[2] وهذا الأدبُ داخلٌ في عموم الأمر من الشيخ ﷺ بالتجنُّب لكلِّ ما يوجبُ ضغينةً في قلوب الإخوان، فليحافظْ عليه بقدر الإمكان، والله المستعان.

ومن الأمور التي يكون بها التودُّد والتألف أيضاً: إيثارُ الأخ أخاه في أمر دنياه، قيل: وكذا فيما يتعلَّق بأمرِ أخراه. والأصلُ الذي استند إليه أهلُ الطريق في هذا الباب قول الله تعالى في حقِّ الأنصار ﷺ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية 9] وقد سُئِل الشيخ أبو الحسن البوشنجي عن الفتوة؟ فقال: الفتوة عندي ما وصف الله تعالى به الأنصار في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحشر: الآية 9] إلى قوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية 9] قال ابن عطاء: «ويؤثرون على أنفسهم» جُوداً وكرماً «وإن كانَ بهم خصاصة» جوعٌ وفقر.

فأما الإيثارُ في أمر الدنيا فقد وردت في الترغيب فيه أخبارٌ كثيرة، ويكفي ما روي من ذلك في سبب نزولِ هذه الآية الكريمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: الآية 9] الآية[3]، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك أن النبيَّ ﷺ قال للأنصار وقد حضرتْ غنيمةٌ: «إن شِئتُمْ قَسَمْتُمْ للمُهاجِرِينَ مِنْ أمْوَالِكُمْ ودِيَارِكُمْ وتُشارِكُونَهُمْ في الغَنِيمَةِ، وإنْ شِئتُمْ كانَتْ لكُمْ أمْوالُكُم ودِيارُكم ولم يُقْسَمْ لكُم من الغَنِيمَةِ» فقالت الأنصارُ ﷺ: بل نَقْسِمُ لهم مِن ديارِنا وأموالِنا ونُؤثِرُهم بالغنيمةِ ولا نشاركُهم فيها، فنزلت الآية.

---

(1) رواه البخاري في (المظالم: 5)، وفي (الصلاة: 88)، وفي (الأدب: 36)، و الترمذي في (البر: 18)، والنسائي في (الزكاة: 67)، وأحمد: 4/ 404.

(2) رواه أبو داود في (الأدب: 7)، والترمذي في (البر: 58).

(3) انظر أسباب النزول للواحدي: 317 ـ 318.

وعن أبي هريرة ﷺ في ذلك حديث الرجل الذي استطعم النبيَّ ﷺ فبَعَثَ لأزواجه فلم يُلفَ عندَهُنَّ شيءٌ، فقال عليه الصلاة والسلام «مَنْ يضِيفُ هذا هذه اللَّيْلَة؟» فقامَ رجلٌ من الأنصارِ وذَهَبَ به إلى أهله، وقال لزوجتِه هذا ضيفُ رسول الله ﷺ فأكرميه ولا تدَّخري عنه شيئاً، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، فأمَرَها أن تعلِّلَهُم حتى يناموا فقدَّمت طعامَهُم للضيفِ، ثم قامتْ إلى السراجِ كأنَّها تريدُ إصلاحَه فأطفأتْه، فجَعَلَ الضيفُ يأكلُ وهي وزوجُها يمضغانِ ألسنَتهما، والضيف يظنُّ أنهما يأكلان فأكَل حتى شبع، وباتا طاويين[1]، فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله ﷺ، فلما نظرَ إليهما تبسَّم وقال «لقَدْ عَجِبَ الله مِنْ فلان وفلانة هذه الليلة»[2] ونزلت الآية.

وعن أنس ﷺ في ذلك أيضاً أنه أهدي إلى بعض الصحابة ﷺ رأس غنمٍ مشوي، وكان مجهوداً، فوجَّه به إلى جارٍ له فتداوله سبعةُ أنفسٍ ثم عاد إلى الأول، فنزلت الآية، إلى غير ذلك مما روي من الأحاديث في هذا الباب.

وأما ما اتفق لكُمَّلِ الأولياء من هذا المعنى فشيءٌ كثيرٌ، وأعجب ما رأيناه في ذلك ما ذكره عن الثوري مع جماعة من المشايخ منهم الجنيد، لما سعي بهم، فتستَّر الجنيد بالفقه، وقُبِضَ على الباقين، وأمِرَ بضَرْبِ أعناقِهم فتقدَّم الثوري، فقيل له إلى ماذا تبادر؟ فقال: أوثِرُ أصحابي بفضل حياةِ ساعةٍ اهـ.

وأما الإيثارُ بأمور الآخرة: فمن ذلك ما ذُكر عن بعضهم أنه لقي أخاً له، فلم يظهر البشرَ الكثير في وجْهه، فأنكر أخوه ذلك منه فقال: يا أخي سمعتُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا الْتَقَى المسْلِمَان تَنْزِلُ عَلَيْهِما مائةُ رحْمَةٍ تسعون لأكْثَرِهِما بِشْراً وعشر لأقلِّهما بشراً» فاردْتُ أن تكونَ أكثرَ مني بشْراً ليكونَ لك الأكثر. اهـ. وانظر ما ذكروه من أن المريد لا ينبغي له أن يؤثر بفضلِه الشيخ ونحوَه مما يخصُّه به، كما قال الشيخ زروق ﷺ: ومتى أعطاكم مأكولاً أو غيرَه لا تؤثروا به الغيرَ ولا تشاركوا قريباً ولا بعيداً فيه فقد يكون جمع لكم فيه سراً، فيفوتُ من المدَدِ بحسبِ الشركة فيه اهـ. هل هو مستثنى مما تقدم أو لا؟ والظاهر، والله تعالى أعلم، أن المريدين المتواخينَ في الله تعالى، الصادقين في طريق الإرادة، موكولون في ذلك إلى ما تنتجه لهم أحوالُ محبَّتهم وصدقهم، فلا يعترضُ على من

---

(1) باتا طاويين: أي جائعين.

(2) رواه مسلم في (الأشربة: 172).

وقال في أسباب النزول: رواه البخاري عن مسدد، عن عبد الله بن داود، ورواه مسلم عن أبي كريب عن وكيع، وكلاهما عن فضيل بن غزوان.

امتنعَ من الإيثار، كما لا يعترض على من جنح إليه، إذ كلٌّ منهما على صوابٍ بحكم ما أنتجه له حال صدقه ومحبته فافهم، والله تعالى أعلم.

ومن ذلك أيضاً وهو من آكدها مواساةُ الأخ أخاه من ماله، وكذا من جاهِه بالمقدور، ومواصلته بطريق المجاملة والمكارمة في الورود والصدور، والأدبُ في هذا الخلق أن يكونَ على أحسنِ وجُوه الكمالِ حتى لا يحصلَ به شيءٌ مما يتأذّى به المواسي كالمنِّ، وما في معناه مما جبِلت عليه أنفسُ اللئام من الناس، ومما هو في معنى المنِّ جَعْلُها في مقابلة غرضٍ من الأغراض، أو عوضٍ من الأعواض، ولو الجزاء من الشكر عليها من المواسي والثناء من غيره، لأن الحاملَ على الإيثار والمواساة طهارة النفس وشرف غريزتها، وهذا الوصفُ في النفس لا يتكاملُ إلّا في أهل طريق الله تعالى وهو المعبَّر عنه بالسخاء، وفي مقابلته الشحّ، كما أن الجود في مقابلته البخلُ، والفرق أن الجودَ والبخل يتطرَّق إليهما الاكتساب بطريق العادة، بخلاف السخاء والشح، إذا كانا من غرائز النفس البشرية، فكل سخيٍّ جوادٌ ولا عكس، والجودُ يتطرَّق إليه الرياءُ لما فيه من التطلُّع إلى العوضِ بمقابلةٍ ما، ولو بالثناء، والسخاءَ لا يتطرق إليه الرياء، لأنه ينبعُ من النفوس الزكية والهمم المرتفعة عن الأعواض كيفما كانت، فكلٌّ من كانت غريزته أسخى تكون مرتبته في الصفاء أعلى، قال الله تبارك وتعالى ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية 9] فحكم سبحانه في هذه الآية بالفلاح للسخيِّ والفلاحُ أجمع اسم لسعادة الدارين وهذا الأدب والذي قبلَه مصرَّح به في الرسالة الأولى وفي السادسة أيضاً من رسائل الشيخ ﷺ فراجعْ ذلك في كتاب «جواهر المعاني»، وعلى ذلك فيجب التنبُّه له والعمل به بقدر الاستطاعة والله المستعان.

ومنها أيضاً: أي من الأخلاق المنتجة للتودُّد والتآلف مداراة الإخوان واحتمال الأذى منهم، وقد بلغَ من مداراة رسول الله ﷺ أنه كان لا يذمُّ طعاماً ولا ينهرُ خادماً[1].

وعن سيدنا أنس ﷺ «خَدَمْتُ رسولَ الله ﷺ فما قال لي أُفٍّ قط»[2] الحديث. وقد

(1) في الحديث «ما عاب النبي ﷺ طعاماً قط».
رواه البخاري في (المناقب: 23)، وفي (الأطعمة: 21)، وأبو داود في (الأطعمة: 13)، والترمذي في (البر: 84)، وابن ماجه في (الأطعمة: 4).
وفي الحديث «ما ضرب رسول الله ﷺ خادماً قط».
رواه أبو داود في (الأدب: 4)، وابن ماجه في (النكاح: 51)، والدارمي في (النكاح: 34).
(2) رواه مسلم في (الفضائل: 51)، وأبو داود في (الأدب: 1) والدارمي في (المقدمة: 10).

قالوا: لا شيء يستدلُّ به على قوةِ عقل المرءِ ووفور علمه وحلمه كحُسْنِ المداراة. وقالوا: لكلِّ شيءٍ جوهرٌ وجوهر الإنسان العقل، وجوهرُ العقلِ الصبر، ولهذا قيل: باحتمال الأذى يظهر جوهرُ النفس.

وبيان ذلك أن النفسَ لا تزال تشمئزُّ ممن يعكس مرادَها ويستفزها الغيظُ والغضب، وبالمداراة والاحتمال قطع حميتها وردّ طيشها وكَظْم غيظها، ويكفي في الحثّ على هذا الأدب والترغيب فيه قول الله عزَّ وجل ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عِمرَان: الآية 133] الآية.

وفي الحديث «**مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وهُو يَسْتَطيعُ أن يُنْفِذَهُ دَعاهُ الله يَومَ القيامَةِ على رُؤوسِ الخَلائِقِ حتَّى يخيِّرَهُ في أي الحُورِ شَاءَ.**»[1].

وتشتبه المداراة بالمداهنة، والفرقُ بينهما أن المداراةَ ما أردت به صلاحَ أخيك فداريتَه رجاءَ إصلاحِه، واحتملت منه ما تكره. والمداهنة ما قصدتَ به شيئاً من الهوى كطَلَبِ حظٍّ وإقامة جاهٍ، فالأولى من أخلاق الأخيار، والثانية من سمات الأشرار، وقيل في الفرق بين حقيقتيهما إن المداراةَ بذْلُ شيء من الدنيا لإصلاح الدين، والمداهنة بذلُ الدِّين لإصلاح الدنيا، وهذا الأدب أيضاً قد أكَّد عليه الشيخ ﷺ في رسائله، فهو داخلٌ في عمومِ الأمرِ بتجنُّب كل ما يوجب ضغينةً في قلوبِ الإخوان، والأمر بالإكثار من العفو عن الزللِ وغير ذلك مما يطول تتبعه وجلبه، فليجتهد المريدُ في العمل عليه، وليجاهدْ نفسَه ما استطاع بتَرْكِ ما يبعد عنه وارتكاب ما يُوصِل إليه والله ولي التوفيق.

ومنها أي من الأخلاق التي تنتج التودُّدَ والتآلفَ، **أن لا يُحوِجَ الأخُ أخاه إلى المداراة ولا يُلجِئهُ إلى الاعتذار، ولا يكلِّفه ما يشقُّ عليه** لقولِ مولانا علي ﷺ: شرُّ الأصدقاء من أحْوَجَك إلى مداراةٍ وألجاك إلى الاعتذارِ، وتكلَّفت له اهـ.

والجمعُ بين هذا الخلق والذي قبلَه من أكملِ أوصافِ أهل الطريق، وذلك بأن يعامل أخاه بحسن المداراة ولا يحوِجُه هو إلى أن يعامله بمثل ذلك، وهذا من أعظم أخلاق الفتوَّة، لأن فيه بذلَ الإنصاف للأخ، وتركَ المطالبة بالإنصاف منه، وهو من أعظم أخلاقهم وأكمل آدابهم.

قال الشيخ أبو عثمان الحيري ﷺ: حقُّ الصحبةِ أن توسِّع على أخيك بمالك، ولا

---

(1) رواه أبو داود في (الأدب: 3)، والترمذي في (البر: 74)، وابن ماجه في (الزهد: 18).

تطمَع أنت في ماله، وتنصفه من نفسك ولا تطلبَ منه الإنصاف، وتكون تبعاً له ولا تطمع أن يكون تبعاً لك، وتستكثر ما يصلُ إليك منه وتستقلَّ ما يصل إليه منك اهـ.

وبالجملة فالمعاملة على الأعواض ليست من أخلاق الأخيار، وإنما هي من أخلاق الفجار، ولا يخفى دخولُ هذا الأدب فيما تقدَّم عن الشيخ ﷺ، وفي غيره مما اشتملت عليه رسائلُه ووصاياه، فليحكُم بقدْرِ الاستطاعة وليعمل عليه، والله ولي التوفيق والهداية.

ومن الأخلاق المنتجة للتودُّدِ والتألف أيضاً تركُ تكلف الأخ لأخيه في جميع معاملته معه، وذلك لأن التكلف تصنُّع من أجل الناس، وما كان كذلك لا يلبث أن يضمحلَّ وينقلب على الضدِّ أمرُه، ويقال: التكلُّف تخلُّفٌ، أي تأخر عن شأوِ الصديقين، وذلك لأنه مبايِنٌ لأحوال أهل الصدق مع ما في بعضه من منازعة الأقدار، وعدم الرضا بقسمة الجبار. والتكلّف يكون بالملبوس كأن يلبس من أجل الناس من غير نية صالحة في ذلك، وبالكلام، وذلك بأن يخرج في الملاطفة إلى حدِّ التملُّق، وقد يتملّق الإنسان إلى حدٍّ يخرجه إلى حد النفاق والعياذ بالله تعالى. وفي الحديث «الحَيَاءُ والعيُّ شُعْبَتَانِ منَ الإيمانِ، والبَذَاءُ والبيانُ شعبتانِ من النفاق»[1]. قال العلماء: والمراد بالبيانِ هنا كثرةُ الكلام والتكلّف للناس بزيادة تملُّقٍ لهم وثناء عليهم وزيادة التفصُّح وذلك ليس من شأن أهل الصدق، ويكون التكلف أيضاً بالطعام الذي يقدَّم للضيف ونحوه، والفتوةُ تركُ التكلف وإحضار ما حضر، وبذلك يستوي مقام الضيف وذهابه وبالتكلّف تؤثر مفارقته، وفي الحديث «مِنْ مكارِمِ الأخْلاقِ التَّزَاوُرُ في الله، وحقٌّ على المزورِ أن يقرِّب إلى أَخِيه ما تيسَّرَ عندَهُ وإنْ لم يَجِدْ إلا جُرْعَةَ ماءٍ وإنْ احْتَشَم أنْ يقرِّبَ إلى أخيه ما تيسَّرَ له لم يَزَلْ في مَقْتِ الله يَوْمَه ولَيْلَتَه» اهـ.

ويحكى أنه لما ورد أبو حفص النيسابوري العراقَ تكلَّف له الجنيد أنواعاً من الأطعمة، فأنكرَ ذلك أبو حفص وقال: صيَّرَ أصحابنا مثلَ المخانيث يقدِّمُ لهم الألوان اهـ. قال أبو حفص ما قاله لكراهيتِهِ التكلُّف الذي هو ليس من شأن الإخوان الصادقين مع إخوانهم، وإنما هو من شأن المترفِّهين، وإلا فمن قدَّم لإخوانه الألوانَ بنيةٍ صالحة لا يكون مذموماً بل ذلك معدودٌ عندهم مما يستجلب به رضا الله تعالى، كما حكي عن بعض رجال الطبقات الشعراوية أنه كان يبالغ في إكرام الفقراء، حتى أنه كان يصنع لهم شبابيك من الحلواء ويقدِّمها لهم ليكسروها ويأكلوها، وعلى هذا يجري قولُ بعضهم: إذا قصدتَ

---

(1) رواه الترمذي في (البر: 80)، وأحمد: 5/ 269.

بالزيارة فقدِّم ما حضرَ وإذا استزرت فلا تبقي ولا تَذَرْ اهـ وكذلك اللباسُ المنتخَب إذا كان بقصد صحيح ونية صالحة كالتجمُّل للوفود وللأعياد والجمعة ونحو ذلك مما هو سنةُ النبي ﷺ لا يكون من تكلّف اللباس المذموم، وكذلك ما يستعملُه الصادقون من الفقراء في مدح أساتيذهم من القصائد الشعرية ونحوها مما يحملُ عليه صدق المحبة وصفاء المودة لا يعد من تكلُّف الكلام المذموم.

وبالجملة فالمدارُ على النية، فما عَمِله الإنسان بنية صالحة قاصداً به ما عند الله لا يعدُّ تكلفاً، وما عمله بنية فاسدة متبعاً فيه أغراضه وهواه عُدّ تكلّفاً، وصار وَبَالُه عليه، والعياذ بالله. وقد ورد في الخبر «من تطيَّب لله جاء يومَ القيامة وريحه أطيبُ من المسك الأذفر[1]، ومن تطيب لغير الله جاءَ يومَ القيامة وريحه أنتنُ من الجيفة» اهـ. وانظر «عوارف المعارف» للسهروردي رحمه الله تعالى. والعهود الكبرى والطبقات للشعراني ﷺ، وهذا الأدب أشار إليه سيدنا الشيخ ﷺ بقوله في بعض رسائله ما نصه: استدراك ما ذكرناه من مراعاة حقوق الإخوان، فليكنْ ذلك في غير حَرَج ولا ثقل ولا كلفة بما تيسَّر وأمكن، ثم قال سيدنا الشيخ ﷺ إلا أن يكون في بعض العوارض يخاف من أخيه العداوةَ والقطيعة أو فساد القلب، فليسرع لإصلاح قلبه، فإن ذلك يوجب الرضا من الله تعالى اهـ.

فأفاد كلامه ﷺ أنه لا بأس بإتيان الأخ ما فيه كلفة في بعض الأحيان إذا كان في ذلك تطييبٌ لخاطر أخيه بحسب ما يعرض في ذلك الوقت وأن ذلك لا يُعَدُّ من التكليف المذموم عند أهل الطريق، بل هو عندهم من الأمور التي يستجلب بها رضا الله تعالى، وذلك لأنه من جملة المداراة المحمودة التي هي بذلُ شيء من الدنيا لإصلاح الدين، فافهم والله تعالى أعلم.

ومن الأخلاق التي يدوم بها التودُّد والتألف أيضاً محافظة الأخ على مساعدة أخيه وترك مخالفته في كل شيء، دقَّ أو جلَّ، إلا فيما يخالف الشريعة المطهرة، وقد قيل: إن من آدابهم في هذا الباب أن لا يقول الأخ لأخيه عند الدعوةِ: إلى أين أو لِمَ أو بأي سبب؟ قال بعضهم: إذا قلت لصاحبك قم، فقال إلى أين فَلا تصحَبْه بعدها. وقال آخر: من قال لأخيه أعطني من مالك، فقال كم تريد؟ فما قام بحق:

لا يَسْأَلُونَ أخَاهُمْ حينَ يندُبُهم ... في النائباتِ على ما قالَ بُرْهانا[2]

---

(1) المسك الأذفر: الشديد الرائحة، وهي طيبة. ويقال: مِسْك أذفَر وذَفِرٌ: جيد إلى الغاية.

(2) يندبهم: يدعوهم. والنائبات: المصائب.

ومن تلك الأخلاق أيضاً محافظة الأخ على ستر عورة أخيه بما أمكن. ويروى أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً فكشفت الريح عنه ثوبه؟ قالوا: نستُره ونغطِّيه، فقال: بل تكشفون عورتَه، قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟ قال: أحدُكم يسمعُ في أخيه الكلمَة فيزيدُ عليها ويشيعها بأعظم منها.

ومن تلك الأخلاق التي يدوم بها التودّد والتألف أيضاً تقديم من يعرف الإخوان فضلَه من إخوانهم والتوسعة له في المجلس وإيثاره بالموضع، ومسندهم في هذا ما روي «أنه ﷺ كان جالساً في صُفَّةٍ ضَيِّقة فجاءه قومٌ من البدريين فلم يجدوا موضعاً يجلسون فيه، فأقام ﷺ من لم يكنْ من أهل بدر فجلسوا مكانهم، فاشتد ذلك عليهم فنزلت الآية ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ [المجَادلة: الآية 11] الآية[1]. ومعلومٌ قيام الصديق الأكبر رضي الله عنه لمولانا علي كرم الله وجهَه وإيثَاره بالمجلس بجنب رسول الله ﷺ وقوله عليه الصلاة والسلام «إنما يَعْرِفُ الفَضْلَ لأَهْلِ الفَضْلِ ذَوُوه».[2]

(وحكي) أن بعض من لقي الجنيد رضي الله عنه وَرَدَ على أبي عبد الله بن خفيف زائراً فتماشيا فقال له أبو عبد الله: تقدم، فقال: بأي عذر؟ فقال له: لأنك لقيت الجنيد وما لقيتُه.

(تنبيه) قد ثَبت عن سيدنا الشيخ رضي الله عنه أنه أمَرَ أن لا يقصَدَ أحدٌ من الأصحاب بجلوسِه في نحو الوظيفة أعلى المجلس ولا أدناه، بل يجلس حيث وَجَدَ، أي حيث انتهى به المجلس كما هي السنة في ذلك[3]. وقد دخل على بعض الفقراء اشتباه في الأمر من أجل أخذهم به من غير تثبُّت في مراد الشيخ رضي الله عنه بهذا الكلام، فرأوا أن عدم التفسُّح في المجلس مأمورٌ به فأدَّاهم ذلك إلى الإخلال بهذا الخلق والإعراض عن العمل به بالمرة، فصاروا لا يوسِّعون لذي السنِّ والفضل منهم في مجالسهم، ولا يؤثرونهم بصَدْر المجلس

---

(1) انظر أسباب النزول للواحدي: 312.

(2) قال مقاتل: كان النبي ﷺ في الصفّة وفي المكان ضيق، وذلك يوم الجمعة، وكان رسول الله ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم، وشق ذلك على رسول الله ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر: قم يا فلان، وأنت يا فلان، فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم، فقال المنافقون للمسلمين: ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس؟ فوالله ما عدل على هؤلاء قوم أخذوا مجالسهم وأحبهم القرب من نبيهم أقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(3) انظر باب «من قعد حيث ينتهي به المجلس» عند البخاري في (العلم: 8).

إكراماً لهم لسنِّهم وسابقيتهم في الفضل، معتقدين أن فعلهم ذلك هو الذي أمر به الشيخ ﷺ، ولم يتأمَّلوا كلامَه ﷺ حتى يعرفوا أنه إنما نهى عن القصد إلى الجلوس فوق أو تحت، أي أعلى المجلس الذي هو صدره، ولا أدونه الذي هو مؤخره، وذلك لأن في القصد إلى الجلوس في أحد المحلَّين اتباع هوى النفس: أما في القصد إلى الأعلى فظاهرٌ فيه حبُّ العلو، وأما في القصد إلى الأدون فلأن فيه دسيسةً من دسائس النفس، حيث تدعو إلى ما صورته صورة التواضع، وهي تريد أن تفوق غيرَها بذلك ويشار إليها به، وهو على هذه الحال عين حبِّ العلو أيضاً، فهو كالذي قبله، فأمر الشيخ ﷺ بمخالفتها ومجاهدتها في ذلك بنهيه ﷺعن القصْدِ لأحد الأمرين تنفيراً عن الوقوع في مكايد النفس الجليه منها والخفية، ولا محالةَ أن هذا هو الشأن في مثل هذا المقام عند جميع أهل التربية، ويؤيد هذا الذي ذكرناه أن الشيخ ﷺ تلا بعد ذكره له قوله تعالى ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القَصَص: الآية 83] الآية. قيل له: أهذا علوٌّ؟ قال: نعم، وإرادة العلو في القصدين معاً ظاهرة، وإذا علم مراد الشيخ ﷺ فيما أمر به علم أنه لم ينْهَ عن التفسُّح في المجلس ونحوه مما اقتضته السنة من الإيثار لأهل الفضل واستعمال الأدب معهم الذي هو من أخلاق الأبرار وسِيما الأخيار، فليتنبَّه لهذا بقدر الإمكان ولينبه عليه من أغفله من الإخوان، والله المستعان وعليه التكلان.

هذا، ولا يخفى على الناظر الأريب بعد ما قدمناه دخول هذه الآداب وغيرها فيما اشتمل عليه كلام الشيخ ﷺ في رسائله ووصاياه، واندراجها فيما أشارت إليه سيرته السنية من فضائله ومزاياه، وإنما أومأنا بطرفٍ خفي إلى فتح هذا الباب تنبيهاً لما عسى أن يظنَّ أن طريق سيدنا ﷺ خالية عن مثل هذه الآداب، وتعريفاً له بأنها اشتملت من أصول علوم الطريق وفروعها على ما هو لبُّ اللباب، والله تعالى أعلم.

(تكميل) قد تقدَّم أن اختيار الصحبة والأخوة عملٌ، وأن كل عمل يحتاج إلى حسن الابتداء وهو النية على الوجه الذي تقدَّم بيانه، وقد قالوا إن العمل كما يحتاج إلى حسن الابتداء كذلك يحتاج إلى حسن الاختتام، فحصولُ النتيجة في الصحبة والأخوة مشروط بحسن الاختتام، وقد قال ﷺ في خبر السبعة الذين يظلّهم الله تعالى بظله على ما في بعض الروايات: «ورجلان تحابًا في الله فعاشا على ذلك وماتا عليه»[1]. قال في «عوارف

---

(1) رواه البخاري في (الأذان: 36)، ومسلم في (الزكاة: 91)، والترمذي في (الزهد: 53)، والنسائي في (القضاة: 2).

المعارف»: فيه إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المواخاة. قال: ومتى فسدت المواخاةُ بتضييع الحقوق فيها، يعني في آخر الأمر، فسد العلم من الأول، ومن هنا كان الشيطانُ لَعَنه الله أشدَّ حرصاً على إفساد ما بين المتواخيَيْنِ في الله تعالى، وقد قالوا: ما حَسَدَ الشيطان متعاونين على برٍّ حَسَدَه على متواخيين في الله متحابَّين فيه، فإنه يجهدُ نفسَه ويحثُّ قَبِيلَه[1] على إفساد ما بينهما اهـ. أي يوقع بينهما المخالفة في أمر ما، فيستوحش بعضُهما من البعض.

قال إمام الطريقة الجنيد ﷺ: ما تواخى اثنان في الله تعالى واستوحش أحدهما من صاحبه إلا لعلَّة في أحدهما، فالمواخاة في الله أصفى من الزلال، وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه وكلُّ ما صفا دام، والأصلُ في دوام صفائه عدم المخالفة.

(دقيقة) قالوا: إن أقلَّ ما يزينه الشيطاهُ للأخ في معاملة أخيه التساهلُ في القيام بحقه اتكالاً على ما بينهما من المودة، وهذا من مَكْره الخفي، والعياذ بالله ولذلك نبه عليه مشايخ الطرق ﷺ.

قال عبد الله بن الجلاء: لا تضيِّعْ حقَّ أخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة، فإن الله تعالى فرضَ لكل مؤمن حقوقاً لا يضيعها إلا من لم يراعِ حقوقَ الله تعالى اهـ.

(تذبيل) في الحديث عن ابن مسعود[2] ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**المُتَحَابُّون في الله على عُمُودٍ من ياقُوتَةٍ حَمْرَاءَ في رأسِ العامودِ سَبْعونَ ألف غرفةٍ مشرفون على أهل الجنة يضيءُ حسْنُهم لأهل الجنة كما تضيءُ الشمسُ لأهل الدنيا، فيقول أهلُ الجنةِ انْطَلِقوا بنا ننظرْ إلى المتحابِّين في الله عزَّ وجلَّ، فإذا أشرَفوا عليهم أضاءَ لهم حُسْنُهم كما تضيءُ الشمسُ لأهل الدنيا عليهم ثيابُ سُنْدُسٍ خُضرٌ مكتوبٌ على جباهِهم: هؤلاء المتحابُّون في الله**».

---

(1) قبيله: أعوانه وطائفته.

(2) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، صحابي، من أكابرهم فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله ﷺ، وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادم رسول الله الأمين وصاحب سره ورفيقه في حله وترحاله وغزواته له (848) حديثاً. توفي سنة (32هـ).

انظر الإصابة: ت(4955)، وغاية النهاية: 1/ 458، والبدء والتاريخ: 5/ 97، وصفة الصفوة: 1/ 154، وحلية الأولياء: 1/ 124، وأسد الغابة.

وعن سيدنا معاذ ﷺ أنه قال لمن قال له إني أحبُك في الله: أبشِرْ ثم أبشر فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: « تُنْصَبُ لطائفةٍ مِنَ النَّاسِ كَرَاسِـي حَوْلَ العَرْشِ يومَ القيامَةِ وجُوهُهم كالقَمَر ليلةَ البدْرِ يفزعُ الناسُ ولا يفْزَعُونَ، ويخافُ الناسُ ولا يخافون، وهم أولياءُ الله لا خَوْفٌ علَيْهِمْ ولا هُمْ يحزَنُونَ». فقيل: من هؤلاءِ يا رَسُولَ الله؟ قال: « المتحَابُّونَ في الله عزَّ وجل».

وروى عبادة بن الصامت[1] ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: « يَقُولُ الله عزَّ وجل: حقَّتْ محبَّتي للمتحابِّينَ فيَّ والمتزاورِينَ فيَّ والمتَبَاذِلِينَ فيَّ، والمتصادِقِينَ فيَّ» [2] اهـ.

وفي هذا القدْرِ مما قصدنا إيراده في هذا المطلب كفاية، والله ولي التوفيق والهداية.

المطلب الخامس

في بيان فضيلة حسن الاستماع وبعض ما يختص به من الآداب الموصلة بفضل الله تعالى إلى طريق الفضل وكمال الانتفاع

اعلم أن هذا المطلب في طريق أهل الله تعالى من أجلِّ المطالب قدراً وأعظمها فائدة وأسناها فخراً، وذلك لأن حُسْنَ الاستماع، كما قيل، أساسُ كل خير وسعادة، ومرقاة سامية لإدراك كل مرامة وإفادة، فما أجدَره بالتقدُّم أمام جميع الوسائل والمطالب، وما أحقه بأن تُناطَ به جميعُ مباحث المقاصد والرغائب، واعتبار هذا على الجملة في بساط التحقيق فيما ذكره أئمة الهدى وأعلام الطريق من أنه لم يظهر وجود طريق السعادة ولا علم الفرق بينهما وبين طريق الشقاء إلا بالقول الإلهي والسمع الكوني، قالوا: فما ثم إلا قولٌ وسمع غير هذين لم يكنْ، فلولا القولُ ما عُلم مرادُ الحقِّ سبحانه منا، ولولا السمعُ ما وصلنا إلى ما قيل لنا، فأولُ شيء علمناه من الحقِّ القول منه والسمع منا، وقد قدَّم سبحانه في كتابه الحكيم السميعَ على العليم وعلى البصير، فقال تعالى ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: الآية 98]

---

(1) هو عبادة بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، صحابي من الموصوفين بالورع، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وشهد بدراً وسائر المشاهد، ثم شهد فتح مصر، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، ومات بالرملة أو ببيت المقدس سنة (34هـ). وكان من سادات الصحابة وله (181) حديثاً. انظر حسن المحاضرة: 1/ 89 والمحبر: 270، وتهذيب التهذيب: 5/ 111، والإصابة: ت (4488)، وخلاصة تذهيب الكمال: 159، وأسد الغابة.

(2) رواه مالك في (الشعر: 16).

﴿سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: الآية 61] فافهم. ولهذا الأمر الأكيد جعلنا هذا المطلبَ من جملة المطالبِ بين يدي المقصود من هذا التقييد، فنقول معتمدين على مَدَدِ من له القوةُ والحول، طامعين في فضل من ليس إلا منه المنة والطول:

قال العارف بالله تعالى الشيخ أبو حفص السهروردي ﷺ: قال سفيان بن عيينة[1] رضي الله تعالى عنه: أولُ العلم الاستماعُ، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر اهـ. يريد أن أولَ العلمِ حسنُ الاستماع بدليل ترتّب الفهم عليه، إذ الفهم إنما يحصلُ بحسن الاستماع لا بمجرد الاستماع فافهم. وقد قيل في قوله تعالى ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: الآية 114] وقوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾ [القيامة: الآية 16] الآيتين، أن في ذلك تعليماً من الله تعالى لرسوله ﷺ حسن الاستماع. وقال بعضهم: تعلَّمْ حسن الاستماع كما تتعلَّم حسنَ الكلام اهـ. وحسن الاستماع يكون بكمال الأدب فيه.

وقال يوسف بن الحسين: بالأدبِ يُفْهَم العلمُ وبالعلم يصحُّ العمل، وبالعمل تُنال الحكمة، وبالحكمة يقام الزهدُ، وبالزهد تتركُ الدنيا، وبتركِ الدنيا يرغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تنال الرحمة عند الله تعالى اهـ.

فعلم من قوله «بالأدب يفهم العلم» أن حسنَ الاستماع يحصلُ بكمال الأدب في الظاهر والباطن. فأما كمالُ الأدب في الباطن فيكون بإخلاص النية في القصد إلى الاستماع، وبتطهير المحلِّ بالتوبة والاستغفار، وبتحقيق الافتقار إلى الله واللجأ إليه، وسؤاله بلسان الاضطرار أن يعلِّمه ما لم يكن يعلم، وعن كمال الأدب في الباطن ينشأ كمال الأدب في الظاهر عند المحققين من أهل الطريق، فينشأ عما تقدَّم من كمال الأدب في الباطن الهيبة والوقار وخشوع الجوارح والسكون والتفرغ من الشواغل، ونحو ذلك مما هو عنوان حسن الأدب في الباطن.

(وقد حكي) أن الشيخ أبا حفص النيسابوري لما وَرَد العراقَ، وجاءَ إليه الجنيد فرأى

---

(1) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد، محدث الحرم المكي، من الموالي. ولد بالكوفة وسكن مكة، كان حافظاً ثقة واسع العلم كبير القدر. وكان أعور، حج سبعين سنة، ومات بمكة سنة (198هـ).

انظر تذكرة الحفاظ: 1/ 242، وصفة الصفوة: 2/ 130، وابن خلكان: 1/ 210، وميزان الاعتدال: 1/ 397، وحلية الأولياء: 7/ 270.

أصحابَ أبي حفص وقوفاً على رأسه يأتمرون لأمرِه ولا يخطئ أحدٌ منهم، فقال يا أبا حفص أدَّبْتَ أصحابكَ أدبَ الملوكِ، فقال أبو حفْص: لا يا أبا القاسم، ولكن حسنُ الأدب في الظاهر عنوانُ حسنِ الأدب في الباطن اهـ.

ويشهد به حديثُ «لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُه» الحديث. فتحصَّل أن حسن الاستماع إنما يكونُ بكمال الاستعداد لذلك بحسب مقام المستمع في ذلك وحاله، ثم هذا إنما هو في الأصل عند أهل هذا الشأن في سماع كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ اللّذين لا تنقضي فوائدهما، ولا تنفد على مرِّ الدهر عجائبهما.

وألْحَقَ أئمةُ المشايخِ ﷺ بسماع القرآن العظيم والحديث الشريف مطالعةَ الكتبِ المتضمِّنة لما استنبط منهما بطريق التعريف من العلوم السنية والنور البديع والسر المنيف.

ومما يشيرُ إلى أن حسن الاستماع إنما يكون بالاستعداد قوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية 23] قال بعضهم: لو عَلِمهم أهلاً للاستماع لفتَح آذانهم للاستماع فمن تملَّكته الوساوسُ وغلب على باطنه حديث النفس لا يقدرُ على حسن الاستماع اهـ. ويشير إلى هذا أيضاً قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: الآية 37] قال الفخر الرازي[1] في تفسيره: أي قلب موصوف بالوعي، أي قلب واعٍ، يقال: فلان له مالٌ، أي كثير، فالتنكيرُ يدلُّ على معنى في الكمال اهـ الغرض منه، وفيه الإشارة إلى ما ذكرناه من الاستعداد.

قال في «العوارف»: قال يحيى بن معاذ الرازي: القلبُ قلبان، قلبٌ قد احْتَشَى بأشغال الدنيا حتى إذا حَضَر أمرٌ من أمور الطاعة لم يدْرِ ما يصنع، وقلب قد احتشى بأشغالِ الآخرة حتى إذا حضرَ أمرٌ من أمور الدنيا لم يدْرِ ما يصنع اهـ. وهذا القلب الثاني هو الذي حصلَ له الاستعداد لدركِ العلوم الفاخرةِ وفهم الأسرار الباهرة. وقال بعضهم في الآية: لمن كان له قلبٌ سليم من الأغراضِ والأمراض. وقال ابن سمعون في الآية: لمن كانَ له قلبٌ سليم يعرِفُ آدابَ الخدمة.

وآدابُ القلب ثلاثة أشياء: فالقلب إذا ذاقَ طعمَ العبادةِ أعتق من رقِّ الشهوةِ، فمن

---

(1) فخر الدين الرازي السامانوي ثم الدهلوي، فاضل من علماء الهند أصله من سامانة، قرأ في دهلي وتصوف وحج، وأخذ الحديث عن علماء بغداد في عودته ورجع إلى الهند، فركب البحر فغرق سنة (748هـ) انظر نزهة الخواطر: 2/ 103.

توقّف عن شهوتِه وجَدَ ثلثَ الأدب، ومن افتقر إلى ما لم يجدْ من الأدبِ بعد الاشتغال بما وجد فقدْ وَجَدَ ثلثَي الأدب. والثالثُ امتلاءُ القلب بالذي بدأ بالفضل منه تفضلاً اهـ. وقد قال محمد بن علي الترمذي رحمه الله تعالى: موتُ القلبِ من شهوات النفس، فكلما رفضَ شهوةً نال من الحياة بقِسْطها والسماع للأحياء لا للأموات. قال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: الآية 80] الآية اهـ.

ومدار هذه العبارات كلِّها على حصولِ كمال الاستعداد للسماع حسبما تقدَّمت الإشارة إليه، فالعبد إذا حصَلَ له الاستعداد للسماع واتصف بالحياة التي يتأهَّل بها عند الله للاستماع سمع كلامَ الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وكذا ما استنبط منهما حقّ السماع وحظي في جميع معاملاته بأكمل حالات الاتباع، كما قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: 18]، قالوا: وفي هذه الآية الكريمة التصريح بالثناء على المتصفين بحسن الاستماع الناشئ عنه حسن الاتباع بأنهم الذين هداهم الله وأنهم هم أولو الألباب، وناهيك بهذا فخراً لمن أهَّله الله تعالى لهذه المزيةِ العظيمة والخصوصية الجسيمة.

(تنبيهان): الأول: إذا عرفتَ أن مطالعة كتب العلم والأخبار وسِيَر الصالحين وحكاياتهم وأنواع الحكم والأمثال ونحو ذلك، كلُّها ملحَقَة بالسماع في هذا الباب، فاعلمْ أن من الأدب في هذا المقام ما ذكره في «عوارف المعارف» من أن الإنسان إذا أراد مطالعة كتابٍ لا يبادر بذلك إلا بعد التثبُّت والإنابة والرجوع إلى الله تعالى وطلب التأييد فيه، فإنه قد يرْزَقُ حينئذٍ بالمطالعة ما يكون مزيداً لحاله، قال: ولو قدَّم الاستخارة لذلك لكان حسناً فإن الله تعالى يفتح عليه بابَ الفهم والتفهُّم موهبةً من الله تعالى زيادة على ما يتبيَّنه من صورة العلم، فللعلم صورةٌ ظاهرة وسرٌّ باطن هو الفهم، والله تعالى قد نبَّه على شرف الفهم في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: 79]، فأشار سبحانه وتعالى إلى الفهم بمزيد اختصاصٍ وتمييز عن الحكم والعلم، وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: الآية 22] فإذا كان المسمع هو الله تعالى، فإنه يسمع تارةً بواسطة اللسان، أي لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام ومن في معناهم من ورثتهم، وتارةً في مطالعة الكتب من التبيان، فصارَ ما يفتحُ الله به في مطالعة الكتبِ على معنى ما يرزقُ من المسموع ببركة حسن الاستماع، فليتفقَّد العبدُ حاله في ذلك، وليتعلَّم علمَه وأدبَه، فإنه بابٌ كبير من أبواب الخير، وعملٌ صالح من أعمال المشايخ لاستفتاح أبواب الرحمة، والمزيد من كل سرٍّ بفضل الله تعالى اهـ.

ومن بعض كتب حُجَّة الإسلام الإمام الغزالي ﷺ في وصيَّةٍ أوضحها ونصيحة مَحَضَها[1] ما نصه: أيها الطالبُ للعلومِ والناظر في التصانيف، والمستشرفُ على كلام الناس وكتب الحكمة، ليكُنْ نظرُك فيه بالله ولله وفي الله، لأنه إن لم يكن نظرُك به وكَّلك إلى نفسِكَ أو إلى من جَعلْتَ نظرَك به، وكذلك إن لم يكن نظرُك له فقد، صار عملُك لغيرِه ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية 110] وكذلك إن لم يكن نظرك له فيه فقد أثبتَّ معه غيره، ولاحظت بالحقيقة سواه، وإذا نظرت في كلام أحدٍ من الناس ممن قد شُهر بالعلم، فلا تنظرْ بازدراء، ولا تقطعْ له بصحَّةٍ ولا تقطع عليه بفساد، وليكن تحسينُ الظن أغلبَ عليك حتى يزول الإشكالُ عنك بما تتيقن من معانيه، وإذا رأيتَ له حسنة وسيئة فانشر الحسنة واطلب المعاذير للسيئة، ولكل عالم عذرٌ، وله في بعض ما يأتي به احتجاج، وناهيك بما جرى بين ولي الله تعالى الخضر وكليمه موسى عليهما السلام، وإذا ظهرَ لك من كلام عالم إشكالٌ يؤذن في الظاهر بمحال أو اختلال، فخذْ ما ظهر لك علمُه ودعْ ما اعتاص[2] عليك فهمه ووكِّلْ العلمَ فيه إلى الله تعالى، فهذه وصيتي فاحفظها اهـ. بنقل بعضِ الفقهاء له في نوازله، رحمه الله تعالى، وجزاه خيراً.

[فائدة] مما ينبغي أن يعتني به مريدُ المطالعة لكتب العلم أن يقولَ قبل الشروع بحضور قلب: اللهمَّ إني أستودِعُك جميعَ ما أنظرُه في هذا الكتاب حتى تردَّهُ علي في وقتِ احتياجي إليه، وهو غاية في الحفظ والوعي بفضل الله تعالى، وقد كنت أعملُ عليه منذ استفدته فيما أطالعه من الكتب، وكذا إذا جلستُ إلى أحدٍ من الفضلاء بقصْدِ المذاكرة فأقولُ فيهما: اللهم إني استودعكَ جميعَ ما أستفيدُه من هذا السيدِ أو من هذا المجلس حتى تردَّه علي الخ، فكنت أجد بحمد الله بركةَ ذلك مع ضعفِ استعدادي وعدم تأهُّلي من فضل الله تعالى:

لم أكُنْ للوِصالِ أهْلاً ولَكِنْ ... أنتم بالوِصالِ أطْمَعْتُموني

(التنبيه الثاني) من الأدب في هذا المقام أيضاً ما ذكره في «العوارف» أيضاً، وهو أن العبدَ إذا أراد أن يطالع شيئاً من الحديث والأخبار يعلم أنه قد تكون مطالعةُ ذلك بداعية النفس وقلةِ صبرها على الذكر والتلاوة والعمل، فيتروَّح بالمطالعة كما يتروَّح بمجالسة الناس ومكالمتهم، فليتفقد الفَطِنُ نفسَه في ذلكَ، ولا يستحلي مطالعةَ الكتب إلى حدٍّ يأخذ من وقته اهـ.

---

(1) محض النصيحة: أخلصها.

(2) أعتاص: صعب وأشكل فهمه.

قلت: وعلى هذا الأدب رأيتُ عملَ بعض الفضلاء الأعيان من خاصة أصحابنا الموفَّقين حفظه الله تعالى، وقد استعانَ على ذلك بضابطٍ حسن، وهو أنه جزَّأَ أوقاته الليليةَ والنهارية، فجعل جزءاً للتدريسِ، وجزءاً لمطالعته، وجزءاً لإقامة أوْرادِه، وجزءاً لنومه، وهكذا سائر الأعمال المتعاقبة بالليل والنهار، فلمْ يكنْ يأخذ شيئاً منها بوقته، وهو كما لا يخفى نظر سديد، لا يصدرُ إلا عن رأي رشيد مؤيَّد بالعناية والتوفيق من الربِّ المجيد.

(تكميل) قد مثَّل بعضُ الحكماءِ تفاوتَ الناس في الاستماع فقال: كالباذر خَرَج ببَذرِه فملأ منه كفَّه فوقع منه شيء على ظهر الطريق، فلم يلبث أن انحطَّت عليه الطيرُ فاختطفته ووقع منه شيء على الصفوانِ وهو الحجر الأملس عليه ترابٌ يسيرٌ وندًى قليل، فنبت حتى إذا وصلت عروقه إلى الصفوان لم يجدْ مساغاً ينفذُ فيه فيبس، ووقع منه شيءٌ على أرضٍ طيبة فيها شوكٌ ثابت فنبتَ، فلما ارتفعَ خنقه الشوكُ فأفسدَه واختلطَ به. ووقع منه شيءٌ على أرض طيبة ليس على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا على أرضٍ فيها شوك فنبتَ ونما وصلح، فَمَثَلُ الباذرِ مثلُ الحكيم، ومثل البذْرِ كمثل صواب الكلام، ومثل ما وَقَع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمَعُ الكلامَ وهو لا يريدُ أن يسمَعه، فما يلبثُ الشيطان أن يختطفَه من قلبه فينساه، ومثل الذي وَقَع على الصفوان مثل الرجل يستمعُ الكلام فيستحسنه ثم تفضي الكلمةُ إلى قلبٍ ليس فيه عزمٌ على العمل فينسخ من قلبه، ومثل الذي وقع في أرضٍ طيبة فيها شوكٌ مثل الذي يستمع إلى الكلام وهو ينوي أن يعمل به، فإذا اعترضت له الشهوةُ قيَّدتْه عن النهوضِ بالعمل فترَكَ ما نوى عملَه لغلبة الشهوة، كالزرع يختنق بالشوك، ومثل الذي وقَع في أرض طيبة ليس على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا على ذات شوك مثل المستمع الذي ينوي عمله، فيفهمه ويعملُ به ويجانب هواه اهـ.

وإنما هذا يحصلُ بالاستعداد والبراءة من الشهوة والهوى، كما تقدمت الإشارة إليه. وبيان هذا أن للشهوة والهوى حلاوةً قد أشربت لذتها النفس، فهي تركُن إليها، وتلك اللذة هي التي تخنق النبتَ كالشوك، وعندما يحصلُ الاستعداد باحتراق الشهوات والهوى بنار الذكر ينازلُ القلبَ حلاوةُ الحبِّ الإلهي القلب، والحب الإلهي يعلق الروح بالحضرة القدسية، ومن قوَّة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحبِّ الصرف يستتبع الروح النفس وحلاوة الحبِّ للحضرة الإلهية تغلب حلاوةَ الهوى، لأن حلاوةَ الهوى ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: الآية 26] لكونها لا ترتقي عن النفس، وحلاوة الحب الإلهي ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: الآية 24] فإذا

سمع هذا الذي حصَل له الاستعداد الكلمة من كلام الله ورسوله ﷺ يتشرَّبها بالروح والقلب والنفس ويقويها بكليته ويقول:

أشمُّ مِنْكَ نَسيماً لستُ أعْرِفُه ... كَأنَّ لمياءَ جَرَّت فِيكَ أذْيالا

فتعمُّه الكلمة وتشمله وتصيرُ كلُّ شعرةٍ منه سمعاً، وكلُّ ذرة منه بصراً، فيسمع الكل بالكل ويقول:

إنْ تأمَّلْتُكم فكُلِّي عُيونٌ ... أو تَذَكَّرْتُكم فكُلِّي قُلوبُ

وفي هذا القدر من الكلام في حسن الاستماع كفايةٌ في التوصُّلِ إلى باب الاضطلاع.

وبالله التوفيق، وعليه الاعتماد في الهداية إلى سواء الطريق.

المطلب السادس

في بيان تخالف أخلاق أولياء الله تعالى في الطرائق والمذاهب والإشارة إلى أن منشأ ذلك هو تباين الأذواق والمشارب

لا يخفى على الأريب وجْهُ المناسبة في اشتمال هذه المقدمة على هذا المطلب العجيب من الفوائد العظيمة والمنافع الجسيمة، ولو لم يكنْ إلا سلامته من الوقوع في مهاوي الإنكار والتردِّي فيما تردَّى فيه كثيرٌ من الأغمار[1]، بالانتقاد على الأولياء الأبرار والعارفين الكبار، وذلك بما استفادوه من الأقْيِسَةِ الخلية والتخمينات الوهمية، باستقرائهم السقيم ومذهبهم الفاسد في اعتقادهم أن الولاية لا تجيءُ في كلِّ زمان وفي كلِّ شخص، إلا على قانون واحد، وأنها مما تشمله الحدودُ، ويدخل تحت محيطات الضوابط والقواعد، وقد صرَّح في «الذهب الإبريز»، بأنه: لا يصحُّ لأحدٍ أن يحجر الفضل العظيم، فيقطع على المولى الكريم بأنه لا يختار لبساطِ كرامته ولا يصطفي لحضرة قربه ومشاهدته إلا من صدقتْ عليه تلك الحدود والضوابط، واستكملتْ فيه تلك العلاماتُ والشرائط، قال: وقد يبلغُ الجهلُ بأهلِ الإنكار والجحود، إلى نَفْيِ الولايةِ عن كلِّ موجود، لما استحكَم في قلوبهم من حصرها في ضوابط معلومة، وتحقيقها بقواعد مرسومة، فترى الواحد منهم يعرض على ما معه من القواعد والضوابط والآراء والأنظار، أحوال كلِّ واحدٍ ممن يراه أو يسمع به من الأولياء الكبار، فيجدها لا تنطبقُ على أحواله، فينفي عنه الولاية بكل وجْهٍ وكل اعتبار، ويصير مثال حاله الكاسد أنه يؤمن بولي لا وجودَ له في الشاهد.

---

(1) الأغمار: جمع الغَمْر، وهو من لم يجرّب الأمور.

ولم يذرِ أن الولاية مجرَّد اصطفاء من الله تعالى الفعَّال لما يريد، لمن يشاء ويختار من العبيد، وأنها ليس مما يدرك بالتخمين، ولا مما يقدِرُ على ضبطه أحدٌ من المخلوقين اهـ بمعناه، ولهذا الذي اشتملتْ عليه هذه الفائدة الجليلة من النكت البديعة والمنافع الجزيلة حَسُنَ منا إيرادُ هذا المطلب في جملة مطالب هذا الكتاب، وما هو إن شاء الله تعالى إلا الخالص منها واللباب، فنقولُ والله تعالى الموفق للصواب:

اعلم، أنار الله قلبي وقلبك بأنوار الإيمان واليقين، وأمدَّنا جميعاً بما أمدَّ به عباده المتقين أن الاتساع الإلهي الذي لا يحتملُ الحصْرَ ولا التناهي يأبى انحصار المواهب الاختصاصية والمنح الاصطفائية، في نوع من أنواع الصفات الكمالية، أو صنفٍ من أصناف النعوت الجلالية والجمالية، لأن المفيض لتلك المواهب والعطايا، والمخصِّص بتلك المنائح والمزايا هو المولى الجواد الكريم ذو الفضل العظيم والطَّول الجسيم، الفاعل المختار الموصوف بكمال الاقتدار، الذي لا يسأل عما يفعل ويخلقُ ما يشاء ويختار، وإذا كان سبحانه هو الواهب لتلك المواهب، المانح لتلك التخصيصات والرغائب، وكان سبحانه فتّاحاً على الدوام وهّاباً بلا انقطاع ولا انصرام، فكيف تنحَصِرُ مواهبه لأوليائه في شيءٍ من الأنواع والأجناس؟ أو تدخل منحه لخاصَّة أصفيائه تحت ضابطٍ أو قياس، فهذا الأصل إن أحكمته علماً، وفتح الله عليك في التحقيق به ذوقاً وفهماً، يسهل عليك الاطلاع على توجيه اختلاف مذاهب الأولياء، وعدم توافق طرائقهم، وينحلُّ لك ما يشكل عليك من تباينِ أذواقهم وحقائقهم، وتعرف موجبَ الإنكار من البعض منهم على البعض ومعاملته إياه بالحطِّ من قدره والغضّ، فحينئذٍ لا يستفزُّك ظاهر أحوالهم، ولا يحجبك عن الله الاستِمْداد منهم والاقتباس من نور كمالهم، وترسخ قدمك إن شاء الله تعالى في المتابعة لمن اتخذته منهم إمامك، فألقيتَ إليهِ قيادَكَ وملَّكْتَه زمامك، فتظفر يمينك بكيمياء السعادة وتستنتج نتائج النجاح من مقدماتِ هذه الفائدة، وتعثر ذوقاً على موقع الإشارة من قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية 26] .

ولنذكر من كلام العلماء العاملين والمشايخ الكاملين، ما يدلُّ لتحقيق ما قصدنا الإشارة إليه في هذا المقام. قال الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى وﷺ في مؤلفه الذي سماه «الخبر الدال على وجود القطب والأتاد والنجباء والأبدال» ما نصُّه: من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه «إنَّ لله عزَّ وجلَّ في الخلْقِ ثلاثمائةً قُلُوبهم على قلْبِ آدم عليه السلام، ولِلهِ في الخلْقِ أربعينَ قُلُوبُهم على قلبِ نوح عليه السلام، ولله في الخلْقِ سبعةً قلوبُهم على قلبِ إبراهيم عليه السلام، ولله في الخلْقِ خمسةً قلُوبُهم على قلب جبريل عليه السلام ولله في الخلق ثلاثةً

قلوبُهم على قلْبِ ميكائيل عليه السلام، ولله في الخلق واحداً قلبُه على قلبِ إسرافيل عليه السلام فإذا ماتَ الواحدُ أبْدَلَ الله مكانَه من الثلاثةِ، وإذا مات من الثلاثةِ أبدَلَ الله مكانه من الخمسة، وإذا ماتَ من الخمسةِ أبدلَ الله مكانَه من السبعةِ، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين وإذا ماتَ من الأربعين أبدلَ الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا ماتَ من الثلاثمائة أبدلَ الله مكانَه من العامة فبهم يُحْيي ويُمِيتُ ويُمطِرُ وينبتُ ويَدْفَعُ». قيل لعبد الله ابن مسعود: كيف يُحيي ويميت؟ قال: لأنهم يسألون الله تعالى إكثارَ الأمم فيكثرون، ويدعون على الجبابرة فيُقصمُون، ويستسقون فيُسْقَون، فتنبتَ لهم الأرض، ويدعون فيَدفَع بهم أنواعَ البلاءِ. أخرجه ابن عساكر اهـ، الغرض هنا.

وعنده في مؤلفه المذكور أيضاً ما نصُّه: وفي «كفاية المعتقد» لليافعي نفع الله ببركاته ما نصه: قال: قال بعضُ العارفين: الصالحون كثيرون مخالطون للعوام لصلاح الناس في دينهم ودنياهم، والنجباء في العدد أقلُّ منهم، والنقباء في العدد أقلّ منهم، وهم مخالطون للخواص، والأبدال[1] في العدد أقلُّ منهم، وهم نازلون في الأمصار العظام، لا يكون منهم في المصر إلا الواحد بعد الواحد، فطوبي لأهل بلدةٍ كان فيها اثنان منهم، والأتاد[2] واحد باليمن وواحد بالشام وواحد بالغرب وواحد بالشرق، والله تعالى يدير القطبَ في الآفاق الأربعة من أركان الدنيا كدوران الفلك في أفق السماء، وقد سترتُ أحوالَ القطب وهو الغوث عن العامة والخاصة غيرة من الحقِّ عليه، غير أنه يرى عالماً كجاهل، أبله كفطن، تاركاً آخذاً، قريباً بعيداً، سهلاً عسيراً، وكشفت أحوالُ الأوتادِ للخاصة والعارفين وسترت أحوالُ النجباء والنقباء عن العامة خاصة، وكشف بعضهم لبعض وكشفت أحوال الصالحين للعموم والخصوص ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وعدة النجباء ثلاثمائة والنقباء أربعون والبدلاء قيل: ثلاثون، وقيل: أربعة عشر، وقيل: سبعة، وهو الصحيح، والأوتاد أربعة، فإذا مات القطب جعل مكانه خيار الأربعة، وإذا ماتَ أحدٌ من الأربعة جعلَ مكانه خيار السبعة، وإذا مات أحد السبعة جعل مكانه خيار الأربعين، وإذا مات أحد الأربعين جعل مكانه خيار الثلاثمائة، وإذا مات أحدُ الثلاثمائة جعل مكانه خيار الصالحين، وإذا أراد الله أن يقيم الساعة أماتهم أجمعين، وبهم يرفع عن عباده البلاءَ وينزل قطر السماء.

---

(1) الأبدال عند الصوفية: لقب يطلقونه على رجال الطبقة من مراتب السلوك عندهم.

(2) أوتاد الصوفية: أربعة رجال منازلهم على منازل أربعة أركان من العالم: شرقي وغربي وجنوبي وشمالي، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة.

وقال بعضُ العارفين: والقطب هو الواحد المذكور في حديث ابن مسعود أنه على قلب إسرافيل، ومكانه في الأولياء كالنقطة في الدائرة التي هي مركزها، به يقعُ صلاح العالم اهـ. وكلامُ اليافعي هذ صريحٌ في أن من الأولياء من ليس من أهل الدائرة وهم الصالحون وعددهم كثير، ويؤخذ منه أنهم هم المعبَّر عنهم في حديث ابن مسعود بالعامة، وكلامه أيضاً صريحٌ في أن أحوال الأولياء منها مالا يكشف لأحد ومنها ما يكشف للخاصة منهم فقط، ومنها ما يكشف للخاصة والعامة، أي والعامة منهم وهم الصالحون لا غير، وإلا فمن أين لغير الولي أن يعرف الولي، فكلامه هذا كالتفسير لحديث ابن مسعود ﷺ، فافهم ذلك، وهنا دقيقة وهي أن قوله «وكشفت أحوال الصالحين للعموم والخصوص» يقتضي أن من ليس من أهل الدائرة من الصالحين يعرفه كلُّ من كان من أهل الدائرة، وكذا من ليس من أهل الدائرة مثله، وليس المخصوص لأئمة الطريق كذلك ففي «النزهة» للعارف بالله تعالى سيدي أحمد بن عبد القادر النستاوتي رضي الله عنهما نصه: ويحكى عن الخضر ﷺ: أنه اجتمعَ ببعض الصالحين فقال له ذلك الصالح: هل تعرف الأولياء جملة؟ فقال ﷺ أعرف أهل الدائرة، وغيرهم منهم من أعرفه ومنهم من لا أعرفه. فسأله عن عدد أهل الدائرة فقال: هم واحدٌ وثلاثة وأربعة وسبعة وعشرة وأربعون وسبعون وثلاثمائة، ولو اطلع السبعون على الأربعين لرأوا سفكَ دمائهم حلالاً، كما وَقَع لي مع موسى عليه الصلاة والسلام، فليس الشارب من الماء كالشارب من العسل المصفّى، ولا الشارب من العسل كالشارب من الخمر، ولا الشارب من الخمر كالشارب من اللبن، وهو شراب أهل التمكين، ولا الساقي لهم من هذا كالساقي لهم من هذا، ولا النشوان من هذا كالنشوان من هذا، وقد تدفع هذه الكؤوس كلها بيدٍ واحد يسقي كلَّ واردٍ على حسب ما سبق له يوم ألست بربكم [1] اهـ. وقد حلَّ كلام الخضر عليه السلام على ما يتأيد به كلام اليافعي من أن لله تعالى أولياء كثيرين من غير أهل الدائرة. وقوله «منهم من أعرفه ومنهم من لا أعرفه» نصٌّ في أن الصالحين يعني عامة الأولياء الذين ليسوا من أهل الدائرة يعرف بعضَهم لا كلَّهم، لأنه إذا كان الخضر ﷺ لا يعرف كلهم فغيره بالأولى والله تعالى أعلم.

وقد قال سيدنا الشيخ ﷺ فيما ذكره عنه صاحب الجامع رحمه الله تعالى أن الأولياء الذين ليسوا من أهل الديوان كثيرون، ومع كثرتهم فهم طوائفُ كلُّ طائفةٍ لها عدد لا ينقص، فإذا ماتَ الواحدُ منهم خَلَفَه غيره في مرتبته. قال ﷺ: ومنهم طائفة تسمى

---

(1) كذا بالأصل.

الضنايين عددهم أربعة آلاف، قال: وكذلك الذخائر طائفة أخرى وعددهم أربعة آلاف أيضاً، قال: ومرتبة هاتين الطائفتين أنهم يعتقدون وجودَ الكونِ ولا يرونه لأنهم غرقى في بحار الألوهية اهـ. وهو مؤيِّد لما تقدم عن اليافعي أيضاً، ثم إن قولَ الخضر ﷺ «ولو اطلع السبعون على الأربعين لرأوا سفك دمائهم حلالاً» يريد أنهم لو اطَّلعوا على ما يتحققون به من الحقِّ في بواطنهم لأفتوا بسفك دمائهم، وذلك لأن كلَّ واحد منهم يطلعه الله تعالى على ما لم يطلع عليه غيره، فيطلع هذا على ما لم يطلع عليه الآخر، ويطلع الآخر على ما لم يطلعه هو أيضاً عليه بحسب ما اقتضته المشيئة الربانية والقسمة الإلهية، ومن هنا جاء إنكار بعضهم على بعض حتى ربما أفضى الأمرُ في ذلك الإنكار إلى التكفير.

ورأيت في حاشية الإكبار على مختصر الشيخ خليل عند قوله فيه ولا عامل على مثله ما نصه: ذكر صاحب كتاب «المعارج» أنه قد يفضي إنكارُ القوم بعضهم على بعض إلى أن يكفِّر بعضُهم بعضاً، وذلك من أجل أن يحكم بحالِه على غيره، وقال أبو حامد[1] في إحيائه: ولذلك تختلف أجوبتهم، وهذا معنى قول تاج الدين: تنوَّعت أجناسُ الأعمال لتنوع واردات الأحوال، وواردات الأحوال ما يردُ على القلوبِ من المعارف، فقد يكون واردٌ يوجب قبضاً، وآخر يوجب بسطاً أو هيبة أو أنساً أو رجاء أو خوفاً، وانظر قضيه يحيى وعيسى عليهما السلام حين التقيا فقال أحدهما لصاحبه: كأنك آمِنٌ من مَكْر الله؟ فقال له الآخر: كأنك آيسٌ من رحمة الله؟ فتنوع ما ظهرَ عليهما لتنوُّع واردِ حاليهما، وكلٌّ منهما صادق بنسبته، فلهذا يجب تحسين الظنِّ بالجميع وأن لا يسمع كلام البعض في البعض لأجل غَيْرَتِهم على الدين لا تحاسدهم اهـ بلفظه من الحاشية المذكورة.

وقد جرى التعبيرُ بمثل عبارة الخضر ﷺ في قوله «لرأوا سفك دمائهم الخ» على ألسنة كثير من السلف والخلف، فقد روي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: ملأت من النبي ﷺ وعاءَين، أما أحدهما فها أنا أبثُّه لكم، وأما الآخر فلو بثَثْته لكم لقُطِع مني هذا البلعوم اهـ ومعلومٌ أنه لا يقطع منه البلعومُ إلا بإفتاءِ من لم يطلعه الله تعالى على ما اختصَّ به من العلم الذي يتحقَّقه في باطنه عن رسول الله ﷺ.

وروي مثل ذلك عن مولانا علي كرم الله وجهه، وعليه قول إمام الطائفة الجنيد ﷺ: لا يبلغ أحدٌ درجةَ الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديقٍ بأنه زنديق اهـ.

قال الشيخ محيي الدين ﷺ: وذلك لأنهم يعلمون من الله تعالى مالا يعلَمُه غيرُهم.

---

(1) أي: أبو حامد الغزالي، الإمام، وقوله «وإحيائه» يعني «إحياء علوم الدين» كتابه المعروف.

قال: وهؤلاء هم حملةُ العلم الذين كان يقولُ فيهم علي بن أبي طالب ﷺ حين يضرب بيده على صدره ويتنهد: إن ههنا علوماً لو وَجَدَتْ لها حَمَلَةً اهـ. وكثيراً ما كانت تجري هذه العبارة على لسان سيدنا الشيخ ﷺ كما يعلم من استقراء كلامِه في رسائله وغيرها، ولعلك تقفُ على بعض ذلك أثناء الكلامِ على أبيات النظم، إن شاء الله تعالى.

وفي قول إمام الطائفة ﷺ: لا يبلغ أحدٌ درجة الحقيقة الخ، إرشاد إلى أن كل واحد من الأولياء له ذوقٌ خاصٌ به في مرتبته الخاصة به، وإن اشتركوا في المقام، وقد صرح سيدنا ومولانا الشيخ ﷺ بذلك أتمَّ تصريح، وبسطَ القولَ فيه بما يغني عن التلويح.

ونصُّ كلامِه ﷺفي بعض أجوبته لمن سأله عن شطحات الأولياء ﷺ أجمعين إن الله تعالى يفيضُ على كلِّ ولي في حضرته من الخيرات الكثيرة والمنح الجسيمة ما لا يعلم قدرَه إلا معطيه، وكل واحدٍ من العارفين له حضرةٌ خاصةٌ به، وربما اشترك في الحضرة الواحدة جماعةٌ، لكنهم يتفاوتون فيها بحسب القسم الإلهية.

فإذا عرفت هذا فاعلمْ أن الله تعالى قد يمنحُ بعضهم أسراراً خاصةً في الحضرة الخاصة أو المشتركة، ويقال له: هذا لم يُعطَ لأحد قبلك ولا يعطى لأحد بعدك، فيتكلم به ويصرِّح بأنه في أعلى المراتب والمقامات، ويأتي من بعده فيقول مثل مَقَالته أو أكثر، ويأتي آخر وآخر حسبما هو معلوم من شطحات الأولياء ثم قال ﷺ جواباً عما أورده السائل على هذا الكلام ما نصُّه: إن الأولياء صادقون فيما يدَّعي كل واحد منهم، لأن كلَّ واحد يعطى في حضرته ما لم يعطَ لغيرِه، ويسمع في حضرته الخطاب به قيل له: كيف نصنع بمراتب أهل الديوان فإن بعضَها أعلى من بعض بلا ريب كمرتبة القطب مع غيره؟ فقال رضي الله عنهما حاصِله: إن ذلك الذي يعطى للولي في حضرته الخاصة به إنما هو مزية في حقِّه، وهي لا تقتضي تفضيلَه على من هو أعلى منه كغير القطب مثلاً مع القطب. ثم قال ﷺ: وذلك كما يقع لبعض العارفين من أنه يدركُ من العلومِ المحمدية أكثر من القطب، مع أنه لا يشمُّ رائحةً لمقامه ولا يقدر على تجلياته. وكقضية سيدنا الخضر مع سيدنا موسى ﷺ مع ما ذكر من أن لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ألف مجلس مع الله تعالى في مدة حياته، كل مجلس وَهَبه الله تعالى فيه من العلوم ما يبهرُ عقولَ الخلائق أجمعين، وكالقطب المكتوم مع غيره. ثم قال ﷺ: وليس مرتبة كاملة من جميع الوجوه إلا لسيد الوجود ﷺ اهـ.

وقد وقفتُ لبعض أهل التحقيق ممن له اليد الطولى في علوم الأذواق وأسرار الطريق في بعض مؤلفاته المتلقَّاة من الخاصِّ والعام بالقبول التام على كلامٍ موافق لكلام الشيخ ﷺ في إفادة أن كلَّ واحد من الأولياء يختصُّ بما لا يشاركه فيه غيره وإن كان أعلى مقاماً

منه، ونصُه: واعلم أنه لما كانت هذه الطريق أمرُها عجيب وسرها غريب قلَّما تجد أهلها متفقين، أو يثبت أحدُهم للآخر قدماً، أو يكون له معظماً، بل ترى الغالبَ أن كل واحد يدَّعي أنه الواصل وأن غيرَه ليس عنده طائل، حتى قال بعضهم: إن للقطب مائة ألف مقام واثنتين وأربعين ألف درجة، وكل واحدٍ ممن سلك مرتبةً من هذه المراتب أو مقاماً من هذه المقامات يرى أنه لم يسلك أحدٌ مقامه لقوة أنوارِه وعظيم أسراره اهـ بلفظه.

وبهذا الذي ذكرناه عن هؤلاء الأعلام والفحول العظام تتحقَّق سعة فضل مولانا الملك العلام فيما يتحفُ به كل واحد من أوليائه الكرام. ثم لا يخفى عليك بعد التحقق بذلك توجيهُ ما يظهر من اختلافهم في الطريق والمسالك، وتعلم أن منشأ ذلك الاختلاف، كما يظهر لمن سلك سبيلَ الإنصاف وتجنُّب طريق الاعتساف، هو تباينُ ما يختصُّ به كل واحد منهم في حضرته، وينفرد به عمن سواه في رتبته من الأسرار العجيبة والأذواق الغريبة البارزة له من الدائرة الفضلية على حسب القسم الأزلية، وتعلم لا محالة أنَّ كلَّ واحد منهم على بينةٍ من ربه وبصيرة فيما ينتحيه هو ومن اتبعه من المريدين الصادقين والسالكين الموفقين، فتلحظ الجميع حينئذٍ بعين الكمال، معتقداً أن الكل يشيرُ إلى ذلك الجمال، فتلج بحبوحة التسليم وينسحب عليك من فضل الله تعالى ذيل ﴿مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: الآية 89] وإذ قد حصلتَ على توجيه الخلاف بين مذاهبهم، وعثرت على وجه التحقيق في تباين مشاربهم، وإنه لتباين ما يختصُّون به في مقاماتهم ومراتبهم، فينبغي أن نذكر لك بعضَ ما لأئمة هذا الشأن من التقسيمات للطرق التي عليها مدارُ السلوك والتسليك في هذا الميدان ليكون ما نذكره من ذلك كالأمثلة لما قدمناه من المسائل، إذ بالأمثلة تُقرَّر الحقائق في ذهن كلِّ طالب وسائل، وذلك بعد أن تعلمَ أن الطريق إن اعتبرت من حيث ثمرتها المقصودة منها وهي معرفة الله تعالى ومعرفة الآداب في الأسباب الموصلة إليها، وهي اتباع شريعته ﷺ فهي متَّحدة، وإن اعتُبرت من حيث اختلاف كيفيات اجتناء تلك الثمرة وتنوع الوسيلة المعتبرة، فهي متعددة وبالنظر إلى تعددها قسمها جمعٌ من الأئمة الكبار وتعدَّدت تقسيماتهم بحسب ما رعاه كل واحد في تقسيمه من الاعتبار، فقسمها العارف السهروردي ﷺ في عوارفه إلى طريقين يجمعان جميعَ أحوالِ أهل التحقق بالطريق بلا مين: طريق المجذوبين المرادين وطريق السالكين المريدين. قال: وإليهما الإشارة بقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: الآية 13] قال: فقومٌ منهم خُصُّوا بالاجتباء الصرف، وقوم خصوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة، ثم بسط الكلام في تقرير كل من الطريقين بما يعلم بالوقوف عليه لمن أراده.

ومن أحسن العبارات في ذلك قول التاج بن عطاء الله ﷺ في حكمه: قوم تسبق أذكارُهم أنوارَهم، وقوم تسبق أنوارُهم أذكارهم، ذاكر ذكر ليستنير قلبه وذاكر استنارَ قلبُه فكانَ ذكراً، فسبقية الأذكار للأنوار، كما قاله ابن عباد رحمه الله تعالى هي حالة المريدين السالكين، وذلك لأن شأنهم المجاهدة والمكابدة، فهم يأتون بالأذكار في حال تكلُّفٍ منهم، وتعمل ليحصلَ لهم بذلك زوائدُ الأنوارِ وسَبْقية الأنوارِ للأذكار حالة المرادين المجذوبين، لأنهم مقامون في السهولة والخفة، فهم لما وجهوا بالأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلّف ولا تعمُّل، ومن أوضحِ التقريرات لهذا المعنى قولُ التاج بن عطاء الله أيضاً في «لطائف المنن» على قول شيخه المرسي رضي الله تعالى عنه: الناسُ على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقومٍ وصَلُوا بطاعة الله إلى كرامةِ الله، قال الله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: الآية 13] الآية، ما نصه.

ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرّك بالله تعالى همته لطلب الوصال إليه، فصار يطوي مهام[1] نفسِه وبيداءَ طبعه إلى أن وصَلَ إلى حضرة ربِّه، فيصدق على هذا قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: الآية 69] ومن الناس من فاجأته عنايةُ الله تعالى من غير طلب ولا استعداد، ويشهدُ لذلك قوله تعالى ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البَقَرَة: الآية 105] فالأول حال السالكين، والثاني حالُ المجذوبين، فمن كان مبدؤُه المعاملة فنهايته المواصلةُ، ومن كان مبدؤه المواصلة رُدَّ إلى وجودِ المعاملة ولا تظنَّ أن المجذوبَ لا طريقَ له، بل له طريق طوتها عناية الله تعالى فسلكها مسرعاً عاجلاً، وكثيراً ما تسمع أن السالك أتمُّ من المجذوب لأن السالك عرف طريقاً بها توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك، وهذا إنباءٌ عن أن المجذوب لا طريق له، وليس الأمر كما زعموا، فإن المجذوبَ طُوِيَت له الطريق ولم تُطْوَ عنه ومن طويت له الطريقُ لم تفتْهُ ولم تغبْ عنه، وإنما فاتَه متاعبها وطولُ أمدها، والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوارِ المطايا[2].

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: وهو حَسَنٌ قلَّ أن يوجد لغيره اهـ. وانظر قوله في الحكم دلّ بوجود آثاره على وجود أسمائه الخ، وما قيده عليه ابن عباد رحمه الله تعالى تستفد زيادة في تقرير هذه الجملة. وفي آخر جوابٍ لسيدنا الشيخ ﷺ عن الآية الكريمة

---

(1) كذا بالأصل، ولعل الصواب «مهامه» وهي الصحراء الخالية.

(2) الأكوار: جمع الكُور، وهو الرَّحْلُ، أو الرحلُ بأداته. والمطايا: جمع المطيَّة، وهي الدابة يُركب عليها.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: الآية 13] الآية، بعد تقريره للطريقين وذكره لحالة الاجتباء أمثلة تتَّضح بهما كما هي عادته رضي الله عنهما نصُّه، وفي هذا يقول بعض الصوفية في سيدنا موسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام: إن سيدنا موسى عليه السلام لما أرادَ الله به الارتحالَ إليه أمَرَه بصيام ثلاثين يوماً متَّصلة ليلاً ونهاراً، فلما كملت أنكر خلوف[1] فَمِهِ فتسوَّكَ بعود خرنوبٍ طلباً لزوالِ ما أنكره، فعاتبه الله تعالى على ذلك، وأمره بزيادة عشر لتكمل أربعين ليلة.

وأما سيدنا محمد ﷺ فلم يؤمرْ بشيءٍ، وإنما كان من أمره في ذلك أن نزل عليه الملك فقال: قمْ، فعرج به فسلك بسيدنا موسى عليه السلام مسلكَ المريدِ السالك حيث أمر بتقديم السببِ، وبسيدنا محمد ﷺ مسلكَ المرادِ، فاجتُبي بلا سبب وقُرِّب بلا علةٍ، بل بمحضِ الجود والكرم اهـ. وهذا ساقَهُ الشيخ رضي الله عنه كالمثال لتعقل الطريقين بعد أن قدَّم التصريح بأن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يذكر فيهم إلا الاجتباء، واستدلَّ رضي الله عنه لذلك بعدة آيات قرآنية، فتنبَّهْ لذلك ولا يذهبْ بك القصورُ إلى توهيم أهل الله تعالى وتخطئتهم، فإن لهم ألسنةً أعجمية على غير أهلها وهي لأهلها لسانٌ عربي مبين.

وإنما أطلت في بيان هذين الطريقين ليكون في ذلك شرحُ ما عسى أن يتوقف في فهمه مما سنذكره في شرح أبيات النظم إن شاء الله تعالى من أهل طريقنا هذه الأحمدية مسلوك بجميعهم طريق المرادين، وذلك أحدُ الوجوه التي من أجلها سُمِّيت بالمحمدية بالمعنى الأخصّ كما سيبين في المطلب بعد هذا إن شاء الله تعالى.

(تنبيه) قال في «العوارف» بعد تقريره الطريقين المذكورين ما نصه: ودونهما طريقان آخران ليسا من طرقِ التحقُّق بالطريق في شيء: أحدهما مجذوبٌ أبترُ ماردٌ إلى الاجتهاد بعد الكشف، والثاني سالكٌ أبترُ ما خلص بعد الاجتهاد إلى كشف اهـ. وهذان القسمان لا اعتدادَ بهما في الطريق كما صرَّح به سيدنا الشيخ رضي الله عنه قائلاً، والاعتداد إنما هو بمجذوب متدارك بالسلوك، وسالك متدارك بالجذب لا غير.

وقسمها جمعٌ من المتأخرين إلى طريقين أيضاً، لكن لا بالاعتبار السابق بل باعتبار التربية والتسليك. الطريقة الأولى: طريقة الشكر. والثانية: طريقة الرياضة ومجاهدة النفس وربما سمى بعضُهم الأولى طريقة الشاذلي والأخرى طريقة الغزالي، وقد تقدَّم لنا الكلام

---

(1) خَلَفَ الشيءُ يخلُفُ خُلُوفاً: تغيّر وفَسَد. يقال: خَلفَ الطعامُ، وخَلف فم الصائم، وفي الحديث «الخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

فيهما فيما عدا هذا من المطالب مع التنبيه على أن طريقتنا طريقةُ شكر. ولسيدنا الشيخ رضي الله عنه في ذلك كلامٌ نفيس فليراجع في محله من «جواهر المعاني».

وكان رضي الله عنه يقول: من لم يدخلْ في هذا الزمان من باب الشكر لا يدخل، وسيأتي لنا مزيد بيان لهذا في المطلب بعد هذا إن شاء الله تعالى.

وقسمها الشيخ محيي الدين الحاتمي رضي الله عنه إلى ثلاث، لا بالاعتبارين السابقين بل باعتبار بعض المقامات وما يعرض لأصحابها من الأمارات والعلامات.

ولنورد كلامَه هنا بلفظه لما اشتملَ عليه من الفوائد المهمة ونصُّه: رجالُ الله ثلاثة لا رابع لهم.

الصنف الأول: رجالٌ غلبَ عليهم الزهدُ والتبتُّل والأفعال الطاهرة كلُّها، وطهَّروا أيضاً بواطِنَهم من كل صفةٍ مذمومة قد ذمَّها الشرعُ إلا أنهم لا يرون شيئاً فوقَ ما هم عليه من هذه الأعمال، ولا معرفة لهم بالأحوال ولا بالمقامات والعلوم الإلهية الوهبية، ولا بالإشراق والكسوف ولا بشيء مما يجده غيرُهم، فهؤلاء يقال لهم: العباد، وهم إذا جاءهم أحدٌ يطلب منهم الدعاءَ ينتهرونه ويقولون له: أي شيء نحن حتى ندعو لك وما منزلتنا؟ خوفاً من أن يتطرَّق إليهم العجبُ، وخوفاً من غوائل النفس لئلا يدخلَهم الرياءُ في ذلك.

الصنف الثاني: رجالٌ فوق هؤلاء، يرون الأفعالَ كلَّها لله وأنهم لا فعل لهم أصلاً، فزال عنهم الرياء جملةً واحدةً وإذا سألتهم عن شيء مما يجوِّزُه أهل الطريق يقولون ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الانعام: الآية 91] وهم مثل العباد في الجدِّ والاجتهاد والورع والمقامات والعلوم والأسرار والكشوف والكرامات، فتتعلَّق هِمَمُهم بنيلها، فإذا نالوا شيئاً من ذلك ظهروا به في العامة من الكرامات لأنهم لا يرون غير الله وهم أهل أخلاق وفتوة، وهذا الصنفُ يسمّون الصوفية، وهم بالنظر لأهل الطبقة الثالثة أهل رعونة وأصحاب نفوس وتلامذتهم مثلهم أصحاب دعاوى حتى إنهم ربما يظهرون الرياسة على رجال الله.

والصنف الثالث: رجالٌ لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتبَ، ولا يتميزون على المؤمنين المؤدِّين فرائضَ الله بحالة زائدة يعرفون بها، يمشون في الأسواق ويتكلَّمون مع الناسِ لا يبصرُ أحدٌ من خلق الله تعالى واحداً منهم يتميز عن العامة بشيء زائد على عملٍ مفروض أو سُنّة معتادة في العامة قد انفردوا مع الله راسخين، لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين، ولا يعرفون للرياسة طعماً لاستيلاء الربوبية على قلوبهم إلى

آخر ما وصفهم به، ثم قال: فهم أرفعُ الرجال مقاماً وتلامذتُهم أكبرُ الرجالِ يتقلَّبون في أطوار الرجولية ﷺ أجمعين، ثم قال بعد كلام آخر فيهم: فهم الطبقة العليا وسادات الطريقة المثلى، ولهم علم الموازين وأداء الحقوق. وكان سلمان الفارسي[1] ﷺ منهم، بل هو من أجلهم قدراً اهـ. وهؤلاء يقال لهم الملامتية والملامية حسبما دلَّ عليه كلامُه فيما قبل هذا من أبوابِ الفتوحات المكية، وقد كان أخونا وسيدنا الشريف الأجلّ الولي الصالح مولانا محمد بن أبي النصر العلوي، أحد الخاصة من أصحاب سيدنا الشيخ ﷺ يقولُ لنا مراراً: إن أحوالَ غالبِ أهل طريقتنا جاريةٌ على أحوال الملامتية وهو ظاهر فيما ينطبق عليه كلام الحاتمي ﷺ من أوصاف أهلها، وقد صرَّح بذلك بعضُ أصحابنا، وهو من أعلام الطريقة وأركانها في جواب له. ونصُّ كلامه في جملة ما وصفهم به ولا يدعون دعوى ولا مزيةً ولا خصوصية ولا تميُّزا على الجنس، كل ذي حرفة في حرفته، وكلُّ ذي شغل في شغله، مع أن منهم المتصرفين في الكون بالأحوال لا بالخواص والاستعدادات الطبيعية، فلا شكَّ أنهم السادات الملامية الذين رئيسهم ذو الخلال سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ وعنهم:

حَسْبِي بِهِم من غَيْرِهِم بدلاً فَهُم ... رَوحِي ورَيْحَانِي وبُرْءُ سقامي
إني ختمْتُ على الضميرِ بحبِّهم ... فَغَدا هواهُم فيهِ زَهْرَ كِمامي
وجَعَلْتُه حرماً لهم فسِوَاهُم ... ما إنْ له بحِمَاهُ مِنْ إلْمامِ
إنْ لاحَ لي مِنْ افْقِ مَغْنَاهُم سَنًى ... فَعَلى الوجودِ تحيَّتي وسَلامي

اهـ من «الجواب المسكت».

وقسمها الشيخ الأكبر محيي الدين الحاتمي أيضاً إلى عدة طرق باعتبار آخر يفضي بنا إيراد ذلك إلى التطويل، مع أن المراد من هذه التقسيمات هو ما قدمناه من التمثيل.

وذكر الشيخ الإمام العالم العلامة الراوية الرحالة أبو سالم العياشي[2] رحمه الله

---

(1) هو سلمان الفارسي، أبو عبد الله، ويعرف بسلمان الخير، مولى رسول الله ﷺ. كان ببلاد فارس مجوسياً سادن النار «كنت رجلاً من أهل فارس من أصبهان». أول مشاهده مع رسول الله ﷺ الخندق، ولم يتخلف عن مشهد بعد الخندق. قال علي: «علم العلم الأول والعلم الآخر، وهو بحر لا ينزف، وهو من أهل البيت». توفي سنة (35هـ) في آخر خلافة عثمان.

(2) هو عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، أبو سالم، فاضل، من أهل فاس، نسبته إلى آية عياش (وهي قبيلة من البربر تتاخم أرضها الصحراء). قام برحلة دوّنها في كتابه «الرحلة العياشية» وله كتب أخرى، مات سنة (1090هـ).
انظر اليواقيت الثمينة: 178، وفهرس الفهارس: 2/ 211.

تعالى ورضي عنه في رحلته عن شيخه الشيخ أبي علي حسن بن علي العجيمي الحنفي رحمه الله تعالى ورضي عنه أنه قسمها إلى أربعين طريقاً، وذلك باعتبار ما كان موجوداً في زمنه بالبلاد المشرقية وغيرها من طرق المشايخ المعتبرين في التسليك والإرشاد، الموصوفين بالتربية والترقية وإفاضة الإمداد، وذكر عن شيخه المذكور أنه أفرد تقسيمها برسالة استوعَب فيها جميعَها، وذكر فيها ما يتميَّز به أهلُ كل طريق منها، قال، أي أبو سالم: وهي غاية في الباب مستوعبة أتم استيعاب، ما رأيتُ مثلَها لأحدٍ قبلَه ممن سلكَ الطريقَ وعُدَّ من أولئك الفريق. قال: وهي دالةٌ على سعةِ اطلاعه وكثرة اعتنائه بالطريق ولقاء أهلها، إلى آخر كلامه في ذلك في رحلته، ثم ذكر منها: أي من الرسالة المذكورة بعض ما تمسّ الحاجة إليه من ذلك سرده لتلك الطرق هكذا:

محمدية، أويسية، قلندرية، صديقية، ملامتية، كبروية، همدانية، ركنية، نورية، خلوتية، مولوية، جهرية، برهانية، أحمدية، سهروردية، خفيفية، شاذلية، وفائية، زروقية، بكرية، جزولية، خواطرية، عيدروسية، مشارعية، حاتمية، قادرية، غرابية، مدينية، قشيرية، رفاعية، حلاجية، خرازية، خشنية، مدارية، شطارية، عشقية، نقشبندية، غوثية، جنيدية، سهلية اهـ.

(أما المحمدية) فمنسوبة إلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ووجْهُ اختصاصِها بالانتساب إليه مع أن الكلَّ راجعة إليه ومستمدَّةٌ منه أن صاحبها بعد تصحيح بدايته وسلوكه على منهج الاستقامة المبين في الكتاب والسنة يشتغل بالصلاة على النبي ﷺ إلى أن تستولي محبته على قلبه، ويخامر سرّه تعظيمه، بحيث يهتزُّ عند سماع ذكرِه ويغلبُ على قلبِه مشاهدتُه ويصيرُ تمثُّله بين عيني بصيرته فيسبغُ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ولا يجعل لمخلوقٍ عليه منةً إلا النبي ﷺ، فيراه في اليقظة والمنام، ويسأله عما يريد. قال: وقد سَلَكَ على هذا جماعةٌ من المشايخ قديماً وحديثاً، قال الشيخ أبو سالم: ذكر صاحب الرسالة جماعة منهم ثم قالَ أعني أبا سالم رحمه الله تعالى: قلت: وقد رأيتُ بالقاهرةِ سنة بجامع المارديني الشيخ محمد الخلوتي، وهو رجلٌ منقطع بالمسجد وله أصحاب، فسألته عن طريقه ولمن ينتسب؟ فقال لي: أما أنا فطريقي محمدية لا أنتسب لأحدٍ إلا للنبيِّ ﷺ، وذكر أنه محافظ على استحضار صورته الشريفة ﷺ، في باطنه، فأغناه ذلك عن التقليد لشيخٍ والاستمداد منه أو كلاماً من هذا، اهـ كلامه في الرحلة.

وفي صنيع الرسالة ما يشهد لكمال ذوقِ صاحبها حيث قدَّم الكلام على هذه الطرق المنسوبة بالوجه الخاص لسيد الوجود ﷺ. وقد عرفتُ ما تميزتْ به الطريق المحمدية من

كلام الشيخ العجيمي، وكذا من كلام الشيخ محمد الخلوتي فيما حكاه عنهما صاحب الرحلة. وبه تعلم أنها طريق شهيرة، وقد أفردها القطب السمان بالتآليف، وذكرها غيرُ واحدٍ من الأئمة في غير ما تصنيف.

ولغرابةِ علم الطريق في هذا الزمان تجد الكثيرَ من أهل العلم وبعضَ المتصوفة وغيرهم من المتصلِّحين ينكرون وجودَها، بل لا يدرون لها حقيقة أصلاً، والأمرُ له، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومن هذه الحيثية، أي من حيثية ما عمَّ في الوقت من الجهل بعلم الطريق كبر في صدور كثير من الناس أمرُ طريقنا هذه المحمدية حتى ادعوا أنها لا شيخ لها ولا إمام، فلم يهتدِ إليها إلا من سبقتْ له العنايةُ الأزلية لا غير، وسيأتي لنا في المطلب بعد هذا مزيد بيان وإيضاح فيما اختصَّت به هذه الطريقة الشريفة نفعنا الله بها وبأسرارها بمَنِّه وكرمه آمين.

ومما ذكره في الرحلة عن شيخه صاحب الرسالة المذكورة قوله في الأويسية: إنهم المنسوبون إلى روحانية بعض الأنبياء والمشايخ، كأخذ سيدنا أويس عن روحانية سيد المرسلين، وكأخذ أبي يزيد عن روحانية الإمام جعفر الصادق، فصار كل من أخذ عن روحانية تسمَّى طريقته أويسية اهـ. وقد وجدتُ هذه الطريق في أهل طريقنا كما بلغنا أنه اتفق لبعض مشاهيرِ الأولياء من أهل تشيت، فأخذ عن روحانية الشيخ ﷺ بمسجده من بلده، وأجاز له بإطلاقٍ أخبرني بالأخذ عن روحانية الشيخ ﷺ الناظم رحمه الله، وأما الولاية فمتفق على إثباتها له ببلده متواتر أمرها عنه، ولا تشك في وقوع ذلك لغيره أيضاً ممن يكرمه الله تعالى به إذ لا غرابة فيه.

ومن ذلك أيضاً ما ذكره في القلندرية من أن مبنى طريقِهم على حصول طيبة القلب والتقلُّل من الدنيا وترك الادخار، ومن شأنهم أنهم لا يشتغِلُون بترك الملذوذاتِ من الأطعمة المباحة ولا بالزيادة على الفرائض، إذا حصلتْ لهم اهـ ما ذكره في القلندرية في الرحلة عن شيخه في رسالته المذكورة، وهو ملخص ما في «عوارف المعارف» في وصفهم.

ومن ذلك أيضاً قوله في الصديقية أنها منسوبةٌ إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه. قال: وقد ذكرها صاحبُ «مفتاح الفلاح» اهـ كلامه. وهذه الطريق هي طريق الشيخ أبي بكر بن هواري، كما ذكره ابن باديس في سينيته رحمه الله تعالى بقوله:

«ولابن هواري في المقامات رُتبةٌ»

إلى آخر الأبياتِ الخمسة، راجع السينيَّة وشروحَها.

ومن ذلك قوله في الملامتية: إن مبنى طريقهم على الخروج من رعوناتِ النفوس وتطهيرها من جناية العجبِ والرياء وحبِّ الجاه والرياسة، وإسقاط المنزلة من قلوب الناس بأمور ينكرها العوام اهـ. وقد علمت ما اصطلح عليه الشيخ محيي الدين في الملامتية من كونهم على طوائف أهل الطريق، فاشدُدْ عليه يدَك ولا يخدش لك في وجهه ما في «عوارف المعارف» وغيره مما يخالفه، فإن منشأ الاختلاف في ذلك الاختلافُ في الاصطلاح، ومعلوم أنه لا مَشَاحةَ فيه فافهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن ذلك قوله في الكبروية إنها منسوبة للشيخ نجم الدين الكبري قال: والهمدانية شعبةٌ منها، إلا أن أهلها يختارون الإسرارَ بالذكر مطلقاً، إلا بعد فريضة الصبح. قال: وقد ذكر المنلاجامي أن الشيخ علي الهمداني ساح الربع المعمورَ وصحِبَ ألفاً وأربعمائة وليٍّ، أخذَ عن كل واحد ذكراً وجد ذلك الشيخ ثمرتَه فجَمَعها، ثم لما زارَ النبيَّ ﷺ رآه وقد أعطاه شيئاً، وقال له: خذ هذه الأورادَ، فرآه فإذا هي التي جمعها من مشايخه فجَعَلها حينئذٍ ورداً في الصباح، وقَفَ على بركتها كثيرٌ ممن لازمها، وذكر صاحبُ الرسالة عن نفسِه أنه أخذَها عن بعض ذرية الشيخ علي الهمداني المذكور.

وذكر أيضاً في الركينة نسبةً إلى الشيخ ركن الدين السمناني[1] أنها شعبة من التي قبلها يعني الهمدانية. والنورية نسبة إلى الشيخ نور الدين الإسفرايني شعبة من التي قبلها أيضاً كذلك.

ثم ذكر الخلوتية وأن مبنى طريقهم على الذكر بالكلمة الطيبة بكيفيةٍ مخصوصةٍ، ثم ذكر الجلالة، ثم ذكر الأسماء العشرة على الترتيب: هو حقٌّ حيٌّ قهار وهَّاب فتَّاح واحد أحد صمد قيوم، وتنتهي إلى الشيخ قطب الدين، أحمد بن محمد الأبهري اهـ كلامه.

وهذه الطريقة هي التي سلك عليها شيخنا رضي الله عنه حتى فَتَحَ عليه بما فتح به من ملاقاته ﷺ والأخذ عنه حسبما تقدم، وسيأتي أيضاً أخذها رضي الله عنه عن شيخه الشيخ محمود الكردي المصري بسنده إلى الشيخ الأبهري المذكور، وهو عن أبي النجيب السهروردي بسنده إلى الجنيد عن السري عن معروف عن داود الطائي، عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري

---

(1) هو محمد بن أحمد بن محمد السمناني، أبو جعفر، قاض حنفي، أصله من سنان العراق، نشأ ببغداد، وولي القضاء بالموصل إلى أن توفي بها سنة (444هـ). وكان مقدم الأشعرية في وقته، وشنع عليه ابن حزم. له تصانيف في الفقه.
انظر الجواهر المضية: 2/ 21، ونكت الهيمان: 237.

ﷺ أجمعين، عن مولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عن النبي ﷺ، عن جبريل ﷺ عن رب العزة تبارك وتعالى، وانظر السند بتمامه في كتاب «جواهر المعاني».

ثم ذكر (المولوية) وقال: إنها تنسَبُ إلى المولى جلال الدين الدوسي. والجهرية قال: ومبناها على الجهْرِ بالذكر، وتنتهي إلى الخواجة أحمد السيوري، قال: وهي عن سيدنا الخضر ﷺ.

(والبرهانية) نسبة إلى الشيخ برهان، قال: من شأن أهلها الجهْرُ بالذكر ولبس الزيِّ وهو الأخضر.

(والأحمدية) ومن شأنهم لبس الزيِّ وهو الأحمر.

(والسهروردية) معروفة (وكذا الخفيفية) وطريق أهلها الغيبة والحضور.

(والشاذلية) معروفة، والأربع بعدها شعبة منها.

(والخواطرية) مبنية على الذكر بكلمة التوحيد على كيفية مخصوصة.

(والعيدروسية) نسبة إلى الشيخ عبد الله بن عيدروس.

(والمشارعة) ومبناها على الجهْرِ بالذكر، ومن شأنهم السماع بشروطه ومطالعة كتب القوم وقراءتها ولبس الزي للدروزة، وهو الوقوف على الناس للسؤالِ ونسبتهم إلى الشيخ أحمد بن موسى المشرع اليمني.

(والقادرية والحاتمية) منسوبتان إلى الشيخين الجليلين الحاتمي والجيلاني والتي بعد الثانية شعبة منها.

(والمدينية) للشيخ أبي مدين الغوث، وهي شعبة من القادرية أيضاً.

(والرفاعية) شعبة من القادرية أيضاً.

(والقشيرية) إلى الأستاذ، وهي معروفة.

(والخرازية) لأبي سعيد الخراز.

(والخشنية) فإلى قطب الدين الخشني.

(والمدارية) فإلى الشيخ بديع الزمان الشاه مداري.

(والشطارية) إلى الشيخ عبد الله الشطاري.

(والعشقية) تنسب إلى الشيخ أبي يزيد العشقي.

(والنقشبندية) إلى الشيخ بهاء الدين نقشبند.

(والغوثية) خلاصات السادات الشطاريين ينسبون إلى الشيخ غوث الله، صاحب «الجواهر الخمس».

(والحلاجية) معروفة، وكذا (الجنيدية) (والسهلية) إلى سهل بن عبدِ الله. اهـ الغرض مما لخصه الشيخ أبو سالم رحمه الله تعالى من رسالة شيخه المذكور، وليراجع الرحلةَ من أراد الوقوفَ على ذلك بتمامه.

وفيما ذكرناه من هذه التقسيمات عن هؤلاء الأعلام كفاية فيما قصدنا التمثيلَ به في هذا المقام، ولا شك أن من نظر فيها وفتَحَ الله بصيرته لفهمها يسلِّمْ لجميع المشايخ، ويقرّ جميع طرقهم، ويعلم أن الزهر ألوان، وأن قصر الكمال على ما اقتضاه الألف الطبيعي من أعظم أسباب الحرمان، والله المستعان، وليس إلا عليه في التوفيق التكلان.

(تتمة نافعة) تكون إن شاء الله تعالى لما حمنا حوله في هذا المطلب كالفذلكة[1] الجامعة.

وقد عرفت من جميع ما ذكرناه في هذا المطلب أن الولاية أمر خارج عن دائرة العقل والتخمين، وأن الأولياء تخفى حقائقهم وما امتازوا به من العلم بالله في بواطنهم على بعضهم بعضاً فضلاً عن غيرهم، فلهذا كان لا يصلُ إليهم إلا من جذبته جواذبُ العناية الإلهية، وقادته نحوهم أزمةُ الخصوصية الربانية، لأن الوليَّ إذا كان لا يعرف حقيقة وليٍّ مثله فكيف يعثُر عليها من ليس له قِدَم فيها، مع كونه لا يرى إلا إنساناً مثله يأكلُ كما يأكل، ويشرب كما يشرب، ويجري عليه حميع الأعراض التي تجري عليه، هذا مما لا سبيل إليه، وإلى هذا أشار التاج بن عطاء الله بقوله في ﷺالحكم: سبحان من لم يجعل الدليلَ على أوليائِه إلا من حيثُ الدليلُ عليه، ولم يوصِلْ إليهم إلا من أرادَ أن يوصله إليه.

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: ولما كان الوصولُ إلى الله تعالى لا يكون إلا بالعناية والخصوصية، ويستحيل أن يكون بطلبٍ أو سبب كان أولياؤه المخصوصون بالقرب منه كذلك، لما خلع عليهم الخِلعَ العظيمة، وتولَّاهم بمننه الجسيمة واصطفاهم لنفسه واختصَّهم لمحبته وأنسه وطهَّر أسرارهم من أنجاس الأغيار، وصان قلوبَهم بما أودع فيها من

---

(1) الفذلكة: مجمل ما فُصِل، وخلاصته.

الأنوار، فكانوا لذلك ضنائنه في عباده وخباياه في بلاده، كما قال في بعض الإشارات عنه سبحانه وتعالى: أوليائي تحت فنائي لا يعرفُهم أحدٌ غيري، وهذا من غيرته عليهم، لأن الحق تعالى غيورٌ على أوليائه من أن يظهرهم إلى مَنْ لا يعرفهم، فلم يجعل لأحدٍ دليلاً عليهم إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا مَنْ أرادَ أن يوصِلَه إليه لأنه يلبسهم لباس التلبيس بين الأنام ويظهرهم بما يحقِّرهم في أعين الخواصّ والعوام، فلا يكون لأحد دليلٌ عليهم أو وصولٌ بسبب إليهم اهـ.

ونقل عن التاج أيضاً أنه رحمه الله تعالى قال في «لطائف المنن» وسمعه، يعني شيخه، الشيخ أبا العباس المرسي[1] رضي الله تعالى عنه يقول: معرفةُ الولي أصعبُ من معرفة الله، فإن الله تعالى معروف بكماله وجماله وحتى متى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب، قال: وإذا أرادَ الله أن يعرفكَ بوليٍّ من أوليائه طَوَى عنك وجودَ بشريته، وأشهدكَ وجودَ خصوصيته اهـ. وذلك لأن الوليَّ لا يلزم من ثبوتِ خصوصيته انعدام بشريته. وبيانه أن الخصوصية هي ما يخصُّ الله تعالى به عبدَه من أوصافه العلية ونعوته القدسية، ليغطي بذلك أوصافَ نفسِه البشرية، ويوصله إلى حضرة معارفه السنية، وهذا السترُ واردٌ من الله تعالى على العبد من عين الجود والمِنَّة، وليس بذاتي له. وأما البشرية فهي الأوصاف الذاتية للعبدِ والأمر الذاتي يستحيلُ انعدامه، وإنما اللازمُ من ذلك السترِ عدمُ غلبة ذلك الوصف على العبد بحكم الوارد الموجب لتعطيل أحكامه، لا لانقلابه وانعدامه، فإذا قدر ذهاب هذا الوارد الغالب بقي الوصفُ البشري الذاتي غالباً قاهراً، فمن أراد الله تعالى أن يوصله إلى أحدٍ من أهل ولايته أيَّده بأنوارِ عنايته، فطوى عنه أوصافَ بشريةِ ذلك الولي الذاتية، وأشهدَه تلك الخصوصية الواردةَ عليه من آثار النعوت الأسمائية والصفاتية، ومن لم يردِ الله به ذلك عَمِيَتْ عليه في تلك الخصوصية الأنباءُ، وانطمستْ بينه وبينها المسالك فافْهم.

وههنا دقيقة: **وهي** أن كلَّ قاصدٍ إلى الولي من المريدين لا يرى إلا ما هو متلبّسٌ به في باطنه، لما ذكره صاحب «الذهب الإبريز» عن شيخه القطب سيدي عبد العزيز ﷺ من أن الوليَّ الكامل يتلوَّن على قلوبِ القاصدين الخ كلامه. فكلُّ من قصد الولي معتقداً فيه

---

(1) أحمد بن عمر المرسي، أبو العباس، شهاب الدين، فقيه متصوف، من أهل الإسكندرية، لأهلها فيه اعتقاد كبير إلى اليوم، أصله من مرسية في الأندلس، مات سنة (686هـ)0
انظر النجوم الزاهرة: 7/ 371.

الكمال، مصدقاً بما مَنَحه الله تعالى من سَنِيِّ الكرامات والأحوال، كان جزاؤه من المولى الكبير المتعالِ، أن لا يريهُ منه إلا ما يشرحُ له الصدر وينفسح به البالُ وكلُّ من قصده معتقداً فيه غير ذلك لا يرى إلا ما يسوءه ويستهويه في الردى والمهالك جزاءً وفاقاً.

وقد قال سيدنا الشيخ ﷺ في جواب له حقيقة الشيخ الواصل ما نصه: وأما التصديقُ للأولياء فهو أمرٌ إلهي يَضَعُه الله في القلب، فلا يقدِرُ على الانفكاك عنه ولو رأى منه ألفَ معصية، لكن إن كان المريدُ صادقاً فثوابُ صِدقه أن لا يرى إلا ما يسرُّه إلى آخر كلامه ﷺ، فليراجعه من أراده.

وليكن هذا آخرَ ما نورِدُه في هذا المطلب، وبالله التوفيق، والهداية إلى سواء الطريق.

المطلب السابع

في بيان وجه تسمية هذه الطريقة السنية بالأحمدية والمحمدية والإبراهيمية الحنيفية

اعلم أمدَّنا الله وإياك بأنوارِ اليقين، وسَلَكَ بنا وبك مسالكَ الذين يؤمنون بالغيب من عبادِهِ المتقين، أن لهذه الطريقة الشريفة بينَ الطرقِ مكانةً عاليةً ومرتبة قصوى سامية وذلك لما امتازَ به أهلُها من الانتماء الحقيقي إلى إمام حضرة الأنبياء، وسلطان مملكة الأصفياء، إذ لا أستاذَ لها إلا أستاذ الأساتيذ كلهم على الإطلاق، وإمام الكلِّ ومُمِدُّ الكل وسيد الكلِّ بالإطلاق، ﷺ وعلى آله وصحبه الكرام البررة السباق.

ولما تضمَّنه هذا المطلبُ من التحقُّق بوجْهِ هذا الانتماء الفاخر، والسبب في هذا الانتساب الأخصّ الباهر، جعلناه كالفصِّ لخاتم هذه المقدمة، والخاتمة لمقاصدها المهمة، رجاءَ أن يختمَ الله لنا بالتحقُّق بهذه النسبة الشريفة والالتحاق بدرجة هذه الإضافة السامية المنيفة، فنقول متبرِّئين من القوة والحول، مستندين إلى فضل مَنْ له المنة والطول.

أما تسميتها بالأحمدية، كما عليه إطلاقاتُ جميع أصحاب الشيخ ﷺ، فمن وجوه:

أولها وهو الظاهر المتبادَرُ لكلِّ أحدٍ إنما سميت بذلك نسبةً إلى اسم صاحبها، لأن اسمه ﷺ أحمد. وهو إمامُها المتلقِّي لها من حضرةِ سيد الوجود ﷺ من دون وساطة شيخٍ آخر، فلا إشكالَ عليه في تسميتها بالأحمدية.

الوجه الثاني: أنها إنما سميت بذلك لكونها طريقةَ شكرٍ كما تقدَّمت الإشارة إليه، فلكون القطب الذي عليه مدارها هو الحمد بالوجْهِ الأبلغ، سميت أحمديةً، وهو ظاهر.

الوجه الثالث: كونُ أذكارِها الدائرة عليها مشتملةً كلُّها على أبلغ المحامد، إما تصريحاً أو ضمناً، فمن ذلك أم القرآن، ولا شكّ أنها مشتملة من أسرار المحامد على ما يقصرُ عنه اللسان، ومن ذلك سورة القدر، ومحل ذلك منها عندهم قوله تعالى ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: 3] ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[1] [القدر: 5] ومن ذلك صلاة الفاتحِ لما أغلقَ، ولا شك أنها متضمّنة للاعتراف بإنعام الله علينا بهذا النبي الفاتح الخاتم الناصر الحق بالحق، الهادي إلى الصراط المستقيم، المخصوص عند الله تعالى بالقدر العظيم، والمقدار المفخم الجسيم عليه وعلى آله من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم. ومن ذلك جوهرة الكمال؛ ومحال ذلك منها البرق الأسطع بمزْنِ الأرياح المالئة الخ، وكذلك دعاء «يا من أظهر الجميل وستر القبيح الخ» وأما ما تضمنه دعاء السيفي من ذلك مما لا يحتاج إلى بيان فلكون أذكارها المتداولة بين أصحابها دائرة على أبلغ الحمد صريحاً أو ضمناً، سميت أحمدية.

الوجه الرابع: كونُ صاحبها هو الخاتم الأكبر، المخصوص بوراثة السرِّ الأبهر، كما أشارَ إليه الشيخ محيي الدين ﷺ في حديث «كُنْتُ نَبِياً وآدمُ بَيْنَ الماءِ والطِّين»[2] بقوله: أي كنت نبياً بالفعل، عالماً بنبوَّتي وآدم بين الماء والطين. قال: وغيره لم يكن نبياً بالفعل ولا عالماً بنبوته إلا عند بعثتِه، ثم قال: وكذا خاتمُ الأولياءِ كان ولياً بالفعل عالماً بولايته في ذلك العالم، وغيره من الأولياء ما كان ولياً بالفعل ولا عالماً بولايته إلا بعد تحصيله ما يشترطُ في الاتِّصاف بالولاية من الأخلاق التي يتوقَّف الاتِّصافُ بالولاية عليها من كون الله تعالى تسمَّى بالولي الحميد اهـ.

فعرف من هنا أن خاتم الأولياء قد سبق في حمد الله تعالى كل حامد من الأولياء، فما حَمِدَه أحدٌ من الأولياء مثلَ ما حَمِدَه خاتمُ الأولياء، فيتحقَّق فيه ما لم يتحقق في غيرِه من الاتصاف بالحمْدِ على جهة الأبلغية، فصحَّ اتِّصافُ طريقِه بالأحمدية.

وههنا وجوهٌ أُخَر اقتضى النظر فيها أنها مما لا ينبغي أن يسطر لأن مدارَ الكلام فيها على تعقل معنى الحقيقة الكتمية وذلك مما لا سبيل لنا إلى الوقوف منه على جلية القضية.

على أن في هذه الوجوه التي ذكرناها غايةَ الكفاية للمريد الصادق فيما يتمسَّكُ به مما

---

(1) التلاوة هكذا ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر: الآيات 3-5].

(2) رواه البخاري في (الأدب: 119)، ومسلم في (فضائل الصحابة: 28).

يحرك همَّته إلى التوجُّه لحضرة الخالق، والإقبال عليه سبحانه بمَحْو العلائق والعوائق، فيستعدَّ لتلقي أنوار المعارف والحقائق وتنكشف له الأستار عن مخبآت تلك اللطائف والدقائق. وحَسْبه ذلك مما تنتجُه له مطالعتها وتفيده إياه مراجعتها وبالله التوفيق.

وأما تسميتُها بـ«المحمدية» وقد قدمنا أنها من إطلاقاتِ سيدنا ﷺ عليها فهي متعددة أيضاً:

(أولها) كون الطريقة المحمدية بالوجه الذي تقرَّر في المطلب قبل هذا من جملة الطرق التي اشتملتْ عليها، وهي الطريقةُ الثانية من الطرق الثلاث التي انتقاها صاحبُ كتاب «ميزاب الرحمة الربانية من كتاب جواهر المعاني» وجعل مدارَ السلوكِ في هذه الطريقة عليها. وقد أجاد وأفادَ رحمه الله تعالى في بيان كيفية السلوك عليها والتربية بها فلينظر ذلك فيه.

وقد تقدم ما للشيخ حسن العجمي في ذلك من أن صاحبها بعد تصحيح بدايته وسلوكه على منهج الاستقامة المبين في الكتاب والسنة يشتغلُ بالصلاة على النبي ﷺ إلى أن تستولي محبَّتُه على قلبه ويصيرَ تمثالُه بين عيني بصيرته، فيسبغَ الله عليه نعمَه ظاهرةً وباطنة، ولا يجعل لمخلوقٍ عليه منةً إلا النبي ﷺ، فيراه يقظةً ومناماً، ويسأله عما يريد كما تقدَّم أيضاً قول الشيخ محمد الخلوتي لمن سأله عن طريقِه، ولمن ينتسب: لا أنتسب لأحدٍ، ثم ذكر عن نفسه أنه محافظٌ على استحضارِ صورته ﷺ في باطنه، فأغناه ذلك عن التقيُّد بشيخٍ والاستمداد منه اهـ.

وذكر الشعراني في «الأنوار القدسية» عن الشيخ أحمد الزواوي أنه كان يقول: طريقنا أن نكثر من الصلاة عليه ﷺ حتى نصيرَ من جلسائِه ونصْحَبَه يقظةً مثل أصحابه، ونسألَه عن أمورِ ديننا وعن الأحاديثِ التي ضعَّفَها الحفاظ عندنا، ونعملُ بقوله فيها اهـ إلى غير ذلك من العبارات المشيرةِ إلى كيفية السلوكِ على الطريق المحمدية.

وحاصلُ ذلك كلِّه أن القطبَ الذي يدورُ عليه السلوك في الطريقة المحمدية عندنا هو الإكثارُ من الصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ مع كون الذاكر على أحسنِ الحالات وأكملها، باستحضارِ معاني الذكر والإنصات إليه بقدر الاستطاعة، وكذا استحضار صورته الكريمة ﷺ في باطنه واعتقاد أنه جالسٌ بين يَدَيْهِ يستمدُّ منه، فإن قدر على استحضارِ صورتِه ﷺ الذاتية الواردة في الأحاديث المروية عنه ﷺ فذلكَ أكملُ وأبلغُ وإن لم يقدر فليستحضرْ أنه جالسٌ بين يدي صورة نورانية عليها ثيابٌ من نورٍ في غاية ما يكونُ من

الجلالِ والجمال ونعوتِ الكمال، يداوم على ذلك حتى يشرقَ في قلبه نورُ الصلاة عليه ﷺ وتصير تنطبعُ الصورة الكريمة في ذهنه كلما تأمَّل في ذلك وتفكَّر فيه. وهذه أضعفُ مراتبِ الانطباع، ثم ينتقلُ منه إلى انطباع صورتِه الكريمة في عيني بصيرته وقتَ الصلاة عليه ﷺ ثم ينتقل منه إلى انطباع الصورة الكريمة في عيني قلبه، كلما مدَّ عينيه نوماً أو يقظة. ومن هذه الحالة ينتقل إلى حالة رؤيته يقظةً كفاحاً، وأهلُ هذه الحالة على قسمين: منهم من يرى في اليقظةِ روحَه الشريفةَ متشكّلةً بصورتِه الشريفة. ومنهم من يرى حقيقة ذاتِه الشريفة وكأنه معه في حياته ﷺ. وهؤلاء هم أهلُ المقامِ الأعلى في رؤيته ﷺ. هذا ملخَّص ما للمشايخ في تحقيق معنى الطريقة المحمدية بالوجْهِ الخاص.

فالطرقُ وإن كانت كلها محمديةً بالوجه العام فقد اختصَّت عنها هذه الطريقة بهذه المزيَّةِ العظيمة والخصوصية الجسيمة التي من أجلها اختصت بحيازة هذه النسبة الشريفة والحلية السنية والرتبة المنيفة. ثم اختصَّت طريقتُنا هذه «الأحمدية» في هذه الطريقة «المحمدية» بمزيد كرامة وتفضيل وتخصيص لها من الملك الجليل، وذلك بكون الصلاة على النبي ﷺ فيها بالياقوتة الفريدة، وهي صلاة الفاتحِ لماأغلق والخاتم لما سبق التي لا يأتي الحصر على ما خصَّها الله تعالى به من المزايا الفاخرة والأسرار الباهرة والفضائل العديدة. وذلك كما أوضحَهُ صاحبُ «ميزاب الرحمة الربانية» لما اشتملتْ عليه مما لم يشتملْ عليه غيرُها من أسرار السير والسلوك في المقامات العرفانية.

قال: فالتقرُّب إلى الله تعالى بهذه الصلاة سير في مقامات الدين الثلاثة. إذ المقامات مشتملةٌ على مواقفَ مغلقة الأبواب، وأولها باب المتاب إلى آخر ما بعده من الأبواب، فالغلق شاملٌ لجميعها اشتمالَ باب واحد، والفتح مطلوب في كلها لكلِّ قائم وقاعد، والختم محتاج إليه في كافة عوارضها المعتادة. وأن في الختم معنىً للزيادة وغلقاً بين المريد وبين موانع جادَّةِ الإفادة، وأن في النصر لَعُدَّةً لما يكون من الأعداء المذهلة والآفات المعضلة من الآمال الخالية واللوائح الكاذبة. ولقد كان المريدُ للهداية عندَ تلاطُم أمواج بحار حقائق الأسرار وللتوفيق لقطْع مهامِهِ تلك الأخطار، والاهتداء إلى الحضرة وما لها من الأنوار، في غاية الاحتياج والاضطرار، فكان الألْيَقُ بالمريدِ أن يتعلَّق بهذه الصلاة ما بين كافة الصلوات على نبيه الكريم. إذ ما كل صلاة تفي بما تفي هي به في ظلمة الليل الأليل البهيم اهـ.

وانظر الطريقةَ الثالثة له من هذا الكتاب تستفِدْ مزيدَ بيانٍ وتقف من أسرار هذه الصلاة على ما يفي بشرحه التبيان. على ما أن اشتملَ عليه بالنسبة إلى مالم يذكر إنما هو قلٌّ من

كثرٍ ونقطة من بحر. وسنلِمُّ بالنذر[1] عن ذلك عند تعرُّض النظم لذكرها والإشارة إلى شيء من مكنون سرها إن شاء الله تعالى. وإنما مرادنا الآن أن نشيرَ إلى ما يؤذن ببعض ما امتازت به هذه الطريقةُ عن غيرها بالوجْهِ الخاصِّ، ثم بالوجْهِ الأخصِّ، لتعلَم من ظهورها ما لها من الخصوصية في ذلك، والمزية وجه تسميتها بالمحمدية.

(الوجه الثاني) أنه ﷺ أضافَ جميع الفقراء المتمسِّكين بهذا العهد المواظبين على هذا الورد إلى سيادته السنية ومكانته العلية، إضافةً خاصة تؤذن بشرف منزلتهم وشفوف مرتبتهم عند الله تعالى، وذلك أنه قال ﷺ لسيدنا رضي الله عنه يقظةً لا مناماً: فقراؤُكَ فُقَرائي وتلامِذك تلامذي، حسبما صحَّ بالإخبارِ به عنه رضي الله عنه من غير واحدٍ من أعيان أصحابه، فكان كلُّ من أخذ هذا الورد عن الشيخ رضي الله عنه أو عمن عنده الإذن فيه حائزاً لهذه الإضافة الشريفة والنسبة المنيفة، سواء كان مما سلك على الطريقة الثالثة من طرق الميزاب، أو على غيرِها من شعب هذه الطريقة الأحمدية، فوجب تخصيصُها باسم «المحمدية».

(الوجه الثالث) أنه ﷺ هو الضامنُ لجميع ما بشَّر به أهلها من الشيخ رضي الله عنه عن أعظم الوسائل من باهر الكرامات وسني الفضائل، كما أنه ﷺ هو القائمُ مُقامَه معهم لدى كل خطب هائل، كحضوره ﷺ موتَ من مات منهم على تباعُدِ أوطانهم وتبايُنِ بلدانهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وجدير لطريقٍ امتازَ أهلُها بهذه المزية أن تُخَصَّ بالتشريف بالإضافة المحمدية.

(الوجه الرابع) أن لأهل هذه الطريقة علامةً يتميَّزون بها عن غيرِهم، ويعرف بها أن رسول الله ﷺ هو صاحبها بوجْهٍ خاص، وهي كما قاله حواري[2] هذه الطريق المشهود له في معرفة أسرارها بالتبريز والتحقيق: إن كلَّ واحدٍ من أهلها مكتوبٌ بين عينَيْهِ بطابعِ النبيِّ ﷺ «محمد رسول الله» ﷺ، وعلى قلبه مما يلي ظهرَه «محمد بن عبد الله»، وعلى رأسه تاجٌ من نور مكتوبٌ فيه: «الطريقة التجانية منشؤها الحقيقة المحمدية» اهـ كلامه فيما وقفنا عليه من بعض مؤلفاته.

ويؤيده ما تواتَرَ بين الأصحاب عن جماعةٍ من أرباب الأحوال أنهم صرَّحوا لبعضِ أهلِ هذه الطريق بأنهم رأوا طابعَ النبيِّ ﷺ بين عينيه. وقد رأينا بعضَ الأصحاب إذا رأى أحداً من أهل هذه الطريق عرَفَه وقطع له بأنه من أهلها ولم يكنْ رآه قبل ذلك، ولا يبعدُ

---

(1) كذا بالأصل، والصواب «بالنزر».

(2) الحواري: الصاحب والناصر.

أن يكون كشف له الغطاء عن هذا الطابع الأزهر والسرّ الأبهر. ومعلوم أن مثل هذا إنما يراه من كشف الله له عن بعض أسراره الغيبية وأيّده بأنوارِه الوهبية، فلا مجالَ فيه للأفكارِ إذ لا نفَاق لبضاعة العقلِ في هذا المضمار. وهو من جائز الكرامات التي يتحفُ الله بها من شاء من عباده المؤمنين الأخيار، ويختصُّ بها مَنْ أراد مِنْ أوليائه المكرمين الأبرار، فسلِّم تسلم.

وكُنْ صـابِقـاً فـي حُـبِّـهِـمْ ومُـصَـدِّقـاً بـأحْـوَالِـهِـمْ واحْـذَرْ مـخـالَـفَـةَ الـشَّـمْـسِ

(الوجه الخامس) أن هذه الطريق أشبهت الملة المحمدية في كونها آخرَ المِلَلِ، وذلك لأنها آخرُ الطرق، فلا يأتي أحدٌ بعدها بطريق جديدة لأن سائرَ الطرق تدخلُ في طريقة الشاذلي ﷺ كما تقدم عن الشيخ ﷺ إلا هذه الطريقة الأحمدية، ولذلك سميت المحمدية.

(الوجه السادس) أن هذه الطريقة تدخلُ على سائرِ الطرق فتطلبها، وطابعها ينزلُ على كل طابع ولا ينزلُ عليه طابع، كماأن شرعَ سيدنا محمد ﷺ كذلك يدخل على جميع الشرائعِ ولا يدخلُ عليه غيره، فلما أشبهت الشريعة المحمدية من هذه الحيثية قيل لها: المحمدية.

(الوجه السابع) أن من ترك ورداً من أوراد المشايخ لأجْلِ الدخول في هذه الطريقة المحمدية آمنه الله في الدنيا والآخرة، ولا يخافُ من شيء يصيبُه لامن الله ولا من رسوله ولا من شيخه أياً كان من الأحياء أو من الأموات، وأن من دَخَلها وتأخَّر عنها ودخلَ غيرها تحلُّ المصائبُ به دنيا وأخرى، كما أن شرْعَ رسول الله ﷺ كذلك، فمن أجلِ هذه الخصوصية قيل لها: المحمدية.

(الوجه الثامن) أن الطرقَ كلَّها في آخر الزمان تصيرُ إلى هذه الطريقة المحمدية، وذلك عندما تصيرُ الطرقُ طريقاً واحداً، المذاهبُ مذهباً واحداً على ما أخبر به أهلُ الكشف رضوان الله عليهم، فأشبهت أيضاً الشريعة المحمدية من هذه الحيثية، فقيل لها: المحمدية.

(الوجه التاسع) أنه ﷺ يغار لأهلها غيرةً خاصةً، وأنه يؤذيه ما يؤذيهم حسبما أخبر به الشيخ ﷺ، وسيأتي بلفظه في محله من الكلام على أبيات النظم إن شاء الله تعالى، فمن أجل اختصاصهم بهذه الغيرة المصطفوية صحَّت لهم النسبة المحمدية.

(الوجه العاشر) أن هذا الشيخ الأكبر لما كان هو الختم المحمدي الأشهري الحائز

لكل ما للأولياء من الكرامات الاختصاصية، كما أن رسول الله ﷺ الحائز لجميع ما للأنبياء والرسل من الكمالات الإلهية، سميت طريقه المحمدية.

(الوجه الحادي عشر) أن الله تعالى بمحْضِ فضله العميم تفضَّل على أهل طريق هذا الشيخ العظيم، بأن جعلَ سبحانه وتعالى نسبة تضعيف حسناتهم بالنسبة إلى تضعيف حسنات غيرهم من أهل الطرق كنسبة تضعيف ثواب حسنات هذه الأمة إلى تضعيف ثواب حسنات غيرها من سائر الأمم، وراثة محمدية حبيبة مصطفوية، ولهذا كان من أذكارها ما تكون المرة منه تعدل عبادةَ سائر العارفين، ومنها ما تكون المرة منه تعدلُ تسبيح العالم ثلاثَ مراتٍ إلى غير ذلك مما يبهر العقول ويعجز عن إدراك كنه حقيقته الفحول.

قال صاحبُ «الرماح»: ولا ينكر هذا إلا من ينكر وجودَ الأذكار الجامعة وأسرارها، ومن أنكر ذلك سقَطَ معه البحثُ، لأنه إنكارٌ لما جاء به الصادق المصدوق ﷺاهـ.

وفي هذا القدر الذي ذكرناه من وجوه تسمية هذه الطريقة بـ«المحمدية» كفاية في بساط التذكير ببعض ما اختصَّت به هذه الطريقة السنية من أسرارِ هذه النسبة العلية.

وأما تسميتُها «بالإبراهيمية الحنيفية» فمن وجوه:

(الأول) أنها لا تكون محمديةً بالوجْهِ الأخصِّ إلا إذا كانت إبراهيميةً حنيفية كما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: الآية 161] .

(الوجه الثاني) أنها ناشئةٌ عن الدائرة الفضلية التي منها اتَّخذ الله إبراهيم خليلاً في الأزل، قبلَ إيجادِه وإيجاد الكون وما فيه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: الآية 51] الآية.

(الوجه الثالث) أنها طريقة شكر كما تقدم، وقد أثنى سبحانه وتعالى على إبراهيم ﷺ بقوله ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: الآية 121] الآية.

(الوجه الرابع) أن الله تعالى جَعَلها بمحْضِ فضله وكرمه معلم الخيرِ في هذا الزمان الذي هو آخرُ الأزمان، وألبَسها ملابسَ طاعته في السرِّ والإعلان، فكانت أمة وحدَها قانتة لله تعالى حنيفة، وذلك من مِلَّة إبراهيم كما أشار إليه قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ

﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: الآية 120] الآية. قال الشيخ محيي الدين: والأمة معلم الخير، والقانت المطيع لله في السر والعلانية.

(الوجه الخامس) أن من أركان هذا الطريق إسلامَ الوجْهِ إلى الله تعالى الإسلام التام، والانقياد إلى كل مأمور به على الوجه الأكمل في شريعة الإسلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: الآية 131] الآية. والإسلام الانقياد إلى الله تعالى عند كلِّ دعاءٍ يدعو إليه من غير توقف، قاله الشيخ محيي الدين. وانظر رسالة سيدنا ﷺ المسماة بالشافية وغيرها من رسائله ونصائحه الكافية تزددْ تحقُّقاً بما ذكرناه، وتعثر بمحمدِ الله على المعنى الذي رمزناه.

(الوجه السادس) أن هذه الطريقة لما كانت طريقَ اجتباء سهلة لا حرَجَ فيها ولا مشقَّة ولا ضيق كانت إبراهيميةً حنيفية اعتباراً، بما أشار إليه قوله سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: الآية 78] الآية، وقد تقدمت وصيةُ سيد الوجود ﷺ لسيدنا ﷺ لما وقع له الفتحُ على يَدَيْهِ ﷺ، وأذن له في تربية الخلق على الإطلاق بقوله: الزمْ هذهِ الطريق من غَيْرِ خُلْوةٍ ولا اعتزالٍ من الناس الخ، انظر «جواهر المعاني».

(الوجه السابع) أن من شأن السالكين على هذه الطريقة أن يغلبَ على أحوالهم كثرةُ الحلم والصبر على من يؤذيهم وينقصهم، وكثرة التأوُّه لما يشاهدون من جلال الله تعالى، فلا تجدهم يتميَّزون عن عامة المؤمنين بشيءٍ مما يشير إلى الكمال ولا يدعون لأنفسهم مع الله تعالى شيئاً من المقامات والأحوال، بل ترى الغالبَ عليهم في كلِّ حال الإنابة إلى المولى الكبير المتعال المنفرد بالعزة والجلال، سبحانه وتعالى، وذلك من ملة إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: الآية 75].

(الوجه الثامن) من فضائل هذه الطريق أن من دَخَلها وأسلم قياده إلى صاحبها بطريق المحبة الخاصة وكمال التصديق كان من الآمنين عند الله تعالى في الدنيا والآخرة، لقول سيد الوجود لسيدنا ﷺ: أنتَ من الآمنين، وكلُّ مَنْ أحبَّكَ من الآمنين إلى آخر كلامه في «جواهر المعاني»، وقد تقدَّمت الإشارةُ لقول سيدنا ﷺ: مَنْ تركَ ورداً من أورادِ المشايخ لأجلِ الدخول في طريقتنا هذه المحمدية آمنَه الله في الدنيا والآخرة، إلى آخر كلامه. وسنوردُه بعدُ إن شاء الله تعالى بتمامه، وقد قال مولانا جلَّ علاه في حق مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: الآية 97].

(الوجه التاسع) أن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسْكَن ذريتَه وعيالَه وادي الحرم[1] بلا زاد ولا راحلة، فنادى مولاه سبحانه ودعاه باسم الربّ رجاءً لتربية ذُرّيته وعياله وأهله، وإيوائهم إلى جوار كرامته سبحانه وفضله، فقال فيما حكاه الله تعالى عنه في محكم وحيه ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: الآية 37] الآية، فكانت في ذلك إشارة إلى تربية ذريته وعياله بحقائق التوكُّل والرضى والتسليم، ونعمت التربية هذه والبيت المحرم هو الذي يمنَعُ ساكنَه وقاصدَه من المُساكنة والملاحظة والاستناد لغيرِ الله تعالى، قاله صاحب «الرماح»، وهو على طريق أهل الإشارات كما لا يخفى، وصاحب هذه الطريقة ﷺ وأرضاه أسكنَ ذريته وعيالَه الذين هم أهلُ طريقته عندَ بيتِ الله المحرم الذي لا يضيعُ من أوَى إليه ولا يخيبُ من عَرَج في قصدِه عليه، وهو سيد الوجود وعلم الشهود ﷺ، لأنه ﷺ هو أستاذُهم ومربِّيهم والضامن لهم وكفيلُهم ومتولِّيهم، وفي ذلك إشارة إلى تربيتهم بقَصْدِ النظر في استمداداتهم واستناداتهم عليه وصرف الوجهة في سائر تقلُّباتهم إليه. نعمت التربية هذه، لأنه ﷺ هو بابُ الله الأعظم الذي مَنْ صدَّ عنه لا يجد باباً يدخل منه، والوسيلة العظمى التي من تخلَّف عنها لا يجد سبَباً يتعلَّق به، ورضي الله عن إمام دار الهجرة سيدنا مالك بن أنس في قوله للخليفة حين قال له: أستقبل القبلةَ وأدعو أو أستقبل القبرَ الشريف؟: وأين تصرِفُ وجهَكَ عنه وهو وسيلتُك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام؟.

(الوجه العاشر) أن مدارَ دلالة صاحب هذه الطريقة ﷺ على تعلُّق القلب بالله تعالى وعلى ما يوصِلُ إلى ذلك، وكلامه في رسائله وأجوبته وإملاآته طافحٌ من ذلك بما يبهرُ العقول، ولا يصدرُ إلا من أكابر الفحول. ومن كلامه فيه ما نصُّه: زبدةُ الأعمالِ الشرعية وغاية ارتفاعها هو التعلُّق بالله تعالى بلا انفصام ولا تزلزل ولو دَهَمَتْه دهماتُ الفتن الصعبة التي لا ينجو منها بانخلاع يدِه من الله تعالى والانفصام عنه، فهذا غايةُ العمل ومنتهاه اهـ. وذكر ﷺ لذلك أمثلة تبينه فيمن قامَ به فانظرْ ذلك في «جواهر المعاني» إن شئت.

ومن كلامه فيه أيضاً قوله لبعض من أوصاه بعد كلام أوصاه به ما نصُّه: والأمرُ الذي لا بد منه بعد هذا، وهو بداية جميع الأمور ونهايتها، هو تعلُّق القلب بالله تعالى بالانحياش إليه[2]، والرجوع إليه، وترك ما سواه عموماً وخصوصاً، إلى آخر كلامه، فانظره في رسائله، وسيأتي في الكلام على أبياتِ النظم إنْ شاء الله تعالى.

---

(1) ليس ثمة موضع اسمه «وادي الحرم» ولعله أراد وادياً في الحرم، أو عند الحرم.

(2) انحاشَ: مطاوع «حاشه». وانحاش عنه، ومنه: ابتعد، ويقال: فلان لا ينحاش من شيء: لا يكترث له. وأراد هنا ابتعاد القلب عن الدنيا باللجوء إلى الله عز وجل.

ومن كلامه أيضاً في ذلك بعد تقرير ما يتعلَّق بهذه المسألة ما نصُّه: فالجوابُ في حقِّ السالك أن يمسي ويصبحَ ويظلَّ ويبيت، وليس له مرادٌ إلا شيئين: الأول الله تعالى اختياراً له من جميع الموجودات واستغناءً به عنها وأنفةً من لحظها ولو لمحة، وغيره أن يختارَ سواه، وليكن الله عزَّ وجلَّ مبدأ مرادِه ومنتهاه، وأولَه وآخِرَه، ومفتتحه ومختتمه مستغرفاً لقصر مرادِه عليه فيما بين ذلك كله حتى لا تبقى عنده لمحةٌ يريد فيها غيرَه، لأن إرادةَ العبد إما طمَعٌ وإما عبَثٌ كما تقدم. والثاني: من مرادات السالك أن يكونَ لله تعالى خالصاً من رقية غيره، كامل التعلُّق به سراً وروحاً وعقلاً ونفساً وقلباً حتى لا تكونَ منه ذرةٌ متخلِّفةٌ عن الله تعالى، ويكون واقفاً مع مراده عزَّ وجل، منسلِخاً عن جميع الإرادات والاختيارات والتدبيرات والحظوظ والشهوات والأغراض، واقفاً في ذلك كلّه لله بالله مع الله، لا شيء منه لنفسه، ولا بنفسه، ولا مع نفسه. وليكن ذلك عبوديةً لله تعالى من أجله، وإرادةً لوجهه وأداءً لحقّ ربوبيته، لا ليعود عليه منه شيء ولا يختار مع الله عز وجل شيئاً عبوديةً له تبارك وتعالى، لا قنوطاً من خيرِه لأنه كفرٌ وتحسينُ ظنٍّ به لما هو عليه من كمال الصفات المحمودة اهـ. وهذا من ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ومن كمال تعلُّقه بالله وتمام إخلاص وجهته إلى مولاه وتبرئه من التعلق بما سواه أنه أدرجَ في المنجنيق ليرقَى به في النار، فعرض له الأمينُ جبريل ﷺ بعد ما أعرضَ عن ملك الرياح وملك الأمطار، فقال له: ألكَ حاجةٌ؟ فقال له: أما إليكَ فلا، وأما إلى الله فَبَلَى. فقال له الأمين جبريل فَسَلْه إذَنْ، فقال ﷺ: عِلْمُه بحالي يغنيه عن سؤالي. فمن أجل كون مدار الدلالة في هذه الطريقة المحمدية على هذه الحالةِ الشريفة السنية كانت إبراهيميةً حنيفة.

ويذكر عن بعضِ أهل هذه الطريق أنه رأى في بعض وقائِعه الخضرَ ﷺ فقال له: أنا الخضرُ فهل من حاجة؟ فقال له: إن الله تعالى أغناني عنكَ وعن غيركَ من الأولياءِ بشيخي ووسيلتي إلى ربي سيدي أحمد التجاني ﷺ. فلا شكَّ أن مشربَ صاحب هذا الحال مشربٌ إبراهيمي، وفيه مع ذلك امتحان كبيرٌ لمن وقَعَ له ذلك كما لا يخفى.

ووراء هذه الوجوه التي ذكرناها لهذه النسبة الجليلة القدر، والإضافة السنية الفخر ما لا يسعنا الآنَ شرْحُه واستيفاؤه. ولا يمكننا في هذه العجالة بسْطُه واستِقْصاؤه على أن هذا التقييدَ ليس موضوعاً لذلك. كما أن مقيده ليس أهلاً لخوض هاتيك المسالك.

وليكنْ هذا آخرَ ما قصدنا إيداعَه في هذه المقدمة، وأردْنا إيرادَه في مطالبها المهمة.

ولنشرعْ فيما نحن بصدده من الكلام على هذه المنظومة المباركة بحُسْنِ عون الله تعالى وتوفيقه الجميل، وهو سبحانه حسبنا ونعم الوكيل، فنقول: قال الناظمُ رحمه الله تعالى ورضي عنه:

(بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ وصلّى اللهُ على سيدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً).

هكذا في الأصل المشروح عليه بإثبات الجملتين الشريفتين معاً، جرياً على عمل المغاربة في الجمع بينهما في جميع افتتاحاتهم كتابةً وقراءة. والأولى أن ينسبَ الافتتاح بهما للناظم رحمه الله تعالى، عملاً بحسن الظنِّ به. إذ في الافتتاح بهما من الفوائد والكرامات الجسيمة ما لا يسعُ أحداً من أهل الدين إغفالُ مكانته الفخيمة، ولا إهمال مثابته الكريمة. والكلام عليهما بما تحتمِلُه مسائلهما من الفصول مبسوط كلَّ البسط في شروح الأمهات والأصول، وقد أفرده جمعٌ من سراةِ الأماثلِ بما فيه الغُنْية من التآليف والرسائل، فيكفينا الآن من ذلك التبركُ لبعضِ ما يناسب المقام مما هنالك، بحيث لا نذكرُ فيه إلا ما يحصلُ به للمريد الموفَّق الأريب مزيدُ تأديبٍ وتهذيب، أو ترغيب أو ترهيب، أو ترقية لهمته، أو تدريب.

فأما جملة البسلمة، فابتدأ الناظمُ رحمه الله تعالى بها أرجوزتَه هذه المباركة، لأنها من الأمور ذوات البال التي لا يعتد بها شرعاً ما لم تُصَدَّرْ ببسم الله الرحمن الرحيم، لحديث «**كُلُّ أمْرٍ ذي بالٍ لا يُبْتَدَأُ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فَهُو أقْطَعُ**»[1] وفي رواية «**ما لا يفتتحُ بذِكْرِ الله فهُو أبْتَرُ أو أقطَعُ**»[2] ولأن أولَ شيءٍ نزلَ من القرآن ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: 1] وطريقُ التأسِّي به الافتتاح بالبسملة. وقد ذكرَ بعضُ العلماءِ عن صاحب الاستغناء في شرح أسماءِ الله الحسنى أنه حكى عن شيخه الشيخ أبي بكر التونسي رحمه الله تعالى إجماع مشايخ كلِّ مِلَّةٍ على أن الله تعالى افتتحَ كتبَه كلَّها ببسم الله الرحمن الرحيم، قال بعضُهم: ويشهد له خبرُ «**بسم الله الرحمن الرحيم فاتحةُ كلِّ كتابٍ**» اهـ.

وطريق التأسِّي به كالذي قبلَه أيضاً الافتتاحُ بالبسملة، ولأن كتبه ﷺ إلى الملوكِ مفتتحة ببسم الله الرحمن الرحيم فتكونُ الكتبُ العلمية كهذه المنظومة مجراة مجرى الرسائل للمؤمنين عموماً وخصوصاً، لينتفعوا بها، وذلك هو معنى البركة فيها. وقد رُوي من حديث

---

(1) رواه أبو داود في (الأدب: 18).

(2) وهذه رواية ابن ماجه في (النكاح: 19)، وأحمد: 2/ 359.

جابر بن عبد الله[1] رضي الله عنهما «لما نَزَلَتْ بسم الله الرحيم هَرَبَ الغيمُ إلى المَشْرِقِ وسَكَنَتِ الرِّياحُ ومَاجَ البَحْرُ وأصغَتِ البَهَائِمُ بآذانِها ورُجِمَتِ الشياطينُ وحلَفَ الله تعالى بعِزَّتِه وجلالِه أنْ لا يُذْكَرَ اسْمُه على شيءٍ إلا بارَكَ فيهِ » اهـ.

ولاستقرار عملِ الأئمة المصنِّفين على افتتاح كتبِ العلم بالبسملة. لكن اختلفَ القدماءُ فيما إذا كان الكتابُ كلُّه شعراً، فجاءَ عن الشعبي مَنْع ذلك.

وعن الزهري «مَضَتِ السُّنَّةُ أن لا يُكْتَبَ في الشعر بسم الله الرحمن الرحيم» وعن سعيد بن جبير[2] جواز ذلك، وتابَعه على ذلك الجمهور، قال الخطيب: وهو المختار اهـ نقلَه العلامةُ الحطاب عن «فتح الباري» وقال بعده ما نصه: قلتُ في غيرِ الشعر المحتوي على علمٍ أو وعْظٍ، فهذا لا شك في دخوله في كتب العلم وفي غيرِ الشعر المحرَّم، فإن التسميةَ لا تشرَعُ في المحرم اهـ. ولا محالةَ أن هذه الأرجوزة المباركة من قبيل الشعرِ المحتوي على العلم، بل لا شكَّ عند من أنصفَ أنها مشتمِلةٌ على ما هو من قبيل العلمِ النافع، فلا منازِعَ إذَنْ في ندب التسمية فيما كان من قبيله ولا مُدَافع، وهذا القدرُ كافٍ في توجيه الافتتاح بها والاستدلال للحكم بنَدْبها في غالبِ ذواتِ البال. وقد يعرضُ لها الوجوب في بعضِ الصور، وكذا الحرمةُ والكراهة، وليس بيان ذلك من غرضنا هنا.

ثم أن في افتتاح الكتاب العزيز بها والتأسِّي به في غيرِه من كتب الأمة نكتةٌ لطيفة أشار إليها بعضُ المحققين من أهل الأذواق السامية المنيفة، وهي أن كلَّ كتاب مفتتَحٍ بها لا بدَّ أن يشتملَ على ما هو من مقتضيات أسماءِ العظمة والقهر والبطش والانتقام، فكان في تقديم البسملة الشريفة بما اشتملتْ عليه من أسماء الرحمة والإنعام والتفضُّل والإكرام

---

(1) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي، صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، وروى عنه جماعة من الصحابة، وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم، وروي له (1540) حديثاً. مات سنة (78هـ).
انظر الإصابة: 1/ 213، وتهذيب الأسماء: 1/ 142، وأسد الغابة.

(2) سعيد بن جبير الأسدي، بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله، تابعي كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر. ذهب سعيد إلى مكة وكان من أنصار عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقبض عليه والي مكة خالد القسري وأرسله إلى الحجاج فقتله بواسطة سنة (95هـ).
انظر وفيات الأعيان: 1/ 204، وطبقات ابن سعد: 6/ 178، وحلية الأولياء: 4/ 272، وابن الأثير: 4/ 220، والمعارف: 197.

تأنيسٌ وبشرى وتثبيتٌ واعتصام، إذ في تقديمها على كلِّ شيءٍ من المخاطب بذلك الكتاب إعلاءٌ بأنه لم يردْ إلا رحمةَ المواجهين بذلك الخطاب، ومآل المعاني التي ذكرها العلماء لـ«باءِ» البسملة المفتتح بها الاستعانة بالله تعالى. ولا شك أن الاستعانة به تعالى فيما هو داخل في عبادة مشروعةٍ حسبما نصَّ عليه أهلُ العلم.

قالوا: ويدلُّ لمشروعيتها قولُه سبحانه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية 5] والسرُّ في مشروعية الاستعانةِ بالله تعالى تنبيه العبادِ على صفة العجز اللازمة لهم، التي ربما حجبوا عنها بنظرِهم إلى كسْبهم في عبادتهم فيؤدِّيهم ذلك إلى التظاهر بالدعوى بما ليس لهم، ولا منهم، فيستحقون المقْتَ من الله تعالى، والعياذ بالله سبحانه من كلِّ ما يجرُّ إلى مقْتِه وغَضَبه.

وقد أشارَ الشيخ محيي الدين ﷺ إلى هذا فقال ما نصُّه: ما طلبَ الحقُّ سبحانه وتعالى من عبادِه أن يستعينوا في عبادتهم إلا لينبِّههم على صفة العجز التي ربما حُجبوا عنها، لا أنهم يزاحمون الحقَّ تعالى فيدعون القوة ويظهرون بتلك العبادة ملوكاً وأرباباً من دون الله اهـ. فإذا فهمتَ هذا عرفْت أن في الافتتاح بالبسملة الذي هو استعانةٌ بالله تعالى على عبادته تربيةٌ كبيرة للعبد من مولاه الغني الحميد، وذكرى عظيمة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] لما في مشروعية الافتتاح بها حينئذٍ من التنبيه للعبد على أن يكون بأوصاف الربوبية مولاه جلّ وعلا متعلّقاً، وبأوصاف عبوديته متحقِّقاً يشهد وجود نفسِه ولوازم وجودِها لا شيء من جميع ذلك له ولأمته، وإنما هي عَوَارٍ[1] عنده، فلا يَرَى وجودَه إلا بوجودِ ربِّه، ولا عزَّتَه إلا بعزتِه، ولا قدرتَه إلا بقدرته، إلى غير ذلك من الأوصافِ، ولا يتم له ذلك إلا بالتحقُّق بأوصاف عبوديته من فقره وذلِّه وعجزِهِ وضعفِه وغير ذلك من لوازمِ وصْفِه، وأعلى مراتِبِ هذا التعلُّق وهذا التحقق أن يفنى العبد عن نفسه، ثم عن فنائه، وصاحبُ هذه المرْتبة هو المفتتَح ببسم الله الرحمن الرحيم حقيقة، ومن السرِّ في مشروعية الاستعانة بالله تعالى التي منها الافتتاح بالبسملة حسبما تقدَّم الإشارة إلى إثباتِ فعلِ الأسباب.

قال الشيخ محيي الدين ﷺ: إنما أَمَرَنا الحقُّ تعالى بالاستعانة به إثباتاً لفعل الأسباب التي يمكنُ رفعُها ولا وجودَ للمسبب إلا بوجُودِها، وفي هذا ردٌّ على من لا يقولُ

---

(1) «عوارٍ»: جمع العارية، وهي الشيء المستعار.

برؤية الأسباب، وهو مذهبٌ فاسدٌ يلزم عليه أن لا يرى بعينِ بَصَره ولا يسمعُ بأذنِ رأسه إلى غير ذلك، نعم، الافتقارُ إلى الأسباب هو في الحقيقة افتقارٌ إلى المسبب، وهو لله تعالى، لما تقرَّر عند أهلِ الحقِّ من أن كلَّ سببٍ احتيج إليه ينجلي فيه حكمُ الاسم الإلهي المؤثِّر فيه حتى ينقضي أثره، فيعقبه أو يصحبه بسببٍ آخر، فيتجلّى فيه الاسمُ الذي هو له، ثم كذلك إلى ما لا نهاية له، وقد بُسِطَ القولُ في تقرير هذه المسألة في «ميزاب الرحمة الربانية» بما كشف به فيها عن وجْهِ التحقُّق القناع فليراجِعْها فيه من أراد ذلك، وهذا نزرُ النزرِ مما أشارتْ إليه باء «بسم الله الرحمن الرحيم»، وهو لمن تأمَّله بعين الإنصاف باب عظيم من أبوابِ علومِ الباطن، وقطبٌ كبير من أقطابها التي تدور عليها دوائرها.

ومن هنا يشرف على فهمِ ما نقلهَ العزيزي في شرحه للجامع الصغير للإمام السيوطي رحمهما الله تعالى عن النفس في تفسيره من أن معاني كلِّ الكتب مجموعةٌ في القرآن، ومعاني القرآن مجموعة في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في البسملة ومعاني البسملةفي بائها اهـ. وتوجيهه فيما تقدَّمت الإشارة إليه من التعلُّق والتحقق، والله أعلم، ويقربُ من هذا وجهٌ آخر ذكره الإمام الرازي وغيره، وهو أن من معاني هذه الباء الإلصاق[1]، فهي تلصقُ العبدَ بجنابِ الربِّ اهـ، وهو عند التأمُّلِ راجع للوجه قبله.

وقال النسفي: إن من معنى هذه الباء: بي كان ما كان، وبي يكون ما يكون اهـ. وهو يشيرُ إلى التعلّق والتحقق أيضاً كما لا يخفى. وزادَ غير النسفي: ومعاني الباء في نقطتها اهـ. ووقفت في بعض التقاييدِ على أن الشيخ محمداً البكري ﷺ تكلَّم على نقطةِ باء البسملة في أزيدَ من ألفي مجلسٍ ومائة مجلس، ونسبه مقيده لمسالكِ الهداية إلى معالم الرواية. ورأيت ما يؤيِّده وهو أنه ذكر في مناقب الشيخ البكري ﷺ، أنه أقرأ في نقطة البسملة أربعة عشر عاماً اهـ، وهذا كله مما أشارتْ إليه الباء بمعناها، ومما أشارتْ إليه بصورتها ورتبتها ما قيل في ابتداء البسملة بها مع أن الألف أفضلُ، وهو أنها استحقَّت التقديمَ على غيرها، لأنها أولُ ما نطقتْ به بنو آدم في عالمِ الأرواح يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: الآية 172] . وقيل: إنما استحقت التقديم لمكانِ الكَسْرِ، ففيه إشارةٌ إلى أن المنكسِرَ المتواضِعَ أحقُّ بالتقديم. ولله درُّ القائلِ في المعنى:

---

(1) أي أستعين باسم الله، فتكون للاستعانة، وأما الإلصاق، فكأن نقول: أمسكت بالقلم. أي فصار ملاصقاً ليدي، ولا أرى أن الباء في (بسم) كذلك إنما الأنسب الاستعانة، وثمة معان أخرى للباء، فتأتي بمعنى (من) وبمعنى (على) وللمصاحبة والظرفية والمجاوزة والتعدية.

مَنْ أَخْمَلَ النفسَ أَحيْاها ورَوَّحَها ولم يَبِتْ طَاوِياً مِنْها على ضَجَرِ[1]
إنَّ الرِّياحَ إذا اشْتَدَّتْ عَوَاصِفُها فلَيْسَ تَرْمي سِوَى العالي مِنَ الشَّجَرِ

إلى غير ذلك مما أشارتْ إليه هذه الباء من أمهاتِ العلوم.

وقد قال الشيخ العارف بالله تعالى سيدي عبد الوهاب الشعراني ﷺ في «الميزان» ما نصه: وقد استخرجَ أخي أفضلِ الدين من الفاتحة مائتي ألف علمٍ وسبعة وأربعين ألف علم وتسعمائة وتسعة وتسعينَ علماً، وقال: هذه علومُ أمهاتِ علوم القرآن، ثم ردَّها كلَّها إلى البسملة، ثم إلى الباء، ثم إلى النقطة التي تحت الباء.

وكان، يعني الشيخ أفضل الدين ﷺ، يقول: لا يكملُ الرجلُ عندنا في مقام المعرفة بالقرآن حتى يصيرَ يستخرجُ جميعَ أحكامه وجميعَ مذاهبِ المجتهدين فيها من أيِّ حرف شاء من حروف الهجاء اهـ. قال الشعراني ﷺ: ويؤيده في ذلك قول الإمام علي كرم الله وجهه: لو شئتُ لأوقَرْت[2] لكم ثمانين بعيراً من علوم النقطةِ التي تحت الباء. اهـ من «الميزان».

وذكر الشعراني في هذا المحلِّ عن نفسِه رحمه الله أنه ذكر في كتابه الذي سماه بـ«الجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون» نحو ثلاثة آلاف علم، قال: وأخفيت في طيِّه مواضعَ استنباطه من الآيات غَيْرةً على علومِ أهل الله أن تُذاع بين المحجوبين. قال: وقد أخذَه الشيخُ شهاب الدين ابن الشيخ عبد الحق عالم العصر، فمكث عنده شهراً، وهو ينظر في علومه فعجزَ عن معرفة موضعِ استخراج علم واحد منها، فقال لي: وَضْعُكَ هذا الكتابَ في هذا الزمان لأيِّ شيءٍ؟ فقلت: وضعتُه نُصْرَةً لأهل الله تعالى لكون غالب الناس ينسبهم إلى الجهل بالكتاب والسنة، فقال لي: أنا أقول في نفسي إنني عالم مصر والشام والحجاز والروم والعجم، وقد عجزتُ عن معرفة استخراج نظير علمٍ واحدٍ منه من القرآن ولا فهمت مما فيه شيئاً، ومع ذلك فلا أقدِرُ على ردِّه من كلِّ وجه، لأن صولة الكلام الذي فيه ليست بصولة مبطلٍ ولا عامي اهـ.

والاسم من السموِّ، أي العلو، لأنه يعلو مسمَّاه، وقيل: من السمةِ، أي العلامة لأنه

---

(1) قوله «روَّحها» أي روَّح عنها: بمعنى أراحها. وطاوياً: جائعاً.
(2) أوقر البعير: حمل عليه حِملاً ثقيلاً.

علامةٌ على مسماه[1]. والحق أن اشتقاق الاسم من السمة لا تعلق له بقدم أسماء الله تعالى ولا حدوثها، ولا يظهر ما عندَ الشيخ إبراهيم الشبرخيتي رحمه الله تعالىٰ من الحدوث على السمة، وجعَلَه فائدة الخلاف اهـ، قاله في شرح المجموع. وجيءَ بلفظ «اسم» ولم يقل «بالله» من أجل أن التبرُّكَ إنما هو بذِكْرِ اسمِه جلَّ وعلا. وقيل: جيء به للفرق بين التيمُّن واليمين، حيث كان لا يقال في اليمين إلا بالله. وقيل: لأن المسمَّى إذا كان في غاية العظمةِ إنما يذكَرُ اسمُه وحضرتُه وجنابُه ونحو ذلك، وهذه الأوجه أوضحُ ما ذكره العلماء ﷺ في توجيه مجيء لفظ «اسم» في البسملة الشريفة.

وفي كلام بعض أهل الأذواقِ ما يرشدُ إلى توجيهٍ آخر فائق عجيب، وذلك لحمْلِه جملة البسملة على محمَلٍ سني غريب لا يتوجَّه معه البحثُ بحالٍ في مجيء لفظ «اسم» في البسملة عند كلِّ منصف أريب، وهو أن لفظَ «اسم» مرادٌ به اسم الله العظيم الأعظم، أعني الاسم الأعظم المخزون المعلوم عند أهل الله تعالى، وهو اسم الذات المقدسة عندهم ﷺ، ليس للذات غيره، ولذلك أضيف إلى الاسم الأعظم الظاهر وهو «الله» الذي هو عَلَم على الذاتِ المقدَّسة جلَّ وعلا. وعلى هذا الحمل يكونُ الملاحظ لهذا المعنى متبركاً بالاسم الأعظم المخزون الذي ورد فيه أنه إذا دُعي الله به أجابَ، وإذا سُئِل به أعطى، فكأنَّه مثلاً: أفتتِحُ متبرِّكاً ومتيمناً باسم الذات العلية المدلول عليها بالاسم «الله» وحينئذٍ لا يبقى محل لما تقدَّم من التوجيهات لمجيء لفظ «اسم» والله الموفق.

فتنبه لهذه الدقيقة فإنك لا تكادُ تطَّلعُ عليها في كتاب، وسيأتي لنا مزيدُ كلام في الاسم الأعظم عند تعرُّض الناظم لذِكْره، وهنالكَ يزدادُ الناظر تحقُّقاً بما أوْدعَ في هذه الدقيقة إن شاء الله تعالى، وينظر لهذا المحمل في البسملة الشريفة قول من قال إن «بسم الله الرحمن الرحيم» فيها مراتب التوحيد، لأن «بسم» قبالة «شهد» و«الله» قبالة «الله» و«الرحمن» قبالة و«الملائكة» و«الرحيم» قبالة و«أولوا العلم»، وبإشرافك على ما تقرَّر في المحمل السابق من الدقيقة السنية تعرف أن قائلَ هذا أشار بالمراتب الأربع إلى نسب حقية لا يعرفها إلا أهل الأسرار الذوقية، ومن هنا أيضاً يشرفُ على قول من قال في قوله تعالى ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء: الآية 69] الآية. ما نصه للنبيين نسبةٌ من «بسم» إلى «الله»، وللصديقين نسبة من الله إلى «بسم» التي هي من نسبة النبيين، وللشهداء

---

(1) في اللسان (سما): واسم الشيء وسَمُه وسِمُه وسُمُه وسَمَاه: علامته. وقال الزجاج: معنى قولنا اسم هو مشتق من السموّ، وهو الرفعة. وقال الجوهري: والاسم مشتق من سَمَوْت، لأنه تنويه ورفعة.

نسبة من «الرحمن» إلى «الرحيم»، وللصالحين نسبة من «الرحيم» إلى «الرحمن» فتتابعت الدرجُ في الصعود والنزول. فأولُ دائرة بسم الله كآخرها وباطنها كظاهرها. ولا يخفى أن هذه النسب هي المراتب الأربع المشار إليها في الكلام قبل هذا، والكل ينظر إلى المحمل السابق ومبني عليه كما لا يخفى على المنصفين من ذوي الألباب، والله الموفق للصواب.

(نكتة) من خلال سجف[1] هذا الذي تقرر في هذه المسألة يلوحُ للناظرِ فيها فهم معنى قول من قال إن «بسم الله» صعود إلى المبتدأ، و«الرحمن الرحيم» هبوط إلى المثال، ففيها سرُّ المبتدأ والمنتهى. كما أن فيها مراتبَ التوحيد اهـ. وبسطُ القول في هذا مما يضيقُ عنه النطاق، بل هو موكولٌ إلى ما يفاتح له السالك من الأسرار والأذواق وحسبُ القاصر مثلي التسليمُ والمحبة، رَزَقنا الله منهما الحظ الوافرَ بمَنِّه وكرمه آمين.

[تنبيه] ربما استُؤْنِس فيما يؤيد هذا المحمل الذي تقرر في البسملة الشريفة بقول مدينة العلوم السامية المنيفة ﷺ فيما رواه الحفاظ الأعلامُ عنه عليه الصلاة والسلام «**ما بَيْنَ بسم الله الرحمن الرحيم وبيْنَ اسم الله الأعظم إلا ما بَيْنَ سَوَادِ العَيْنِ وبَيَاضِـها**» اهـ. والله تعالى أعلم.

(فائدة) ذكر بعضُ أهل السرِّ أنه روى عن سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: من كانتْ له إلى الله حاجةٌ فليَصُمْ الأربعاءَ والخميس والجمعة، فإذا كان يومُ الجمعة تطهَّرَ وراحَ إلى الجمعةِ وتصدَّق بصدقةٍ قلَّتْ أو كثرت، ما بين الرغيفِ إلى دون وما كثر فهو أفضلُ، فإذا صلَّى قال: اللهمَّ إني أسالكَ باسمك بسم الله الرحمن الرحيم، الذي عنتْ له الوجوه، وخشَعَتْ له الأصوات، ووجِلَتْ القلوبُ من خشيتِه أن تصلِّي على سيدنا محمد وعلى آله وأن تُعْطِيني حاجتي وهي كذا وكذا، ويسمِّيها، قُضِيَتْ حاجتُه، وكان يقول: لا تعلِّمُوها سُفَهَاءَكم فيدْعُو بعضُهم على بعضٍ فيُسْتَجَابَ لهم اهـ.

(والله) هو اسمٌ دالٌّ على الذاتِ الواجبِ الوجودِ المعبود بحقٍّ، وهو جامع للذات والصفات والأفعال، ولهذا يقال له: سلطان الأسماء. قال في «إرشاد الساري»: وقد قالَ جماعةٌ إنه الاسمُ الأعظم، لأن سائرَ الأسماءِ الحسنى يُضاف إليه اهـ. والذي عليه المحققون وكل العارفين بالله تعالى كشيخنا ﷺ أجمعين إنهما اسمان أعظمان أحدُهما الاسمُ الأعظمُ المخزونُ المتعارَف بين أهل الكشفِ ﷺ، ويقال له الاسم الأعظم الباطن، والثاني هو الاسم الجامع وهو «الله» تبارك وتعالى، ويقال له: الاسم الأعظم الظاهر،

---

(1) السجف: الستر والإخفاء.

وانظر في جواهر المعاني كلام الشيخ ﷺ في بيان كون الأول منهما عينُ الذاتِ المقدسة والثاني عين المرتبة، أعني مرتبة الألوهية، وقد قدمنا أننا سنلم بشيء مما يتعلّق بالاسم الأعظم عند تعرض الناظم لذكره إن شاء الله تعالى وحظ العبد من هذا الاسم، أعني الاسم «الله» جل وعلا، التعلقُ بالحق تبارك وتعالى في الظاهر والباطن، والاستغناء به سبحانه عن كل ما سواه في سائر الأوقات والمواطن، ومن هنا كان هذا الاسم الأجلُّ ذكراً لأصحابِ الفناءِ ولأصحاب البقاء، قاله في شرح الأسماء الحسنى.

وقد تواطأت آراءُ المشايخ الكمل ﷺ على أن لهذا الاسم العظيم أثراً عظيماً في تصفية النفس وتزكيتها، لا يكون مثله في غيره، ولهذا رجَّحوا الذكرَ به خصوصاً في حال انقطاعِهم إلى الله تعالى في خلواتِهم وتوجهاتهم الصحيحة، إلا أنَّهم ذكَروا لحصول الثمرةِ والفائدة العظمى منه قصداً خاصّاً لا بدَّ منه، وهو أن لا يقصِدَ الذاكرُ بذِكْره «الله الله» نفسَ دلالته على العين، بل يقصدُ ذكره من حيث إن المسمَّى به هو من لا تقيِّده الأكوان ومن له الوجود التام، وإحضار هذا في نفس الذاكرِ به تقعُ الفائدةُ، فإنه ذِكْرٌ غير مقيَّدِ، وذلك أن الذاكر إذا قيَّده بلا إله إلا الله لم ينتجْ له إلا ما تعطيه هذه الدلالة، وكذا: سبحان الله، والله أكبر، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكل ذكْرٍ مقيَّد لا ينتجُ إلا ما قيد به، ولا يمكن أن صاحبه يجني ثمرة عامةً، فإن مبتدأ حالةِ الذكر تقيد ذلك، وقد عرفنا الحقُّ تبارك وتعالى أنه يعطي الذاكر بحسب حاله في قوله «**إن ذَكَرني في نَفْسِه ذَكَرْتُه في نفسي**»[1] الحديث، فلهذا قصدت الطائفة ذكر لفظة «الله» وحدَها أو ضميرها. من غير تقييدِ، وذلك لأن هذا الاسم الأعظم له بساط وثمرة، فبساطُه العلم، وثمرته النورُ، والنورُ ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو ليقعَ به الكشفَ والعيان اهـ نقله العارف بالله الشيخ أبو زيد سيدي عبد الرحمن الثعلبي في «الدر الفائق» عن الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله عنهما، وهو يشير إلى أن الثمرة في ذكر هذا الاسم مشروط حصولُها بالعلم، أي بالعمل على العلم الذي هو بساطُه، والعمل على العلمِ هو ذكرُ الاسم على الحالِ الموصوفة آنفاً، وهذه الحال هي التي تنتج للعبدِ الذاكرِ بفضلِ الله تعالى وصدق وعده سبحانه أن يذكرَ عندَ ربِّه بجميع الفضائل اللائقة به جزاء وفاقاً.

وذِكْر هذا الاسم الأعظم بالاستحضار الموصوفِ هو الذكرُ الخاصُّ بالخاصَّةِ، وهو

---

(1) رواه مسلم في (الذكر: 2، 18، 19)، والبخاري في (التوحيد: 15)، والترمذي في (الدعوات: 131)، وابن ماجه في (الأدب: 53، 58)، وأحمد: 2/ 251، 405.

المشارُ إليه حسبما أشار إليه الشيخ محيي الدين ﷺ في حديث «**لا تقُومُ الساعَةُ حتى لا يبقى على وَجْهِ الأرْضِ أحدٌ يقولُ الله الله**» قال: لأنه ذِكْر الخاصَّةِ من عبادِ الله الذين يحفظُ الله بهم عالم الدنيا، وكل دار يكونون فيها، فإذا لم يبقَ في الدنيا منهم أحدٌ لَم يبقَ للدنيا سببٌ حافظ يحفَظُها الله من أجلِه فتزول وتخرب، وكم من قائل «الله» باقٍ في ذلك الوقت ولكن ما هو ذاكرٌ بالاستحضارِ الذي وصفناهُ، فلهذا لم يعتبر اللفظُ دون الاستحضار اهـ. ومن الوجوه التي من أجلها اختارت الطائفةُ الذكرَ بهذا الاسم لم يعتبر اللفظُ دون الاستحضار اهـ ومن الوجوه التي من أجلها اختارت الطائفةُ الذكرَ بهذا الاسم الأعظم خشيةَ إدراكِ الموتِ لهم على وحشة النفي، وهذا من كمال معرفتهم بالله تعالى وعظيم حيائهم من جلاله سبحانه وذلك لأنهم لا مشهودَ لهم سواه حتى ينفوه اهـ الغرض، وراجع أبواب «الفتوحات المكية» ترَ العجب مما يتعلّق باسم الله وفوائده الجليلة السنية.

(والرحمن الرحيم) قال بعض من شرح الأسماء الحسنى: هما اسمان مشتقان من الرحمة، وهي في حقه سبحانه بمعنى إرادة الإنعام الدنيوي والأخروي، فتكون صفة ذاتٍ أو بمعنى نفس الإنعام، فتكون صفة فعلٍ. وأما معناها الحقيقي الذي هو الرقة والتحنُّن فمستحيل في حقه تباركَ وتعالى اهـ. ولا أثرَ لما وقَعَ لبعض الشراح هنا من البحثِ بأن من شرط المشتقِّ أن يكونَ مسبوقاً بالمشتق منه، وأسماء الله تعالى قديمةٌ، لأن ألفاظ الأسماء حادثة قطعاً اهـ. قاله في شرح المجموع، ثم قال: وقد بسطْنا ذلك في حواشي «الجوهرة»اهـ.

ومعنى الاسمين الكريمين واحدٌ عند المحققين إلا أن «الرحمن» خاصٌّ به تبارك وتعالى، فهو خاص اللفظ، ولا يجوز أن يسمَّى به أحدٌ غيرَ الله تعالى، عام المعنى من حيث إنه يشمل جميع الموجودات، و«الرحيم» عامٌّ من حيث الاشتراك في التسمية، خاصٌّ من طريق المعنى، لأنه يرجع إلى اللطف والتوفيق اهـ انظر «الإرشاد». وزاده بياناً وإيضاحاً الشيخ زروق ﷺ حيث قال في شرح الوغليسية: «الرحمن» اسم من أسمائِه تعالى مقتضٍ لإيجاد الخلق، فلذلك لا يتسمَّى به غيرُ الحقِّ تعالى، ومن تسمَّى به هَلَكَ، والرحيمُ مقتضٍ، لإمدادِ الخلق بقوامِ وجودِهم، وإنما جازَ تسميةُ الخلق به مجازاً، لأن مجاز الإمدادِ يصحُّ في حقهم، ولذلك وجب شكرُ الخلقِ على ما وصَل على أيديهم من النعم اهـ. وعلى هذا فوجْه تقديم «الرحمن» كونه خالصاً بالمولى تبارك وتعالى، وقيل: الأول دالٌّ على الإنعام الدنيوي والثاني على الإنعام الأخروي، وعليه فيحمل أن يكون تقديم الأول لتقدُّم متعلّقه في الوجود، ويحتمل أن يكون من باب الترقِّي لأن الإنعامَ الدنيوي دونَ

الأخروي بكثير، إذ موضعُ سوطٍ من الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها[1]، ومع هذا يعطى لأدْنَى أهل الجنة قدرُ الدنيا عشرَ مرات اهـ.

وفي الجمع بين الأسماء الكريمة في البسملة من الدلالة على وحدانية الله تعالى الذاتية والصفاتية والفعالية ما لا يخفى، وقد تقدَّم الإيماء إلى بعضه في الكلام على الجلالة الشريفة جلّ وعلا. وعلى القول بأن «الرحمن» دالٌ على الإنعام الدنيوي و«الرحيم» على الأخروي تكون في الوصل بينهما إشارة لطيفةٌ، وهي أن المطلوبَ من العاقل أن يواخي بين متعلقيهما في التحصيل كما واخى بينهما في التلفظ، وذلك بأن لا يأخذ من النعم الدنيوية التي هي متعلق الاسم «الرحمن» إلا ما يتوصَّل به إلى النعم الأخروية التي هي متعلق الاسم «الرحيم» فيقبل على الأعمال الصالحات وما يعين عليها من ضروري المعاش ثم يزهد فيما سوى ذلك زهداً كلياً خوف أن ينقطعَ بذلك عن نعم الآخرة التي هي الغايةُ والمقصود اهـ من شرح الأسماء.

وحظُّ العبدِ من هذين الاسمين العظيمين الاتِّسامُ بالرحمة لجميع العبادِ ورفْضُ ما سواه سبحانه اكتفاءً برحمته الواسعة التي ليس إلا إليها الاستنادُ في هذا اليوم، ويوم يقوم الأشهاد ولزوم الشكر للمولى الكريم ورؤية المنة له وحدَه في كل ما يبدأ من النعيم بالتخصيص والتعميم اهـ من الشرح المذكور، وهذا الذي أشار إليه هو معنى التخلُّق والتعلُّق بالأسماء الكريمة، فالتخلُّق في جملة قوله «الاتسام بالرحمة الخ» والتعلُّق في قوله «ورفض كل ما سواه سبحانه اكتفاء برحمته الخ».

وقد قال الأستاذ القشيري رحمه الله تعالى: إن جميع أسمائه سبحانه صالحة للتعلق والتخلق إلا لفظ الجلالة، فإنه لا يصلح إلا للتعلق اهـ. قال بعضُهم: ومعنى التعلُّق الاعتمادُ والتوكُّل عليه والافتقار بكل حالٍ إليه اهـ. وقد تقدم لنا في المطلب الثاني من المقدمة أن معنى التخلق بالأسماء الحسنى عند المحققين، هو أن العبدَ يأخذُ من معنى بعض الأسماء وصفاً يلائم ضعفَ البشر وقصوره، فيأخذ من الرحمة مثلاً وصفاً على قدْرِ ضعفه وقصورِه، وراجعْه في المطلب المذكور إن شئت. وطريقُ الوصول إلى الاستعداد للتخلُّق بالأسماء الحسنى هو السلوكُ بالأعمال الصالحات المشروعة على يد المشايخ

---

(1) هذا الكلام من حديث «وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا... إلخ».

رواه البخاري في (الجهاد: 73)، وفي (الرقاق: 2)، والترمذي في (فضائل الجهاد: 17)، وابن ماجه في (الزهد: 39)، والدارمي في (الرقاق: 99).

الكاملين بطريق التصفية والتزكية، حتى يحصلَ بفضل الله على الحالة المسمَّاة عندَهم بالتحلية والتخلية.

[دقيقة] من الآداب التي تختصُّ بمقام التخلُّص بالأسماء الحسنى ما أشارَ إليه الشيخ محيي الدين ﷺ بقوله بعد كلامٍ له في المعنى: فاحفظْ يا أخي نفسَك عند التخلق بالأسماء الحسنى، فإن العلماءَ لم يختلفوا في التخلُّق بها، فإذا تخلَّقْتَ بها فلا تغبْ عن شهودِ كونكَ بحكم النيابة لتكونَ في ذلك غيرَ مشاركٍ للخالقِ سبحانه في إطلاقِ اسم من أسمائه عليك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية 114] اهـ.

ومن أجل أهل التخلُّق بمعنى الاسمين الكريمين، وما في معناهما من الأسماء الحسنى طائفة من رجال الله تعالى يقال لهم: رجال الحنان والعطف الإلهي، وهم رجالٌ لهم الشفقةُ على عبادِ الله كلهم مؤمنهم وكافرهم، ينظرون الخلق بعين الوجود لا بعين الحكم والقضاء، لا يولي الله تعالى أحداً منهم ولايةً ظاهرة من قضاء أو ملك، لأن مقامهم وذوقهم لا يحتمل القيامَ بأمر الخلق، فهم مع الحقِّ تبارَكَ وتعالى في الرحمة المطلقة المشار إليها بقوله عزَّ وجل ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: الآية 156] اهـ ذكره الشيخ محيي الدين ﷺ.

وإذا عرفت ما تضمنته البسملةُ من أسرار التوحيد الموجب لمن تحقَّق به ذوقاً رسوخ القدم في مقام التجريد علمت عِلْمَ يقين أن في مشروعية الافتتاح بها في الأمور ذوات البال تنبيهاً على صدق الرجوع إلى المولى الكبير المتعال بتبرِّي العبد من حوله وقوته واعتصامه بحَوْل الله وقوَّته في كلِّ دفْعٍ وترك، وكل حال من الأحوال، وهذا لا محالة هو الإكسيرُ الذي تتفانى في طلبه أرواحُ السباق، والكنزُ الدائم الذي لا يخشَى عليه من كثرةِ الإنفاق، كما أشار إليه الحديثُ الثابتُ عنه ﷺ «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ كنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجنَّة»[1] وفي رواية «كنْزٌ من كنوزِ تحت العرْشِ»[2].

قال في «لطائف المنن»: فالترجمةُ ظاهر الكنز والمكنوز فيها صدق التبري من الحول والقوة والرجوع إلى حول الله وقوته اهـ. ومن هنا كانت التسمية من الصادق ملحقة له بدرجة أهل التكوين.

---

(1) رواه أحمد: 5/ 156.

(2) وهذه رواية أحمد: 5/ 151، 180.

قال العارف بالله في حاشيته على دلائل الخيرات ما نصُّه: وفي تفسير الفاتحة للإمام أبي العباس أحمد الإقليشي قال وهب بن الوردة، وكان من الأبدال:[1] لو قال «بسم الله» صادقٌ على جبلٍ لزالَ، وإلى هذا أشارَ بعضُ أهل الإشارات بقوله: بسم الله منك بمنزلةِ «كُنْ» منه، معناه أنك إذا قلتها مُوقناً كوَّن الله حاجتك وأعطاك طَلِبَتَك دونَ تأخير اهـ، يعني كلام الإقليشي رحمه الله. ثم قال العارفُ بالله تعالى بعده ما نصُّه: وعدَّ الحاتمي من الكرامات أسماء التكوين إما بمعرفةِ الأسماء وإما بمجرَّد الصدق، لأنَّ «بسم الله» منك بمنزلة «كن» منه، قال: كذا أشارَ إليه بعض العارفين من أهل التكوين، وهو صحيح.

قلت: وقد صرَّح الشيخ محيي الدين الحاتمي رضي الله عنه في «الفتوحات المكية» أثناء الأجوبة الترمذية بنسبة هذه القولة وهي «بسم الله منك الخ» للحلاج رحمه الله تعالى ونص عبارته: قال الحلاج: «بسم الله» من العبد بمنزلة «كن» من الحق اهـ. ثم قال الشيخ محيي الدين رضي الله عنه بعده: وبعضُ الناس له كن دون بسم الله وهم الأكابر، كما قال ﷺ في غزوة تبوك لما رأوا شخصاً فلم يعرِفُوه «كن أباذر»[2] فإذا هو أبو ذر رضي الله عنه اهـ وأتينا به تتميماً لفائدةِ الكلام كما هي عادتنا في مثل هذا المقام.

[فائدة] رأيت في بعض كتب الأسرار أن من قرأ البسملة ثمانمائة مرة كانت له فدية من النار، لحديث قدسي في ذلك «مَنْ جاءَ يومَ القيامة وفي صحيفته بسم الله الرحمن الرحيم ثمانمائة مرة وكانَ مؤمِناً مُوقِناً بربوبيتي أعْتَقْتُه مِنَ النارِ وأدخَلْتُه الجنَّةَ دارَ القرارِ».

وأما جملةُ الصلاة والسلام عليه ﷺ فافتتح الناظمُ بها نظْمَه هذا افتتاحاً نسبياً، عملاً بما هو الأكمل من الجمع بين ذكر الله تعالى وذكر حبيبه ﷺ في مقام التنويه محافظةً على ذكره ﷺ مع ذكر ربِّه عزَّ وجل، وتخلُّقاً بقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: الآية 4]

---

(1) سبق شرحنا للأبدال، وهم الزهّاد، وعند الصوفية: لقب يطلقونه على رجال الطبقة من مراتب السلوك.

(2) لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل لايزال يتخلف الرجل فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان، فيقول: «دعوه، إن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه» حتى قيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ ما كان يقوله، فتلوّم أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره، ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشياً، ونظر ناظر من المسلمين فقال: إن هذا الرجل يمشي على الطريق، فقال رسول الله ﷺ «كن أبا ذر»، فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده، ويحشر وحده».
انظر أسد الغابة: 5/ 101، وسيرة ابن هشام: 2/ 523.

لما في ذلك من التنبيه على عظيم السلطان الذي أُعْطِيَه ﷺ ولم يُعْطَه أحدٌ قبلَه ولا بعدَه، حيث قَرَن اسمه مع اسم مولاه الملك الديان فيما شرع لنا من التوحيد والأذان مع ما في ذلك من ملاحظةِ وساطته في كلِّ خيرٍ خصَّ أو عمَّ، وكونه الوسيلةَ الكبرى لكلِّ سعادةٍ، والبابَ الأعظمَ لكل كرامة ﷺ، ولا محالةَ أن هذا أبلغُ وأدخَلُ في التبرُّك والتيَّمن في مثل هذا المحل، وبه تكونُ هذه الجملة مفيدةً لما أفادته الجملةُ قبلَها من تحقيق التوحيد بالوجْهِ الأكمل، وقد عدوا من المواضع التي تستحبُّ فيها الصلاة على النبيِّ ﷺ صدورُ الرسائل وما يكتب بعد البسملة. قالوا: ولم يكن هذا في الصدر الأول، وإنما أحدث عند ولاية بني هاشمٍ، فمضى به عملُ الناس في أقطار الأرض، ومنهم من يختم به الكتب أيضاً، انظر «الشفاء» للقاضي أبي الفضل عياض[1]، رضي الله عنه، وفي الحديث «مَنْ صَلَّى علي في كتابٍ لم تَزَل الملائِكَةُ تصلِّي عليْهِ ما دَامَ اسْمِي في ذلك الكتاب» قال العارف بالله في حاشيته على «دلائل الخيرات»: يحتمل بالكتابة وهو أظهرُ وبالقراءةِ وهو أوسَعُ وأرجى، والله أعلم. وقد حاز المتصدُّون لكتابة الحديث وقراءته من هذه الفضيلة ما لم يحزْه غيرُهم، وتذكر حكاية الجارِ الذي رأى جارَه النسَّاخ في النوم، وما أجابه به عن سؤاله إياه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البَقَرَة: الآية 105].

(وصلَّى) من الصلاة، والصلاةُ اسمٌ يوضَعُ موضعَ المصدر، ولا يقال: تصليةٌ، ولعلَّه فراراً من صَلَيْتُ الشيءَ في النارِ تصْلِيَةً، وفي القاموس صلى صلاة لا تصلية: دعا اهـ[2].

ومعنى (سيدنا) قال الشيخ زروق رضي الله عنه: من له السودُدُ علينا، والسودُد: الشرفُ الكامل. قال: بحيث لو قلنا إنه سيدٌ يملكنا، فالنبيُّ أوْلَى بالمؤمنين من أنفُسِهم اهـ وإن قلنا: سيِّد منا، فهو سيدُ بني آدم ولا فخر بُعِث فيهم من أنفِسهم، واستعمالُ لفظ «السيادة» في الصلاة عليه ﷺ عليه عملُ من يرى أن الأولى سلوكُ الأدب، وقد حسَّنه غيرُ واحدٍ من الأعلامِ منهم الأبي في شرحه الإمام مسلم، وذكر، يعني الأبي رحمه الله تعالى، في ذلك

(1) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل، عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته، كان أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ولي قضاء سبتة ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفي بمراكش مسموماً سنة (544)، وله تصانيف كثيرة.
انظر وفيات الأعيان: 1/ 391، وقضاة الأندلس: 101، وجذوة الاقتباس: 277.

(2) كذا في اللسان (صلا) وفيه أيضاً: قال ابن الأثير: وقد تكرر في الحديث ذكر الصلاة، وهي العبادة المخصوصة، وأصلها الدعاء في اللغة فسميت ببعض أجزائها، وقيل: أصلها في اللغة التعظيم، وسميت الصلاة المخصوصة صلاة لما فيها في تعظيم الرب تعالى وتقدس.

حكاية وهي أن طالباً اتفق له أن قال لا يزادُ في الصلاة لفظ «سيدنا» لأنه لم يردْ، فَنَقَمَها عليه الطلبةُ وبلغ أمرُه للقاضي ابن عبد السلام، فأرسلَ وراءه الأعوانَ، فاختفى مدةً حتى تشفَّع فيه صاحبُ الخليفة وحينئذٍ خلّى سبيله، ورأى أن تغيبَه المدَّة هو عقوبته اهـ.

(ومحمد) الاسمُ الشريفُ، عَلَمٌ على نبينا ﷺ، سمّاه جَدُّه عبد المطلب بإلهامٍ من الله تعالى رجاءَ أن يحمَدَه أهل السماء والأرض. قال في شرح الحصن: واشتقَّ له ﷺ من الحمْدِ اسمان وأحدُهما يفيدُ المبالغةَ في المحمودية وهو «محمد» والآخر يفيد المبالغة في الحامدية وهو «أحمد»، واشتُهِر الأول اشتهاراً أكثر، وخصَّ بمقارنته لكلمة التوحيد لمناسبة المحبوبية اهـ. فهو في حقه ﷺ دالٌّ على معنى هو وصفُ مدحٍ، وليس علماً محضاً، كما في حق غيره.

قال الزرقاني في «شرح المواهب اللدنية» ما نصه: قال ابن القيم: إن محمداً علمٌ وصْفه في حقه ﷺ، وإن كان علماً محضاً في حقِّ غيره، وهذا شأن أسماءِ الله تعالى أعلامٌ دالَّةٌ على معانٍ هي أوصافُ مدحٍ، فلا تضاد فيها العَلَميةُ الوصفيةَ. ولما كانت الأسماءُ قوالبَ المعاني ودالّةً عليها اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباطٌ وتناسب، وأن لا تكون معها بمنزلة الأجنبي المحْضِ الذي لا تعلُّق له بها، فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك، والواقع يشهدُ بخلافه، بل للأسماء تأثيرٌ في المسميات وللمسمَّيات تأثيرٌ في أسمائها في الحسْنِ والقبح، والثقل واللطافة والكثافة كما قيل:

وقلَّما أبْصَرَت عيناك ذا لقَبٍ   إلا ومعناهُ إنْ فكَّرْتَ في لَقَبِهْ

وكما دلَّ هذا الاسم الشريف بمعناه على ما هو وصفُ مدحٍ، فكذلك دلَّتْ حروفُه الهجائية على ذلك أيضاً. قال الشيخ إبراهيم الشبراخيتي[1] في شرحه الأربعين النووية[2] ما نصُّه: قال أهل المعاني: في اسم سيدنا محمد ﷺ: الميم الأولى محْوُ الكفرِ بالإيمان ومحو السيئات، أي سيئات من اتبعه، أو منة من الله على المؤمنين به، والحاءُ حكمه بين الخلق بحكم الله، والميم الثانية ملكُه الذي أعطاهُ الله تعالى ولم يُعْطَ لأحدٍ قبلَه ولا بعدَه، وذلك أنه قرن اسمه مع اسمه في المشرق والمغرب، والدال دليلٌ للخلق على الحقِّ في الدنيا لأنه داعيهم إلى الله تعالى ودليلهم في الآخرة إلى الجنة اهـ.

---

(1) هو إبراهيم بن مرعي بن عطية، برهان الدين الشبراخيتي، من أفاضل المالكية بمصر. توفي غريقاً في النيل وهو متوجه إلى رشيد. من كتبه «شرح مختصر خليل». توفي سنة (1106هـ).
انظر هدية العارفين: 1/36، وشجرة النور: 317.

(2) اسم الكتاب: «الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين النووية».

و(الآلُ) المرادُ بهم أقاربُه ﷺ المؤمنون من بني هاشم، وقيل: والمطلب، وقيل ذريته، وقيل: أزواجه، وقيل: أتباعه، وقيل: أتقياء أمتِه، قاله في شرح الحصن، وقد ردَّ بعضُهم هذه الأقوال إلى قول واحدٍ بالتفصيل فقال آله ﷺ في مقام الزكاة المؤمنون من بني هاشم أو «والمطلب» على الخلاف في ذلك عند الفقهاء، وفي مقام المدح أتقياء أمته، وفي مقام الدعاء كل مؤمن ولو عاصياً.

(وصحب) اسم جمعٍ لصاحب أو مخفّف منه. والصحابي: هو من اجتمعَ مؤمناً بالنبيِّ ﷺ، وإن لم يرْوِ عنه أو لم يطلْ اجتماعُه به ﷺ هذا الذي عليه جمهور المحدثين، ونقل غيرُ واحد عن أبي زرعة الرازي أنه ﷺ توفي عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، كلُّهم رآه أو روى عنه، وممن نَقَله الشيخ أبو الفيض زروق ﷺ وقال بعده: ذكره ابن القطان في مراتب الصحابة، وابن الأثير في جامع الأصول اهـ.

(وأما السلام) فهو الأمانُ وطيبُ التحيَّةِ (وجملة وصلى الله على سيدنا محمد) خبريةٌ لفظاً قُصِد بها إنشاءُ طلبِ الصلاة والسلام من الله تعالى على حبيبه ﷺ.

قال العارف بالله تعالى في حاشيته على «دلائل الخيرات» ما نصه: قال بعضُ الحنفية: والحكمةُ في أن الله تعالى أمرَنا أن نصلِّي عليه ﷺ والتعليم وقَعَ بطلب صلاة الله أنه عليه الصلاة والسلام طاهرٌ لا عيب فيه ولا نقص، وفينا العيب والنقص، فكيف يثني ذو العيبِ على من لا عيب فيه، فسألنا الله تعالى أن نصلّي لتكونَ الصلاة من طاهر على نبيٍّ طاهر اهـ. قال العارف بالله تعالى أمره ما نصه: قلت: ويحتملُ أن يقال في توجيه ذلك: إن الحكمة في ذلك عجزُ الخلائقِ عن الوفاء بما يستحقُّه من الخير والثناء لعدم قدرتهم وقصور علمِهم عن الإحاطة بما هو عليه من الكمالات. ولما كان ذلك معلوماً منهم ردوا إلى سؤال ذلك من القادر على ما يشاء من الخيرات، العالم على الإطلاق بكل الكائنات ومما دقَّ وجل من الخفيات اهـ المراد منه وهو توجيه حسنٌ ونظرٌ فائق مستحسَن، جزاه الله خيراً، ورضي عنه. ثم قال رحمه الله تعالى:

(قالَ ابنَ باَبا العَلوي نسبَة المَغربيُّ المالكيُّ مَذهبَة)

(قال) من القول، وهو إبداءُ صورة المعنى المتكلَّم به نظماً بمنزلةِ ائتلافِ المحسوسات جمعاً قاله الحرالي اهـ بنقل المناوي، وأتى بالفعل الماضي، إما لتقدُّم المقول في الوجود أو تفاؤلاً أو إظهاراً للرغبة في حصوله، أو لتنزيل ما عزَمَ على الإتيان به منزلة ما أتى به وهو مما يدلُّ على بُعد همّته ونفوذ عزمته، ولا يضرُّه ما يلزمُ على ذلك

من الإيذان بطول الأمل، لأن الأمل كما قاله ابن الجوزي مذمومٌ إلاّ من العلماء، فلولا أملهم لما ألّفوا ولا صنّفوا، وفي الأمل سرٌّ لطيف لأنه لولا الأملُ لما تهنّى أحدٌ بعيش ولا طابت نفسُه أن يشرع في عمل، وفي الحديث: «**إِنَّمَا الأَمَلُ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ لأُمَّتِي، وَلَوْلاَ الأَمَلُ مَا أَرْضَعَتْ أُمٌّ وَلَدَهَا وَلاَ غَرَسَ غَارِسٌ شَجَراً**» رواه الخطيب عن أنس ﷺ. والمذمومُ من الأمل الاسترسال فيه وعدمُ الاستعداد لأمرِ الآخرة، فمن سلم من ذلك لم يكلّف بإزالته، وورَد في ذمِّ الاسترسال في الأمل حديث أنس رفعه: «**أَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ: جُمُودُ العَيْنِ، وَقَسْوَةُ القَلْبِ وَطُولُ الأَمَلِ، والحِرْصُ عَلىٰ الدُّنيا**» رواه البزار. قاله في فتح الباري اهـ من «فتح الرحيم الرحمٰن على نصيحة ابن الوردي» رحمه الله. و(**بابا**) اسمُ والدِ النَّاظم رحمه الله، واقتصرَ عليه دون ذكر اسمه لشهرته في جيلهِ ولدى من يعرفه و(**العلوي**) نسبة لقبيلته ذوي علي، وهي قبيلة معروفة من قبائل شنجيط، وهم ينتسبون إلى سيّدنا محمَّد ابن مولانا علي كرَّم الله وجهه، وقيل: إلى علي آخر هو جدُّ القبيلة، والقبيلة عند قائلِ هذا منسوبةٌ إلى مولانا الحسن السبط[1] ﷺ، هذا الذي سمعته من النَّاظم رحمه الله. و(**المغربي**) نسبةً إلى المغرب القطر المعروف، وذلك لأن بلده شنجيط وهي أقصى المغرب، و(**المالكي**) نسبةً إلى عالم المدينة إمام دار الهجرة على مشرفها أفضل الصَّلاة وأزكى السَّلام إمامنا وإمام الأئمَّة مالك بن أنس ﷺ، وأرادَ رحِمَه الله بهذا البيت التعريف بنفسهِ، وجَرَى في البداءة به على سنن المقتدى بهم في تسميةِ أنفُسِهم أوائل تصانيفهم وإشاراتهم إلى ما يفيد التعريف بهم وبأنسابهم ومذاهبهم في تآليفهم، وذلك كما هو اللاَّئق بحسن الظنّ بهم للاعتماد لا للافتخار، فإن الفائدة إذا عرف مفيدُها عظمَ في القلوب موقعها.

وفي ذلك فوائدُ أُخر يحتاج إلى معرفتها عند أهل النظر وهي على قسمين: قسم يحتاج إليه داخل التصنيف، وقسم لا يحتاج إليه إلاّ خارجه عند أهل التعريف.

(فمن فوائد القسم الأول) معرفةُ عقلِ المصنف ودينه هل هو ممَّن يوثَقُ بنقله ويعتمد عليه في قوله أم لا؟ ومنها: معرفة مرتبته في العلم، وخصوصاً في الفن

---

(1) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو محمد، خامس الخلفاء الراشدين وآخرهم، وثاني الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، ولد في المدينة المنورة سنة (3هـ)، وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وهو أكبر أولادها. كان عاقلاً حليماً محباً للخير فصيحاً، من أحسن الناس منطقاً وبديهة. توفي سنة (50هـ).
انظر تهذيب التهذيب: 2/ 295، والإصابة: 1/ 328، وابن عساكر: 4/ 199، وصفة الصفوة: 1/ 319. وأسد الغابة.

المتكلّم فيه، ليعلَم هل هو حُجَّةٌ في ذلك الفن أم لا؟ وذلك لأن قول الحجَّة حجة. ومنها: معرفة مذهبه ليتمكَّن من قبول كلامهِ أو ردِّه أو تضعيفه أو تصحيحه أو تشهيره أو ترجيحه أو نحو ذلك.

(ومن فوائد القسم الثاني) التعرُّض لدعاءِ داعٍ أو ثناء مُثْنٍ أو وداد أخ اهـ. قاله المحقق اليوسي رحمه الله تعالى. قلت: وفي هذه الفوائد ما لا يخفى من البركات المأثورة والخير المتزايد (أما التعرُّض لدعاء داع) فإنه من أجلِّ ما يعتني به اللَّبيبُ، وأفضل ما يهتمّ به الأريب لأنه من مظانِّ الإجابة، لما وَرَد من أن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة[1]. (وأما الثناء) فكذلك ويكفي أنه مما يستوجب به العبد الجنَّة بفضل الله تعالى لحديث: «مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً وَجَبَتْ»[2] الحديث، ولا سيما إذا كان الثَّناءُ من أهل الخير كالعارفين والصدِّيقين، لما ورَدَ أنَّ شخصاً ماتَ على عهد رسول الله ﷺ، فشهِدَ النَّاس كلُّهم فيه بالشرِّ إلاّ أبا بكر الصدِّيق ﷺ، فأوحى الله تعالى إلى رسولهِ ﷺ أن الذين شهدوا في فلان بالسوء صادقين، ولكن الله تعالى أجازَ شهادة أبي بكر تكرمةً له اهـ ذكره الشعراني في «الميزان»، وفيه أنَّ الثناءَ من أهل الكمال تُرْجَى بركتُه على كلِّ حال.

(لطيفة) ومن هنا يرجو بعض الناس بركةَ التحلية من أهل الخير والصَّلاح ويحصل له بها السرور والانشراح، وربما يستأنسُ في هذا بما ذكره الفخر الرَّازي رحمه الله تعالى في تفسيره على قوله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: الآية 24] الآية، كيف سمَّاهم الحقُّ تعالى ضيفاً ولم يكونوا؟ قال الفخر: نقولُ لما حسبهم إبراهيم ﷺ ضيفاً لم يكذبه الله تعالى في حسبانه إكراماً له.

وأمَّا (التعرُّض لوداد الأخ) في الله، فإنه من أخلاق الصَّالحين من مكارم الأخلاق التي تدلُّ على لطف الشَّمائل وطيب الأعراق، ولا يخفى ما فيه من الفضل، وفي الحديث: «رَأْسُ العَقْلِ بَعْدَ الإِيْمَانِ باللهِ تَعَالَىٰ التَّوَدُّدُ إِلَىٰ النَّاسِ». (واسم الناظم) رحمه الله تعالى «التجاني» سمَّاه به والدُه على ما أخبرني به عن نفسه تبركاً باسم سيدنا الشيخ ﷺ، وذكر لي رحمه الله أن له أخوين اسمُ أحدهما الشيخ واسم الآخر أحمد، قصد والدهم حصولَ بركة التسمية باسم

---

(1) رواه مسلم في (الذكر: 88)، وابن ماجه في (المناسك: 5).

(2) رواه البخاري في (الجنائز: 86)، وفي (الشهادات: 6)، ومسلم في (الجنائز: 60)، وأبو داود في (الجنائز: 76)، والترمذي في (الجنائز: 63)، والنسائي في (الجنائز: 50)، وابن ماجه في (الجنائز: 20).

الشيخ ﷺ لجميعهم، وهذا ممَّا يشهدُ لعظيم محبَّته في جانبه وكمال تعلُّقه به ﷺ، والتَّسمية بأسماء الأنبياء والصَّحابة والأولياء من السّنن الواضح المعروف قديماً وحديثاً.

وفي الحديث: «**وُلِدَ لَنَا اللَّيْلَةَ وَلَدٌ فَسَمَّيْتُهُ بِأَبِي إِبْرَاهِيم** عليه السلام»، ولمَّا نزلَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريَم: الآية 28] الآية، قالوا: يا رسول الله كيفَ تكونُ أختُ هٰرون وبينهما دهرٌ طويل؟ قال عليه الصَّلاة والسلام: «**إنَّهم كَانُوا يسمُّون بِأسْماءِ أنْبِيائِهم**» أي فهو هٰرون آخر مسمى باسم هٰرون النبي عليه السلام (واسم والده) بابا حسبما تقدَّم مصرحاً به في النظم، وكان عالماً ناسكاً فاضلاً مشاراً إليه في بلده وجيله، ملحوظاً بعين التعظيم في معشره وقبيله، وأخبرني ولده النَّاظم رحمه الله أنَّ له شرحاً على «التحفة العاصمية» و«تكملة التكملة» للديباج انتهى فيها إلى ذكر أهل القرن الثاني عشر، فترجم للشيخ التاودي بن سودة والشيخ أبي حفص الفاسي وغيرهما، وأخذ طريق الشيخ ﷺ عن قريبه العلاَّمة الكبير القدوة الشهير سيدي محمَّد الحافظ العلوي، وهو ابن نحو عشرة أعوام، وهذه إحدى المزايا التي كان يلحظ من أجلها عند الخاصَّة من أهل الطريق.

وبالجملة فبيت النَّاظم رحمه الله بيتُ علم وفضل لأنه من ذرية علامة شنجيط سيدي الطالب العلوي الشهير الذكر ببلدهم. ومن أولادِهِ العلامة سيدي عبد الله بن الطالب كان قرأ على الشيخ أبي الحسن الأجهوري، فكان أعلمَ أهل زمانه وإليه المرجعُ في إقليمه، فالناظمُ رحمه الله التجاني بن بابا بن أحمد تيبا بن عثمان بن عبد الرحمٰن بن الطالب المذكور حسبما هو عندنا بخط يده وكانت له اليدُ الطولى في العلم وخصوصاً في فن السيرِ والفقه والأصول والبيان والنَّحو والتَّصريف واللّغة والمنطق والعروض وأشعار العرب وأيامها، وغير ذلك من الأخبار والنوادر.

وأما التصوُّف، فقد رُزِق من الذوق الغريب فيه ما يشهدُ له بالتقدُّم التامّ، وستقف في نظمه هذا على بعض الرشحات والدقائق التي تحار في دَرْكها الأفهام مع إفراغه ذلك في قوالب القواعد العلمية ستراً لما له مع الله تعالى من أحواله الخصوصية، وله نظم ذكر فيه أزواج النبي ﷺ وبنيهنّ منه عليه السلام وما لبناته من بنين وبنات أيضاً، قرأناه عليه وكتبنا عليه من إملائه في مواضعَ منه، وكتب لنا بخط يده في مواضع من هوامشه كذلك أيضاً، وأذِن لنا في شرحه، وقد قيّدنا عليه بحسب ما تيسَّر لنا في الوقت، وله عليه شرح نفيس في مجلد أبدعَ فيه غاية الإبداع، ولم يمكنا كتبه لاستعجالهِ، وله أرجوزةٌ نظَمَ فيها الورقات للشيخ أبي المعالي إمام الحرمين رحمه الله تعالى، وله رحلةٌ التزم فيها ذكرَ من لقِيَه من الأعلام في وجهته لبيت الله الحرام وابتدأ بأشياخه الذين قرأ عليهم ببلده كوالده ووالدته وغيرهما رأيتها عنده، وقد كمل منها مجلد وذلك قبل أن يجتاز ببلاد الواسطة والجريد وتونس والبلاد

المشرقية، وله هذه المنظومة المباركة نظمها بزاوية «عين ماضي» أيام إقامته بها بأمر من سيدنا العالم الفاضل الناسك العارف بالله تعالى أبي المواهب سيدي محمد الحبيب نجل سيدنا ومولانا الشيخ ﷺ، وقد أومأنا إلى بعض ذلك في طالعة الكتاب.

وأخَذَ الطَّريقة عن العلاَّمة الأوحد الفاضل الأمجد أبي عبد الله سيدي محمَّد المدعو محمَّد الملقب بالخليفة لقيامه بالخلافة في إعطاء الطَّريق بعد وفاة شيخه سيدي محمد الحافظ ﷺ، وله خمسة جدود، كل واحدٍ منهم أعلمُ أهلِ زمانه وهم أبوه سيدي عبد الله ابن سيدي أحمد الفغ ابن سيدي محمد ابن سيدي عبد الله المعروف بالقاضي، وهو الذي تقدَّم لنا أنه قرأ على الشيخ الأجهوري ابن علامة شنجيط سيدي الطالب المتقدم الذكر، وفيه يجتمع نسبُه مع النَّاظم ﷺ تعالى، وقد تقدَّم لنا ذكر كيفية تلقينه إيَّاه وما عامله به من الاعتناء في ذلك، وكان لهذا السيِّد على ما أخبرني به النَّاظم ﷺ باعٌ في العلوم وله في مدح شيخه الحافظ مولانا الشيخ ﷺ قصائد كثيرة، وكان يقال له حسان الطريق لقوله في قصيدة يمتدحُ بها الشيخ ﷺ ويردُّ على المنتقدين على أهل طريقتنا:

وإنِّـي لـحُـسَّـانِ الـطَّـرِيـقِ وَأَهْـلِـهَـا ... أَذُودُ أَبَـا جَـهْـلِ الـنَّـكِـيـر وأَزْجُـر

وكان النَّاظمُ ﷺ تعالى من أعاجيب الدَّهر في الذكاء والفطنة ومكارم الأخلاق وحسن الشيم وعلوِّ الهمَّة عن الخلق والتجافي عن سفساف الأمور، مع ما هو عليه من الجد والاجتهاد في طاعة ربِّ العباد، وكان اجتيازُه بنا بمكناسة الزيتون عامَ سبعة وخمسين ومائتين وألف، ومكث عندنا ثلاثة أشهر صحِبناه فيها وذاكرناه واستفدنا منه ما نرجو الله تعالى أن ينفعنا به في الدِّين والدُّنيا والآخرة بفضله وكرمه.

وكانت وفاته ﷺ تعالى أوائل العشرة التي بعد السِّتِّين ومائتين وألف، وذلك قبل وفاة والدِه بما يزيد على العشرة أعوام بالمدينة المنوّرة على مشرفها أفضل الصَّلاة والسَّلام.

(تكميل) ما قدمناه من الخلاف في نسبة قبيلة الناظم ﷺ تعالى سمعنا منه ما يرجِّحُ القولَ الثاني، وأنَّ النسبة إلى عليّ جدّ القبيلة وهو من ذريّة مولانا الحسن ابن مولاتنا فاطمة الزّهراء رضي الله عنهما، ونفعنا بمحبَّتهما، وذلك أنه أخبرني مراراً بأنه وجَدَ أهله وأقاربه ينتسبون إلى سيدي محمد ابن الحنفية[1] نجل مولانا عليّ كرَّم الله وجهه، وكان

---

(1) هو محمد بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي، أبو القاسم المعروف بابن الحنفية، أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام، وهو أخو الحسن والحسين غير أن أمهما فاطمة الزهراء، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، ينسب إليها تمييزاً له عنهما. كان واسع العلم، ورعاً، أسود اللون، وأخبار قوته=

والده يُسِرُّ إليه أنَّهم من أولاد مولانا الحسن، وأن النِّسبة المذكورة هي إلى عليّ أحد أجدادهم لا غير، وكان النَّاظم ﷺ لا ينفكُّ عن التردُّد في ذلك في باطنه حتى رأى ذات ليلة فيما يرى النائم كأنه دخَلَ إلى بستانٍ وإذا فيه نهرُ ماء يجري، وإذا إلى جانب النَّهر حوضٌ يجتمع فيه الماء وامرأة تتوضَّأُ من ذلك الحوض كاشفةً عن ساقيها حاسرةً عن بعض أعضائها كما هي حالة المتوضِّىء، وإلى جنبها شابان واقفان ينظران إليها، فوَقَع في باله أنها ليستْ بذاتِ محرمٍ منه فلا يحلُّ له أن ينظر إليها، فأراد أن ينحرفَ عنها فأشارت إليه أن تقدم، فزالَ عنه كونها ليست بذاتِ محرم فتقدَّم إلى أن دنا منها، ثمَّ استيقظَ فقصَّ رؤياه على بعض من كان مشهوراً بالتعبير ببلدهم، فقال في تعبيرها: لعلَّ لهذا الرائي نسبة إلى مولاتنا فاطمة الزَّهراء ﵍، وهذه الرؤيا تحققها حيث لم تستتر منه، والشابان الحسن والحسين، وقد دعته إلى الدنوّ منهما، هذا ملخص ما عبَّر به المعبر، فسُرَّ النَّاظم بذلك وزال عنه ذلك التردُّد فيما كان يسره إليه والده، لكنه بقي في الظاهر على ما عليه عامة الناس في ذلك كما هي عادة أهل الفضل والدِّين في عدم التظاهر بالأنساب والتفاخر بها، ميلاً منهم إلى ما هو شعار السلف الصَّالح من عدم التمييز عن أبناء الجنس وترك كل ما يشير إلى الرضا عن النفس، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم آمين، ثم قال ﷺ تعالى:

(الحمدُ للجاعِلِ الأولِياءْ وَرَثَةَ الكُمَّلِ الأنبِيَاءِ
والجاعِلِ النَّبيَّ خيرَ الأنبِيا وَشَيخَنا أحمدَ خيرَ الأولِيا
حَمداً يَدُومُ بِدوامِ النِّعَمِ علَى الخَلائِقِ وَكُلِّ مُسلِمِ)

لما افتتح النَّاظم ﷺ تعالى منظومته هذه ببسم الله الرحمٰن الرحيم افتتاحاً حقيقيًّا وهو الذي لم يسبقْه شيءٌ افتتحها أيضاً بالحمْدِ افتتاحاً إضافياً، وهو الذي يتقدَّم أمامَ المقصود سواء سبقه شيء أم لا، لما في بعض رواية الحديث السابق: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لاَ يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لله» وفي رواية: «كُلُّ كَلاَمٍ لاَ يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ الله»[1] الحديث، وإنَّما لم يعكس فيجعل الافتتاح الحقيقي بالحمدلة لقوَّة حديث البسملة، ولموافقة الكتاب العزيز.

= وشجاعته كثيرة، وكانت (الكيسانية) من فرق الإسلام، تزعم أنه لم يمت وأنه مقيم برضوى. مولده ووفاته بالمدينة (21 ـ 81هـ).
انظر طبقات ابن سعد: 5/ 66، ووفيات الأعيان: 1/ 449، وصفة الصفوة: 2/ 42، وحلية الأولياء: 3/ 174، والبدء والتاريخ: 5/ 75.

(1) رواه أبو داود في (الأدب: 18)، وابن ماجه في (النكاح: 19).

و (الحمد) لغةً: الثَّناء بالجميل، سواء تعلَّق بالفضائل أو بالفواضل، والفضائل: جمع فضيلة، وهي الصِّفات، والفواضل: جمع فاضلة، وهي الأفعال، فالمراد كما عبر به بعضُهم الثَّناء على المحمود بأفعاله الجميلة وأوصافه الحسنة الجليلة. وعرفاً: فعلٌ ينبىءُ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً على الحامدِ أو غيره.

والشكر لغةً: هو الحَمْدُ عرفاً. واصطِلاحاً: صرفُ العبدِ جميعَ ما أنعم الله به عليه من سمع وبصر وغير ذلك إلى ما خُلِقَ لأجله[1].

والكلام في هذه الحقائق باعتبار ما بينها من النسب وغير ذلك ممَّا يتعلَّق بها شهيرٌ واضح وليس من غرضنا التطويل به في هذا المحل و(أل) في «الحمد» للجنس، ويعبَّر عنها بلام الحقيقة، فتفيد قصر الحمد على الله تعالى لدلالتها على استحقاقه جلَّ وعلا جميع المحامد القديمة والحادثة، لأن القديمة وصفُ القائم بذاته المقدسة والحادثة خلقه، وقيل: للاستغراق، وقيل: للعهد.

قال الشيخ إبراهيم الشبراخيتي في «شرح الأربعين النووية» ما نصّه: حكي عن الشيخ أبي العبَّاس المرسي ﷺ أنه قال: قلت لابن النحاس النحوي: ما تقول في الألف واللاَّم في «الحمد لله» أجنسيةٌ هي أم عهدية؟ قال: يا سيدي قالوا: إنها جنسية، فقلت: الذي أقول: إنها عهدية، وذلك أن الله تعالى لما علم عجزَ خلْقِه عن كُنْهِ حمدِه حَمِدَ نفسَه بنفسه في الأزل نيابةً عن خلْقهِ قبل أن يحمدوه، ثمَّ أمَرَهم أن يحمدوه بذلك الحمد، فقال: يا سيدي أشهدك أنّها عهديةٌ. قال الشبراخيتي: وهو معنى حسن، واللاَّم الجارة في قوله (للجاعل) ليست لام علَّة، وإنَّما هي للعاقبة، وهي داخلةٌ على اسم الجلالة المقدر موصوفاً للجاعل ولم يقدر بغيره من الأسماء الحسنى، لأن اسم الله تبارك وتعالى جامعٌ لسائر الأسماء والصفات، فيفيد الكلام أنَّ الحمد مستحقٌّ له تبارك وتعالى لذاته، لأنه لو قدر بالخالق أو الرازق مثلاً لأوهم الكلام أن الحمد مستحقٌّ له سبحانه لكونه خالقاً أو رازقاً. و (الجاعل) اسم فاعل «جعل» وهو هنا بمعنى صيَّر، وفيه معنى التشريف كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: الآية 143] وقوله تبارك وتعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ

---

(1) في اللسان، (شكر): الشُّكر: عرفان الإحسان ونشره، وهو الشُّكور أيضاً. قال ثعلب: الشكر لا يكون إلا عن يد، والحمد يكون عن يد وعن غير يد، فهذا الفرق بينهما، والشكر من الله والمجازاة والثناء الجميل. . . .

والشكر: الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له، وباللام أفصح.

﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: الآية 97] الآية، حسبما مثل له بذلك صاحب القاموس. و(جعل) بهذا المعنى يتعدَّى إلى مفعولين ففاعله الضميرُ العائدُ على لفظ الجلالة المقدَّر، وهو مضاف إلى مفعوله الأول الذي هو الأولياء، ومفعوله الثاني ورثة، وسبك البيت على هذا التقدير، الحمد لله الجاعل الأولياء الكرام ورثة الأنبياء الكمل عليهم الصَّلاة والسَّلام.

ثم الحمدُ على قسمين: مطلَقٌ ومقيَّد، فالمطلَقُ هو الَّذي لا يدلُّ إلاَّ على حمد الذات العلية مجرداً نحو: «الحمد لله» والمقيَّد هو الَّذي يدلُّ على حمد الذات المقدَّسة لأجل شيء كالرحيم والخالق والرازق ونحوها.

واختلفَ الأئمَّةُ ﷺ في الأفضل، والذي عليه إمامنا مالك ﷺ أنَّ المقيَّد أفضلُ من المطلق والمقيَّد بالإثبات أفضل من المقيد بالنفي. والدَّليل عنده على أفضليته كثرةُ وروده في القرآن، وكونُه يثابُ عليه ثواب الواجب، لأن الغالبَ وقوعُه في مقابلة نعمة. وفضَّل الإمام الشافعي المطلق لصدقه على جميع المحامد، ذكره بعض محققي المالكية في شرحه للرسالة، ومنه يعرف أن النَّاظم ﷺ تعالى أتى بما هو الأفضل في مذهبه، فإنه قيَّدَ الحمدَ للذات العلية جلَّ وعلا بجعله سبحانه وتعالى أولياء هذه الأمة ورثة للأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، وبجعله نبيّنا ﷺ خيرَ الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وبجعله شيخنا الخاتم المحمَّدي الأشهر خير الأولياء ﷺ على ما سيقرر قريباً بحول الله تعالى ويظهر، فأتى في هذه الصيغة بالحمد المقيد، وأتى من نوعي المقيد بالمقيد بالإثبات. وهذه إحدى النكت التي من أجلها صرَّح بانتسابه إلى مذهب الإمام في البيت قبل هذا، فتفطنْ لذلك واعرف للناظم قدره. و(الأولياء) جمع وليّ.

قال الأستاذ القشيري في رسالته: للولي معنيان. أحدهما: «فعيل» بمعنى «مفعول» كقتيل بمعنى مقتول، فعلى هذا هو من يتولى الله سبحانه أمره. قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: الآية 196] فلا يكِلُه لنفسِه طرفةَ عين، بل يتولَّى الحقُّ سبحانه رعايته. والثاني: «فعيل» مبالغة من «الفاعل» وهو الذي يتولَّى عبادة الله تعالى، فطاعتُه تجري على التوالي من غير أن يتخلَّلها عصيان، وكلا الوصفين واجبٌ حتى يكون الولي وليّا يجب قيامُه بحقوق الله على الاستقصاء والاستيفاء ودوام حفظ الله إياه في السَّراء والضرَّاء، نقَلَه في «الجيش الكبير» وكذا الزرقاني في «شرح المواهب اللدنية». وقال بعده: وهو يعني الولي من أسماء الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: الآية 28]، ولعلَّه أعني صاحب المواهب ﷺ لمَحَ بهذا إلى ما قاله الشيخ محيي الدِّين في «الفتوحات المكية»، ونصه:

لما أغلقَ الله عزَّ وجل باب الرسالة بعد رسول الله ﷺ كان ذلك من أشدِّ ما تجرَّعت

الأولياء مرارتَه لانقطاع الوصلة بينهم وبين من يكون واسطتَهم إلى الله تعالى، فرَحِمَهم الله سبحانه وتعالى بأن أبقَى عليهم اسم الولي الذي هو من جملةِ أسمائهِ تعالى، وإن كانت الحقيقة مختلفةً جبراً لمصيبتهم، وأراد بالأنبياء ما يشملُ الرسلَ عليهم الصَّلاة والسَّلام، وإنَّما عبر بالأولياء ولم يعبر بالعلماء كما هو لفظ الحديث الثابت عنه ﷺ: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[1] الحديث، لأن المراد بالعلماء في الحديث أولو الخشية الرَّاسخون في العلم، قاله بعض الشرَّاح ودليلُه من القرآن واضحٌ، ولا محالة أنَّ العلماء الموصوفين بالخشية لله تعالى، والرَّاسخ في العلم هم الأولياء، إذ العلماء على الحقيقة هم الأولياء، لكن لما كان الزمان صالحاً وكان الغالب على العلماء الاجتهاد في العمل بالعلم، كأنه أراد بلفظ العلماء الأولياء وحيث صارَ أمرُ الزَّمان إلى ما صار إليه فصار الغالب تخلف العالم عن العمل اختصَّ العاملون بالعلم باسم الأولياء، إذ لا معنى للولي إلاّ العالم العامل بعلمه، وجرىٰ على من عداهم اسم العلماء، فلهذا احتاج النَّاظمُ ﷺ إلى التعبير بلفظ الأولياء، فليس في تعبيره مخالفةٌ للحديث الشريف، وإنَّما فيه بيان القَصْدِ منه، وهذا أيضاً من الطائفةِ ﷺ تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركاته آمين.

وقد عقد العارف بالله تعالى الشيخ عبد الوهاب الشعراني ﷺ في «اليواقيت والجواهر» لهذه المسألة مبحثاً حققها فيه غاية التحقيق، وهو المبحث السابع والأربعون في مقام الوارثين للرسل عليهم الصَّلاة والسَّلام من الأولياء ﷺ. قال فيه نقلاً عن الشيخ محيي الدِّين ﷺ: اعلمْ أنَّ ورثة الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام هم العلماء والأولياء، فالأولياء حفَّاظ الأحوال والأحكام الباطنة التي تدق عن الأفهام، والعلماء حفاظ الأحكام الظاهرة التي تفهم ببادىء الرأي، وقد يرث هؤلاء أيضاً الأنبياء في الأحوال الباطنة، كما كان عليه السلف الصالح فكانوا أولياء علماء، فلما تخلَّف الناس عن العمل بكل ما يعلمون سُمُّوا علماء فقط وسلبوهم اسمَ الولي، وإلا فالعلماء حقيقةً هم الأولياء، فعلى ما عليه الناس اليوم كلُّ ولي عالم بلا شك وليس كل عالم وليًّا لأنه قد يتخلَّف عن مقام العمل بما علم يريد، وإذا تخلف عن العمل فليس هو من العلماء الوارثين للأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، إذ لا ينتقل الشيء الموروث للوارث إلا بالصفة التي كان عليها عند الموروث منه، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعلم الخلق بالله تعالى وأتقاهم

(1) رواه البخاري في (العلم: 10)، وأبو داود في (العلم: 1)، وابن ماجه في (المقدمة: 17)، والدارمي في (المقدمة: 32).

وأخشاهم له سبحانه بلا شك. فيتحصَّل من هذا الذي نقله في «اليواقيت والجواهر» عن الشيخ محيي الدِّين أنَّ الوارثين للرسل عليهم الصَّلاة والسَّلام هم حفاظُ الأحوال والأحكام الباطنة، وهؤلاء يختصُّون باسم الأولياء، وهم أولياء علماء حسبما تقدَّم، ولا إشكال وحفَّاظ الأحكام الظاهرة، لكن بشرط العمل بما علموا، إذ بالعمل بما علموا يصيرون من حفاظ الأحوال والأحكام الباطنة أيضاً، كما كان عليه السلف الصالح، وهؤلاء علماء أولياء وإن اختصَّ بهم اسم العلماء لشمول لفظ الأولياء لهم بعموم حقيقة الولاية، وهي، أعني حقيقة الولاية، منةٌ تقدمتها خدمة.

وكان سيدنا الشيخ ﷺ يقول في حقيقتها: محض مِنَّةٍ تقدَّمها محض خدمة، وهو من التحقيق بالمكانة التي لا تجهل عند من أنصف فافهم.

وقوله: (والجاعل النبيّ) إلخ عطفٌ على ما قبله: أي والحمد لله الجاعل النبي ﷺ إلخ، وكذا قوله: (وشيخنا) عطف على ما قبله أيضاً أي والجاعل شيخنا إلخ. والنبيّ المراد به نبيّنا الحبيب الأعظم ﷺ، فـ«أل» فيه نائبة عن الضمير، والتقدير كما يدلُّ عليه السياق والجاعل نبيّنا خير الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسَّلام. والشيخ إما مصدر شاخَ يشيخُ شيخاً وصف به كعدل ورضا، أو صفة كسيد، فخفِّف، سمي شيخاً لما جمع من كثرة المعاني المقتضية للاقتداء به لا لكبر سنِّه. قال الراغب[1]: وأصلهُ من طعن في السنِّ، ثمّ عبّروا به عمن كثر علمُه إذ شأن الشيخ أن تكثر تجاربه ومعارفه اهـ بنقل منوي.

و(أحمد) هو اسم شيخنا وأستاذنا الخاتم الأكبر مولانا أبي العبَّاس التجاني الحسني الموضوع هذا النظم في بيان وِرْدِهِ وما يتعلَّق به، وكون نبيّنا ﷺ خير الأنبياء والمرسلين وسيّد الخلائق أجمعين مما لا يحتاج فيه عند أهل الملَّة الإسلاميّة إلى بيان ولا يتوقف فيه على إقامة دليل وبرهان، لما تقرَّر في جميع عقائد أهل الإيمان من الاتفاق والإطباق على أنه ﷺ أفضل من كل مخلوق على الإطلاق.

قال مجدِّد السنّة والدِّين الشيخ جلال الدِّين السيوطي ﷺ: ومن خصائصه ﷺ تفضيلُه على جميع العالمين من الأنبياء والمرسلين والملائكة أجمعين، ثم حكى عن بعض أئمَّة المفسرين الإجماع على ذلك. قال: واستثنوه من الخلاف في تفضيل الملك على

---

(1) الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم، أديب من الحكماء العلماء من أهل أصبهان، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، ومن كتبه «المفردات في غريب القرآن». توفي سنة (502هـ).

البشر. وذكر المحقق الشيخ سيدي محمد ابن شيخ الإسلام سيدي عبد القادر الفاسي رضي الله عنهما عن بعض العارفين بالله تعالى في قوله عزَّ وجل: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: الآية 253] إلى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: الآية 253] ذلك البعض هو الحقيقة المحمَّديّة.

قال: إذ قد تحقَّقنا كشفاً وثبَتَ لدينا سمعاً أنه أوَّلُ نورٍ بدا إذا كان ﷺ أوّل متلقٍّ من حضرة الوجوب، بل لا متلقي على الحقيقة إلا هو، فكان له ﷺ حيثيتان: حيثية ابتدائية وبها حصل له الكمال الاختصاصي المتوحِّد. وحيثية انتهائية وبها حصل له الكمال المتكثر الذي انقسم على الحقيقة النبوية، وله ﷺ الحظ الأوفرُ الجامع بين كمالاتهم كلّهم، فمن حيث الكمال الاختصاصي كان رسولاً لجميع العالم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية 107] «كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ والطِّينِ»[1]. ومن حيث كمالُ علمهِ الجمعي الاشتراكي كان رسولاً للجنّ والإنس: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: الآية 28] فبعث للأحمر والأسود[2]، فاعلمْ من ذلك رسالته ﷺ العامة والخاصَّة وكماله الخصوصي المتَّحد وكماله العام المشترك وأوّليته وآخريته، وبذلك تطلع على بحرٍ من العلوم لا ساحل له، ونهرٍ من التحقيق لا نهاية له اهـ. ملخصاً.

والأحاديث الدالَّة على هذا المعنى كثيرة: منها حديث الشيخين وغيرهما، عن أبي هريرة ﷺ حين رفع ﷺ الذراعَ فنهشَ منها فقال: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[3] الحديث. ومنها حديث الترمذي عن أنس ﷺ أن النبيّ ﷺ قال: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا قَائِدُهُم إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُم إِذَا أَنْصَتُوا، وَأَنَا مُسْتَشْفِعُهُم إِذَا حُبِسُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُم إِذَا أَيِسُوا، لِوَاءُ الحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَم عَلَىٰ رَبِّي وَلاَ فَخْرَ»[4].

وله أيضاً من رواية أُبيّ بن كعب[5] أنَّ النبيّ ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ

---

(1) تقدم الحديث في المطلب السابع.

(2) الحديث «بُعِثت إلى الأحمر والأسود» رواه مسلم في (المساجد: 3)، والدارمي في (السير: 28)، وأحمد: 1/250، 301.

(3) رواه البخاري في (الأنبياء: 3)، ومسلم في (الإيمان: 327)، وفي (الفضائل: 3)، والترمذي في (القيامة: 10)، والدارمي في (المقدمة: 8).

(4) رواه الترمذي في (المناقب: 1)، والدارمي في (المقدمة: 8).

(5) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج، أبو المنذر، صحابي أنصاري، كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود مطلعاً على الكتب القديمة يكتب ويقرأ، ولما أسلم كان من كتاب=

النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُم وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِم » الحديث. ومنها حديث الترمذيّ أيضاً وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «أَلاَ أَنَا حَبِيبُ الله وَلاَ فَخْر، وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الحَمْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ تَحْتَهُ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ وَلاَ فَخْر، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ»[1]. ومنها عن الترمذي أيضاً من رواية أبي سعيد الخدريّ ﷺ أنَّ النبيّ ﷺ قال: «أَنَا سَيِّدُ ولدِ آدم يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْر، بِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلاَ فَخْر، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلاَّ تَحْتَ لِوائِي»[2]. ومنها حديث ابن عساكر من حديث سلمان ﷺ قال: «هَبَطَ جِبْرِيلُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ: إِنْ اتَّخَذْتُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً فَقَدْ اتَّخَذْتُكَ حَبِيباً وَمَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ، وَلَقَدْ خَلَقْتُ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا لأُعَرِّفَهُم كَرَامَتَكَ وَمَنْزِلَتَكَ عِنْدِي، وَلَوْلاَكَ مَا خَلَقْتُ الدُّنْيَا» اهـ.

وأمَّا كون الشيخ ﷺ (خيرَ الأولياء) ﷺ فلنا في كلام النَّاظم في هذه المسألة تقريران: أحدُهما: في بساط التربية العامَّة عند أهل الطريق. والثاني: في بساط العلم الخاصّ، وهو خاصٌّ بأهل التصديق. فأمَّا التقريرُ الأول فهو أن يقال: إنَّما قال النَّاظم ﷺ تعالى وشيخنا أحمد خير الأولياء عملاً على ما هو الواجب عند أهلِ الطريق حسبما نصَّ عليه في «عوارف المعارف» في حقِّ المريد الصادق مع شيخه من كمال الاعتقاد فيه بحيث لا يرى معه في الصورة الكمالية التي اعتقدَها له غيرُه كائناً من كان، إذ من شروط الصحبة للمشايخ والانتفاع بهم أن لا يدخلَ المريدُ في طريق شيخٍ ويقيد نفسَه بعهدِه إلاَّ بعد حصولِ الاعتقاد الموصوف فيه بحيث لا يبقى فيه تطلُّع إلى شيخٍ آخر، ومن تعشق بطريق أخرى لا تصفو محبتُه ولا ينفذُ القولُ فيه ولا يستعدُّ باطنُه لسرايةِ حال الشيخ إليه، فإن المريد كلَّما أيقنَ بتفرُّد الشيخ بالتربية والترقية وتفرَّد طريقه بالكمال عرَفَ فضلَ شيخه وقوِيَتْ محبتُه فيه، والمحبَّةُ الكاملة القوية هي الواسطة بين المريد وشيخه، فعلى قدر المحبة تكون سراية الحال من الشيخ إلى المريد، لأن المحبة علامةُ التعارف، والتعارفُ علامة الجنسية، والجنسية جالبةٌ للمريد حال الشيخ أو بعض حاله، وبهذا قال الشريشي فيما عقد معناه من كلام صاحب «عوارف المعارف» في رائيته الشهيرة:

= الوحي. شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع النبي ﷺ، وكان يفتي على عهده، وله (164) حديثاً، توفي سنة (21هـ).

انظر طبقات ابن سعد: 3/ القسم الثاني (59)، وغاية النهاية: 1/ 31، وصفة الصفوة: 1/ 188، وحلية الأولياء: 1/ 250.

(1) رواه الترمذي في (المناقب: 1)، وابن ماجه في (الزهد: 37).

(2) رواه الترمذي في (المناقب: 1)، وأحمد: 1/ 281.

وَلاَ تَـقْـدُمَـنْ قَـبْـلَ اعْـتِـقَـادِكَ أَنَّـهُ مُـرَبٌّ وَلاَ أَوْلَـى بِـهَـا مِـنْـهُ فِـي الـعَـصْـرِ
فَـإِنَّ رَقِـيـبَ الإلْـتِـفَـاتِ لِـغَـيْـرِهِ يَـقُـولُ لِـمَـحْـبُـوبِ الـسِّـرَايَـةِ: لا تَـسْـرِ

وكلامُ الكمل من مشايخ الطريق في هذا الباب كثير، وسنذكر البعض منه إن شاء الله تعالى عند الكلام على شروط هذا الورد ولوازمه.

وعلى هذا التقرير يكون في كلام النَّاظم ﷺ تعالى تعريفٌ لحاله وما هو عليه من الاعتقاد الكامل في سيدنا الشيخ ﷺ. ولا محالة أن اعتقادَ المريد أنه لا أكمل من شيخه ولا أفضل من طريقه هو عينُ الفتح له فيما دخلَ فيه، لأنه من الإيمان بالغيب، وهو إنما يحصلُ بمَحْضِ الوهب الإلّهي بلا ريب، ولهذا جعله النَّاظمُ ﷺ تعالى من جملة المحمودِ عليه الذي هو أحدُ أركان الحمْدِ، ففيه تعريفٌ لغيرِه بالحال الذي هو أبلغ من المقال.

وأمَّا التقرير الثاني فهو أن يقال: إنَّما قال في الشيخ ﷺ خير الأولياء، لأنه هو أحد الخاتمين للولاية وهما أعظمُ الورثة كما سيتَّضح قريباً إن شاء الله تعالى، فهو ﷺ خاتم الولاية المحمدية، وسيدنا عيسى ﷺ هو خاتم الولاية المطلقة حيث ينزل خاتماً وارثاً، ومعنى كونه خاتماً لمنصب الولاية المحمدية أنه لا يظهر أحدٌ في ذلك المنصب بمثل الظهور الذي ظهر به فيه، فهو خاتم لكمال الظهور في ذلك المنصب لا لنفس الظهور وذلك لما تقرَّر عند علماء الطريق من أن لختم المناصب العلية باعتبار من تختم عليه معنيين:

أحدهما: أن لا يظهر أحدٌ بذلك المنصب بعد من ختم عليه، وذلك كمنصب النبوَّة والرِّسالة فإنَّهما ختما على نبيِّنا ﷺ، ومعنى الختم في هذا المقام أن لا يظهر أحدٌ أصلاً بذينك المنصبين الشريفين بعده عليه الصَّلاة والسَّلام.

والثاني: أن لا يظهر بكمال الظهور في ذلك المنصب أحدٌ بعد من ختم عليه، وذلك كما في منصب الولاية المحمدية، فإنه ختم على سيدنا الشيخ ﷺ حسبما أخبر بذلك عن نفسه، وليس المراد بالختم في هذا المقام أن لا يظهر أحد بمنصب الولاية بعده، وإنَّما المرادُ أن لا يظهر أحدٌ بعدَه بمثل كمال الظهور الذي ظهر به هو بذلك المنصب، ومن لازَمَ من ختم عليه منصب ما من المناصب سواء على المعنى الأول أو على المعنى الثاني أن يبلغ في المنصب المختوم عليه أعلى درجة فيه، بحيث يرتقي عن جميع من أدرك ذلك المنصب قبله أيضاً، وذلك صادق بخيريته وأفضليته من هذه الحيثية، فيصحُّ اتِّصافُه بالخيرية والأفضلية على جميع من عداه ممن أدرك ذلك المقام، إما على الحقيقة كما في نبيِّنا ﷺ على جميع من عداه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإما

بالنسبة للحيثية المذكورة، وإن كان غيرُه قد يفضله من حيثية أو حيثيات أُخر، كما في حقِّ من يختم عليه منصب الولاية المحمدية أو غيره من المناصب، والله أعلم اهـ.

وانظرْ عقائدَ الصّوفية وشرحها للشيخ فيروز الأكبر أبادي تقفْ على عين التحقيق فيما قررناه لك في هذه المسألة إن شاء الله تعالى، وقد تقدَّم كلام سيدنا الشيخ ﷺ في تفاوت الأولياء في المزايا العرفانية والمنح الإلّهية، وقوله ﷺ هنالك: وليس مرتبة كاملة من جميع الوجوه إلا له ﷺ، وسيأتي لنا مزيدُ بسْطٍ في هذا بمحله من كلام النَّاظم في التعريف بسيدنا الشيخ ﷺ بحول الله مع قوته.

وقوله: (حمداً يدوم) البيت، هو تأكيدٌ للحمْدِ المذكور وتأييد له، فالتأكيدُ في المصدور والتأييد في قوله: (يدوم بدوام النعم)، والنعم: جمعُ نِعْمةٍ بكسر النون، وحقيقتها كلُّ ما ينتفعُ به من كلِّ ملائم تحمد عاقبته، ومن ثم اختلف في الكافر هل هو منعمٌ عليه أم لا؟ والذي عليه الأشعري أنه غيرُ منعَم عليه لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، وهذا القولُ هو الذي تنطبقُ عليه الحقيقة السابقة. وقيل: منعمٌ عليه فيهما، ووجهُ كونهِ منعماً عليه في الآخرة عند القائل به أنه ما من عذابٍ إلاّ وثم ما هو أشدُّ منه، وقيل: منعَم عليه في الدنيا دونَ الآخرة، ومن نعم الله عليه في الدُّنيا عند القائل بهذا تأخير العذاب عنه إلى الآخرة اهـ انظر شروح الرسالة. ونِعَم الله تعالى على عباده لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية 34] قال بعض العلماء في تفسيرها: أي إن أردتم عدَّها لا يمكِنُكم ذلك اهـ.

واختُلِف في أوَّلِ نعمةٍ على العبد، فقيل: الإيجاد، وهي عامة تشملُ الكافر وغيرَه حتَّى الحيوانات والجمادات، وقيل: الحياة التي توصِلُ إلى إدراك اللَّذاتِ التي لا يعقبها ضررٌ، ويدخل في قول النَّاظم ﷺ تعالى الخلائق بحسب ظاهر اللَّفظ غير الحيوانات كالأحجار والأشجار ونحوها.

وقد توقف بعضُ مشاهير العلماء فيها: هل هي منعَمٌ عليها أو وجودها نعمةٌ على الغير؟ قال بعضهم: والذي يظهر من كلام العلماء في حد النعمة الثاني، قال: لأن وجود الجمادات ونحوها من كلّ ما لا نَفْعَ له بوجودِ نفسهِ نعمةٌ على غيره من كل ما يترتَّب على وجوده انتفاع به وليس منعماً عليه، بخلاف الحيوان، فإنه منعَمٌ عليه بنحو الصحَّةِ والأكل والشرب كالإنسان، وعلى هذا يجري القول السابق من أن الكافر منعمٌ عليه في الدُّنيا، ويزيد الكافر بأنه منعم عليه بتأخير العذاب إلى الآخرة، ومن هنا كان نبيّنا ﷺ رحمةً له حسبما ذكره العلماء في الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية 107] والمسلم

المراد به في كلام النَّاظم رحمه الله تعالى الموحد، فيشملُ جميع الموحدين المنعم عليه في الدُّنيا بالإيمان الذي هو أعظم النعم، وبغير ذلك من النعم التي لا تحصى، وفي الآخرة بأنواع الشفاعات والحسنات العظيمة والدرجات الرفيعة، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت[1]، ولا محالة أن ذلك لهم من المولى تبارك وتعالى دائم مستمر بدوام الأبد بلا غاية ينتهي إليها ولا أمد، فقد أتى النَّاظم رحمه الله تعالى بما يفيدُ تأبيدَ الحمْدِ في الدُّنيا والآخرة بلا انقطاع ولا تناهٍ.

ثم العطف في قوله: «وكل مسلم على الخلائق»، من عطف الخاصّ على العام. والنكتة فيه وجودُ الخلاف في الكافر والتوقف في الجمادات، بخلاف المسلم، فهو منعمٌ عليه بالنعم العظيمة الدائمة المستمرة بالاتفاق التامّ، فجيءَ به فيما قصد من تأبيد الحمد من أجل الاتفاق أو التنويه بعظيم قدر الإنعام بنعمة الإيمان والإسلام، ولا شك أن نعمة الإيمان هي أعظمُ نعمةٍ على الإنسان لكونها سبب الخلودِ في الجنان والنَّجاة من النِّيران. وقد ثبتَ أنّه ﷺ سمِعَ رَجُلاً يَقُول: الحَمْدُ لله عَلىٰ نِعْمَةِ الإِسْلاَمِ فقَالَ لَهُ: «**يَا هٰذَا لَقَدْ حَمَدْتَ الله عَلَىٰ نِعْمَةٍ لَمْ يُحْمَدْ عَلَىٰ نِعْمَةٍ أَفْضَلَ مِنْهَا**» اهـ. وذكر عن بعض الصالحين أنه قال على جبل عرفات: الحمدُ لله على نعمةِ الإسلام، وكفى بها نعمةً، فلمَّا كان العام القابل أراد أن يقولها على عرفات، فهتَفَ به هاتف: مهلاً يا عبد الله حتى نفرغ من ثوابها بالعام الماضي اهـ.

وأي نعمة حينئذٍ أعظمُ من هذه النعمة قدراً، أو منةً أرجى منها ذخراً، نسأل الله تعالى أن يعرفنا قدرَها ويؤدي علينا بفضله وكرمه شكرَها وأن يحفظها علينا إلى أن نلقاه عليها غير خزايا ولا نادمين ولا مبدِّلين ولا مغيّرين، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

وإذا تأملت هذه الأبيات الثلاثة بعين الإنصاف عرفتَ أنَّ النَّاظم رحمه الله تعالى أتى في هذا الافتتاح بصيغةٍ من صِيَغِ الحمْدِ فائقة جامعة لمعانٍ سنية رائقة، لا ينكر ذلك إلاَّ جاهلٌ أو مكابر من أهل الاعتساف.

ولنختم الكلامَ على هذه الأبيات بتتمَّاتٍ مشتملاتٍ على بيان نكت لطيفة وفوائد مهمات.

---

(1) الحديث «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت» رواه البخاري في (بدء الخلق: 8)، وفي (التوحيد: 35)، ومسلم في (الإيمان: 312)، وابن ماجه في (الزهد: 39).

التتمة الأولىٰ: ممَّا يتأيد به ما تقدَّم من أن الحمد المقيَّد أفضلُ من المطلَقِ، كون جُلِّ المحامد التي قيل فيها إنها أفضلُ المحامد من قبيل المقيد لا من قبيل المطلق. من ذلك: الحمد لله بجميع محامده كلِّها ما علمت منها وما لم أعلم، على جميع نِعَمِه كلها ما علمت منها وما لم أعلم، زاد بعضُهم عددَ خلْقِه كلّهم ما علمت منهم وما لم أعلم اهـ. فقد قال بعض العلماء في هذا الحمد: إنه أفضلُ المحامد. ومن ذلك: الحمد لله حَمْداً يوافي نعمه ويكافىءُ مزيده. قال بعضهم في هذه الصيغة: إنها أفضلُ المحامدِ لما وَرَد: إن الله تعالى لما أهْبَطَ آدم إلى الأرضِ قال: يا رب شغلتني بكسب يدي، فعلِّمني شيئاً فيه مجامع الحمد والتَّسبيح، فأوْحىٰ الله إليه أن قلْ عند كلِّ صباحٍ ثلاث مرَّاتٍ: الحمدُ لله ربِّ العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده، فقد جمعتُ لك فيها مجامعَ الحمد اهـ.

التتمة الثَّانية: ما تقدَّم من أن الحمدَ المقيد يثابُ عليه ثواب الواجبِ، بخلاف المطلق فيثابُ عليه ثواب المندوب، لأن المقيد يقع غالباً في مقابلة النعمة فيكون شكراً للمنعم سبحانه وشكر المنعم واجبٌ، قد يقال عليه حقيقة الشكر هي صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه في طاعته، وذلك إنَّما يحصلُ بتوفية أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه قولاً وفعلاً واعتقاداً، فما بالهُم جعلوا حمدَ اللّسان فقط هنا شكراً؟ والجواب: أنه وَرَد ما يفيد أن التلفُّظ بالحمْدِ شكرٌ كما في حديث: «مَنْ لَبِسَ ثَوْباً أَوْ أَكَلَ طَعَاماً فَقَالَ: الحمدُ لله، فقد وفَّى حقَّ الشكر» اهـ. نعم، قال الشعراني رضي الله عنه في هذا الحديث: هو محمولٌ على من قال ذلك على وجهِ الإخلاص الكامل دون أمثالنا اهـ. وقد نقل العارفُ بالله تعالى سيدي عبد الرحمٰن بن محمد الفاسي في حاشيته على شرح الإمام السنوسي لصغراه عن الهروي: إن المشيخة من الصدر الأول قسموا الشكر وجعلوه ثلاثة منازل وعدوا منها اللسان، قالوا: وشكره إظهار النعمة مع الذكر التام والتحدُّث بالنعمة، وقول: الحمد لله، قالوا: وهو أي قول «الحمد لله» رأس الشكر كما أن كلمة الإخلاص رأس الإيمان اهـ الغرض منه.

وقال الشيخ محيي الدِّين رضي الله عنه في «الفتوحات المكيَّة»: لم يبقَ من عبادة الشكرِ على النعماء إلا قولهم الحمد لله والشكر لله لفظ ما فيه كلفة، قال: وأهل الله تعالى يزيدون على مثل هذا اللفظ العمل والتوجُّه بالهمم اهـ الغرض منه.

لقد عرفت أنَّ التلفُّظ بالحمد لله شكرٌ، لكن مع صحة القصْدِ وكمال الإخلاص لله تعالى، وقد أشار سيدنا ومولانا الشيخ رضي الله عنه في بعض وصاياه إلى بيان كون الحمد باللسان شكراً مع التنبيه على أنه أقلُّ ما يلزم العبد من الشكر على النعم فلا أعجزُ ممن عجزَ عنه

وأرشد ﷺ إلى بيان العمل في ذلك فقال: وعليكم بشكر النعم الواردة من الله تعالى بسبب أو بلا سبب. والشكرُ يكونُ بمقابلتها بطاعة الله إن قدِرَ على أن تكون كلية، وإلا فالأبقع خير من الأسود كله، وأقلُّ ذلك شكرُ اللسان، فلا أعجز ممن عجزَ عن شكر اللسان. وليكن ذلك بالوجوه الجامعة للشكر، فأعلى ذلك في شكر اللسان تلاوة الفاتحة في مقابلة ما أنعم الله عليه شكراً، ولينوِ عند تلاوتها أنه يستغرِقُ شكْرَ جميعِ ما أحاطَ به علمُ الله من نعمه عليه الظاهرة والباطنة والحسيّة والمعنويّة والمعلومة عند العبد والمجهولة لديه والعاجلة والآجلة والمتقدمة والمتأخرة والدائمة والمنقطعة، ويتلو بهذه النيّة ما قدِرَ عليه من الفاتحة من مرة إلى مائة، فمن فعل ذلك كتبه الله شاكراً، وكان ثوابه المزيدَ من نعمه على قدر رتبته بحسب وعده الصادق. ثم قال سيدنا ﷺ: ووجوهُ المحامدِ الجامعة كثيرةٌ كقوله ﷺ: «لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»[1]. ومنها: «إِلَهِي لَكَ الحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ مِثْلَ مَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُكَ مِن صِفَاتِكَ وَأَسْمَائِكَ وَجَمِيعِ مَحامِدِكَ الَّتِي حمِدْتَ بِهَا نَفْسَك بِكَلامِكَ والَّتِي حَمِدَكَ بِهَا كُلُّ فَرْدٍ مِنْ خَلْقِكَ بِاي لَفْظٍ ذَكَرُوكَ بِهِ، كُلُّ حَمْدٍ مِنْ ذلِكَ لَكَ، وَمِنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ عَدَدَ مَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُكَ مِنْ نِعَمِكَ عَلَيَّ» اهـ.

قال ﷺ: فهو حمد جامعٌ لأنواعِ المحامد، مستغرِقٌ للشكر على جميع النعم اهـ بلفظه ﷺ في الوصية المذكورة. وقوله ﷺ: فأعلى ذلك في شكر اللسان تلاوةُ الفاتحة إلخ، يريد والله أعلم أنَّ ذلك لأن التالي لها بالنيّة السابقة يكون حامداً لله تعالى في حالِ كونه تالياً فيجمع بين الشكر والتلاوة، فيكون له أجرُهما معاً حسبما أفادَه كلام الشيخ محيي الدِّين ﷺ في الباب التاسع والستين من «الفتوحات المكية»، فرضي الله تعالى عن سيدنا ما أغزر مادة علومه، وما أدقَّ مدارك أذواقه وفهومه، وما أكملَ دلالته على الله، وما أبلغ إرشاده إلى مسالك العمل الذي يصلُ العبد إلى مرضاةِ مولاه.

التتمة الثالثة: قد أفادَ سياقُ كلام النَّاظم رحمه الله تعالى في قوله: «والجاعل النبي» على ما قررناه به من أن مرادَه: والجاعل نبينا، بدليل قوله بعده: «وشيخنا» إلخ، أن المراد به الأولياء في قوله: «الجاعل الأولياء» أولياء أمّتنا هذه الأمَّة المحمَّديّة المرحومة، وقد نقل في «اليواقيت والجواهر» عن الشيخ محيي الدِّين ﷺ أن عددَ منازلِ الأولياء في المعارف والأحوال التي وَرِثوها من الرُّسلِ عليهم الصَّلاة والسَّلام مائة ألفِ منزلٍ وثمانية وأربعون

---

(1) رواه مسلم في (الصلاة: 222)، وأبو داود في (الصلاة: 148)، وفي (الوتر: 5)، والنسائي في (قيام الليل: 51)، والترمذي في (الدعوات: 75)، وابن ماجه في (الدعاء: 3)، وأحمد: 1/ 96، وكلهم عن عائشة.

ألف منزل وتسعمائة منزل وتسعة وتسعون منزلاً، لا بدّ لكلٍّ من حقّ له قدم الولاية أن ينزلها جميعها، ويخلع عليه في كل منزلٍ من العلوم ما لا يُحصى.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني ﵀ تعالى: قال الشيخ محيي الدِّين ﵁: وهذه المنازل خاصَّةٌ بهذه الأمَّة المحمَّديّة، لم ينلْها أحدٌ من الأمم قبلهم، ولكل منزل ذوقٌ خاص لا يكون لغيره اهـ. وبه تعرف ما ذكره الشعراني عن الشيخ محيي الدِّين رحمهما الله تعالى أيضاً أن الدولة المحمدية جامعة لجميع أقدام النبيين والمرسلين اهـ.

فبانَ لك من هذا أن الأولياء الوارثين للنبيين والمرسلين عليهم الصَّلاة والسَّلام على التحقيق والكمال هم أولياءُ هذه الأمَّة المحمَّدية، ولهذا كانت هذه الأمةُ لا تجتمعُ على ضلالة إلى قيامِ الساعة كما في حديث: «**لاَ تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَىٰ ضَلاَلَةٍ**»[1] ولهذا أيضاً كانت: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ هٰذِهِ الأمَّةِ ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ عَلَىٰ ذٰلِكَ**»[2] كما في الحديث. وقد صرَّح بعضُ شراح الحديث بهذا في الكلامِ على حديث: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[3] فقال بعد أن بيَّن أن المراد بالعلماء العاملون، وهم الأولياء، كما تقدَّم ما نصُّه: وهؤلاء لا يزالون فينا إلى قربِ الساعة لحديث: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ**» الحديث، وقال على قوله في هذا الحديث: «**حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ الله**» أي يقرُب إتيانُه.

التتمة الرَّابعة: لما ضمَّن النَّاظمُ ﵀ تعالى البيتَ الأول أن أولياءَ أمَّة نبيّنا المصطفى المختار هم الورثةُ للأنبياء الكُمَّل المصطفين الأخيار، وكان نبيُّنا عليه وعليهم الصلاة والسَّلام منهم، بل هو مركزُ دائرةِ فضْلِهم الذي ليس إلا عليه المدارُ، فيكون وارثُه أكملَ من غيرِه لا محالة، رمز إلى ذلك بما ضمَّنه البيت الثاني من خيرية خاتم النبوَّة والرِّسالة، وذلك منه ﵀ تعالى إيماءٌ إلى تفضيل الورثةِ المحمديِّين على من عداهم، ومن الوارثين توطئة بالمرمز الخفي إلى ما قصد بيانه أثناءَ النظمِ من مقام شيخنا ﵁ بيان مقامات العارفين، فاكتفىٰ بالإشارة فيما لا تسعُه العبارة ﵀ تعالى وجزاه خيراً ونفعنا ببركاته دنيا وأخرى.

وعلى هذا الذي أومأ إليه كلامُه نقول: قال الشيخُ العارف بالله تعالى سيدي عبد

---

(1) رواه ابن ماجه في (الفتن: 8).
(2) رواه البخاري في (الاعتصام: 10)، ومسلم في (الإيمان: 247) وفي (الإمارة: 170)، وأبو داود في (الفتن: 1)، والترمذي في (الفتن: 51).
(3) تقدم الحديث قبل قليل.

الوهاب الشعراني ﷺ فيما نَقَله في هذا البحث عن الشيخ الأكبر سيدي محيي الدِّين ﷺ: إن أكملَ الورثة هو من وَرِثَ نبيَّه ﷺ، قال: والفرقُ بين الوارثِ المحمدي وغيرِه أن ورثة الأنبياء آياتُهم في الآفاق من خرْقِ العوائد وغيرها، وآيات الوارث المحمدي في قلبه، فلذلك كان الوارثُ المحمَّدي مجهولاً في العموم، معروفاً في الخصوص لا غير، لأن خرْقَ العادة إنما هو حالٌ وعلم في قلبه، فهو في كل نفس يزدادُ علماً بربّه علم حالٍ وذوق لا يزال كذلك اهـ.

ونقل عنه أيضاً في هذا المحلِّ قوله: إن من علامات الوارث المحمديّ أن يشهد نفسه خلفَ كلّ نبيّ، ولو كانوا مائة ألف نبي لرأى نفسَه في أماكن على عددهم، فإن جميعَ الأنبياءِ والرُّسل قد جمعتْ حقائقهم وشرائعهم في سيدنا محمد ﷺ، انتهى الغرض منه.

وذُكِر عنه أيضاً في هذا المبحث التصريحُ بأن أعظمَ الورثة للأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام هما الختمان: فأحدُهما: يختمُ الله به الولاية على الإطلاق وهو سيدنا عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام، فإنه ينزلُ آخرَ الزَّمان وارثاً خاتماً الأولى بعده. الثاني: يختم الله به الولاية المحمَّديّة انتهى. وقد تقدَّم قريباً معنى الختم في هذا المقام.

التتمة الخامسة: قد علم ممَّا تقدَّم في تقرير البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة أنَّ الورثة للرسل عليهم الصلاة والسلام هم الأولياء والعلماء العاملون إلى آخر ما تقرَّر، ومحصِّل ذلك فيما نقله في «اليواقيت والجواهر» عن الشيخ محيي الدِّين ﷺ ونصّه: لا يخفى أن الإرْثَ كلّه يرجع إلى نوعين: معنويٌّ ومحسوسٍ، فالمحسوس هو الأخبار المتعلّقة بأفعاله ﷺ وأقواله وأحواله، وأما المعنوي فهو تطهيرُ النفس من مذامِّ الأخلاق وتحليتها بمكارمها وكثرة ذِكْرِ الله عزَّ وجل على كلِّ حال بحضورٍ ومراقبة اهـ، فقد علمت منه أن أهلَ النوع الأول هم العلماءُ حفَّاظُ القال، وأهل النوع الثاني هم الأولياء حفاظُ الحال، وقد علمت مما تقدَّم أن حفاظ أقواله ﷺ إنَّما يكونون ورثة الأنبياء إذا عمِلُوا بما علموا، فيصيرون حينئذٍ علماء أولياء، أي حفاظ القال والحال، كما أن أهل النوع الثاني أولياء علماء ولا إشكال، فاتَّحد أهلُ النوعين بلا شك. وقد جهل بعض غلاة المتصوِّفة درجة الأئمة المجتهدين فقال: إنهم ليسوا من حفاظ الأحوال، وإنما هم من حفاظ المقال، وهذه إحدى الفرطات لغلاة المتصوِّفة الذين حذَّرَ أهلُ الحقِّ من صحبتهم.

قال الشيخ الشعراني ﷺ في كتابه «الميزان» ما نصُّه: وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقولُ مراراً: كان أئمَّة المذاهب الأربعة وارثين له ﷺ في علم الأحوالِ وعلمِ الأقوال معاً، خلافَ ما يتوهَّمه بعضُ المتصوفة حيث قال: إن المجتهدين لم يرِثُوا منه ﷺ إلا علم

الأقوال فقط، حتى إن بعضهم قال: إن جميع ما علمه المجتهدون كلهم ربع علمِ رجلٍ كامل عندنا في الطريق، إذ الرجلُ لا يكمل عندنا حتى يتحقَّق في مقام ولايته بعلوم الحضرات الأربع في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية 3] وهؤلاء المجتهدون لم يتحققوا بسوى علم حضرة اسمه الظاهر فقط لا علم لهم بعلوم حضرة الأزل والأبد، ولا بعلم الحقيقة اهـ أي كلام المرصفي.

قال الشعراني عليه ما نصه: قلت: وهذا كلامُ جاهلٍ بأحوال الأئمَّة الأربعة الذين هم أوتادُ الأرض وقواعدُ الدِّين والله أعلم اهـ من الميزان بلفظه. وهذا من جملةِ ما حذَّر منه من إفراط المتصوِّفة الجاهلين.

وهنالك أقوامٌ من المنتسبين إلى العلم وقفوا مع الظواهرِ، فقصروا وصفَ الوراثة للأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام على علماء الظاهر، وهذا أيضاً من جملة ما حذَّر منه من تفريط الجامدين على ظواهر الألفاظ، ولا يخفى ما عليه هؤلاء من التقصير، والآخرون من الشطط، وخير الأمور الوسط. ولعلَّ الحامل لهؤلاء الجامدين على ما قالوه هو اعتقادُهم في الأولياء أنهم جاهلون بالشريعة، وليس الأمر كما زعموا، بل الأولياء هم العالمون بالشريعة على الحقيقة.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنهما نصّه: وسمعتُ سيدي عليًّا الخوّاص ﷺ يقول: لا يكمل مقامُ العالم عندنا حتى يردَّ سائرَ أقوالِ المجتهدين ومقلديهم في سائر الأدوار إلى الكتاب والسنّة، ولا يصير عنده جهلٌ بمنزَعِ قولٍ واحدٍ منها لو عرض عليه، قال: وهناك يخرج عن مقام العامة ويستحقُّ التلقيب بالعالم، وهي أولُ مرتبة تكون للعلماء بالله تعالى، ثم يترقَّى أحدُهم عن ذلك درجةً بعد درجة إلى أن يصير يستخرج جميع أحكامِ القرآنِ وآدابه من سورة الفاتحة، فإذا قرأ بها في صلاته ربما يكونُ ثوابُه كثواب من قرأ القرآن كلّه من حيث إحاطته بمعانيه، ثم يترقَّى من ذلك إلى أن يصيرَ يخرجُ أحكام القرآن والشريعة وجميعَ أقوال المجتهدين من أي حرف شاء من حروف الهجاء، ثم يترقَّى إلى ما هو أبلغ من ذلك، قال: وهذا هو العالم الكاملُ عندنا اهـ. فانظرْ كيف لا يوصف بالعلم من كان بهذه الصفة التي تضمَّنها كلام هذا العارف الكامل ﷺ، فتح الله بصائرنا ونوَّر سرائرَنا بمَنِّه وكرمه.

وقد علمت ممَّا تقدَّم في المطلب الأول من المقدمة أن الاتِّصاف بهذا الذي ذكره العارف بالله تعالى الخواص ﷺ خاص بالكُمَّل من المشايخ، وهم الأقطاب ﷺ، ومن هنا تعرف أن الواحد منهم إنما يظهر تقيُّدُه بمذهب بعض الأئمة الأربعة أدباً، مع ذلك

الإمام حيث سبَقَه القول بمسائلِ ذلك المذهب، وجعله الله إماماً يُقتدى به فيه وإلا فالولي الكاملُ مطّلع على وجْهِ الدليل في تلك المسائل كشفاً، فهو يعملُ بذلك تقليداً للشارع لا لذلك المجتهد، قاله الشعراني في الميزان. ثم قال رحمه الله تعالى: فما ثَمَّ ولي يأخذ علماً إلاَّ من الشارع ويحرم عليه أن يخطو خطوةً لا يرى قدَمَ نبيِّه أمامه فيها. قال: وقد قلت مرةً لسيدي علي الخواص رضي الله عنه: كيفَ صحَّ تقليدُ الشيخ عبد القادر الجيلي للإمام أحمد وتقليد سيدي محمد الحنفي الشاذلي للإمام أبي حنيفة، مع اشتهارهما بالقطبية الكبرى، وصاحبُ هذا المقام لا يكون مقلداً إلا للشارع وحدَه؟ فقال رضي الله عنه: قد يكون ذلك منهما قبلَ بلوغِهما لذلك المقام، ثم لما بَلَغا إليه استحبَّ الناس ذلك اللقب في حقِّهما مع خروجهما عن التقليد اهـ.

التتمة السادسة: في تأبيد النَّاظم رحمه الله تعالى للحَمْدِ بدوام النعم على جميع الخلائق إشعارٌ بنعمتَيْ الإيجاد والإمداد، وهما كما قاله التاج رضي الله عنه: نعمتانِ ما خرَجَ موجود عنهما، ولا بدّ لكلِّ ممكن منهما، وفي هذا الإشعار ذكرٌ لهما واعترافٌ بهما. وفي ذكر النعمة والاعتراف بها شكرانُها، كما أن نسيانها وعدم الاعتراف بها كفرانها، ومن شكَرَ النعم فقد قيَّدها بعِقالها، ومن لم يشكرها فقد تعرَّض لزوالها، وقد ضمَّنَ رحمه الله التأبيدَ المذكورَ شكر نعمتَيْ الإيجاد والإمداد، وفي تأبيده الحمدَ أيضاً بدوام النعم على كل مسلم إشعارٌ بنعمةِ الإسلام التي لا أعظم منها على من أكرم بها من الأنام، وفي إشعاره أيضاً بذلك ذكرٌ لهذه النعمة العظمى، واعترافٌ بها، فقد ضمَّن التأبيد بدوامها الشكر عليها، وكان صنيعُ النَّاظم رحمه الله تعالى في عطفه وكل مسلم على ما قبله ينظر إلى نحو ما قاله الشيخ أبو عبد الله بن عباد رحمه الله تعالى على قوله في الحكم: أنعمَ عليكَ أولاً بالإيجاد، وثانياً بتوالي الإمداد.

ونصُّه: مما لا ينبغي أن يتغافَلَ عنه من أنواع هذا الجنسِ إيجادُ الإيمان ومحبة الطَّاعة في قلبك، وإمدادُهما، وكذا كراهيةُ الكفر والمعصية، فإن ذلك من النعم العظيمة التي لا مدخل لكسبِ العبد فيها، ولا له وسيلة إليها، ولولا تولي الله تعالى بتَيْنِكَ النعمتين في القسمين لتاهَ في ظلمات الضلالة، وغرق في بحار الجهالة.

وقد نبَّه عزَّ وجل على هذا المعنى في كتابه الكريم فقال عزَّ من قائل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحُجرات: الآية 7] الآية اهـ كلام ابن عباد رحمه الله تعالى ثم قال ما نصُّه: قال الأستاذ القشيري رحمه الله تعالى: وإن من فكر في صنوفِ الضلال وكثرة طرق المحال وشدَّة أغاليط الناس في البدع والأهواء، وما يتشعَّب به كل قوم من مختلفي النحل والآراء، ثم فكَّر في ضعفه ونقصان عقله وكثرة تحيُّره في الأمور وشدَّةِ جهله وتناقض تدبيره

في أحواله وشدَّة حاجته إلى الاستعانة بأشكاله في أعماله، ثم رأى خالصَ يقينه وقوة استبصاره في دينه ولقاء وجهِ توحيده عن غير الشرك، وصفاء عين عرفانه عن رهج الشك، عَلِمَ أن ذلك ليس من طاقته ولا بجهده وكدِّه ووسعه وجده، بل بفَضْلِ ربِّه وسابغ طوله، قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: الآية 20] فهو الظاهر بنعمائه وآثار نعمه عليك ظاهرة، والباطن بآلائه وزوائد كرمه لديك متواترة اهـ كلام الأستاذ رضي الله عنه. ثم نقل ابن عباد في هذا المحلِّ عن الشيخ أبي طالب المكي رضي الله عنه قوله على حديث: «أَحِبُّوا الله لِمَا يغذوكُم بِهِ مِنْ نِعَمِهِ».

ونصُّه: فمن أفضل ما غذانا به نعمة الإيمان به والمعرفة لنا، وغذاؤه لنا منه دوام ذلك ومدده بروحٍ منه، وتثبيتُنا عليه في تصريف الأحوال، إذ هو أصلُ الأعمال التي هي مكانُ النوالِ، فلو قلَّبَ قلوبنا عن التوحيد كما يقلِّب جوارِحَنا في الذنوب، أو قلَّب قلوبنا في الشكِّ والضلال كما يقلِّب نياتنا في الأعمال أي شيء كنا نصنع؟ وعلى أي شيء كنا نعول؟ وبأي شيء كنا نطمئِنُّ ونرجو[1]؟ فهذا من أكبرِ النعمِ، ومعرفتُه هو شكرُ نعمةِ الإيمان، والجهل بهذا غفلةٌ عن نعمة الإيمان توجبُ العقوبة، وادِّعاء أن الإيمان وأخاف[2] على توهُّم ذلك أن يسلب الإيمان، لأنه بدَّلَ شكرَ نعمة الله كفراً اهـ كلام الشيخ أبي طالب المكي بنقل الشيخ ابن عباد رحمهما الله تعالى ورضي عنهما، وإنما جلبناه والذي قبله لأنه في غاية الحسن مع ما فيه من الفائدة العظيمة والمنفعة الجسيمة، ولتحقُّق هذه النكتة التي أشار إليها الناظمُ بهذا العطف وتعلم ما في كلامه رحمه الله تعالى من الدلالة على طريق الشكر، فللّه دَرُّهُ من ناظمٍ نبيهٍ نبيل، وسيدٍ فاضل جليل، نفعنا الله ببركاته وبركات أمثاله آمين.

التتمة السابعة: لما كانت هذه الطريقة الأحمدية طريقة شكرٍ بالمعنى الخاص حسبما تقدَّمت الإشارة إليه أتى النَّاظمُ رحمه الله في هذا الافتتاح الذي تضمَّنته الأبيات الثلاثة بما يشير إلى ذلك السرِّ الخفي، ويدلُّ بالرمز اللطيف عليه فتخير من أحسن صيغ المحامد وأجملها ما يؤذِنُ بأعلى مراتب الشكرِ وأكملها، ليستفاد ذلك من عبارته المستنتجة من مقدمة حاله، وما هي إلا رشحةٌ من رَشَحاتٍ تحقيقاته وكماله، فضمن ما تلفظ به من الحمد والثناء على المنعم سبحانه وتعالى، الثناء على الوسائط في نعمه المتواردة علينا ومِنَنه المتواصلة لدينا، فأثنى على الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام بما يتضمَّن أن جميعَ الأنوارِ السارية إلى الأولياءِ

---

(1) لذلك قال ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» وهذا كان أكثر دعائه كما روت عنه أم سلمة أم المؤمنين. رواه الترمذي في صحيحه برقم (3517) وقال: حديث حسن.

(2) كذا بالأصل.

مقتبَسَةٌ من مشكاةِ[1] أنوارِهم، كما أثنى على الأولياء بأنَّهم المختصُّون بإرث علومهم، والمستمدُّون من فيضاتِ أسرارهم، وخصَّ بالثَّناءِ بعد التعميم نبيّنا الرسول المصطفى الكريم إذ هو ﷺ الواسطةُ العظمى في كلِّ خير وكل سعادة، والمظهرُ الأكمل لكل فضلٍ وكل سيادة، ثم خصَّ هذا الشيخ الأكرم الوارث الأعظم إذ كان من فضل الله تعالى عليه أستاذه وإمامه وقدوته الذي ملكه قياده وألقى إليه زمامَه، فسَلَكَ لا محالة من طريق الشكر أكملها، وانتحى من مقاصده أجلها وأفضلها، وذلك مما ينبىء عن علوِّ رتبته في منازل الصالحين الأخيار، ويشير إلى رسوخ قَدَمه في مقامات المقربين الأبرار، إذ من أخلاقهم ﷺ شكرُ المحسِن إليهم على ما أسداه إليهم من الإحسان بالثناء عليه والدعاء له وإمحاضِ[2] الودِّ في السرِّ والإعلان، وذلك لتحقُّقهم بأوصاف الكمال ورسوخ أقدامهم في مقامات القرب والوصال، فلم تحجبهم رؤيةُ الوسائط من العبيد عما هم عليه من صفو اليقين وتحقيق التوحيد، فوفُّوا حقوقَ جميع المراتب، وقاموا أتمَّ قيامٍ بما لها في ذلك من القسط الواجبِ، جمعاً منهم بين الحقيقة والشريعة، وتخلُّقاً بالسنة الزكيّة الرفيعة.

وقد أشار في الحكم إلى الجمْع بين الشريعة والحقيقة في هذا المقام، فقال رحمه الله تعالى ورضي عنه: إن كانت عينُ القلبِ تنظرُ إلى أن الله واحد في منته، فالشريعة تقتضي أنه لا بدَّ من شكرِ خليقته اهـ. فعلم أنَّ على العبد وظيفتين في هذا المقام. الأولى: وهي عين الحقيقة: أن يشهدَ انفرادَ الله تعالى بالإنعام. والثانية: وهي عين الشريعة: أن يشكرَ من وصلَ إليه الإنعام على يديه من الأنام، وهذه حالُ أهلِ الكمال والخاصَّة العليا من الرجال. وقد ذكروا في «عوارف المعارف» أن المبتدي في حال ابتدائه ينفي الخلق ويرى الأشياء من الله تعالى، وذلك عند ما يطالع ناصية التوحيد ويخرقُ له الحجابَ المانع للخلق عن صرف التوحيد، فلا يثبت للخلق منعاً ولا عطاءً ويحجبه الحقُّ عن الخلق، فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكرُ الخلقَ بعد شكرِ الحقِّ ويثبت لهم وجوداً في المنع والعطاء، بعد أن يرى المسبِّبَ أولاً، وذلك لسعة علمهِ وقوّة معرفته، ويثبت الوسائط فلا يحجبُه الخلْقُ عن الحق كحالِ العامة، ولا يحجبُه الحقُّ عن الخلق كحالِ أربابِ الإرادات والمبتدئين، فيكون شكرُه للحقِّ لأنه المنعِم والمعطي والمسبب، وشكره للخلْق لأنَّهم واسطةٌ وسبب اهـ.

---

(1) المشكاة: المصباح.

(2) إمحاض الود: إخلاصه.

فالحالات ثلاث: الأولى: حالةُ أهلِ الغفْلةِ من العامة، وهم المحجوبونَ برؤيةِ الخَلْقِ عن الخالق جلَّ وعلا. فلا يرون المنعِمَ وإنما يرون من جرَتْ النعمة على يديه.

والثانية: حالة المبتدئين من أربابِ الإرادات، وهؤلاء لا يرون الخلْقَ جملةً وتفصيلاً بل لا يرون إلا الخالِقَ تبارك وتعالى.

والثالثة: حالُ أهلِ الكمال، وهم الموفون المراتب حقَّها حقيقةً وشريعة كما تقدَّم، وقد شرح هذه الحالات الثلاث بما يشفي ويكفي العارفُ بالله تعالى التاج ابن عطاء الله في آخر حكمه، ولا علينا أن نورِدَه بلفظه تتميماً للفائدة. قال رحمه الله تعالى: والناس في ذلك على ثلاثة أقسام: غافلٍ منهمك في غفلته قوِيَتْ دائرةُ حسِّه وانطمستْ حضرةُ قدسه فنظرَ الإحسان من المخلوقين ولم يشهَدْه من ربِّ العالمين، إما اعتقاداً فشِرْكه جليٌّ وإمّا استناداً فشِرْكه خفيٌّ، وصاحبِ حقيقة غابَ عن الخلْقِ بشهودِ الملك الحقِّ، وفني عن الأسباب بشهودِ مسبِّب الأسباب، فهذا عبدٌ مواجه بالحقيقة ظاهر عليه سناها سالك للطريقة، قد استولى على مداها غير أنه غريقُ الأنوار مطموسُ الآثار قد غلَبَ سكرُه على صحوه، وجمعه على فرقه، وفناؤه على بقائِه، وغيبتُه على حضورِه، وأكملُ منه عبدٌ شرب فازدادَ صحواً وغابَ فازدادَ حضوراً، فلا جَمْعُه يحجبه عن فرقه، ولا بقاؤه يصرِفُه عن فنائه، يعطي كلَّ ذي قسطٍ قسطَه ويوفِّي كلَّ ذي حقٍّ حقّه اهـ. وحالة هذا الأكمل هي التي أشار إليها كلامُ النَّاظم رحمه الله في هذا الافتتاح، وبه تعرف من منزلته مراتب الخير والصلاح إذ كلامُ الإنسان دليلٌ على حقيقته وعنوان.

وقد قال مولانا عليّ كرم الله وجهه: تكلَّموا تُعْرَفوا. وقال: عقلُ المرءِ مخبوءٌ من وراء لسانه، ففي افتتاحِه هذا رحمه الله تعالى إشارة إلى التعريف بنفسه بالطريقة المستحسنة عند أهل جنسه.

ولا يقال: إن كان قصدُ هذا الذي ذكرتم من الإشارة فهو من بقايا رعونات النفس الأمَّارة، إذ هو من قبيل إرادة الظهور، وهو عند أهلِ الله تعالى قاصمٌ للظهور. لأنا نقول: إنَّما يلزمُ ذلك على مَنْ أراد به التبجُّح والافتخار لا على من أوْرَدَه موردَ الفرح بالمنعم الجبار، وقد قال عزَّ من قائل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: الآية 11] وأيضاً قد ذكر الشيخ محيي الدِّين رضي الله عنه في الباب الثالث والعشرين من «فتوحاته المكيّة» أن الظهورَ كمالٌ للرسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، وكذلك لمن وَرِثهم في مقام الإرشاد للخلْقِ من الأولياء، وهو نقصٌ فيمن لم يكن من أهل الإرشاد منهم اهـ، ومقام النَّاظم رحمه الله تعالى مقامُ إرشادٍ للخلق، فافهمْ ذلك والله تعالى أعلم.

وفي هذا القدر كفايةٌ فيما قصدنا بيانه في هذه التتمَّات من النكت البديعة المتعلِّقة بكلام النَّاظم رحمه الله تعالى والفوائد المهمات، وفيه مما لم نُشِرْ إليه غير هذا من المستحسنات واللطائف والدقائق، ففيه الاقتباسُ في البيت الأول من قوله ﷺ في الحديث: «العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ» وهو أن يوردَ الشَّاعر في كلامِه آيةً من القرآن الكريم، أو حديثاً لا على أن ذلك منهما، ولذلك كان لا يضرُّ التغييرُ اليسيرُ فيه حسبما هو معلومٌ عند علماء الفنِّ كتغيير لفظٍ لنحوِ تَقْفيةٍ أو إيهامِ ما لا يصحُّ، ويصحُّ أن يكونَ ما هنا من الأول، وهو ظاهر، أو من الثاني. ووجهه أنه لما تقرَّر أن المراد بالعلماءِ في الحديث العاملونَ لا غيرهم صار لفظُ العلماء من غيرِ تقييدٍ بالعمل مُوهماً ما لا يصحُّ في مثل هذا المقام، فغيَّر لفظَ العلماءِ بلفظِ الأولياء لما ذكر، ويحتملُ أن يكون ما هنا من نقل الحديثِ بالمعنى، وهو وإن اختلفَ فيه فلا شك في جوازه في نحو الدُّعاءِ والثَّناء على الله تعالى كما هنا، بل لا شك في نقْلِ القرآن بالمعنى في نحو هذا المقام لاستعماله ﷺ لذلك في الصلاة وغيرها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ [الأنعام: الآية 79] الآية. وقال: «اللَّهُمَّ فَالِقَ الإصْباحِ وجاعِلَ اللَّيْلِ سَكَناً والشَّمْسَ والقَمَرَ حِسْباناً، احْفَظْ عَلَيَّ دِينِي وآمِنِّي مِنَ الفَقْرِ» فقولُ بعضهم: إنَّ ألفاظ القرآن لا تستعملُ في غيرِ التِّلاوةِ مطلقاً غير صحيح، راجع شروح الرسالة[1]، ونقل الحديث بالمعنى في نحو هذا المقام منصوصٌ على أنه مما يستحسن عند العلماء الأعلام، والله تعالى أعلم، وفيه براعة الاستهلال التي هي إشارةُ المتكلِّم في أوّل كلامه إلى ما انتحاه من قصده بذلك الكلام ومرامه، إذ مقصوده رحمه الله ذكر ما يتعلَّق بهذا الورد المحمديّ الكفيل لمن تعلَّق به على طريقة التعبُّد وإخلاص الوجهة إلى الله بالوصول إلى درجة الولاية والحلول في مقام الوراثة بفَضْلِ الله.

وَثَمَّ أُمُورٌ لَيْسَ يُمْكِنُ كَشْفُهَا ... هُنَا قَلَّدَتْنِي عَقْدَهُنَّ شَرَائِعُ

ثم قال النَّاظم رحمه الله تعالى:

(ثُمَّ عَلى الفاتِحِ ما قَدْ أُغْلِقا ... ومَنْ بِهِ خَتمٌ مَنْ قَدْ سَبَقا
أزْكى صَلاةٍ وسَلامٍ وعلى ... أَصْحابِهِ وآلِهِ ذَوِي العُلى)

العاطفة للترتيب مع المهلة[2]، وأتمَّ بها النَّاظمُ رحمه الله تعالى هنا تبعاً لغيرِه من فحول

---

(1) الدعاء من الآية: 96، من سورة الأنعام ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾.

(2) المراد «ثمّ» وهي تدل في عطفها على الترتيب مع التراخي في الزمن، وهي تقابل الفاء التي تدل على الترتيب ولكن مع التعقيب.

العلماءِ كالزين العراقي وغيره، للإيذانِ بأنه لم يقتصِرْ من حمد الله تعالى والثَّناء عليه سبحانه على ما ذكره، بل زادَ على ذلك، فتلفَّظ منه بغيرِ ما رَقَمه قبلُ، وسطر. و (الفاتح) من أسمائِه ﷺ، وكذا الخاتم.

سُمِّي فاتحاً لوجوه: منها: أن الله تعالى فَتَحَ به البصائرَ للإيمانِ والمعرفة بالله. ومنها: أنه تبارَكَ وتعالى فتحَ به أبوابَ الرَّحمة على الخلق عموماً وعلى المؤمنين خصوصاً، وهذان الوجهان أنسبُ بالمقام، ومحل استيعاب الوجوه الباقية في معنى هذا الاسم الشريف في شرح الياقوتة الفريدة، وهي: صلاة الفاتح لما أغلق إلخ، والمرادُ بـ(من قد سبق) في كلام النَّاظم رحمه الله تعالى الأنبياء والمرسلون عليهم الصَّلاة والسَّلام، وخاتمهم هو نبيّنا ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: الآية 40] ومعنى خاتم النبيين خاتم نبوَّةِ النبيين: أي علامةُ تمامِها وخاتم بيتها، فلا ينبأ أحدٌ بعده، أو الذي بعث آخرهم فلا نبيَّ بعده، والمعنيان بحسب ضبْطِ تاءِ «خاتم» وهما متقاربان، وقد مثَّل ﷺ النبوَّة ببيتٍ قد كمل إلا موضِعَ لَبِنَةٍ واحدة، وأنه ﷺ هو تلك اللَّبنةُ فقال ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ بَيْتاً وأَحْسَنَه فأكْمَله إلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَتَعَجَّبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلاَّ وُضِعَتْ هٰذِهِ اللَّبِنَة، قال: فأَنَا اللَّبِنَةُ وأَنَا خاتَمُ النَّبِيِّينَ»[1] اهـ.

وقد مثَّلوا النبوَّة بدائرةٍ ألفت من نقطٍ ووجودُ النقطةِ الأخيرة هو المتمِّم لصورة الدائرة والمظهر لحقيقتها بجميع أوصافِها انتهى.

و(أزكى صلاة) أنماها وأبركها (وسلام) معطوفٌ على صلاة: أي وأزكى سلام وأنماه وأبركه، و(الأصحاب) جمعُ صاحبٍ غير مَقِيسٍ، أو هو جمعٌ لصَحْب الذي هو اسم جمعٍ له أو مخفَّف منه، والمرادُ: وصحابته ﷺ (والآل) تقدَّم، (وذوي العلى) أصحابُ العلا بالضم جمع علياء، تأنيث «الأعلى» أو بالفتح ممدود أي الشرف، وهو أي قوله: «ذوي العلى» على كلا المعنيين راجعٌ لكلٍّ من الآل والأصحاب رضي الله عنهم أجمعين، إذ لا شك أن الجميع ذوو سوددٍ وشرف ومراتب في الفضل شامخة لا تدرك غايتها ولا تعرف، وأتى النَّاظم رحمه الله تعالى بالصلاة والسلام على النبي ﷺ بعد الثَّناءِ على الله تعالى قصداً للتبرُّك فيما أدركَ الشروع فيه رجاءَ حصولِ إكماله وإتمامه وبلوغ غَرَضِهِ فيه وغاية مرامه، ولذلك أتى في صلاته بالوصفين الشريفين: الفاتح والخاتم، إذ في إتيانه بهما في هذا المقام

(1) رواه البخاري في (المناقب: 18)، ومسلم في (الفضائل: 20)، وأحمد: 2/ 257، 398.

تعريض منه باستمدادِه الفتحَ فيما قصد الشروع فيه، والإعانة على الإتمام من حضرة الموصوف بهما، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، مع ما في ذلك من ملاحظة وساطته واستحضار على قدره عند الله تعالى وعظيم كرامته، ولا محالة أن طالعة هذه المنظومة المباركة كغيرها من طوالع المنظومات العلمية جارية مجرى الخُطَب، ومن لازَمَ الخطب ذكره ﷺ فيها مع ذكر ربّه عزَّ وجل حسبما تقدَّمت الإشارة إليه، قد قال قتادة في قوله جلَّ ثناؤه ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: الآية 4] : رفع الله قدْرَ نبيّنا ﷺ في الدُّنيا والآخرة، فليسَ خطيبٌ ولا متشهِّدٌ ولا صاحب صلاة إلا وهو يقول: أشهد أن لا إلّه إلاّ الله، وأشهد أن محمَّداً رسول الله، أي يذكُره ﷺ مع ربّه عزَّ وجل، سواء في لفظ التشهُّد فيما لا يكفي فيه غيرُه، أو بالصلاة عليه ﷺ بعد الثَّناء على الله تعالى فيما يكتفى فيه بذلك كما في طوالع هذه المنظومات، فإنهم وإن أجروها مجرى الخطب لا يأتون فيها بلفظ التشهُّد، وذلك لأن النظمَ مبنيٌّ على الاختصار والإيجاز، وهو عند المحققين محلٌّ للاكتفاء بالإيماءات والتلميحات التي تكاد تلتحقُ بالرموز والألغاز، على أن من العلماء من ذكر أنه يكتفى بحصولِ معنى التشهد حتى في النثر في غير خطبة النكاح، وجعل حديث أبي داود: «**كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشَهُّدٌ فَهِيَ كَالْيَدِ الجَذْمَاءِ**»[1] خاصًّا بخطبة النكاح.

وتخيَّر النَّاظمُ لفظَ الصلاة التي أتى بها هنا لما ذكرناه من التعريض بالاستمداد من حضرته ﷺ بذكر الوصفين الشريفين أيضاً، لأنها مقتطعة من صلاة الفاتح لما أغلق، التي هي أحدُ الأذكارِ القائم منها هذا الورد الموضوع فيه هذه المنظومة مع كثرة ترغيب سيدنا الشيخ رضي الله عنه فيها وإشادته لفَضْلها، ففي تخيره للألفاظ المقتطعة منها محافظةٌ على اتباع القدوة، وقد علم ما فيه من الخير والبركة والسر. وعبر رحمه الله تعالى في الفاتح لما أغلق بما لإرادته بصائر أهل المقامات العرفانية وأبواب الرحمة الربانيّة. وعبر في قوله: (ومن به ختم من قد سبق) بمن لإرادته النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهو اقتصار منه رحمه الله تعالى على ما يدلُّ على بعض معاني الخاتم لما سبق الذي هو لفظ الصلاة المقتطع منها هذه، ولعلَّ ذلك قصدٌ منه رحمه الله تعالى للإتيان بما يدلُّ على مجرَّد التوحيد رَعْياً لمناسبة المقام[2] والله أعلم.

[تنبيه] قد ذكر العلماء في حكمة كونه ﷺ خاتم النبيين والمرسلين أوجهاً: منها: أن

---

(1) رواه الترمذي في (النكاح: 17)، وأبو داود في (الأدب: 18)، وأحمد: 2/ 302، 343.

(2) رعياً لمناسبة المقام: أي مراعاةً.

يكون الختمُ بالرَّحمة، إذ هو ﷺ نبيُّ الرحمة وجميع الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام خُلِقُوا من الرَّحمة، ونبيّنا ﷺ هو عينُ الرَّحمة. ومنها: إرادة الله تعالى أن لا يطول مكثُ أمّته تحت التّراب إكراماً لها بسببه ﷺ. ومنها: أن لا تنسخ شريعته ﷺ، بل من شرفها نسخها لجميع الشرائع، ولهذا إذا نزل سيّدنا عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام في آخر الزمان إنما يحكم بها اهـ.

وقد علم من حديث: «مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ فِي كِتَابٍ» الحديث المتقدّم فضلُ الإتيان بالصلاة عليه في مثل هذا المحل. وذكر غير واحد من العلماء الأعلام عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه رُؤي بعد موته في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غَفَر لي وفعل بي وفعل، وذكر خيرات كثيرة. فقيل له: بمَ ذلك؟ قال: بقولي في خطبة الرسالة، وذكر الصلاة التي صلى بها على النبي ﷺ في خطبته من كتاب الرسالة.

ثم قال رحمه الله:

(وبعد فذا فشيخنا التجاني أوراده منقزة للجاني)

الإشارة بـ(ذا) إلى ما تقدَّم من الحمد والصَّلاة على النبي ﷺ، و(الشيخ) تقدَّم معناه لغةً وعرفاً، وباعتبار المعنى العرفي قسم الشيخ زروق رضي الله عنه الشيوخ إلى ثلاثة:

شيخ التعليم: وشروطُه ثلاثة: تحصيلُ عقْدِ الباب المتكلِّم فيه، والقدرة على الإلقاء بلا تقصيرٍ، والإنصاف في القبول والردّ.

وشيخ التربية: وشروطُه ثلاثة: علم المعاملاتِ ظاهراً وباطناً، والبصيرة النافذة، والتجربة الحاصلة.

وشيخ الترقية: وشروطُه ثلاثة: البصيرة النافذة، والنور التامّ، والهمَّة العالية، فبالبصيرة يميز وبالنورِ يمدّ، وبالهمّة يرفع ويحطّ، كما أن شيخ التربية بالعلم يربّي، وبالبصيرة يرقى، وبالتجربة يحقق اهـ.

وقد تجتمع الثلاثة في واحد، وهو نادر في هذا الزمان لتقاصُر الهِمَم وضعف الاستعدادات ومن الأصل في التربية بالهمَّة التي هي وظيفة شيخ الترقية حديث أنس رضي الله عنه: «خَدَمْتُ رَسولَ الله ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صَنَعْتُه لِمَ صَنَعْتُه، وَلاَ لِشَيْءٍ تَرَكْتُ لِمَ تَرَكْتُه» الحديث، ولا يشك منصف في اجتماع الثلاثة في شيخنا رضي الله عنه حسبما يحققه النظر في سيرته والاستقصاء للأخبار المتعلِّقة بأحواله في دلالته على الله تعالى وتربيته، وجمع

الضمير المضاف إليه الشيخ اعتباراً بدخول أهل طريقته معه رجاءَ أن يحقق الله إليه هذه الإضافة بسببِ شمولِ الضمير له معهم فيرحم بسببهم.

و (التجاني) بكسر المثناة مشددة وبالجيم المشددة أيضاً وقد تخفف، كذا كان يضبطه النَّاظمُ رحمه الله تعالى، وسيأتي بيان وجْهِ هذه النسبة لسيدنا الشيخ رضي الله عنه. و (الأوراد) جَمْعُ وِرْدٍ، وهو، أي الورد عبارةٌ، عما يقعُ بكَسْبِ العَبْدِ من عبادةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ، فهو ما من العبدِ للحقِّ تعالى من معاملةٍ، أي وعبودية.

وحقيقةُ الأوراد: عقودٌ وعهودٌ أَخذَهَا الله تعالى على عباده بواسطةِ المشايخ، فمن يجل المشايخ وحافظ على العقود ووفَّى بالعهود كان له خيرُ الدارين، ومن تهاوَنَ بالمشايخ وفرَّط في العقود والعهود كان ذلك سبباً لزيغه وخرق سفينته، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: الآية 1] [وقال:] ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: الآية 3] [وقال:] ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: الآية 23] وهذه الآيات الثلاث هي أصولُ الأورادِ من لدن زمان النبي ﷺ إلى يومنا هذا اهـ. انظر «الجيش الكبير»، وانظر قول المنقول عنه فيه، وهذه الآيات الثلاث إلخ، فإن في القرآن العظيم آيات أُخر دالَّة على ما دلَّت عليه هذه، والله تعالى أعلم.

والمرادُ بالأوراد في كلام النَّاظم رحمه الله تعالى أورادُ الشيخ رضي الله عنه التي أمره النبيّ ﷺ أن يلقِّنها لكافة الخلقِ حسبما يأتي مبسوطاً، إن شاء الله تعالى.

وللشيخ رضي الله عنه في خاصَّة نفسِه أورادٌ كثيرة من أذكار السنة والأحزاب والأدعية، منها: ما هو في الصباح والمساء، ومنها ما في دبر الصلوات، ومنها: ما هو في عموم الأوقات، والكلُّ بترتيب النبيّ ﷺ له رضي الله عنه لما ثبتَ عنه من أنه كان يقول لا أذكرُ إلا ما رتبه لي ﷺ، وإنَّما حملنا الأورادَ في البيت على الأوراد اللازمة في الطريق فقط لدلالة سياق الكلام على ذلك، ولأن الناظم إنما هو موضوع للازمِهِ وما يتعلَّق بها لا غير. و(منقذة للجاني) إخبارٌ عن الأوراد، ومنقذ اسم فاعل «أنقذه» إذا خلَّصه من الهلاك بعدما أشْفَى عليه، والجاني: المسرِفُ على نفسِه المنهمِكُ في سوء كسْبه. يقول: وبعد ما تقدم من حَمدِ ذي الجلال والصلاة والسلام على الفاتح لأبواب الرحمة والسبب الأعظم في كلِّ عطاءٍ ونوالٍ خاتم الأنبياء والأرسال ﷺ، فشيخنا الشيخ الأكبر القطب المكتوم الأشهر مولانا أبو العباس التجاني رضي الله عنه. (أوراده) أي أذكارُ طريقته اللازمة لمن أهَّله الله لها بسابق عنايته منقِذةٌ للجاني المسرف على نفسه بانهماكه في غوايته ومخلِّصة له بإذن الله من أسْرِ شهوته وشراك غفلتِهِ، لأن التعلُّق بها على الحَدِّ المحدود لها مستلزمٌ بحول الله تعالى للتوبة

وصلاح الحال المنجّي بفضل الله تعالى من وخامة المرْتَعِ[1] وسوء الحال. وأشارَ به إلى ما برز للشيخ ﷺ من حضرة سيد الوجود ومنبع كلِّ أفضلِ وجود ﷺ من الوعد الصادق بأنها، أي الأوراد المذكورة، موصلةٌ إلى الله تعالى من غير رياضة ولا مجاهدة ولا كدٍّ ولا تَعَبٍ ولا غير ذلك، مما اصطلح عليه في التربية من بعد الصدر الأول، بل بمجرَّدِ التلقينِ ممن عندَه الإذن الصحيح في تلقينها مع القيام بشروطها لا غير.

وقد تقدَّم لنا ما له تعلق بهذا، وسيأتي بعض مزيد عليه أيضاً إن شاء الله تعالى، فهي الأورادُ بهذه المثابة لا محالة منقذة للجاني من أسْرِ شهوته ومن حجابية غفلته، وبذلك تكون منقذةً من النَّار بفضل الملك الجبار الذي له كمال الاقتدار، وكان الله على كل شيء مقتدراً، وكأن النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قصَدَ في تعبيره «بمنقذة» التلميح إلى قوله في «الحكم العطائية»: من استغربَ أن ينقذَه الله من شهوتهِ وأن يخرجَه من وجود غفلته فقد استعجزَ قدرة الألوهية، وكان الله على كلِّ شيء مقتدراً.

قال الشيخ أبو عبد الله بن عباد ﷺ: من اسْتَرقَتْه الشَّهوةُ واستولَتْ عليه الغفلةُ فلا ينبغي له أن يستغربَ أن ينقذَه الله من أسْرِ شهوته، وأن يخرِجَه من وجودِ غفلته لما يشاهد من استحكام ذلك فيه، فإنَّ فيه نسبة العجز إلى القدرة الإلّهية، والله تعالى متَّصفٌ بالاقتدارِ على كلِّ شيء، وهذا من الأشياء. وليعلم العبدُ أن قلوبَ العباد ونواصيهم بيدِهِ سبحانه، فلا يقنطْ ولا ييأسْ، وليقصدْ بابَ مولاه بالذلِّ والافتقارِ يسهلْ عليه ما استصْعَبه ويظهر فيه ما استغربه. وكأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أرادَ بهذا الإيماءِ الحسنِ والتلميح المستحسن التنبيهَ على ما تضمنته هذه الحكمةُ، ليكون له كالدليل على ما ذكره، فإن كثيراً من الجهلة ومن لا تحقيق عندَه يستغربُ أن يكونَ ذكْرُ هذا الوردِ المشتملِ على هذا العددِ اليسيرِ منقذاً من ذلك الخَطْبِ الخطيرِ، وذلك من جهله بمزية الأورادِ والخصوصية المودعَةِ في التلقين من خواصِّ العباد، وخصوصاً في هذا الورد الشريف الذي صدَرَ عن إذنِ الحضرة المحمديّة وتولَّتْ نظمَ جواهرِه ويواقيته يدُ الذاتِ المصطفوية عليه من الرب العظيم أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ومرادُ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ذكر فائدة هذا الورد وبيان ثمرتهِ والإفصاح عن مزيته العظمى وخصوصيته ليعلم من ذاك أهمية التأليف في بيان حقيقته، وبه يعرفُ أنه من الأعمال الصَّالحات التي لا تنقطع نتيجتُها بالممات، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى وجزاه خيراً. ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

---

[1] المرتع: المكان الذي ترعى فيه الماشية، من الفعل (رتع). والوخامة: النتن والفساد. وهذه العبارة كناية عن سوء الحال.

(وهَاكَ نَظماً يَكْشِفُ الحَقِيقَةْ فِي وِرْدِهِ اللاَّزِمِ لِلطَّرِيقَةْ
جَعَلَنَا إِلَهُنَا مِنْ أَهْلِهَا بِجَاهِ مُنشِيهَا وجَاهِ فَضْلِهَا)

(هاكَ) معناه خُذْ[1]، و(النظم) في اللّغة: الجَمْعُ. وفي الاصطلاحِ: كلامٌ موزون قَصْداً مرتبط معنًى وقافيةً، والمراد هنا المعنى الاصطلاحيّ، وهو فيه من إطلاق المصدر على المفعولِ كنَسْجٍ على «منسوج» ونثر على «منثور»، والمراد بـ(الحقيقة) هنا الماهيةُ، وما يتعلّق بها من اللوازم والشروط المعتبرة لها صحةً وكمالاً وغير ذلك، و(الوِردُ) تقدَّم معناه، والضمير راجع للشيخ ﷺ، والمراد الورد الذي رتَّبه له النبي ﷺ وأمره بتلقينه لكافَّةِ الخلْق حسبما حملنا عليه قوله: «أوراده منقِذةٌ للجاني» في البيت قبله، ولذلك وصَفَه بقوله (اللازم للطريقة): أي الذي لا يصحُّ الدخولُ في طريقة الشيخ ﷺ بدونه ولا يسعُ أحداً ممن دخَلَها تركه ولو مرَّةً في العمر، فمن فاته في الوقت المعلوم يبقى مخلداً في ذمته، لأنه صار واجباً بالالتزام والعهد والنذر. قال العلماء: ولا قائل بعدم قضاء الالتزام والنذور شريعة وحقيقة اهـ. انظر «الجيش الكبير».

وأهل الطريقة الذين طلب النَّاظمُ أن يجعله الله تعالى منهم هم الذين سبقَ العلم في الأزل القديم بأنهم أهلُها الذين يختم لهم عليها وأمر الخواتم غيب فلا يقال: إن طلبه ذلك من تحصيل الحاصل، فافهم ذلك والله تعالى أعلم. وأتى ﷺ تعالى في قوله: (جعلنا إلَهنا) بنون العظمة إما لإرادته إدخال غيره من إخوانه معه عملاً بما هو المطلوب من التعميم في الدعاء، وبما ورَدَ من أن دعوة المَرْءِ المسلم لأخيه بِظَهْرِ الغَيْبِ مستجابة[2]، وأن عند رأسه ملكاً كلَّما دعا لأخيه بخيرٍ قال: ولك مثل ذلك[3]، الحديث الذي رواه البخاري في الأدب، وإما لإرادته إظهار نعمةِ الله عليه بأن أهَّله للعلم النافع عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: الآية 11] وفي هذا إشارة إلى جواز التعاظم بالعلمِ حسبما قاله غيرُ واحدٍ في مثله، وقد جاء في الأثر «ليس منا من لم يتعاظم بالعلم» اهـ.

---

(1) هاكَ: اسم فعل أمر، وليس له فعل متصرف.

(2) تقدم الحديث قبل هذا مخرجاً.

(3) وروى مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكَّلٌ كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكّل به: آمين، ولك بمثل». رواه مسلم برقم (2733).

وعن مولانا علي ﷺ: لا يحلُّ لأحدٍ الفَخْرُ إلا للعالم بعِلْمِهِ اهـ ذكره بعض شراح الرسالة. وقد علمت أن العلمَ عند المحققين حيث أطلق فالمرادُ به العلمُ النافع المقرون بالخشية، ومنه يعلم أن ليس المراد بالتعاظم رؤية النفس مرتفعة على الغير محتقرة له، فإن هذا منهيٌّ عنه نَهْيَ تحريم بإجماع المسلمين. قال الشراح في معنى الحديث المتقدم: أي ليس منا من لم يعتقدْ أنَّ الله جعله عظيماً بالعلم، حيث جعله محلاً له وموصوفاً به، ولم يسترذله بحيث يحظره عليه ويمنعه منه، لأنه وَرَد في الحديث: «إِذَا اسْتَرْذَلَ الله عَبْداً حَظَرَ عَلَيْهِ العِلْمَ والأدَب» اهـ.

وحاصلُ هذا الذي ذكروه أن المراد بالتعاظُم شهودُ المِنَّةِ من الله تعالى حيث أهَّله لما حَظَره على كثير من أمثاله مع عدم استشعار احتقارِ من حظر عليه ذلك، بل يعتقد في نفسه أنهم أفضلُ منه من جهة قيام حجَّة الله عليه بما علمه دونهم، وحينئذٍ لا يزدري نعمة الله عليه ولا يفتخر بشيء عساه أن يكون حُجَّةً عليه عند الله تعالى، وليحذرْ كلّ الحذرِ من رؤية النفس ولحظها بعين الكمال، ومن إقرارِها على دعوى العلم لما يؤدي إليه ذلك من المقْتِ والعياذ بالله تعالى.

ومن كلام سيدي علي الخوَّاص ﷺ: إيَّاك أن تقرَّ النفس على دعوى العلم فمن أقرَّها على ذلك، فقد أقرَّها على العجب والفخر، ولا يخفى ما فيهما من المقت اهـ. وقوله: (منشيها) هو بتسهيل الهمزة للوزن، والضمير فيها للطريقة المذكورة، ومنشيها هو النبي ﷺ إذ هو الذي رتَّب للشيخ أورادَها وأمَرَه بتلقينها ونَسَبها لنفسه ﷺ. و(فضلها) هو ما خصَّها الله به من الشرف التام، وكفى في ذلك نسبتها بالوجه الأخصّ إلى حضرته عليه الصلاة والسلام. يقول ﷺ تعالى: ومن أجلِ أن أورادَ شيخنا ﷺ وأرضاه منقذةٌ ومخلصة للجاني بفضل الله تعالى من أسر شهوته واتباع هواه خذ أيها المخاطب نظماً أي كلاماً منظوماً يكشف لك الحقيقة في وِرْده ﷺ الذي هو عنده لازمٌ للطريقة جعلنا إلَهنا الملك المعبود ممن سبق في علمه القديم أنه من أهلها الذين يختم لهم عليها بمحْضِ الكرم والجود بجاه منشيها، وقدوتها العظمى الذي إليه مرجع سندها ومن فيضه الخاصّ مادة مددها وجاه فضلها الذي اختصتْ به ببركة عنايته ﷺ ووصل حبلُها بسببه، وإنَّما توسَّل النَّاظمُ ﷺ تعالى بجاهه ﷺ لأنه أعظم جاهٍ توسَّلَ به المتوسلون إلى الله عزَّ وجل، ويروى: «تَوَسَّلُوا بِجَاهِي فإنَّ جاهِي عندَ الله عَظِيم»، وقد قالَ ابن عباس رضي الله عنهما: لم يخلق الله جاهاً أعظمَ من جاه نبيِّنا ﷺ. والتوسلُ بفضلِ الطريقة توسُّل في الحقيقة بمشرفها، إذ من حضرته برزتْ وعلى يدِه ظهرتْ ﷺ.

ولمَّا جرتْ عادة العلماء العاملين من المؤلفين والمصنِّفين أن يشيروا في أول تآليفهم وتصانيفهم إلى الترغيبِ فيها والحضّ عليها قياماً بحقِّ النصيحة المطلوبة في الدين أشار الناظم رحمه الله تعالى إلى مَحْضِ ذلك فيما جعله كالتوْطِئةِ لما قصَدَه من وضعِ الترجمة لمنظومته والتسمية فقال رحمه الله تعالى:

(لما سلَكْتُ مَسلَكَ التَّحْقِيقِ فِيهِ وأُسرِجتُ دُجى الطَّرِيقِ
سَمَّيتُهُ بِمُنيَةِ المُرِيدِ آخِذَ وِرْدِ شَيخِنا السَّدِيدِ)

أتى في هذه الجملة بـ(لما) إشارةً إلى أنه قصد موافقة القسم للمسمَّى، والضمير في (فيه) راجع للنظم المذكور، و(الإسراج) الإصباحُ، و(الدُّجىٰ) معروف. و(الطَّريقُ) المراد بها هنا هذه الطريقة السنية الموضوع فيها هذا النظم، و(المريد) المراد به هنا الداخلُ في هذه الطريقة على طريق الإرادة، ولذلك بيَّنه بقوله: (آخذ ورد شيخنا) إلى آخره (والسديد) نعتٌ للورد. ووصَفه به لما جمع من معاني السداد التي هي القصد والصواب والصدق والعدل والاستقامة.

يقول: لما سلكت في هذا النظم مسلكَ التحقيق لمسائله، والإتقان لها روايةً ودرايةً مع التحرير لأصوله ودلائله، وأسرجْتُ فيه بالإيضاحِ ما كان من مسائلِ الطريق مظلماً، وبيَّنت وجْهَ الحقّ فيما كان من بعض العبارات مبهماً أو مُوهِماً سمَّيْتُه وترجمته «بمنية المريد» آخذ هذا الورد المحمدي السديد. وفي قوله: (لما سلكت) البيت من المدح لنَظْمِه الفائق ما لا يخفى ببادىء الرأي على الأريب الذائق، وبما سلكه فيه من التحقيق وأوضحه من معاني الطريق، وافق الاسم مسمَّاه، وبلَغَ سهْمُ القصدِ منه مرماه، وفيما ذكره أيضاً من سلوكه في نظمه مسلك التحقيق إلى آخره إشارةٌ إلى موجب نَظْمه لهذه المنظومة المباركة لأن تحقيق المسائلِ وتحرير ما لها من الأمور والدلائل معدودٌ عند العلماء في الفوائد التي لا يدخلُ تأليفٌ في العلم الذي ينتفع به بعد الموتِ إلا باشتماله على بعضها.

ثم قال رحمه الله تعالى:

(لَوْلاَ مَخَافَتِي التَّطْوِيلْ لَجِئْتُ لِلْمَذْكُورِ بِالدَّلِيلْ
لَكِنَّنِي أَرْجُو مِنَ المُهَيْمِنِ تَسْهِيلَ شَرْحٍ لِلنِّظَامِ حَسَنِ
فَعِنْدَ ذَا تَقِرُّ بِالتَّصْدِيقِ لِمَا ذَكَرْتُ لَكَ بِالتَّحْقِيقِ)

(المخافة) هنا: الخوف، و(التطويل) المرادُ به هنا بسطُ المسائل وجب ما يتعلّق بها من الشواهد والمستندات والدلائل، لا الإطناب الذي هو الخروجُ عن حدِّ الاعتدال،

و (المذكورُ) المراد به المسائل المذكورة في هذا النظم من أوّله إلى آخره، و (الدَّليل) المراد به هنا الأنقال التي تشهد لصحَّته وثبوتِه شريعة وطريقة. و (الرجاء) ضد الخوف، وهو من مثل الناظم مظنّة لأن لا يخيب لصدق نيّته وعلوّ همّته، و (المهيمن) من الأسماء الحسنى، قالوا: معناه الشاهد الذي لا يغيب عنه شيء. وقال الخليل وأبو عبيدة: هَيْمَنَ يُهَيْمِن فهو مُهَيْمِن إذا كان رقيباً على الشيء هذا أصلُه عندهما[1]، وقيل فيه غير ذلك، وقال ابن الأنباري: المهيمن القائم على خَلْقِه برِزْقه، وأنشد:

الا إنَّ خَـيْـرَ الـنَّـاسِ بَـعْـدَ نـبـيِّـه   مُـهَيْمِنه التاليه في العُرْفِ والنُّكْرِ

قال: معناه القائم على الناس بعده اهـ انظر «مفاتيح الغيب» عند قوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: الآية 23] وعند قوله سبحانه: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: الآية 48]. وفي بعض شروح أسماء الله الحسنى معناه الرقيب والحفيظ على كل شيء بعلمه وحكمه وقدرته. قال: وحظُّ العبد منه الإذعان لحُكمه تبارك وتعالى والمراقبة له سبحانه في جميع الحركات والسكنات ظاهراً وباطناً تحققاً منه بإحاطته به علماً وقدرةً وحكماً انتهى.

و (التسهيل) التيسير، سهَّل الله الأمرَ: يسَّره، و(الشرح) معروف، و(النظام) النظم المذكور، و(حسن) المراد به هنا مفيد جدًّا والإشارة بذا من قوله: (فعند ذا) إلى تسهيل الله تعالى في وضع شرح، و(تقر) من الإقرار، وهو الاعتراف والإذعان والتصديق، من صدقت فلاناً، أو القول نسبته للصدق، و(ما) من قوله: (لما ذكرت لك) إلى آخره واقعةٌ على جميع المذكور في النظم. يقول: لولا أني خِفْتُ وخشيت أن يفضي بي البسْطُ والتقرير لما أشرت إليه في البيتين قبلَ هذا من التحقيق والإيضاح والتحرير إلى التطويل الذي لا يحتملُه المقام ولا تسعه دائرة النظام، لأتيتُ لجميع ما ذكرته وحققته من المسائلِ وبيَّنته بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة. أي النصوص التي تشهد له والأنقال التي تسفِرُ عن وجوهِ مآخذِه ومستنداته شريعةً وحقيقة، وتبيِّن أصله، لكن لما كان التعرض لذكر تلك النصوص واستخراج ما فيها من السرِّ المصون محله الشروح لا المتون، فإنَّني أرجو وآملُ من فضل الكريم الذي لا تخيبُ إليه الآمال، المهيمن الكفيل لعباده بجزيل النوال، أن يسهل بمَنِّه علي في شرحٍ لهذا النظام حسن مفيد مشتملٍ على جميع وجوه الكمال والتمام، فبسبب التسهيل من الله تعالى لما ذكر تقرُّ وتذعنُ أيّها المتشكِّك أو المنكر معترفاً ومصدِّقاً، أي تصديق لجميع ما ذكرته لك في هذا النظم على التحقيق، ويحتمل أنه طلب من الله

---

(1) كذا في اللسان (هيمن).

تعالى تسهيلَ وضْعِ الشرح على يدِه لا على يدِ الغيرِ، وهو الأنسبُ الصادق بحال الحريص على الخير، ويحتمل أن يكون طلب ذلك مفوضاً فيه إلى مولاه فلا عليه أن يحصل على يده أو يدِ من عداه، وهو الأقرب لتحقيق منزل الإخلاص، لما فيه من التفويض وطلب الخيرة من الله تعالى، كما هو شأن العبيد الخواصّ. ويؤيّد هذا الاحتمال، بل ربما أفاد أنه المتعين إتيانُه رحمه الله تعالى في طلبه بالاسم المهيمن إذ التحقُّق بمعناه الذي هو إحاطته تعالى بالعبد علماً وقدرةً وحكماً موجبٌ للعبد خروجه عن جميع صفات نفسه خروجاً جزماً، وبسبب ذلك ينسلخُ عن جميع تدبيراته في كلِّ جليل وحقير، ويكتفي بالتدبير والاختيار ممن هو على كل شيء قدير، وإلى هذا فهذا العبد الحقير يسأل بلسانِ التضرُّع والاضطرار من فضل مولاه العلي الكبير أن يجعل هذا التقييد في دعوة النَّاظم رحمه الله تعالى ويديم به النفعَ الكثير، إنه سبحانه وتعالى بالإجابة جدير آمين.

[تنبيه] الخطاب في مثل قول النَّاظم رحمه الله تعالى: «لولا مخافتي» إلى آخره، خاصٌّ بدرجة الفقيه لا الفقير الموفّق. قال الشيخ أبو الفيض سيدي زروق رضي الله عنه: الموفق من يقبل الحقَّ بلا دليلٍ ولا يقبلُ الباطلَ، وإن قامَ عليه ألفُ دليل، كأبي بكر رضي الله عنه لما دعي أجابَ بلا تردُّد، والفقيه من يقبلُ الحقَّ بالدليل، ولا يقبلُ الباطلَ بحالٍ، والمنافق من يقبلُ ما يلقى إليه بغيرِ هُدًى من الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البَقَرَة: الآية 14] الآية اهـ كلام الشيخ زروق. وعليه فيكون الناظمُ رحمه الله تعالى احتاج إلى اعتذارٍ عن عدم إتيانه بالدليل رَعْياً لجانبِ المتشكك أو المنكر لعلوم الطريق، كما قررناه به، لا لمن عداهم من المريدين الصادقين المصدقين الموضوع هذا النظم تذكرةً وتبصرة لهم، فافهم ذلك، والله الموفق.

ثم إنَّ النَّاظم رحمه الله تعالى لما ضمَّن هذه الأبيات الثلاثة والبيتين قبلَها مدْحَ منظومته هذه بما يؤذنُ بجمعها لجميعِ وجوه الحُسن والكمال، وكان شأنُ النفس أن تستشعرَ التعاظمَ والتفاخر بما ينسب إليها من ذلك في ظاهر الحال، أتى بما يشعِرُ بتحقيقه بوصف عبوديته ويشير إلى ما هو عليه في حقيقته من قصوره وعجزه وضعفه وزلته سالكاً في ذلك طريق التدلي من حالِ أهلِ التعريفِ إلى حال أهل التكليف، فقال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

(هـذَا مَـع الـعِـلْـمِ بِـأَنِّـي لَـسْـتُ	أَهْـلاً لِـذَا وَأَنَّـنِـي اسْـتَـهْـدَفْـتُ
لَـكِـنَّـنِـي أَرْجُـو مِـنَ الـلَّـطِـيـفِ	حِـفْـظِـي مِـنَ الـخَـطَـا والـتَّـصْـحِـيـفِ
وأَنْ يَـكُـونَ ذَا الـنِّـظَـامُ سَـبَـبَـا	إِلَـى ارْتِـقَـاءِ دَرَجَـاتِ الـنُّـجَـبَـا)

(**استهدف**) صيَّر نفسه هدفاً، أي نصبها غرضاً. إذ الهدفُ الغرضُ، وأهْدَفَ واستهدف: انتصبَ، وقولهم: من صنَّف فقد استهدف، أي انتصبَ كالغَرَضِ يُرْمَىٰ بالأقاويل اهـ. انظر «المصباح». و (**اللطيف**) من أسمائه تبارك وتعالى، و (**الخطأ**) ظن الشيء على غير ما هو عليه، و (**التصحيف**) التغيير، و (**السبب**) الحبل، وهو ما يتوصَّل به إلى الأعلى، ثم استُعير لكلِّ شيءٍ يتوصَّل به إلى أمر من الأمور، فقيل: هذا سببٌ عن هذا وهذا مسببٌ عن هذا اهـ «مصباح». و (**النجباء**) جمع نجيب، وهو من نَجُبَ بالضم نَجابةً، فهو نجِيبٌ والجمع نُجَباء، مثل كريم وكُرماء وزناً ومعنًى اهـ منه أيضاً، والمراد بالنجباء هنا العارفون الواصلون المخصوصون بكمال الشهود، إذ هم أكرمُ الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرات: الآية 13] وهو الذي يدلُّ عليه سياق الكلام بلا شك والله أعلم.

يقول: هذا وقد قلتُ ما قلته في الأبياتِ السَّابقة مما هو مَشوبٌ بنوعِ إدلالِ المتوقَّع مع بسْطِه قبض الإذلال مع علمي وتحققي بأنني بكل اعتبار، وعلى كل حالٍ لستُ أهلاً لهذا الذي تصدَّيْتُ في هذا المجال إليه، ولا محلاً لما حمْتُ حوله في هذا المقام وعرَجْتُ عليه، ومع علمي وتحققي أيضاً بأنني استهدفْتُ، أي نصبْتُ نفسي هدفاً لسهام التأنيبِ والملام من كلٍّ من يقِفُ على هذا النظم من الأنام، ومن المعلوم الشائع بين الخلف عن السلف قولهم: من صنَّف فقد استهدف، لكن حيث كان لطفُ الله تعالى لا ينفكُّ عن مشيئته وإحسانه جل وعلا لا ينقطعُ عن بريته فإنني أرجو وأطلبُ من ربّنا سبحانه المولى اللَّطيف أن يحفظني في هذا الذي اقتحمته من زلل الخطإ والتصحيف، فهو سبحانه الحنَّان المنان الكافي عباده الراجين لفضله، والحامل عنهم أثقالَ ما حملوه بمحْضِ الامتنان، فصاروا إليه محمولين في محفّات البر[1] والعطف والحنان، مَرُوحاً عليهم بنفحاتِ اللطف والإحسان، حتى وَصَلوا إلى حضرة قُرْبه ورضاه، ولَجوا بحبوحة ما من الله إلى الله، كما أطلبُ منه سبحانه وتعالى أن يتداركني بلطفه الخفي فيأخذ بيدي من شهود علمي وعملي إلى شهود توفيقه الأزلي حتى يكون هذا النظامُ الذي أجْرَتْه على يدي ولساني أيدي الإفضال والإنعام سبباً موصِلاً من فضل مولانا واسع الكرم والجود إلى ارتقاءِ درجات النجباء: أي العارفين المخصوصين بكمال الشهود.

(تنبيهان: **الأول**) تفسيرنا للنجباء في كلام النَّاظم بأنهم العارفون المخصوصون بالشهود الكامل هو أحدُ احتمالين فيه، ويحتملُ أن يكون رَحِمَهُ اللهُ تعالى طلبَ من الله أن يجعله

---

(1) المحفّات: جمع المحفة، وهي الهودج لا قبة له تركب فيه المرأة. وههنا استعار المحفة لِلبرِّ.

من النجباءِ الثَّمانية الذين لا يخلو منهم زمانٌ، ومتى ماتَ واحدٌ منهم خَلَفه آخرُ، ووصفهم في «الفتوحات المكيَّة» بأنهم هم الذين يبدو عليهم ومنهم آثارُ القبولِ من أحوالهم وإن لم يكن لهم في ذاك اختيار، لكن الحال يغلبُ عليهم، ثم قال: ومقامهم الكرسي لا يتعدُّونه ما داموا نجباء، فلهم علم الثمانية أفلاك اهـ. وعلى هذا الاحتمال يكون تخصيصُه لهذا المقام بالطلب إما بإلهام من الله تعالى لسبق العلم الأزلي بأنه من أهله أو لقوة ظنٍّ منه أن الله تعالى أراد به ذلك المقام ولا يبعد ذلك من حاله، فقد كان يبدو عليه ومنه من آثار القبول ما لا مزيد عليه ولا يصل واصلٌ بالتعمل إليه والله تعالى أعلم.

(التنبيه الثاني) إذا تأملت كلامَ النَّاظم ﷺ تعالى في هذه الأبيات من قوله: «وهاك نظماً» إلى هنا على ما قررناه به ألفيته دائراً على أقسام الشهود الثلاثة المشار إليها في قول أبي العباس المرسي ﷺ: الناسُ على ثلاثة أقسام: عبدٍ بشهود ما منه إلى الله، وعبد هو بشهود ما منّ الله إليه، وعبدٍ هو بشهودِ ما من الله إلى الله. فقوله: «وهاك نظماً» مع قوله: «لما سلكت مسلك التحقيق» إلخ يشيرُ إلى حال القسم الأول، وقوله: «لكنني أرجو من اللطيف» إلخ يشيرُ إلى حال القسم الثاني، وقوله: «وأن يكون ذا النظام سبباً» إلخ يشير إلى القسم الثالث، وراجع ما قرَّرنا به كلامه مع ما قدرناه فيه في سبك البيت الأخير تقفْ على حقيقة ما ذكرناه في هذا التنبيه إن شاء الله تعالى.

وأعاد النَّاظمُ ﷺ تعالى الطلب هنا بعد ما تقدَّم من قوله: «جعلنا إلَهنا من أهلها» إلخ، لأن الإكثار من الدعاء مستحَبٌّ مرغَّب فيه ولا سيما في أوّل الشروع في نحو التآليف العلمية لما يتوقّع فيها من الزلل ويتخوَّف من دخول الخلل، وقد ورَدَ حديث: «**مَنْ أَهْمَلَ الدُّعاءَ فَقَد اسْتَهْدَفَ البَلاَء**».

اللّهُمَّ إنَّا نسألكَ العفوَ والعافية ومصاحبة ألطافك الخفية لجميع تقلباتنا في السر والعلانية بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين آمين.

ولما كان طلبه من الله تعالى مشتملاً على طلب أعلى درجاتِ الكمال وكان اجتناء ثمرة ذلك مشروطاً بحُسْنِ المآلِ أردفَ ذلك بطلبِ حسن الخاتمة، فقال:

(وَأَنْ يُميتني على دِينِ النَّبي	**وحُبِّ شَيخِنا الإمامِ الطَّيِّبِ**
قُطبِ الأنَامِ ذِي التُّقى والجُودِ	**حِبِّ الرَّسولِ سيِّدِ الوجودِ)**

أطلق (الحب) على أصنافِ الموالاة محبةً واعتقاداً واستناداً وخدمة وغير ذلك، لأن الحب يستلزم جميعَ ذلك، كما لا يخفى، مع ما فيه من الإشارة إلى أن اجتناء ثمرة التعلُّق

بالشيخ مشروط بحسن المآل، والإضافة في (شيخنا) للتشريف مع ما فيها من الإشارة إلى كمال الانحياش إليه ﷺ، ووصفه بـ(الإمام) تعريضاً منه بطلبِ الشفاعةِ منه في إجابة دعائه، إذ الأئمّة شُفَعاء، ووصفه أيضاً بـ(الطيّب) تقويةً لرجائه أن ينال من طيبه بسبب تعلُّقه به ولو بأدنى شيء، إذ لا يخلو من تعلّق بالطيب عن أن يعلق به شيء من طيبه، ثم أكّد تعريضه فيما عرض بما ذكره من قوله: (قطب الأنام) إلخ البيت، من النعوت السنية والأوصاف الجليلة إيماءً منه إلى أن من اتصفَ بها لا يسوم الضيم والخسف جارُه ونزيله. و(القطب) في الأصل حديدةٌ تدورُ عليها الرحى، سُمِّي خيارُ الناس به لكون جميعِ خصالِ الخير مجتمعةً عنده ودائرة عليه، ولا يكون في كلِّ عصر إلا واحداً خليفة النبي ﷺ لحفظ العالم بالنيابة عنه ﷺ، ولهذا قال: (قطب الأنام) إذ الأنام كسحاب وساباط وأمير الخلق أو الجنّ والإنس أو جميع ما على وجه الأرض اهـ قاموس بلفظه، وسيأتي لنا بسط الكلام فيما يتعلَّق بالقطب عند قول النَّاظم ﷺ تعالى: «وفي المحرم غداً» إلخ إن شاء الله تعالى. و(التقى) جمع تقاة مصدر «تقي» كتعب في تقدير رتبة ورتب اهـ. و(الجود) بالضم التكرم، و(الحب) بالكسر الحبيب، و(سيد الوجود) نبيّنا ﷺ و(الوجود) خلاف العدم والمراد كلّ مولود أوجده الله تعالى.

يقول: وأرجو وأطلبُ من مولانا الربّ اللَّطيف أن يتمَّ نعمته عليّ في هذا الذي طلبته منه، بأن يميتني على دين نبيّنا ﷺ سيد كلِّ مشروف وشريف، وعلى محبَّة شيخنا الإمام الأكرم الطيب الأخلاق والشيم، قطب الأنام، المحلَّى بالتلقي والتكرّم ورعي الذمام، حبيب نبيّنا الرسول المصطفى الكريم، سيد الوجود المخصوص بالدرجة العليا والجاه العظيم، ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم، ووصفه بحبِّ الرسول لما صحَّ عنه ﷺ من إخبارِه بأنه ﷺ قال له: أنتَ حبيبي، وكلُّ مَن أحبَّكَ حَبِيبي. وقد ذكر بعضُ مشاهير الأصحاب وفضلائهم عن بعض خاصَّته ﷺ - وكان من أهل بيته ﷺ - أنه حدَّثه أنه رأى النبيّ ﷺ في المنام فقال له: أنتَ ابنُ الحبيبِ وأخذت طريقة الحبيب، ثم قال:

(عَلَيْهِ أَزْكَى صَلَوَاتِ الرَّبِّ ... وَآلِهِ شُمِّ الذُّرَى والصَّحْبِ
مَا اشْتَاقَ مُؤْمِنٌ إِلَى طَيْبَتِهِ ... وَحُبِّهِ وَحُبِّ آلِ بَيْتِهِ)

(الصَّلوات) جمع صلاة، وقد تقدَّمت، وكذلك معنى (أزكى)، و(الربّ) إذا دخلت عليه «أل» لا يطلق إلا على الله تعالى، قاله القرطبي في تفسير الفاتحة اهـ بنقل بعض الشراحِ. وفي المصباح المنير: الربُّ يطلَقُ على الله تعالى معرّفاً بالألف واللاّم ومضافاً اهـ.

ومعناه المالك الذي يربِّي عباده بإحسانه، فلا مالك غيره ولا مدبِّر سواه. و **(الآل)** المراد بهم في هذا البيت أهل بيته خاصَّةً بقرينة سياقِ الكلام، و **(شم)** من الشَّمَم، وهو الارتفاع، و **(الذرى)** جمع ذروة بالكسر والضمّ، وذروة كل شيء: أعلاه. و **(الصحب)** جمع صاحب، وقد تقدَّم، و«ال» فيه نائبة عن الضمير، و **(اشتاق)** من الشوق، وهو نزاعُ النفس إلى المشوق إليه، و **(طيبة)** اسم مدينة الرسول ﷺ، مشتق من الطِّيب، سمّيت به لطيب هوائها وترابها وساكنها وطيب العيش بها قاله الزرقاني في شرح المواهب اللدنية. ثم قال، قال ابن بطال: من أقامَ بها يجدْ من تربتها وحيطانها رائحةً طيبةً لا توجد في غيرها اهـ. وقال الهيتمي: فسمِّيت بذلك لأن الله تعالى طيَّبها لرسوله فجَعَلها دارَ هجرته ومحلّ نصرته وموضع تربته. قال: ولها أسماءُ أُخَرُ كثيرةٌ جدًّا اهـ. قال الزرقاني: وقد بلغت أسماؤها خمسةً وتسعين، وكثرة الأسماء آية شرف المسمّى[1]، والضمير في قوله **(وحبِّه)** للنبيِّ ﷺ وهو معطوف على قوله «طيبته» وكذا قوله: **(وحب أهل بيته)**، وأهل البيت: هم أزواجُه ﷺ وذريّته وأقاربه كالعباس وعلي وكل من تحرمُ عليه الصدقة اهـ قاله ابن جزي في تفسيره.

وفي الشفاء عن زيد بن أرقم[2] قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنْشدكُم الله أَهْلَ بَيْتِي ثَلاَثاً**»، قال الراوي عنه: قلنا لزيد: مَنْ أهل بيته؟ قال: آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس. قال السيوطي: أخرجه مسلم اهـ ذكره في شرح الحصن.

يقول رحمه الله تعالى: على سيد الوجود والسبب في كل موجود أزكى صلوات الرب الواجب الوجود وعلى آله وصحبه وذريّته ما اشتد شوقُ كل مؤمن كامل الإيمان إلى مشاهدة أنوار طيبة، والتمتُّع بانتشاق طِيب تربته وتعفير وجنتيه بثرى أعتاب روضته، وما اشتد شوق كل مؤمن مؤيَّد بأنوار العناية، محفوف بأسرار التوفيق والهداية لمحبته ﷺ

---

(1) وفي معجم البلدان: 4/ 53 «وهو اسم لمدينة رسول الله ﷺ يقال لها طيبة وطابة، من الطيب، وهي الرائحة الحسنة لحسن رائحة تربتها فيما قيل. والطاب والطيب لغتان. وقيل: من الشيء الطيب وهو الطاهر الخالص لخلوصها من الشرك وتطهيرها منه. قال الخطابي: لطهارة تربتها وهذا لا يختص بهناك لأن الأرض كلها مسجد وطهور. وقيل: لطيبها لساكنيها ولأمنهم ودعتهم فيها، وقيل: من طيب العيش بها من طاب الشيء إذا وافق».
وفيه كذلك حديث عن فاطمة بنت قيس طويل يذكر طيبة، فراجعه ثمة.

(2) زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري، صحابي غزا مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة، وشهد صفين مع علي ومات بالكوفة، له في كتب الحديث (70) حديثاً. مات سنة (68هـ).
انظر تهذيب التهذيب: 3/ 394، وخزانة الأدب: 1/ 363، وأسد الغابة.

المحبة الكاملة المستلزمة لاتباع شريعته الطاهرة الفاضلة، وما اشتدَّ شوقُ كل مؤمن صادق الرغبة فيما عند الملك القادر إلى كمال المحبة، وإمحاض المودة لأهل البيت الطاهر.

(تنبيهات: الأول) أتى بالصلاة على النبي ﷺ في هذا المحل لوجهين: الأول: كونه ذكره ﷺ. وفي الحديث: «البَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»[1]. وتعريف الجزءين[2] يدلُّ على الحصر للمبالغة: أي لا أبخل ممن بخلَ بالصَّلاة على من كان سبباً في كل رحمة واصلة إلينا، وصلاتُنا عليه نافعةٌ لنا مع خفَّتها على اللسان وثقلها في الميزان، فالبخيل بها أبخلُ ممن بخلَ بماله، قاله الرصاع بمعنى مختصراً اهـ بنقل شارح الحصن رحمه الله تعالى.

قال: ومقتضى هذا الحديث وغيره من الأحاديث التي بمعناه كحديث: «مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّار فَأَبْعَدهُ الله» وحديث: «شَقِيَ عَبْدٌ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ» وحديث: «مِنَ الجَفَا أَنْ أُذْكَرَ عِنْدَ أَحَدٍ فَلاَ يُصَلِّي عَلَيّ» وجوبُ الصلاة عند ذكره ﷺ، وبه قال اللخمي من المالكية والطحاوي من الحنفية والحليمي والإسفرايني من الشافعية وابن بطة من الحنابلة.

والوجه الثاني: هو أنه ختم طَلِبته من الله تعالى بالصلاة على النبي ﷺ لحديث: «كُلُّ دُعَاءٍ مَحْجُوبٌ حَتَّى يُصَلَّىٰ عَلَى مُحَمَّد وَآلِ مُحمَّد» وفي رواية: «إِنَّ الدُّعَاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لاَ يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّي عَلَىٰ نَبِيِّكَ ﷺ»[3].

(التنبيه الثاني) أتى رحمة الله تعالى بالصلاة هنا خاليةً عن السلام خلافَ ما فَعَله فيما تقدم، إشارةً إلى أن إفراد الصلاة عن السلام أو العكس إنَّما يتحقَّق إذا لم يجمَعْهما مجلسٌ أو كتاب فلا تتناوله الكراهة في قول من قال بها في ذلك. قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي: قال خاتمة الحفاظ أبو الفضل بن حجر[4]: لم أقفْ على دليلٍ يقتضي الكراهة،

---

(1) رواه الترمذي في (الدعوات: 100)، وأحمد: 1/ 201.

(2) أراد بالجزئين: المبتدأ والخبر في قوله «البخيل من».

(3) رواه الترمذي في (البر: 21).

(4) هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر، من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان بفلسطين ومولده ووفاته بالقاهرة (773 ـ 852هـ). ولع بالأدب والشعر، ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ، وعلت شهرته فقصده الناس للأخذ عنه، وأصبح حافظ الإسلام في عصره.
انظر آداب اللغة: 3/ 165، ولسان الميزان: الخاتمة، والتبر المسبوك: 230، وخطط مبارك: 6/ 37.

أي كراهة الإفراد على أن الإفراد إنَّما يتحقق إذا لم يجمعهما مجلسٌ أو كتاب، كما حقَّقه بعضُ الأئمَّة الأنجاب اهـ.

(التنبيه الثالث) قَصَد النَّاظم ﷺ تعالى بقوله: «ما اشتاق مؤمن إلى طيبته» إلى آخر البيت تأبيدَ الصلاة من الربِّ الجليل الأكرم على حبيبه الأعظم، ﷺ، وبيان وجه التأبيد في اشتياق كلِّ مؤمن كامل الإيمان إلى طيبة على مشرِّفها أفضل الصلاة وأزكى السلام، هو أن الاشتياقَ إليها إنَّما هو من أجله ﷺ.

أُحِبُّ الحِمَىٰ مِنْ أَجْلِ مَنْ سَكَنَ الحِمَىٰ وَمِنْ أَجْلِ مَنْ فِيهَا تُحَبُّ المَنَازِلُ[1]

فالاشتياق والحب في الحقيقة إنَّما هو لذاته الكريمة ومحاسنه الفخيمة ومحبّته ﷺ من الأحوال والمقامات التي لا تنقطع بالموت، ولا تنقرض بانقراض هذه النشأة، بل لا يزال كلُّ مؤمنٍ عارفٍ بالله يترقَّى في درجاتها إلى ما لا نهاية له لاتّساع دائرتها باتساع دائرة المعرفة بكمالاته ﷺ، وكمالاتُه عليه الصلاة والسلام لا نهاية لها، لأنها مظهر الكمالات الإلَهية ومجلى الحضرات القدسية الفردانية، والعارف دائم الترقي في مقامات المعرفة بتلك الكمالات ما دام في الدنيا، ثم لا يزال كذلك في البرزخ[2] ثم في الجنة، ولهذا شرح القطب السمان ﷺ في رسالته التي ألفها في التصوُّف بأن العارف كلما اتسعت دائرة معرفته بكمالاته ﷺ كان أكملَ من غيره ممن ليس له ذلك الاتساع، إذ هو ﷺ المظهر الأتمُّ والحجاب الأعظم، وبهذا يظهر أن التأبيدَ بالاشتياق إلى طيبته عليه الصلاة والسلام هو في الحقيقة راجعٌ إلى التأبيد بالاشتياق إلى حبّه وحبِّ أهل بيته الطَّاهرين الكرام، ﷺ، وأدامنا على محبّتهم بلا انقطاع ولا انصرام آمين.

(التنبيه الرابع) إنَّما قال النَّاظم ﷺ تعالى: «ما اشتاق مؤمن إلى حبّه وحبِّ أهل بيته» مع أن كل مؤمنٍ موقور في قلبه محبته ﷺ ومحبة أهل بيته، لإرادته ما تقدَّمت الإشارة إليه من المحبَّة الكاملة ورسوخ القدم في أعالي درجاتها الفاضلة، وذلك لأن المحبة الشرعية تتفاوت مقاماتها كمالاً ورجحاناً ورسوخاً بحسب تفاوت المتَّصفين بها في تَزَكيةِ النفس وتصفيتها، فكلُّ من كان ذا نفسٍ مطمئنةٍ كان حبه راجحاً أو أمارة وكان حبه مرجوحاً، قاله ابن حجر المكي ﷺ تعالى.

---

(1) الحِمى: اثنان: حِمَى ضرية وحمى الربذة، وهناك أيضاً: حمى فيد، وحمى النير، وحمى النقيع، فأما حمى ضرية فهو أشهرها وأسيرها ذكراً. وانظر مزيداً من التفصيل في معجم البلدان: 2/ 307 ـ 308.

(2) البرزخ: الحاجز بين الشيئين، وهو ما بين الموت والبعث.

وذكر عن القرطبي رحمه الله تعالى أن كل من كان ذا إيمان صحيح، فإنه لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، ولكنهم يتفاوتون فيها تفاوتاً ظاهراً، وكثير من العامة يؤثرون رؤيته ﷺ على أهله وماله وولده، بل يؤثرون زيارة قبرِه ﷺ على كل شيء، وذلك لما وقر في قلوبهم من محبَّته ﷺ قال: غير أن ذلك سريع الزوال لتوالي الغفلات والشهوات عليهم اهـ. ولا شك على هذا أن كلَّ مؤمن صحيح الإيمان دائم الاشتياق إلى حبّه ﷺ وحبِّ أهل بيته، رضي الله عنهم ونفعنا بحبهم، ومنه يعلم أن النَّاظم رحمه الله تعالى أبد الصلاة فيه وفي الذي قبله بما لا ينقضي على الأبد ويعرف أنه سلك في تأبيده، هذا أسنى المسالك التي لا يسلكها إلا المخصوصُ بغرائبِ الفهوم العزيز المدارك.

(التنبيه الخامس) محبَّته ﷺ المحبة الكاملة هي المستلزِمةُ حسبما تقدَّم في التقرير لاتباع شريعته الطَّاهرة واقتفاء سيرته الفاضلة، ولا شك أن المتَّصف بها على الحقيقة يكون ممن يحبُّ الله تعالى، ويغفر ذنبه، ويصطفيه لحضرته سبحانه، ويمنحه مؤانسته وقربه، كما قال سبحانه فيما خاطب به حبيبه المصطفى الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: الآية 31] ولا محالة أن من كان بهذه المثابة يشتدُّ إليه اشتياقُ كل مؤمن كل الاشتداد، ويستعد له بكلِّ ما يستطيعه من الاستعداد.

وأما محبَّة أهل بيته ﷺ فهي بفضل مولانا الواسع الجود والإحسان من أقوى الأسباب للحلول في أعلى فراديس الجنان[1]، والفوز بالنعيم الدائم المقيم، في جوار جدِّهم النبي المصطفى الكريم، عليه وعليهم من الله أفضل الصَّلاة والتسليم، كما يشهد له ما ذكره ابن حجر رحمه الله تعالى من حديث الإمام أحمد والترمذي: «مَنْ أَحَبَّنِي وأَحَبَّ حَسَناً وحُسَيْناً وأَبَاهُمَا وَأُمَّهُمَا كَانَ مَعِي فِي الجَنَّةِ»[2] اهـ ومعلوم أن عقب الكل مشمولٌ بهذه المزية، محفوفٌ برداءِ هذه الخصوصية. هذا، وقد صحَّ كما قاله ابن حجر خلافاً لما توهم ابن الجوزي حديث: «أَحِبُّوا الله لما يغذُوكُمْ به من نِعَمِه، وأحبُّوني لِحُبِّ الله عزَّ وجلّ، وأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي»[3] وحديث: «والله لا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الإيْمانُ حَتَّىٰ يحبَّهم لله ولِقرابتِهِمْ مِنِّي» اهـ إلى غير ذلك ممَّا ورد في الترغيب في محبَّتهم نفعنا الله بها، وذلك لا محالة من موجبات اشتياقِ كلِّ مؤمن إلى الاتصاف بكمالها والتضلُّع من صافي زلالها.

---

(1) الفردوس: في الأصل: البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين، وهو اسم جنة من جنات الآخرة.
(2) رواه الترمذي في (المناقب: 20)، وأحمد: 1/ 77.
(3) رواه الترمذي في (المناقب: 31).

ثم إن في كلام النَّاظم رحمه الله تعالى في هذين البيتين لطائف، وما هي وإن أطنبنا بها إلا تُحَفٌ للمحبِّ المنصف وطرائف.

(اللطيفة الأولى) في إضافته رحمه الله تعالى الصلوات للاسم الرب جلَّ وعلا في لفظ هذه الصلاة التي ختم بها هذه المطالب التي طلبها من الله تعالى استفتاح منه بهذه الصلاة لأبواب تربيته سبحانه وحنانه، وعطف واستمناح بطريق التعريض للوائح برِّه وهدايته ولطفه، فقد ختم رحمه الله تعالى طلبه من الله تعالى في هذه الأبيات بمثل ما افتتحه به في قوله: «لكنني أرجو من اللطيف»، حيث أتى هناك بالاسم اللطيف جلَّ وعلا، فافهمْ ذلك والله تعالى أعلم.

(اللطيفة الثانية) في قوله رحمه الله تعالى: «ما اشتاق مؤمنٌ إلى طيبته» الخ، غاية المناسبة لحاله لما قدَّمناه من أن نظمه لهذه الأرجوزة المباركة كان في وجهته للحرمين الشريفين، ولا شك في اشتداد شوقِ المؤمن المتوجِّه إليهما وتكاثر شغفه بالتخييم عليهما:

وكُلُّ مُسَافِرٍ يَزْدَادُ شَوْقاً　　إذَا دَنَتِ الدِّيَارُ مِنَ الديارِ

على أنه رحمه الله تعالى كان كثيراً ما يلهج بذِكْر المدينة المنوّرة، ويذكر من فضلها وشرفها، ويفحص كلَّ الفحص على الكتب المؤلفة فيها، ويعتني بمطالعة ما يقف عليه منها ويغبط الدفين بها بما يظهرُ منه غاية الترجِّي لذلك، بل كان كثيراً ما يصرِّح بذلك ويطلبه من الله تعالى، فكان من أمره حسبما تقدَّمت الإشارة إليه أن توفاه الله بها وأكرمه بالدفن ببقيع الغرقد[1] منها، فلا يشكُّ أن قوله: «ما اشتاق مؤمن إلى طيبته» إلخ رشحة من رشحات حاله، ونفحةٌ من نفحات بضائع رحاله، وألسنةُ الحالِ أصدقُ من ألسنة المقال وأفصح، وكل إناءٍ بما فيه يرشح[2].

(اللطيفة الثالثة) في قوله: «ما اشتاق مؤمن إلى طيبته» تلميحٌ إلى ما قاله بعض الشيوخ في حديث: «حُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإيْمانِ» من أن المدينة هي وطنُ كلِّ مؤمن لأنها وطن الإيمان، فلذلك يحبها كل مؤمن اهـ. قال الشيخ الراوية أبو سالم العياشي رحمه الله تعالى بعد أن ذكره عن الشيخ المذكور: ويشهد لهذا الذي قاله هذا الشيخ قوله ﷺ: «إنَّ الإيمانَ ليأرِزُ إلىٰ المَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحيَّةُ إلىٰ جُحْرِهَا»[3] قال: فثَبَت بهذا الحديث أنها وطنُ الإيمان، وإذا

(1) بقيع الفرقد: مقبرة أهل المدينة، في وسط المدينة.

(2) انظر المثل «كل إناء يرشح بما فيه» في مجمع الأمثال: 3/ 58.

(3) رواه البخاري في (المدينة: 6)، ومسلم في (الإيمان: 232، 233)، والترمذي في (الإيمان: 13)، وابن ماجه في (المناسك: 104).

كانتْ وطن الإيمان، وهو أشرفُ أوصاف المؤمن، بل هو في الحقيقة كليته التي بها صار معتبراً وجوده، ولولا الإيمان لكان العَدَم المحض أفضلَ منه، ثبت أنها وطنُ كل مؤمن، وإذا ثبتَ ذلك فهو لا ينفكُّ عن الشغف بها والكلف بحبها، لأن حب الوطن من الإيمان، كما جاء في الحديث السابق اهـ. والتلميحُ عند علماء النقد أن يلمح الشاعر في كلامه إلى قصَّةٍ أو شعر أو مَثَلٍ سائر أو رسالة أو خطبة أو نحو ذلك. والذي يتأيد به عندنا كون النَّاظم رَحَمَهُ اللَّهُ تعالى قصَدَ التلميحَ لهذه المسألة كثرة جريانه على لسانه مع الاستحسان لها والتنويه بذوق صاحبها، وقد نوَّه الشيخ أبو سالم بذلك أيضاً في آخر كلامه.

ولنذكره لما فيه من الحسن وتمام الفائدة بتمامه؛ ونصُّه: أثرُ تقريره المسألة بما تقدم، وفي هذا إشارةٌ حسنة إلى أدبٍ حسن، وهو أنه لا ينبغي لساكنِ المدينة بل ولو لمن بات بها ليلةً، بل أقام فيها لحظةً من المؤمنين أن يرى في حال إقامته بها أنه غريب بل يرى نفسه كأنه في ذلك الوقت استقرّ بوطنه الذي هو أحب أوطانه بين أهله وأقاربه، إذ المدينة المنورة وطنُه الحقيقي كما تقدم، بل ينبغي أن لا يطلق على أحدٍ ممن في المدينة من أهل الآفاق أنه غريب أو مجاور تأدباً لما يشعر به ذلك من غربته في وطن الإيمان الذي هو روحه وحقيقته، ولا يكون غريباً في وطن الإيمان إلا من لا عبرة بإيمانه، فأي صفة ذمٍّ أقبح من وصف المؤمن بكونه دخيلاً في الإيمان غريباً فيه، فتأمل هذه النكتة، فإنها حسنةٌ عند من له ذوق سليم وعرف الإشارة، ولم يتقيَّد فهمُه بصريح العبارة، نسألُ الله تعالى أن يجعلنا ممن كانت المدينة وطنه حسًّا ومعنى، ونال من جميع الآفات الدينية والدنيوية مسالمة وأمناً آمين، ثم قال رَحَمَهُ اللَّهُ تعالى:

* * *

التعريف بالشيخ رضي الله عنه

لما كانت معرفة الشيخ في طريق الإرادة من الأمر المقدم الأكيد، لما ينشأ عنها من المحبَّة والتألف اللذين هما الواسطة في إيصال المدَدِ من الشيخ إلى المريد قدَّم النَّاظم رحمه الله هذا المبحث على سائر المباحث المتعلقة بهذا الورد، وأتى فيه بما هو أذكرُ للأرواح من شميم الوردِ، ولعمري لقد أيقظَ النائم الوسنان، وأسمعَ من كانت له أذنان، فجزاه الله خيراً ووالى عليه سحائبَ الرضوان آمين. وتقريرُ الترجمة هذا باب التعريف أو مبحث أو فصل أو نحو ذلك، وقصدَ رحمه الله تعالى بهذا المبحث وهذا الباب عدَّ ما يتعلق بالتعريف بسيدنا قطب الأقطاب، وذلك بذكر نبذة مما يشير إلى كماله وفَضْله كشرف نسبه وكرم أصله ومولده ونشأته المرضية وتنقُّله في أطواره وكمالاته السنية مع الإلمام خلالَ ذلك بذكر بعض من لقيه في عصره أو أخذ عنه في أول أمره من المشايخ الكاملين والعارفين الواصلين، والإشارة إلى فتحه رضي الله عنه ووصوله، وبيان أن ذلك كان بتخصيص من الله تعالى على يد حبيبه ومصطفاه من خلقه سيدنا ومولانا محمد نبيّه ورسوله، ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم، وبدأ بذلك بما يشير إلى شرف نسبه الطاهر وكرم أصله الفاخر، فعقد فرائده الثمينة في هذه الأبيات الثمانية المزري حسنُها بالعقودِ الجمانية والقلائد العقيانية، فقال رحمه الله تعالى:

(مَا أَنْجَبَتْ خَودٌ مِنَ الْغَوانِي	فِي كُلِّ مَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ
كَمِثْلِ أُمِّ شَيْخِنَا الرَّبانِي	عَائِشَةَ الطَّاهِرَةِ الْحَصَانِ
فَمَا لِغَوائِيَةٍ فَخرٌ كَمَا	لَهَا بِشَيْخِنَا إِمَامِ الْعُلَمَا
سِوَى اللَّواتِي جِئْنَ بِالْمختار	وحِزبِهِ وصَحْبِهِ الأَخْيَارِ
إِذْ أَنْجَبَتْ بِهِ رِضاً مَسرُوا	مُهَذَّباً مُمَجَّداً مُسَوَّدا
مِنْ بَعْلِهَا ذِي الشَّرفِ الطِّيني	والشَّرفِ العِلْمِيِّ والدِّينِيِّ
مُحمَّدٍ نَجْلِ الفَتَى الْمُختَارِ	نَجلِ الرضي أَحمدَ ذِي الفَخارِ
نَجلِ المُفخَّمِ الإِمَامِ العَالِمِ	سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ بنِ سالِمِ)

(انجبت) المرأةُ: أتت بنجيب أي كريم فائق لغيره. و (الغواني) جمع غانية. قال في المصباح: غنيت المرأةُ بزوجها عن غيره فهي غانيةٌ، مخففاً والجمع: الغواني اهـ وعليه قول الشاعر:

دَعَانِي الغَوَانِي عَمَّهُنَّ وخِلْتني لي اسم فلا أُدعى به وهْوَ أوَّلُ

وقيل: الغانيةُ المرأة التي تُطْلَبُ ولا تَطْلُب، وقيل: الغنيةُ بحُسْنِها عن الزينةِ والتي غَنِيَتْ ببيت أبوَيْها ولم يقعْ عليها سباء، أو الشَّابةُ العفيفةُ ذاتُ زوجٍ أو لا اهـ ذكره في القاموس. وذكر غيرُه أنها المرأةُ اللَّطيفة الحَسَنة الخَلْق والخُلُق انتهى. وتصحُّ إرادة هذه المعاني هنا كلها أو جلها، إذ كلها من وصْفِ كلِّ حرةٍ كاملة، و«ما» من قوله: (ما مضى) واقعة على جزء، وعليه فكلُّ المضاف إليها يدلُّ على الاستغراق لسائر أجزاء الزمان الماضي لوقوع «ما» التي هي المضاف إليه على المفرد المنكر منها، والمراد في كل جزء مضى من أجزاء الزمان. و (الزمان) كسحاب: اسم للعصر كزمن متحركة، ويطلقان على كثير الوقت وقليله كما في القاموس وغيره. و (المثل) الشبه والنظير، ونحوه: المثيل، كأمير، و (الأم) بالضم وقد تكسر: المراد بها هنا الوالدةُ، و (عائشة) عَلَم أم الشيخ ﷺ، وهو بدلٌ من أم، أو عطف بيان عليه. و (الطاهرة) وصف لها وكذا (الحصان) ومعناه العفيفة. وفي القاموس: وامرأة حَصَان كسحاب عفيفةٌ أو متزوجة اهـ. وفي كلام سيدنا حسَّان ﷺ:

حَصَانٌ رزَانٌ لا تـزن بـريـبـةٍ

إلخ.

و (حوائية) منسوبة إلى أمّنا حواء. و (الفخر) التمدح بخصال الكمال، والضمير في (لها) لأم الشيخ ﷺ، و (إمام العلماء) مقدَّم جماعتهم في تحقيق العلوم، ولا يكون كذلك إلاّ من كان جامعاً لعلم الدراسة وعلم الوراثة، والشيخ ﷺ من ذلك بالمكانة التي لا تنكر، و (سوى) هي بمعنى «غير» وهي بالكسر وتضم. و (جئن) أتين، أي غير اللواتي أتين، (بالمختار) أي نبيّنا ﷺ، (وحزبه) ﷺ: طائفتان إذ الحزبُ الطائفة، والمراد الأنبياء والمرسلون عليهم الصَّلاة والسَّلام. (وصحبه) صحابته ﷺ، و«إذا» من قوله: (إذ انجبت) ظرفية أو تعليلية، أي وقت إنجاب هذه أو لأنها أنجبت به ﷺ، ورضا وما بعده منصوبات على الحال من فاعل «أنجبت»، و«من» الجارة من قوله: (من بعلها) تتعلَّق بأنجبت، و (البعل) هنا: الزوجُ. و (الشرف الطيني) الشرف النسبي، وصَفَه به لأن نسبته السنية مرفوعة إلى سيّدنا محمد النفس الزكية، ووصفه أيضاً بالشرف العلمي والشرف الديني، لأنه كان من

العلماء العاملين والأولياء الواصلين ﷺ، و(**محمد**) بالفتح بدل من «بعلها» وهو الموصوف بما ذكر من أنواع الشرف، و(**النجل**) هنا: الولَدُ والفتى، أراد به هنا الكامل الفتوة التام النجدة. و(**المختار**) اسم جد سيّدنا ﷺ، و(**أحمد**) هو جد والد سيدنا ﷺ ووصفه بـ(**ذي الفخار**) أي صاحبه لجمعه بين طرائف المزايا، وتلائدها، وحيازته لأطراف أزر المجد وأخذه إياها من معاقدها لجمعه بين شرف الآباء والأجداد وشرف النفس والأبناء والأحفاد، و(**المفخم**) المعظم إذ التفخيم التعظيم و(**محمد**) بالفتح: هو الموصوف بالمفخم، وبالولي العالم، وهو رابع أجداد سيدنا ﷺ و(**سالم**) هو جده الخامس، فمن ينسب الشيخ إليه كأهل الصحراء وأهل تونس وغيرهم، فإنه ينسبه إلى خامس أجداده، ولعلَّ السبب في نسبه الشيخ إليه كون جده الرابع سيدي محمد بن سالم هو الذي استوطن عين ماضي أولاً من أجداده، فَجَرى على الانتساب إليه من بعده من ذريته والله أعلم.

يقول رحمه الله تعالى ورضي عنه: ما أنجبت حرةٌ كريمة النَّسب ولا عقيلة جليلة الحسب في كل ما سلفَ من الأعصار إنجاباً كإنجابِ أم شيخنا القطب الرباني الجليل المقدار، ألا وهي العظيمة القدْرِ والشأن، سيدتنا عائشة الطَّاهرة الحصان، فما لامرأةٍ من بنات أمّنا حواء وأبينا آدم عليه السلام فخرٌ يساوي فخرها بولادتها لهذا الإمام غير النساء اللَّواتي أتين بنبيّنا المصطفى المختار، وحزبه الأنبياء عليه وعليهم صلوات الرب الغفار، وكذا اللواتي أتين بالصحابة الكرام ذوي المراتب العلية التي لا تدرَك ولا ترام، وذلك لأنها أنجبت به جامعاً لأوصافِ العدالة، مستكملاً لنعوت الفضل والجلالة، من بعْلِها الآخذ من كل نوع من أنواعِ المجد بطرف، المستوفي لكلِّ نوعٍ من أنواع السودد والشرف، وهو سيدنا محمد فتحا نجلُ الفتى المعظم المقدار سيدنا المختار نجل الرضي مولانا أحمد ذي المزايا والفخار، وهو نجل المفخَّم قدرُه صراحةً لا كناية سيدنا محمد فتحا بن سالم الجامع بين أعلى درجتي العلم والولاية، ﷺ وأرضاهم، وجعل الوجهَ الكريم متقلَّبهم ومثواهم آمين.

وقدَّم النَّاظمُ رحمه الله تعالى أم الشيخ ﷺ في الذكر تأدباً بآداب السنة الطاهرة، ففي صحيح مسلم من رواية جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: «**جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قال: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ**»[1] الحديث، وفيه التصريحُ بتقديم

---

(1) رواه الترمذي في (البر: 1)، والبخاري في (الأدب: 2)، ومسلم في (البر: 1، 2)، وأبو داود في (الأدب: 120) بلفظ «قلتُ: مَنْ أبرُّ قال: أمك... إلخ».

حقِّ الأم في البر، فكان من الأدب تقديمها في الذكر في مثل هذا المقام. وهي ﵂ الحرةُ العفيفة المصونة السيدة عائشة الطَّاهرة الميمونة بنت السيد الجليل الفاضل الأصيل أبي عبد الله سيدي محمد بن السنوسي التجاني المضاوي التجاني، نسبةً إلى قبيلة معروفة هنالك، وهم أخوالُ سيدنا ﵁، غلبت عليه النسبة إليهم، والمضاوي: نسبةً إلى قرية عين ماضي، وهي قرية معروفة شهيرة من قرى الصحراء الشرقية من بلاد المغرب.

(وأما والده) فهو كما قاله في «جواهر المعاني» الشيخ الإمام كهف الإسلام أبو عبد الله سيدي محمد بن المختار، كان عالماً وَرِعاً متبعاً للسنة، زاد في «الجامع» ذاكراً مدرساً للحديث والتفسير. وذكر في «الجواهر» وكذا في «الجامع» أن الروحانية كانوا يأتونه ويطلبون منه تسخيرُهم في حوائجه، فكان يمتنعُ من ذلك ويقول لهم: اتركُوني لا تدخلوا بيني وبين الله تعالى لا حاجة لي بالتعلُّق بسوى الله تعالى، وكان لا تأخذُه لومةُ لائم في الله تعالى، وكان له في دارِهِ بيتٌ لذِكْر الله تعالى لا يدخلُه أحدٌ سواه ﵁.

وكانت وفاته هو وزوجته سيدتنا عائشة رحمهما الله تعالى في يوم واحدٍ بالطاعون عام ستة وستين ومائة وألف ودفنا معاً في القرية المذكورة.

وذكر في «الجواهر» وكذا في «الجامع» أجداده المذكورين في النظم، وهو سيدنا المختار وذكر في الجامع أنه كان من أعيان قومه وكبرائهم، وسيدي أحمد وذكره في «الجامع» بوصف العلم وأن الشيخ أبا سالم العياشي ﵀ تعالى حلاه بالعلم الكبير، وسيدي محمد بن سالم وذكره في الجواهر وكذا في «الجامع» بالعلم والورع والتشديد في اتباع السنة وأنه كان له بيت يختلي فيه للعبادة بداخل دارِهِ لا يدخلُه غيرُه، وكان إذا خرج من داره إلى المسجد يتبرقع ولا يرى أحدٌ وجهَه حتى يدخلَ المسجد، ثم إذا خرجَ من المسجد يتبرقع كذلك أيضاً حتى يدخل خلوته.

قال كلٌّ من صاحبي الجواهر والجامع: سألت الشيخ ﵁ عن سبب تبرقعه ذلك؟ فقال: لعله بلغَ مرتبةً في الولاية كل من بلغها يصير كل من رأى وجهه لا يقدِرُ على مفارقته طرفة عين، وإن فارقه مات من حينه، وهي مرتبة من أدركَ اثنين وسبعين علماً من العلوم المحمدية، ومكثَ فيها ثلاثاً وعشرين سنة. قيل للشيخ ﵁: هذه لمفاتيح الكنوزِ أو لغيرهم؟ قال ﵁: بل لغيرهم.

وأما القطب ومفاتيح الكنوز لا يستترون لكمالهم انتهى.

وبالجملة فجميعُ أسلاف سيدنا ﵁ علماء عباد أتقياء زهّاد موصوفون بالإمامة

العظمى والولاية الكبرى عند أهل تلك البلاد، إلا أنهم كانوا لشدَّة اتباعهم للسنة يسترون ولايتهم بالعلم، فلا يعرفُهم بها إلاّ الخاصةُ بخلاف العلم.

وقد رأيتُ فيما كتب به الشيخ الإمام العلاَّمة الراوية الرحالة الهمام حجة المغرب على المشرق ومن هو في علماء زمانه تاج المفرق أبو سالم سيدي عبد الله العياشي ﷺ إلى بعض إخوانه من علماء سجلماسة حين أزمعَ الرحلة قاصداً حجَّ بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام يوصيه بما يحتاج إليه في وجهته، وينبِّهه على ما يتأكّد التنبيه عليه في رحلته، فذكر له المراحلَ والبلاد، وذكر أهل كلِّ مرحلة وبلدة بأوصاف المقسوم لهم بين العباد حتى انتهى إلى ذكر عين ماضي بلدة سيدنا ﷺ ومقرّ أسلافه رضي الله تعالى عنه وآبائه الكرام، فنوَّه بقدر من اشتملتْ عليه من الأعلام، ثم قال له: فإذا حَلَلْتها فشحِّذ ذهنك لمذاكرة أهلها في كليات الفنون وجزئياتها، واستعدّ للجواب عما يلقونه عليكَ من مسائل منقولياتها ومعقولياتها في كلام وصَفَهم فيه بالتضلُّع من العلوم ونفوذ الإدراكات والفهوم، ولم يحضرني الآن نصه، ولعلي أراجعه فأثبته في هذا المحل إن شاء الله تعالى بلفظه.

(تنبيهان: الأول)ما تقدَّم لنا من تسخيرِ الروحانية، منه ما يكون من طريق الاستخداماتِ والاستنزالات المعروفة عند أربابها، وهو طريقٌ مذموم، وصاحبه على ألسنة الشرائع والحقائق مدنفٌ مَلُوم[1]، بل هو طريقٌ مشؤوم، وصاحبه مخذولٌ محروم، وهو سيىء العاقبة بلا شك، والعياذ بالله تعالى، والتسخيرُ من هذا الطريق منزَّه عنه من كان من أمثال والد الشيخ ﷺ. ومنه ما يكون من طريق انقيادِ الكون بما احتوى عليه لمن أهَّله الله تعالى لبساط قربه ومشاهدته واصطفاء لحضرة تخصيصه وعنايته، وهذا من باب كراماتِ الأولياء، وخرقِ العوائد لخاصَّة الأصفياء، إلا أن الزهد فيه وعدم الاكتراث به هو الكرامة الحقيقية الخاصة بخاصَّةِ الخاصة من عباد الله الأتقياء الأبرياء، وهذه الحالة هي اللاَّئقةُ بمقام والدي الشيخ ﷺ، وهي حالة أهل التمكين المخصوصين من الله تعالى برسوخ القدم في مقامات اليقين، وهي لهم بحكم الإرث من سيد المرسلين وإمام المتقين، ﷺ، حيث عرض عليه أن تجعل له جبال تهامة ذهباً تسير معه حيث سارَ، فأبى إلاَّ العبودية والاضطرارَ ولزومَ العَجْزِ والافتقار، وسيأتي لنا بعض ما يتعلَّق بصحبة الجانِ إن شاء الله تعالى.

---

(1) مدنَف: مريض، وملوم: واقع تحت اللَّوم، اسم مفعول من الفعل (لام ـ يلوم).

(التنبيه الثاني) كثيراً ما يجري في كلام سيدنا الشيخ ﷺ التعبير بمفاتيح الكنوز، والظاهر أنه ﷺ يعبر بذلك عن الأفراد الخارجين عن حكم القطب، لكن وَقَع في كلام العارف بالله سيدي عبد الرحمٰن الشامي ما يؤذن بأن مفاتيح الكنوز غير الأفراد، فانظره والله أعلم.

وقد سُئل ﷺ: أيّهما أعلى مقاماً هل القطبُ أو الواحد من مفاتيح الكنوز؟ فأجابَ بأن مقام القطب أعلى من مقاماتهم من جهة ومقامهم أعلى من جهة، وانظر الجواب بنصّه في «جواهر المعاني»، وهو صريحٌ في وصف الأفراد حسبما هو في «الفتوحات المكية» وغيرها من كتب المحققين، نعم وَقَع في «جواهر المعاني» عند ذكر مؤلفه رحمه الله تعالى لمرائي الشيخ ﷺ ومبشراته ما يشيرُ إلى أن للقطب خصوصيةً لا ينالها غيره لا من الأفراد ولا من غيرهم، وأنه ﷺ من أجل هذه الخصوصية صار يطلبُ مقام القطبانية بعد أن كان يطلبُ مقام الفردانية قبل أن يطلع على الخصوصية المذكورة، فبلغه الله تعالى بفضله غاية مُناه، وأولاه من خزائن جُودِهِ ما قرَّت به عيناه حسبما سيأتي ذكر بعض ذلك مفصّلاً إن شاء الله تعالى.

(استدراك) ما تقدَّم لنا عند قول النَّاظم رحمه الله تعالى «الشرف الطيني» من أن نسب الشيخ ﷺ يتَّصل بسيدنا محمد النفس الزكية ابن مولانا عبد الله الكامل ابن مولانا الحسن المثنى ابن مولانا الحسن السبط ابن مولانا عليّ بن أبي طالب، ومولاتنا فاطمة الزّهراء رضي الله عن جميعهم ونفعنا بمحبَّتهم.

ذكر في «جواهر المعاني» أن الشيخ ﷺ وَجَدَ هذا النَّسب الشريف محوزاً لآبائه وسلفه بالحوز التام، ومع ذلك كان ﷺ في ذلك الوقت لا يرفع به رأساً ولا يعلل به نفساً، لما كان عليه من شدة التعشق بالترقي إلى المقامات العالية، والمراتب القصوى السامية، حتى خاطبه ﷺ في ذلك يقظةً لا مناماً بقوله: أنتَ ولدي حقًّا، كرَّرها له ﷺ ثلاثاً تأكيداً لما خاطبه به، ثم أردفَ ﷺ ذلك التأكيدَ بما يقوّيه ويرفع الاحتمالَ فيه، بأن قال له ﷺ نسَبُك إلى الحسن بن علي صحيح، فعند ذلك صار ﷺ يذكر في سياق التعريف بنفسه هذا النسب السنيّ، فيكتب بيده المباركة أحمد بن محمد التجاني الحسني، حسبما شاهدناه متعدداً بخط يدِه فيما وقفنا عليه من الرسائل والإجازات والتقييدات والوجادات ﷺ وأرضاه، ومتعنا ومحبيه برضاه آمين.

ثم قال النَّاظم رحمه الله تعالى مشيراً إلى بيان زمن ولادتِه ﷺ على طريقة الرمز مع التورية، متّبعاً لذلك بما يشير إلى نشأته الطَّاهرة المرضية:

(حصَّل مَفخَرَ العَلا حِينَ وَلِدَ ... بِعَيْنِ ماضي ذَا بِفَضْلِهَا شَهِدَ
أَنبَتَه اللهُ نَباتاً حَسناً ... في أرْغَدِ العيشِ وأَنورِ السَّنِي)

(المفخر)ما يتمدَّح به، و (العلا)جمع علياء، والمراد المراتب العالية، و (الحين) الزَّمان و (الولادة)معروفة، و (عين ماضي)القرية المتقدِّمة الذكر، والماضي: يطلق في اللُّغة على معانٍ: منها الأسدُ والسيف، ولعلَّ تسميتها من الأول والإشارة بـ (ذا)إلى كون الولادة بها. و (الفضل)الشرف، و (شهد)من الشهادة بمعنى الإخبار بما قد شوهد حسبما في المصباح عن ابن فارس، والمراد هنا الدلالة الحالية و (أنبته الله نباتاً حسناً)أنشأه نشأة صالحة، و (أرغد العيش)أوسعه وأهناه، و (أنور سني)أوضحه وأسماه.

يقول: حصّل للمراتب العالية والمقامات الرفيعة السامية ما تتمدَّح وتفتخر به حين ولد هذا السيد الجليل ﷺ وأرضاه، وظهرت للوجود طلعته الشريفة، ولاحَ واضحُ سناه، وذلك في العام المرموز لتاريخه بقوله: «حصل مفخر العلا» وهو عام خمسين ومائة وألف من هجرة سيد الملا ﷺ بزاوية عين ماضي مطلع اليمن والرباح، ومقر أسلافه الكرام المشهورين بالخير والصلاح، وهذا شاهد مقبول ودليلٌ قاطع على شرفها، وفضلها وفخامة مكانتها عند الله تعالى وسعادة أهلها، لما تقرر عند العلماء الكبار من أن الأماكن تكتسب الشرفَ والفخار بمن يُولَد بها أو يحلّها من الأفاضل والأخيار.

وَمَا عَرَفَ الأرْجاءَ إلاَّ رِجالُهَا ... وإلاّ فلا فَضْلاً لِتربٍ على تِرْبِ

وكما كانت هذه البلدة المباركة محلّ ولادته كانت أيضاً محلّ نشأته، فأنبته الله تعالى بها نباتاً حسناً في كفالة أبَوَيه الأكرمين الجليلَيْ القدر العاطري الثَّناء، فكانا حسبما ذكره في «جواهر المعاني» يؤدبانه بآداب السنة الطاهرة، ويهذبانه ويربيانه بأسرار الشريعة وأنوار الحقيقة ويرقيانه، فتربَّى بينهما في عفاف وصيانة وتقًى وديانة، لا يتقيّد بما عليه الناس من العوائد، ولا يلتفت لما رفعوا إليه من فضول الزوائد، متحلّياً بالأخلاقِ الحميدة ذوقاً وتحققاً، ومرتدياً رداء العفاف وعلوّ الهمَّة جِبلَّةً وخُلُقاً، متصفاً في وروده وصدوره وفي جميع ما يتعاطاه من أموره بمَضاء العزمِ وشدة الحزم، فكان لا يريد شيئاً إلا ابتدأه، ولا يبتدئه إلا أتمّه. وإذا تعلقتْ همَّتهُ بشيءٍ كائناً ما كان لا يهنأُ له عيشٌ ولا يقرُّ له قرار حتى يصله ويتجاوزه، وهذا وأبيك العيشُ الرغد، والنعيم الذي لا تنقضي لذتُه على الأبد، إذ لا يخفى أن من كان متحلياً في بدايته بهذه الخِلال الفاخرة كانت نهايتُه إلى درك المواهب السنية والأسرار الباهرة. وقد ذكر في «جواهر المعاني» أنه لم يختلف جميع من أدركه في حال شبيبته من أئمَّة عصره وعلماء قطره في أنه كان من المصطفين من عباد الله، وممن نشأ

في طاعة الله، وممن هدى واجتبى إلى صراط الله، فاستوجب بذلك الوراثة والإمامة، فلم يتقدَّم في عصره أحدٌ أمامه، كما قيل:

فَأَصْبَحَ عَيْنَ الوَقْتِ والقَوْلُ قولُه ... وَلا أحدٌ في النَّاسِ يبلُغُ قَدْرَه

اهـ. ولما تقرَّر في الفراسةِ الحكمية وتأيد بالسنة المحمدية أن محاسنَ الذواتِ تدلُّ على ما بطن فيها من بدائع الأخلاق وجلائل الصفات أشار النَّاظم ﷺ تعالى إلى ما أعطيه سيدنا الشيخ رضي الله عنه من ذلك، فقال:

(زيَّنَ مَن أنشاهُ وخلْقَهْ ... بينَ الأنامِ خلْقَه وخُلُقَهْ
فكانَ يُنبئُ بهاءَ منظرِهْ ... لحُسْنِه لامِحَه عن مخبرِهْ
لشَبَهِه بسيِّدِ العبادِ ... أحسنِ كُلِّ حاضرٍ وبادِ)

(زين) فعل بالتضعيف للمبالغة من الزَّيْن: ضد الشين، و(أنشاه) خلقه، و(الخلق) التقدير، ومن صفاته سبحانه وتعالى: الخالق، ومعناه المبدع للشيء، المخترع له على غير مثال سبق اهـ قاموس. و(الأنام) هو هنا كسحاب، وقد تقدَّم عن صاحب القاموس أنه الخلق أو الجنّ والإنس، أو جميع ما على وجه الأرض. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أي الأنام الناس. قال الصلتاني في نظم الغريبِ بعد إيراد ما ذكر في القاموس من المعاني ما نصّه:

وبَعْضُهُم خَصَّصها بالنَّاسِ ... وهْوَ ابنُ عبَّاسٍ بِلا الْتِباسِ

أي وبعض من فسَّر القرآن العظيم. و(الخلق) بالفتح عبارة عن الصورة الظاهرة، وبالضم وبضمّتين: عبارة عن الصورة الباطنة، و(البهاء) الحسن وفعله «بهو» كسرو وكرضا أيضاً ودعا وسعى اهـ قاله في القاموس ونحوه في المصباح، زاد: ويكون البهاء حسن الهيئة، وبهاء الله: عظمه اهـ. و(المنظر) الوجه، و(لامحه) من لمحت الشيءَ لمحاً من باب نفع: نظرتُ إليه باختلاس النظر، قاله في المصباح، وعلى هذا التفسير ربما يكون النَّاظم عبَّر به إيماءً إلى أنه رضي الله عنه كان لا يستطاع النظر إليه من شدة الهيبةِ إلا نظر اختلاس، و(المخبر) الحقيقة الباطنة، و(الشبه) بالكسر وبالتحريك وكأمير: المثل، والظاهر أن المراد هنا الشبه محركاً بمعنى المشابهة مخففة للوزن. أي وإنما كان ينبىء بهاء منظره عن حسن مخبره، لحصول الشبه له بسيد العباد ﷺ، و(الحاضر والبادي) معروفان.

يقول: زَيَّنَ المولى جلَّ علاه الذي أنشأه وسوَّاه وخَلَقه وبراه بين الناس خَلْقه وصورته الظاهرة كما زيَّن خُلُقَه وسجيَّته الفاخرة، فصار ينبىءُ بهاءُ منظرِه وهيئته المعظمة وحسنه

الكامل كلّ من نظر إليه ولمحه بطرْفِهِ عما انطوى عليه مخبره من غررِ الفضائل، وذلك لما حصل له من فضيلة الشبه بنبينا ﷺ سيد العباد على الإطلاق، وأحسن كلّ حاضرٍ وبادٍ، ذاتاً وصفاتٍ بالإطباق. وأشارَ النَّاظم بهذا إلى ما في «جواهر المعاني» من ذكر صفاته ﷺ ومحاسنه الظاهرة والباطنة، وهي متفرِّقة في أبوابه وفصوله فليراجعها هنالك من أراد مراجعتها، وقد عقدَ جلّها في اللامية. ومن عقده للمعنى الذي أشارت إليه هذان البيتان ما نصه:

تميَّز بالوصفِ الجناني مثل ما	تميَّز بالكوني العيانيِّ مُسْجِلا
له صورةٌ بينَ الأنامِ عليَّةٌ	تُرَى مرةً وُسْطَىٰ وطَوْراً تُرى عَبْلا [1]
على طبقٍ ما لاقته راشحة بما	حوَتْ من جمالٍ أو جلالٍ سقي ذهلا
بياضُ مجلاّها مشوبٌ بحمرةٍ	وقامتُها قدوى ومنطِقُها أحْلى
يرى جهوري الصوتِ أحْسَنَه على	سنا شيبةٍ أبْهىٰ بَهِيٍّ مَشَى حَجْلا
لهُ الجودُ طبعٌ والفتوةُ دَيْدَنٌ	له، ولنعم القولِ إن طابَقَ الفِعْلا [2]
مهاباً جليلاً ذا حياءٍ وعزَّةٍ	وسحْرِ بيانٍ لا يملُّ إذا يُمْلا

إلخ ما ذكره في وصفه للشيخ ﷺ، فليراجع ذلك فيها من أراده، وبالله التوفيق.

وأسند النَّاظم ﷺ التزيين في الخلق والخلق إلى المولى تبارك وتعالى، لأنه لا اكتساب فيه للعبد أما الخلق فظاهرٌ، وأما الخلُق فالذي عليه المحقِّقون أن هذه الأخلاق الحميدة جبلية فيمن خصَّه الله بها، وإنَّما المكتسبُ من طريق تزكية النفس وتصفيتها هو قوتها، واستدلُّوا لذلك بأدلَّةٍ ذكروها: منها ما في صحيح مسلم أنه ﷺ قال لرجلٍ: «إنَّ فِيكَ لخصْلَتَيْنِ يحبُّهما الله ورسُوله: الحِلْم والأناة »، فقال: يا رسول الله أنا أتخلَّق بهما أم الله جَبَلني عليهما؟ فقال عليه الصلاة والسَّلام: «بل الله جَبَلَكَ عَلَيْهِما » الحديث، وما ذكره من أن بهاء المنظر ينبىءُ عن حسنِ المَخْبَرِ يشهدُ له ما علَّل به من حصولِ الشبهِ لرسول الله ﷺ، لأن حصولَ ذلك مظنَّةٌ لأوصافِ الكمالِ بلا ريبٍ، ولهذا كان عندَ أهل التحقيق مما يتمدَّح به.

قال سيف الدين الآمدي: جمالُ الوجْهِ وحسنُه مما يتمدَّح به لأنه يتيمَّن به ويدلُّ على الخصالِ الممدوحة، ثم قال ـ أعني الآمدي: وقد غلط من توهَّم أنه لا يدخل في مدح العظماء اهـ، ومما يشهد له أيضاً حديث: «اطْلُبوا الخَيْرَ عِنْدَ حِسَانِ الوُجُوهِ » وهو كما قاله

(1) عَبْلا: إذا أراد «عَبْلاء» فهي الصخرة البيضاء الصلبة، وإذا أراد «عبلة» فهي المرأة التامة الخلْق.

(2) الدَّيْدَنُ: العادة والدأب.

أهل التحقيق يحتملُ وجُوهاً من التفسير: الأول: قيل: معناه اطلبوا الخيرَ عند الحسانِ الوجوه، فإن الخيرَ مقرونٌ بهم. الثاني: اطلبوا الخيرَ منهم، فإنَّهم يصدرُ عنهم الخيرُ بإذن الله تعالى، إذ حسنُ الخلْقِ عنوانٌ لحسنِ الخلُق. الثالث: اطلبوا الخير عندَهم ومنهم، فإن النفسَ تنبسطُ إليهم وتتمتَّع برؤيتهم. وفي الحكمة: اعتمِدْ بحوائجكَ الصِّباحَ الوجُوه، فإن حسنَ الصورةِ أولُ نعمةٍ اهـ. وفي تقديم النَّاظم ﷺ تعالى لهذا خلاف صنيع صاحب «جواهر المعاني» وصاحب اللامية إيماء إلى ما أشار إليه الحديث، ففيه استحثاث للنفوس اللطيفة والهمم المنيفة على الأخْذِ عن هذا الشيخ الجليل حيث ثبَتَ له ما ذكر من الوصف المحمدي الجميل مع ما له من المجد الأثيل والحَسَب الأصيل ﷺ وأرضاه، وهذه أيضاً من لطائف النَّاظم ﷺ تعالى، ثم قال:

(وَحفِظَ القرآنَ في سَبعِ سِنِينْ عَنْ شَيْخِهِ العالِمِ ذِي الدِّينِ المَتِينْ)

(حفظ القرآن) استظهره، والمرادُ برواية نافع، وقوله: (في سبع سنين)، يريد لسبع سنين مضينَ من عمره، وبه تظهرُ المزيةُ خلافَ ما تعطيه عبارة النَّاظم بظاهرها وتبع في ذلك ظاهر عبارة «جواهر المعاني»، ففي كليهما تسامحٌ ظاهر، إذ الثابتُ خلاف ظاهرهما وعبارة صاحب اللامية أصحُّ وأوفق وأصرحُ، ونصه فيها:

وقد حفِظَ القرآنَ سابعَ حجةٍ مُجيداً مَجيداً أيَّ طِفْلٍ بدا طَفْلا

يريد أنه ﷺ حفظ القرآن العظيم سابع حجةٍ أي في سابع حجة من حجج عمره. وقوله في بيت اللامية «مجيداً» بضم الميم من الإجادة أي حفظاً جيداً ومجيداً بفتحها من المجادة والطفل الأول: بالكسر، أي الصغير، والثاني: بالفتح، ومعناه الناعم، فبان لك أن تعبير اللامية بسابع حجة أصرح في المراد من تعبير النَّاظم، ولا سيما مع قرينة قوله: «أي طفل» إلخ، فتأمله منصفاً، نعم قد يقال إن «في» من قول النَّاظم «في سبع» إلخ بمعنى اللام، أي لسبع، بناء على ما نقله الفخر الرازي عن بعض النحاة من أنها تعاقبها في مثل هذا، فيقال: خرجت لعشر بقين وبالليل وفي شهر رمضان، مثلاً، فيستعملُ الباء واللاَّم وفي، وحينئذٍ يشبه أن يتبادر من كلام النَّاظم هنا المراد والله أعلم، و(الشيخ) تقدَّم معناه لغةً وعرفاً، والمراد هنا شيخ التعليم و(العالم) وصف له، و(ذي) بمعنى صاحب، و(الدين) يطلق في اللغة على معانٍ كثيرة أنسبُها بالمقام الإسلام، والعبادة والطاعة والتوحيد، و(المتين) وصفٌ للدين، وهو من «متن» ككرم أي صلب، والمراد ذي الدين الصلب، أي القوي.

يقول: وحفظ الشيخُ ﷺ القرآن العظيم من رواية نافع وقد بلغ من سنه العام السابع، وذلك بقراءته على شيخه الرضي الأمين سيدي محمد بن حمو التجاني الموصوف بالعلم والدين المتين، ولم يسمِّ النَّاظم ﷺ تعالى هذا الشيخ وكانَ من حقه أن يسمِّيه، لأن ذلك وظيفةٌ لا وظيف الشراح. وقد سمَّاه في «جواهر المعاني» وحلاه بالشيخ العالم الأستاذ وذكر أنه قرأ هو أي هذا الشيخ على شيخه سيدي عيسى بوعكاز المضاوي التجاني. قال: وكان رجلاً صالحاً مشهوراً بالولاية، وكان مؤدباً للصبيان بقرية عين ماضي.

وحكى عنه أنه رأى ربَّ العزة في النوم، وقرأ عليه القرآن برواية ورش من أوّله إلى آخره فقال له تبارك وتعالى: هكذا أنزِلَ. وحصَلَ على يديه النفعُ في قراءة القرآن اهـ. وكانت وفاة شيخ الشيخ رضي الله عنهما سيدي محمد بن حمو المذكور عام اثنين وستين ومائة وألف ثم قال ﷺ تعالى:

(وبعدَ ذا اشتغلَ بالعلومِ ... فجعلَ الغامِضَ كالمفهومِ
وحازَ في صِغرِه قصبَ السَّبقْ ... فِيهَا وقُطْره على ذاكَ اتفقْ
أُفتى ودرَّس وذلكْ على ... صِغر سنِّه نَعمْ ونَازَلا)

الإشارة بـ(ذا) المضاف إليه (بعد) إلى حفظِه ﷺ القرآن في السن المذكور، و (اشتغل) من الاشتغال، وهو افتعالٌ من الشغل بالضم، وبضمَّتين ضد الفراغ، يقال: منه اشتغل به وشغل أيضاً كعني، و (العلوم) جمع علم، والمراد هنا الفنون من فِقْه ولغة ونحو ومنطق وبيان وغير ذلك من الفنون، و (الغامض) الخفي من غمض كعقد غموضاً إذا خفي، وأراد به هنا العويص من المسائل العلمية، وأراد بـ(المفهوم) البديهي الذي لا يحتاج فيه إلى تأمل، و (أفتى) من الإفتاء: وهو في عرف الفقهاء الإخبار بالحكم الشرعي، والمراد هنا يعم الجواب عن سائر مسائل العلم فقهاً وغيره، و (التدريس) درس العلم للناس وإلقاء مسائله مفسرة إلى المتعلمين، (وحاز) معناه هنا أحرز، و (السبق) محركاً: الخطَرُ، وهو ما يتراضى عليه المتسابقان، وسبقته بالتشديد أخذت منه السبق، ويقال أيضاً بمعنى أعطيته إياه، قال الأزهري: وهذا من الأضداد، ومن السبق قولهم: أحرز قصب السبق. وأصلُه أنهم كانوا ينصبونَ في حلبة السباق قصبةً، فمن سبَقَ إليها اقتلَعها ليعلم أنه السابق من غير نزاعٍ، ثم كثر استعمالُه حتى أطلق على المبرِّز، والضمير في (فيها) للعلوم، وقوله: (وقطره) القطر معروف، والمراد وأهل قطره فهو من مجاز الحذف، و(نعم) بفتحتين، وقد

تكسر العين، ونعم أيضاً في غير ما هنا كلمة جواب كبلى، إلا أنها أي «نعم» تقالُ في جواب الإيجاب، و (نازلاً) الألف لإطلاق القافية، وهي من المنازلة: وهي نزولُ كلٍّ واحد من المتنازلين في مقابلة الآخر. قال في المصباح: نازَلَه في الحرب منازلةً ونِزالاً وتنازلاً: نزل كلُّ واحد في مقابلة الآخر اهـ وأصله في الحرب، واستعمل في المناظرة في العلم، ويصحُّ في قوله: ونازلاً ونزلَ أيضاً كما في القاموس زيادة على ما في المصباح، والمراد أنه ناظرَ العلماء في صغره.

يقول: وبعد حفظه ﷺ القرآنَ العظيم حفظاً متقناً ووعيه إياه على ظاهر قلبه لسبعةِ أعوامٍ مضَيْنَ من عمره اشتغلَ بتحصيل فنون العلم الظاهر، فرُزق من الملكة فيها القسط الأكبرَ والحظ الوافرَ حتى جعلَ الغامضَ العويص من مسائل تلك العلوم بما أوتيه من قوَّة الإدراك وغزارة العارضة كالبديهي المفهوم، وحازَ بذلك بين معاصريه قصب السباق حسبما أقرَّ به علماء قُطره ووقع منهم عليه الاتفاق، وأفتى ﷺ في تلك السن من استفتاه في سائر الفنون، وأظهر بتدريسه لها خفي سرها المكنون، ونازلَ في ميادين المناظرة أبطالَ الأقران، فاختصَّ فيها بنصر اللواء واجتياز الرهان.

وعقدَ النَّاظمُ رحمه الله تعالى في هذه الأبيات ما أشار إليه في «جواهر المعاني» من أنه ﷺ بعد ما حفظ القرآن اشتغلَ بطلبِ العلوم الأصولية والفروعية والأدبية حتى رأس فيها وحصلَ أسرارَ معانيها، ثم قال: قرأ على شيخِه المذكور مختصر الشيخ خليل والرسالة ومقدمة ابن رشد والأخضري، ثم تمادى في طلب العلم زماناً ببلده حتى حصّلَ من العلوم ما انتفع به، فكان ﷺ يدرِّس ويفتي، وله أجوبةٌ في فنون العلم أبدى فيها وأعاد وحرر المعقولَ والمنقولَ فأفاد اهـ. وذكر في «الجامع» أنه قرأ على شيخه سيدي المبروك ابن بوعافية التجاني المختصر وغيره مما تقدَّم.

قال: وتوفي سيدي المبروك سنة ست وستين ومائة وألف اهـ وراجعه، فقد ذكر فيه ما اختصَّ به سيدنا من العلوم وبعض ما حصل له منها من طريق الوهب الإلٰهي والفتح الرباني ﷺ وأرضاه، وأدامنا دنيا وأخرى في حوزة حماه آمين، ثم قال رحمه الله تعالى:

(ثم ارتقتْ هِمَّته العليّه	إلى اتباعِ السّادةِ الصُّوفيه
نَجَالَ في طلبِ أهلِ الله	عادةً كلِّ عابدٍ أوّاهِ
وعُمْره إحدى وعِشرونَ سَنَه	لله دَرُّ أمِّهِ ما أحسَنَه)

(الهمّة العليّة) العزْم القوي، كذا في المصباح المنير، وهي عندَ الصوفية: عبارةٌ عن

قوى النفس التي يقعُ عنها الانفعال في بعض الموجودات بإذن الله تعالى، يقولون: فلان أحالَ همَّته على كذا، فانفعل له بإذن الله تعالى، أي بقضائِه وقدرِه، فإذا صدق المريدُ في إرادته تكون له همةٌ جمعية لا يقوم لها شيء، قالوا: وهذه الهمة توجَدُ في قومٍ من المريدين يقتلون بها من يشاؤون لأن النفسَ إذا جمعت أثَّرتْ في أجرام العالم وأحواله ولا يعتاصُ عليها شيء بإذن الله تعالى، قال ابن عباد ﵁: وهذه الهممُ تكون للأولياء كرامات، ولغيرهم استدراجاً، كما هو شأنُ العائن والساحر، أعاذنا الله من شرِّهما وشرِّ كل ذي شرٍّ بمنِّه.

و(**الصوفية**): من «تصوَّف الرجلُ» فهو صوفي من قوم صوفية، وهي كلمةٌ مولَّدة كما صرَّح به في «المصباح»، وجزم في «عوارف المعارف» بأنها لم تكن في زمن النبي ﷺ، ثم حكى فيما بعدَ زمانِه ﷺ قولين:

الأول: أن هذا الاسم كان في زمان التابعين؛ لما ذكر عن الحسن البصري أنه قال: رأيتُ صوفياً في الطوافِ فأعطيتُه شيئاً فلم يأخذْ وقال: معي أربعة دوانق يكفيني ما معي. ويشبهُ هذا الذي نقل عن الحسن البصري ما روي عن سفيان الثوري[1] ﵁ أنه قال: لولا أبو هشام الصوفي ما عرفتُ دقيقَ الرياء.

القول الثاني: أن هذا الاسم إنَّما ظهرَ بعد زمان التابعين، قال: لأنهم كانوا في زمن النبيّ ﷺ يسمونَ الرجلَ منهم صحابياً، وذلك لشَرَفِ درجة صحبتِهِ ﷺ، فالإشارة إليها أولى من كلِّ إشارة، وبعد انقراضِ زمنِ الصحابة صارَ من أخذ العلمَ منهم يسمُّونه تابعياً، ثم لما تقادم العهدُ بزمان الرسالة، وتكدَّرت مشاربُ العلوم باتباع الأهواء وغَلَبة الجَهَالة، وغلظت النفوسُ وكثفَ حجابُها، وكثرت العادات، وتملَّك أربابها، وتزخرفتِ الدنيا وكثر خطابها، تفرَّد قومٌ بالأعمال المرضية والأحوالِ السنية، فتهيأ لهم صفاءُ الفهومِ لقبولِ غوامضِ العلوم، ظهَر هذا الاسمُ بينهم، أي اسم الصوفية، وتسمُّوا به وسُمُّوا بذلك اهـ من «العوارف» ملخصاً بمعناه، وغالب ألفاظه. ويحتملُ الجمع بين القولين بأن هذا الاسم كانَ

(1) هو سفيان بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة من مضر، أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى، وسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي فتوارى، وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً سنة (161هـ).
انظر دول الإسلام: 1/ 84، وابن خلكان: 1/ 210، والجواهر المضية: 1/ 250، وطبقات ابن سعد: 6/ 257.

أولُ ظهورِه في زمان التابعين، ولم ينتشرْ كلّ الانتشار إلا فيما بعد زمانهم، حيث صار الأمرُ إلى ما صار إليه مما تقدَّم ذِكرُه، والله تعالى أعلم.

ثم إن هذا الاسمَ كما اختلفَ في زمان ظهورِه اختلف أيضاً في أصلِ التسمية به، فقيل: نسبة إلى الصُوفِ. ووجهت هذه النسبة بوجهين على هذا القول:

الوجه الأولُ: أن هؤلاء السادات الكرام لما آثروا الذبولَ والخمول والتواضُعَ والانكسار والتخفّي والتواري صاروا بمنزلة الصوفة الملقاة التي لا يلتفتُ إليها، فلذلك نسبوا إليها، والمناسبة في هذا الوجه ظاهرةٌ من حيث الاشتقاق، لأنه يقال في النسبة إلى الصوفة صوفي كما يقال في النسبة إلى الكوفة كوفي.

الوجه الثاني: أنه نسبةٌ إلى ظاهر اللبسة لأنهم كانوا يؤثرون لبسَ الصُوف لكونه لباسَ الأنبياء عليهم الصّلاة والسلام، وفي الحديث: «مَرَّ بالصَّخْرَةِ مِنَ الرَّوحاءِ[1] سَبْعونَ نَبِيًّا حُفاةً عَلَيْهِم العباءُ يَؤُمُّونَ البَيْتَ الحَرَام» الحديث. ويروى أن سيّدنا عيسى عليه الصلاة والسلام كان يلبَسُ الصوفَ والشعرَ، والمناسبة في هذا الوجه أيضاً كالذي قبلَه، لأنه يقال: تصوَّف، إذا لبسَ الصوف، كما يقال: تقمَّص، إذا لبس القميص، وقيل: نسبة إلى الصُفَّة[2] التي كانت لفقراءِ المهاجرين على عهْدِ رسول الله ﷺ الذي نزلَ فيهم قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية 273] الآية. قال في «عوارف المعارف»: وهو وإن كان لا يستقيم من جهة الاشتقاق فهو صحيحٌ من حيث المعنى، لمشاكلة أحوالِ الصوفيةِ لأحوالِ أولئك السادات الكرام ﷺ، وذلك لكونهم مجتمعين متآلفين متصاحبين لله وفي الله، وانظر «العوارف».

وقيل: سُمُّوا به لأنهم أهل الصفّ الأول بين يدي الله تعالى، بارتفاع هِمَمِهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم، ووقوفهم بين يديه بسرائرهم. ويؤيِّد هذا القولَ ما قيل من أن هذا الاسم كان في الأصل صفوي نسبةً إلى الصَّفا[3] فاستثقِلَ ذلك فجعل صوفي،

---

(1) الروحاء: من عمل الفرع، على نحو من أربعين يوماً، أو ستة وثلاثين يوماً، وسمّاها كذلك تبع لما رجع من قتال أهل المدينة يريد مكة. انظر معجم البلدان: 3/ 76.

(2) الصُفّة: مكان مظلّل في مسجد المدينة كان يأوي إليه فقراء المهاجرين يرعاهم النبي ﷺ وهم أصحاب الصفّة.

(3) الصفا: مكان مرتفع من جبل أبي قبيس، بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق، ومن وقف على الصفا كان بحذاء الحجر الأسود والمشعر الحرام بين الصفا والمروة. انظر معجم البلدان، 3/ 411.

ويؤيّده أيضاً قولهم: الصوفي من صفتْ سرائره واستقامتْ على الكتاب والسُّنة ظواهره. فقول الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ: التصوّفُ تدريبُ النَّفس على العبوديّة وردُّها لأحكام الربوبية اهـ. إلى غير ذلك من عبارات المشايخ الكاملين التي تنحو هذا المنحى، ويتأيّد بهذا هذا القول. ولا شكَّ أن المدار من جهة المعنى المقصود إنَّما هو على ما يوصل إلى حضرة الملك المعبود، وليس ذلك إلا صفاء السرائر واستقامة الظواهر، فلا يفيد لبسُ الصوف وحدَه فيما هو المراد، كما لا يخفى على أهل السداد، وإنَّما الكلامُ في أصل هذه التسمية، وما نقل في ذلك من الأقوال عن أئمَّة هذه الطائفة الزكية ليظهر وجهُ اصطلاحهم على هذه العبارات حتى يكون الناظر في كلامهم على بصيرةٍ مما قصدوه في هذه الإشارات. وقد ذكروا أن هذا اللفظ، أي لفظ الصوفي، أوقعُ بظاهره كثيراً من عامة الناس في الغرور والالتباس لاعتقادهم أن الصوفي من لَبِسَ ثيابَ الصوفِ المرقَّعة لا غير، ولا سيما إن انضاف إلى تلك اللبسة غزارةُ أقوال، فإنَّهم يعتقدون بلوغَه أعلى درجاتِ الكمال من غير أن يبالوا بما هو عليه من صفاء سرِّه واستقامة ظاهره. وقد قيل: الصوفيُّ لا يفوق بغزارة الأقوال وإنَّما يفوق بوقْعِ الهمَّةِ والحال والتخلية عن رؤية الأعمال.

وقد ذكر الشيخ خالد البلوي ﷺ تعالى في «تاج المفرق» عن بعض من لقيه من علماء المشرق أنه أنشده لطاهر بن الحسين المخزومي هذه الأبيات:

لَيْسَ التصوفُ أن يُلاقِيكَ الفَتَى ... وعَلَيْهِ من نَسْجِ النُّحوسِ مُرَقَّعُ
بِطَرَائقٍ بيضٍ وسُودٍ لُفِّقَتْ ... فَكأنَّه فِيهَا غُرابٌ أبْقَعُ[1]
إنَّ التصوُّفَ مَلْبَسٌ متعارَفٌ ... يَخْشَىٰ الفَتَىٰ فِيهِ الإلٰه ويَخْشَعُ

وأنشده أيضاً:

لَيْسَ التصوُّفُ لبْسَ الصُّوفِ تَرْقَعُه ... وَلاَ بُكاؤكَ إنْ غَنَّى المغنُّونا
وَلاَ صِياحٌ وَلاَ رَقْصٌ وَلاَ طَربٌ ... وَلاَ تَغَاشٍ كأنْ قد صِرْتَ مَجْنونا
بَلِ التصوُّفُ أن تَصْفُو بِلا كَدَرٍ ... وتَتْبَعَ الحقَّ والقرآنَ والدِّينا
وأنْ تُرَىٰ خاشِعاً لله مُكْتئباً ... عَلَىٰ ذنوبِكَ طُولَ الدَّهْرِ مَحْزُونا

وأنشد غير البلوي في المعنى:

تنازَعَ النَّاسُ في الصُّوفيِّ واختَلَفُوا ... وكلُّهم قال قولاً غيرَ مَعْروفِ
وَلَسْتُ أَمْنَحُ هذا الإسمَ غَيْرَ فتًى ... صافى فصوفي حتَّى سُمِّي الصُّوفي

---

(1) الأبقع: ما خالط لونه لون آخر.

اهـ. وعلى كلِّ حال فالمرادُ بلفظة «الصوفية» حيث أطلق جميع طرائق الخير والصلاح. قال في «عوارف المعارف»: والله تعالى ذكر طوائفَ الخير والصلاح، فسمى قوماً أبراراً وآخرين مقرَّبين، وآخرين الصَّابرين، وآخرين الصادقين، وآخرين المخبتين، وآخرين الذاكرين الله كثيراً، وغير ذلك. واسمُ الصوفي يجمع المتفرِّق في هذه الأسماء المذكورة اهـ.

قلت: وهذا بحسب الإطلاق فقط وإلا فمن استقرأ سياق كلامِ المشايخ المؤلفين في علم الطريق علم يقيناً أن الغالبَ عليهم إطلاقه على المقربين خاصَّةً، وقد صرَّح صاحب «عوارف المعارف» عن نفسه بذلك كما سنورِدُه في تقرير هذه الأبيات هنا إن شاء الله تعالى. وقوله: **(جال)** من جال البلاد طافَ بها غيرَ مستقر، و**(العادة)** معروفةٌ، وتجمع على عادات وعوائد، سمِّيت به لأنها تعاوِدُ أي يرجعُ إليها مرَّةً بعد أخرى، و**(العابد)** المطيع لله تعالى، و**(الأواه)** يطلق على معانٍ منها الرحيم، وعليه فالمراد هنا الرحيم لنفسه المشفِق عليها، و**(العمر)** معروف، وهو من: عَمِرَ، كتعب عمراً وعمراً فهو عامرٌ، وبه سمي تفاؤلاً، وبالمضارع يعمر ويتعدَّى بنفسه وبالتضعيف، وتدخلُ لام القسم على المصدر المفتوح منه، والمعنى: وحياتك وبقائك انتهى. و**(الدَّر)** اللبنُ، تسمية بالمصدر ومنه: لله دره فارساً، في سياق التعجب انتهى.

يقول: ثم بعد ما حصل رضي الله عنهما حصَّل من المسائل العلمية والتبريز في ميادين الفنون الرسمية سما به عزمُه القوي وهمّته العلية، وتاقتْ نفسُه الزكية إلى اتباع السادات الصوفية والتقيد بعهود المشايخ الكاملين من أهل التربية، فحن إلى اقتفاء طريقهم والانحياش إلى حزبهم وفريقهم، فبسبب ذلك ومن أجله استَسهَل الصعبَ واستصغر المشاق، فجال البلادَ وطاف الآفاق رغبةً في العثور على من يُوصِله إلى الله كما هي عادةُ كل عابدٍ موفَّق حليم أوَّاه، وكان قد بلغَ من العمرِ إذ ذاك واحداً وعشرين عاماً، فللّه درُّ أمه التي أنجبت به سيداً كريماً هماماً.

وعقد النَّاظمُ في هذه الأبيات الثلاثة ما في «الجامع» وهو ملخص ما في «جواهر المعاني» متفرقاً في مواضع منه. ونصُّ ما في الجامع: فلمَّا شبَّ ﷺ واطَّلع على شيءٍ من كلام القومِ تاقتْ نفسُه إلى أحوالهم والوصول إلى مراتبهم، فلما كان في سنة نيف وسبعين ومائة وألف سافر من بلده عين ماضي إلى مدينة فاس[1] وأحوازِها، قاصداً مطلوبَه وباحثاً

---

(1) فاس: مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر، وهي حاضرة البحر وأجل مدنه قبل أن تختط مراكش. انظر معجم البلدان: 4/ 230.

عما تعلَّقت به همّته من ملاقاة الرجال اهـ. وفي «جواهر المعاني» أنه في هذه الوجهة سمعَ بفاس شيئاً من الحديث، ثم اشتغلَ بملاقاة الرجال. وبلغني على لسان أهل الصدقِ من أصحابه ﷺ أنه في خلال المدَّة التي أقامَها بفاس في هذه المرة كان يحضرُ بعضَ مجالس أهل العلم بها، وأنه ارتحلَ إلى جبل العلم لأخذ القراءة بالتجويد على بعض المتقنين لذلك بتلك البلدة. وفي سفرته هذه لجبل العلم بالقصْدِ المذكور حَبَسه المطرُ بخيمةِ رجلٍ من أهل الغرب نحواً من عشرين يوماً، فلما استوطن فاساً بعد ذلك، وظهر على ذلك الرجل، فحضَر لديه فوصله ﷺ بصِلَةٍ وعهِدَ إليه أن يأتي لأخْذِ مثلها على رأسِ كلِّ سنة، فكان الرجل يأتي على رأس كلِّ سنةٍ، فيجد الصلة مهيَّأَة له دراهم معدودة، وحكايته معروفة بين الأصحاب.

وفي كلام الناظم ﷺ تعالى هنا نكتٌ بديعة تشهدُ له عند من أنصف بحلولهِ من البلاغة وسعة الاطِّلاع المكانة الرفيعة:

النكتة الأولى: في قوله: «ثم ارتقت» حيث أتى بـ«ثم» التي هي للتراخي والمهلة، لإفادة أن ما حصَلَ للشيخ ﷺ من التوقان لاتباع طريق السادات الصوفية لم يكنْ على ما عليه أكثرُ الناس في هذا الزمان من كونهم يدخلون في طريق الإرادة من غير نظر ولا معرفة لحقيقة ما دخلوا فيه ولا لماذا دخلوه، وإنَّما ذلك منهم موافقة لبعض من استحسنوا حاله بالطبع في الوقت لا غير، بل كان تشوُّفه وتَوَقانه ﷺ إلى اتباع طريقهم بعد النظر والمعرفة لما قصد إليه والتحقق بفائدة ما عرّج عليه، كما هو شأن المريد الصادق الموصوف حاله في جواب الشيخ نفسه ﷺ لمن سأله عن ذلك. وملخصه: المريدُ الصادقُ هو الذي عرفَ جلالَ الربوبية وما يجبُ القيام به من حقوق الألوهية، وعَرَف ما عليه نفسُه من العجز والكسل، والإخلاد إلى الراحة والتقاعد عن صالح العمل، وأنه إن قام مع نفسه على تلك الحالة لحقه في الدارين ما لا غاية له من الوبال، فلما عرفَ ذلك رجَعَ بصدقٍ وعزمٍ وجدٍّ واجتهاد طالباً من ينقِذُه من وحْلَتِه، ويحلُّ وثاقَه من أسْرِ شهوته، ويدلُّه على طريق الوصول إلى حضرة رب العباد قال ﷺ: فهذا هو المريدُ الصادق، وأما غيره فهو طالب لا غير، قد يجد وقد لا يجد اهـ. ومن هذا تفهم معنى قولهم: البدايات مَجْلاة النهايات، وقولهم: كل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتمَّ، وذكر في «عوارف المعارف» بسنده إلى إمام الطريقة الجنيد ﷺ أنه كان يقول: أكثرُ العوائقِ والموانع من فساد الابتداء اهـ وأقوالُهم في البداية وتصحيحها وكونها أساساً للنهاية كثيرة، وغرضنا هنا بيان النكتة في إتيان النَّاظم ﷺ تعالى بـ«ثم» ليعلم من ذلك ما تحت عبارته من العلم، وليعرف منه سعة اطلاعه وخصوصاً في علم الطريق ﷺ تعالى ورضي عنه.

النكتة الثانية: في تعبيره بالارتقاء، الذي هو الصعودُ إلى أعلى، إشارةٌ إلى علوّ درجة الصوفيّة على مَن عداهم وشفوف مراتبهم على مراتب من سواهم. وقد تقدَّم لنا في المقدّمة من الكلام في هذا المعنى ما يغني عن إعادته هنا، على أنَّ الكلامَ فيما يشير إلى ما للصوفية على غيرهم من الكمال والفخر ممّا لا يكاد يأتي عليه الحصر.

النكتة الثالثة: في إسناد الارتقاء إلى الهمَّة العلية إشارة إلى أنه قصد بالصوفية خاصّة المقرَّبين، ومعلومٌ أنَّ الهمم العلية لا تتعلَّق إلاّ بالمراتب السنيَّة فيكون النَّاظمُ ﷺ تعالى على هذا جارياً على ما عليه الأكثرون ممن ألف في الطبقات وغيرها في إطلاقهم الصوفية على المقرَّبين، كما صرَّح به في أول «عوارف المعارف» بقوله: واعلم أنَّ كلَّ حال شريف نعزوه في هذا الكتاب للصوفية، فهو حالُ أهل القرب. والصُّوفي هو المقرَّب، ثم قال: ولا يعرف هذا الاسم في طرفي بلاد الإسلام شرقاً وغرباً لأهل القرب، وإنَّما يعرف للمتسمِّين، وكم من رجالٍ مقربين في بلاد الغرب وغيرها لا يسمّون صوفية لأنَّهم لا يتزيُّون بزيٍّ، ثم قال: ولا مَشاحة في الألفاظ فيعلم أنا نعني بالصوفية المقربين اهـ. وقوله: «ولا يعرف هذا الاسم» إلى آخره، يعني في تداول العامة وما هو جارٍ عليه عُرْفُ التخاطب بينهم في الغالب، وإلا فالاستقراء شاهدٌ بأن غالب المشايخ المعتبرين إنَّما يطلقونه على المقرَّبين، بدليل قوله في «العوارف» إثر ما تقدَّم ما نصّه: ومشايخُ الصوفية الذين أسماؤهم في الطبقات وغيرها من الكتب كلّهم كانوا في طريق المقربين وعلومهم علوم أحوال اهـ. يعني: وأنت تعلم أنهم يطلقون عليهم صوفية، فيقال: فلان ألَّف في طبقات الصوفية، وهذه طبقاتُ الصوفية ونحو ذلك، ويؤيّد كون النَّاظم ﷺ تعالى قصد بلفظ الصوفية هنا المقربين ما هو معروف من تفرُّد سيدنا الشيخ ﷺ من علوِّ الهمَّةِ بما لم يذكر مثله عن أحدٍ من أهل هذا الشأن بحيثُ صار يضربُ به المثل في ذلك بين الناس في سائر الأقطار والبلدان، ولولا خشية الإطالةِ لذكرتُ من الحكايات الدالَّة على ذلك ما يشنِّفُ أسماع[1] المعتقدين، ويرغم آناف[2] المنتقدين، ويكفي في الجملة التواترُ والاشتهار، وهل يخفى على الناس النهار؟

النكتة الرابعة: في قوله: «فجال» إلخ، فإن جعله الجولان في طلب الشيخ مسبباً عن تعلق الهمَّة باتباع طريق الصوفية الذي هو نتيجة النظر ولازمه بلا شك، حسبما تقدَّمت

---

(1) شنَّف الأسماع: أمتعها.

(2) الآناف: جمع الأنْف، وهذه كناية عن الإكراه.

الإشارة إليه يشير إلى أن طلبَ الشيخ المرشد واجبٌ، ولو بالسفر إليه، لكن هذا الوجوبُ من طريق النظر لا من طريق الحكم الشرعي حتى يكون تاركه عاصياً في حكم الشرع الظاهر، فإن هذا وإن قالَ به بعض أئمَّة الطريق فقد خالفه سيدنا ﷺ فيما أجابَ به عن هذه المسألة حسبما نقل جميع ذلك في الجيش الكبير.

ونصُّ جواب الشيخ ﷺ في ذلك: ليس في نصوص الشَّرع إلاَّ وجوبُ توفية القيام بحقوق الله تعالى ظاهراً وباطناً على كلِّ فردٍ من جميع العباد، ولا عذر لأحد في ذلك من طريق الشرع، ولا عذر لأحد في غَلَبة الهوى عليه وعجزه عن مقاومة نفسه، فليس في الشرع إلا وجوبُ ذلك، وتحريم غيره لوجوبِ العقاب عليه ولا شيخ يجب طلبه إلا شيخ التعليم الذي يعلِّم كيفية الأمور الشرعية التي يطلب فعلها من العبد أمراً ونهياً وفعلاً وتركاً، فهذا الشيخ يجبُ طلبُه على كل جاهل لا يسع أحداً تركه، وما وراء ذلك من المشايخ لا يجب طلبه من جهة الشرع، لكن يجبُ طلبه من طريق النظر بمنزلة المريض الذي أعضلته العلةُ وعجِزَ عن الدواء من كل جهة، وانعدمت الصحةُ في حقه، فنقولُ له إن شاء البقاء على هذا المرض بقي كذلك، وإن طلبَ الخروجَ إلى كمال الصحَّة قلنا له: يجبُ عليك طلبُ الطبيب الماهر الذي له معرفةٌ بالعلَّةِ وأصلِها والدواء المزيل له، وكيفية تناوله، كمًّا وكيفاً ووقتاً وحالاً والسلام اهـ وراجع كلام من قال من الشيوخ: إن من تَرَكَ طلبَ شيخِ التربية فهو عاصٍ لله تعالى. ووجْهُ ذلك عند القائل به في «الجيش الكبير»، وبذلك يظهرُ لك أن القول الفصل في المسألة هو ما أجاب به شيخنا ﷺ، وبه يتَّضح سرُّ النكتة المشار إليها في كلام النَّاظم رحمه الله تعالى.

النكتة الخامسة: في قوله: «عادة كل عابد» إلخ. إنَّما أتى به عقبَ قوله: «فجال» إلخ تنبيهاً على ما لم يذكره من مقاصد المريدين الصادقين بالسفر في بدايتهم، فإنه لم يصرِّح ممَّا جرت عادتهم أن يقصدوه في السفر إلا بمقصدٍ واحد وهو طلبُ الملاقاة لأهل الله تعالى والحال أن لهم مقاصد متعددة منها، وهو أهمها، هذا الذي صرَّح به وهو طلب ملاقاة أهل الله تعالى، ومنها غير ذلك، وهو ما يشعر به قوله: «عادة كل عابد» إلخ، لأنه أي «عادة» منصوبٌ على المفعولية المطلقة بجال، والتقدير: فجال في طلب أهل الله تعالى جولان عادةِ كل إلخ، أي الجولان المعتاد لكلِّ عابد إلخ، فأما ما صرَّح به وهو طلب ملاقاة الرجال الواصلين والإخوان الصادقين فلمَّا في اللّقى من الفوائد العظيمة والمنافع الجسيمة. قال في «العوارف»: فالمريدُ بلقاء كلِّ صادق مزيد، وقد ينفعُه لحْظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال، وقد قيل: مَنْ لا ينفعك لحْظُه لا ينفعُكَ لفْظُه، وذلك لأن الرجلَ

الصادق يدلُّ على الله تعالى بحالِهِ أكثرَ مما يدلُّ عليه بمقالِه، وأيضاً لأن نظر العلماء الرَّاسخين والرِّجال البالغين ترياقٌ نافعٌ ينظرُ أحدُهم إلى المريد الصَّادق فيستشفُّ بنفوذِ بصيرتِهِ حسنَ استعدادِهِ واستئهاله مواهب الله الخاصَّة، فينظر إليه نظرَ محبَّةٍ عن بصيرةٍ وهم من جنود الله تعالى، فيكسبون بنظرهم أحوالاً سنيةً، ويهبون آثاراً مرضية، إن لله عباداً إذا نظروا إلى شخص أكسبوه سعادة لا شقاوة بعدها اهـ.

وأما ما أشعر به قوله: «عادة» إلخ، فأمورٌ كثيرة جرتْ عادةُ الصَّادقين أن يقصدوها في سفرِهم حالَ بدايتهم: منها: قطعُ المألوفات والانسلاخ عن ركون النفس إلى معهودٍ ومعلوم ونحو ذلك، وفي ذلك من التأديب والتهذيب للنفس واستخراج رعوناتها والاستكشاف عن دسائسها ما لا يخفى على الصادق المحقّ، ولا يكاد يدرك منها بدون السفر. قالوا: وقد يكون أثرُ السفر في نفس المبتدي كأثرِ النَّوافل من الصَّلاة والصَّوم والتهجّد ونحو ذلك، فتطمئنُّ وتلين كما تلين بدوامِ النافلة، ويكون لها بالسفر دباغ يذهب عنها الخشونة واليبوسة الجبلية والعفونة الطبيعية كالجلد يعود من هيئته إلى هيئة الثياب. ومنها: رؤيةُ الأثر والعبر، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: الآية 53] وفي الحديث: «اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَوْ بِالصِّين». وقيل: إن جابر بن عبد الله سافَر من المدينة إلى مصر في شهرٍ لحديث بَلَغه أنَّ عبد الله بن أنيس[1] يحدِّث به عن رسولِ الله ﷺ. وقال بعضُهم: لو سافرَ رجلٌ من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدلُّ على الله ما كان سفرُه ضائعاً. وقيل في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة: الآية 112] إنهم طلابُ العلم اهـ. إلى غير هذا من مقاصدهم الحسنة التي يقصدونها في سفرهم حال بدايتهم. ومما يشهد لتضمُّن كلام النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى لهذه النكتة التي ذكرناها هنا كونه اعتنى في هذا النظم كثيراً بعقد ما في «الجواهر»، وقد سبق لنا أنه ذكر فيه عن الشيخ رضي الله عنه أنه سمِعَ في هذه الوجهة بفاس شيئاً من الحديث مع ما قدمناه عن الثقات من حضوره بعضَ مجالس العلم بها أيضاً، وقصده إلى أخذ التجويد عمن تيقَّنه، فليقدر الناظم من أجل ذلك قدرَه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى وقدَّس سره.

النكتة السادسة: في قوله: «لله درّ أمه» إلخ، فإنه لما ذكر عن الشيخ رضي الله عنه توقانه

---

(1) هو عبد الله بن أنيس، أبو يحيى، من بني وبرة، من قضاعة ويعرف بالجهني وليس بجهني، صحابي، من القادة الشجعان، من أهل المدينة، كان حليفاً لبني سلمة من الأنصار، وقاد بعض السرايا في العصر النبوي، ورحل بعد ذلك إلى مصر، وتوفي بالشام سنة (54هـ).
انظر إمتاع الأسماع: 1/254، والإصابة، ت (4541)، وأسد الغابة.

وشغفه باتباع طريق أهل الله تعالى في السن التي ذكرها، التي هي معظم سنّ الشباب الذي هو ليس بمظنَّةٍ لذلك أثنى عليه من أجل ذلك بقوله: «لله در أمه» إلخ، وعدل في ثنائه عليه إلى صيغةِ التعجُّب دون غيرِها من صيغ الكلام إيماءً إلى ما ورد: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ شَابٍّ لَيْسَ لَهُ صَبْوَةٌ» فافهم الإشارة، والله تعالى يتولّى هُدانا وهداك.

ثم قصد النَّاظمُ رَحِمَهُ اللهُ تعالى إلى ذكر بعض من لقيه الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في رحلته هذه أو أخذ عنه من المشايخ الكاملين والعارفين الواصلين رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أجمعين، فقال رَحِمَهُ اللهُ تعالى:

(فَكَانَ مِن جُمْلَةِ مَن أَتَاهُ	مِنْ أَوْلِيَاءِ عَصْرِهِ الأَوَّاهُ
سَيِّدُنَا الطَّيِّبُ خِلْفَةُ الفَضْلِ	وَفَارِسُ الحَلْبَةِ أَحْمَدُ الصَّقَلِ
وَغَيْرُ هَذَيْنِكَ مِنْ أَهْلِ المِنَنْ	كَسَيِّدِي مُحَمَّدٍ نَجْلِ الحَسَنْ
وَهُوَ الَّذِي قَالَ لِهَذَا الكَامِلِ	تَدْرِكُ لَا بُدَّ مَقَامَ الشَّاذِلِي)

الضمير البارز في قوله: (أتاه) راجع للموصولِ الذي هو (من) وهو مفعول «أتى» والمستتر فيه للشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو فاعله، و(الأواه) اسم كان، و(من جملة) إلخ خبرها، ومن قوله: (من أولياء عصره) لبيان من الموصول، والأولياء جمع ولي، وقد تقدَّم، والمراد هنا المشايخ الذين أهَّلهم الله تعالى لهداية الخلق وإرشادهم بطريق التربية والترقية، و(العصر) الزمان، و(الأواه) تقدَّم أنه يطلق على معانٍ، والأنسب هنا الخاشع المنيب. قالوا: وهو من التأوه، وهو التوجُّع والتحزُّن والنطق بأواه أواه[1]، و(سيدنا الطيب) المراد به الشيخ الكامل والعارف الواصل القطب مولانا الطيب بن محمَّد اليملحي العلمي دفين وازان، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعن أسلافه الكرام، و(خلفة) بالكسر: اسم من خلفته: جئت بعدَه، و(الفضل) أصله الفضلاء فرخَّمه لضرورةِ الوزن والقافية، و(الحلبة) على وزْن سجدة: خيل تجمَعُ للسباقِ من كلِّ أوبٍ ولا تخرج من وجه واحد، يقال: جاءت الفرسُ في آخر الحلبة أي في آخر الخيل، وهي بمعنى حلبة، ولذا تجمع على: حلائب، و(الصقل) أراد به الصقلي فرخَّمه أيضاً كالفضلاء، والمراد القطبُ الكبير والعلم الشهير مولانا أحمد الصقلي دفين فاس؛ الإدريسية، وأحد أركان الطريقة الخلوتية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والإشارة بقوله (هذينك) إلى هذين الشيخين الجليلين، و(المنن) جمع منة: وهي العطية، و(النجل) هنا الولد، والمراد بسيدنا (محمد نجل الحسن) الولي الصَّالح العارف المكاشف سيدي محمد بن الحسن

---

(1) أوّاهْ: اسم فعل مضارع مبني على السكون بمعنى أتوجع واتضجّر، ومثلها: أَوَّهْ، أَوْهِ، أَوْهْ، وربما قلبوا الواو ألفاً فقالوا: آهِ، أو: آهٍ من كذا.

الوانجلي، نسبة لبني وانجل: قبيلة معروفة بجبل الزبيب، والإشارة في قوله: (لهذا الكامل) للشيخ رضي الله عنه. و(الشاذلي) هو شيخ الطريقة وإمام أهل الحقيقة مولانا أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه.

يقول: إن الشيخ رضي الله عنه وأرضاه لما سافرَ من بلده إلى فاس الإدريسية وما بإزائها من الديار المغربية بقصْدِ العثور على من يأخذ بيده ويوصله إلى حضرة المعرفة بالله كان من جملةِ مَنْ قصده لذلك المطلب وأتاه، السيد الجليل الماجد الأصيل الخاشع المنيب الحليم الأوَّاه، قطب زمانه ومصباح أهلِ أوانه الشيخ أبو محمد مولانا الطيب ابن القطب سيدي محمد ابن القطب مولانا عبد الله الشريف، خلفة آبائه الفضلاء الأعيان القائم بأعباء التربية والترقية بعدهم في زاويتهم الشهيرة بوازان، وكذلك القطب الكبير والعلم الشهير فارس حلبة هذا الشأن المختصّ فيه بالتبريز مولانا أحمد الصقلي الشهير بفاس، رضي الله عنه وقدّس سرَّه العزيز، وكذا غير هذين الشيخين الأعظمين الإمامين الأكرمين ممن كان من أولياء عصرِه من أهل المِنَن الربانية والمواهب الرحمانية، مثل العارف المكاشف سيدي محمد بن الحسن الذي قال له أول ملاقاته معه قبل أن يكلِّمه بشيء: لا بد أن تدركَ مقام القطبِ الكبير مولانا أبي الحسن، يعني الشاذلي، رضي الله عنه وعن أولياء الله أجمعين.

وعقد النَّاظمُ رحمه الله تعالى في درر هذه الأبيات اللوامع ما ذكره صاحبُ «الجواهر» وصاحب «الجامع» إلا أنَّهما اتفقا فيما ذكراه وتواطآ كلاهما فيما أخبرا به وسطَّراه على أن مولانا الطيب المتقدِّم الذكر هو أولُ من لقيه الشيخ رضي الله عنه من المشايخ الكمل ذوي الثناء والفخر، وليس في عبارة النَّاظم رحمه الله تعالى ما يفيد هذه الأولية ولا ما ينبه على هذه المزية، والله أعلم بموجبِ إغفاله لذلك، وعدم تعريجه على ما اعتنى به غيره في التعبير عما هنالك، ففي اللامية:

فـأوَّلُ مـن لاقـاهُ والـطَّـيـرُ غـالـبـاً	علىٰ جِنْسِها وقاعة تَبْتَغي الشكلا
لقى الطيب بن الطيب مولاي باغيا	طـريـقـتـه مـن بـيـن مـصـمـودة نـهـلا
وشـهـرتُـه تـغـنـي بـوازان قـبـره	فلقى من تلقينه الرحبَ والسَّـهلا

إلى آخر كلامهِ فيها، وفي قوله: «والطير غالباً» إلخ، تصريحٌ بذكر المزية التي أشرنا إليها في الأولية. ففي تعبير النَّاظم رحمه الله تعالى بعض قلق، وكأنه اكتفى في الإشارة إلى ما ذكره بتقديمه في الذكر على غيره، والله تعالى أعلم. فأما مولانا الطيب رضي الله عنه فقد أخذ عنه الشيخ رضي الله عنه وِرْدَه وأجازه في تلقينه لمن طَلَبه منه، فامتنع الشيخ رضي الله عنه من المساعدة في التلقين لاهتمامه رضي الله عنه في ذلك الوقت بأمر نفسه وعدم تفرُّغه فيه لملاقاة أحدٍ من أبناء

جنسه، ولأنه لم يتحقق بحقيقة مقام الشيخ المذكور في ذلك الوقت، وهذه إحدى القضايا الدالَّة على علوِّ همَّته الذي تفرَّد به ﷺ وجَبَله الله عليه في أصل فطرته، فهذا الشيخ ﷺ أحدُ الشيوخ المعتبرين لسيدنا الشيخ ﷺ في أول أمره، وناهيك به من شيخٍ كامل، وقدوة واصل، وشهرتُه كافية عن التعريف به. وكانت وفاته ﷺ يوم الأحد ثامن عشر شهر ربيع الثاني عام واحد وثمانين ومائة وألف، ذكره بعض من ألَّف في مآثره ومآثر أسلافه ﷺ من فضلاء فاس وشرفائها، ووقع في «الجواهر» عام ثمانين فانظره.

وممَّا أوصىٰ به بعضُ أصحابه ممن كان مقدّماً على إخوانه في الطريق: استوصِ خيراً بإخوانك ما استطعت، واحرصْ على التخلُّق بالحلم جهدك، فقد كاد الحليم أن يكون نبيًّا، وازهد فيما في أيدي النَّاس يحبك النَّاسُ، وازهدْ في الدنيا يحبك الله، وإذا هدى الله على يديك رجلاً واحداً خيرٌ لكَ من كلِّ شيء اهـ.

وممَّا أوصىٰ به جماعةٌ من فقرائه، وقد وردوا عليه زائرين من فاس، وكان فيهم من هو من أبناء الصالحين الكبار ما نصُّه: إنكم جئتم لزيارة أشياخكم ساداتنا، وقد أحسنوا إليكم وكسوكم، فلا تنسوا ثيابكم، وأعينوهم بأن ترفعوها عن الأوساخ والأزْبالِ، ولا يكنْ لأحد منكم التفاتٌ لغير هذه الدار، ولا يقلْ أحدٌ عندي أبي وعمِّي وماؤكم بينكم، فإن توافقتم شربْتم وانتفعتم، وإن تنازعتم غارَ ماؤُكم وظمئتم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الانفال: الآية 46] الآية، وإن كنتم وحدَكم فلا جُناحَ عليكم أن تبشِّروا وتنفِّروا، فإن الشيخ على رؤوسكم كالغطاء يستركم، وإذا جلسَ معكم من ليس منكم، فاحفظوا ألسنَتكم، واعلموا ما تقولون. ثم حكى ﷺ حكايةً على طريق ضرب المثل لما أوصىٰ به فقال: كان بعضُ النَّاس يقوم باللَّيلِ يسأل الله تعالى في حاجة يسمِّيها ويعيِّنها، يعني والحالة أنه وحدَه وليس معه أحد، قال: فقام ليلةً على عادته فوجَدَ رجلاً نائماً إلى جنبه قد غطَّى رأسه وقدميه، لم يعرفه فرفع يديه وقال: يا ربِّ، أسألك الحاجة التي سألتُكها البارحة ولم يسمِّها اهـ. وإنَّما آثرتُ ذكر هاتين الوصيتين من كلام هذا الشيخ الجليل القدر، ليزداد الناظرُ فيهما معرفةً بمكانته القصوى من مقام التربية وكمالِ إرْثه للأخلاق المحمدية، ولأنهما مشتملتان على أمَّهات الآداب التي لا يستغني عنها أحدٌ من الفقراء في الوقت، فلا شك أنها رشحةٌ من رشحاتِ الكمل العارفين بأنواع الأدوية والعلل، فما أجدرَ كل واحد من الفقراء الصادقين بحفظها والمحافظة على العمل بما فيها.

ومما تضمنته هاتان الوصيتان تعرفُ ما أشارَ إليه النَّاظمُ بقوله: «خلفة الفضلاء» أي تعرف أنه ورِثَ مقامَ أسلافه في الدلالة على الله وكمال المعرفة بالله، لأنه خلف أخاه

القطب مولانا التهامي، وهو خلف والدهما القطب سيدي محمد، وهو خلف جده القطب مولانا عبد الله الشريف. ولا علينا أن نتعرَّضَ هنا لنبذةٍ من التعريف بهؤلاء السادات الكرام حيث جرى في النظم ذكرهم، لما في ذلك من مزيد الفوائد السنية المعينة للمريد الصادق فيما هو بصدده من سلوك طريق التزكية، فنقول:

أوَّلُ من نزلَ بوازان من هؤلاء السادات الأعيان جدُّهم القطبُ الأشهر مولانا عبد الله الشريف، وكان في أولِ أمره يبحثُ عن أهل الخير والصلاح، ويطلب من يدلُّه على طريق الرشد والفلاح، فدلَّ على الشيخ الكبير العارف الشهير سيدي أحمد بن علي الصرصري أحد أركان الطريقة التباعية الجزولية الشهيرة بغربنا، فوَفَد عليه زائراً، ثم انقطع إليه وعوّل في سلوك طريق الإرادة عليه، فجعله في بستان له يخدم فيه، ويصلح ما يحتاج إليه فبقي على ذلك مدةً، ثم وجهه إلى تطوان بقصد قراءة العلم، ثم منها إلى فاس، فلازم قراءة العلم بها مدة، وظهر له خلال مدة إقامته بها كراماتٌ كانت على ما صارَ حاله إليه أمارات وعلامات. ولما توفي شيخه الصرصري ﷺ، وذلك سنة سبع وعشرين وألف نزلَ مدشر شقزة من قبيلة مصمودة، وانعزلَ عن الناس للخلوةِ للعبادة، ومكث نحو أربعة عشر شهراً لا يخرج ولا يلقاه أحدٌ إلاَّ رجلٌ واحد من الشرفاء اسمه سيدي عبد الكبير إعلوات، كان يأتيه بما يحتاج إليه، وحدَّث عنه أنه ما دَخَلَ عليه في وقت من ليل أو نهار إلاّ وجدَه قائماً على قدميه يقول: اللهمَّ صلِّ على سيّدنا محمد النبيّ الأمّيّ وعلى آله وصحبه وسلم، لا يفترُ عن الصلاة على النبي ﷺ إلاّ إذا كان متلبساً بالصلاة.

وحدَّث أيضاً أنه دخَلَ عليه صبيحة اللَّيلة التي فتح عليه فيها في وقتِ الغلس فوجَدَه مستلقياً على الأرض، فأنكرَ ذلك من حاله، فكلّمه في ذلك، فأخبره بأنه قد فتح عليه وقال: دخَلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ فقال لي: يا عبد الله امددْ يدَكَ ورجلك واقبلْ من جاءك، فمن قبلهما فهو آمِنٌ من النَّار، فاعتذرَ للنبيّ ﷺ بأنه لا يقدرُ على ملاقاةِ النَّاس، فأعادَ ﷺ عليه كلامه الأول، فاشتكى أمراً آخر من ملاقاة الناس، فأعاد ﷺ كلامه عليه ثالثاً، فعند ذلك خرج وانتصب لدعوة الخلْقِ إلى الله تعالى، وكان من أمره ما هو مشهور. ثم انتقل من مدشر شقزة ونزل المغال فضاقت به فارتحلَ ونزل وازان بدار سيدي أبي سلهام في القديم.

وذكروا أنَّ وِرْده كان من الصلاة المذكورة عشرين مائة ألف وأربعمائة ألف، وهو من باب خرْقِ العادات ولا غرابة في ذلك من أمثاله.

ويحكى أنه ﷺ ذكر له عن رجل أنه يختم القرآن في نصف ساعة فقال: الرجل

عندهم هكذا بختمةٍ وهكذا بختمةٍ، وأشار برأسه يميناً وشمالاً، وكانت وفاة مولانا عبد الله الشريف هذا سنة تسع وثمانين وألف، ثم خَلَفه من بعده ولدُه القطب سيدي محمد، وقد ذكر له من عرف به من الأخلاق الزكية والأحوال السنية ما يبهرُ العقول، ولا يفي بشرحه المقول، وكان على طريقة والده من الإكثار من الصلاة على النبيّ ﷺ آناء اللَّيل وأطرافَ النَّهار، وكان كثيراً ما يقول: ما نالت الرجالُ أعلى المقامات إلا بكثرة الصلاة على النبيّ ﷺ. وكانت وفاته رضي الله عنه ليلة الجمعة التاسع والعشرين من محرم سنة عشرين ومائة وألف. ثم خَلَفه ولده القطب مولانا التهامي وكان على طريقة والده وجدّه من كثرة الصلاة على رسول الله ﷺ، وكان أيامَ طفوليته يخدمُ جدّه مولانا عبد الله، فكان يحمله المشاق حملاً له على مكارم الأخلاق، وكان يلازمه في الحضرِ والسفر، كثير التعظيم له، وكان إذا أراد الصلاة أتاه بالوضوء ووقف على رأسه حتى يفرغ، فيقدم له نَعليْه ليلبسهما، فبينما هو واقفٌ ذات يوم على رأسه والنعل بيدِهِ إذ حضرَ له أن نعل القطب لا تحملُ كذلك، فجعلها تحت إبطه، ثم بعد أيام حضر له أنه ينبغي لها أن توضَع على القلبِ، ففعل ذلك أياماً، ثم حضر له أنه لا ينبغي لها إلا أن توضَع على الرأس ففعل بها ذلك مدَّةً، وكان إذا فرغ جده من الوضوء وأراد أن يرفعَ رأسَه أزالها بسرعةٍ حتى لا يراه، فذُهِلَ مرَّةً فرآه والنَّعلُ على رأسه، فقال له: ما هذا؟ فقال: يا سيدي لو كان عندي موضعٌ أعلى من الرأس لجعلْتها عليه، فدعا له وقال: اللهمَّ نفِّعه منّي كما انتفعت الأرضُ من السماء، وأعاد له الدعاء بذلك مراراً، فكان من أمرِه ما كان. وكان يتبرَّأ من الدعوى أتمَّ براءة.

ويحكى أن رجلاً من فقراء أبيه عَرضَ له وهو بفاس فحَلَف له بالطلاق لا رفعت قدماً حتى تخبرني بمقامك بين الأولياء، فقال له: إنَّما أنا كالأرض والأولياءُ كالأشجار، فأشار إلى أنه قطب، لأن الأشجار لا تنبتُ إلا بالأرض ولا تستقلُّ بدونها، لكن أتى بذلك على وجْه تبرّأ فيه من الدعوى وتفصى من العُهدة لكمال أدبه مع الله تعالى.

وكانت وفاتُه رضي الله عنه يوم الإثنين مَهَلَّ المحرم الحرام فاتح سبع وعشرين ومائة وألف.

وفي هذا القدر مما قصدنا التعرُّض إليه هنا مما يتعلَّق بقول النَّاظم خلفة الفضلاء كفاية، والله ولي التوفيق والهداية.

وأما القطب مولانا أحمد الصقلي المذكور فهو معروفٌ بفاس واضحٌ مشهور وسياق النظم يعطي أن سيدنا رضي الله عنه أخذ عنه أو تبرَّك به لعَطْفه على القطب قبله وليس الأمر كذلك، إذ الثابتُ مما بلغنا عن الشيخ رضي الله عنه أنه شاهدَه في هذه الوجهة بفاس وأبصره ولم يأخذْ عنه شيئاً، بل لم يكلِّمه في شيء أصلاً فيما أخبر به عن نفسه وذكره، وقد صرَّح صاحب

«الجامع» بذلك وبيَّن وجه العلَّة فيما هنالك، فراجع كلامه فيه متمهلاً منشداً في تلك الحال السنية متمثلاً:

وإذَا كـانَـتِ الـنُّـفـوسُ كِـبـاراً تَـعِـبَـتْ فِـي مُـرادِهَـا الأجْـسَـامُ

فالعلَّة فيها كالعلة في الامتناع في مساعدة القطب قبله في تلقين وِرْدِه للناس من اشتغاله بما أهمَّه من أمر نفسه مع ما أوقعه فيه ظاهرُ الحال في ذلك الوقت من الالتباس، على أن العلَّة في ذلك على الحقيقة هي أن سوابقَ العناية الربانية أبَتْ أن تكون عليه منةٌ إلا لسيد الوجود وأشرف الخليقة ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم، فسرِّحْ فيما ذكرته لك النظرَ واعرفْ منه لماذا اتخذت السلاليم في السفر؟ وكيف تقف دون الغاية همَّة من تسنَّم كاهِلَ العناية؟ وقد ناداه هاتفُ الحقائق، وخاطبه لسان سرِّه الناطق ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: الآية 65].

ولنقصرْ العنانَ عما جمحَ بنا فيه القلمُ واللسان، وأستغفر الله العظيم إن الله غفور رحيم. هذا، وقد كان سيدنا جعلنا الله في حماه، ومتَّعنا وسائرَ الأحبة برضاه، بعدما فتح عليه بما فتح، ومنح من سرِّ التخصيص ما منح، كثيراً ما يلهج بالتعريف بهذا القطب الجليل وينبىء عن حقيقة أمرِه وينوِّه على رؤوس الأشهاد بعُلى قدره وسنى فخره، ويصرِّح بأن دفنه داخلَ حضرة فاس من المزايا التي تتأرَّج[1] بها من بقاعها الأنفاس، ولا محالة أن ذلك مشاهَدٌ لمن ألهَمَه الله الفهم عنه رأيَ العين واضحٌ أتمَّ وضوح، بلا ريب ولا مين[2].

ولتتفطَّنْ في هذا الذي ذكرناه هنا لما تحت العبادة من مكنون الإشارة: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النُور: الآية 35] من العبيد، ويختصُّ من شاء بالكرامة والمزيد: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الانبياء: الآية 23] سبحانه، ثم إذا تفطنت لذلك وعقلت ما هنالك: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ [النَجم: الآية 29]، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا﴾ [العنكبوت: الآية 43] فهنيئاً ثم هنيئاً لفاس بجيادها وينبوع إمدادها: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الاحزاب: الآية 4].

وأما سيدي محمد بن الحسن الوانجلي ﷺ: فهو كما في «الجواهر» من بني وانجل من جبل الزبيب، وَرَد عليه سيدنا ﷺ فقال له قبل أن يكلِّمه بشيء: إنَّك تدرك مقام الشاذلي ﷺ حسبما تقدَّمت الإشارة إليه في سبك النظم، وكاشَفَه بأمور كانت بباطنه،

(1) تتأرَّج الأنفاسُ: تتأثر برائحة جثمانه الطاهر الزكي، وقد انتشرت رائحته الطيبة وتنشقتها الأنفاس. والأرَجُ: الرائحة الزكية الطيبة.
(2) المَيْن: الكذب والخداع.

وأخبره بما ينتهي إليه أمره، ولم يأخذ منه سيدنا ﷺ. وكانت وفاته حدود خمسة وثمانين ومائة وألف.

وأما من لقيه ﷺ في هذه الوجهة ممَّن أشار إليه النَّاظم بقوله: «وغير هذينك» إلخ. فمنهم الولي الصالح المرشد الناصح سيدي عبد الله ابن سيدي العربي ابن سيدي أحمد ابن سيدي محمد بن عبد الله من أولاد معن الأندلسي ﷺ وعن سلفه الصالح، لقيه سيدنا ﷺ وذاكَره في أمور، ثم لما أراد توديعه دعا له بخير، وكان آخر ما افترقا عليه أن قال له: الله يأخذُ بيدك ثلاثاً، ولم يأخذْ عنه سيدنا ﷺ لأن طريقهم طريق الإشراق. وكانت وفاته سنة ثمان وثمانين ومائة وألف.

ومنهم الولي الصالح الملامتي أبو العباس سيدي أحمد الطواش نزيل تازة، لقيه سيدنا ﷺ بتازة، فلقّنه ذِكْراً وقال له: الزم الخلوة والوحْدة والذكرَ واصبرْ حتى يفتح الله، فلم يساعِدْه على ذلك فقال له: الزم هذا الذكرَ من غير خلوةٍ ولا وحدة. قال في «الجامع»: وعين لي سيدنا هذا الذكر وقال لي: ذكرته مرَّةً وتركته. وكانت وفاة هذا السيد بتازة ليلة الثامن عشر من جمادى الأولى سنة أربع ومائتين وألف. وذكر صاحب «الجواهر» أنه اتفق له مع هذا السيد كرامات عديدة، وأنه سمع منه ما ينبىءُ عن تصريفه بتلك البلدة، وأنه أخبره بما يصله سيدنا ﷺ من المقامات. وكان ذلك وفق ما أخبر ﷺ وهؤلاء السادات هم الذين لقيهم سيدنا ﷺ في وجهته الأولى لفاس، وأخذ عمن أخذ عنه منهم، ودعوا له وبشَّروه بما بشَّره به الأولياء الأحياء. وأما الأمواتُ فقد أخذ عدة من طريقهم عمن كان يلقنها. فأخذ القادريةَ عمن كان مشتهراً بتلقينها إذ ذاك بفاس، وأخذ الناصرية عن سيدي محمد بن عبد الله التزاني الشهير بالريف، وأخذ طريق العارف الأكبر سيدي أحمد الحبيب السلجماسي الصديقي عمن كان يأذن فيها بفاس ثم رآه في عالم النوم فلقنه اسماً، كل ذلك يتركُه بعد مدَّةٍ طلباً للأعلى مهما ظهر له كما هو شأن أهل الهمم العوالي الذين لا يرضون إلا بالرتب الغوالي، وسيأتي ذكر من عدا هؤلاء الأعلام، ممن لقيه في وجهته لبيت الله الحرام.

ثم أشار النَّاظم رحمه الله تعالى إلى قول سيّدنا ﷺ من رحلته هذه فقال:

(وبَعدَ ذَا رَجَعَ للصَّحاري	ثمَّ أتى مدينةَ الجدارِ
ودرَس التفسيرَ والعلمَ وجَز	في قرعِ بابِ الملِكِ المولى الصَّمَدْ
فاحتازَ ما احتازَ مِنَ العبادةِ	والحَزمِ والتشميرِ والإفادةِ
فبَرقتْ بوارقُ الفَتحِ عليه	وظَهرتْ خَوارقُ العزِّ لديه

فكان يفتتن من تراه ... لحسنه جميع من رآه
فأقبل الناس عليه فزجز ... وشرد الفرار عنهم ونفز

(الصحاري) جمع صحراء وهي معروفة، والمراد بلده ﷺ و (مدينة الجدار) تلمسان[1] و (تدريس العلم) إقراؤه للناس، و (التفسير) هو الوقوفُ على أسبابِ نزول الآية وشأنها وقضيَّتها، ولا يجوز إلا بالسماع والتأويل: ما يرجع في كشفه إلى معنى الكلمة، وتلخيصه والتفسير: ما يتعلق بالرواية. والتأويل: ما يتعلق بالدراية، ويطلَقُ علم التفسير على ما يعمهما وهو مراد النَّاظم ؒ تعالى، إذ مراده تدريسه، أعني الشيخ ﷺ، أي إقراؤه للناس تفسير القرآن العظيم، ولا بد فيه من الحمْلِ على المعنيين كما لا يخفى، والله أعلم. وعطفه «العلم» على «التفسير» من عطف العام على الخاص، ومراده سائر ما عدا التفسير من الفنون العلمية، و (الجد) الاجتهاد، وهو من باب ضرب وقتل والاسم بالكسر، و (قرع الباب) نقره، والمراد هنا صدق التوجُّه إلى الله حال التقرب إليه سبحانه بما شرعه على الوجه الذي يرضاه كمًّا وكيفاً ووقتاً وحالاً، جهدَ الاستطاعة، و (الملك) من الأسماء الحسنى جلَّتْ وتقدَّست، ومعناه الذي له كمال القدرة والاستقلال بالتصرف العام بلا حجر، وله الأمر المطاع والنهي المتبع والوعد والوعيد والجزاء بالثواب والعقاب بلا معارض ولا معاند، وحظ العبد منه لزومُ الخدمة والذلّة والتعظيم والمخافة والرجاء والحياء مع الوقوف بالباب، ورفع الكلمة عن جميع الأكوان بالانتماء إلى علي ذلك الجناب اهـ من بعض شروح أسماء الله الحسنى بلفظه، و (الصمد) من الأسماء الحسنى أيضاً ومعناه: الذي يصمد، أي يلجأ إليه في جميع الحاجات، وإليه ينتهي السودد ويتوجَّه إليه في جميع الأغراض، لأنه الكفيل وحدَه بقضائها، ولا يحتاج إلى سواه أصلاً، وحظ العبد منه ظاهر لا يخفى اهـ من الشرح، وهو أي حظ العبد التوجه إلى جلال الربوبية بتحقق الافتقار وصدق العبودية، والاكتفاء به عمن سواه تعديلاً واستناداً في الظاهر والباطن، وبما ذكر من شرح الاسمين العظيمين تعرفُ وجْهَ المناسبة في إتيان النَّاظم بهما هنا، فللّه درّه ما أغزرَ علومَه وأدقّ أنظاره وفهومه، و (احتاز) مطاوع[2]: حاز الشيء، ضمَّه إلى نفسه، و (العبادة)

---

(1) تِلِمْسان: وبعضهم يقول «تِنِمْسان» بالنون عوض اللام، بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسوّرتان، بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب، فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس، واسم القديمة أقادير يسكنها الرعية، ويزعم بعضهم أنه البلد الذي أقام به الخضر عليه السلام الجدار المذكور في القرآن. انظر معجم البلدان: 2/ 44.

(2) الفعل المطاوع كما قال النحاة: هو الفعل اللازم للمتعدي، كما نقول: كسرتُ الزجاج، فانكسر، وكسَّرته فتكسَّر، أي طاوَعَ الفعل اللازم الفعل المتعدي، فأصبح المفعول به فاعلاً.

قال الرازي[1]: التذلُّل، ومنه: طريق معبَّد، أي مذلل، قال: ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ، لأن جماعةً عبدوا الملائكة والمسيح وما أطاعوهم، قال: ولكن في الشرع صارت اسماً لكلِّ طاعة لله أدِّيت له على وجْهِ التذلُّل والنِّهاية في التعظيم اهـ. و(**الحزم**) إسرار الأمور في غاية الضبط والإتقان ظاهراً وباطناً، ومنشؤه العقل الكامل، و(**التشمير**) معروف، و(**الإفادة**) مصدر أفاده إفادة، والمراد إفادة الناس من علومه الجليلة، و(**برقت**) لمعت، و(**البوارق**) جمع بارقة، والمراد بالبوارق اللوامع واللوائح.

وحاصل هذه الألفاظ يرجع عند أهل الطريق إلى معنى واحد وهو: مبادي الحال ومقدماته، والمراد والله أعلم الفيضُ الذي يرِدُ على العبد قبلَ الفتْحِ من أنوار الحضرة الإلَهية، وعلامته أنه إذا سرى في الذات حمَلَها على طلب الحقِّ ومَنَعها من الباطل عملاً وحالاً، ولا بد لهذا الفيض أن يتقدَّم الفتح في حقِّ السالك، قاله سيدنا ﷺ، ولذلك أضاف النَّاظم البوارق للفتح. و(**الفتح**) هو زوالُ الحُجُب الحائلة بين العبد وبين حضرة القدس، قال سيدنا ﷺ: وهي مئة ألف حجاب وخمسة وستون ألف حجاب، و(**الخوارق**) جمع خارقة، وهي الأمر الخارق للعادة المسمّى كرامة، والمراد هنا أحد أنواعها وهو حسبما صرَّح به في «جواهر المعاني»: ما ظهر عليه من الفيضان، وجرى منه على المنطق واللسان مما أشرق به باطنه من التوحيد والعرفان، وأضاف «الخوارق» إلى «العز» لأنها نتيجة استقامة فلا خِزْي يلحق صاحبها ولا ملامة، و(**الافتتان**) هنا: الأخذ بمجامع القلوب محبَّةً وتعظيماً، و(**مرآه**) رؤيته، أي النظر إليه، و(**الحسن**) المراد به هنا السمتُ والبهاء، أي ما يلوح على الأسرة من الجمال والسناء، و(**زجر**) منع وكف بعنف وشدة، و(**الفرار**) الهرب، و(**النفور**) معروف.

يقول: وبعد هذا الذي ظفر به سيّدنا ﷺ في سفره هذا من قضاء مهمته أسرع بالرجوع إلى الصحراء مقرِّ آبائه ومحلِّ نشأته، مؤيداً لما هو المطلوب منه شرعاً من تعجيل أوبته وعاملاً على أمر السيد الوانجلي المذكور ومقتضى إشارته، فإنه هو الذي أشار عليه بذلك وأخبره من طريق كشفه أن فَتْحه لا يكون إلا هنالك، وقصد إلى بلد الأبيض حيث زاوية الشيخ الكبير سيدي عبد القادر بن محمد المعروف بسيدي الشيخ القطب الصديقي الشهير ﷺ، فآثرها في ذلك الوقت منزلاً وداراً، واختارها متعبّداً وقراراً، وانقطع فيها للعبادة والزهادة والتدريس والإفادة حتى أكمل بها خمسةً من السنين، زار في خلالها بلده

---

(1) هو الفخر الرازي، وتقدمت ترجمته.

عين ماضي دار آبائه الأكرمين عملاً على إشارة السيد الوانجلي المتقدم الذكر فيما أشار به عليه، وتصديقاً لما أومأ من طريق كشفه إليه، ثم بعد ما اطمأنت به الصحاري الدار ونهضت به إرادته والسالك قبل أن يصلَ إلى مرادِه لا سكونَ له ولا قرار، فأتى بعد انقضاء المدة المذكورة مدينة الجدار، فآثر المقام بها أيضاً، واختارها للنزول والاستقرار، فعكف بها على ما كان عليه من الجد والتشمير في العبادة وتدريس العلوم، خصوصاً علمَي الحديث والتفسير، وبقي على تلك الحال من الجد والاجتهاد في طاعة ربِّ العباد حتى حصَلَ له ما أهَّله الله له بسابق عنايته من كمال الاستعداد لتوالي الفتوحات وتراصُد الأمداد، فلاحتْ عليه بوارقُ الفتح ومباديه، وظهر عليه من الخوارق ما دانَ له به شانِئُه[1] ومعاديه، فصار يفتتن به كل من رآه لما يشاهدُ من طلعته البهية وسناه، فلا يراهُ أحدٌ إلاَّ أخذَ بمجامع قلبه وأزِمَّةِ عَقْله ولُبِّه، فأقبل الناسُ عليه للأخذ عنه أفراداً وأزواجاً، وأتته الوفودُ بقصدِ الزيارة والتبرك به أفواجاً، فنهى وزجَرَ، وشرد عنهم ونَفرَ، وامتنع من إقرارهم على ما يدعونه له من المشيخة كل الامتناع، قائلاً لكل من واجهه بشيء من ذلك: كلنا واحد في الاحتياج إلى ما يحصل به الانتفاع، فلا معنى لدعوى المشيخة إلا سوء الابتداع، كل ذلك اهتمام منه لنفسه وفرار من ادّعائه المشيخة بلا إذن واستحلائه الترأُس على أبناء جنسه. وهذا أيضاً مما يدل على علوِّ همّته وكمال صدْقهِ مع الله تعالى في وجهته ﷺ ونفعنا ببركاته وأعاذنا بجاهه من الوقوع في جحيم اتباع الهوى ودركاته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وعقد في هذه الأبيات ما في «جواهر المعاني» فراجع في هذا المحل ألفاظه الرائقة المباني، الغنية عن رنات المثالث والمثاني، فيما سبكنا به كلام النَّاظم ﷺ تعالى، تعلم ما تحت عباراته من حسن الإيجاز وسني اللطائف والنكت البديعة والرشحات، التي تشهد لكمال ذوقه ورسخ قدمه في مقامات المعارف.

ولما أنهى الكلامَ فيما قصده من الإخبار عما اتفق لسيدنا ﷺ في رحلته هذه المغربية من ملاقاة الأولياء ومشايخ التربية أتبع ذلك بالإخبار عما اتفق له ﷺ في رحلته المشرقية مع بعض من لقيه بها من الكمل من أهل التربية والترقية، فقال:

(ثُمَّ سَمَا بِعَزْمِهِ الْقَوِيِّ ... لِلْحَجِّ مَعَ زِيَارَةِ النَّبِيِّ
فَمِنْ تِلِمْسَانَ إِلَى الْبَيْتِ الأَجَلّ ... سَنَةَ سِتٍّ وثَمَانِينَ ارْتَحَلْ

---

(1) شانِئه: الذي يعيب عليه ويقبِّحه.

نحلّ تونسَ وسوسةَ سنه   فأيقظَ القلوبَ مِن سجنِ السِّنه
وكانَ في تونسَ إذ ذاكَ ولي   بَشَّر شيخَنا بحُبِّه العَلي

(العزم القوي) هو الهمَّة وقد تقدَّم. و(الحج) هو من حَجَّ يحجُّ حَجًّا من باب قتل، ومعناه القصد، هذا أصله في اللغة، مع قَصْر استعماله في الشرع على قصد الكعبة المشرفة للحج أو العمرة، ومنه يقال: ما حجَّ ولكن دَجَّ، فالحجّ القصد للنسك والدج القصد للتجارة. و(الزيارة) في اللغة: القصد من: زارَه يزُوره زيارةً قصَدَه. وهي في العُرف: قصد المزور إكراماً واستئناساً به، و(البيت الأجل) بيت الله الحرام، و(ارتحل) معناه توجّه، و(حل) معناه نزل و(تونس) المدينة المعروفة، و(سوسة) من أعمالها[1]، و(أيقظ) نبَّه، (والسجن والسنة) معروفان، والمراد هنا بسجن السنة حجاب الغفلة، و(الولي) تقدَّم معناه، والمراد به الولي الذي كان بتونس إذ ذاك، وكان لا يلاقيه أحدٌ إلا أفراد أربعة منهم الولي الصالح سيدي عبد الصمد الرحوي وهو كان قطب تلك البلدة في ذلك الوقت، ولم يسمِّ في «الجواهر» ولا في «الجامع» باسمه، وقوله: (بحبه) هو من إضافة المصدر إلى مفعوله، وهو الضمير العائد على الشيخ ﷺ و(العلي) من أسماء الله الحسنى تعالت وتقدَّست، وهو فاعل المصدر المتقدِّم الذي هو حُبٌّ، ومعناه الذي يصغر عند ذكر وصفه كلُّ شيءٍ سواه، وهو أي هذا الاسم الأجل سار في كل معنى تعلق بالذات والصفات حسبما صرَّح به غير واحد ممن تعرض لشرح الأسماء الكريمة، فيكون في إتيان النَّاظم به هنا إشارةً إلى أن الشيخ ﷺ محبوب في سائر الحضرات والمراتب، فليفهم ذلك والله أعلم.

يقول: ثم بعد ما ظهر على سيدنا من لوائح الفتح وبوارقه ما ظهر وتجلّى من الصفات الجلالية والجمالية بما أذهل العقول وبَهَر، ولم يبقَ له من متمنَّاه بين الأنام إلا الحج لبيت الله الحرام وزيارة قبر الحبيب الأعظم عليه الصَّلاة والسلام، سما به عزمُه القوي وهمّته العلية إلى المبادرة لاقتناء هذه الفضيلة السنية، فارتحلَ من مدينة تلمسان مبايِناً لكل قطين[2] وإلف سنة ست وثمانين بعد المائة والألف قاصداً بلوغ السؤل والمرام، من

---

(1) سوسة: بلد بالمغرب، وهي مدينة عظيمة بها قوم لونهم لون الحنطة يضرب إلى الصفرة، ومن سوسه إلى السوس الأقصى يخرج على ساحل البحر المحيط بالدنيا، فمن السوس الأقصى إلى القيروان ثلاثة آلاف فرسخ يقطعها السالك في ثلاث سنين. انظر معجم البلدان: 3/ 281.

(2) القطين: الساكن، المواطن، وقَطَن بمعنى سكن وأقام. ومبايناً لكل قطين: أي مبتعداً عمَّن يسكن معه وبقربه.

حجِّ بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فلمَّا وصلَ حضرة تونس أقامَ بها وبسوسة سنةً كاملة، فألان بما ينشره فيهما من العلوم والأسرار القلوبَ القاسية، ونبَّه الهممَ الغافلة.

وكــذا الــكــريــمُ إذا أقــامَ بــبــلــدةٍ ... ســالَ الــنُّــضــارُ بــهــا وقــامَ الــمــا[1]

وكان بهذه الحضرة لذلك العهد وليٌّ كبير القدر والشان، مشهور بالقطبية في تلك الأوطان، إلا أنه لم يسمحْ له بالإذن في ملاقاة أحد، فراسَلَه سيدنا ﷺ مع الولي المتقدم الذكر سيدي عبد الصمد، وكان تلميذاً لهذا القطب وتحت ولايته، وهو رابع أربعة سمح لهم في كل ليلة جمعة وليلة اثنين بإذن في لقيه ومشاهدته، فبشر سيدنا ﷺ وأرضاه بأنه محبوبٌ عند المولى جلَّ علاه، وعَقَد في هذه الأبيات ما في «الجواهر» بتقديم وتأخير.

وملخَّصه: أن سيدنا ﷺ دخل تونس في السنة التي ارتحل فيها من تلمسان ولقي بها بعضَ الأولياء، منهم الولي الشهير صاحب القدر الكبير سيدي عبد الصمد الرحوي، وكان تحت ولاية غيره، وهو قطب تلك البلدة، فطلب سيدنا ﷺ ملاقاته من سيدي عبد الصمد فاعتذرَ له بأنه لا إذنَ له في الملاقاة، وأنه لا يلاقيه إلا أفراد أربعة هو أحدُهم، وذلك ليلة الجمعة أو ليلة الاثنين خاصة، فبعث له بمحبوب ذهباً مع صاحبه المذكور، فقال له المحبوب بعث محبوباً، وهذه هي البشارة التي أشار إليها النَّاظم فأقام بتونس وسوسة سنة، فدرَّس بتونس الحِكَمَ العطائية وغيرها، فأرسل إليه أمير البلد يطلب منه المقامَ بتونس لإقراء العلم وتدريسه، والقيام بأمر الدين وتدوينه، وأمر له بدار، وأنفذَ له مسجدَ الزيتونة وعيَّن له مرتباً عظيماً، فلما قرأ الكتابَ أمسكه، ومن الغد سافر إلى مصر كما سيأتي قريباً إن شاء الله، وذلك بعد أن وجَّه للولي المذكور صاحبه سيدي عبد الصمد يخبره بأنه يريدُ السفر في البحر إلى مصر ويطلب منه الضمان من كل ما يشوِّشه ويروعه فساعَفَه بمطلوبه وقال لصاحبه: قل له أنت مضمون ذهاباً وإياباً.

وهذا أيضاً مما يشير إليه ما تفرَّد به من علوّ الهمَّة ﷺ، ولم يتعرَّض النَّاظم لذكر ملاقاته في وجهته من تلمسان إلى تونس مع الشيخ الإمام العارف الهمام قدوة المتقين وعمدة المحققين أبي عبد الله سيدي محمد بالفتح بن عبد الرحمن الأزهري ﷺ. وذكر صاحب «الجواهر» وكذا صاحب «الجامع» أن سيدنا ﷺ لقيه بمنزله من جرجرة ببلاد

(1) كذا بالأصل، ولعلّ الصواب «وقام الماءُ» أو «وقام الماسُ».

زواوه[1]، وأخذ عنه الطريق الخلوتية، وهو أخذَها عن الشيخ الحفناوي ﷺ أجمعين. وكانت وفاة هذا الشيخ سنة ثمان ومائتين وألف، فهو من مشاهير من لقيه سيدنا ﷺ من كمل المشايخ ذوي القدر الشامخ والقدم الراسخ، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم، وكان ذكره هنا مما يستحسن الإتيان به في النظم، وقد قلت فيما يتضمن ذكره بيتين يناسب إلحاقهما بهذا المحلِّ، وهما:

فحن للأزهري المِفْضالِ ... أعْنِي الزَّواويّ أخا الكمالِ
فمالَ نحوَه فخصّ بالمرامْ ... وهو مِنَ الحفني شَيْخه الإمامْ

وحلَّ تونس إلخ، فمن ألحقَ البيتين ينبغي له أن يتصرَّف في البيت بعدهما بالإتيان فيه بالواو مكان الفاء، والله المستعان.

ولما ذكر النَّاظم ﷺ تعالى ما اتفق لسيدنا ﷺ بالحضرة التونسية مع هذا السيد الكبير، وما جرى له على لسانه من التبشير أتبعه بما اتفق له من مثل ذلك، ونظيره بمصر المحروسة، وما جرى له فيها على لسان شيخه الكردي ذي الجاه العظيم والقدر الخطير، فقال:

(كذا بذا بشّره الوليُّ ... سيّدنا محمود الكُرديُّ
وهوَ الَّذِي قالَ لَهُ لكَ أجلْ ... مِنَ الَّذي للقطبِ يا له أمل)

(سيدنا محمود الكردي) هو الشيخ الشهير ذو القدر الخطير الآتي ذكره إن شاء الله تعالى ﷺ، و(أجل) معناه أرفعُ وأكمل، و(القطب) هو بالضم في الأصل أي في أصل اللّغة حديدةٌ تدورُ عليها الرحى، أو نجمٌ معروف تعرف به القبلة وملاك الشيء، وسمي خيارُ الناس به لاجتماع خيار أوصافهم عنده، وهو لا يكون في كل عصر إلا واحداً خليفة عن رسول الله ﷺ لحفظ العالم بالنيابة عنه ﷺ.

وقال ابن حجر في فتاويه: الأبدالُ وردتْ في عدة أخبار، والقطبُ وردَ في بعض الآثار. وألف السيوطي تأليفاً في ثبوت القطب والأوتاد والأبدال[2]، فلا عبرة بمن نفاه

---

(1) في معجم البلدان: 3/ 155 «زواوة: بفتح أوله، وبعد الألف واو أخرى: بليدة بين إفريقية والمغرب».

(2) الأوتاد عند الصوفية: أربعة رجال، منازلهم على منازل أربعة أركان من العالم: شرقي وغربي وشمالي وجنوبي، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة.
والأبدال: لقب يطلقونه على رجال الطبقة من مراتب السلوك.

كما يذكر عن ابن خلدون[1] في ذلك، وسيأتي مزيد بيان فيما يتعلّق بالقطبانية بعد هذا إن شاء الله تعالى ولكون درجة القطبانية أعلى الدرجات تعجب النَّاظم ممن يزيد عليها فقال: (يا له أمل): أي ما أجلّه وما أسناه.

يقول: ومثل هذا الذي بشره به قطب الحضرة التونسية من خصوصية المحبوبية بشره به أيضاً بمصر المحروسة الولي الكبير سيدنا محمود الكردي العراقي الشهير، وذلك أنه ﷺ ارتحل من تونس قاصداً لملاقاته، متشوّقاً إلى رؤيته ومناجاته، فلما وصلَ مصر لم يلبثْ أن سأل عنه وأتاه، فقال له: أنت محبوبٌ عند الله في الدُّنيا والآخرة أول ما رآه، فقال له سيدنا: من أين لك ذلك؟ فقال: من الله، وهو الذي قال لسيدنا أيضاً بمقتضى كشفه العياني وفراسته النورانية لك عند الله تعالى ما هو أجلّ من مقام القطبانية، وذلك أن سيدنا قال له في أول ما لقيه: رأيتك وأنا بتونس، يعني في عالم النوم، فقلت لك: إني نحاس كلّ ذاتي، فقلت لي: هو كذلك وأنا أقلبُ نحاسك ذهباً، فقال له الشيخ محمود ﷺ: هو كما رأيت، ثم قال له بعد أيام: ما مطلبك؟ قال: القطبانية العظمى، قال: لك أكثر منها، قال له: عليك، قال: نعم، وأخبره عما وقع له في سياحته وسبب ملاقاته مع شيخه الشيخ الحفني وشيخ شيخه مولانا مصطفى البكري الصديقي رضي الله عن جميعهم.

وعقد النَّاظم في البيتين ما في «الجواهر» من غير زيادة ولا نقصان، ولـم يتعرَّضْ صاحب «الجواهر» وكذا صاحب «الجامع» لذكر تاريخ وفاة الشيخ ﷺ، فمن وقف عليها فليثبتها في هذا المحلِّ والله ولي التوفيق.

ولما قضى سيدنا ﷺ الوطر[2] من ملاقاة هذا الشيخ الأكبر والعالم الأشهر تهيَّأ لما هو بصدده من التوجُّه لبيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصَّلاة والسلام، فودّعه شيخه الشيخ محمود ودعا له وضَمِنه في سفره ذهاباً وإياباً، فأتى مكَّة المشرفة زادها الله شرفاً وتعظيماً، وإلى ذلك أشار النَّاظم ﷺ تعالى حيث قال:

---

(1) ابن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر، الفيلسوف المؤرخ والعالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالاً. اشتهر بكتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» في سبعة مجلدات أولها «المقدمة» المشهورة. ومات سنة (808هـ). انظر الضوء اللامع: 4/ 145 ونفح الطيب: 4/ 414، والعبر: 7/ 379.

(2) الوَطَر: الحاجة، وقضى وطرَه: حقق حاجته وأنفذها.

(وجاءَ فِي شوّالِ الكعبةَ في | سنةِ سبْعٍ دونَ ما توقُّفِ
وكانَ إذْ ذاكَ مِنَ الكِبارِ | بعضٌ بها وكانَ ذا أسْرارِ
فانتفعَ الشيخُ به مكاتبه | ولمْ تقعْ بينهما مخاطبه
فأخبرَ الشَّيخَ بموتهِ فقالْ | أنتَ الّذي ترِثُ ما لي من كمالْ
فكانَ ما قالهُ وبشَّره | بِمَا الزبيبيُّ بهِ قدْ أخبرَه)

المراد بالمجيء هنا: الوصول، و(**شوال**) الشهر الذي يلي رمضان وهو معروف، و(**الكعبة**) البيت الحرام، وهو من كَعَبَتْ المرأةُ تكعُب من باب قتل كَعابةً: نتأ ثَدْيُها فهي كاعب، سُمِّيت به تنويهاً، وقيل فيه غير ذلك، انظر المصباح[1]. والمراد بـ (**سنة سبع**) هنا سنة سبع وثمانين ومائة وألف، و(**التوقف**) في الشيء: التردُّد وعدم القطع فيه بشيء. و(**الكبار**) جمع «كبير» وهو على حذف موصوف، أي الأولياء أو المشايخ الكبار أو نحو ذلك، و(**الأسرار**) جمع «سرّ». والسرُّ يطلق في اصطلاح أهل الطريق على أمور كثيرة. والمراد هنا أذكارٌ مخصوصة يتوجَّه بها على كيفيات مخصوصة بنيات مخصوصة في أوقات مخصوصة. وغايتها التي تحصلُ عندَها بإذن الله تعالى، الاستعداد لتلقي ما يرِدُ من حضرة الحق من المواهب والفتوحات. وأما الأسرارُ بمعنى الخواصّ مما يذكره أهل السيمياء والكيمياء[2]، فليست من أغراض أهل الطريق في شيء، فلا يحتفل بها إلا محجوبٌ عن طريق أهل الكمال، فلا يذهبْ بك الوهمُ نحوها إذا ذكرت في مثل هذا المجال، و(**المكاتبة**) المراسلة بالكتابة و(**المخاطبة**): المواجهة بالخطاب مشافهةً كفاحاً من غير واسطة، و(**ترث**) هنا معناه تحيط بمتخلفي ومتروكي، والمراد هنا مقامه الخاص به بما اشتمل عليه في حضرته الخاصّة به من المعارف والأنوار والعلوم والأسرار، وما يتعلّق بذلك من الأحوال الجلالية والجمالية وسائر النعوت الكمالية، ولذلك بين ذلك بقوله من كمال، و(**الزبيبي**) هو العارف المكاشف سيدي محمد بن الحسن الوانجلي الذي لقيه سيدنا بجبل الزبيب وأخبره بأنه يدرك مقام الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ.

يقول: ولما ارتحل سيدنا من مصر المحروسة على ما تقدَّم انطلق حتى جاء ووصل

---

(1) وفي اللسان (كعب): «وكَعَبَت الجاريةُ، تكعُب وتكْعِبُ، الأخيرة عن ثعلب، كُعُوباً وكُعُوبةً وكِعابةً وكَعَّبَت: نَهَد ثديُها. وجارية كَعابٌ ومُكَعَّبٌ وكاعِبٌ، وجمع الكاعب كَواعِبُ.

(2) السيمياء: السِّحر، وحاصله إحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحسّ. والكيمياء: الحِيلة والحذق، وكان يراد بها عند القدماء: تحويل بعض المعادن إلى بعض.

الكعبة البيت الحرام، وحظي باستلام الركن والمقام[1]، وذلك في شوال سنة سبع وثمانين ومائة وألف من هجرة نبيّنا ﷺ، وهي السنة الثانية من خروجه من الحضرة التلمسانية، أعادها الله دارَ إسلام، صرح بهذا في «جواهر المعاني»، وهو لا محالة حزام هذه المغاني[2]، والقول ما قالت حزام[3]، فلهذا تعرَّض النَّاظم لنفي التوقف في هذا المقام.

وكان بمكة المشرفة زمنَ وصولِ سيدنا رضي الله عنه إليها بعضُ المشايخ الكبار المشار إليهم في تلك الديار بالمعارف اللّدنية والأسرار. وهو حسبما تقدَّم في «جواهر المعاني» الشيخ الإمام الحبر الفهام، بدر التمام، ومسك الختام، وشمس الأنام، وقمر دائرة الأعلام أبو العباس سيدي أحمد بن عبد الله الهندي قاطن مكة المشرفة رضي الله عنه، فانتفع سيدنا رضي الله عنه على يده، فأخَذَ عنه علوماً وأسراراً وحكماً وأنواراً، لكن بالمكاتبة فقط والمراسلة من غير ملاقاة ولا مواصلة.

وكان من جملة ما كتب به لسيدنا رضي الله عنه وراسله به مع خديمه إخباره بزمن وفاته، وبأنه هو المحيط بالإرث لأسراره وكمالاته، وذكر أنه في العشرين من حجة ذلك العام ينزل به محتوم الحمام، ثم أقسم عليه بما له من أكيد الحقِّ لديه أن يأخذ بيدِ ولده من بعده ويحسن إليه؛ وشافَه الخديم الشهير بينهما بأن قال له، وأشار إلى سيدنا رضي الله عنه وأرضاه وعناه: هذا هو الذي كنت أترجّاه، فقال الخديم: هذه مدةٌ من ثمانية عشر عاماً وأنا في خدمتك أرتقب ما يعود علي من جهتك، والآن أتى رجل مغربي تقول هو الوارث لسائر كمالات منصبي، فقال له الشيخ: هذا مما ليس لأحد فيه اختيار، وإنما هو بيد الفاعل

---

(1) الركن: هو الركن اليماني، من أركان الكعبة (معجم البلدان: 3/ 64). والمقام: هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام حين رفع بناء البيت وقيل: هو الحجر الذي وقف عليه حين غسلت زوج ابنه إسماعيل رأسه، وقيل: بل كان راكباً فوضعت له حجراً من ذات اليمين فوقفت عليه حتى غسلت شق رأسه الأيمن ثم صرفته إلى الشق الأيسر فرسخت قدماه فيه في حال وقوفه، وقيل غير ذلك. (معجم البلدان: 5/ 164).

(2) المغاني: المنازل.

(3) الصواب «حذام» بالذال.

وهو مثل في مجمع الأمثال: 2/ 499، ويضرب في التصديق. أي القول السديد المعتد به ما قالته، وإلا فالصدق والكذب يستويان في أن كلاً منهما قول. وقال ابن الكلبي: إن المثل للُجيم بن الصعب وكانت حذام امرأته، فقال فيها زوجها لجيم:

إذا قالت حذام فصدِّقوها ... فإن القول ما قالت حذامِ

وهو من أشعار الشواهد.

المختار، فهو سبحانه يؤتي فضله من يشاء ويخلق ما يشاء ويختار، ولو كان لي في الأمر اختيار لكان ولدي أولى من أخصُّه بالإيثار، فكان الأمر كما قال، ونزل به الأجل في التاريخ الذي ذكره تصديقاً لذلك المقال، فدعا سيدنا ﷺ وأرضاه ولده فاختلى به وأكرمه وفق وصية والده وحَباه من الأسرار ما حباه[1].

وكان من جملة ما خصَّ به سيدنا ﷺ من الأسرار العرفانية ذكر يداومه سبعة أيام فيظفر بالفتوحات الربانيّة، لكن بشرط أن ينعزل، بعد ذلك العمل، كما هو عليه ﷺ عن الخاص والعام، فلا يراه أحدٌ من الأنام، فلم يفعلْ سيدنا ﷺ لهذا الشرط المشروط، وشأن الهمّة العلية كله باتساع النظر منوطٌ، وبنور العناية محوط: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: الآية 20] ولعمله على هذا الشرط لما حاول منه سيدنا ﷺ أن يسمح بالمشاهدة والعيان اعتذرَ له وأحاله عند وصوله للمدينة المنورة على القطب السمان. وممَّا أخبر به أيضاً مكاتبة بلوغه مقام الشاذلي ﷺ وفق ما تقدَّم له من العارف الوانجلي فيما فاجأه به أول المخاطبة.

وعقد النَّاظم ﷺ في هذه الأبيات ما ذكره في «الجواهر» على حسب ما سمح له به قلم التعبير فأدمجت في سبكها ما أخلَّ به مما يتعلَّق بترجمة هذا الشيخ الكبير ﷺ وأرضاه، وجعل الوجه الجميل متقلّبه ومثواه.

ثم أتبع النَّاظم ﷺ ذكر بعض ما يتعلَّق بحج الشيخ ﷺ لبيت الله الحرام، بذِكْر بعض ما يتعلَّق بزيارته لقبر خير الأنام، عليه من الله أفضل الصَّلاة وأزكى السلام مع ما اتفق له بالمدينة المنورة من لقي قطب الزمان وحامل لواء أهل العرفان الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم السمان، فقال:

(وبعدَ فعلِ حجِّه المبرورِ ... وسعيهِ هُنالكَ المشكورِ
رحلَ للمدينةِ المُنيفَهْ ... لكيْ يزورَ الرَّوضةَ الشَّريفَهْ
فزارَ خيرَ مَن لهُ المراحلَ ... جِيبتْ وذُلِّلتْ له الرَّواحلَ
ثمَّ التقى معَ الرَّضي السَّمَّانِ ... قطبِ الزَّمانِ الكاملِ العِرفانِ
فأخبرَ الشيخَ بكُنهِ حالِه ... ومَا يكونُ منهُ في مآلِه
وقالَ للشيخ أقمْ لتَصْبغا ... فاعتذرَ الشَّيخُ ومَا لهُ صَغا
وأذِنَ القطبُ لهُ فيمَا طَلبْ ... مِن عِندِه وكلّ ما فيهِ رغِبْ)

---

(1) حباه: منحه وأعطاه.

(الحج) تقدَّم، و(المدينة) عَلَم بالغلبة لمدينة الرسول ﷺ، فلا يستعمل معرفاً إلا فيها. والنكرة: اسمٌ لكل مدينة، من مَدَنَ بالمكان أقامَ به، أو من دَانَ بمعنى أطاعَ إذ يُطاع السلطان فيها، وهي أبيات كثيرة تجاوز حدّ القُرى ولا تبلغ حد الأمصار، ونسبوا للكل: مديني، وللمدينة المشرفة: مَدَني، للفرق، و(المنيفة) من أناف، على غيره ارتفع عليه، وَصَفها به لإنافتها به ﷺ على جميع البلاد حتى مكّة عندنا، والروضة الشريفة)، هي ما بين القبر والمنبر، وخصّها لأنها محلُّ ركوع الداخل للمسجد النبوي ركعتي التحية، وقد يراد بها القبر الشريف وما حواله، والله أعلم. و(المراحل) جمع مرحلة: وهي المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم، و(جيبت) قُطِعَتْ، من جاب الأرضَ يجوبها جَوْباً: قَطَعها، و(الرواحل) جمع «راحلة»: وهي الناقة التي تصلحُ أن ترحل أو المركب من الإبل مطلقاً، و(كنه) الشيء: حقيقته، وباقي الألفاظ ظاهر.

يقول: وبعد قضاء نسُكِه وتكميل حجِّه المبرور وفوزه ﷺ بنتيجة سعيه المشكور ووفاة شيخه سيدي أحمد بن عبد الله الهندي المذكور أزمع ﷺ عنه الارتحال لزيارة خير من تحطُّ ببابه الرحال، فتوجَّه تلقاء مدين المآرب مكرراً بلسان حاله: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: الآية 22] وأقوم المذاهب، وسار والأشواق تفري[1] به نحو تلك المشاهد العاطرة النواسم، ما لا تفريه أيدي الأينُقِ العتاق النجيبات الرواسم[2]، منشداً في تلك الحال كلَّما جدَّ به نحو الحبيب الترحال:

(يا مأرباً لَيسَ لي في غيرهِ أرَبُ   إلَيكَ آلَ التَّقَصِّي وانتهى الطَّلَبُ)

ولسان هواتف الحقائق يناديه في ذلك كله ويجيب، ما ضاع من زار الحبيب:

أَيضِيعُ مَنْ زَارَ الحَبِيبَ وقد دَرَىٰ   أنَّ المُرورَ ببابِهِ زُوّارُه؟

وقد حظِيَ بالوصول إلى مدينة خير نبيٍّ ورسول ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم، لم يلبثْ أن تقدَّم من حينه لزيارة القبر الشريف تحفه ألطافُ البر والتعريف وتجذبه العناية إلى ما أودع فيه من السر المنيف، فقام بوظيف الزيارة أتمَّ قيام، ووفى بالفروض والنفل من آداب المقام وما زاغ بصره وما طغى حتى أدرك غاية المبتغى، ثم بعد ذلك مال لملاقاة القطب السمان صدر الصدور وعين الأعيان، فلقيَ منه الرحبَ والسهل، والمنال الجزل،

---

(1) فَرَى الأرض فَرْياً: اجتازها. وفرى به: أخذه وأسرع به.

(2) نجائب الإبل: خيارها. والرواسم: جمع «الرَّوْسَم» وهو الداهية.

وأخبره من طريق الكشف بما انطوى عليه باطنُ حاله وأنبأه بما تصير إليه نهايته في مآله، ثم طلب من سيدنا رضي الله عنه في الإقامة لديه ليدخله الخلوة ثلاثة أيام فيصبغه صبغةً تامَّة بما يفاضُ من الفتح عليه، فتعلَّل سيدنا رضي الله عنه بعدم إمكان المقام لعذرٍ قام به في ذلك المقام، ثم طلبَ منه الإذن العام فأسعفه بالمرام وبشَّره بما قرَّت به منه العين، وأخبره عن نفسه بأنه هو القطبُ الجامع بلا مَيْن[1]، وقال له: اطلبْ ما شئت، فطلب سيدنا رضي الله عنه أموراً فساعده على جميع ما طلب منه رحمه الله تعالى ورضي عنه، والشيخ السمان هذا أخذ عن مولانا مصطفى البكري الصديقي رضي الله عنهما وعن أولياء الله أجمعين، ولم يتعرَّضْ صاحب «الجواهر» لتاريخ وفاته فمن عرف ذلك فليلحقه بهذا المحل من هذا التقييد، والله ولي التوفيق والتسديد.

ثم أشار النَّاظم رحمه الله إلى قفولِ[2] سيدنا رضي الله عنه من تلك البقاع المنورة الطَّاهرة إلى مصر القاهرة، وما اتفق له في قبوله هذا مع شيخه الشيخ محمود من الإقبال والكرامة والاعتناء الذي هو على ما آلَ إليه أمرُ سيدنا رضي الله عنه أكبر علامة، فقال:

(وسافرَ الشيخُ مع الحجَّاجِ عن قبرِ صاحبِ اللوا والتَّاجِ
لمصرَ دارِ شيخهِ العراقي وحينَ جاهُمَ بالتَّلاقي
مع شيخه هذا فرحَّب بهِ وحين جاء أجلسهُ بقربهِ
وكان يلقي كلَّ ما يستشكلهْ على إمامنا وعنهُ يسألهْ
فظهرت علومهُ الغزيره حتى أتته ساوةٌ كثيره
من علماءِ مصرَ للإفاوه وكلُّ من سألهُ أفاوهْ)

(صاحب اللواء والتاج) هو النبي ﷺ و(الشيخ العراقي) هو الشيخ محمود الكردي رضي الله عنه حسبما تقدَّمت الإشارة إليه، و(الترحيب بالقادم) هو أن يقال له: مرحباً مرحباً، والمراد هنا: ما يشمل البشاشة، وطلاقة الوجه وإظهار السرور بقدومه؛ (واستشكل المسألة) إذا لم يعثر على عين التحقيق فيها، وباقي ألفاظ الأبيات ظاهر.

يقول: ولما قضى سيدنا رضي الله عنه نُهمَته من زيارة نبيّنا ﷺ وملاقاة شيخه القطب الأعظم آثرَ ما هو المطلوب من تعجيل الأوبة[3] كما هي عادته الكريمة من إيثار كلِّ فضيلة ذي نية

(1) المَيْن: الكذب.
(2) القفول: العودة.
(3) الأوبة: العودة، من الفعل: آب يؤوب أوباً وأوبة.

وقربة، فسافر مع ركب الحجيج لمصر القاهرة ممتطياً متن الأشواق لشيخه الكردي ذي الأخلاق الزكية الطاهرة، فلما وصل إليه توجَّه من حينه لملاقاته واغتنام رؤيته ومناجاته، فلما أقبلَ عليه رحَّب به وأكرمه بأخصِّ المجالس لديه، ثم أمره بالتردُّد في كل يوم إليه، فصار يلقي عليه الأمور المشكلة؛ والمسائل العويصات المعضلة، فيكشف عن وجوه حقائقها القناعَ، حتى يقرَّ الخصم ويرتفع النزاع، فظهر للخاص والعام علمه الغزير، وأحدقت به[1] علماء مصر يستنقعون من تيار عذبه النمير، وكل من أتاه في مسألة كيفما كانت، ومن أي فنٍّ كانت، نقع بتقريره غلته[2]، وشفى بتحريره علَّته.

ثم لما أزمع سيّدنا ﷺ الارتحالَ إلى البلاد المغربية أجازه شيخه الكردي في طريقته الخلوتية وجعل له التسليك بها والتربية بعد أن امتنع سيدنا من إجابته فيما دعاه إليه حتى قال له: لقِّن الناس والضمانُ عليّ، فقبل حينئذٍ ما أشار به عليه وانظر سنده في «جواهر المعاني» وكذا في «الجامع» أيضاً فهو مذكور فيهما على التحقيق، والله ولي الهداية والتوفيق.

ثم أشار النَّاظم إلى زمن وصوله إلى الحضرة التلمسانية ورجوعه إلى الحرمين الشريفين محفوفاً بالعناية الربانية، وزمن عوده لحضرة فاس، بقصد زيارة مولانا إدريس العاطر الأنفاس، فقال:

(وتلمسانَ أتى في القابلِ ... مِن حجِّهِ وزَورِ خيرِ كاملِ
نحلَّ فيها مدةً وزارا ... بفاسِ إدريسَ الرضي مِرارا
في عامِ واحدٍ وتسعينَ وفي ... هذا التقى مَعْ خِلِّه الخِلِّ الوفي
تِلْميذِه صاحِبِه حَرازِمِ ... صاحِبِ سِرِّه الإمامِ الحازِمِ
ولم تكنْ معرفةٌ مِن قبلِ ... ذاكَ لهُ بشيخِنا ذِي الفضلِ
حتى تعرّفَ لهُ مكاشفهْ ... يوماً برؤيا سلفتْ مكاشفه
ولَّتْ على صحبتِه وذكْرِه ... وقرْ نسي وبالمعاني بشّرهْ)

أراد بـ(القابل) العام الذي بعد عام حجه، وهو عام ثمانية وثمانين، لأن حجّه كان عام سبعة وثمانين حسبما تقدَّم، و(زور) أراد به الزيارة وقد تقدَّمت، و(**خير كامل**) النبي

---

(1) أحدقت به: أحاطت.

(2) نقع: هدأ وسكّن. والغلة: حرقة الجوف حزناً أو شوقاً.

ﷺ. و(المزار) يكون مصدراً وموضع الزيارة، والمراد هنا الأول، وباقي ألفاظ الأبيات ظاهر.

يقول: إن سيدنا ﷺ بعد ما ودَّعه شيخه الكردي ﷺ حين اجتاز به قافلاً من رحلته المشرقية ووجهته انتهى إلى الحضرة التلمسانية، ووصل إليها في العام الذي يلي عام حجته، وهو كما قدمناه عام ثمانية وثمانين بعد المائة والألف من هجرة سيد المرسلين، ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، فاتخذ الحضرة المذكورة في ذلك الوقت داراً وتخيَّرها في تلك المدة متبوأ وقراراً، وفي هذا العام، أي عام قفوله من حجه للحضرة التلمسانية أعادها الله دار إسلام، حَظِي باللقى معه صاحبه وخازن أسراره الفقيه العلاَّمة الإمام القدوة المبجل الهمام أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن المشري الحسني السائحي البساعي التكرتي الدار، وهي أي «تكرت» بلدة معروفة من عمل قسمطينة رحمه الله تعالى ورضي عنه، فخصَّ منه إذ ذاك بتلقينه إياه الطريقة الخلوتية وتلقى منه أسراراً وأذكاراً أخر حسبما أخبر بذلك عن نفسه، رحمه الله ونفعنا به، وبقي في صحبته من ذلك الوقت إلى أن توفي رحمه الله سنة أربع وعشرين ومائتين وألف، وهو الذي ألف كتاب «الجامع لما افترق من العلوم» وكتاب «نصرة الشرفاء في الردّ على أهل الجفاء».

وكان سيّدنا ﷺ اتخذه إماماً يؤمّ به في الصَّلوات، لأنه ﷺ كان في ذلك الوقت لا يحب أن يصلي إماماً إلا إذا كان داخل داره فيؤم أهلَ داره وعياله. وفي عام ثمانية ومائتين وألف تصدى للإمامة بنفسه لموجبٍ قام به في ذلك الوقت، قاله في «الجواهر»، وبلغنا من طريق الثقات من أصحابه ﷺ أنه فعل ذلك بإذن من النبي ﷺ، وكان يقول: أمرني من لا تسعني مخالفته أن لا أصلي خلفَ أحد ما عدا الجمعة، ولهذا كان ﷺ إذا كان فرضه التيمُّم وحضرت الصلاة وهو مع أصحابه صلى بهم والحال أنهم متوضؤون، لكن بعد أن يقول لهم: إن فرضي التيمم، فإن شئتم أن تجتمعوا على إمام فافعلوا فلا ينكر على من اجتمع إلى غيره، ومن صلى معه أقرّه على فعله بناءً على قول ابن العربي وابن الماجشون في ذلك كما هو معروف في المذهب مع اطّلاعه ﷺ على ما هو في نفس الأمر من الفضيلة في الصلاة خلف أمثاله، ولعلَّنا نتعرَّض لما في الصلاة خلف العارفين بالله فيما سيأتي لنا إن شاء الله. ووجْهُ بيانه ﷺ الخوف من أن يكون هناك من لا يريد أن يعمل إلا على المقابل لقول الشيخين المذكورين، فهو جارٍ في ذلك ﷺ على قاعدة الورع في نظائر المسألة ظاهراً، والله أعلم.

وكان من وظيف النَّاظم رحمه الله أن لا يغفل عن التنبيه على أن هذا الزمن هو زمن

اجتماع هذا السيد الجليل القدر بسيدنا ﷺ، وقلت فيما يشير إلى ذلك لمن أراد أن يلحقه بهذا المحل ما نصّه:

وجـاءَه إذْ ذاكَ سـامـي الـقَـدْرِ فَرْدُ السَّنا سيدنا ابن المشري
فـفـازَ مِـنْـه ثـمّ بـالـتـلـقـيـنِ عن شيخِه الكردي الرضي الأمينِ

فحل فيها إلخ.

ولنرجع إلى سبك النظم فنقول: قال: فحلَّ فيها، أي في الحضرة التلمسانية، مدَّةً هي من الأعوام نحو الثمانية، وفي أثناء هذه المدة تاقت همَّته السنية إلى الوصول للحضرة الفاسية، فتوجَّه نحوها بقصد زيارة قطب دائرة أفلاك السيادة، وينبوع كلٍّ فخار ومجادة، مطلع أنوار المعارف وسمت محيا كل ناسك وعارف، سبط الرسول ونخبة سلالة بضعته الزّهراء البتول مولانا إدريس الذي بفاس نجل التاجر مولانا إدريس الذي تعطرت من مغربنا هذا بأرج فتوحاته الأنفاس، نجل مولانا عبد الله الكامل جامع شتات الفضائل والفواضل، نجل مولانا الحسن المثنى الحائز من جميع المفاخر المفرد والمجموع والمثنى، نجل السبط مولانا أبي محمد الحسن الآخذ من سائر الكمالات الذاتية والصفاتية بأوثق رصن، نجل فحل الفحول وليث الكتائب، ابن عم نبيّنا ﷺ وأخيه وصهره مولانا علي بن أبي طالب، وابن بنت المصطفى وخلاصة الصفا وكعبة أرواح أهل الوفا، شمس سماء المعالي التي لا يلحقها أفولٌ، وريحانة روضِ الرتب العوالي التي لا يعتريها ذبول، ينبوع الإمداد لقلوب العارفين الواصلين، ومنهل الورَّاد من سائر الأبدال والأوتاد والأفراد والأقطاب الكاملين، بضعةُ الرسولِ مولاتنا فاطمة الزهراء البتول[1]، صلى الله وسلم على والدها الرَّسول المصطفى وعلى إخوانه من الرُّسل والأنبياء، وعليها وعلى ذريتها وجميع الآل والأصحاب الكرام الأصفياء، والتَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين من العلماء والصلحاء والمؤمنين البررة الأتقياء:

أسـامـيـاً لـم تَـزِدْهُ مـعـرِفـةً وإنَّـمـا لـذَّةٌ نَكَـرْنَـاهـا

فلما توجَّه للحضرة المذكورة بقصد الزيادة المسطورة وذلك في عام واحد وتسعين من

---

(1) هي فاطمة بنت رسول الله ﷺ أمها خديجة بنت خويلد، تزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الثامنة عشرة من عمرها، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب، عاشت بعد أبيها ستة أشهر، وهي أول من جعل له النعش في الإسلام، وذلك سنة (11هـ).
انظر طبقات ابن سعد: 8/ 11. والإصابة (النساء: ت 830)، وصفة الصفوة: 2/ 3، وحلية الأولياء: 2/ 39، وأسد الغابة.

المائة قبله لقي بمدينة وجده، والخير لا يزال يرصد إبانه وأهله حبيبه الأخص ومطمح بصره وخله الصديق الأكبر والخليفة الأشهر أبا الحسن سيدنا علي حرازم الفاسي الأطهر وهو جامع كتاب «جواهر المعاني»، والمخصوص من سيدنا ﷺ بأخص مراتب القرب والتداني، ولما لقيه هنالك ولم يكن له قبلها بسيدنا تقدم معرفة تعرف له سيدنا ﷺ، وذكر له رؤيا سلفت له تدلُّ على صحبته إياه، وقد كان أُنسِيها حتى ذكَّره سيدنا إياها من طريق المكاشفة، فلما تذكَّرها وتحقق أن سيدنا ﷺ أخبره صدقاً، عَلِمَ يقيناً أن ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يُوسُف: الآية 100] فعند ذلك قال له سيدنا ﷺ: أما تخافُ من الله تتعبني من مكاني إليك فلا حاجة لي إلى ملاقاتك، فاحمد الله على ذلك، قال فحمدت الله وشكرته، وعلمت أن الله تعالى تفضَّل علي، وأنه ﷺ هو الكفيل لي والمتولي جميع أموري بتصريح منه بذلك إلي:

وإذا سَخَّرَ الإلَهُ أُناساً ... لسعيدٍ فإنَّهم سُعَداءُ

فتوجَّه معه إلى الحضرة الفاسية، فلما وصَلَها أقام بها مدَّةً لقضاء وطرِه من زيارة الروضة الإدريسيّة، ثم لقَّنه الطريق الخلوتية، وألقى إليه ما قَسَمه الله له على يده من العلوم والأسرار السنية، وحين عزم على الرجوع إلى حضرة تلمسان أخبره بأن حاله لم يستقم بها، وأنه لا بد له من الانتقال إلى غيرها مما يختاره الله له من البلدان، وحين التشييع[1] والموادعة قال له: الزمْ العهدَ والمحبّة حتى يأتي الفتحُ إن شاء الله تعالى، ثم رجعَ ﷺ إلى حضرة تلمسان، وبقي بها مدة ثمّ كان ما أشار إليه النَّاظم حيث قال:

(ومِنْ تِلِمسانَ نَوى انتِقالَه ... إلى أبي سَمغونَ والشلالَه
في عامِ سِتٍّ وتِسعينَ ارتحَلْ ... عَنها إليهما بأهلِه وحَلْ
وسَافرَ الشَّيخُ إلى تَواتِ ... لأجلِ عارفٍ لَهُ مُواتي
كذلكَ سَافرَ إلى ابنِ العَربي ... تلميذِه الحِبِّ الرَّفيعِ المَنصِبِ
وهْوَ الَّذي وصَّى عَليهِ المُصطفى ... صلى عليهِ اللهُ من لهُ اصْطفى)

(نوى) قصد، و(أبو سمغون) ويقال بالصاد: قصر معروفٌ بالصَّحراء الشرقيّة به مدفنُ القطب الكبير سيدي أبي سمغون، وبه سمي القصر، و(الشلالة) قصرٌ قريب من قصر أبي سمغون، بينهما أدونُ من المرحلة، و(توات) صقع صحراوي معروف، و(مواتي) موافق والمراد هنا: أنه مشاكِلٌ له لما بينهما من الجنسية التي هي طلاب الرتب العوالي،

---

(1) التشييع: التوديع.

والمقامات العزيزة الغوالي، واسم هذا العارف على ما بلغني عن ثقات الأصحاب من أهل الصحراء سيدي محمد بن الفُضَيْل بالتصغير، وهو من أهل تكرارين من توات الغربية، و (ابن العربي)أحد الخاصة من أصحابه ﷺ، وهو التازي الدمراوي المعروف عند الأصحاب بما يغني عن التطويل به [1]، وباقي الألفاظ ظاهر.

يقول: ثم بعد ما رجع سيدنا ﷺ من فاس إلى حضرة تلمسان، بقي بها مدة يستخير الملك الديان، حتى قوي عزمُه على الانتقال منها إلى قصري أبي سمغون والشلالة لما أراده الله به من بلوغه فيهما أقصى درجات الفضل وأسنى مراتب الجلالة، لما سبق في علم الله تعالى من كونهما محلَّ فتحه ومطلع سعدِه ونجحه، فارتحل ﷺ من تلمسان عام ستة وتسعين من المائة المذكورة، واستوطنَ أولاً بأهله قرية الشلالة المعروفة المشهورة، وبعد ذلك في عام تسعة وتسعين نزل قصر أبي سمغون المبارك الأسعد الميمون، وبقي به إلى أن انتقل بأهله إلى الحضرة الفاسية الزاهرة التي أهَّل الله تربتها لضم جثته الكريمة الطَّاهرة، وفي هذه المدة التي أقامها بأبي سمغون سافر إلى توات بقصد زيارة أهل الخير بها وملاقاتهم وخصوصاً العارف بالله سيدي محمد بن الفضيل المتقدِّم الذكر المشار إليه في النظم.

ومما سمعته من الثقات الفضلاء من أصحابه الصحراويين وحفظته بالتقييد أن سيدنا ﷺ كان كتب إلى هذا السيد أولاً كتاباً يطلب منه فيه شيئاً من الأسرار فلم يجبه عن ذلك الكتاب، رغبةً منه في اللُّقى والمواجهة بالخطاب، فعرف سيدنا ﷺ مراده، فبادرَ من حينه إلى إجابته فيما قصده منه وأراده، فعمل الرحلة إليه وسار حتى انتهى إلى محله وخيَّم عليه، ولما قضى الواجبَ من زيارته ومواصلته أتحفَ منه بما كان السبب في رحلته إليه ووفادته، واستفاد هو أيضاً حسبما في «الجواهر» من سيدنا ﷺ بعض أسرار الطريق وشيئاً من علوم الأذواق والتحقيق.

وبلغني أن سيدنا ﷺ لقي بتوات في وجهته هذه بعض الرجال وهو غير الأول، وكان من أهل الأنس والإدلال، فاشترى منه شيئاً من الأسرار بثلاثة عشر محبوباً من خالص الذهب النضار، وأخبرت عن هذا السيد أنه كان ربما أفضى به الحال إلى أن ينادي في الأسواق الغاصّة بالخلق ألا من يشتري السرَّ الفلاني بكذا وكذا من المال، وهذا شأن أهل الإدلال المستغرقين في غمرة الحال الواجب التسليم لمن أفضى إليه حاله إلى هذا

---

(1) هو محيي الدين، وقد تقدمت ترجمته.

المرمى أن السلامة من سلمى. وفي هذه المدة التي أقامها بأبي سمغون أيضاً سافر إلى تازة بقصد ملاقاة صاحبه وتلميذه العارف الأكبر الواسطة المعظم الأشهر سيدي محمد بن العربي الدمراوي التازي، لأنه كان في ذلك الوقت من أكبر أصحابه وخاصّته من أحبابه، وكان لسيدنا ﷺ مزيد اعتناء بشأنه لأن النبي ﷺ أوصاه به فكان ﷺ يزوره في حياته وبعد مماته في قبره، وسيأتي لنا مزيد في التعريف به عند تعرض النَّاظم لذكره فيما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفي كلام النَّاظم رحمه الله تعالى هنا لطائف:

(اللطيفة الأولى) في جمعه بين أبي سمغون والشلالة، ولم يذكر في «الجواهر» إلا أبا سمغون لكونه هو والشلالة كالبلدة الواحدة لتقاربهما، وقد علمت مما شرحنا به كلامه رحمه الله تعالى تحقيق الثابت من ذلك، فللّه درُّ النَّاظم رحمه الله في إفصاحه بذكر الشلالة في هذا البيت، وبه يعرف شدة اعتنائه وسَعَة اطّلاعه رحمه الله تعالى وقدَّس سرّه.

(اللطيفة الثانية) في قوله: «لأجل عارف له مواتي» فإن في قوله مواتي إشارةً إلى أنه من أشكاله ﷺ وأضرابه المتأهّلين، لأن يأخذ عنهم ويأخذوا عنه، فاكتفى بلفظ «مواتي» عن التصريح بذلك، وهو من لطائفه عند من أنصف بلا شك.

(اللطيفة الثالثة) في قوله: «مواتي» إشارة أخرى أيضاً، وهي أن هذا السيد على ما حدثني به الثقات من خاصة الأصحاب الواردين علينا من زاوية عين ماضي صانها الله وأسنا برهانها آلَ أمرُه بعد وفاة سيدنا ﷺ إلى أن أخذَ طريقه هذه المحمدية، وصار إليه التقديم فيها، فانتشرت على يده فتوات الشرقية وهي المعروفة بتدكات لا بالمغربية المعروفة بتكرارين التي هي بلده ومحل نشأته.

ولما توفي خلفه بعض إخوانه ممن قدمه فزاد انتشار الطريق على يده، وبنى هنالك زاويةً يجتمع إليه فيها الفقراء للصلاة وقراءة الوظيفة، وذلك بالبلدة المسماة انصلح، وهي إحدى قواعد تلك البلاد، ودخل في الطريق على يد هذا المقدم خلقٌ لا يحصون كثرةً من التوارق[1] وغيرهم، فكان في قول النَّاظم «مواتي» إشارة إلى مواتاته للشيخ ﷺ بكونه أهلاً للدخول في طريقته الخاصة، والانخراط في سلك حزبه الخاص، نفعنا الله بهم وأماتنا على إمحاض ودِّهم بمنّه وكرمه آمين. ولم يتعرض في «الجواهر» لذكر سفر الشيخ

(1) كذا بالأصل، ولعله «الطوارق»، وهم عشيرة الرجل، أو المتكهنين والضاربون بالحصى.

لتازة بقصد ملاقاته تلميذه ابن العربي المذكور، وذكر ذلك صاحب «الجامع» ولم يتعرضا معاً رحمهما الله تعالى لذكر الوصية من النبي ﷺ، وهي مما ثبت في التواتر عن الشيخ رضي الله عنه بلا ريب، والله المستعان.

ثم أشار النَّاظم رحمه الله تعالى إلى ما اتفق لسيدنا رضي الله عنه بقصر أبي سمغون من الفتح الأكبر والفيض الأغزر وما يتعلّق بذلك فقال:

(وفَتَحَ اللهُ بِهَذَا العَامِ	فَتْحاً لِشَيْخِي الكَامِلِ الإِمَامِ
بِأَنْ رَأَى بِالعَيْنِ عَيْنَ الرَّحْمَةِ	يَقْظَةً فَصَارَ عَيْنَ الأُمَّةِ
وَقَالَ دَعْ كُلَّ شُيُوخِكَ وَذَرْ	أَنَا مُرَبِّيكَ وَشَيْخُكَ الأَبَرْ
وَقَالَ أَنْتَ وَارِثِي وَحَسْبِي	وَلِيَ حَقّاً بِغَيْرِ عَتْبِ
وَكَانَ فَتْحُ شَيْخِنَا ذِي الدِّينِ	بِقَصْرِ الاسْعَادِ أَبِي سَمْغُونِ)

(الفتح) تقدَّم أنه يطلق عند أهل هذا الشأن على أمور، والمراد من ذلك هنا ما صوَّره النَّاظم بقوله «بأن رأى» إلخ، وأي فتح هو لمن أكرمه الله وأسعدَه ففضل به عليه. اللَّهمَّ إن لم نكنْ لرحمتك أهلاً أن ننالها فرحمتك أهلٌ أن تنالنا في سلامة وعافية يا قريب يا مجيب، ولكونه أجلَّ الفتوح وأعظمها أسند الفعل للاسم الأعظم الجامع الذي هو الله جل وعلا، وأكَّد الفعل بالمصدر والإضافة لقوله «الشيخي» للتشريف، وفيها الاستشعار بكمال التعلق بالشيخ رضي الله عنه بإمحاض المحبة وكمال الانحياش إليه[1] والانجماع عليه، وموجب هذا الاستشعار ما هو مفعول من وظيف الخائض في هذا المقام من كمال الاستحضار، فللّه درّ النَّاظم رحمه الله ونفعنا به، ووصفه بالكمال وبالإمام لمناسبة المقام، لأن هذا الفتح المذكور هنا لا يكون إلا لمن اتَّصف بأوصاف الكمال والإمامة على التمام.

قال الشعراني رضي الله عنه في مقام رؤية النبي ﷺ يقظةً بعين الرأس والأخذ عنه المشار إلى ذلك بالفتح هنا ما نصّه: هو مقامٌ عزيز لا ينالُه كلُّ أحد، بل دونه مائتا ألف حجاب وسبعة وأربعون ألف مقام وسبعمائة وتسعون مقاماً، وأمهاتها مائة ألف مقام، وخاصّتها ألف مقام، فمن لم يقطعْ هذه المقامات كلّها لا يصحّ له الأخذ عنه ﷺ يقظة، و(العين) الأولى المعرفة بأل الباصرة، والثانية المضافة إلى الرحمة ذاته ﷺ الطَّاهرة، و(اليقظة) ضد المنام، و(عين الأمة) صدرها ومقدمها وسيدها، و(العتب) الملام، وقوله: (ذي الدين)

---

(1) الانحياش إليه: الاندفاع إليه، والالتجاء.

المراد به هنا المتحقق بمقامات الدين الثلاثة الإسلام والإيمان والإحسان، وسائر منازلها منازلة وكشفاً عيانياً، وأضاف (قصر أبي سمغون للإسعاد) لما حصل فيه لسيدنا ﷺ من الفتوح والإمداد.

يقول: وفي هذا العام الذي انتقل فيه سيدنا ﷺ من تلمسان فتح الله تعالى بفضله له فتحاً كاملاً تامًّا واضحَ البرهان، وذلك بأن رأى بعيني رأسه يقظةً وجه سيد الأكوان، وتشرَّف بمشاهدة طلعة سيد ولد عدنان، ﷺ، وشرف وكرم ومجد وعظم، وصرَّح له عليه الصَّلاة والسلام بأنه شيخه ومربِّيه وكافله، وأنه لا مِنَّة لمخلوق سواه عليه من الأنام، وأمَرَه بترك جميع ما أخذه من مشايخ الطريق، وإذا جاء نهر الله بطلَ نهرُ معقل على التحقيق، ومعلومٌ أنه لا مزيَّة للانفصال إذا وجد الاتصال، فلقَّنه ﷺ طريقةً من الأورادِ وافيةً بكل غرضٍ ومراد، وقال له: الزَمْ هذه الطريقة من غير خلوة ولا اعتزال من الخليقة حتى تصِلَ مقامك الذي وُعِدْت به وأنت على حالك من غير ضيقٍ ولا حرج ولا كثرة مجاهدة، ثم أمره بالاقتصارِ على ما أسداه إليه وقصر النظر في الطلب والاستمداد عليه، ومن كمال إقباله عليه واعتنائه به وانعطافه إليه أن قال له: أنت وارثي، وقال له: أنت حبيبي، وسيأتي ذلك بلفظه في فضل الورد إن شاء الله، وقال له أيضاً: أنت ولدي حقًّا ثلاثاً، وقد تقدَّم ذلك في الكلام على نسبه ﷺ، وصرح في «الجامع» بأن سيد الوجود ﷺ رتَّب لسيدنا ﷺ أوراداً تختصُّ به دون غيره من الناس وأوراداً يعطيها لمن رغب إليه فيها من الخلق على اختلاف الأنواع منهم والأجناس. فأما الخاصَّةُ به فقد قال في «الجامع»: إنه لا يتعرض لها لأنها مكتومةٌ، وأما التي أمره ﷺ أن يلقنها للمسلمين، فهي المشار إليها هنا بقول النَّاظم رحمه الله تعالى:

(وأَذِنَ النَّبِيّ للشَّيخ بأَنْ	يُلَقِّنَ الأَنامَ وِرْدَهُ الحَسَنْ
وَهُوَ صَلاتُنا على المُختارِ	خَيرِ الأَنامِ مَعَ الاستِغفارِ
ثُمَّ بِرأسِ القَرنِ لَهُ تَمَّمَه	أَحْسَنَ تَتمِيم بِذِكْرِ الهَيلَلَه
فَلاحَتْ أَنوارُ الهُدى عَلَيهِ	وبانَتْ أَسرارُ الرِّضا لَدَيهِ
وفاقَ في الخَيراتِ كُلَّ عارِفِ	لِغَرفِهِ مِنْ مَنبعِ المَعارِفِ)

(أذن له في كذا) أطلق له في فعله، فهو مأذون له، والفقهاء يحذفون الصلة فيقولون العبد المأذون، إذا أطلق له سيده في التجارة، ويطلق الإذنُ على الأمر أيضاً، ويصحُّ قصره هنا كالذي قبله، ويطلق أيضاً على الإرادة، ومنه قولهم: إذا أذن الله في كذا كان، ولا

يستقيم الحمل عليه هنا، و(التلقين) من لقِنَ الرَّجلُ الشيءَ لقناً فهو لقِنٌ من باب تعب، أي فهِمَه، ويتعدى بالتضعيف إلى ثانٍ فيقال لقَّنته الشيءَ فتلقّنه، إذا أخذه من فيك مشافهةً وانظر المصباح.

و(الأنام) تقدَّم معناه فيما سبق من كلام على بعض أبيات النظم، والمراد هنا كل مسلم كان ذكراً أو أنثى، عبداً أو حراً، صغيراً أو كبيراً، طائعاً أو عاصياً، لكن على الشرط المقرر في الملقِّن والملقَّن، و(الورد) القدر الموظف من قراءةٍ أو ذكرٍ أو نحو ذلك وتقدم، وسيأتي أيضاً، ووصَفَه بالحسن لاشتماله من وجوه الحسن والكمال على الغاية القصوى، حسبما سيتبين عند الكلام في ترتيب أذكاره، وبيان صيغها وما يتعلّق بذلك عند تعرض النَّاظم له إن شاء الله. و(القرن) مائة سنة. و«أل» فيه للعهد: أي ثم برأس المائة المذكورة وهي الثانية بعد ألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، و(تممه) إلى آخر الكلمة المشرفة و(لاحت) أشرقت، والمراد بـ(أنوار الهدى) هنا الأنوار التي تُفاض على العبدِ من حضرة القدس بسبب تقربه إلى الله تعالى بالنوافل، التي أكبرها فائدة وأعظمها خطراً وعائدة ذكر الله تعالى على الوجه الأكمل، فيكسبه فيضانها حالةً لم يكن يعهدُها من نفسه من القوة على الذكر، والحنين إلى الوقوف بباب الله تعالى من حيث يرضى بما يرضى، و(بانت) ظهرت، والمراد بأسرار الرضا هنا ما ينتهي إليه فيضانُ هذه الأنوار من القوة على الاستغراق التام في الذكر آناءَ اللَّيل وأطراف النَّهار، فيكسبه حالةً لم يعهدْها قبلُ من نفسه من الرضا والصَّبر والتوكل واطمئنان القلب بذكر الله تعالى، ولا شك أن العبد عند ذلك يصير هادياً مهدِياً راضياً مرضياً يستحق أن يكون قدوةً لغيره وإماماً له في مدارج سلوكه وسيره. وبهذا الذي شرحناه هنا يعرف وجهُ تخصيص النَّاظم ﵀ إضافة الأنوار للهدى والأسرار للرضا، فليتنبه لذلك (وفاق) غيرَه في كذا زاد عليه، و(الخيرات) المراد بها هنا: ما ينتجه ما تقدَّم من أنوار الهدى وأسرار الرضا من الترقيات والتجليات وما يفيده ذلك من الرقائق والدقائق واللّطائف وأنواع التحف والمنح والكمالات والمعارف، و(العارف) المراد به هنا: الولي الواصل و(الغرف) معروف، والمراد به هنا: التلقي والاستمداد والاستفاضة، و(منبع المعارف) هو النبي ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم.

يقول: وفي هذا العام الذي انتقل فيه سيدنا ﵁ من حضرة تلمسان إلى الشلالة وأبي سمغون حسبما تقدَّم مبيناً، أي بيان إذن النبي ﷺ لسيدنا ﵁ في تلقين هذا الورد المحمدي لسائر الأنام في اليقظة لا المنام، وهو، أي الورد المأذون له في تلقينه في ذلك الوقت، للخاصِّ والعام الاستغفار والصلاة على النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام،

واستمر على تلقينه الذكرين فقط، لمن رغب في ذلك إليه إلى رأس تلك المائة وهي الثانية بعد الألف من الهجرة الشريفة حسبما تقدَّم التنبيه عليه فتمَّم له ﷺ الوردَ بالكلمة الشريفة فكملَتْ فيه بسبب ذلك المحاسن الفائقة المنيفة، فعند ذلك ظهر عليه من أنوار الهدى وأسرار الرضا ما استعدَّ به للهداية والإرشاد، والدلالة بالحال والمقال على ما يوصل لحضرة ربِّ العباد، وترادف عليه من أنواع الخيرات والبركات والفضائل ما فاق به كلَّ عارف واصل وصديق كامل، وذلك لما أكرم به من التلقي والاستمداد بلا واسطة من سد الوجود ومنبع المعارف الذي إليه تنتهي مساند كلِّ فضل وجود من هذا الوقت الذي حصل له هذا الفتح الفائق والعطف التام من سيد الخلائق تنزل لإفادة الطالبين وتربية المريدين الراغبين وتظاهر بالمشيخة الكاملة بين العباد، وصار يقبل من يَرِدُ عليه للاستفادة والأخذ عنه من سائر البلاد، بعد أن كان شديد التنصُّل من ذلك كثير الهرب والنفور عمن ينسبه إلى تلك المسالك، وقد كانت تأتيه الوفودُ وهو بالحضرة التلمسانية قبل أن يحظى من سيد الوجود ﷺ بما حظِيَ به من هذه المشاهدة العيانية فيطلبون منه التلقينَ والدخول في صحبته على طريق المشيخة المعروفة فيمنح البعضَ ويلقِّن البعض، لكن على نهج الأخوة في الله تعالى وسبيل الصحبة المألوفة، ويصرح لمن تلقن منه بأن يقول: إنما نحن أصحاب، وأما المشيخة فلا هذا مع كونه ﷺ كان مأذوناً له في التربية مفوضاً إليه فيها موعوداً لمن لقنه بالضمان التام من المشايخ الكاملين والعارفين المقربين الواصلين كما عرفت ذلك مما سبق، وما ذلك إلا لبعد همّته وكمال صدقه مع الله تعالى في معاملته وخدمته ﷺ وأرضاه، ومتعنا وسائر إخواننا في الله تعالى بمحبّته ورضاه آمين.

ثم أشار النَّاظم ﷺ إلى ما حصل لسيدنا ﷺ بعد اتفاق هذا الفتح الأكبر له الذي هو الاجتماع بسيد ولد عدنان من باهر الفيضان بالعلم اللّدني وغريب الذوق والوجدان فقال:

(وفاضَ بالعلمِ اللَّدني ولاَ ... أتى لشِعبٍ قُنةٍ إذ هَمَلا
كَمْ آيةٍ فسَّرها يوماً بِمَا ... تقصُر عنه شأوَ مَنْ تَقدَّما
وكَمْ حديثٍ غامِضٍ معناهُ ... بَيَّنَه حتَّى بدا سَناهُ
وكَمْ لِهذا الشَّيخ مِن عِبارةٍ ... حلَّ بها مُستشكِلَ الإشارةِ)

(والعلم اللدني) هو علم الوهْبِ، أي هو الذي يحصلُ من لدنه تبارك وتعالى كما قال في حق عبده الخضر ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: الآية 65] وهذا (العلم) هو علمُ

العلماء بالله. وفي الكلام في تحقيق هذا المناط طولٌ وخروجٌ عما قصد من أجله في هذا التقييد المقول، وما تقدم في المقدمة من ذلك كافٍ في تعريف حقيقته في الجملة. ومن أراد الاستقصاء في ذلك فليطالع مظانَّه من كتب أهل التحقيق ومحله، و(الشعب) بالكسر: الطريق، وقيل: الطريق في الجبل يجمع على شعب[1]، و(القنة) ذروة الجبل، وتطلق على الربوة والكدية أيضاً و(هملا) جرى، وأراد بهذه الجملة أن علمه ﷺ لما فاض جرى منسجماً في منحدر من البسيط ولم يجرِ في شعب قنة أو ربوة أو شيء يعترضه، فينحرف أو يقف عن الجريان. والكلام على طريقة التمثيل والظاهر أنه مأخوذ من مثل سائر أو تلميح إلى قصة أو بيت شعر، إذ لا يحسن الإتيان بمثل هذا عند علماء النقد والبلاغة إلا إذا كان كذلك، ولم يحضرني الآن ما أخذه، فمن عثرَ عليه فليلحقه بهذا المحل. و(الآية) هنا: الآية القرآنية وقصر إدراكه عن الشيء لم يبلغه علمه. و(الشاو) الغاية، والمراد هنا: المبلغ من العلم، و(الحديث) الخبر عن رسول الله ﷺ، و(غامض) من غمَضَ الحقُّ يغمُضُ غموضاً من باب قعد خَفِيَ، وغَمُضَ بالضم: لغةٌ، انظر المصباح. و(السناء) الضياء، و(العبارة) معروفة و(الإشارة) في اللّغة معروفة أيضاً، ويحتمله النظم فيعم، ويحتمل إشارة الأولياء فيخصّ وهو أظهر بل هو المتعين هنا والله أعلم.

يقول: ولما أكرمَ الله تعالى بفضله الواسع العميم سيدنا ﷺ بالاجتماع بهذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وحظي منه بما حظي به من كمال العطف والإقبال، فاضَ بالعلم اللّدني الخاص بالكمل من أهل القرب وفحول الرجال، ففسّر كثيراً من آيات القرآن الكريم، بما قصر عنه إدراكُ غيرِه في الحديث والقديم، وبيّن كثيراً من غوامض الأحاديث النبويّة بما اتَّضحت به وجوهُ إشاراتها السنية، ولطائف أسرارها الخفية، وحلَّ كثيراً من مستشكل الإشارة، لما أوتيه وخصَّ به من كمال الذوق وسني العبارة، وانظر كتاب «جواهر المعاني» فقد عقد مؤلفه فيه لكل من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والإشارات العلوية باباً يغتبط به كل نبيه.

ثم أشار النَّاظم إلى ما حصل لسيدنا ﷺ في هذه المدة التي أقامها بأبي سمغون من إقبال الخلق عليه وكثرة قصدهم إياه بقصد الأخذ عنه والانتماء إليه وإلى ما كان يمدهم به في الحسن والمعنى من الإمدادات الباهرة، ويرصدهم به من الهبات الوافرة، فقال:

(فَجعلَ النَّاسُ مِنَ الأَقطارِ يأْتُونَهُ محبَّةَ الأَسرارِ

---

[1] جمع الشّعب: شِعاب، وهو انفراج بين جبلين.

مِنْ آخِذٍ طَرِيقَهُ السَّنِيَّه	ونَاظِرٍ بِهجَتَهُ السَّنِيه
تَرَاهُ مِثْلَ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَهْ	يَوْمَ الطَّوَافِ أو كَمِثْلِ عَرَفَه
يَعْشُو إلى أنْوارِهِ السَّعِيدُ	وعنهُ يَعْشُو الجاهِلُ المَرِيدُ
وكُلَّمَا أَتَاهُ ذُو حَاجِ	يَجُرُّه كالصَّيِّبِ الثَّجَّاجِ
خَالِصَ إحسانٍ ومَحْضَ رَحْمَه	أكْرَمَ رَبُّنَا بِهِ ذِي الأُمَّه

(**الأقطار**) جمع قطر وقد تقدَّم، وكذلك (**الأسرار والطريق**)، والمراد بها هنا هذه الطريقة المحمدية التي أذن له ﷺ في التربية بها، و(**البهجة**) معروفة، و(**يعشو**) إلى كذا: يأوي إليه، وعنه: أعرَضَ، و(**حاج**) جمع حاجة، وتجمع أيضاً على حاجات وحوائج، و(**الصيب**) من صابَ المطر صوباً وسمِّي المطر صوباً تسميةً بالمصدر، وسحابٌ صيِّبٌ ذو صوبٍ، و(**الثجاج**) من الثجِّ، وهو شدة الانصباب، يقال: مطر ثجّاجٌ ودم ثجاج أي شديد الانصباب، وباقي الألفاظ ظاهر.

يقول: فبسببِ ما أكرم الله به سيدنا في هذه المدة التي أقام فيها بأبي سمغون من الفتوحات المتراسلة والمواهب المتواصلة حتى ظهر عليه من الفيوضات ما ظهر، وبَهَر عقولَ الناظرين والسامعين من أمره ما بهر، جعل النَّاسُ يأتونه من سائر الأقطار ويفدون إليه أفواجاً من جميع القرى والأمصار، فمن مريدٍ صادق قادتْه جواذبُ العناية إلى أخذ طريقته السنية، ومن متبرِّكٍ حملته رياحُ المحبة إلى حضرته السعيدة ليتشرَّف بمشاهدة طلعته السنية، فترى الناسَ من شدة الازدحام على اتباعه وكثرة الوفود منهم على بابه، كأنهم يطوفون بالكعبة المشرَّفة أو يضجُّون بالتلبية يوم عرفة، تعشو إلى أنواره بصائرُ السعداء، وتعشو عنها أعين الخفافيش البعداء، وكل من قصده في شيء نالَ مرغوبَه وحصل مطلوبه، فما هو إلا محض رحمة وامتنان على هذه الأمة المرحومة من ربها الواسع الجود والإحسان.

وعقد النَّاظم في هذه الأبيات ما يعلم بالوقوف عليه في هذا المحل من «جواهر المعاني» مع بعض زيادة عليه مما في غيره مما ثبت عن الشيخ من طريق التواتر القطعي الذي لا شك فيه كقوله: «يعشو إلى أنواره» إلخ، فإنه عقد فيه معنى ما ثبتَ عن سيدنا رضي الله عنه من قوله: سائق السعادة يسوق أقواماً إلى هذه الحضرة، والصارف الإلَهي يصرف أناساً عنها، فإن التعبير بـ«أقواماً» يشير إلى التفخيم بخلافه في قوله: «أناساً» فإنه يشير إلى التحقير، كما يدلُّ له سياق الكلام والله المستعان.

ثم أشار النَّاظم رحمه الله تعالى إلى زمن انتقال سيدنا رضي الله عنه بأهله إلى حضرة فاس

الإدريسية واصطفائه لأهلها الأخيار جيراناً دون غيرهم من البرية وما ذاك إلا لما أهلها الله له من الخصوصية وخصَّها به من مزيد الفضيلة والمزية فقال:

(ثمَّ إلى فاسٍ مَدينةِ الفَخرِ ظعنَ في عامِ ثلاثة عشرِ
وزَيَّنت ببهجة التجاني في العامِ سادس ربيعِ الثَّاني)

(فاس) هي قاعدة المغرب العظمى المعروفة التي لم تزل ولا تزال إلى آخر الدهر من فضل الله تعالى بكل خير وكرامة موصوفة، وبكل عزٍّ وسعادة منوطة ومحفوفة، ووَصَفها بقوله: (مدينة الفخر) لما لها من المفاخر التي لا تكاد تحصى، والمآثر التي لا يأتي عليها الاستقصا، ولو لم يكن إلا أن الله تعالى جعل اختطاطها على يد سليل رسولهِ وصفوته من خلقه، وهو شمس المغرب وإمامه وطالع سَعْدِه الذي نصرت بعزته ألويته وأعلامه، وسراج أفقه الذي أشرقتْ بسناه لياليه وأيامُه، سبط الرسول المصطفى وقدوة أهل القرب والصفا، أبو العلا مولانا إدريس ابن التاج الأشهر مولانا إدريس الأكبر ﷺ وعن آبائه الكرام وأماتنا على محبَّتهم ومحبَّة خير الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السَّلام، فهي - أي هذه المدينة المباركة - صادرة عن نيته ومنفعلة عن توجُّهه السني وهمّته، وكفاك ذلك من شرفها وفخرها وجلالة قدرها، وقوله: (ظعن) ارتحل، والمراد من قصر أبي سمغون، وقوله: (في عام ثلاثة عشر) يريد بعد المائتين والألف، وباقي ألفاظ البيتين ظاهر المعنى.

يقول: ثم لما تشعشع أمرُ هذه الطريقة المحمدية، وطار صيتُها في البلاد المغربية والمشرقية وأمر سيدنا ﷺ في غاية الترقي والكمال، بدا له ما بدا في الارتحال والانتقال، فانتقل من قصر أبي سمغون المبارك الميمون في السابع عشر من ربيع الثاني الأنور، عام ثلاثة عشر بعد المائتين والألف من هجرة سيد البشر، متوجهاً إلى مدينة حضرة فاس ذات السناء الأفخر، صحبه تلميذه وخليفته الأفخر، فدخلها في السادس من ربيع الثاني، فعمَّت بركته من أهل المغرب القاصي والداني، والطائع والجاني، فزينت ببهجته أرجاء البلاد، وعمَّ يُمْنُ طلعته السَّعيدة الحاضرة والباد، وحين وَصَلَ ﷺ أتى حضرة السلطان المعظم، ذي الفخر الصميم القدر المفخَّم، وهو أبو الربيع مولانا سليمان بن مولانا السلطان مولانا محمد ابن السلطان مولانا عبد الله ابن السلطان مولانا إسماعيل[1]،

---

(1) سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل، أبو الربيع، الشريف العلوي، من سلاطين دولة الأشراف العلويين في مراكش. بويع بفاس سنة (1206هـ)، وامتنعت عليه مراكش فزحف إليها سنة (1211هـ) فبايعه أهلها. كانت أيامه كلها أيام ثورات وفتن وحروب انتهت باستقرار الملك له في المغرب=

رحمهم الله تعالى وقدَّس أسرارهم، فرحَّب به وسهَّل، ونوَّه بقدرِهِ وبجَّلَ، وأنفذَ له الدار المعروفة بالحضرة بدار المرأة، فامتنع سيدنا ﷺ من قبولها لأمرٍ حاكَ في صدره، ففطن السلطان قدس سره لذلك فكلَّمه بما أزاح عنه وجْهَ الإشكال في أمره، ثم بعد أيامٍ من سكناه بها أخبر الخاصة من أصحابه بأنه إنما سكَنَها بإذن من النبيِّ ﷺ، وذكر لهم أنه عليه الصَّلاة والسلام أمَرَه بشيء يفعلُه فهو يفعله، وذكر لنا بعض الخاصة من أصحابه ﷺ وملازميه أن الذي أمره به ﷺ يفعله هو تصدُّقه بمقدارِ كِرائها[1] على المساكين، فكان يتصدَّق بذلك خبزاً عند انقضاءِ كلِّ شهر من أشهر المدة التي سكن بها إلى أن توفي ﷺ.

ولا يستبعدُ مثل هذا من إذنه ﷺ لأكابر العارفين فيما يأتون وما يذرون من جميع وجوه تصرُّفاتهم، إلا من لا إلمام له بشيءٍ من معرفة صفاتهم، فقد ذكر في العهود المحمدية أن طريقَ العارفين بالله تعالى أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في كلِّ أمر أرادوا فِعْلَه أو تركه، فما أذِنَ لهم فعلوه وما لا تركوه، وهم في هذا الاستئذان بحسب مقاماتهم من مشاهدته ﷺ، وأدناهم مقاماً من يستأذنه بالقلب بطريق التصوُّر والاستحضار التام، فينقدحُ له في سرِّه ما يبني عليه في ذلك الغرض وذلك المرام، وأعلاهُم من كان من أهل الاجتماع به يقظةً ومشافهةً كما هو مقام أهل الكشف، فراجع العهود الكبرى، وذكر فيها أيضاً عن نفسه رحمه الله أنه كان يشاوره ﷺ فيما لم يجدْ له من الأعمال دليلاً في الشريعة إلا أنه مستحسن عند بعض العلماء، فيجيبه ﷺ بما يقتضي الإقرارَ على الفعل أو الترك، وذكر من ذلك أنه شاوَرَه على قول بعضهم إنه يقال في سجود السهو: سُبْحانَ من لا ينامُ ولا يَسْهو فقال ﷺ: هو حَسَنٌ.

وذكر أيضاً رحمه الله تعالى عن الشيخ نور الدِّين الشوني أنه كان يشاور النبيّ ﷺ في جميع أمورِه، وأن من جملة ما شاوَرَه فيه حفر البئر التي في زاويتنا بعد أن حفَرَ بها ثلاث آبار فطلعت كلُّها فاسدةً وماؤها مُنتِنٌ، فقال له ﷺ: قُلْ لهم يحفروا ببابِ الحَوْشِ، ففعلوا، فطلعت جيدةً وماؤها حلو اهـ.

وفي كتاب «عوارف المعارف» أن الشيخ الكاملَ مولانا عبد القادر الجيلاني[2] قال:

= الأقصى. كان عاقلاً محباً للعلم والعلماء، له آثار عمران في فاس وغيرها مات سنة (1238هـ).
انظر الدرر الفاخرة: 67، وشجرة النور: 380.

(1) الكِراء: الاستئجار.

(2) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي، مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد في جيلان وانتقل=

ما تزوَّجْتُ حتى قال لي ﷺ: تزوَّجْ اهـ، وسياقُ الكلام مؤذن بأن ذلك في اليقظة فهو من هذا القبيل إلى غير ذلك.

وقد بلغني من طريق الثقات الأثبات أن أخصَّ أصحابِ سيدنا ﷺ العارفَ الكبيرَ الموصوف بالقطبانية في زمانه من غير دفاع ولا نكير، أبا الحسن سيدي الحاج علي ابن سيدي التماسيني ﷺ تجاذَبَ أطراف المذاكرة مع بعض الإخوان يوماً في مثل ما نحن فيه فقال له: يا فلان إن من الرجالِ الحاضرين معك في هذا الزمان من لا يفعلُ فعلاً قلَّ أو جلَّ إلا على إذْنٍ منه ﷺ من طريق المكافحة والعيان، حتى إنه لا يقومُ لفراشِه الذي ينامُ فيه إلا إذا أمَرَه ﷺ بذلك، وقد فهم عنه من سمع منه ذلك أنه يعني نفسه، وله من شواهد حاله ما يصدِّقه فيما أبداه من مقاله، وسيأتي لنا ذكر شيءٍ من أوصاف أحواله عندما يتعرَّض الناظم لذكره، إن شاء الله، ﷺ وأرضاه، ونفعنا بمحبته ورضاه آمين.

وما تقدَّم في سبك البيتين من ذكر تاريخ خروج سيدنا ﷺ من أبي سمغون لم يعرّج عليه في النظم، لكن ذَكَره في «الجواهر» فاعلم ذلك.

ثمَّ أشار النَّاظمُ ﷺ إلى زمن صدور الأمر من سيدنا ﷺ لخليفته المعظَّم سيدي علي حرازم ﷺ بجمع كتاب «جواهر المعاني» وبعض ما يتعلَّق بفضل هذا الكتاب المبارك، فقال:

(وبعدَ ذَا بنَحوِ شَهرينِ أمَر	تِلميذَه الرضى عليًا الأبرّ
بجَمعِهِ جَواهرَ المَعاني	عن إذنِ سيدي بني عدنانِ
صلَّى عليهِ منزلُ القُرآن	والآلِ والصَّحبِ مَدى الأزمانِ
عَلَيكُم مَعاشِرَ الأحبابِ	ما عِشتُمُ الدَّهرَ بِذا الكتابِ
عَن إذنِ طَه جَمعُه وأمرُه	وقدرُ الإمامِ حقَّ قدرِه
ومَن يُطالِعُهُ بإنصافٍ يرى	خِلالَ الشيخِ لَيستْ في الورَى
ولَيسَ في ذلكَ عِندي شكُّ	وخالِقي ولَيسَ فيهِ إفكُ)

= إلى بغداد شاباً سنة (488هـ) فاتصل بشيوخ العلم والتصوف وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه وسمع الحديث وقرأ الأدب واشتهر، وكان يأكل من عمل يده، وتصدّر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة (528هـ). مات سنة (561هـ).

انظر النجوم الزاهرة: 5/ 371، وفوات الوفيات: 2/ 2، وشذرات الذهب: 4/ 198، وطبقات الشعراني: 1/ 108.

(الأمر) اللَّفظي الدالّ على الطلب مع استعلاء الطالب، عكس الدعاء، والمراد بـ (علي) هذا: سيّدنا علي حرازم المتقدِّم الذكر ﷺ، و(مدى الأزمان) غاية الأزمان، و(الدهر) يطلق على الأبد، وقيل: هو الزمان قلَّ أو كثر. قال الأزهري: الدهرُ يطلَقُ على الزَّمان وعلى الفصْلِ من فصول السنةِ وأقلّ من ذلك، ويقعُ على مدَّة الدُّنيا كلها اهـ[1]. وهذا المعنى الأخير أنسب بالمقام، و(الإفك) الكذب، من أفك يأفِكُ من باب ضرب إذا كذب.

يقول: وبعد ما استقرَّت بسيدنا ﷺ في هذه الحضرة المحروسة الدار، واطمأنَّ به المنزلُ منها والقرار، ومضى نحو الشهرين من مَقْدَمِه وحلوله واستقراره أمَرَ عن إذن سيدِ الوجود ﷺ تلميذَه الأخصّ الذي هو عيبةُ علومه[2] وخزانة أسراره سيدنا علي حرازم ﷺ بجمْعِ كتاب «جواهر المعاني» ونظمه، لفرائد فوائده، وترتيب فصوله، وتهذيب مسائله، وتأسيس قواعده، وذلك بعد أن كان أمَرَ أولاً بتمزيق ما جمع منه من المسائل الجليلة السنية لأمرٍ اقتضتْه في ذلك الوقت أحوالُه الجلالية، التي هي نتائج هممه العلية، ودلائل صدقه مع الله تعالى في توجهاته الكمالية المرضية، فامتثلَ لأمره المُطاع بعد التحيُّر الكثير والإلحاح عليه بالمراجعة في ذلك من خاصَّة الأصحابِ والأتباع، فلم يقبلْ منهم ﷺ لقوَّة الباعث الحامل له على ذلك في ذلك الوقت، إلا المحو والإتلاف والضياع، ولم يبقَ منه إلا تقاييدُ بيد البعض من أصحابه، فلما مَنَّ الله تعالى بصدور الإذن في جمعه انتفعَ بتلك التقاييد في كثير من فصوله وأبوابه.

وكان شروع مؤلفه ﷺ في جمعه وترتيبه وتأليف مسائله وتبويبه بفاس أوائل شعبان الأبرك من العام قبله وسحاب الخير لها مطر ترصَدُ به إبانه وفصلُه. وفرغ منه أواسط ذي القعدة الحرام من السنة الموالية لذلك العام، وذلك قيدَ حياةِ سيدنا قدَّس الله سرَّه ووالى عليه سحائبَ الرضوان، وبعد أن فرَغَ منه أحْضَرَه بين يَدَيْه وأجازَه في سائر ما فيه وكتبَ له بخطِّ يدِه المباركة أوّلَه وآخره بذلك في مسجد الديوان، فجاءَ بحمدِ الله محفوفاً باليمن والإسعاد، منتشرَ الذكر، سنيَّ الفَخْر، عميمَ النفعِ في جميع الأصقاع والبلاد.

فلهذا يقولُ النَّاظمُ هنا مرشداً إخوانه إليه وحاضًا لهم عليه مخاطباً إيَّاهم بما يقتضي

---

(1) كذا في اللسان (دهر).

(2) العَيْبة: وعاء من خوص ونحوه ينقل فيه الزرع المحصود إلى الجَرين، وكذلك يطلق على الوعاء من آدم ونحوه يكون فيه المتاع، جمعه: عِيَبٌ وعِيابٌ. واستعيرت اللفظة هنا للعلوم.

التحنُّن والعطف والرفق في الخطاب جرياً منه في ذلك على سنن الحلماءِ الرحماء من أولي الألباب: عليكم يا معاشرَ الإخوان وجماعة الأحباب، مدة حياتِكم، بالدوام على مطالعةِ هذا الكتاب، فإنه كفيلٌ بفضْلِ الملك الوهاب، للمثابر عليه من طريق المحبة الخالصة بالوصول إلى معرفة رَبِّ الأرباب، واستجلاء عرائس الحقائق ونفائس اللطائف والدقائق، والولوج إلى حصر حضراتها المُنيفة من كلِّ باب، فمَنْ جدَّ وجد لا محالة في يومه ما لم يجدْه في أمسه، ومن قصَّر فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه، ويكفي الأريب من شرف هذا الكتاب العجيب صدور تأليفه عن إذن طه الحبيب، ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم، مع ما اشتمل عليه من التنويه بضخامة شأن سيدنا رضي الله عنه وفخامة أمره وقدره إياه جهد استطاعته حق قدره، ومَنْ طالعه ونظَرَ فيما تضمَّنه بعين الإنصاف علم يقيناً ما فاق به سيدنا رضي الله عنه غيره من سنيِّ النعوت وكمال الأوصافِ، ولا يتطرَّق إلى هذا الرجم بالغيب، إلا لمن أُحرِم بركته وخيره من أهل الغفلة والتيه في مهامِهِ التردُّد والريب، وإقسام النَّاظم رحمه الله في هذا المقام بالرب الخالق دليلٌ واضح لما خصَّ به في أحوال محبته من الصدق الفائق رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته، وما ذكرته في سبك هذه الأبيات هو مضمونُ ما اشتملَ عليه كتاب «الجامع»، وكذلك كتاب «الجواهر» إلا النذر منه، فمما حقَّقناه عن الثقات الأثبات. ومما بلغنا في فضل هذا الكتاب عن سيدنا رضي الله عنه أن سيدَ الوجود ﷺ نسَبَه إليه فقال فيه: كتابي هذا وأنا ألفته، وقد ظهر بحمد الله تعالى مصداقُ هذه المقالة الشريفة في حصول القبول التام له، وتطاير الركبان به وعموم النفع للخاصِّ والعام بعلومه السنية وأسراره المنيفة، مع أن مؤلفه رضي الله عنه كان مزجي البضاعة في العلوم الرسمية لا بد له فيما يحتاج إليه في الصناعة التأليفية، فهو لا محالة من كراماته الشاهدة له بالخصوصية وهذا أدخلُ في الكرامة مما وَقَع لبعض العارفين الموصوفين بالأمية، من تأليف بعض مهرة العلماء في مآثرهم وأذواقهم الوهبية، ومن بركات هذا الكتاب الشائعة بين الأصحاب والإخوان، في سائر الأمصار والبلدان كثرةُ من دَخَل في هذه الطريقة المحمدية بسبب مطالعته والنظر فيه، وهذا شيءٌ لا يكاد النظر يحصي ما اتفق منه ولا يستوفيه، وكنت كثيراً ما أسمعُ بعضَ أصحاب سيدنا رضي الله عنه وهو من العلماء الفضلاء، والسراة الأجلة النبلاء، يقول: قد شُوهد لهذا الكتاب في المكان الذي يكون فيه من الحفظ وسعة الأرزاق، وكثرة السعادة وتحسين الأخلاق، ما لا يجْحَدُه ويكابر فيه إلا غبيٌّ أو ذو شقاق ومن بركاته الظاهرة وكراماته الباهرة، ما ذَكَره مؤلفه رضي الله عنه من أن سيد الوجود ﷺ أوصى سيدنا رضي الله عنه بعد ما أمره بجمعه، بأن قال له: تحفظ عليه لينتفع من بعدك من الأولياء به انتهى.

وقد ظهر مصداقُ ذلك والحمد لله، فانتفع به كثير من الأولياء، وسلك على ما تضمنه من الطرق عنده من الأصفياء، واستنبطوا منه عدة طرائق موصلة كلّها لمن سلكَ عليها من أهل هذه الطريقة الأحمدية إلى حضرة الخالق، ولو لم يكنْ إلا ما وَقَع لصاحب كتاب «ميزاب الرحمة الربانية» لكان كافياً في هذا الذي ذكرناه للمشاهدة العيانية، فليتنبَّه لما أشرنا إليه في هذا المقام، وليعرفْ منه ما حام الشيخ حوله في قوله الثابت عنه: تتفرَّع عن هذه الطريق عدةُ طرقٍ كلّها كفيلةٌ من فضل الله تعالى بنيل المرام، ولا يذهبْ بك الوهمُ إلى ما تخيَّله في هذه المقالة بعضُ من لا علم عنده، وحسب من لم يطربْ للأغاريدِ أن يلزمَ حدَّه ولا يتجاذب مع ذي وجد صحيح وَجْده، وقد قال بعضُ أهل الطريق: مَنْ لم يعرف مصطلحَنا لا يجوزُ له الخوضُ في طريقتنا.

وبالجملة، فقد شوهد من تواتر البركات والخيرات لهذا الكتاب الجليل، ما لا يفي به قلم التعبير ولا يأتي عليه القيل، والله تعالى المستعان، وعليه سبحانه قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم أشار النَّاظمُ ﷺ تعالى إلى زمن حلول سيدنا ﷺ بمرتبة القطبانية العظمى، ووقت إنجاز الإقبال ما وَعَده به من المقام الأعزِّ الأسمى، فقال:

(وفي المحرّم غدا غوثاً رَشيدْ   خليفةً عن المُهيمن المَجيدْ
أعطي ذاكَ شيخُنا بعَرفَهْ   حَكَاهُ عَن حقّقَهُ وعرَفَهْ)

(المحرم) معرَّف، والمراد فاتح العام الموالي لعام حلوله الحضرة الفاسية المحروسة، و(الغوث) المراد به هنا: القطب الجامع، وقد تقدَّم بعضُ ما ينبىء عن حقيقة القطب لغةً وعرفاً، وإطلاق لفظ «الغوث» عليه اصطلاحٌ حادث بين الأولياء، بخلاف لفظ «القطب» فقد ثبتَ ورُودُه في بعض الآثار. قال ابن حجر[1]: الأبدالُ ورَدَتْ في عدة أخبار، وأما القطبُ فورد في بعض الآثار، وأما الغوث فلم يثبتْ. وقد ألفَ الشيخ جلال الدين السيوطي ﷺ تأليفاً سماه «الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال» وذكر أن الحاملَ له على تأليفه ما بلغه عن بعض من لا علم له من إنكار الأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والقطب، فجَمَع ما وَرَد من الأحاديث والآثار بثبوت جميع ذلك في جمع ليستفاد ولا يعوَّل على إنكار أهل الفساد، وذكر في تأليفه هذا ما يدلُّ على ثبوت

(1) ابن حجر العسقلاني: تقدمت ترجمته.

القطب بخلاف الغوث، فلم يذكر فيما يدلُّ لثبوته شيئاً، وهذا كما رأيت بحسبِ ما ثبت في الأخبار والآثار الواردة.

وأما في الاصطلاح فلفظ «الغوث» يرادِفُ لفظ القطب، وأصرحُ منه في تعيين المخصوص، بمقام القطبية على الخصوص، إذ ربما أطلِقَ القطب على الواحد من الإمامين أو على أحد الأوتاد الأربعة باعتبار أنه قطبُ إقليمه أو نحو ذلك من الاعتبارات، فإذا أُطلق لفظ الغوث لا يصرف في العرف إلا للقطب الجامع لا غير، فلذلك اقتصرَ النَّاظم عليه فيما عبَّر به هنا، والله أعلم.

و(رشيد) فعيل من الرَّشاد: وَصَفه به لأنه أي القطب أتقى أهل زمانِه وأزكاهُم وأكرمُهم عند الله مكانةً وأرضاهم، و(الخليفة) هو القائم عن مستخلفه بأعباء ما استخلفه فيه على الوجه الأكمل، و(المهيمن) اسم من أسمائه تعالى، قالوا: ومعناه الشاهدُ الذي لا يغيب عنه شيء. قال الخليل بن أحمد وأبو عبيدة: هَيْمَنَ يهيمِنُ فهو مهيمِنٌ: إذا كان رقيباً على الشيء، وقيل في معناه غير ذلك. وقال ابن الأنباري: المهيمنُ القائم على خَلْقِه برِزْقِه، وأنشد:

ألاَ إنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ نبيِّهِ ... مُهَيْمِنه التاليه في العُرْفِ والنُّكْرِ

قال: معناه القائم على الناس بعده اهـ[1] نقله في «مفاتح الغيب» وقد تقدَّم، و(المجيدُ) كذلك من أسمائه تبارك وتعالى. ومعناه المنتهي في الشرف وكمال الملك واتّساعه إلى غاية لا يمكن المزيد عليها ولا الوصول إلى شيء فيها اهـ ذكره في «شرح الأسماء الحسنى».

وإذا عرفتَ معنى الاسمين الكريمين، وعرفتَ ما تقرَّر في العلم من أن الخليفة لا بد أن يتعلَّق بشيء من معنى مستخلفه عرفتَ الوجْهَ عند النَّاظم في تخصيص هذين الاسمين الأعظمين بالذكر هنا، وهذه إحدى لطائفة ﷺ تعالى في هذا النظم لمن استقرأه حسبما تقدَّم التنبيهُ على نظائر ذلك. و(عرفة) أرادَ به هنا موضعَ وقوفِ الحجيج، أي: الجبل المعروف لا اليوم التاسع من ذي الحجة، إذ لا يصحُّ حملُه عليه هنا لئلا يحصلَ التناقضُ بين معنى هذا البيت والذي قبله، وبين عرفات ومكَّة نحو ستة أميال[2]، و(عَرَفَه) عَلِمَهُ بحاسَّةٍ من الحواسّ الخمس.

---

(1) كذا في لسان العرب (همن)، والبيت فيه.

(2) قال الفراء: عرفة وعرفات اسم لموضع واحد. وعرفة وعرفات واحد عند أكثر أهل العلم وليس كما قال بعضهم إن عرفة مولد. =

يقول: وفي المحرم الحرام فاتح العام الموالي لعام حلول سيدنا ﷺ بحضرة فاس وهو عام أربعة عشر بعد المائتين والألف من هجرة سيد الناس حلَّ ﷺ مقام القطبانية، وظهَر بحمد الله تعالى مصداقُ ما بشَّره به من تقدّم ذكره من أهل الكشوفات العيانية والمقامات السنية العرفانية، وكان حصولُ الفتح له ﷺ في إدراك هذا المقام الأعظم، في جبل عرفة من البلد المحرم، حسبما ذكر ذلك وبيَّنه تبييناً، من عرفه تحقيقاً وعلِمَه يقيناً، ولم يتعرَّضْ في كتاب «الجواهر» لتعيين زمن بلوغ سيدنا ﷺ درجة القطبانية ولا للمكان الذي أدرك فيه ذلك مع تصريحه ببلوغه المقام تحقيقاً في غير ما موضع. ومن ذلك قوله في ذكر كماله رضي الله عنهما نصُّه: ومن كماله ﷺ وعرفانه الأتم، معرفته لاسم الله العظيم الأعظم إلى آخر كلامه. ومعلومٌ أن ذلك من خصائصِ القطب كما ستقفُ عليه قريباً إن شاء الله تعالى، ومن ذلك قوله في هذا المحل أيضاً: ومن كماله ﷺ وعلوّ منصبه الشريف ما أوتيه من مقام الخلافة والتصريف ووَلِيَه من النيابةِ والتحكيم والأمر النافذ العميم إلى آخر كلامه، إلى غير ذلك من عباراته المصرِّحة ببلوغِه هذا المقام الأسمى، والدرجة السامية العظمى.

والذي يظهر والله أعلم أن النَّاظم تلقَّى ما عقده في هذين البيتين من العارف الكبير سيدنا محمد الحبيب ولد الشيخ ﷺ، فإنه أقامَ عندَه بزاويته مدةً وهو عمدتُه في كثير من أخبار الشيخ وعلومه وأسراره، وعلى هذا فيكونُ هو المشار إليه بقوله «حكاه من حققه وعرفه» وتحقيقه، لما ذكره من أن سيدنا ﷺ أُعطيَ القطبية العظمى في المحرم من العام المذكور بجبل عرفة، إما بإخبار من الشيخ ﷺ له بذلك، فيكون من باب رواية الثقةِ ما لم يوافقْه عليه غيره، وإما من طريق كشْفِه الصحيح وحصول التعريف له من الله بذلك، والنفس إلى هذا الاحتمال أميلُ لما يعضدُه من القرائنِ والشواهدِ الحالية، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حالٍ فإن النَّاظم رحمه الله تعالى اطَّلع على ما لم يطلع عليه غيرُه ومثله في ديانته وجلالة قدره، لا يذكرُ مثلَ هذا من غير أن يثبت عندَه، ثم إن قوله: «أعطي ذلك شيخنا بعرفة»، على ما أوجبه سياقُ الكلام من أن المراد الجبل لا اليوم مشكل بظاهره، لأن سيدنا ﷺ كان في تلك السنة بفاس لم يغبْ عنها. والجواب عن هذا الإشكال أن القطب حسبما ذكره الشعراني عن شيخه الخواص رضي الله عنهما، وذكره في الجواهر عن سيدنا

= وقال البشاري: عرفة قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ، وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة. انظر معجم البلدان: 4/ 104.

أيضاً له ثلاثمائة ذات وستة وستون ذاتاً، أحدُها بمكّة المشرفة لا تبرح منها ما دام حيًّا، والذاتُ الترابية حيث أرادَ الله تعالى من البلاد، وعليه فتكون القطبية نزلتْ على الذاتِ الذي لا تبرحُ من مكة، وفرق في هذه الذوات باعتبار ما يختصُّ به كل منهما. وأي ذات اختصَّت بشيء من الترقيات والتجليات والفتوحات والأسرار وغيرها في بلد فذلك الاختصاص سار لجميعها، فالترابية وغيرها في ذلك سواء فافهم ذلك، وهذا من المعروف المقرر في كتب الطريق، ولا عبرة بمن ينكره ممن لم يذقْ ذوقَهم ولم ينحُ نحوَهم.

وحيث جرى ذكر هذا المقام، أعني مقام القطبانية العظمى، وكان سيدنا ﷺ ممَّن أهَّله الله للحلول، بأقصى ذُراه، بلا شك عندنا والحمد لله، فلا بدَّ من الإلمام بشيء مما يشير إلى بيان حقيقته علماً. فنقولُ والله المستعان، وهو سبحانه المستعاذ بجلاله من ذللِ[1] القلمِ وفَلَتاتِ اللّسان:

ذكر الشيخ الإمام جلال الدِّين السيوطي ﷺ في كتابه المتقدِّم الذكر[2] حديث ابن مسعود ﷺ: «إنَّ لله عَزَّ وجلَّ فِي الخَلْقِ ثَلَاثمائة قُلُوبُهم عَلَىٰ قَلْبِ آدَمَ ﷺ ولله فِي الخلْقِ خَمْسَةٌ قُلُوبُهم عَلىٰ قَلْبِ جِبريلَ ﷺ، ولله في الخَلْقِ ثلاثة قُلُوبُهم على قلْبِ مِيكائيل ﷺ، ولله فِي الخَلْقِ واحِدٌ قَلْبهُ علىٰ قَلْبِ إسرافيل ﷺ» الحديث، وقد تقدَّم في المطلب السادس من المطالب المقدمة بلفْظِه. وذكر أيضاً في هذا الكتاب بعد إيراد عدَّةِ أخبارٍ ما نصُّه: وقال بعضُ العارفين: والقطبُ هو الواحدُ المذكور في حديث ابن مسعود أنه على قلْبِ إسرافيل عليه السلام، ومكانه من الأولياء كالنقطةِ في الدائرة التي هي مركزُها، به يقعُ صلاحُ العالم انتهى.

وقال الشيخ محيي الدِّين بعد كلام له في القطبانية: وقد يتوسَّعون في هذا الإطلاق فيسمُّون كلّ من دار عليه مقامٌ ما قطباً، وقد يسمَّى رجلُ البلدِ قطباً، وشيخُ الجماعةِ كذلك. ثم قال: ولكن الأقطاب المصطلَح عليهم لا يكونُ منهم في الزمان إلا واحدٌ وهو الغوث، ثم قال بعد كلام: وأكثرُ الأقطاب لا حكم لهم في الظاهر، وغيرُ الأكثر قد يكونُ لهم الحكم والتصريف في الظاهر كالباطن، وذكر منهم العمرَيْن[3] رضي الله عنهما وعلي بن أبي طالب والحسين وعمر بن عبد العزيز ﷺ أجمعين.

---

(1) كذا، والصواب «زلل» بالزاي.

(2) أي كتابه «الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال».

(3) العُمَران: عمر بن الخطاب وأبو بكر الخليفتان، رضي الله عنهما.

وذكر الشيخ محيي الدِّين أيضاً ﷺ أن القطبَ يسمَّى عندَ أهل الله تعالى: عبد الله، وعبد الجامع، وأن الإمامين منه بمنزلة الوزيرين، ويسمَّى الأيسر منهما عبد الملك، والأيمن عبد ربّه، وكان أبو بكر ﷺ عبد الملك وعمر بن الخطَّاب عبد ربّه على عهد النبي ﷺ، وبعد وفاته عليه الصَّلاة والسَّلام سُمِّي أبو بكر عبد الله وعمر عبد الملك، والإمام الذي ورِثَ مقام عمر عبد ربّه، ولا يزال الأمرُ كذلك إلى يوم القيامة.

ونقلَ بعضُهم عن التوقيف على مهمات التعريف للشيخ عبد الرؤوف المناوي رضي الله عنهما نصُّه: والإمامان وزيران للقطبِ الغوث، أحدُهما عن يمينه ونظرُه إلى الملكوت وهو مرآةُ ما يتوجَّه من الركن القطبي إلى العالم الروحاني من الإمدادات التي هي مادة الوجود والبقاء، والآخر عن يساره ونظرُه إلى الملك، وهو مرآة ما يتوجَّه منه إلى المحسوسات من المادة الحيوانية، وهو أعلى من صاحبه، فيخلف القطبَ إذا مات اهـ.
وقال الشيخ محيي الدِّين ﷺ: وقد جرت السُّنةُ الإلَهية في القطب إذا ولي المقام أن يقوم في مجلس من مجالسِ القربة والتمكين، وينصب له فيه تختٌ عظيم لو نظر الخلقُ إلى بهائِه لطاشتْ عقولهم فيقعد عليه ويقف بين يديه الإمامان، ويمدُّ يدَه للمبايعةِ، وتؤمر الأرواحُ الملكية والجنُّ والبشر الروحاني بمبايعته واحداً بعد واحد، ولا يبايعُه إلاّ الأرواحُ المطهَّرة المقرَّبة، ومن جملة المبايعين له النباتاتُ. ومن صفاته عند الشيخ محيي الدِّين ﷺ أنه المنعوتُ بمعاني جميع الأسماء تخلّقاً وتحققاً، وهو مرآةُ الحقِّ، ومحلُّ النعوتِ المقدَّسة، ومحلُّ المظاهر الإلٰهية. وممَّا وصَفه به أيضاً أن الغالب عليه الخفاءُ، وأنه محفوظ من خزائن الغيرة ملتحفٌ بأرْدية الصَّون، لا تعتريه شبهةٌ، ولا يخطرُ له خاطرٌ يناقضُ مُقامَه، كثيرُ النكاحِ راغب فيه، يوفي الطبيعة حقَّها على الحدِّ المشروعِ له، ويوفي الروحانية حقَّها على الحدِّ الإلَهي. وقال في وصفه أيضاً: حالهُ العبودية والافتقارُ، ويقبِّح القبيحَ ويحسِّنُ الحسَنَ. وقال في وصفه أيضاً: إنه لا يرى من الأشياء إلا وجْهَ الحقِّ فيها، يضعُ الأسبابَ ويقيمها، ويدلُّ عليها ويجري بحكمها، ينزلُ إليها حتى تحكم فيه وتؤثر فيه.

وقال في ذلك أيضاً: إن كان ذا دنيا وثروةٍ تصرَّف فيها تصرُّفَ عبدٍ في ملك سيد كريم، وإن لم يكن له دنيا وكان على ما يفتحُ الله لم تستشرف له نفس، بل يقصد بنفسه عند الحاجة بيت صديقٍ يعرضُ عليه حاجة طبيعته كالشفيع لها عنده، فيتناول لها منه قدرَ ما تحتاج إليه وينصرف، لا يجلس عن حاجتهِ إلا لضرورةٍ، فإذا لم يجدْ لجأ إلى الله في حاجة طبيعته لأنه مسؤول عنها لكونه والياً عليها، ثم ينتظرُ الإجابة من الله فيما سأله، فإن شاء أعطاه ما سأل عاجلاً أو آجلاً، فمرتبتُه الإلحاحُ في السؤال في الشفاعة في حقِّ طبيعته

بخلاف أصحاب الأحوال، فإنَّ الأشياء تكون عن هِمَمِهم وطرحِهم الأسباب عن نفوسهم فهم ربَّانيون، والقطبُ منزَّه عن الحال ثابتٌ في العلم مشهورٌ فيه، فإن أطْلَعه الله على ما يكون أخبرَ به على جهة الافتقار والمنة لله لا على جهة الافتخار، لا تطوى له أرضٌ ولا يمشي في الهواء ولا على ماء، ولا يأكلُ من غير سبب، ولا يطرأ عليه شيء من خرْقِ العوائد ممَّا ذكرنا إلا نادراً لأمرٍ يؤيده الحقُّ فيفعله، لا يكون ذلك مطلوباً للقطب يجوع اضطراراً لا اختياراً ويصبر على النكاح كذلك لعدم الطَّول، يعلم من تجلي النكاح ما يحرِّضه على طلبه والتعشُّق به، فإنه لا يتحقَّق له ولا لغيره من العارفين عبودية أكثر مما يتحقق له في النكاح في الأقطاب والعارفين مما يطول بنا ذكره، مع أن الغرضَ عندنا في هذا المقام ما يشير إلى معرفة حقيقة القطبانية.

ومن كلام الشيخ سيدي علي الخوّاص ﷺ في بعض أجوبته للعارف بالله تعالى الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنهما نصّه: وأما القطبيةُ فجلَّتْ أن يقومَ مقامها الأحوط إلاّ من اتَّصف بها. وقد ذكر الشيخ محيي الدِّين سيدي عبد القادر الجيلاني ﷺ أن للقطبِ ستة عشرَ عالماً أحاطياً، الدنيا والآخرة ومن فيهما عالم واحدٌ من هذه العوالم. ومن الأجوبة المذكورة أن الله تعالى إذا أرادَ إنزالَ بلاءٍ أو أمرٍ شديد تلقّاه القطب بالقبولِ والخوف، ثم ينظرُ ما يظهره الله تعالى من ألواحِ المحو والإثبات، وهي ثلاثمائة وستون لوحاً، فإن ظهر له المحو والتبديل نفَّذه بقضاءِ الله تعالى وأمضاه في العالم بواسطة أهل التسليك الذين هم خاصَّته، فينفذون ذلك غيرَ عالمين أن الأمرَ مُفاضٌ عليهم من غيرِهم، وإن ظهرَ له أن الأمرَ ثابتٌ لا محوَ فيه رَفَعه إلى أقرب عددٍ ونسبة منه، وهما الإمامان فيتحمَّلانه، ثم يرفعانه إن لم يرتفعْ إلى أقرب نسبة منهما وهم الأوتاد، وهكذا حتى يتناول أهلَ الدائرة جميعاً، ثم إلى الأفراد وغيرهم من العارفين إلى آحاد المؤمنين، وما يحسُّ به بعضُ الناس مما لا يعرف له سبباً من ذلك، ثم قال: فلو لم يحمل القطبُ وجماعته البلاء عن العالم لتلاشى العالم في لمحة قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: الآية 251] انتهى ببعض اختصار.

وذكر العارفُ بالله الشعراني ﷺ في كتابه «الميزان» أنَّ بعضَ المحققين قال: إن القطبَ لا يحيطُ بمقامه نفسه فضلاً عن غيره، وذلك لأن صفات القطبية في العبودية تقابل صفات الربوبية، فكما لا تنحصرُ صفات الربوبية لا تنحصِرُ صفات العبودية. وقد سُئل سيدنا ومولانا القطب الفرداني أبو العباس سيدنا أحمد بن سيدنا محمد التجاني ﷺ عن

حقيقة القطبانية، فأجابَ ﷺ بقوله: القطبانية هي الخلافةُ العظمى عن الحقِّ تبارك وتعالى مطلقاً في جميع الوجود جملةً وتفصيلاً، حيثما كان الربُّ إلّهاً كان هو خليفةً في تصريف الحكم وتنفيذِه في كلِّ من عليه ألوهية لله تعالى، ثم قيامه بالبرزخية العظمى بين الحقِّ والخلْقِ[1]، فلا يصِلُ إلى الخلق شيءٌ كائناً ما كان من الحقِّ إلا بحكم القطب وتولّيه نيابته عن الحقِّ في ذلك، وتوصيله كلَّ قسمةٍ إلى محلها، ثم قيامه في الوجود بروحانيته في كل ذرة من ذرّات الوجود جملةً وتفصيلاً، فترى الكون كلّه أشباحاً لا حركة لها، وإنما هو الروحُ القائم فيها جملةً وتفصيلاً، وقيامه فيها في أرواحها وأشباحها، ثم تصرّفه في مراتب الأولياء فيذوق مختلفات أذواقهم؛ فلا تكون مرتبةٌ في الوجود للعارفين والأولياء خارجة عن ذوقه، فهو المتصرِّف في جميعها والمُمِدُّ لأربابها، وله الاختصاصُ بالسر المكتوم الذي لا مطمَعَ لأحدٍ في دركه، والسلام.

قال ﷺ: ومعنى البرزخية العظمى: قيامُه بين الحقِّ والخلق بالنيابة عن الحقيقة المحمدية، واختصاصه أيضاً بالتحقيق بأمر الله في كل مرتبةٍ من مراتب الوجود وإعطائه لكلِّ مرتبةٍ حقية أو خلقية حقها بما تستحقُّه من الأدب، وليس هذا لغيره من العارفين ولا لمفاتيح الكنوز، فهو في جميع هذه الأمور خليفةُ النبي ﷺ دون جميع الأولياء. وبالجملةِ فهو في جميع المراتب بالنسبة لجميع العارفين ومَنْ وراءَهم بمنزلة إنسان العين من العين، به يرحمُ الوجود، وبه تفيضُ الإفادة على جميعِ الوجود، وبه يبقى الوجودُ في بقاء الموجود اهـ بلفظه من «الجامع» وبعضُه بمعناه ومثله في «الجواهر»، وفيهما أيضاً عن سيدنا ﷺ أن من أوصاف القطب أن يرى عالماً كجاهل أبْلَه فطناً آخذاً تاركاً زاهداً راغباً سهلاً عسيراً هيناً صعباً اهـ.

وفيهما أيضاً أن سيدنا ﷺ سألَ سيدَ الوجود ﷺ عن مفاتيح الكنوز والقطب أيُّهما أعلى مرتبة؟ فأجابه ﷺ بأنه، أعني القطب، أعلى منهم في مقامات ومراتب، أورثه الله التجلّي الكامل المحيط بالتجلّيات كلّها، وأوْرَثه الاسمَ الأعظم بجميع إحاطته، وأورثه الله المددَ من النبيّ ﷺ بلا واسطة وأورثه مددَ جميع الأولياء يكون على يده، وتحريكُ الجمادات وتحريك كلِّ حيٍّ، والإمارة على كلِّ شيء والتعظيم على كل شيء اهـ المراد منه. وفي آخره التصريح بأنه خليفةُ النبيِّ ﷺ في جميع ما ذكر.

ومن كلام سيدنا ﷺ فيما يتعلّق بالقطب وغيره من ذوي المراتب ما نصّه:

---

(1) البرزخ، بالأصل: هو الحاجز بي الشيئين. وهنا: الحاجز بين الموت والبعث.

مراتبُ الرجالِ ثلاثة: **الأولى**: مرتبةُ العارفين، وهي شهودُ الحق. **الثانية**: مرتبة الأفراد وهي شهودُ الحقِّ لا في المراتب. **الثالثة**: مرتبةُ القطب، وهي في غيب الغيبِ مكتوبة لا تذكرُ ولا يعرفها إلا صاحبها، وهو القطبُ الجامع، لأن له المرتبتين السابقتين وهي شهوده للحق في المراتب للتصرُّف في الكون وفي غير المراتب أيضاً، وله هذه المرتبة المكتومة لا يشاركه فيها غيره اهـ. وعن سيدنا ﷺ أن مما أكرمَ الله به قطبَ الأقطاب أن يعلِّمه علمَ ما قبلَ وجودِ الكون وما وراءَه وما لا نهاية له، وأن يشهده الذات بعين الذات وأن يعلمه جميعَ الأسماء القائم بها نظام كلِّ ذرة من الوجود، وهي الأسماء العالية وأن يخصِّصه بأسرارِ دائرة الإحاطة وجميع فيوضِه وما احتوى عليه، وبهذه خُصَّ عن رؤوس الأفراد الذين هم مفاتيح الكنوز، ولا يعلمون أنها خاصَّةٌ به إلا أهلُ دائرة الإحاطة فإنهم يعلمون أنه خاص به. وأما مشهده فلا علم لهم به لأنه يدخلُ الحضرة من باب المخدع وهو محجوبٌ عنهم اهـ. ونسبه سيدنا ﷺ شيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ وفي جواب سيدنا ﷺ لمن سأله عن حقيقة الولي التصريح منه ﷺ بأنه لا يحيط بمعرفة أحكام الشريعة وجميع العلوم التي تحتاج إليها الناسُ إلا القطب الجامع، لأنه هو الحاملُ للشريعة في كل عصرٍ، ولو كان أمّياً لم تسبقْ له قراءة اهـ وهذا أيضاً من أوصافِ القطب وخصائصه.

وفي بعض أجوبة سيدنا ﷺ التصريحُ أن قطبَ الأقطاب منذ جلوسه على كرسي القطبانية لا تقعُ بينه وبين النبي ﷺ حجابيةٌ أصلاً، وحيثما جالَ رسول الله ﷺ من حضرة الغيب ومن حضرة الشهادة إلاَّ وعَيْنُ قطبِ الأقطاب متمكِّنة من النظر إليه لا يحتجبُ عنه في كلِّ لحظة من اللّحظات اهـ.

وفي بعض أجوبته أيضاً ﷺ أن من خصائص قطب الأقطاب الأمن من السلب، بخلاف من عداه من الأولياء، إلا من كان عندَه الاسم الأعظم أو ضمنه شيخٌ كامل اهـ. وفي أجوبة سيدنا ﷺ وكلامه غير هذا مما يشير إلى حقيقة القطبانية وصفات القطب وأحواله وما خصَّ به في مرتبة خلافته عن الله تعالى وعن رسول الله ﷺ من نعوت كماله، وفي هذا الذي نقلناه من ذلك كفاية، والله ولي التوفيق والهداية.

وإذا عرفتَ أن مقام القطبانية أجلُّ المقامات، وأن صاحبه في كلِّ زمان هو الجامع لما للأولياء والعارفين في ذلك الزمان من الأحوال والأسرار والكرامات، فيجبُ أن تعرف أن الأقطابَ وإن اشتركوا في إدراك هذا المقام والوصول إليه، فهم متفاوتون فيه بقدر ما اختصَّ به كلُّ واحدٍ منهم في ترقية لما حواه وجمعه من الرتب والدرجات واشتمل عليه،

وأعلى الأقطاب درجةً في هذا المقام الأقعس[1]، وأرفعهم مكانة في هذا المشهد الأقدس، هو من بَلَغ منهم مقامَ الختمية الأجلَّ الأنفس، وهو المقام المسمَّى بختم المقامات عند الخاصة من الرجال، ولم يرتَقِهِ إلاّ أفرادٌ من فحولِ هذا المجال.

قال شيخنا: الختم الأكبر وهو القطب المكتوم الأشهر سيدنا ومولانا أبو العباس التجاني ﷺ عند كلامه على الصفات الجليلة المقدسة جلَّت وعلت بعد كلام في ذلك ما نصّه: ولهذا قال الشيخ الكامل مولانا عبد القادر الجيلاني ﷺ: من ألف البهاء من الله تعالى ولم يطالِعْ إلا صفات الجمال لا يثبتُ لبدو العظمة والكبرياء اهـ. ثم قال شيخنا ﷺ: معناه لا يثبت لذلك إلا أكابر الرجال لا العارفون، فإن أكملَهم وهو القطب الكامل لا يتجلّى له حقيقة الكبرياء إلا بعد بلوغه للرتبة العليا من القطبانية، وذلك المقام يسمُّونه ختم المقامات، ولم يرتقِهِ من الأقطاب إلا القليلُ لبُعْدِ مرامه، فإذا ارتقاه القطبُ ووصله فهنالك يتجلَّى له الحق بالكبرياء الذاتي ولا يزال مرتقياً فيه إلى الأبد، ولو تجلَّى بذلك الكبرياء بمقدار ذرةٍ منه لجميع العارفين والصديقين لصاروا هباءً منثوراً في أسرعَ من طرفة العين، ولا يقدرُ عليه إلا القطب الجامع لكن بعد بلوغه لمقامِ الختم، وقبل بلوغه لا قدرةَ له عليه.

قال مولانا علي كرّم الله وجهه: المعرفةُ كشْفُ سحابِ الجلالِ، وغايتها الدهشُ في كبرياء الله تعالى اهـ. أرادَ بغايتها مقامَ الختم في القطبانية، فهو غاية الغايات اهـ كلام شيخنا ﷺ ونفعنا بعلومه وأسراره، وهذا المقام، أعني مقام الختم في القطبانية، لم يكن إلا بحكم الإرث من النبيّ ﷺ بعده لمن اختصَّه الله بذلك من الأقطاب المحمديين المتخلِّقين بالأخلاقِ الثلاثمائة التي من تخلق بواحدٍ منها دخل الجنَّة، وهم أكابرهم أقطاب أهل الولاية الباطنة الخاصّة، إذ الولاية من حيث هي على قسمين: ظاهرةٌ وباطنة؛ فالظاهرة لأهل الأمر والتصريف الظاهر وهي معروفة، وهذه الولاية تختم على الإمام العدل المسمَّى المنتظر الذي يظهره الله آخر هذه الأمة حسبما هو مشهور من خبره. والباطنة لأهل التصريف الباطن. وهذه الباطنةُ تنقسم إلى قسمين أيضاً: عامة وخاصة، فالعامة من آدم إلى سيدنا عيسى ﵇ وعليه تختم حين ينزل في آخر الزمان. والخاصة هي من نبينا ﷺ إلى الختم الأكبر الذي يختم عليه مقامها وينتهي إليه مرامها، والأقطاب المخصوصون بإدراكِ مقامِ ختم القطبانية هو أهل الولاية الباطنة الخاصة حسبما سبقت الإشارة إليه، ويسمَّى كل

---

(1) المقام الأقعس: العزيز والمنيع.

واحد ممن بلغ مقامَ الختمية بمعنى من المعاني المتقدمة بالختم وبالخاتم كذلك أيضاً.

وهو، أي الختم، بالمعنى الأول الذي هو من بلغ الرتبة العليا من القطبانية واحد، لكن في زمانه خاصَّةً، لأن القطبَ من حيث هو واحد في زمانه، وعلى هذا فلا إشكال في قول من قال إن لكلِّ زمن ختماً، إلا أنه ليس المراد أنه لا يخلو زمانٌ عنه وإلا لزم أن يدرك كلُّ واحد من الأقطاب هذه الدرجة، بل المراد أنه يتعدَّد وجود من يبلغ هذه الدرجة في الأقطاب بمعنى أنه يأتي على رأس كلِّ مدةٍ من يصِلُ ذلك المقام كما وَرَد في المجدد من أنه يكون على رأس كل سنة فيصحُّ أن يقال لكل زمن مجدد لا باعتبار أنه لا يخلو منه زمان، فافهم ذلك. والختم بالمعنى الثاني الذي هو الإمام الذي يبعثه الله في آخر الزمان حكماً عدلاً، واحد في الزمان بلا شك عند القائل به، وعليه أهلُ الكشفِ ﷺ. والختم بالمعنى الثالث وهو الذي تختم عليه الولاية العامة الباطنة، فهو واحدٌ كذلك أيضاً وهو سيدنا عيسى ﷺ.

وأما الختم الأكبر الذي هو ختم الولاية المحمّدية فهو واحدٌ أيضاً في الزمان لا يكون منه إلا واحد من عصر النبي ﷺ إليه، يختم الله به الولاية المحمديّة، أعني الباطنة، وقد تقدَّم لنا في الكلام على البيت الثاني من هذه المنظومة أن معنى ختم هذا المقام عليه أنه لا يظهر بكمال الظهور الذي ظهرَ به فيه أحدٌ قبلَه ولا بعدَه، وهو، أعني الختم الأكبر، على قلب خاتم الأنبياء ﷺ.

ومن علاماته أنه يحقق مواجيد الأولياء كلّهم ويختصُّ عنهم بوجده، كما حقَّق خاتم الأنبياء مواجيد الأنبياء كلّهم واختصَّ عنهم بخصوصيته، فافهم انتهى. نقله الشعراني ﷺ في طبقاته عن الأستاذ الكبير سيدي محمد وفا ﷺ.

وقد ذكر هذا الختم غيرُ واحد من الأئمَّة الكبار ﷺ، وأول من ذكره تصريحاً فيما وقفنا عليه علم الأعلام المشهود له من كمل العارفين، كالحاتمي والشاذلي رضي الله عنهما بالذوق التام الشيخ الإمام المحدث الصوفي أبو عبد الله سيدي محمد بن علي الترمذي الحكيم[1] ﷺ. فقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني ﷺ في غير ما كتاب من كتبه أنهم

---

(1) محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي، باحث صوفي، عالم بالحديث وأصول الدين، من أهل ترمذ، نفي منها بسبب تصنيفه كتاباً خالف فيه ما عليه أهلها، فشهدوا له بالكفر. وقيل: اتهم باتباع طريقة الصوفية في الإشارات ودعوى الكشف. وقيل: فضّل الولاية على النبوة. ورد بعض العلماء هذه التهمة عنه، وقيل غير ذلك. مات نحو سنة (320هـ). انظر لسان الميزان: 5/ 308، ومفتاح السعادة: 2/ 170، وطبقات السبكي: 2/ 20، وكشف الظنون: 1/ 938.

أنكروا عليه بسبب تأليفه في الختم وفي علل الشريعة وشنعوا عليه في هذين الكتابين وقالوا له: فضلت الأولياء على الأنبياء وأغلظوا عليه، فألقى الكتابين في البحر فابتلعتهما سمكةٌ، ثم لفَظَتْهما، وانتفع بهما.

وأما الشيخ محيي الدِّين ﷺ فذكره في عدَّة مواضع من كتاب «الفتوحات المكيَّة» وألف فيه بالخصوص كتابه الذي سماه «عنقاء مغرب في شمس الأولياء وختم المغرب»، وقد طالعتُه فإذا هو كاسمِه غريب، وله فيه الرمز المعمَّى واللسان العجيب، وكذلك الشعراني ﷺ في «اليواقيت والجواهر». وفي الطبقات وغيرهما، إلا أنه كثيراً ما يلتبس الكلام في الختم الأكبر بالكلام في ختم الولاية الظاهرة وخصوصاً في كلام صاحب «الفتوحات» بحيث يشكلُ ذلك إلا على من يفرق بين المقامين ويميز بين الحقيقتين. وقد ادّعى هذا المقام، أعني مقام الختم الأكبر، جماعةٌ من الصادقين في الأحوال قاله الشعراني ﷺ.

وممَّن ادعاه وظنّ أنه له حين رآه الشيخ محيي الدِّين ﷺ، وادَّعاه له أيضاً بعد وفاته جماعةٌ لما رأوا له نثراً ونظماً من الكلام الحائم حول ذلك المقام.

والتحقيق أنه رجع عن ذلك في آخر أمره، وأخبر أنه أعلم أنه ليس له ما ظنَّ وإنما هو لغيره، وكلامه في غير ما موضع من «الفتوحات» صريحٌ في أنه غيرُه، وذكر فيها أنه اجتمع به، يعني اجتماعاً برزخياً، وأطْلَعه على العلامة التي أخفاها الله منه. وذكر أنه رآه مبتلى بالإنكار عليه لما يتحقَّق به من العلم في سرِّه، وهذا لا ينافي ما نقل عنه من أنه طالما جالَ ببصيرته إلخ، لأنه لا يبعدُ أن يكون الله تعالى أراه إياه، ليتحقَّق وجودُه عياناً أو لغير ذلك مما تقتضيه حكمته تعالى في ذلك الاجتماع ويستر عنه اسمه وبلده لأمرٍ آخر اقتضته مشيئتُه وحكمته تبارك وتعالى، وممَّن ادَّعاها أيضاً الأستاذ سيدي علي وفا لوالده الأستاذ سيدي محمد وفا رضي الله عنهما حسبما نَقَله الشعراني ﷺ، لكنه أتى بعده بما هو صريحٌ في أنه لم يقرَّه وجَنَح فيه بحسب الظاهر إلى ما ينحو منحى التأويل.

وادَّعاها أيضاً الإمام الجليل سيدي محمد بن سليمان الجزولي مؤلف دلائل الخيرات، وكذلك الشيخ العارف بالله الصفي القشاشي حسبما حكاه في الرحلة العياشية، وقد تقدَّم لنا مما في طي رمز أول الكلام على أبيات هذه المنظومة أن الخاتم الأكبر المحمدي هو شيخنا وسيدنا وأستاذنا وإمامنا الشيخ الكامل والقطب الشامل مولانا أبو العباس التجاني ﷺ، فقد ثبَتَ عنه ﷺ من طريق الثقات الأثبات من ملازميه وخاصته أنه خبَّر تصريحاً على الوجه الذي لا يحتمل التأويل أن سيد الوجود ﷺ أخبره يقظة بأنه هو

الخاتم المحمدي المعروف عند جميع الأقطاب والصديقين، وبأن مقامه لا مقام فوقه في بساط المعرفة بالله، وهذا الختم هو المتلقي بجميع ما يفيضُ من ذوات الأنبياء عليهم السلام من الأمداد، وهو المفيض لتلك الأمداد على جميع الأولياء، وإن لم يعلموا به، إلى غير ذلك من فضائله العظام ومزاياه التي لا ترام، ولم يطلع صاحب الجامع على هذا لأنه لم يفْشِ التحدُّثَ به من سيدنا رضي الله عنه إلا بعد وفاته. وممَّن تلقَّاه من شيخنا رضي الله عنه الشريف المبجَّل المنيف صاحبه وملازمه مولانا أحمد الودغيري السلجماسي المعروف بالفلالي، وكتبه من إملاء سيدنا رضي الله عنه بخطِّه حسبما وقفنا عليه.

وبالجملة فقد أجمعَ على إثبات هذا المقام لشيخنا رضي الله عنه جميعُ من لازَمَه إلى وفاته رضي الله عنه، ولم يختلفْ منهم اثنان فيه حتى استفاضَ ذلك على ألسنة الخاص والعام من الأصحاب والإخوان في سائر البلدان، فلا يلتفتُ لنفي من نفاه كائناً من كان.

وقد ذكر العلماءُ في فن الأصول من وجوه الترجيح أن المثبِت مقدَّم على النافي، لأن معه زيادة علم. وقد تقدَّم أن معنى «الختمية» في هذا المقام هو أن لا يظهرَ فيه أحدٌ بالكمال الذي ظهر به فيه هذا الختم رضي الله عنه، وليس المراد أنه لا وليّ بعدَه لأن ذلك إنما هو معنى الختمية في مقام النبوَّة والرسالة، فإنه ختم على نبيّنا ﷺ فلا نبيٌّ ولا رسولٌ بعده، ومعنى الختمية فيه هو أن لا يظهر أحدٌ في ذلك المقام بعده أصلاً.

وأما معنى الختمية في مقام الولاية الظاهرة والباطنة بقسمَيْها، فهو ما ذكرناه من أن معناه أن لا يظهر أحدٌ في ذلك المقام قبله ولا بعده بالظهور الذي ظهر به فيه من الكمال، فافهم ذلك.

ومما يدلُّ المحبَّ المنصف على أن سيدنا رضي الله عنه هو صاحب هذا المقام الأعظم بلا ريب الصلاةُ التي هي إحدى الأذكار التي قامت عليها وظيفتُه اللازمة في طريقه، وهي الصلاة المسمَّاة بجوهرة الكمال، لأنها ظاهرةُ الدلالة عند من خصَّه الله تعالى بذوق أسرارها ومعانيها، ولاحَ له شيء مما في طيِّ رموز مبانيها، على أن لسيدنا رضي الله عنه في الحقيقة المحمدية المشْرَبَ الخاصَّ الذي لم يُحْكَ مثلُه عن أحدٍ من كمل أهل الاختصاص، ومن ثم استعدَّ لما استعد له من تلقي الإمدادات الفائضة من ذوات المرسلين، واستحقَّ النيابة الكاملة عن سيد الخلائق أجمعين، صلى الله عليه وعلى آله الطيّبين وصحابته الأكرمين، وقد أشار إلى هذا أخونا وسيدنا العارف بالله تعالى سيدي عبيدة ابن سيدي محمد الصغير في شرحه للصلاة المذكورة الذي أبدى فيه بعضَ أسرارها المكنونة وخفاياها المستورة، جزاه الله خيراً ونفعنا ببركاته.

وقد كنت فاوضْتُ في هذا المقام بعضَ الأصحاب الموفقين، فقال لي ما معناه: إن في رجوع الشيخ ﷺ بإذن من النبي ﷺ إلى صلاة الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق عن غيرها من صيغ الصلوات، وجعلها بخصوصها أحدَ الأذكار القائم منها وِرْده اللازم لطريقته من الإمكان، إشارةً إلى أن صاحب هذه الطريق هو الختم المحمدي على التحقيق، فَوقَع كلامُ هذا الصاحب من قلبي موقعَ القبول، فلما وقفتُ على كلام السيد المتقدم الذكر في شرحه على الجوهرة زاد موقعُه، أعني كلام ذلك الصاحب، من قلبي، وتأيَّدت به إشارته السنية لديّ، ولا سيما وقد كنت أسمع بعض أصحاب سيدنا وخاصته ﷺ كثيراً ما يقول في صلاة الفاتح لما أغلق: هذه الصلاة فيها سرُّ الطريق اهـ فافهم، فتح الله بصائرنا ونوّر بأنوار معرفته سرائرَنا، وأرانا الحق حقًّا وألهمنا في متابعته رشداً وصدقاً آمين. ولمعرفة هذا ومثله مما خُصَّ به سيدنا ﷺ في مقام القطبانية يظهر لك مصداق قول شيخه الشيخ محمود الكردي ﷺ لك أكثر منها، يعني القطبانية.

واعلم أن هذه الختمية بالمعنى السابق لما كان مقامها مختصاً بمن يختصُّ بمقام الكتمية الآتي ما يشير إليه في الأبيات بعد هذه تداخل الكلام في حقيقتيهما بحيث تلتبس الحقيقتان على الناظر في ذلك الكلام، فيظن أنها حقيقةٌ واحدة، وقد عرفت بحمد الله تعالى ما يشير إلى حقيقة الختمية ممَّا تقدَّم، وسنذكر لك مما يشير إلى حقيقة الكتمية في الكلام على البيتين المواليين لهذه ما تعرف به الفرق بين الحقيقتين، والله الموفق بمَنّه فنقول: قال النَّاظم ﷺ تعالى:

(وبعدَ شهرٍ وليالٍ ارتقى	إلى مقامهِ العزيزِ المُنتقى
مقامِهِ المكتومِ عَنْ كُلِّ الوَرى	سِوى النَّبيِّ ما وراءه ورَا)

(الارتقاء) الاستعلاء والصعود في سلَّمٍ ونحوه، و (المنتقى) المختار، و (المكتوم) المخفي المستور، و (وراءه) خلفه.

يقول: وبعد أن مضى لسيدنا ﷺ من بلوغه مقام القطبانية العظمى شهر وليالٍ ارتقى في درجات مقام قطبانيته الأكمل إلى أن حلَّ مقامه العزيز المختار له في الأزل، وهو مقام الكتمية الذي أخفى الله تعالى كُنْهَ حقيقته عن جميع الخلْقِ، ولم يطَّلِعْ عليه إلا سيد الوجود ﷺ وصاحبه المختصّ به بحكم اختيار الملك الحق، وهو المقام الأخصُّ الأرفع الذي ليس فوقه من مقامات العارفين والصديقين مقامٌ إلاَّ ما ثبتَ للصحابة الكرام الذين ليس فوقهم في الفضيلة والسبق إلا الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام.

وعقَدَ النَّاظم في هذين البيتين ما أشار إليه في «الجامع» من أن سيدنا ﷺ حلَّ هذا المقام، أعني مقام الكتمية، في صفر العام قبله لثمان عشرة خلت منه، وعليه فيكون حلوله في مقام القطبية في أول المحرم من هذا العام. والذي أحفظه من مذاكرة بعض الخاصة الفضلاء من أصحاب سيدنا ﷺ أنه ﷺ حلَّ هذا المقام، أعني مقام الكتمية، عام ثمانية عشر من المائة المذكورة وهي الثالثة عشرة، ويعضد هذا الذي نحفظه عن السيد المذكور كون مؤلف «جواهر المعاني» إنَّما فرغ من تأليفه أواسط ذي القعدة من العام المذكور، فيكون قد تأخَّر فراغه منه عن وقت بلوغ سيدنا ﷺ هذا المقام على مقتضى التاريخ المذكور بنحو الثمانية أشهر، ولم يسافر عن الشيخ ﷺ ولم يفارقه إلى عام خمسة عشر، وهو لم يذكره، أعني هذا المقام، في «جواهر المعاني» ولم يعرج عليه فيه بشيء، وهذا مما لا يمكن أن يصدرَ منه ﷺ لشدة اعتنائه التي لم يسبقه فيها غيره بلا شك، فظهر أن ما في النسخ الموجودة من «الجامع» تحريف من النساخ لا غير إذ لم يعثرْ أحدٌ بفاس وما بإزائها على نسخة مؤلفة ولا على نسخة مصحَّحة من الأصل ليعرف ذلك.

وأما ما يشير إلى بيان حقيقة هذا المقام، أعني مقام الكتمية، الذي اختصَّ به سيدنا ﷺ دون جميع أهل الرتب السنية، فاعلم أمدَّني الله وإيَّاك بنور الإيمان والتصديق أن القطب المكتوم على ما يفيده كلامُ أهل التحقيق قطبان:

الأول: هو القطبُ الذي يظهره الله إمَّا عدلاً بالولاية الظاهرة في هذه الأمّة آخر الزَّمان وهو غير الإمام المنتظر، لأن الإمام المنتظر غيرُ قطب، وهذا هو الذي اطلع الشيخ محيي الدِّين على اسمه وبلده ونسبه، ووَقَع له التعريف من الله تعالى بجميع أحواله، ثم وقع له النهي عن إفشاء ذلك، فسمَّاه مكتوباً من عند نفسه بسبب نَهْيه عن إفشاء أمره.

الثاني: هو القطبُ المكتوم الذي تحدَّث الأولياء والأقطاب به، وطالما تمنَّى كلّ واحد منهم مقامَه، ولا يعثر واحدٌ منهم على ما يحقق التعريف به، وغايةُ ما اطَّلعوا عليه أنه يكون في آخر الزمان بالمغرب، وكثيراً ما يذكرون لفظة «المكتوم» مقرونةً بلفظة «الختم» لما قدمناه من تداخل الكلام في الحقيقتين مع قيام وصفهما بموصوفٍ واحد، وانظر إلى ما ترجم به الشيخ محيي الدِّين كتابه الذي ألّفه في ذلك حيث قال فيما ترجمه به «عنقاء مغرب في ختم الأولياء وشمس المغرب»، فلفظُ «ختم الأولياء» ظاهر الدلالة على الختم المذكور، وعطفه عليه قوله: «شمس المغرب» فيه إيماءٌ إلى مقام الكتمية لأن الشمس لا تبصر حقيقتها لشدَّة أشعة أنوارها، فكأنه قال في ختم الأولياء المعلوم الذي هو القطب المكتوم، والذي يؤيد أنه أومأ بشمس المغرب إلى مقام الكتمية هو ما ذَكَره في «الفتوحات

المكيَّة» في الكلام على حديث: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أهْلِ المغرِبِ ظاهرينَ علىٰ الحَقِّ إلىٰ يَوْمِ القِيَامَة» بعد ذكره لباب التوبةِ وإن غلقه في ذلك الوقت المعلوم رحمةٌ بالمؤمن ووبالٌ على الكافر، لأنه لا يرتدُّ من بعد ذلك كما أنه لا ينفع نفساً إيمانُها حينئذٍ، ونصّه: وإنَّما جَعَله الله بالمغرب لأنه محلُّ الأسرار والكتم، وهو سرٌّ لا يلهمُه الله إلاَّ أهلَ الاختصاص، انتهى المراد منه هنا، فصرَّح بأن الغرب محلُّ الكتم، كما أضاف في الترجمة الشمس المعطوفة على الختم إلى المغرب، فاعرف ذلك.

وقد ذكر سيدنا ﷺ في مزايا القطب المكتوم التي اختصَّ بها أن الحقَّ يتجلَّى له في اللحظة الواحدة مائة ألف تجلٍ يعطيه في كل تجل ما يعطيه لأهل الجنَّة مائة ألف مرة أو أكثر، ويؤدِّي وظائف كلِّ تجل وحدَه في تلك اللّحظة، ثم في اللحظة الثانية يتجلى له بما يصيرُ جميع ما تقدَّم من التجليات بالنسبة إليه جزأً من مائة ألف جزء من تجلٍ واحد منها، وهكذا في اللحظة التي بعدها إلى ما لا نهاية له.

ومن مزاياه التي اختصَّ بها في هذا المقام أن له وقفة ومقابلة في الحقيقة المحمدية لم تكن لأحدٍ من الأكابر ﷺ أجمعين.

ومنها أن ما يفيضه كلُّ قطب في زمانه من الأمداد على جميع العوالم الخلقية، إنما هو بواسطته، لكن لم يروِها لأنها محجوبة وهو يستفيض من الحقيقة المحمدية فيما يفيضه على كل قطب مدة حياته، وفيما يفيضُه على العوالم الخلقية في زمانه بلا واسطة، إلى غير ذلك من مزاياه العظام.

وأما وجه تسميته «مكتوماً» فلأن له مرتبةً باطنة لا يعلم حقيقته في تلك المرتبة أحدٌ إلا الله تبارك وتعالى وسيد الوجود ﷺ، وذلك لأن له نسبةً من الحقيقة المحمدية وهي مرتبته ﷺ، التي لم يطَّلع عليها أحدٌ، ولا يعلمها إلا الله تعالى وصاحبها ﷺ. قال سيدنا ﷺ: وهذا الحكم لها في الدنيا والآخرة وكذلك حقيقة هذا القطب المكتوم لها هذا الحكم المذكور في الدنيا والآخرة، وهذا هو معنى الكتمية، وهو الذي أشار إليه الناظم بقوله: «مقامه المكتوم» إلى آخر البيت، فللّه درّه، فقد أشار إلى حقيقتها بما يميزها عن غيرها بلا ريب.

وقال سيدنا ﷺ فيما يشير إلى شفوف مرتبة الكتمية: نسبة الأقطاب معه، يعني القطب المكتوم، كنسبة العامة مع الأقطاب لأن مقامه في غيب الغيب لا علم لهم به لا في الدنيا ولا في الآخرة. وقال سيدنا ﷺ: ليس مرتبةٌ كاملة من كل وجه، وصاحبُها محيطٌ

بجميع المراتب إلا له ﷺ وللقطب المكتوم، فإن مرتبته، يعني بين مراتب الأولياء، جامعةٌ ومحيطة بجميع المراتب اهـ وهذا أيضاً مما يصدق إشارة شيخه الشيخ محمود الكردي رضي الله عنه لما قال له سيدنا رضي الله عنه: مطلبي القطبانية العظمى، فقال له: لك أكثر منها.

ومن ذلك أنه رضي الله عنه طلب من النبي ﷺ أن يجمع الله له بين القطبانية والفردانية، فضَمِن له ﷺ ذلك، ذَكَره في «الجامع» ورأيته بخط الخليفة المعظَّم سيدي علي حرازم في بعض تقاييده، والمراد والله تعالى أعلم أن يجمع له ما اختصَّ به الأقطاب عن الأفراد مع ما اختصَّ به الأفراد عن الأقطاب، فإنهم يفضلونهم من جهة، وهم كذلك أيضاً حسبما هو مذكور في «جواهر المعاني» عن سيدنا رضي الله عنه. ومقام الأفراد بين الصديقية والنبوّة ونظيرهم من الملائكة الأرواح المهيمون في جلال الله قاله الشيخ محيي الدين. ثم قال: وقد جهِلَهم أكثرُ الناس من أهل طريقنا كأبي حامد[1] وأمثاله، لأن ذوق مقامهم عزيز اهـ. إلى غير ذلك مما زاد به سيدنا رضي الله عنه من الخصوصيات والفضائل على غيره من الأقطاب الواصلين والعارفين الكاملين المكملين رضي الله عنهم أجمعين.

ثم أراد الناظم أن يذكر زمن وفاة سيدنا رضي الله عنه بحضرة فاس وأنه لم ينتقل منها بأهله بعد أن استوطنها إلا إذا سافر إلى الصحراء بنفسه فقط، فأشار إلى ذلك فقال:

(وسافرَ الشَّيخُ إلى الصَّحارَى ... بنفسِهِ مِن بَعْدِ ذَا مِرارا
وعندَ شيخِنا العَلِيِّ فَضْلا ... ومَنصِباً حوَى بهاءً كُهَّلا
وحِينَ ماتَ شيخُنا ذُو الشَّانِ ... ماتَ الإمامُ العارِفُ الرَّبانِي)

(الصحارى) هذا بفتح الراء جمع صحراء، وهي البرية تجمع على: صحاري، بكسر الراء مثقل الياء، لأنك تدخلُ ألفَ الجمْعِ بين الحاء والراء وتكسر الراء كما تكسرُ ما بعد ألف الجمع في نحو: مساجد ودراهم، فتنقلب الألفُ الأولى التي بعد الراء ياء للكسرة التي قبلَها، وتنقلبُ ألفُ التأنيث ياءً أيضاً لكسرة ما قبلها، فتجتمعُ ياءان فتدغَمُ إحداهما في الأخرى، ويجوز التخفيفُ مع كسر الراء وفتحها، فيقال: صحاري وصحارى كعذاري وعذارى، وعزالي وعزالى، والكسر هو الأصلُ في الباب كلِّه، والفتحُ مسموعٌ، فلا يقال: وزن «مجارَى» بالفتح «فعالل» بفتح اللاَّم لفَقْدِ هذا البناء في الكلام، وإنَّما هو منقولٌ عن «فعالِل» بالكسر اهـ. ومعنى (بنفسه) بذاته، والمراد هنا: الاحترازُ من السفر بالأهل.

[1] هو أبو حامد الغزالي مؤلف «الإحياء» تقدمت ترجمته.

و (مراراً)مرَّات، و (العمر)تقدَّم أنه مدة الحياة، و (الفضل)الفخار، و (المنصب)الرتبة والمكانة، (وحوى)جَمَع، و (البهاء)الجمال، و (الكهل)من الرِّجال هو من جاوَزَ الثلاثين ووَخَطَه الشيبُ، وقيل: من بلغ الأربعين. وعن ثعلب في قوله تعالى: ﴿وَكَهْلًا﴾ [آل عِمرَان: الآية 46] قال: ينزل عيسى إلى الأرض كهلاً ابن ثلاثين سنة اهـ، وجملة قوله: (حوى بهاء كهلاً)رمز إلى مدة عُمُرِ سيدنا ﷺ، فعدَدُ حروفها الواقع عليها بحسب الجمل هو عدد سنيِّ عمره ﷺ، وذلك ثمانون سنةً، لأنه ولد حسبما تقدَّمت الإشارة إليه في عام خمسين ومائة وألف، وتوفي كما هو مذكور في البيت الذي يلي هذا عام ثلاثين ومائتين وألف، فتكون مدة عمره رضي الله عنهما ذكر من السنين، وباقي ألفاظ الأبيات ظاهر، وجملةُ قوله: (مات الإمام العارف الرباني)رمز لتاريخ وفاته ﷺ وهو ما ذكرناه.

يقول: وبعد أن استوطن سيدنا ﷺ بأهله الحضرة الفاسية، سافر مراراً بنفسه فقط [في] البلاد الصحراوية، ولم ينتقلْ بعد ذلك عنها إلى غيرها من الأمصار لما هيَّأها الله تعالى له وخصَّها به من سَنى الفضل والفخار بمَدْفنه منها بزاويته المباركة الشهيرة البركات والأسرار؛ الكثيرة الخيرات الساطعة الأنوار، وذلك بعد أن أزمع الانتقالَ عنها، وعزم على الارتحال إلى القطر الشامي بجميع ما معه من الأهْلِ والعيال، لما ورد في فضل ذلك القطر من الفضل عن سيد الأنبياء والأرسال، ﷺ وشرف وكرم. فبينما هو ﷺ قد أخذ أُهبة سفره بشدِّ رحاله وأقتابه[1]، ولم يبقَ له إلاّ الخروجُ لموادعة أحبابه وأصحابه، وقد نزلَ بهم من الحيرة والنكد ما يذهل الوالد عن الولد حتى كادت أن تتفتَّتَ أكبادهم وتتصدع أفئدتُهم وتذوب أجسادهم، ما بين مصعِّدٍ لمترادف زفراته، ومسبلٍ لواكفِ عبراتِهِ[2]، ومتعثر في أذياله لما عراه من تبلبل باله[3]، ومنخرس اللسان، ومنذهل العقل، كأنه من ذهوله سكران أو وسنان، ومن متردٍّ في طرق تلك الأزقة غير مكترث بما لحقه في إقباله وإدباره من المشقة، ومن مقعد بفناء داره، لم يستطع النهوضَ من قراره يرتقبون توديعَه الذي هو في الحقيقة توديعُ أرواحِهم، وتشييعه الذي هو تشييع مادة حياة أشباحهم، إذ أشْرَقَ عليهم نورُ غرَّته، وطلع عليهم بهاءُ محياه الكريم وسنى طلعته، فبشَّرهم بما هو الشفاءُ مما

---

(1) الأقتاب: جمع القَتَب، وهو الرحل الصغير على قدر سنام البعير.
(2) وَكَفَ الماءُ وغيره يكِفُ وكْفاً ووَكيفاً ووَكَفَاناً: سال وقطر قليلاً قليلاً، ووكفت العين الدمعَ: أسالته. والعَبَرات: الدموع.
(3) تبلبل: اختلط واضطرب.

دهاهم، والترياق لما عراهم[1]، وأخبرهم بما نفخ به في رميم أحوالهم روحَ الحياة الهنيئة في حالهم ومآلهم، وذلك بأن قال لهم ﷺ وأرضاه: إن أولياء الغرب أبَوْا أن يفقدوا من بين ظهرانيهم نوره وسناه، فطلبوا من حضرة سيد الوجود ورغبوا إليه ﷺ في بقاء وجوده العيني وشخصه المشهود بين الأغوار من قطرهم المبارك والنجود[2]، لأنه ﷺ هو مربِّيه وكفيلُه وإليه يستند من أمره كثيره وقليله، فأجابهم ﷺ لمطلبهم وأسعفهم بمرغبهم، فأذِنَ له ﷺ في المقام وعدم الترحال فلم يمكنه إلا الانقياد والامتثال، فعند ذلك قرَّتْ به في الحضرة الفاسية المباركة الدار، وألقى من يده عصا التَّسيار[3]، وزال عن جميع أصحابه الكرام ما كان قد روَّعهم بين الأنام.

وكانت وفاته ﷺ في العام المذكور والتاريخ المسطور صبيحة يوم الخميس السابع عشر من شوال بعد أن أدَّى فريضة الصبح على حالة الكمال، ثم اضطجع على جنبه الأيمن ﷺ ودعا بماءٍ فشرب منه، ثم عاد إلى اضطجاعه على حالته فطلعت روحه الكريمة من ساعته وصعِدَت إلى مقرِّها الأقدس، ولحقت بسِرْبِهَا من محضرها الأنفس، وحضر جنازته المباركة ما لا يكاد يحصى من علماء فاس وصلحائها وفضلائها وأعيانها وأمرائها، وصلّى عليه إماماً علاَّمتُها الأوحد ومفتيها الماهر الخريت[4] الأمجد، الفقيه النحرير[5]، المشهود له بالتحقيق والتحرير، أبو عبد الله سيدي محمد بن إبراهيم الدكالي نسبة إلى الإمام التونسي الشهير، وازدحم النَّاسُ على حمل نعْشِهِ المبارك الميمون، وكسروه بأثر دَفْنه أعواداً صغاراً ادَّخروها للتبرُّك بما حمل فيه من السر المصون.

وبالجملة، فقد أجمعَ من حَضَر موته على أن ذلك اليوم يومٌ مشهود، تساوى به في الازدحام على تشييع جنازته وحمْلها وحضور الصلاة عليه المعتقد والمنتقد والمقِرُّ والجحُود، فهنيئاً لتلكم الحضرات الشريفة المنوَّرة، بما ضمته من أعضائه الطيبة الزاهرة المطهرة، ثم هنيئاً فهنيئاً لا ينحصر تعدادُه وتكراره لمن ضمنه جِوارُه، وإن نزحت به في

---

(1) عراهم: أصابهم.

(2) الأغوار: ما انخفض من الأرض، والنجود: جمع النَّجْد، وهو ما ارتفع من الأرض.

(3) «ألقى عصا التسيار» كناية عن الإقامة بالمكان.

(4) الخِرِّيت: الدليل الحاذق بالدلالة. ويقال: هو في هذا الأمر خرِّيت، وهو خِرِّيت في هذا الأمر: حاذق ماهر فيه.

(5) النِّحرير: العالم الحاذق في علمه، جمعه: نحارير.

المشاهد دارُه وشملته عنايته وأنواره وإن شَطَّ به مَزارُه[1]، جعلنا الله تعالى بمحْض فضله في جواره الذي لا يُضام في هذه الدار وفي دار المقام، بجاه ما لَهُ عند ربِّه سبحانه من أكيد الذِّمم وعظيم الحرم آمين. وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم آمين.

وهذا الذي عقد الناظم ﷺ تعالى في هذه الأبيات، من تاريخه مدَّة العمر والوفاة واضحٌ مشهور عند الثقات مجمَعٌ عليه عند الأثبات، وما تممنا به سبكها من جميع ما أشرنا إليه هو من مروياتنا عمن تصحُّ الرواية عنه ويعوَّل في النقل عليه.

(كرامة ظاهرة ومَنْقَبة باهرة) وقفتُ على ورقةٍ بخطِّ سيّدنا علي ﷺ مشتملة على بعض مطالبه من الله تعالى، ومن جملة ما طَلَبه فيها التعمير هذا القدرُ من السنين، فسبحان الله العظيم ما أجلَّ كرامات هذا الشيخ الكريم ﷺ وأرضاه، ونفعنا بمحبّته ورضاه، وانظر السرَّ في طلبه التعمير هذه المدة، فإنّي لم أقفْ على شيء في ذلك إلا ما ذكره ابن حجر في الأحاديث الواردة في الخصال المكفِّرة للذنوب مما أخرجه البيهقي في كتاب الزهد عن أنس ﷺ، وفيه: «إِذَا بَلَغَ العَبْدُ المسلِمُ ثَمَانِينَ سَنَةً قبِلَ الله حسناتِهِ وتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِه» والله أعلم بمرادِ الشيخ ﷺ.

ثم أشار النَّاظم ﷺ إلى بعض ما يتعلَّق بعقب الشيخ ﷺ وذريّته الطَّاهرة وذكر شيء من محاسنهم الزَّاهرة وكراماتهم الباهرة، فقال:

(وتَركَ الشَّيخُ مِنَ الأولادِ ... مِنْ بَعدِه لرَحمةِ العِبادِ

نَجلَينِ مَنهلَينِ للوُرّادِ ... كِلاهَما كالكَوكَبِ الوَقّادِ

كِلاهُما بَسَقَ كلَّ باسِقِ ... وفاقَ بالتَّحقيقِ كلَّ فائِقِ

تَراهُما كفَرسَي رِهانِ ... للسَّبقِ في المِضمارِ يَجريانِ

كلاهُما ضمِنَ طه المعرفه ... بربِّه لهَ فيا لهَا صفَه

ولَهما ضمِنَ خَيراً جمّا ... ما خابَ مَنْ أتاهُما وأمّا

وكلُّ مَن أدركَ من ذرّيّتهْ ... يَعطى مَقاماً سامِياً كبَغيتِهْ

عَلى يدِ الرّسولِ سيّدِ العَربْ ... جَذباً بِلا شَرطٍ يَرى ولا سببْ

ما لمِفتاحِ الكُنوزِ خَزوَلَهْ ... في كُورةِ العالَم بالنِّسبةِ لَه

وَمِن ضَمانِ أحمدَ المُختارِ ... لهُمْ غِناهُمَ بِهذي الدّارِ

خادِمُهم تُسبّحُ البِحارُ ... لَهُ وَما فِيهَا كذا الأشجارُ

---

(1) شطّ مَزاره: بَعُد.

ويدخلُ الجنّةَ مِن حيثُ انتقى   لأجلِ حرمة بني ذا المنتقى)

(ترك)عقب وخلَّف، و (نجلين)تثنية نجل. والمراد به هنا: الولد، و (المنهلين)تثنية مَنْهل: وهو موضعُ النَّهَلِ والرِّيّ، و (الوراد)جمع واردٍ، و (الكوكب)النجم، و (بسق)طال و (فاق)وسما وجاوز، و (فرسا الرهان)معروفان: وهما الفرسان اللَّذان يتسابقان لاحتياز الرهان، وهو ما يتراضى عليه المتسابقان. و (المضمار)محلُّ إجراءِ الخيل، و (طه)من أسمائه ﷺ، و (المعرفة)المعرفة بالله تعالى التي ينظر صاحبها إلى الحق ببصرِ الإيمان فيغنيه عن إقامة الدليل والبرهان، و (الجذب)المراد به هنا: الاجتباء والاصطفاء.

قال سيدنا ﷺ: الاجتباء هو جذْبُ الله تعالى للعبد إلى حضرة قُدْسه بحكم الفضل والجود والعناية بلا تقدُّم سببٍ من العبد. و (مفاتيح الكنوز) هم رؤوس الأفراد الخارجون عن حكم القطب، و (الغنى) بالقصر: ضد الفقر، ومعنى (انتقى) اختار، والمراد: من حيث شاء، و (المنتقى) المختار.

يقول: وخلَّف سيدنا ﷺ بعد انتقاله إلى الدار الآخرة والمنازل القدسية الفاخرة ولدَيْن جليلين سيدين كريمين (أحدهما) العارف بالله تعالى سيدي محمد الملقَّب بالكبير، و (الثاني) صنوه سيدي محمد الملقب بالحبيب، ذو الفضل الشهير والجاه الخطير، خَلَفاه من بعده في الهداية والإرشاد والنفع العميم للبلاد، كلاهما بما حازاه وسنى المفاخر يضيء في سماء مجده وسودده كالكوكب الزاهر، قد سما في ارتقائه لمدارج المعالي كلّ متسامٍ للرتب العوالي فكانا في تسابقهما لمقامات العرفان كمثل فرسَيْ رهانٍ، كيف وقد ضمن لهما جدهما سيد الوجود كمالَ المعرفة بالملك المعبود، كما ضمِنَ لهما الخيرَ العظيم والمدد الجسيم، وكل من أدرك الاحتلام من ذرية هذا الإمام يمنحُ من رب الأنام أسمى مرتبةٍ وأسنى مقام، بالاستفاضة من الحضرة المصطفوية من طريق الاجتبائية والاصطفائية من غير علَّة ولا سبب في ذلك، بل بمحْضِ الوهْبِ من الرب المالك، ويفاض على كلِّ واحد منهم من حضرة رب العباد ما تكون فيوضات رؤوس الأفراد بالنسبة إليه كنسبة الخردلة[1] مما يفاض على سائر العوالم من الإمداد، ومما ضمنه لهم جدُّهم سيد الأرسال الغنى التامّ الذي لا يخشى معه الفقر بحال.

---

(1) الخَرْدَلَة: واحدة الخرْدَل، وهو نبات عشبي حرِّيف من الفصيلة الصليبية ينبت في الحقول، وعلى حواشي الطرق، تستعمل بزوره في الطب. ويقال: ما عندي من كذا خردلة: شيء، ويضرب به المثل في الصغر.

ومن كراماتهم ومزاياهم الغزار: أن من كان في خدمتهم يكتبُ له ثوابُ تسبيح البحار، وما فيها من الحيتان والدواب، وكذلك ثوابُ تسبيح الأشجار، ويوم القيامة يدخل الجنة من أي باب شاء ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: الآية 4] وما ذكره النَّاظمُ رحمه الله تعالى في هذه الأبيات من أن سيدنا رضي الله عنه خلَّف نجلَيْه الكريمين رضي الله عنهما، وأنَّهما برزا في ميادين الكمالات تبريزاً ظاهراً، وحازا مما لوالدهما رضي الله عنه من البركات والأسرار حظًّا وافراً، وأن والدهما رضي الله عنه وعنهما أخبر أن النبي ﷺ ضمن لهما المعرفة بالله، وضمن لهما خيراً كثيراً بعد أن أوصاه ﷺ عليهما فكلُّه مما بلغنا من رواية الثقات من فضلاء أصحاب سيدنا رضي الله عنه وحققناه سماعاً منهم كما حقَّقوه كذلك عنه رضي الله عنه.

وأمَّا ما ذكره ـ أعني النَّاظم رحمه الله تعالى ـ من فضائل ذريّته، فلم يبلغنا في ذلك شيء فيما نستحضره الآن، ولا شك أن النَّاظم رحمه الله تعالى ما أتى به حتى كان خبره عنده من المروي عن الشيخ رضي الله عنه الثابت الصحيح، ففيه الكفاية التي لا تحتاج معها إلى تصحيح، وأعهد لمن وقفَ من الإخوان على شيء ثابت عن الشيخ في هذا أن يلحقَه في هذا التقييد بهذا المقام. هذا، وغايةُ ما ذكره النَّاظم لذرية الشيخ رضي الله عنه بأن الله تعالى ألحقَهُم به رضي الله عنه في بعض مراتب الفضل الثابت له، وإن لم يعملوا بعملِهِ كرامةً له من الله تعالى، وهذا مما لا نزاع في جوازه. وقد ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ [الطُور: الآية 21] الآية. أن ذرية المؤمنين، كباراً كانوا أو صغاراً، يلحقون بآبائهم في المراتب من غير أن ينقص من مراتب الآباء شيء، وفي هذا الحديث: «**إنَّ الله يَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ المُؤْمِنِ فِي دَرَجَتِهِ وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ لتقرَّ بِهِمْ عَيْنُه**»، والله المستعان.

ثم أشار النَّاظمُ رحمه الله تعالى إلى ما يخصُّ بني أبيه، وخاصةً قرابته وذريّته، فقال:

(فـي ألـفِ ألـفِ مَـرأةٍ ورَجُـلِ يَشفعُ مِن بَنِي أبيهِ ذا الولي)

ومعنى هذا البيت واضحٌ، ولم يبلغني من كلام الشيخ رضي الله عنه فيه شيء أستحضره الآن، وهو ممَّا لا غرابة فيه وخصوصاً من أمثال سيدنا رضي الله عنه إذ غايته حصولُ الشفاعة منه لمن ذكر بسبب القرابة، ومعلومٌ أن شفاعة الأخيار ثابتة في الشرع، قال اللقاني في جوهرته:

وغيرُه من مُرْتَضَى الأخيارِ يَشفَعُ كما قد جاءَ في الأخبارِ

وفي شرحها كالأنبياء والمرسلين والملائكة والشهداء والأولياء والصالحين. وفي الخبر: «**أَكْثِرُوا مِنَ الإخْوانِ فإنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَفاعَةً يَوْمَ القِيامَةِ**». وفي الخبر أيضاً عنه

ﷺ قال: «لَيَدْخُلَنَّ الجنَّةَ بِشَفاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِن بَنِي تميمٍ، قالوا: سواكَ يا رسولَ الله؟ قال: سِوَايَ». وفي رواية: «أكثر من ربيعة ومُضَر». وقيل في هذا الرجل: إنه عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، وقيل: هو أويس القرني[1] انظر شروح الحديث.

وفي الخبر أيضاً عنه ﷺ: «يُقالُ للرَّجُلِ يَا فُلان قُمْ فاَشْفَعْ فيَقُومُ فيَشْفَعُ للقبيلَةِ ولأهْلِ البَيْتِ والرَّجُلِ والرَّجُلَيْنِ عَلىٰ قَدْرِ عَمَلِهِ»[2]. وفي الحديث أيضاً عن رسول الله ﷺ: «يصفُّ يَوْمَ القِيامَةِ صُفُوفٌ ثُمَّ يَمُرُّ أهْلُ الجَنَّةِ، فَيمرُّ الرَّجُلُ عَلىٰ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا فُلانُ أما تَذْكُرُ يَوْمَ اسْتَسْقَيْتَ فَاسْقَيْتُكَ شُرْبةً؟ فَيَشْفَعُ لَهُ، ويَمُرُّ الرَّجلُ علىٰ الرَّجلِ فيقولُ: يا فُلان أما تَذْكرُ يَوْمَ ناوَلْتُكَ طَهُوراً؟ فَيشْفَعُ لَهُ، ويمُرُّ الرَّجُلُ عَلىٰ الرَّجُلِ فَيقُولُ: يا فُلانُ أما تَذكُرُ يَوْمَ بَعَثْتَنِي لِحاجَةِ كذا وكذا فَذَهَبْتُ لكَ فيَشفَعُ لهُ». وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: الآية 30] الشفاعةُ لمن أوجبتْ له من الناس فيمن صنع إليهم المعروف في الدُّنيا. فهذه الأخبار كلُّها مصرِّحةٌ بثبوت الشفاعة للأخيار فيمن صنع إليهم معروفاً.

وممَّا صرَّح فيه من الأخبار بثبوت الشفاعة من الأخيار بسبب القربة ما في الخبر من: «أنَّ الحاجَّ يَشْفَعُ فِي أربعمائةٍ مِنْ أهْلِ بَيْتِه». «وَأنَّ مَنْ قَرَأَ القُرآنَ فَاَسْتَظْهَرَه وأحَلَّ حلالَهُ وحرَّمَ حرامَهُ يُشَفِّعْه الله في عَشْرةٍ مِن أهْلِ بَيْتِهِ كلُّهم وَجَبَتْ لَهُم النَّارُ» إلى غير ذلك. وإذا كان الحاجُّ يشفعُ في مثل ما ذكر من العدد بسبب القربةِ فلا يستغرَبُ أن يشفَعَ من آتاه الله مع الحجِّ الدَّرجاتِ العُلىٰ في المعرفة به والغاية القصوىٰ في العلم والعمل كرامةً لهم من الله تعالى، ثم إن الشفاعةَ من حيث هي وإن كانت ثابتةً نقلاً فهي أيضاً جائزةٌ عقلاً لأن من الجائز غفران غيرِ الكفر لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: الآية 53] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: الآية 48] الآية، ولو لجميع كافة المسلمين، وهو

---

(1) هو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني، من بني قَرَن بن ردمان بن ناجية بن مراد، أحد النساك العباد المقدمين من سادات التابعين. أصله من اليمن. يسكن القفار والرمال وأدرك حياة النبي ﷺ ولم يره، فوفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة، وشهد صفين مع علي ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها، وذلك سنة (37هـ).

انظر طبقات ابن سعد: 6/ 111، وحلية الأولياء: 2/ 79، وميزان الاعتدال: 129، وابن عساكر: 3/ 157.

(2) انظر حديث «وإن الرجل ليشفع للقبيلة، وإن الرجل ليشفع للعصبة، وإن الرجل ليشفع للثلاثة» رواه أحمد: 3/ 20، 63. والترمذي في (القيامة: 12).

مذهبُ الأشعرية[1] من أن تخلّف الوعيد لا يعد نقصاً بل هو من تمام الكرمِ، خلافاً للماتريدية في قولهم بوجوب تحقيق الوعيد، ولو في واحد من كلٍّ نوع. وقد نصَّ المحققون على أن مذهبهم هذا مرجوحٌ، والرَّاجح ما للأشعرية ﷺ، والله تعالى أعلم وأحكم.

لما كان جميع ما أخبر به النَّاظم رحمه الله تعالى في الأبيات قبل هذه الخصائص والمزايا لأولاد سيدنا رضي الله عنه وذريّته وقرابته وذويه من باب كرامات الأولياء الجائزة عقلاً الثابتة نقلاً عند كل سنيٍّ فاضل نبيهٍ، وكان لسيدنا رضي الله عنه من الكرامات ما لا يكاد يحصر، أشارَ رحمه الله تعالى إلى بعض ذلك والشيء بالشيء يذكر، فقال:

(وَكَمْ لِهوَٰا الشَّيخِ مِنْ كَرامَة	عَاوَتْ عَلَى رِفعَتهِ عَلامَة
فَما عَلَيَّ إن ذَكَرتُ مِنها	ما يُنبِئُ الغافِلَ يَوماً عَنها
وَمَا بِهِ أَبْجِعُ المُرِيدا	وأَرْدَعُ المُنكِرَ والمَرِيدا
فَلا يُطيقُ حَصرَها إنسانُ	يَوماً وعَنهُ يَعجِزُ اللِّسانُ
وهَلْ يَعُدُّ حَصَى البَطحاءِ	أَوْ هَلْ تُكْتُ أَنجُمُ السَّماءِ)

(الكرامة) أمر خارق للعادة غير مستندٍ لأسباب ولا مقرون بالتحدِّي، يجزيه الله تعالى بقدرته على يد بعض أوليائه وخاصَّته ترقيةً لهمَّته، أو إظهاراً لرتبته، أو تأنيساً له من وحشته، أو إعانةً له على وقْتِه، أو زيادةً له في معرفته، أو امتحاناً له في حالته. وشرطُها أن تظهر على يدِ موسومٍ بخيرٍ وصلاح، أي صاحب الاستقامة الدينية. وقد تظهر على يد أبْلَهٍ، فلا يشترطُ فيه ذلك لسقوط التكليفِ عنه، وكونها لا تبلغُ إلى حدِّ إيجاد ابن بدون أبٍ، وأن لا تكون بمحرم مجمع على تحريمه. ومعظمُ الأئمَّة على أنه يجوزُ بلوغها مبلغَ المعجزة في جنسها وعظمها حتى إحياء الموتى. وتفارق المعجزة في أن المعجزة متحدًّى بها ولا كذلك الكرامة، وفي أن دلالة المعجزة على النبوَّة قطعيةٌ وصاحبها يعلم أنه نبي، بخلاف الكرامة، فإن دلالتها على الولاية ظنيةٌ، ولا يعلم صاحبُها أنه ولي، وقد يعلم ذلك على ما عليه جماعة من أئمة الطريق، وقوله: (علامة) المراد بالعلامة هنا الدليل، و(ابجح) أي أصيِّره متبجِّحاً، أي مفتخراً، فهو من بَجَحَ بالشيء من باب نفع وتعب: إذا فَخر وتبجَّح به كذلك، أي فخَرَ، وبجحت الشيء أبجَحُه بالفتح فيهما عظَّمته، و(أردع) أمنع وأزجر، و(الحصى) معروف، و(البطحاء) معروفة، و(تكت) تُحْصَى، قال ربيعة الأسد من قصيدة يرثي بها ابناً له اسمه ذؤاب:

---

(1) الأشعرية: فرقة من المتكلمين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري، يخالفون المعتزلة في آرائهم.

أَلاَ فَجَيْشٌ لا يُكَتُّ عَدِيدُه سُودُ الجُلودِ من الحديدِ غِضَابُ

(لا يكت) لا يحصى. قال أبو علي: قال لي أبو بكر: من كلام العرب: لا تكته، أو تكت النُّجوم، أي لا تعدُّهم اهـ وانظر نوادر القالي. وقول النَّاظم: **(وهل تكت أنجم السماء)** ينظر إلى قول العرب هذا، فتنبَّه لذلك واعرفْ به سعة اطّلاعِ النَّاظم وتمكينه من أساليب الفصاحة.

يقول: وكم لسيدنا ﷺ من كرامة ظاهرة جليلة حسية ومعنوية دالَّة على ما خصّه الله به من المقامات العلية والرتب السنية، وما عليّ أن ذكرتُ منها البعضَ مما ثبتَ لدي وانتهى علمُه إلي ليكونَ تبصرةً للجاهل وتذكرةً للغافل وتقويةً للمعتقدِ وقمعاً للمنتقد، وإلا فهي مما لا يمكنُ أن يُسْتَقْصَى ولا يأتي عليه العدُّ والإحصا، إذ هي مما لا ينحصرُ أنواعه وأصنافه، ولا تدخل تحت حيطة التعبير نعوتُه وأوصافه.

وإنَّما آثر النَّاظم رحمه الله تعالى التعرض لذكر بعض كرامات سيدنا ﷺ المعنوية والحسية، وإن كان الثابتُ عن سيدنا ﷺ أنه كان يخفيها جدًّا، ونهى عن تدوين ما حفظ مما اتفق له منها في أول أمره حسبما صرَّح به في «الجواهر» نظراً إلى أن النهيَ عن ذلك إنَّما كان في ذلك الوقت منه ﷺ لأنه لا زال حينئذٍ في قيد الحياة، وشأن الكمل أمثاله ﷺ أجمعين إخفاؤها وعدم الاغتباط بها، كما هو مشهور مقرَّر في كتب الطريق.

وأما بعد وفاته فلا بأسَ بالتعرُّض لذكر شيءٍ منها بنوعيها المعنوي والحسِّي لأن الذي عليه الجمهور من أهل السنة ﷺ وجوب اعتقاد جواز وقوعها، وقد نصُّوا على أن إنكارها بدعةٌ ومنكِرُها مبتدع يخشى عليه سوءُ الخاتمة، والعياذ بالله تعالى، لمكابرته ومصادمته لنصوص الكتاب والسنة وخرْقِه لإجماع الأمة. قال ابن حجر رحمه الله: الذي عليه أهلُ السنة والجماعة من الفقهاء والأصوليين والمحدثين خلافاً للمعتزلة ومن قلَّدهم في بهتانهم وضلالهم أن ظهورَ الكرامة على يد الأولياء، وهم القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، لجمعهم بين العلم والعمل، وسلامتهم من الهفوات والزلل جائز عقلاً ونقلاً، إذ لو لم تكن الكرامة جائزة الوقوع لم تقعْ، وقد ثبتَ وقوعُها بنصِّ الكتاب والسُّنة والآثار الخارجة عن حدِّ الحصر والتعداد، وآحادها وإن لم تتواترْ فالمجموع يفيد القطْعَ بلا إشكال، كيف ووقوعُ التواتر قرناً فقرناً، وجيلاً فجيلاً، وكتب العلماء شرقاً وغرباً وعجماً وعرباً ناطقة بذلك، ولا ينكرُ ذلك إلا غبيٌّ معاند اهـ.

وقول العلاَّمة ابن حجر: وقد ثبَتَ وقوعُها بنصِّ الكتاب والسُّنة، يشير به إلى نحو ما في الكتاب الكريم من قصة أهل الكهف ولبثهم فيه: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾

[الكهف: الآية 25] كما ذكر الله تبارك وتعالى رقوداً لم تبلَ ثيابُهم ولم تتغيَّر أجسادُهم، يقلِّبهم الحق تبارك وتعالى ذات اليمين وذات الشمال إلى آخر القصة بتمامها، وإلى مثل قصة الخضر مع موسى عليه السلام وما قصَّ الله تعالى في ذلك، وإلى نحو ما قصَّه الله تبارك وتعالى في شأن مريم عليها السَّلام من قوله سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عِمرَان: الآية 37] يعني من الفواكه والرطب في غير إبَّانه حسبما ذكروه في الآية الكريمة وإلى نحو ما أمرها الله تبارك وتعالى به من هزِّ الجذع في قوله: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريَم: الآية 25] الآية، قالوا: وكان جذعاً يابساً تتحكَّكُ به المواشي، فلما هزَّته استحالَ غصناً يانعاً، وأثمرَ لحينه وإلى نحو ما قصَّه الحق تبارك وتعالى في شأن آصف بن برخيا[1] مع سليمان عليه السلام في إحضاره عرْشَ بلقيس قبل ارتدادِ الطرْفِ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفَال: الآية 29] الآية.

والفرقان ذكروا أنه نورٌ يضعُه الله في صدور المؤمنين المتَّقين يفرِّقون به بين الحقّ والباطل والحسن والقبيح، ولا يزالُ يتزايدُ بتزايُدِ التَّقوى حتَّى يبلغَ إلى الكشف والاطلاع على أسرار الغيوب. ومن ذلك ما ذكروه في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يُونس: الآية 64] من أن البشرى هي الكرامات والفتوح التي يكرِّم بها الحق عزَّ وجل أهل الإخلاص والتمكين من عباده المؤمنين.

وأما السُّنةُ فمن ذلك ما في حديث جريج وكلام الطفل ببراءته في مهده، والحديث في الصحيحين وفيهما أيضاً حديث الثلاثة الذين انطبقَ عليهم الغارُ بصخرةٍ فتوسَّلَ كلٌّ منهم بأرجَى ما عمِلَ ففرَّج الله عنهم[2]. ومن ذلك حديث: «**كانَ فِي الأمم قبلَكُم محدثون، فإن يَكُنْ في أمَّتي أحدٌ منهم فعمر بن الخطَّاب**»[3] ومن ذلك أيضاً قضية سارية إذ قال له سيدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وهو يخطب بالمدينة على المنبر: يا سارية الجبلَ، من ترَكَ الحزْمَ

---

(1) آصف بن برخيا: وزير سليمان عليه السلام.

(2) انظر الحديث عند البخاري في (الإجارة: 12).

(3) الحديث في تحفة الأحوذي: 10/ 182، الحديث (3776). وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح. وأخبرني بعض أصحاب ابن عيينة، عن سفيان بن عيينة قال (محدثون) يعني: مفهمون».
وفي النهاية لابن الأثير: «جاء في الحديث تفسيره: أنهم الملهمون والملهم هو الذي يلقى في نفسه الشيء فيخبر به حدساً وفراسة، وهو نوع يختص به الله عز وجل من يشاء من عباده الذين اصطفى، مثل عمر، كأنهم حدثوا بشيء فقالوه». وقد أخرجه الحاكم في كتابه معرفة الصحابة: 3/ 86، وقال «صحيح الإسناد على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

ذلّ[1] وسمِعَ ساريةُ ذلك وهو بنهاوند[2].

ومن ذلك إخبار سيدنا أبي بكر الصدّيق ﷺ بما في بطْنِ زوجه وقوله: أراها جاريةً فكان الأمر كما قال، ومن ذلك استحياء الملائكة من عثمان ﷺ، وكذلك ما روي عن سيدنا عبد الله بن سلام[3] ﷺ أنه دخَلَ على سيدنا عثمان ﷺ في اليوم الذي قُتِل فيه فقال له سيدنا عثمان: أترى هذه الطاقة، فإن رسول الله ﷺ تراءى لي منها، فقال: أحَصَرُوك يا عثمان؟ قلت: نعم، بأبي أنت وأمّي، فقال ﷺ: إن شئتَ نُصِرْتَ عليهم وإن شئتَ أفطرتَ عندنا. فقلت: بلْ أفطِرُ عندَكم، فقُتِل قبل غروبِ الشَّمسِ من ذلك اليوم. ومن ذلك الفتح لمولانا علي ﷺ في العلوم وغير ذلك.

وإذا كان الأمرُ على ما وقفت عليه من أن الجمهورَ من أهل السنَّة ﷺ على وجوب اعتقاد جواز وقوعِ الكرامة خلافاً للمعتزلة لما رأيته فيتأكّد التعرُّض لذكرها في نحو هذا المقام حتى لا تبقى للناظر في ذلك شبهة تخدش في وجه اعتقاده، فالتنفير عن ذكرها مطلقاً قصور ممن يراه بلا شك، نعم جَعَلها غاية الأمر بحيث لا يتوجَّه بالتعظيم والاعتقاد الجميل إلا لمن ظهرتْ عليه ليس بشيءٍ لأنه من وصف الجَهَلة الأغمار من الناس، وذلك لأن العارف لا يطلبها أدباً مع الله تعالى، وهي عند الأكابر من نعوت النفوس إلا لنصرة الدين أو جلب مصلحةٍ لا غير، ولأنه يجب على العارفين سترُها كما يجب على النبي إظهار المعجزة، وقد ترَكَها غيرُ واحد من العارفين فلم يظهرْ عليه شيء منها، إما لأن الله تعالى لم يمكنه منها جملةً واحدة مع كونه من الخواصِّ عنده لأمر تقتضيه حكمته سبحانه ومشيئته، وإما لتركه ذلك لله تعالى بعد أن أمكَنَه منه، كما وقَعَ للشيخ أبي السعود بن الشبل الملقَّب عند المحققين بعاقل زمانه، وهو تلميذ الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما، فإنه أعطي التصريف منذ كذا وكذا سنةً، فترَكَه وقال: تركنا الحقَّ يتصرَّف لنا، يريد

---

(1) انظر قول عمر في أسد الغابة: 3/ 659، وفيه: «يا سارية بن حصن الجبل الجبل، من استرعى الذئب ظلم».

(2) نهاوند: مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام وكانت وقعة نهاوند سنة (21هـ) أيام عمر بن الخطاب. انظر معجم البلدان: 5/ 313.

(3) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف، صحابي قيل: إنه من نسل يوسف بن يعقوب أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وكان اسمه (الحصين) فسماه رسول الله ﷺ عبد الله. شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب، وأقام بالمدينة إلى أن مات سنة (43هـ).
انظر الإصابة: ت (4725)، والاستيعاب: 2/ 382، وخلاصة تذهيب الكمال: 200، وأسد الغابة.

بذلك أنه امتثل أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمّل: الآية 9] فقال له قائلٌ: ما ثم؟ فقال له: الصلوات الخمس وانتظار الموت مثل ساعي الطير، فمٌ مشغولٌ وقدَمٌ يسعى اهـ.

والحقّ والصوابُ هو أمرٌ بين أمرين فيعظم من ظهرت عليه، لأنها تدلُّ على استقامته ولا يستدلّ بمثل ما اتفق للشيخ أبي السعود من التخلي عنها على نقص درجة من ظهرت عليه، لأن العارفين في ذلك بحكم ما يتجلّى به عليهم من حضرات العرفان، ولا تجعل غاية الأمر أيضاً بحيث لا يتوجَّه بالتعظيم لمن لم تظهر عليه، فإن عدم اعتبارها فيمن ظهرت عليه ابتداع أو يجر إلى الابتداع، وجعْلُها غاية الأمر جهلٌ وغرور بلا نزاع.

ولما كانت الكرامة من حيث هي على قسمين: حسية ومعنوية حسبما تقدَّم ذكره وكانت المعنوية أشرف وأعلى قدم النَّاظم ﷺ تعالى ذكر المعنوية مع التنصيص على أنها أرفعُ وأعلى، فقال:

(مِنْ ذَلِكَ اتِّباعُه للسُّنَّة ... وهْيَ لَدَى الرِّجالِ خيرُ مِنَّة
وكانَ في ذلكَ لا يجارَى ... ولا يضاهَى لا ولا يُبارَى
وكانَ مِن صِغره مَذكورا ... عنه وما زالَ به مَشهورا)

(الاتباع للسنة) الاقتفاء لآثارها والانقياد لأمرها، وقيل: إن الاتباع غيرُ الانقياد والطَّاعة، ووجْه الفرق بينهما أن المطيعَ مسلوب الاختيار مع المطاع. وفي الصحاح: فلان طوعُ يدِك أي منقادٌ لك، والمتَّبِعُ غيرُ مسلوبِ الاختيار، وعلى الأول يكون في تعبير النَّاظم به الإيماء إلى أن سيدنا ﷺ من كُمل العبيد الذين يصير النفل في حقِّهم واجباً، فيكون اتباعُهم واجباً عليهم في مرتبتهم الخاصَّة بهم. والإنسان في أدائه الواجباتِ عبدُ اضطرار، وفي أدائه النفلَ عبدُ اختيار؛ وعبادة الاضطرار أشرفُ، لما يتطرَّق في الثانية من وصمة رؤية النفس المشار إلى ذمِّها في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ [الحجرات: الآية 17] الآية، فافهم والله تعالى أعلم.

و(السنة) المرادُ بها هنا طريقته ﷺ، وهي شريعتُه التي دلَّت عليها الدَّلالة الصَّحيحة شرعاً، كتاباً وسنةً وإجماعاً وقياساً، وليس المرادُ بالسنّة هنا: ما يقابل الكتاب، والمرادُ بـ(الرجال) هنا: الكملُ من أهل الله تعالى إذ هم الرجالُ حقيقةً عند العارفين، ومن لم يكن متّصفاً بوصْفِهم فهو امرأة عندهم وإن كان رجلاً، و(المنة) الموهبة من الله تعالى لعبده

تفضلاً وجوداً، والمراد هنا الكرامة، و (المجاراة) و (المضاهاة) و (المباراة) متقاربة: والمراد المساواة، فتنتفي المجاوزة بالأولى، وباقي ألفاظ الأبيات ظاهر.

يقول: من جملة ذلك الذي أردت إيرادَه والتعرُّضَ لذكره في هذا المقام مما لسيدنا ﷺ من الكرامات العظام والمناقب الجسام التي يفتخر بها المعتقد، وينزجرُ المنتقد شدَّةُ اتباعه ﷺ للشرع الطاهر، والتقيد بأوامره ونواهيه في الباطن والظاهر، ومتابعته ﷺ بقدْرِ المستطاع في جميع أقواله وأفعاله حتى في العادات والمباحات من حركاته وسكناته وسائر أحواله. وهذه عند الرجال الواصلين والكمل الأكابر أجلُّ كرامةٍ وموهبة للعبد من مولاه الملك القادر، وقد كان سيدنا ﷺ منها بالمكانة التي لا يجاريه فيها أحدٌ ولا يباريه، والمنزلة التي لا يقاربه فيها غيره ولا يدانيه، نشأ على ذلك وربي فيه منذ كان، فلم يزلْ معروفاً به بين الخاصّ والعام في سائر الأقطار والبلدان. وانظرْ من كتاب «جواهر المعاني» فصل سيرته السنية تظفر بما تقرُّ به عينُك في هذا الباب من كمال متابعته لخير البرية ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم، والكرامة بهذا المعنى هي الاستقامة، لا يعرفها العامة ولا يعرفها إلا الخواصّ.

وحاصلها هو أن تحفظ على العبد آداب الشريعة، وأن يوفَّق لفعل مكارم الأخلاق واجتناب سفسافها والمحافظة على أداء الواجبات مطلقاً في أوقاتها، والمسارعة إلى الخيرات، وإزالة الغلِّ للناس من صدْره والحسد، وطهارة القلب من كلِّ صفة مذمومة، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس، ومراعاة حقوق الله تعالى في حق نفسه وفي الأشياء، ومراعاة أنفاسها في دخولها وخروجها، فيتلقَّاها بالأدب ويخرجُها وعليه خلعة الحضور اهـ.

واعلمْ أن الكرامة بهذا المعنى لم ينبِّه سيدنا ﷺ عن التعرُّض لذكرها، ولم يشرْ إلى عدم إفشائها ونشرها. وذلك، والله تعالى أعلم، لأن العبد مطالبٌ بها من مولاه تبارك وتعالى، بخلاف الأخرى، فإنه مأمور بالبعد منها والتنزُّه عنها لما فيها من حظِّ نفسه واتباع هواها فيما تدعوه إليه من الترفع والتميز عن أبناء جنسه كما قيل: كُنْ طالب الاستقامة ولا تكنْ صاحب الكرامةِ، فإن نفسكَ تتحرَّك في طلب الكرامة، ومولاك يطالبك بالاستقامة، ولا تكون بحقِّ مولاك أولى بكَ عن أن تكون بحظّ نفسِك وهواك. وأيضاً إن الكرامة بالاستقامة الحسية، وإن كانت نتيجة استقامةٍ قد يداخلها المَكْرُ والاستدراج والعياذ بالله تعالى، وقد لا يبعدُ أن يجعلها الله تعالى حظَّ من ظهرت عليه على عمله وجزاءً على فعله. بخلاف هذه المعنوية لا يدخلها شيء من ذلك، لأن العلم يصحبها والحدود الشرعية لا تنصب حبالةً للمَكْرِ الإلَهي، فإنَّها عينُ الطريق الواضحة إلى نيل السعادة، فأسنى ما أكرم

الله به أولياءه العلم خاصة، وأما غيره من خوارق العادات فلا يصحُّ كونه كرامةً إلا بتعريف من الله تعالى اهـ، انظر بسطَ الكلام على هذه المسألة في «الفتوحات المكيَّة»، وانظر أيضاً قوله ثمة: «ولا أعني بهذا العلم إلا العلم بالله والدار الآخرة وما تستحقه الدار الدنيا وما خلقت له ولأي شيء وضعت، وذلك حتى يكون الإنسان من أمره على بصيرةٍ من حيث كان فلا يجهلُ من نفسه ولا من حركاته شيئاً» انتهى. وليس هذا العلم الموصوف إلا علم العارفين بالله الذين جَمَع الله لهم بين علم الدراسة وعلم الوراثة لا غير، والله أعلم.

ثم إن أصلَ الكرامة المعنوية كما قاله التاج ابن عطاء الله في «لطائف المنن» رحمه الله تعالى هو: الإيمان بالله تعالى والمعرفة بربوبيته، لأن كلّ خيرٍ من خيرات الدنيا والآخرة فرعٌ عن الإيمان بالله من أحوال ومقامات وأوراد وواردات، وكلُّ نورٍ وعلم وفتح ونفوذ إلى غيب وسماع مخاطبة وجريان كرامة وما تضمنته الجنة من حُورٍ وقصور وأنهار وثمار أو كان به أهلُها فيها من رضا عن الله عز وجل ورؤية لله، فكلُّ ذلك إنَّما هو نتائج الإيمان ووجود آثاره وأمداد أنواره، جعلنا الله وإياكم من المؤمنين بربوبيته الإيمان الذي رضِيَهُ لعباده، وبسطنا وإياكم للتسليم له في مراده انتهى.

ولا شك أنَّ من جملة ما أنتجه الإيمان بالله تعالى وتفرَّع عنه ما أشار إليه النَّاظمُ رحمه الله تعالى في الأبيات الآتية هنا، وهي قوله:

(ومِنهُ رُؤيةُ النَّبيِّ الهادي	وهيَ لديهِمْ غايةُ المُرادِ
وعَنهُ لا يَغيبُ لمْحَ بَصرِ	يَقظةً فيا لَهُ مِنْ مَنظَرِ
فِي يَوْمِ الاثنينِ أَوِ الجُمُعةِ	رائيهِ يَدخُلُ غداً في الجنَّةِ
بِلاَ حِسابٍ لا وَلاَ عِقابِ	بَلْ هُوَ آمِنٌ مِنَ العذابِ)

(الرؤية) بالهاء: هي البَصَرية[1]، وهي المرادة هنا، و(الهادي) من أسمائه ﷺ، والضمير في (لديهم) للرجال بالمعنى السابق، و(لمح البصر) طرفة العين، يبالغ بها في استغراق جميع أجزاء الزمان، و(المنظر) الوجه، وباقي الألفاظ واضح المعنى.

يقول: ومن ذلك الذي قصدتُ ذكرَه هنا مما لسيدنا رضي الله عنه من الكرامات المأثورة والمناقب المشهورة، رؤيته واجتماعه بسيد الأنام عليه الصَّلاة والسلام في حال اليقظة والمشافهة لا في حال المنام، وهي لدى الرجال الكاملين أجلُّ مقصدٍ وأسنى مرام. ومن

---

(1) إنما تلك التي بالألف «رؤيا» فهي قلبية، والفرق واضح.

ذلك أيضاً بلا شك ولا مَيْنٍ، دوامُ شهوده له ﷺ بحيث لا تغيبُ عنه صورته الشريفة طرفة عين. ومن ذلك أيضاً كرامته الباهرة الشائعة المتواترة، وهي ما بشَّره به سيد الوجود ﷺ وضمِنَه له من فضل الملك الوهاب، من أن من رآه يومَ الاثنين أو يوم الجمعة يدخل الجنَّة بلا حسابٍ ولا عقاب.

فهذه ثلاثُ كرامات أشار إليها النَّاظم رحمه الله في هذه الأربعة أبيات:

فأما الأولى فالغرضُ منها ما اختصَّ به سيّدنا رضي الله عنه من الاجتماع بسيد الوجود ﷺ يقظةً ومشافهة، وسؤاله عن كلٍّ ما يريد السؤال عنه، ومشاورته في جميع الأمور، والتربية على يديه، والتلقي منه، والرجوع إليه في كل شيءٍ دقَّ أو جلَّ، حسبما تقدَّمت الإشارة إلى بعض ذلك.

وأما الثانية: فهي دوام مشاهدته لذاته ﷺ الحقيقية، بحيث لا يغيبُ عنه طرفة عين، كما ثبتَ مثل ذلك عن القطب الكبير المرسي وشيخه القطب الشاذلي رضي الله عنهما، وهي التي تقدم عن سيدنا رضي الله عنه أنها من خصائص قطب الأقطاب في كل زمان، وهي غير التي قبلها، وإن كانت تجتمع معها في رؤية الذات الحقيقة حقيقة، فإن التي قبلَها المقصود من ذكرها هنا السؤال عما يعرضُ، والتلقِّي للعلوم والأسرار والتربية وغير ذلك على الحالة المذكورة، إذ من الجائز أن يحصلَ دوامُ المشاهدة العيانية، ولا يحصل ما ذكَرَهُ من الاستقامة الموصوفة فافهم.

وأما الثالثة: فهي ما أخبر به سيد الوجود ﷺ سيدنا رضي الله عنه وضمنه له ممَّا تقدم فيمن رآه في اليومين المذكورين، والكلُّ مصرَّح في كلام العلماء المحققين بأنه من الكرامات الجائزة، فلا ينكره أحدٌ من أهل السنة أصلاً، وما ذكره بعضهم في حق الحافظ ابن حجر العسقلاني والحافظ الذهبي وغيرهما من أعلام المحدثين، فقد أنكر المحققون من المتأخرين كالشيخ أبي سالم العياشي رضي الله عنه نسبة ذلك إلى أمثالهم، وذكر أن الذي ثبت عن ابن حجر هو طعنُه على بعض العارفين كالأستاذ أبي الحسن بن وفا ووالده، ومثل ذلك وقع للحافظ الذهبي مع بعض معاصريه، وليس الطعنُ بلسانِ العلم والإنكار لفعل لو اطلع على الوجه فيه عند فاعله لسلَّمَ له بإنكار الكرامات كما توهَّمه من نسب ذلك لأمثال هؤلاء الأئمة فليتنبَّه لذلك. وأما رؤيته ﷺ يقظةً بعين الرأس لذاته الحقيقية فقد نصَّ على جوازها جماعةٌ من الأئمَّة المعتبرين، وحكى وقوعَها الكثير من العارفين الكاملين.

قال الشيخ جلال الدِّين السيوطي رضي الله عنه في مؤلفه الذي ترجمه بالإعلام بحكم عيسى عليه السلام: إذا نزلَ يجتمع بالنبيِّ ﷺ فلا مانع من أن يأخذ عنه ما احتاجَ إليه من شريعته ما

نصّه: الثَّالثُ أنَّ جماعةً من أئمَّة الشريعة نصُّوا على أن من كرامات الولي أنه يرى النبيَّ ﷺ ويجتمع به في اليقظة ويأخذ عنه ما قسم له من معارف ومواهب، وممَّن نصَّ على ذلك من الشافعية ومن أئمَّة المالكية القرطبي وابن أبي جمرة وابن الحاج في المدخل اهـ المراد منه بلفظه.

وحكى أيضاً ـ أعني الشيخ جلال الدِّين السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه الذي ترجمه بتنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك ـ القولَ بإمكانِ رؤيته ﷺ يقظةً كذلك عن الشيخ أبي بكر بن العربي المالكي رحمه الله تعالى في كتابه «قانون التأويل». وذكر في «الجيش الكبير» أن اللقاني رحمه الله تعالى حكى اتفاق الحفاظ على جواز رؤيته ﷺ في اليقظة والمنام، وأنهم لم يختلفوا في ذلك، وإنَّما اختلفوا هل يرى الرائي ذاته الشريفة حقيقة أو مثالاً يحكيها، فذهب إلى الأول جماعات، وذهب إلى الثاني القرافي[1] والغزالي، وذكر هذا الخلاف السيوطي في «تنوير الحلك» وقال بعده ما نصّه: وفصل القاضي أبو بكر بن العربي فقال: رؤيتُه ﷺ بصفته المعلومة إدراكٌ على الحقيقة، ورؤيته على غير صفته المعلومة إدراكٌ للمثال، وهذا الذي قاله في غاية الحسن، قال، يعني السيوطي رحمه الله تعالى: ولا يمتنع رؤيةُ ذاته الشريفة بجَسَده وروحه، وذلك لأنه ﷺ وسائرُ الأنبياء أحياءٌ ردَّتْ إليهم أرواحُهم بعدما قُبِضوا، وأُذِن لهم في الخروج من قبورهم والتصرف في الملكوت العلوي والسفلي. وقد ألَّف البيهقي جزءاً في حياة الأنبياء، وقد ألفنا فيها جزءاً لطيفاً اهـ المراد منه بلفظه. ثم قال بعد كلام هنا ما نصّه: فحصل من مجموع هذه النقول والأحاديث، أن النبيَّ ﷺ حي بجسده وروحه، وأنه يتصرَّف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شيء، وأنه مغيَّب عن الأبصار كما غُيّبت الملائكة مع كونهم أحياءً بأجسادهم، فإذا أراد الله رفعَ الحجاب عمَّن أراد كرامته رآه على هيئته التي هو عليها لا مانع من ذلك ولا داعي إلى التخصيص برؤية المثال اهـ منه بلفظه أيضاً.

وهذا التحصيلُ صريحٌ في أن الذي اعتمده السيوطي رحمه الله تعالى من الخلاف إمكان

---

(1) القرافي: أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي، من علماء المالكية، نسبته إلى قبيلة صنهاجة من برابرة المغرب، وإلى القرافة (المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي) بالقاهرة. وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة. وله مصنفات جليلة في الفقه والأصول منها «أنوار البروق في أنواء الفروق». مات سنة (684هـ). انظر الديباج المذهب: 62، وشجرة النور: 188، والخزانة التيمورية: 3/ 239.

رؤيته ﷺ يقظةً ومشافهةً بذاته الشريفة الحقيقية، وهو أيضاً كافٍ في ردِّ جميع ما يخدشُ في وجه صحَّته كما ترى. وذكر في «الجيش الكبير» أن شيخ مشايخ المالكية أبا الحسن سيدي عليًا الأجهوري[1] رَحِمَهُ اللهُ تعالى نقل هذا التحصيل بلفظه في نوازله فهو قائل به. وقال الإمام الساحلي في «بغية السالك» بعدما ذكر طبقات الناس في انطباع صورته الشريفة ﷺ في نفوسهم: ووراءَ هذا ما هو أعلى درجةً منه، وهو أن يراه بعين رأسه عياناً في عالم الحس ولا تنكر هذا، فقد يكرِّم الله من يشاء من عباده بإقامة صورته الكريمة له حتى يشاهدها، وهذا من جائز الكرامات التي يتحف الله بها أولياءه اهـ نقله في «الجيش».

ونقل أثره كلام صاحب «روضة النسرين» في طبقات من انطبعت صورته الكريمة ﷺ في نفوسهم؛ ونصُّ ما نقله منه:

ومكثر الصلاة فيه يشرقُ ... في قلبه نورٌ لها يحقَّقُ
والنَّاسُ في ذاك لهمْ مراتبُ ... بقَدْرِ ما تصفُو لهم مَشَارِبُ
لَها بذِهنِ بعضِهم تصوُّرُ ... بعدَ تأمُّلٍ وفِكرٍ يكثرُ
يراهُ في النومِ بلا كمالِ ... وذُو تصوُّرٍ لدىٰ اعتزالِ
أحيانَ ذِكْرهِ يفوقُ مَنْ سَلَفْ ... وكامِلُ الرُّؤيا بها قد اتَّصَفْ
ومَنْ إذا يسدُّ عيناً أبْصَرا ... نوماً وضدَّه سما مَنْ غَبَرا
فمَنْ بِعَيْنَيْ رأسِه يَرَاه ... في عالمِ الحسِّ لما عَراهُ

وقال، يعني صاحب «روضة النسرين» في شرحه لهذا البيت: والذي يظهر لي أن بعض الأولياء يرى في اليقظة روحَه متشكِّلة بصورته الشريفة، وأهلُ المقام الأعلى يرون حقيقة ذاته الشريفة كأنه معه في حياته ﷺ اهـ. وقال، يعني صاحب الروضة المذكورة في محل آخر من شرحه: هذا، ومن فوائد الصلاة على النبيّ ﷺ أنَّها تقربُ العبد منه ﷺ حتى يلتقي معه يقظةً، وبذلك يأمنُ من السلب، وقبل التقاء الولي معه يقظةً يكون على خوفٍ من السلب، نعوذ بالله منه اهـ.

فتحصَّل من هذا الذي ذكرناه عن هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم أن رؤيته ﷺ بعين الرأس في عالم الحسِّ وما يتبعُها من الأخذ عنه وسؤاله عما يعرض ومشاورته في الأمور ونحو ذلك

(1) هو علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي، أبو الإرشاد، نور الدين الأجهوري، فقيه مالكي، من العلماء بالحديث. مولده ووفاته بمصر، من كتبه «شرح الدرر السنية في نظم السيرة النبوية» وغيره مات سنة (1066هـ).
انظر خلاصة الأثر: 3/ 157، وخطط مبارك: 8/ 33.

كلّ ذلك ممكن عقلاً، ثابت نقلاً، لا مانع منه لمن أكرَمَه الله به من الأولياء وهو من جملة كراماتهم المتفق على جواز وقوعها عند أهل السنة رضوان الله عليهم لثبوت حياته ﷺ كغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولثبوت الإذن لهم في الخروج من قبورهم، والتصرُّف في العوالم العلوية والسفلية بالدلائل القطعية القائمة تصريحاً أو ضمناً من النصوص الشرعية. قال الجلال السيوطي، أول كتابه «أنباء الأذكياء لحياة الأنبياء»: حياة النبي ﷺ في قبره هو وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصلاة معلومة عندنا علماً قطعياً، لما قام عندنا من الأدلَّة على ذلك وتواترت به الأخبار.

وذكر من الأخبار الدالَّة على ذلك ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: «**أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ بقَبْرِ مُوسى عليه السلام، فإذا هو حيٌّ في قبرِه يصلِّي قائماً**» ومن ذلك حديث: «**الأنْبِياءُ أحْياءٌ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّون**». وعن ثابت البناني أنه قال لحميد الطويل[1]: هل بلَغَك أن أحداً يصلي في قبره غيرُ الأنبياء؟ قال: نعم، وفي رواية: فقال: اللهمَّ ارزقني هذه الكرامة، فروي أنه نَقَر على قبرِه فوجده قائماً يصلِّي، وذكر القبر في هذه الأخبار دليلٌ لحياةِ الجسد، إذ لو كان المراد الروح لم يحتجْ لتخصيصه بالقبرِ، قاله في «تنوير الحلك». وذكر في أنباء الأذكياء أيضاً عن البيهقي: أن من شواهد هذا الباب لقيه ﷺ لجماعةٍ من الأنبياء في ليلة الإسراء، وأنه كلَّمهم وكلَّموه وأنه رأى سيدنا موسى قائماً يصلِّي، وكذلك سيدنا عيسى، وكذلك سيدنا إبراهيم على جميعهم الصلاة والسلام، وذكر في الأنباء أيضاً عن دلائل النبوَّة أن سعيد بن المسيب[2] قال: لقد رأيتني ليالي الحرة وما في مسجد رسول الله ﷺ غيري، وما يأتي وقتُ صلاةٍ إلا سمعتُ الأذانَ من القبر الشريف، وفي رواية عنه: لم أزلْ أسمَعُ الأذانَ والإقامة في قبر رسول الله ﷺ أيامَ الحرة، وفي رواية: فكنتُ إذا حانت الصلاةُ أسمعُ أذاناً يخرجُ من قِبَلِ القبرِ الشريف، وفي رواية الدارمي: ولم يبرح سعيد بن المسيب المسجدَ وكان لا يعرفُ وقتَ الصَّلاة إلا بهَمْهَمَةٍ يسمعُها من قبره ﷺ.

---

(1) هو حميد بن أبي حميد الطويل، أبو عبيدة الخزاعي البصري، تابعي من أهل الحديث. مات وهو قائم يصلي. كان أبوه مولى لطلحة الطلحات مات سنة (142هـ).
انظر العبر: 1/ 194، وشذرات الذهب: 1/ 211، وخلاصة تذهيب الكمال: 80.

(2) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد، سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاء من أحد، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سمي (راوية عمر) مات بالمدينة سنة (94هـ).
انظر طبقات ابن سعد: 5/ 88، والوفيات، 1/ 206، وصفة الصفوة: 2/ 44، وحلية الأولياء: 2/ 161.

ونقل في «الأنباء» أيضاً عن القرطبي ﷺ تعالى أن موت الأنبياء إنَّما هو راجعٌ إلى أن يغيبوا عنا بحيثُ لا ندرِكُهم وإن كانوا موجودين أحياءً، وذلك كالحال في الملائكة، فإنهم موجودون أحياءً لا يراهُم أحدٌ من نوعنا إلا من خصَّه الله بكرامته من أوليائه اهـ. وذكر هنا كلام الشيخ عفيف الدين اليافعي[1]، ونصه على نقله: الأولياءُ ترِدُ عليهم أحوالٌ يشاهدون فيها ملكوتَ السَّمٰوات والأرض وينظرون الأنبياء أحياءً غيرَ أمواتٍ، كما نظر النبيّ ﷺ إلى موسى عليه الصَّلاة والسلام في قبره، وقد تقرَّر أن ما جاز للأنبياء معجزة جازَ للأولياء كرامةً بشَرْطِ عدم التحدِّي، ولا ينكر ذلك إلا جاهل اهـ. قال السيوطي بعد حكايته لكلام الشيخ عفيف الدين هذا رحمهما الله تعالى: ونصوصُ العلماء في حياة الأنبياء كثيرة فلنكتفِ بهذا القدر اهـ.

وفي هذا الذي ذكرناه نحن أيضاً من ذلك كفايةٌ فيما يتعلَّق بكلام النَّاظم هنا، والله ولي التوفيق، وما تعسَّف به بعضٌ هنا من استحالة رؤيته ﷺ يقظةً لما يلزم على ذلك من خروجه من قبره، ومشيه في الأسواق، وخلوّ قبره من جسده المقدَّس ردَّه العلاَّمة ابن حجر المكي بقوله: وهذه الإلزاماتُ كلّها ليس شيءٌ منها بلازمٍ، ودعوى استلزامه لذلك عينُ الجهل والعناد، ثم بيَّن ذلك بما نَقَله عنه في «الجيش» فراجعه فيه إن شئت وهو مستفادٌ من النصوص السابقة لمن تأمَّلها وما ألزمه الحافظ العسقلاني أيضاً على القول بإمكان رؤية ذاته الشريفة في عالم الحس، من أن الرائي يكون صحابياً ردَّه العلامة الهيتمي أيضاً، وكذا السيوطي في «تنوير الحلك» بأن شرط الصحبةِ أن يراهُ وهو في عالم الملك، وهذه رؤية، وهو في عالم الملكوت، وهذه الرؤية لا تفيد صحبةً. قال السيوطي ﷺ تعالى: ويؤيِّد ذلك أن الأحاديثَ وردتْ بأن جميع أمته عُرِضوا عليه فرآهم ورأوه ولم يفدهم ذلك صحبة، لأن الرؤية في عالم الملكوت اهـ بمعناه وغالب لفظه. قلت: وعالم الملك هو عالم الحس والشهادة، ومن شأنه دخولُ المحدودات والمرسومات والمعرفات تحت حيطة الحدود والرسوم والتعريفات، لتقييد الحس لكلّ محدود ومرسوم بحدِّه ورسمه.

وعالمُ الملكوتِ هو عالم اللطافة والغيب، ومن شأنه خرقُ العوائد. وحقيقة خرقِ العادة الخروجُ عن محيطات ما هو معلومٌ ومعتاد من الحدود والرسوم والتعريفات وسائر

---

(1) هو عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، عفيف الدين، مؤرخ باحث متصوف، من شافعية اليمن نسبته إلى يافع من حمير، ومولده ومنشأه في عدن. حج سنة (712هـ) وعاد إلى اليمن، ثم رجع إلى مكة سنة (718هـ) فأقام، وتوفي بها سنة (768هـ). من كتبه «مرآة الجنان» وغيره. انظر الدرر الكامنة: 2/ 247، وشذرات الذهب: 6/ 210، وطبقات الشافعية: 6/ 103.

الضوابط المنحصرة في عالم الحس. ومعلومٌ أن هذه الرؤية لمن أكْرَمَه الله بها من باب خرقِ العادة، ولذلك دخلت في حيز باب الكرامة كما لا يخفى، فلا يوردُ عليها الإلزام الذي أورَدَه الحافظ رحمه الله تعالى إلا من لم يمعنِ النظر حتى يفرق بين الكلام في بساط باب خرق العادة والكلام في بساط الحسن والشهادة، والله تعالى أعلم.

ولا يذهبُ بك الوهم إلى أن تنفي الخصوصية الكبرى والمزية العظمى عمن أكرمه الله تعالى بهذه الكرامة التي هي الرؤية له ﷺ يقظةً ومشافهة، حيث انتفت عنه درجة الصحبة، فإن درجة الصحبة درجةٌ سامية لا مطْمَعَ في دركها لأحدٍ مما عدا صحابته ﷺ لمكان صحبتهم لجسده الطاهر ﷺ في مدةِ وجوده الحقيقي الخارجي، ولقوله ﷺ: «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُم مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً»[1] الحديث، وهؤلاء الكمل المكرَّمون برؤية ذاته ﷺ لهم مزيةٌ عظيمة على غيرهم ممَّن لم يكرم بذلك، من ذلك ما صرَّح به الشيخ محيي الدِّين رضي الله عنه في الباب الثالث عشر وثلاثمائة من «الفتوحات المكيَّة» من أنهم يحشَرون معه ﷺ يوم القيامة كما يحشر الصَّحابةُ الكرام رضي الله عنهم. قال: وأما من يراهُ في النَّوم فليس هو من أصحابِ هذا المقام، وإن رآه ألْفَ مرَّةٍ حتَّى يراه وهو متيقظٌ كشفاً ويخاطبه ويأخذ عنه ويصحِّح له من الأحاديث ما وَقَع فيه الطعنُ من جهة طريقها اهـ.

وهذه مزية عظيمة لهؤلاء الكمل على من عَداهم، إلا أنهم لا يرتقون بها إلى درجة الصَّحابة رضي الله عنهم، فهي مثل المزية الحاصلة للذين يروون الأحاديث المتَّصلة برسول الله ﷺ في كلِّ عصر، فإنَّهم يحشَرون مع الرسل عليهم الصَّلاة والسَّلام لأنهم وَرَثَةُ الأنبياء في التبليغ، والفقيه إذا لم يكنْ له نصيب في رواية الحديث فليس له هذه المزية، انظر «الفتوحات» في الباب السابق، فقد بسط الكلام فيه في تحقيق هذه المسألة رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وأما من نقلت عنه هذه الكرامة التي هي رؤية ذاته الشريفة ﷺ في عالم الحس فهم جماعةٌ من الأكابر رضي الله عنهم: منهم الشيخ الكامل مولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، فقد نقل في «تنوير الحلك» عن الشيخ سراج الدِّين بن الملقن[2] أنه ذكر عنه في كتاب «طبقات

---

(1) رواه مسلم في (الإيمان: 1).

(2) هو عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، سراج الدين أبو حفص النحوي، المعروف بابن الملقن، من أكابر العلماء بالحديث والفقه وتاريخ الرجال. أصله من وادي آش (بالأندلس)، ومولده ووفاته في القاهرة، له نحو ثلاثمائة مصنف. مات سنة (804هـ).
انظر الضوء اللامع: 6/ 100، وخطط مبارك: 4/ 105.

الأولياء» أنه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ قبلَ الظهر فقال لي: يا بني ألا تتكلَّم؟ فقلت: يا أبتاه أنا رجُلٌ أعجميٌّ فكيفَ أتكلَّم على فصحاء بغداد؟ فقال: افتَحْ فاكَ ففتحْتُه فتفلَ فيه سبعاً، وقال: تكلَّم على النَّاس، و﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: الآية 125] فصلَّيت الظهر وجلستُ وحضرني خلقٌ كثير، فأُرْتِجَ عليّ[1] فرأيتُ عليًّا يعني ابن أبي طالب رضي الله عنه قائماً بإزائي في المجلس فقال لي: يا بني لمَ لا تتكلَّم؟ فقلت: يا أبتاه قد أرتج عليّ. فقال: افتح فاك، ففتحته فتفل فيه ستًّا فقلت: لمَ لمْ تكملها سبعاً؟ فقال: تأدُّباً مع رسول الله ﷺ، ثم توارى عنِّي، فقلت: غوامض الفكر يغوصُ في بحرِ القلب على درِّ المعارف فيستخرجُها إلى ساحل الصدر، فينادي عليه ترجمانُ اللسان، فيشتري بنفائس أثمان حسن الطاعة ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النُّور: الآية 36] قال: وقال، يعني السراج بن الملقن، في ترجمة الشيخ خليفة: كان كثيرَ الرؤية له ﷺ يقظةً ومناماً، فكان يقال: إن أكثر أفعاله متلقَّاة منه ﷺ ورآه في ليلة سبع عشرة مرَّةً قال له في إحداها: يا خليفة لا تضجَرْ منِّي، فإن كثيراً من الأولياء مات بحسرة رؤيتي. ونقل عن الشيخ عبد الغفار بن نوح المقدسي أنه ذكر في كتاب «الوحيد» بعض المشايخ وسمّاه وقال فيه: وكان يخبر أنه يرى رسول الله ﷺ في كل ساعة حتى لا تكاد تمرُّ ساعة إلا وهو يخبر.

وممَّن ثبتت له هذه الكرامة أيضاً الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه وتلميذه وخليفته الشيخ أبو العباس المرسي، وذكروا أنه كان إذا سلم على النبيّ ﷺ ردَّ عليه ويجيبُه إذا تحدَّث. وممَّن ثبتت له هذه الكرامة الأستاذ سيدي علي بن وفا رضي الله عنه، وكان يحدِّث عن نفسه أنه رآه ﷺ وهو ابن خمس سنين يقظة لا مناماً، وعليه قميص أبيضُ من قطن، ثم رأى القميصَ عليه، وأنه قال له: اقرأ، فقرأ عليه سورة (والضحى) وسورة (ألم نشرح) ثم غاب عنه ﷺ، وأنه لما بلغ إحدى وعشرين سنة أحرمَ للصلاة فرآه ﷺ قبالة وجْهِه فعانقه فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: الآية 11] قال رضي الله عنه: فأُوتيت لسانه من ذلك الوقت.

وذكر السيوطي رحمه الله تعالى عن بعض الأولياء أنه حَضَر مجلس فقيهٍ فروى ذلك الفقيه حديثاً فقال له الولي: هذا الحديث باطلٌ، قال: ومن أين لك؟ قال: هذا النبي ﷺ واقفٌ على رأسِكَ يقولُ: إنِّي لم أقلْ هذا الحديث، وكشفَ للفقيه فرآه ﷺ فقالَ له: ما قلت ذلك فسلم الفقيه للولي اهـ. ونقل في «الجيش الكبير» عن الشيخ العارف بالله تعالى سيدي عبد

---

(1) أُرتِجَ عليه: عجز عن الكلام، ولم يعرف ما يقول.

الوهاب الشعراني ﷺ أنه قال في كتابه «لطائف المنن والأخلاق»: أدركتُ بحمد الله جماعةً ممَّن رأى رسول الله ﷺ في اليقظة، وعدَّ منهم سيدي عليًّا الخوّاص والحافظ السيوطي وغيرهما. قال، يعني الشعراني ﷺ: وكان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ تعالى يقول: نحن خمسة في الدنيا لا شيخ لنا إلا رسول الله ﷺ: الجعيدي يعني نفسه، والشيخ أبو مدين، والشيخ عبد الرحيم القناوي، والشيخ أبو مسعود بن أبي العشائر، والشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ. وقال الشعراني يحدِّث عن نفسه: لا أعلم أحداً في مصر الآن أقربَ سنداً إلى رسول الله ﷺ منِّي، فإن بيني وبينه رجلين سيدي عليًّا الخوّاص وسيدي إبراهيم المتبولي فقط. ونقل صاحب «الجيش» عنه أيضاً أنه قال في كتابه «الميزان» بعد أن جزم بأن المجتهدين جميعهم كمالك والشافعي رحمهم الله يقولون برؤية ذاته الشريفة في اليقظة، ويسألونه عما يحتاجون السؤال عنه ما نصّه: وقد اشتهر عن كثير من الأولياء الذين هم دون الأئمَّة المجتهدين في المقام أنهم كانوا يجتمعون برسول الله ﷺ ويصدِّقهم أهلُ عصرهم على ذلك كالشيخ إبراهيم الدسوقي وسيدي الشيخ جلال الدِّين السيوطي والزواوي والمرسي وأبي مدين وأبي السعود والشاذلي وعبد الرحيم وجماعات ذكرناهم في طبقات الأولياء.

قال: ورأيت بخط الشيخ جلال الدِّين السيوطي عند بعض أصحابه وهو الشيخ عبد القادر الشاذلي مراسلة لشخص سألَه شفاعةً عند السلطان قايتباي، ونصُّها: اعلمْ يا أخي أنِّي اجتمعتُ برسول الله ﷺ إلى وقتي هذا خمساً وسبعين مرَّةً يقظةً ومشافهة، ولولا خوفي من احتجابه ﷺ عنِّي بسبب دخولي للولاة لطلعت القلعة وشفعتُ فيك عند السلطان، وإنِّي رجلٌ من خدام حديثه ﷺ وأحتاج إليه في تصحيح الأحاديث التي ضعَّفها المحدثون من طريقهم، ولا شكَّ أن نفعَ ذلك أرجح من نفعك أنت يا أخي اهـ.

قال، يعني الشعراني ﷺ: ويؤيِّد الشيخ جلال الدِّين في ذلك ما اشتهر عن سيدي محمد بن زين المادح لرسول الله ﷺ أنه كان يراه يقظةً ومشافهة، ولما حجَّ كلَّمه من القبر ولم يزلْ هذا مقامه حتى طلب منه شخص أن يشفعَ له عند حاكم البلدِ، فلما دخَلَ عليه أجْلَسَه على بساطِه فانقطعت عنه الرؤية، فلم يزلْ يتطلَّب من رسول الله ﷺ حتى تراءى له من بعيدٍ، فقال: تطلب رؤيتي مع جلوسك على بساطِ الظلمة! لا سبيلَ لك إلى ذلك، فلم يبلغنا أنه رآه بعد ذلك حتى مات اهـ.

ونقل في «الجيش» أيضاً عن الشيخ أبي الحسن الأجهوري ﷺ تعالى أنه ذكر في نوازله أنه رأى جماعةً ممن وقعتْ لهم رؤيته، وسمع ذلك منهم، قال: منهم شيخنا العارف

بالله تعالى شيخ المالكية في زمانه الشيخ محمد النووي، قال: وقد ذكر ذلك لجميع الناس ومنهم أيضاً شيخنا العارف بالله تعالى الشيخ الحمالي المشهور بحشيش، وكان يقع له ذلك كثيراً، والقرائن الدالَّة على صدْقِهما في ذلك بينة مفيدة للقطع، ومنهم شيخنا نور الدين القلوصي وشيخه العارف بالله تعالى الشيخ أحمد الأحم، وقد اجتمعت به مراراً عديدة ودعا لي بالدعوات الصالحة اهـ.

وذكر السيوطي في «تنوير الحلك» وغيره أن الشيخ أبا العباس القسطلاني دخَلَ مرة على النبي ﷺ فقال له: أخذ الله بيدك يا أحمد. وذكر عن الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر أنه قال: كنتُ أزورُ شيخي أبا العباس وغيره من صلحاء مصر، فلما فتح الله علي لم يكن لي شيخٌ إلا النبي ﷺ، وأنه كان يصافِحُه عقب كلِّ صلاة وتقدَّم قول الشيخ مولانا عبد القادر: لم أتزوَّج إلخ.

وفي هذه النَّبذة التي اقتصرنا عليها هنا من ذكر من اتّفقت له هذه الكرامة العظيمة كفاية لمن شرح الله صدرَه للتصديق والتَّسليم لهذه العصابة الكريمة.

وأما الكرامةُ الثانية المشارُ إليها في هذه الأبيات الأربعة وهي دوام شهود صورته ﷺ بحيث لا يغيب عنه لمحةً، فقد تقدَّم أنها من خصائص قطب الأقطاب، فلا مرِيَّة أنها كانت من كراماتِ سيّدنا رضي الله عنه.

وأما الكرامة الثالثة وهي دخول الجنَّة لمن رآه رضي الله عنه في اليومين الاثنين والجمعة فهي من كراماته رضي الله عنه التي طارت بها الركبان، وتواترت بها الأخبار في سائر الأقطار والبلدان، بإخبارٍ من النبي ﷺ ولفظه الشريف، فيما أخبر به سيدنا رضي الله عنه: بعزَّة ربي يوم الاثنين والجمعة لا أفارِقُك فيهما من الفجر إلى الغروب، ومعي سبعة أملاك، وكلُّ من يراكَ في اليومين يكتبون يعني الأملاك السبعة اسمه في رقعة من ذهبٍ ويكتبونه من أهل الجنَّة، وأنا شاهدٌ على ذلك، ولتكثِرْ من الصلاة عليّ في هذين اليومين، فكل صلاةٍ تصلّيها عليّ نسمعك ونردُّ عليك، وكذلك جميع أعمالك تعرض عليّ والسلام انتهى.

وقول النَّاظم رحمه الله تعالى هنا «بلا حساب ولا عقاب» أخذه بالأولوية من إخباره رضي الله عنه بأن النبي ﷺ ضمِنَ له أن من رآه يدخل الجنَّة بلا حساب ولا عقاب، يريد سواء في اليومين أو غيرهما، وبهذا تعرف أنَّ ضمان النبي ﷺ له رضي الله عنه دخول الجنَّة لمن رآه وقعَ له مطلقاً ومقيداً باليومين المذكورين، ولا شك أن المقيد باليومين له مزيدُ مزيةٍ على المطلَق لتأكيد الوعد فيه بالقسم، لأنه وإن كان وعدُه ﷺ صدقاً بلا ريب مطلقاً، ففي المؤكَّد

بالقسم إظهار مزيد الاعتناء منه ﷺ بمن حصلت له الرؤية في اليومين، وذلك يفيد التقييد بعدم الحساب والعقاب في حق من رآه في اليومين بالأولوية كما لا يخفى، على أن صاحب «الجامع» صرح بعدم الحساب والعقاب، وللمقيد باليومين مزيد مزية بكتابة الأملاك لاسم الرائي في رقعة من ذهب، ولم يذكر ذلك في المطلق، وتلك عناية ظاهرة أيضاً.

وبالجملة فرؤيته ﷺ في كل يوم سببٌ لدخول الجنَّة بلا حساب ولا عقاب كرامة من الله تعالى له، ورؤيته في أحد اليومين المذكورين سببٌ لما ذكر من دخول الجنَّة بلا حساب ولا عقاب وزيادة ما ذكر من كتابة الملائكة اسمه إلخ كرامة من الله تعالى أيضاً ﷺ، فافهم ذلك. ورأيت في كلام بعض من كان مشاراً إليه بالفتح من الأصحاب ما يشير إلى أن المختصّ برائيه في اليومين هو السعادة التي لا شقاوة بعدها يعني أنه لا يراه في اليومين إلا من سبق في علم الله تعالى أن يكون سعيداً، فيدخل الكفار في هذا الخطاب وينسحب عليهم الحكم في هذا المقام بفضل الملك الوهاب، فيقال: لا يراه في هذين اليومين إلا من يسبق في علم الله تعالى أنه يختم له بالسعادة كائناً من كان، فإذا رآه الكافر في أحد اليومين ختم له بالإيمان، وعليه فتختصُّ الرؤية المطلقة في كل يوم بمن كان مسلماً، سواء كان من الأصحاب أم لا، حسبما هو مصرَّح به في «الجواهر».

وهذه المقيدة باليومين بما يشمل كلّ من رآه ولو كافراً، ويؤيد هذا ما أخبرنا به غير واحد من خاصة أصحاب سيدنا ﷺ، وهو أن يهودياً كان يخيط للشيخ ﷺ ثياباً، فجلس بإزائه بعض الأصحاب وتحدَّثوا بهذه الكرامة بينهم فسمعهم اليهودي من غير أن يلقوا إليه بالاً، فاحتالَ بأن أكمل ما كان يخيطه في أحد اليومين الاثنين أو الجمعة ثم طلبَ ممن كان ينوبُ عن الشيخ ﷺ في قضاء المآرب أن يرفعَ ما خاطه للشيخ بيدِه، وذكر أنه أرادَ أن يطلبَ منه الدعاء، فشاورَ النائب سيدنا ﷺ على ذلك وذكر له ما طلبه فأذِنَ له الشيخ ﷺ، فدخَلَ وجلَسَ بين يديه وأمعن النَّظر في وجهه، ثم قال له: يا سيدي، ها أنا رأيتُ وجهَك وهذا يوم كذا، فدعا له الشيخ وانصرفَ فآل أمرُه إلى أن ماتَ مسلماً بعد وفاةِ سيدنا ﷺ تصديقاً لضمانه ﷺ لسيدنا ﷺ المؤكد بالقسم، ومثل هذا لا ينكِرُه إلا جاهلٌ بسعة فضل الله تعالى أو منكر لكرامات الأولياء، فلا عبرة بمن أنكرَ مثله على أكابرِ العارفين كإنكار بعض المترسمين من أهل سجلماسة[1] على الشيخ الكبير القدوة الشهير

---

(1) سِجِلْماسة: مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، وهي في منقطع جبل درن، انظر معجم البلدان: 3/ 192.

سيدي محمد بن ناصر الدرعي ﷺ فيما كان يذكره للفقراء من كلام الثعالبي ﷺ، فإنه، أعني الإمام، كان يحكي بسنده إلى الإمام الثعالبي ﷺ أنه قال: من رأى مَنْ رآني إلى سبعة ضمنتُ له الجنَّة بشرطِ أن يقول كل لمن رأى أشهدُ أني رأيتُكَ، فيشهد له فكان الشيخ ابن ناصر يذكر ذلك على طريق الترجية ولئلاّ يفوت المسلمين ذلك الخير أن حقَّقه الله تعالى، فقالوا: هذا يوقع النَّاس في الأمن، ووقعوا فيه، وكتبوا في ذلك كراسةً، فقيَّضَ الله لها من نقض باطلها عروةً عروة. ذكره العلاَّمة المحقق أبو علي اليوسي ﷺ تعالى، وذكر أن الإمام ابن ناصر كان بينه وبين الإمام الثعالبي في هذه السلسلة أربعة وسائط، فكان في الطبقة الخامسة من طبقات أهل هذه الكرامة، ثم قال الشيخ أبو علي اليوسي ﷺ: وقد رأيت والحمد لله ابن ناصر وأشهدتُه على ذلك، حققه الله لنا وللإخوان. قال: واعلم أن مثل هذا يذكر على طريق الرجاء كما أشرنا إليه، وهو أمرٌ جائز لا يمنعه عقلٌ ولا شرع، وذلك أن فضل الله تعالى عظيم لا يُحَدُّ بقياس، وأولياء الله تعالى أبواب يخرجُ منها هذا الفضل ولهم مكانة عند ربِّهم الكريم المتفضِّل، فأيُّ شيءٍ يستبعد في أن يمنح بعضُهم الشفاعة في قرنه أو أكثر وأن من مسَّه لم تمسَّه النار، أو أن من رآه دخلَ الجنَّة، أو من رأى من رآه إلى سبعة أو أكثر؟ هذا كلُّه قريب. وقد أخبر النبيّ ﷺ عن أويس القرني ﷺ أنه يشفعُ في مثلِ أو عدد ربيعة ومضر اهـ المراد هنا من كلام الشيخ أبي علي اليوسي بلفظه في محاضراته عقب ما تقدَّم عنه بمعناه، وفيه الغنية لمن ألْهَمَه الله رُشْدَه وهداه.

وممَّا يتعلَّق بهذه الكرامة ما أخبرني به بعض العلماء الأفاضل من أصحاب سيدنا ﷺ أن بعض مشاهير علماء العصر، وكان من الشرفاء العلويين الكرام، قصَدَ إلى سيدنا ﷺ في أحد اليومين المذكورين زائراً، فدخل عليه، فلما جلس بين يديه أمعنَ فيه النظر وقال: يا سيدنا ما اسمُ هذا اليوم؟ فتهلَّل وجهُ سيدنا ﷺ وعلاه الوقارُ من شدّة تعظيمه لآلِ البيتِ الأطهار، وأجابه بديهةً بأن قال له الكلام في غير آلِ بيته ﷺ. فانظرْ ما يجلبه الإنصاف والتصديق والمحبة لأهل الله تعالى، فإن هذا الشريف لما أتى مع ما هو فيه من نخوة العلم والنسب منصفاً محبًا ملتمساً للبركة حظي شهادة القطب له بصحة اتِّصال نسبه برسول الله ﷺ، وقد نصُّوا على أن من شهد له عارفٌ كبير بصحَّةِ هذا النَّسب فهو مقطوعٌ له به، وفي صحَّة الاتصال بنسبه الشريف ﷺ ما لا يقدرُ قدرُه من الفضلِ والفخار والجاه الشامخ المنيف.

(تبشير) رأيتُ فيما وقفتُ عليه من كلام صاحب «الرماح» ﷺ أن للمتعلقين بالشيخ

رضي الله عنه من الفضائل الثابتة له بإخبارٍ منه رضي الله عنه، أو ممن يعتمد في مثل ذلك من أصحابه وورثةِ أسراره دون ما هو مكتومٌ من ذلك أربعاً وثلاثين فضيلة أربع عشرة منها تشملُ جميعَ من تعلَّق به بوَجْه من التعلّقات كالنظر إليه والمحبة له ولأهل طريقه وقضاء حوائجه ونحو ذلك، يعني من غير أخذِ وردٍ، وعشرون تختصُّ بمن أخذ ورد[1] وتمسك بطريقته ثم سرَدَها، وذكر من هذه العشرين المختصَّة بأهل الوِرْد أن من آحاد أهل هذه الطريقة من إذا رآه الشخصُ يوم الاثنين أو يوم الجمعة دخلَ الجنة بلا حساب ولا عقاب وراثةً من الشيخ رضي الله عنه اهـ. فينبغي للمصدق الراغب في الاستكثار من الخير أن ينظر في وجْهِ كلٍّ من لقيه في اليومين من أهل هذه الطريق بهذه النيّة قصداً، لأن يعثر على أحدٍ من أصحاب هذه الوراثة، و«نيَّةُ المُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ» والله الموفق.

ثم قال النَّاظم رحمه الله:

(وَكُلُّ ما يملي فَعَنْ خَيرِ الورَى ... مُترجَمٌ بلفظِه بِلا مِرا)

(الإملاء) القراءة على الغير، والمراد هنا: إلقاءُ العلوم والفوائد والأسرار للسامع المستفيد، و(الورى) الخلق، و(ترجم عنه كلامه) ألقاه على حسب ما يفهمه السامع، و(المراء) الجدال، والمراد: بلا نزاع في ذلك.

يقول: وكل ما يمليه سيدنا رضي الله عنه وأرضاه، وأدامنا بمنّه وكرمه في حوزة حماه، من إخباره بهذه الكرامات وغيرها من المواهب والأسرار فهو مترجَمٌ فيه عن إخبار نبينا المصطفى المختار ﷺ، ويحتمل أن يكون مرادُ النَّاظم بهذا البيت الإخبار بهذه الكرامة التي هي الإخبارُ عنه ﷺ في كل ما يخبر به وجميع ما يأمر به في طريق الدلالة على الله، ولا شك أنها كرامةٌ ظاهرة ومَنْقَبة سامية فاخرة، وهي ثابتة لسيدنا رضي الله عنه وقدَّس أسراره الطاهرة، ويحتمل أن يكون مرادُه به التنصيص على أن ما تقدَّم ذكره من ضمان النبي ﷺ دخولَ الجنة لمن رآه في اليومين، إنما هو إخبار من النبيّ ﷺ لسيدنا رضي الله عنه، فهو مترجم فيه وفيما كان من خبره من الكرامات عن لسان النبي ﷺ، فيكون النَّاظم أشارَ به إلى ما تقدَّم من خطابه الشريف ﷺ لسيدنا رضي الله عنه بقوله «بعزَّة ربي» إلخ، وعلى هذا الاحتمال يكون البيت من تتمَّةِ الكلام فيما قبله، وإن كان لبعض ما بعدَه تعلق به أيضاً، وسوقه الكلام في الكرامة مساق التفصيل يعطي أن هذا الاحتمالَ الثاني هو المراد عنده، وإن كان الأولُ متَّجهاً أيضاً، والله تبارك وتعالى أعلم. ثم قال رحمه الله:

---

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب: «وِرْدَه».

(وَمِنْـهُ أَنَّ رَبَّـهُ قَـدْ شَفَّـعَـهْ فِي كُلِّ مَنْ قَدْ كَانَ فِي الْعَصْرِ مَعَهْ
وَزِيدَ عِشْرُونَ مِنَ السِّنِينَا لِشَيْخِنَا مُصَحَّحاً يَقِينَا)

(العصر) يراد به هنا: من زمن الولادة إلى الموت، وباقي الألفاظ واضح.

يقول: ومن هذا الذي أردت في هذا المقام ذكرَه، وقصدتُ في هذا المحل نشرَه من كرامات سيدنا قدس الله سرّه ما تلقَّاه عنه الثقات من أصحابه الأخيار، واشتهر بين أتباعه في كل قطر كلّ الاشتهار، من قوله ﷺ: شفعني الله في أهل عصري، ومرةً قالها، فقال خليفته سيدي علي حرازم ﷺ: وزيادة عشرين سنة، فأقر الشيخ ﷺ مقاله ذلك واستحسنه، فظهر أنه مما سارَّه به قبل ذلك الزمان، ثم استفاض بعد ذلك قيد حياةِ الشيخ ﷺ، وبعد مماته إلى الآن، وهذه الكرامة أيضاً من جنس الكرامة قبلها، وتقدَّم قول الشيخ أبي علي اليوسي رحمه الله: وأي شيء يستبعد في أن يمنح بعضهم الشفاعة في قرنه أو أكثر إلخ.

وقد نقل الثقات اتفاق هذه الكرامة التي هي الشفاعة في العصر عن غير واحد من المشايخ الكاملين والعارفين الواصلين، وتلقاها المعاصرون لهم من الأئمَّة الأعلام بالقبول التام، وممَّن نقلت عنه الأستاذ الشهير العارف الكبير سيدي محمد بن مبارك التستاوتي ﷺ، فذكر أن جماعةً من أصحابه دخلوا على الشيخ الكبير سيدي محمد الشرقي فقال لهم: أيّها الفقراء، ما الذي قال ابن مبارك؟ فأخبروه بنحو مقالةِ الشيخ السابقة، فقال سيدي محمد الشرقي: اشهدوا أنا من أهل زمان ابن مبارك انتهى. فكذا يجب التلقي بالقبول لمثل هذا إذا سُمِع عن أرباب المقامات من الكمل الفحول.

وممَّن نقلت عنه هذه الكرامة أيضاً القطب سيدي محمد بن القطب مولانا عبد الله الشريف المتقدِّم الذكر، وقد ذكر سيدنا ﷺ أن الشيخ أبا عبد الله الخروبي الطرابلسي ﷺ طلب من النبي ﷺ ضمانه أهلَ عصرِه، فقال له ﷺ: سبَقَك بها ولدي محمد، يعني ﷺ القطبَ المذكور رحمه الله تعالى و ﷺ، ثم قال النَّاظم رحمه الله تعالى:

(وَمِنْـهُ أَنَّ خَاتَـمَ الرِّسَالَـهْ قَـالَ لَـهُ مَـا لِبِـلَالٍ قَـالَـهْ
وَقِيـلَ لِلشَّيْـخِ رَفِيـعِ الذِّكْـرِ مَـا لِابْـنِ دَاوُدَ أُتَـى فِـي الذِّكْـرِ
مِـنْ قَـوْلِـهِ «هَـذَا عَطَـاؤُنَـا» إِلَـى آخِـرِهَـا وَمِثْـلُ ذَا لَـنْ يَحْظَلَا)

(خاتم الرسالة) نبيّنا ﷺ، و(بلال) هو ابن حمامة الحبشي الصَّحابي الجليل مؤذِّن

رسول الله ﷺ[1]، و(**الذكر**) الأول: الثَّناء والصيت، و(**الذكر**) الثاني: القرآن العظيم، ففي الكلام تجنيسٌ تامٌّ[2]، والضميرُ في (**من قوله**) للحق تبارك وتعالى، ففي الكلام شجاعة الفصاحة على حدِّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: الآية 32] و(**العطاء**) فسَّروه بالتفضل أي التفضُّل المحض الوارد من المتفضِّل على المتفضَّل عليه لا على سبيل الاستحقاق والوجوب، قاله في «مفاتيح الغيب»، والضمير في قوله: (**إلى آخرها**) للآية الكريمة، والإشارة بذا من قوله (**ومثل ذا**) إلى قول أكابر العارفين كالشاذلي وابن سبعين والجزولي وأضرابهم ﷺ، قيل لي كذا، و(**يحظلا**) من حَظَله إذا منعه.

يقول: ومن هذا الذي أردت الإشارة إليه وقصدت التعريج في هذا المحل عليه من كرامات سيدنا ﷺ وأرضاه ومناقبه وخصائصه ومزاياه، ما تلقاه عنه الثقات من أصحاب السراة الأمثال من قوله ﷺ: قال لي سيد الوجود ﷺ: «**أنْفِقْ بِلالُ وَلاَ تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إقلالاً**» وما تلقوه عنه أيضاً وتواتر الحديث به، واشتهر كلّ الاشتهار بين الإخوان والأصحاب من قوله ﷺ: قيل لي: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: الآية 39] ومثل هذا إذا ثبت وروده عن أهل الاختصاص لا قادِحَ فيه ولا مانع منه بإجماع من فحول الأئمة وكمل الخواص. وهاتان الكرامتان العظيمتان بما آل إليه أمرُهما من نوع واحد، وقد ظهر مصداقُهما للغائب والشاهد حتى أقرَّ به المحبُّ والقالي، وتساوى في الاعتراف به المقِرُّ والجاحد، وانظرْ فصلَ كرمه من كتاب «جواهر المعاني» تعرف ما خصَّه الله تعالى به في هذا الباب، وأنه لا مساوي له فيه من أبناء جنسه، ولا مداني، ومن كلامه فيه قوله: فدأْبُه ﷺ الإنفاقُ في سبيل الله والإطعام لوجه الله يفرِّق ماله في ذلك شَذَرَ مَذَر[3]، في كلِّ وقتٍ من رخاء وشدّة في حالة الحضر والسفر، من كل ما يتناوله من المكتسبات من عين وعَرَض وفواكه وخضر، ما بين مواساة ونفقة وصلة رحم وصدقة،

---

(1) هو بلال بن رباح الحبشي، أبو عبد الله، مؤذن الرسول ﷺ وخازنه على بيت ماله. من مولدي السراة، وأحد السابقين إلى الإسلام، وكان شديد السمرة نحيفاً طويلاً خفيف العارضين شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. ولما توفي النبي ﷺ أذن بلال ولم يؤذن بعد ذلك، وتوفي في دمشق (20هـ) وروى له البخاري ومسلم (44حديثاً).

انظر طبقات ابن سعد: 3/ 169، وصفة الصفوة: 1/ 171، وحلية الأولياء: 1/ 147، وأسد الغابة.

(2) التجنيس: أن تتشابه لفظتان في الحروف وتختلفان في المعنى، وإذا اختلفت بعض الحروف فهو تجنيس ناقص، أما إذا تطابقت الكلمتان في الحروف فهو تام، وشرط كل ذلك اختلاف المعنى.

(3) شذر مذر، يقال: تفرَّقوا شذرَ مذَر: ذهبوا مذاهب شتى مختلفين. وفرّق ماله شذر مذر: أي فرَّقه بشكل لا عودة بعده.

ويقول: المالُ مال الله وإنَّما أنا خازنُ الله ومسخَّر فيه، لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: الآية 7] ولقوله ﷺ: «يَدُ الله مَلأى لا تغيضُها نَفَقَةٌ سحَّاء اللَّيلِ والنَّهارِ، أرأيْتُم ما أُنْفِقَ مُنْذُ خَلْق السَّمٰوات والأرض فإنَّه لم يغضْ ما في يَدِه، وكانَ عرشُه علىٰ الماءِ، وبِيَدِه المِيزانُ يخفضُ ويَرْفَعُ» انتهى. وهذا الحديث أخرجه غيرُ واحد عن أبي هريرة ﷺ، وراجع إن شئت هذا الفصل بتمامه.

(لطائف: الأولى) من المعلوم أنَّ هذا الخلْق الذي هو الإنفاق بمالِ الله على عباد الله والدّؤوب على ذلك من غير تطرُّق خوف عُدْمٍ ولا مداخلة ريبة ولا تهمة، ثقةً بالله تعالى وبحكم الاستخلاف المشار إليه في الآية هو من أخلاق الكمل الراسخين في مقامات اليقين، فهو في بساط الولاية نتيجة من نتائج السلوك، وثمرة من ثمرات الوصول إلى معرفة ملك الملوك، ومع ذلك خُوطب فيه سيدنا ﷺ من حضرة سيد الوجود ﷺ، ففيه إشارةٌ دقيقة إلى أن تربيته ﷺ لم تنفصلْ عن سيدنا ﷺ في حضرةٍ من الحضرات، ولا في منزل من المنازل، ولا في مقام من المقامات، وتلك في ظهور أثرِ العناية الربانية غايةُ الغايات، وفي أمره ﷺ باللفظ الذي به خاطب بلالاً ﷺ الإشارة إلى بيان أصل هذا الخلق ومسنده من الشريعة المطهرة، وأنه لا يتحقَّق به إلا من كان على قدم هذا الصحابي الجليل من المستغرقين في بحر شهود الأحدية كما يشير إليه أثر: «أَحَدْ أَحَدْ»[1] فجَمَع له ﷺ في التربية بين الشريعة والطريقة، وتلك في بساط التربية نهاية النهايات، إذ الشريعةُ ما جاء به ﷺ كتاباً كان أو سنةً أو تقريراً أو إجماعاً، وجميع ما يؤول إلى ذلك من استنباطات المجتهدين ﷺ، وهي هنا في الإشارة إلى بيان الأصل والمستند، والطريقة هي الأمر اللازم لأرباب الحقائق والأحوال المختصّ بهم في مقامات الكمال، ومن شأن من قام به هذا الأمر الانسلاخ الكلي عن مقتضيات حظِّه وهواه، والتبرِّي التام من مشاهدة حَوْله وقواه والاستغراق الكامل في شهود وحدانية مولاه، بتحقُّق الغيبة فيه عما سواه، وأشعر بهذا، أعني الطريقة هنا، الخطاب بما خوطب به هذا الصحابي الجليل الكامل الاستغراق في شهود الواحد الأحد فافهمْ، والله تعالى أعلم.

مقالُكَ: هذا المِسْكُ لَيْسَ بِفَائحِ　　وإن كنتَ مَزْكوماً فلَيْسَ بلائقِ

وهذه اللطيفة تتعلَّق بالكرامة الأولى المشار إليها بقول الناظم: ومنه أن خاتم الرسالة إلى آخر البيت.

(1) رواه النسائي في (السهو: 37)، وأبو داود في (الدعاء: 23)، والترمذي في (الدعوات: 104).

(اللطيفة الثانية) في ذكر الكرامة الثانية إشارةٌ إلى أن سيدنا ﷺ من المتحققين بالقدم السليماني وهم رجالٌ مخصوصُون من هذه الأمّة المحمدية. قال الشيخ محيي الدِّين ﷺ في حديث: «إِنَّكُمْ تسألُونَ عن نَعِيمِ هٰذا اليَوْم» ولم يكن سوى تمر وماء، إنَّما لم يدخل نفسه ﷺ في الجماعة ليعلمنا أن لله عباداً سليمانيين يقول الله لأحدهم: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص: الآية 39] قال: وهم سبعون ألفاً من هذه الأمة، وقال في عكاشة ﷺ إنه منهم اهـ. وفي وصف النَّاظم هنا للشيخ ﷺ بقوله رفيع الذكر رمز لهذه اللطيفة فإن كان قصده فذاك، وإلا فهو من غريب الاتفاق.

(اللطيفة الثالثة) قد تقدَّم لنا أنهم فسَّروا العطاء بالتفضل، وأن المراد محض التفضل الوارد لا على سبيل الاستحقاق والوجوب.

وفيه بشارةٌ من وجهين: **أحدهما**: أن الكريم إذا شرع في التربية على وجْهِ التفضل فالظاهر أنه لا يبطلُها بل كان كلَّ يوم يزيد فيها: **الثاني**: أن ما يكون بسبب الاستحقاق فإنه يتقدَّر بقدر ذلك وفعل العبد متناهٍ، فيكون الاستحقاق متناهياً، والتفضُّل نتيجة كرم الله وكرمه غير متناهٍ، فلما دلَّ لفظ العطاء على أنه تفضل لا استحقاق أشعر بالدوام والتزايد أبداً.

(اللطيفة الرابعة) في لفظ «العطاء» أيضاً إشعار بالاختصاص لأن الإعطاء يوجبُ التملُّكَ وهو سببُ الاختصاص، ويدلُّ له أن نبيَّ الله سليمان قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: الآية 35] فقيل له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص: الآية 39] وقد تقدَّم عن الشيخ محيي الدِّين أن عكاشة[1] من أهل هذا الاختصاص، وعليه ففي قوله ﷺ لسعد بن عبادة[2] ﷺ: . . . .

---

(1) هو عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي، حليف بني عبد شمس، من سادات الصحابة وفضلائهم، هاجر إلى المدينة، وشهد بدراً وأبلى فيها بلاء حسناً، وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبشره رسول الله ﷺ أنه ممن يدخل الجنة بغير حساب. وقتل في قتال أهل الردة. انظر أسد الغابة: 3/ 564.

(2) هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي، أبو ثابت، صحابي، من أهل المدينة، كان سيد الخزرج، وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام وكان يلقب في الجاهلية بالكامل (لمعرفته الكتابة والرمي والسباحة) وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد أحداً والخندق وغيرهما، وكان أحد النقباء الاثني عشر. ولما توفي النبي ﷺ طمع بالخلافة، ولم يبايع أبا بكر. ثم هاجر إلى الشام ومات بحوران سنة (14هـ). انظر تهذيب ابن عساكر، 6/ 84، والإصابة: ت(3167)، وصفة الصفوة: 1/ 202، وأسد الغابة.

«سَبَقَكَ بِهَا عكاشة»[1] إشارةً إليه: وقد حامَ بعضُ شراح الحديث حول هذا فقال: قال ﷺ ذلك لأنه أوحىٰ إليه أن يجاب في عكاشة ولم يوحِ إليه في غيره، وقيل غير ذلك. وعلى كل حال ففيه مع الإشارة إلى الاختصاص تربيةٌ وتأديب حَسَنٌ كما لا يخفى، رزقنا الله الأدب مع أهل الرتب بمنّه.

وبيان ما أخذ من التربية وحسن الأدب من هذا الحديث هو أن لا يتمنَّى المريد ما فضل الله به بعضَ إخوانه عليه بأن لا يحمله على طلب ذلك إلا حصوله لأخيه، بل يسأل الله تعالى أن يَهَبه من فضله خيرات الدُّنيا والآخرة على وفق ما يختاره له سبحانه ويرضاه، ويرتقب الإجابة في ذلك على يد شيخه مثلاً متوسلاً في ذلك به ومستمدًّا منه بقلبه، ويستمر على ذلك مفوضاً مستسلماً حتى يفيضَ الله عليه مثلَ ما أفاضه على أخيه أو أزيَدَ أو أنقص من غير اختيار منه، ولا تعيين لذلك الأمر في تلك الساعة، سواء حصلَ له من الاستعداد ما حصل لأخيه الذي نال ذلك أم لا، أو وقع عليه الاختصاص الإلٰهي الذي وقَع على ذلك الأخ أم لا، لما في ذلك من سوء الأدب واستعجال الشيء بدون إبَّان ولا استعداد، بل بمجرَّد الهوى والمنافسة النفسانية لا غير، فوقع التنبيهُ على هذا الأدب في الحديث، أعني في قوله ﷺ: «سبقَكَ بها عكاشة» إذ لو أجابَ ﷺ الثاني لأوشك أن يقومَ ثالثٌ، ولو أجاب لأوشكَ أن يقوم رابعٌ وخامس وهلمّ جرا، وليس كل واحد صالحاً لذلك، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: الآية 32] أي من جهة الدنيا أو الدين، لأن ذلك يؤدي إلى التحاسُدِ والتباغض اهـ انظر شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري على صحيح الإمام البخاري في باب ما يكره من التمني، وبينا هذا الأدب هنا ووجه أخذه من الحديث تتميماً للفائدة المشار إليها في هذه اللطيفة.

(تكميل) المراد بقول الأولياء: «قيل لي» الإلهام الصحيح المختصّ بالإكبار، وهو أن يقعَ ذلك في نفسه وقوعاً لا يمكن تكذيبُه ولا يصحُّ ردّه ولا يصحبه هوى يثلجُ به الصدرَ وينشرح به القلب، قاله الشيخ زروق. وقال بعضُ المحققين: هو معنى يجده الوليُّ في نفسه من غير تعلُّق بحسٍّ ولا خيال، فيخرج إتيان الملك بالأمر الإلَهي كما تخرج الرؤيا الواقعة أيضاً: وذكر الشيخ زروق قول الإمام ابن عرفة الفقير المالكي الشهير رحمه الله تعالى في حق الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى. ما يثقل عليّ شيء مثل ما يثقلُ عليّ قوله «قيل لي» قال: ولا أقبله منه ولا من المرجاني المقطوع لولايته. انتهى.

---

(1) رواه البخاري في (الرقاق: 50)، وفي (اللباس: 18)، ومسلم في (الإيمان: 367، 369، 371)، والترمذي في (القيامة: 16)، والدارمي في (الرقاق: 86، 102) وأحمد: 1/ 271، 401.

وقال، يعني الشيخ زروق ﷺ على قول الإمام ابن عرفة هذا رحمه الله تعالى: أما ثقله فمن جهة عدمِ اعتياده وكثرة ما يجري من المدعين بسببه، ولأنه لفظ مُوهمٌ بصورته، ثم هذا الثقلُ ليس بحجة في نفسِه لعدم إبداء الوجْه والدليل فيه، وأما قوله: «لا يقبله» فلا يضرُّه ذلك، وهو على علمه ولا يقدح ذلك في حقِّ غيره، لأن حق الله تعالى في كل أحدٍ لا يتجاوز علمه إلى غيره ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: الآية 36] اهـ المراد منه وراجع كلامه بتمامه في شرحه بحزب البحر إن شئت.

وبالجملة فما يُلْهَمُه الأولياءُ وتخاطَب به عوالمهم اللطيفة أصلٌ متين من الأصول المعتمدة عندهم. ودليلُه من السنة قوله ﷺ: «**إنَّه كَانَ فِيمَنْ قبلَكُم محدَّثون وإنْ كَانُوا في أمَّتي فعُمَرُ مِنْهُم**» أو كما قال ﷺ، ولهذا قال الناظم رحمه الله: «ومثل ذا لن يحظلا». حسبما تقدَّمت الإشارة إليه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

(وكلّ ما ينال كلُّ عارفِ	مِن الخِلال ومِن المعارِف
فشيخُنا أمدَّه من النَّبي	وحِزبِه بنيلِه للرُّتَبِ
فخضعتْ رقابُ الأولياءِ	لقَدمَيْ شَيخي بِلا امْتراءِ)

(**الخلال**) جمع خلة؛ بمعنى خَصْلة، والمراد بها هنا الخصال الحميدة والنعوت الكمالية المجيدة، والمراد (**بحزبه**) ﷺ: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، و(**الرتب**) الدَّرجات، أو المراد رتبة القطبانية العظمى، وجمعه للتعظيم أو باعتبار ما احتوى عليه مقام القطبانية من الدَّرجات، أو المراد ما اختصَّ به في مقام القطبانية من درجة الاختصاص التي لا مطْمَعَ فيها لأحد من كلِّ الخواص، وهذا أنسبُ بالمقام كما يدلُّ عليه سياق الكلام، و(**الخضوع**) معروف، والمراد هنا الانحناء والتطأطؤ، و(**رقاب**) جمع رقبة، والمراد الرؤوس، و(**قدمي**) تثنية قدم الرجل، و(**الامتراء**) تقدَّم، وباقي الألفاظ واضح.

يقول: ومن كرامات سيدنا ﷺ وأرضاه وخصائصه التي اختصَّه بها بسابق العناية مولاه أن كلَّ صفة كمالية جلالية أو جمالية نالها أحدٌ من العارفين المقرَّبين الكرام إلا وقد أمدها بسابق التخصيص الأزلي هذا الإمام من حضرة سيد الوجود ﷺ وحضرات إخوانه النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ومن حضرته ﷺ وأرضاه أفيضت على جميع العارفين المقربين من أولياء الله، فبسبب ذلك خضعت له من جميع الأولياء الأعناق، وأذعنوا لقدره في عوالم الغيب بالإطباق، ومن هنا كانت نسبة جميع الأقطاب إلى مقامه الخاصّ كنسبة عامة الأولياء إلى القطب الأكبر صاحب الاختصاص.

وأشار النَّاظم رحمه الله تعالى بما ضمنه هذه الأبيات إلى ما رويناه عن غير واحد ممن حضره من أصحاب سيدنا رضي الله عنه الثقات الأثبات، وهو أنه رضي الله عنه كان يتحدَّث على عادته مع خاصَّة أصحابه، فجرى ذكر المقالة الشهيرة عن شيخ الشيوخ، وإمام أهل التمكين والرسوخ، مولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه: قدمي هذه على رقبة كلِّ ولي لله، فنهَضَ رضي الله عنه وكان متكئاً، فاستوى جالساً ومدَّ رجلَيْه الشريفتين وقبضَ عليهما بيدَيْه وقال الشيخ عبد القادر: قال ذلك في أولياء زمانه، وأنا أقولُ قدماي هاتان على رقبة كلّ ولي لله تعالى من لدن آدم عليه السلام إلى النفخ في الصور اهـ. وجعل النَّاظم رحمه الله تعالى سبب استحقاقه على الأولياء لهذه المقالة السنية نيله رضي الله عنه لما اختصَّ به عنهم من السموِّ في المرتبتين الخاصَّتين به الختمية والكتمية، وهو نظر سديدٌ مؤيد بالإلهام، صادرٌ عن نفوذ بصيرةٍ وذوق تام. وبيانه أنه رضي الله عنه حسبما أشارَ إليه الناظم قال في بساط التعريف بمقامه الخاصّ به: إن القطب المكتوم هو الواسطةُ بين الأنبياء والأولياء، فكلُّ ولي لله تعالى من لدن آدم عليه السلام إلى النفخ في الصور لا يستقي فيضاً من حضرة نبي إلا بواسطته من حيث لا يشعرون، ومدده الخاصّ به يتلقَّاه منه ﷺ ولا اطِّلاع لأحدٍ على فيضِه الخاص به اهـ.

ومرة قال رضي الله عنه: إن الفيوض التي تفيض من ذات سيد الوجود ﷺ يتلقَّاها ذواتُ الأنبياء، وكل ما فاض وبرز من ذوات الأنبياء تتلقاه ذاتي، ومنها يتفرق على جميع الخلائق من نشأة العالم إلى النفخ في الصور، وخصصت بعلوم بيني وبينه منه إليّ بلا واسطة لا يعلمها إلا الله عزَّ وجل اهـ. وقال: لا يشربُ ولي ولا يُسْقى إلا من بحرِنا من نشأة العالم إلى النفخ في الصور، وإلى هذا الإشارةُ بقوله: «وكل ما ينال» إلى آخر البيتين، وهذا أقوى في السببية مما جعله الشيخ زروق رضي الله عنه سبب استحقاق الشيخ مولانا عبد القادر الجيلاني لمقالته على الأولياء وهو كثرة عبادته وعلمه مع نسبه الشريف لوجود المشارك في هذا وإن لم يوجد المسامي في زمانه بخلاف ما جعله النَّاظم سبباً لاستحقاق سيدنا رضي الله عنه المقالة على الأولياء فإنه لم يشاركه فيه غيره ممن تقدَّم من الأولياء أو تأخَّر. على أننا وإن نظرنا إلى ما بنى عليه الشيخ زروق رضي الله عنه وقطعنا النظر عن غيره، فإنّ سيدنا رضي الله عنه قد اجتمع له ما ذكر من العبادة والعلم والنسب بلا شك، وزاد خصلةً رابعة وهو كونه في آخر الآخر من الأزمان قاله في الجواب المسكت فراجعه فيه إن شئت.

وعضد النَّاظمُ ما ذكره من السبب بما عقده من قول سيدنا رضي الله عنه في كلامه الثابت عنه في التعريف بالقطب المكتوم أيضاً، وهو قوله رضي الله عنه: نسبة الأقطاب معه كنسبة العامة مع الأقطاب، لأن مقامَه غيبُ الغيب لا علم لهم به إلى آخر كلامه، انظر «الجامع».

وبهذا تعرف ما عقده النَّاظم رحمه الله تعالى في هذه الأبيات من كلام سيدنا رضي الله عنه الثابت عنه من طريق القطع بتواتر أخبار الثقات، ثم إن قول سيدنا رضي الله عنه في مقالة الشيخ مولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه إنما قالها باعتبار أهل زمانه هو الذي صرَّح به شيخ الطريقين، وإمام الفريقين أبو الفيض سيدي أحمد زروق في قواعده رضي الله عنه، ولم نقفْ فيما وقفَ عليه من كلام غيره على ما يخالفه، وعليه فهي له رضي الله عنه على أهل زمانه حقيقةً، لأنه أدرك أعلى الدرجات التي لم يدرِكْها غيرُه في مقام القطبانية والإمامة الكبرى والخلافة العظمى، وما أثبتوه لتلميذه الشيخ أبي السعود بن الشبلي رضي الله عنه من شفوف الرتبة وسموّ الدرجات لا ينافي المقالة لأنه يكون من النادر الذي لا تشمله المقالة أو تكون المقالة باعتبار ما آل إليه الشيخ عبد القادر رضي الله عنه عند الموت، فإنهم نصُّوا على أنه أدرك ما اختصَّ به تلميذه المذكور عند موته، أو يكون ما اختصّ به أبو السعود من باب المزية وهو أضعفُ هذه الوجوه، لأن المتَّصف به أبو السعود كان مقاماً له لا حالاً كما يعلم ذلك بالوقوف عليه في كلام من تكلَّم عليه من المحققين، والله أعلم.

وعلى كل حال فالمقالة تقتضي شفوفَ رتبة الشيخ عبد القادر وعلوّ درجته على غيره، لأنها نصٌّ مقبول في ذلك، لما تقرَّر عند المحققين من أن مثل هذا مما يقتضي الأفضلية على جنس أو نوع لا يثبت إلا بدليل يستدلُّ به عليه من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أو إجماع أمته، وألْحقوا بذلك إخبار الولي الثابت العدالة كالشيخ عبد القادر رضي الله عنه وكسيدنا رضي الله عنه، وذلك لأن الولي الموصوفَ بما ذكر لا يذكر ذلك إلا بتعريف إلَهي، من جملة ما يقَعُ به التعريف الإلَهي للأولياء الإلهام الذي يثلج له الصدرُ وينشرح له القلب، وقد علمت أنه معمولٌ به عندهم دون توقف ولا تردّد، وعلى هذا فلا سبيل إلى تكذيب الشيخين أو أحدهما رضي الله عنهما في المقالة المذكورة، ولا بد في هذا الباب لمن ألْهَمَه الله تعالى رشدَه من أحد أمرين: إما تصديق أو تسليم، ومتى خرج عنهما معاً خِيفَ عليه الهلاك والبوارُ بارتكابه في مهواة الإنكار على أولياء الله المقربين الأبرار، فيما هو ممكن في قدرة الفاعل المختار، وقد قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه من كان يخبر عما يشاهد يجب على السامع التصديق به إن كان مريداً، والتسليم له إن كان حبيباً اهـ.

وهذا الكلام قسطاسٌ مستقيم[1]، لمن أراد السلامة لنفسه ودينه من الوقوع في ذلك المرْتَع الوخيم[2]، أعاذَنا الله منه بمنه وكرمه آمين. وإذا عرف هذا فيجب أن لا يلتفت إلى

---

(1) القسطاس: الميزان.

(2) المرتع: مكان رعي الماشية، والوخيم: الفاسد: وهذه كناية عن سوء الموقع وفساده.

استثقال من يستثقل مثل هذه المقالة من سيدنا ﷺ كائناً من كان، لأنه لم يبقَ بعدما ذكرناه وجه لاستثقاله إلا التقيد بالمعتاد والمألوف، وذلك من أعظم الحُجُب المانعة من قبول الحقِّ وأقوى أسباب الحرمان.

(تنبيهان: الأول) ربما قال المنكر المولع بالإرجاف المتجنِّب لطريق الإنصاف: إن قول سيدنا ﷺ: «من لدن آدم إلى النفخ في الصور» يتناول الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام، وكذا الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وجدَّد عليهم سحائب الإفضال والإنعام، فيقال له هذا الذي قدَّرته باعتسافك وجهلكَ وصورته في خزانة وهْمِك من ضعف عقلك بادي البطلان، حتى عند من معه أدنى ميز من العامة والصبيان، وذلك لأن الولي في الاصطلاح اليوم المتبادر منه إلى الأذهان غير الصحابة رضوان الله عليهم، فصار حقيقة عرفية في غيرهم من صالح الأمم المخصوصين بالمعارف والأسرار مجازاً في الصحابة، ولا يعدل إلى المجاز متى أمكنت الحقيقة، وإن كان الصحابةُ هم الأولياء الكبراء والسادات العظماء، ألا ترى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم أولياء الأولياء، لكن لا يقال لهم ذلك في الاصطلاح بدليل مقابلتهم بهم في مثل قولهم: الأنبياء معصومون والأولياء محفوظون، ويشهد لكون الولي في العرف حقيقة في غير الصحابة أن من قال مثلاً: رأيت كلاماً لبعض الأولياء، إنما يتبادَرُ منه الأولياء غير الصَّحابة، والتبادُر عند التجرد عن القرينة دليلٌ على الحقيقة. قال في «نشر البنود على مداني السعود»:

المعنى الذي يتبادر إلى الذهن من اللفظ عند عدم القرينة هو المعنى الحقيقي لهم وغيرهم مما لا يتبادرُ إليه إلا بالقرينة هو المجازي. وقال في «جمع الجوامع»: اللفظ إما حقيقة أو مجاز إلى أن قال: ثم هو محمولٌ على عرف المخاطب أبداً اهـ.

فبان واتَّضح أن قول سيدنا ﷺ «كل ولي» إلخ عامٌّ خصَّصه العرفُ بغير الصَّحابة ﷺ وأحرى الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام، وقد عدَّ الأصوليون العرف من المخصَّصات اهـ انظر «الجيش الكبير»، ويبين مراد الشيخ ﷺ بالولي في هذه المقالة جوابه ﷺ لمن سأله عن الولي المفتوح عليه والصحابي الغير المفتوح عليه أيهما أفضل بقوله: الحق أن الصحابي أفضل لحديث: «**وإن الله فضَّلَ أصحابي على سائر العالمين ما عدا النبيين والمرسلين**» والحديث: «**لَوْ أنْفَقَ أحَدُكُم مِثْلَ أُحُدٍ**»[1] الحديث، ولما فازَ به الصَّحابة من

---

(1) رواه البخاري في (فضائل أصحاب النبي: 5)، ومسلم في (فضائل الصحابة: 221، 222)، وأبو داود في (السنة: 10)، والترمذي في (المناقب: 58)، وابن ماجه في (المقدمة: 11)، وأحمد: 3/ 11.

مشاهدة طلعته ﷺ التي لم تحصلْ لغيرِهم، ولأن غيرهم في موازينهم. وكان ﷺ يقول: أعمالُ غير الصحابة بالنسبة إلى أعمالهم ﷺ كسَيْر النملة بالنسبة إلى طيران القطاة اهـ. ومعلومٌ أن كلام من كان مثل الشيخ ﷺ يخصِّص بعضُه بعضاً ويقيده، والله الموفق.

(التنبيه الثاني): قد يقول المعارضُ على هذه المقالة: هي شطح ممن صدرتْ منه لأنها كلمة تدلُّ على الرتبة عند الله على طريق الفخر بذلك، والأولياء الصادقون لا يفتخرون على أحدٍ، فلا يكون الشطحُ إلا عن رعونة نفسٍ، وذلك نقصٌ ظاهر في صاحبه، فيقال له: لا يذهب برسنك الجهلُ كلَّ مذهب فتقع في الحوض فيما قصَّر عنه إدراكُك من الخوض فيما يتعلَّق بمقامات أهل الرتب، وإن أردت الوقوف على عين التحقيق والتماس نور الإيمان والتصديق فارجع ورا، وأعد في كلام المحققين في هذا الباب نظراً، فإن الصيد كله في جوف الفرا[1]. وقد أفصح أهل التحقيق والفحول من أئمة الطريق بأن الشطح الصادر من الأكابر بحكم الوراثة إنما يصدرُ منهم عن أمرٍ إلّهي، وحينئذٍ فلا تبقى فيه شائبة للفخر حسبما صرَّح بنفيه في حديث: «أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فَخْر»[2] قالوا في معناه أي ما قصدتُ الافتخار عليكم بهذا التعريف، وإنَّما أخبرتُكم به لمصلحةٍ تعودُ عليكم، وتضمن قول سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريَم: الآية 30] الآية، نفى الفخر أيضاً لتصديره فيه بوصف العبودية، ومعلومٌ أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فما جاء النفي للفخر في تعريفهم لأنفُسِهم إلا لتعلم أن من التعريف بالنفس ما ليس بفخر، وهو ما يكون عن أمر إلّهي للرسل عليهم الصلاة والسلام، ولورثتهم بحكم الإرث منهم وهم الكمل من الأولياء رضوان الله عليهم، وما كان عن غير إذن إلّهي فهو زلَّة في حق المحققين وبقية من بقايا رعونات النفس وإن كان صِدْقاً، وفي ذلك قيل:

الشطْحُ دعوى في النفوسِ بطَبْعِها ... لبقِيَّةٍ فيها لآثارِ الهَوَى
هذا إذا شَطَحَتْ بقَوْلٍ صادِقٍ ... من غير أمرٍ عندَ أربابِ النُّهى

---

(1) المثل «كل الصيد في جَوْف الفَرَا» في معجم الأمثال: 3/ 11. قال ابن السكيت: الفرا الحمار الوحشي، وجمعه فِراء قالوا: وأصل المثل أن ثلاثة نفر خرجوا متصيدين، فاصطاد أحدهم أرنباً، والآخر ظبياً، والثالث حماراً، فاستبشر صاحب الأرنب وصاحب الظبي بما نالا وتطاولا عليه، فقال الثالث: كل الصيد في جوف الفِراء، أي هذا الذي رزقت وظفرت به يشتمل على ما عندكما، وذلك أنه ليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشي.

(2) رواه ابن ماجه في (الزهد: 37)، وأحمد: 1/ 5.

وقوله: «من غير أمر» أي إلَهي حسبما تقدَّم وعلامة من يشطح عن غير أمر إلَهي وإن كان صادقاً أن يبتليه الله تعالى بالفقر والذلّة والرجوع إلى أصله لا محالة، وفي مثله قيل: من بَسَطَه الإدلالُ[1] قَبضَه الإذلالُ، وفي مثل من يشطح بصدق من غير أمر إلَهي قيل: الدعوى قبيحةٌ وإن كانتْ صحيحة، فتحصل أن الشطح الصادرَ من كمل المقربين ورثة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام لا يكون إلا عن أمر إلَهي لذلك الكامل بتعريفه نفسه لاتباعه لمصلحة تعود عليهم في ذلك، وما كان كذلك فلا فخْرَ فيه ألبتة، بل فيه تبشير الأتباع وتثبيتهم وتقوية لإيمانهم، لأن كمال الانتفاع للتابع من المتبوع يكون بقدر معرفته له والمعرفة قد تحصلُ بتعريف غير ذلك الكامل به، وقد تحصل بتعريفه لنفسه بنفسه، قالوا: ومن أثنى على نفسه أمكنُ وأتمُّ ممن أُثني عليه، فالتعريف بالنفس عن أمر إلَهي صفة المتمكِّنين في مقامات الكمال، والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

وقد كان من حق النَّاظم ﷺ تعالى أن يعقد هنا المقالة بتمامها بأن يأتي بما ينص به على أن المراد بالأولياء من لدن عصر آدم عليه السلام إلى النفخ في الصور حسبما صرح الشيخ بذلك، ولا يكتفي بإطلاق لفظ الولي وقد زدت عقب قوله: «فخضعتْ رقابُ الأولياء» البيت، بيتاً لمن أراد أن يلحقه هنا وهو:

مِنْ سابقٍ عليه في الوجودِ ... ولاحقٍ مِنْ أخي شُهودِ

والله المستعان، وعليه التكلان، ثم ذكر كرامةً تعضد ما قبلها أيضاً فقال:

(يَصعد مِنبراً مِن النُّورِ غدا ... يَسمو بِهِ الكُلَّ سَنى وسُؤدَدا
ثُمَّ يُنادِي عِنْدَ ذَا مُنادِي ... يا أهلَ ذا الحَشْرِ وهذا النادِي
هذا إمامُكُم وذا مُمِدُّكُمْ ... في دار دُنياكُم بِغَيرِ عِلمِكُمْ)

(الصعود) الرقي، و(المنبر) المِنَصَّة المعروفة، و(النور) الضياء، و(السنى) بالقصر الضياء، و(السودد) الشرف، و(الحشر) الجمْعُ، ويوم الحشر: يوم القيامة، و(النادي) المجلس، والمراد المجمع العظيم الذي هو المحشر، وباقي الألفاظ واضح.

يقول: ومن كرامات سيدنا ﷺ الذي أردت ذكرَها في هذا المقام ما تواتر عنه ﷺ بين سائر أتباعه، الخاصِّ منهم والعام، من قوله ﷺ: إذا جمع الله خلقه في موقف القيامة

(1) الإدلال: من الفعل «أدلَّ» عليه: وثق بمحبته فأفرط عليه. وأدلَّ عليه بصحبته: اجترأ.

وُضِع لي منبر من نور، فأرقاه بحمد الله تعالى رقي المبرة والكرامة، ثم ينادي منادٍ يسمعه كلُّ من حضر: هذا إمامكم الذي كان منه مَدَدُكم فيما مضى لكم من أيام دنياكم وغَبَر اهـ بمعناه.

وغالب لفظِه وهو مشهورٌ فيما بأيدي الأصحاب المعتنين بتحصيل الفوائد والفضائل من التقييدات والوجادات بخطوط أصحابه الأفاضل، وهذه الكرامة الفائقة ممَّا يتَّضح بها وجهُ السبب في استحقاق سيدنا ﷺ للمقالة السابقة وهي أيضاً مما لا يستغربه إلا معانِدٌ قد أودى به والعياذ بالله داءُ الضرائر، أو جاهل بسعة فضل الملك القادر.

وقد نقلَ الشيخ زروق ﷺ عن الإمام العقباني أن كلَّ كرامة لولي فهي تصديقٌ لنبيِّه الذي اتبعه، فالتكذيب بكرامات الأولياء كالتكذيب بمعجزات الأنبياء اهـ فلم يبقَ لمن سلكَ الله به أقومَ سبيل إلا الرجوعُ إلى ما تقدَّم آنفاً عن الشعراني في قوله: من كان يخبر عما يشاهد فيجبُ على من سمِعَه التصديق إن كان مريداً، والتَّسليم إن كان حبيباً، والله يعصمنا من الزلل بمَنِّه وكرمه آمين، ثم قال النَّاظمُ ﷺ تعالى:

(طائفةٌ مِنْ صَحبِه لَوِ اجْتَمَعْ	أقطابُ أمةِ النَّبيِّ المُتَّبَعْ
مَا وَزَنُوا شَعْرةً مِنْ فَرْدِ	مِنْها فكيفَ بالإمامِ الفَرْدِ
جعلنا مِنْ خَلَقَ البَرِيَّهْ	مِنْ هذِهِ الطَّائِفَةِ العَلِيَّهْ
وَعَنهُ فِي عَدِّ هذه الفِئَهْ	مِنْ صَحْبِه أَكْثَرَ مِنْ سِتِمائَهْ)

(الصحب) جمع صاحب، ويجمع على أصحاب وصحابة، والأصل في هذا الإطلاق أن يراد به من حصَلَ له رؤية ومجالسة ووراء ذلك شروط الأصوليين، ويطلق مجازاً على من تَمَذْهَبَ بمذهب من مذاهب الأئمَّة، فيقالُ: أصحاب الشافعي، وأصحاب مالك، وأبي حنيفة، وابن حنبل، والمراد هنا: الإطلاق المجازي، فيشملُ الأتباع وإن لم تحصلْ لهم معاصرة فضلاً عن الرؤية والمجاورة، و(البرية) الخليقة، و(الفئة) الجماعة أيضاً في الطائفة.

يقول: ومما قصدتُ الإشارة إليه أيضاً في هذا المقام من كرامات هذا الإمام ما اشتهر أيضاً بين الأتباع ممَّا تلقَّاه عنه الخاصة من أصحابه الكرام من أن طائفةً من أهل طريقته هذه الأحمدية المنخرطين في سلك سلسلته المحمديّة لو اجتمع أقطابُ هذه الأمة الشريفة ما وزنوا شعرةً مما اختصَّ به الواحد منهم من المقامات الرفيعة والأحوال السامية

المنيفة، فكيف بقدوتهم وإمام سلسلتهم الآخذ بأرسانهم وأزمتهم[1]، نسأل الله الذي أوجدنا بسابق عنايته من العدم أن يجعلنا من هذه الطائفة السنية بمحض الجود والكرم.

وثبَتَ عن سيدنا ﷺ في عدد هذه الطائفة وهذه الفئة أنها تزيد على الستمائة، وهذا أيضاً مما عرف أصله بين الأصحاب، وهو موجود بأيديهم في غير ما تقييد وكتاب، وقد أتينا به أيضاً بمعناه أخذاً بالحظِّ الذي قصدناه، من خدمة هذا الجانب المعظَّم ورُمناه، ثم إننا جعلنا المراد عند النَّاظم رحمه الله تعالى بـ«الإمام الفرد» هنا سيدنا رضي الله تعالى عنه، جَرْياً على المتبادر في «أل» هذه من أنها للعهد الذكري لتقدُّم ذكْرِه ﷺ بالوصف المذكور قريباً، ويحتمل أن تكون للعهد الذهني وبينه ما تقرَّر في أذهان الإخوان والأتباع، من أن سيدنا ﷺ ذكر هذه الطائفة لما تقدّم، ثم بعد ذلك قال مرةً رجلٌ واحد برز من الطائفة يعني الطائفة المذكورة وقال فيه: إنه لا يعرف لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولم يزدْ من وصف علاماته بعد تشوُّف أصحابه إليه في ذلك التشوف الكثير، على أن قال هو فاسي أماً وأباً، فعلى هذا يكون هذا الواحد المبرِّز من هذه الطائفة الخاصة الذي هو إمامها الفرد هو المراد عند النَّاظم، والحمْلُ على هذا وإن كان الأول هو المتبادَر أولى لئلاً يفوتَ النَّاظم عقده للكلام المتعلِّق بهذه الطائفة بتمامه، وهذا مبني على ما استفدناه من مذاكرة أصحابه ﷺ، وقد رأيتُ كثيراً من الأصحاب اليوم يحملون الطائفة من قول الشيخ ﷺ رجل واحد ظهر من الطائفة على أهل طريقة بأسْرِهم لا خصوصَ هذه الفئة المذكورة، وعليه فيكون هذا الواحد ليس معدوداً فيها، وحينئذٍ فيراد بالإمام الفرد في كلام النَّاظم سيدنا ﷺ خاصة.

ثم إن ما ذكره النَّاظم من العدة لهذه الطائفة وهو أنه أزيدُ من ستمائة رأيته فيما وقفت عليه من كلام بعض الخاصة ممن ألَّف في الطريق مفصّلاً، وذلك أنه ذكر من الأوجه التي سميت به هذه الطريقة إبراهيمية أن الله تعالى جعل في ذرية إبراهيم عليه السلام من الأنبياء والرسل أصحاب الشرائع وغيرهم ما يطول عدُّه، وجعل في أهل هذه الطريقة من الأولياء والكمل أهل التربية والإرشاد وغيرهم ما يطول عَدُّه.

قال: وقد ذكر ﷺ وأرضاه أن الكمل أهل التربية والإرشاد من أهل طريقه يبلغ عددهم ستمائةً من الإنس وثلاثمائة من الجن، ثم قال: أو قريباً من هذا، والذهن خوان اهـ. والظاهر أن قوله: «أو قريباً من هذا» راجع لعدد الكمل من الجن.

---

(1) الأزمة: جمع الزِّمام: وهو الخيط الذي يُشد في البرة أو في الخشاش ثم يشد إلى طرف المقود.

وقال السيد المذكور عقب هذا ما نصّه: ثم قال ﷺ، يعني سيدنا جعلنا الله في حِماه: كلُّها منِّي وإليّ، يعني الطريق التي يربي بها الكمل المذكورون اهـ وهذا من هذا السيد فيما نقله من كلام سيدنا ﷺ صريح في أن هذه الطائفة المذكورة هو من كان من أهل التربية الخاصة منها كالأستاذ سيدي الحاج علي التماسي وأمثاله ﷺ أجمعين، وبه تعرف أن التربية ليست ممنوعةً في طريقنا كما يتوهَّمه بعض الأصحاب، وإنَّما الممنوع التظاهرُ بدعواها على رسم المتمَشْيِخينَ في هذه الأزمنة وقبلَها حسبما أشارَ إلى ذمِّ التظاهر بذلك وفتح باب التسليك به الشيخ عبد الوهاب الشعراني. وقال: إن ترك العارفين فتحَ هذا الباب في هذا الزمان هو الصوابُ، فلا يفتحه الآن إلا من أعمى الله بصيرته من هؤلاء المدعين للمراتب المتنازعين عليها، وكيف يتوهَّم وجود منع التربية في الطريق مع ما نقل صريحاً عن الشيخ ﷺ في وصف هذه الطائفة المخصوصة، ومع ما ذكره في «الجامع» عنه ﷺ. ونصّ المراد منه سمعته يوماً يقول: إذا فتحَ الله على أصحابي فالذي يجلس منهم في البلد الذي أنا فيه يخافُ على نفسِه من الهلاك، فقال له بعض أصحابه: منك أو من الله؟ فأجابه بقوله: من الله تعالى من غير اختيارٍ مني، ذكر هذا في يوم الأحد الثاني من شهر الله شعبان عام خمسة ومائتين وألف.

ثم قال في يوم الاثنين: الخوفُ المذكور هو على من أذن له من أصحابي في التصرُّف والتربية للخلق، وأما غيرُه فلا خوفَ عليه من جانبي اهـ المراد منه هنا بلفظه، وهو صريحٌ فيما ذكرناه.

قلت: وكنا نرى أن خروج الخليفة المعظَّم سيدنا علي حرازم ﷺ من فاس وتوجهه إلى الحجاز إلى أن توفي هنالك من أجل هذا الذي ذكر هنا. والقرائن الشاهدة لذلك كثيرة: منها ما بلغنا عنه من أن الشيخ ﷺ أمره إذا وصل إلى مصر بتربية بعض من كان بها إذ ذاك من أصحابه إلى غير ذلك مما يطول جلبه.

وقريب من هذا أيضاً خروجُ مؤلف «الجامع» العلامة القدوة البركة سيدي محمد بن المشدي ﷺ من فاس إلى الصحراء إلى أن توفي بها كذلك أيضاً، وهو أنسب بحاله وبمقام الشيخ ﷺ مما يجعله بعض الأصحاب سبباً لخروجه وسفره عن الشيخ ﷺ وإنْ ثبتَ شيء من ذلك الذي يُشاع بين الإخوان اليومَ فهو من الأسباب الظاهرة التي هي من جملة ما يستر الله به على أوليائه مقاماتهم وأحوالهم معه سبحانه، والكفّ عن متابعة من يشيع ذلك من آكد ما ينبّه عليه الإخوانُ بعضهم بعضاً، لتخلص لهم المحبةُ في الخواصِّ من أصحاب سيدنا ﷺ الذي لا يبعد أن يكونوا من هذه الطائفة المخصوصة بما ذكره

الشيخ ﷺ من الفضيلة الباهرة والمكانة الفاخرة، إذ لا أقل من أن يُحْرَمَ بركة الاعتقاد الجميل فيهم من ينصتُ إلى شيءٍ مما يشيرُ إلى تنقيصهم، ومن حُرِمِ بركة الاعتقاد الجميل في مثل هؤلاء حرِمَ الخيرَ الكثير إن سلم له ما معه، أعاذنا الله تعالى من بلائه بمنّه.

وسافر عن الشيخ ﷺ ممن كان حريصاً على مجاورته والمقام لديه رجالٌ آخرون يغلب على الظن أنهم إنما سافروا عنه ﷺ من أجل ما ذكر، ولعلّنا ننبِّه على هذا عند التعرُّض لذكر من نذكره منهم فيما سيأتي للناظم إن شاء الله تعالى وإنَّما آثرْنا ذكرَ ما هو الحق إن شاء الله تعالى في مسألة التربية هنا لما أفضى به منع المانعين لها في الطريق بناءً على ما توهَّموه فقط من قيام بعض الناس على أصحابنا في هذا، وقولهم لهم: إن طريقكم ليس فيها تربيةٌ ولا إمام يُقتدى به فيها، حتى دخلَ التشويشُ على بعض الأصحاب من أجل ذلك، وزاده تشويشاً وحيرةً كون سيدنا ﷺ ذكر حسبما في «جواهر المعاني» وغيره أن الفتحَ والوصول لا يجري إلا على يدِ الأولياء الأحياء إلخ، فلو اهتدى إلى أن التربية غيرُ موجودة في طريقنا إلا بوصْفِها الأكمل الذي هو حصول الإذن من الله ورسوله أن بالإذن الصحيح من الشيخ ولو بالوسائط في الدلالة والإرشاد لما دَخَل عليه ما ذكر من التشويش والحيرة. وقد قيدنا في هذه المسألة ما تيسَّر مما يكفي إن شاء الله تعالى ويشفي لمن سألنا عن ذلك.

ومحصِّل هذه المسألة أن أهلَ هذه الطريقة المحمدية يوجد في أفرادها من يفتح له في التربية بها أي بتلقين وِرْدها وجميعِ أذكارها بالشروط المشروطة والكيفيات المضبوطة بحيث لا يخرجُ عما حدَّه الشيخ في ذلك مما تلقَّاه عن النبي ﷺ، وذلك لأنها طريقٌ محمدية أعطاها النبيّ ﷺ للشيخ منه إليه وضمِن لأهلها ما ضمِنَه من الأسرار والخيرات والبركات، ولا سبيل إلى الخروج عما أعطاه النبي ﷺ وترتَّب ضمانُه عليه، فافهم ذلك.

وفي هذا القدر الذي نبهنا عليه من ذلك كفايةٌ، والله ولي التوفيق والهداية.

(تنبيه) ما ذكر من أن هذه الطائفة المخصوصة من أهل هذه الطريقة المباركة مشتملة على الإنس والجن ذكر الجن هنا يستدعي التنبيه على طرف مما هو معتقد أهل السنة في الجان وأحواله وما يدور على ذلك من الأحكام فنقول:

اختلف في وجود الجن قديماً وحديثاً:

(القول الأول) أكثر الفلاسفة على إنكار وجودهم، والجمهورُ من أرباب الملل والمصدقين للأنبياء عليهم السلام على إثبات وجودهم، وهو معتَقَدُ أهل السنة رضوان الله

عليهم، ثم اختلف المثبتون لوجودهم أيضاً على قولين، فمنهم من زعم أنها ليست أجساماً ولا حالة في الأجسام وإنما هي جواهر قائمةٌ بأنفسها، ثم هي عندهم مختلفة بالماهية كاختلاف ماهية الأعراض بعد استوائها في الحاجة إلى المحلّ، فبعضها خيِّرة وبعضها شريرة وبعضُها كريمة محبة للخيرات، وبعضها دنيئة خسيسة مُحِبة للشرور والآفات. قالوا: ولا يعلم عدد أنواعهم وأصنافهم إلا الله تعالى.

(والقول الثاني) في الجن أنهم أجسام. واختلف هؤلاء أيضاً على قولين: فقيل: إن الأقسام مختلفة في ماهيتها. والقول الثاني: أنها متساوية في تمام الماهية، ثم هؤلاء القائلون بهذا القول الثاني فرقتان: الأولى: قائلةٌ بأن البنية ليست شرطاً في الحياة، وهو قول الإمام الأشعري وجمهور أتباعه وأدلّتهم في هذا الباب ظاهرة قوية. والثانية: قائلة بأن البنية شرطٌ في الحياة وهو مذهبُ المعتزلة، ولا دليلَ لهم عليه إلا الاستقراء، وهو إنَّما يتمشَّى على مذهبهم من إنكار وجود خرْقِ العادة واستقراؤهم في ذلك ركيكٌ، ومذهبُهم فاسدٌ حسبما أوضح المحققون من أهل السنة ذلك.

وإذا ثبت كما عليه الأشعرية أن البنية ليست شرطاً للحياة لم يبعدْ أن يخلق الله تعالى في الجوهر الفرد علماً بأمور كثيرة وقدرة على أشياء شاقة شديدة، فبان من مجموع هذا صحة القول بإمكان وجود الجنّ سواء كانت أجسامُهم لطيفةً أو كثيفة، وسواء كانت أجرامهم كبيرة أو صغيرة اهـ ملخص ما في هذا المبحث على طريقة المتكلمين. وقد دلَّ القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصّلت: الآية 42] على وجود الجنّ، ويكفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الجن: الآية 1] الآية. قال الرازي: هو أمرٌ منه تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام أن يظهر لأصحابه ما أوحى إليه في واقعة الجن.

وفيه فوائد: (إحداها) أن يعرفوا أنه بُعِث إليهم كما بعث إلى الإنس (الثانية) أن يعلموا أنهم مع تمرُّدهم لما عرفوا إعجاز القرآن آمنوا (الثالثة) أن يعلم أنَّهم يسمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا (الرابعة) أن يعلم أنهم مكلَّفون كالإنس (الخامسة) أن يظهر أن الموفق منهم يدعو غيرَه إلى الإيمان. قال الرازي: وفي هذه الوجوه مصالح كثيرةٌ إذا عرفها الناس اهـ. فبان من كون النبي ﷺ مبعوثاً إليهم وأنهم مكلَّفون وأن الموفق منهم يدعو غيره إلى الله وأن لهم الثواب وعليهم العقاب وأنهم يصحّ الاقتداء بمن تأهَّل له منهم وقد روى أصبغ عن ابن القاسم رضي الله عنهما أن الجنّ الثوابُ والعقابُ، وتلا ـ أعني ابن القاسم ـ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ [الجن: الآية 14] الآية. قال ابن رشد: استدلالُ ابن القاسم صحيح بلا إشكال، بل هو

نصٌ جليّ في ذلك، ففي الجن مسلمون ويهود ونصارى ومجوس وعبدةُ أوثان، وقالوا في قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: الآية 11] أي مختلفين في الكفر. والإجماعُ على تعذيبِ الكفار منهم لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [هُود: الآية 119] الآية.

واختلفَ في دخولهم الجنَّة، قال صاحب «أحكام الجان»: وهل يدخلُ المؤمنون منهم الجنَّة؟ أكثرُ العلماءِ على ذلك، والمأثورُ عن مالك والشافعي رضي الله عنهما: لا يدخلون، وإنَّما يدخلون رياضًها بحيث يراهم المؤمنون من الجنَّة ولا يراهم الجنّ.

واختلف أيضاً على القول بالدخول هل يرون الله أم لا؟ قال عز الدين بن عبد السلام: لا يرونه، إذ الرؤية لمخصوصة بالبشر، فهذا بعضُ ما ينبىءُ عن تكليفهم وكون النبي عليه الصلاة والسلام مبعوثاً إليهم بذلك وعلى صحة الاقتداء بهم! فلو فرضنا جنياً مسلماً هل تصحُّ الصلاة خلفَه أم لا؟

قال صاحب «أحكام الجان»: تصحُّ لأن الرسالة لنا ولهم اهـ، وهو الذي صرَّح به الرَّازي في الوجوه السابقة، وإذا صحَّ الاقتداء به في الصلاة، فكذلك يصحُّ جعله قدوةً في الطريق كما يصحُّ اقتداؤه بالإنس وأخذه عنه وهو من المعروف المشهور عند أهل الطريق، نعم لم ينقل لنا عن أحدٍ من أهل الطريق أنه شيخٌ جنياً[1] في الطريق إلا ما في بعض طرق المسلسل بالمصافحة، وكذلك تلقي بعض العارفين لبعض الأسرار الخاصَّة من خاصَّتهم كتلقي سيدي علي حرازم تلميذ سيدنا ﷺ للحزب السيفي وغيره من الأسرار مشافهةً من القاضي أبي محمد شمهورش الصحابي المعروف ﷺ، وذلك بإذن من سيدنا ﷺ كما هو معروف عند الأصحاب وكأخذ الشيخ أبي العباس سيدي أحمد ابن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي رضي الله عنهما فاتحة الكتاب بالقراءة الورشية متصلة ميم البسملة بالحمد لله رب العالمين عن عبد المؤمن الجني الصحابي ﷺ لما لقيه ببدرٍ حين حج عن رسول الله ﷺ حسبما وقفنا عليه في أسانيد بعض العلماء، وما وَقَع لسيدي علي حرازم أدْخَلُ وأوجَهُ في التمثيل به في هذا المقام، وهذا بالنسبة لنا معهم، وأما مع بعضهم بعضاً فمقتضى ما تقدَّم أنه يشيخ بعضُهم بعضاً ولا إشكال، والله تعالى أعلم.

(تتمة) قد ذكر الشيخ محيي الدِّين رحمه الله تعالى في الباب الحادي والخمسين من فتوحاته المكية ما يرشد إلى أن الهربَ من صحبة الجنِّ وترك مجالستهم أولى بالعاقلِ، وأن الإيثار لمجالستهم جهلٌ قائلاً: فإن مجالستهم رديئةٌ جدًّا، قلَّ أن تنتجَ خيراً، لأن أصلهم

(1) كذا بالأصل، ولعل الصواب «أن شيخه رأى جنياً» إلخ.

نارٌ والنار كثيرةُ الحركة، ومن كثرتْ حركتُه كان الفضولُ أسرعَ إليه، ثم قال بعد كلام في بيان ما ذكره، ونصّه: وما جالس الجنَّ أحدٌ فحصَلَ عنده علم بالله جملةً واحدةً لأنهم أجهلُ العالم الطبيعي بالله تعالى، ويتخيل جليسُهم بما يخبرونه به من حوادث الأكوان وما يجري في العالم مما يحصلُ لهم من استراق السمع من الملأ الأعلى، فيظن أن ذلك من كرامة الله بهم وهيهات ما ظنوا، وغايةُ الرجل الذي تعتني به أرواح الجن أن يمنحوه من علم خواصِّ النبات والأحجار والأسماء والحروف وهو علم السيمياء، فلا يكتسب هذا منهم إلا العلم الذي رَمَتْه ألسِنَةُ الشرائع وأطالَ في ذلك، ثم قال ﷺ: ومن دواعي صحبتهم وهو صادقٌ في دعواه فاسألُوه عن مسألةٍ في العلم الإلَهي فما تجدوا عندَه من ذلك ذوقاً أصلاً، فرجالُ الله يفرُّون من صحبة الجِنّ. وقد أخبرت بأن صحبتَهم تورِثُ التكبُّرَ على الناس. ومن تكبَّر على الناس مَقَته الله تعالى من حيث لا يشعرُ، فنسألُ الله العافية اهـ.

ثم قال النَّاظم رحمه الله تعالى وقدَّس سرَّه:

(وَمَا بِزاوِيَتِهِ يُصلَّى قَطْعاً يَكُونَ لِلقَبولِ أَهْلا)

(الزاوية) المراد بها هنا: زاويته التي بها مَدْفَنه، وهي المعروفة بفاس؛ والمراد بـ**(الصلاة)** هنا: الفرض والنفل.

يقول: ومن هذا الذي قصدت ذكره هنا من كرامات سيدنا ﷺ التي شاعتْ عند المعتقد على رغم أنفِ المنتقد ما تواتر الخبرُ به عنه ﷺ وأرضاه من أن الصلاة بزاويته المباركة مقبولةٌ قطعاً بفضل الله. وهذه الكرامة أيضاً من جملة ما يذكره المشايخ الكبارُ لمن تعلَّق بهم من الصادقين الأبرار على طريق الرجاء في فضل الله تعالى الذي لا يحدُّ بقياس ولا يتعدَّد بمقدار، لئلا يفوتَ الراغبين في كرم الله هذا الفضلُ العظيم إن حققه الله، وليس في هذا ومثله مما يصدرُ من كمل أهلِ الله ما يوجب استغناء عن العلم والعمل ولا أمناً من مكر الله، فالتكليف باق بحاله والخوف والرجاء بحالهما كذلك، وإن شذَّ جاهلٌ فاغترَّ أو أمِنَ فلا التفاتَ له ولا لأشكاله، وإذا كان من المشايخ من يبلغ من كرامة الله إياه إلى أن يأخذ عهداً من الله تعالى أن لا يسوق إليه إلا المقبول في سابق علم الله كما ذكره الشيخ أبو علي اليوسي ﷺ عن شيخ سلسلتهم الشيخ أبي القاسم الغازي ﷺ، فكيف يبعد أن يكرمُ شيخنا ﷺ بأن لا يهتدي للصلاة في زاويته إلا من كانت صلاتُه مقبولةً في سابق علم الله، وهل عدمُ التسليم لذلك إلا محض مكابرة وجحود لفضل الله، وأيضاً إن من المعلوم المقرَّر بين الخواص والعوام أن بقاع الأرض تكتسب الشرف بسبب من يحلُّها من أهل

الخير والصلاح، ومنها ما يختصُّ بخصائص عظيمة ومزايا جسيمة بسبب من يتعبَّد لله تعالى بها من أهل القرب والرشد والفلاح. ومن هنا كان مذهب المحققين من أهل الطريق أن لا تدخل محال تعبدات العارفين الكمل إلا على طهارة كاملة.

وذكروا أن رجلاً دخل خلوة الشيخ أبي يزيد البسطامي وهو جنبٌ فاحترق. وقد وردَ أن بقاع الأرض يفتخرُ بعضُها على بعض بمرور الرجل الصالح عليها وصلاته بها ونحو ذلك، وفي هذا كله تحقيق ما أشرنا إليه من أن الخصائص والمزايا تسري إلى البقاع ممن يحل بها ويتعبد لله فيها.

وإذا تقرَّر أن شرفَ الأمكنة ليس لذاتها وإنَّما هو لما يُودِعه الله فيها بسبب من يحلُّ بها من الأنبياء والأولياء، فأي شيء يستبعدُ في أن يكرم الله تعالى هذا الشيخ الجليلَ القدر عنده بأن يجعلَ زاويته التي هي مصلاَّه ومحل توجُّهه إلى الله ومَظَنةٌ لحضور روحانية سيد الوجود بها الذي هو أشرفُ خلْقِ الله لأنه كما تقدَّم كان لا يغيبُ طرفة عينٍ عن مرآه ﷺ أهلاً لأن تتلقى أعمال العاملين بها من القبول من أجل ما أودعَ فيها من السرِّ الأعظم بسبب ما حصلَ لها من التخصيص والتكريم من أجل هذا القطب الأكرم، ورُبَّ حسنة تفوت ألف حسنة مثلاً لما حفَّت به من الأوصاف الجميلة والخيرات الجزيلة كهذه الصلاة التي يصليها المصدِّق لما أخبر به هذا السيد الجليل من فضل الله تعالى بحضور قلب وسكون وتُؤدَةٍ مع جماعة من فضلاء أصحاب الشيخ، فتسري بركتُهم إليه وتشرقُ أنوارُهم عليه، لأن من تحقَّق بحالةٍ لم يخلُ حاضروه منها.

وقد وَرَد: «من صلَّى مع مغفورٍ غفر له» وإذا حفَّت الصلاة بهذه الأوصاف الجميلة والنعوت الجليلة مع ما سرى إليها من فضيلة البقعة وبركة منشئها وسرّ الإذن في الصلاة بها وغير ذلك مما فاقت به غيرها بأضعاف مضاعفة، فلا يبعدُ أن ترتقي في الفضل إلى درجة القبول بفضل الله تعالى.

وقد أجيبَ بمثل هذا عن بعض العارفين كان يصلِّي بمسجد شيخه من المدينة المنورة ولا يأتي الحرَم الشريف مع ما في الصلاة فيه من الفضل العظيم والسرِّ المنيف، وذلك لأن شيخه، وكان قطب زمانه إذ ذاك، أمَرَه بالصلاة في مسجدِه، وقال له: إنا لنرجو من الله أن يحصلَ لك من الثواب مثل ما يحصلُ لمن صلى في الحرم الشريف، ومعلومٌ أن الصلاة فيه بألف صلاة في غيره، فإخبار هذا الشيخ بأن الصلاة في مسجده يرجى فيه ما يرجى في الصلاة في مسجده ﷺ من قبيل ما أخبرَ به سيدنا ﷺ من الفضيلة في الصلاة بزاويته.

وقد أجيبَ عن الشيخ المذكور بمثل ما أوجبنا به، بل منه اقتطفنا جُلَّ ما قيَّدْناه في الجواب هنا وفيه أن مثلَ هذا لا يقتضي مشاركةً ولا مساواة للمسجد النبوي الشريف، يريد: لأنه مزية فقط، كذلك نقول نحن أيضاً في هذه الكرامة: إنها لا تقتضي تفضيلَ الزاوية المباركة على غيرها من المساجد التي ورد النص بتفضيلها، وثبت الدليلُ به لأنها مزية فقط، ومعلوم أن المزية لا تقتضي التفضيل، والله أعلم.

وما ذكرناه من الخصوصيات للصلاة في الزاوية المباركة وقلنا: إنه يمكن أن يكون هو السبب في اختصاصها بهذه الفضيلة هو بحسب التقريب للأفهام، والذريعة إلى التوصُّل لإفحام الخصْمِ المجادل في هذا المقام، وإلا فنحن نعتقد أن هنالك خصوصيةً مخزونة وفضيلة سَنية مكنونة لم يفشَ كُنْهُ حقيقتها لنا، وهي التي قال من أجلها سيدنا ﷺ: لو علم الأقطابُ ما في الزاوية من الفضل لضَرَبُوا عليها خيامهم اهـ. ولم يُبْدِ ﷺ كنْهَ ذلك الفضل لأحدٍ فيما بلغنا، فلم يبقَ إلا الرجوع إلى قول الشعراني المتقدِّم: «من كان يخبر عما يشاهد» إلخ. وفي هذا القدر كفاية، والله تعالى المسؤول بجاه أحبِّ الخلق إليه وأكرمهم وأحظاهم لديه سيدنا ومولانا محمد حبيبه من بريته ومصطفاه من خليقته، أن يقسم لنا من التمتُّع بالمثول بهذه الزاوية المباركة والصلاة بها أوفرَ حظٍّ ونصيب في عافية شاملة ونِعَمٍ كاملة، إنه ولي ذلك والقادرُ عليه آمين آمين آمين، والحمد لله ربّ العالمين.

ثم قال النَّاظم ﷺ تعالى:

(وكَمْ خَصائِصٌ لِلاسمِ الأعظَمِ لِغَيرِ شَيخِنا الرّضِي لَمْ تُعلمِ)

(الخصائص) الخصوصيات، والمراد هنا: الفضائل والأسرار التي اختصَّ بها هذا الاسم العظيم المقدار. و(الاسم الأعظم) عند العارفين المحققين: هو الاسم المخزون المكنون الذي إذا دُعي الله به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، كما وَرَد، قالوا: وهو اسم الذات المقدسة جلَّ وعلا الذي ليس للذات غيره. وقوله: (لم تعلم) معناه لم يُنقَلْ مثلُها عن أحد غير الشيخ ﷺ.

ويقول: ومن كرامات هذا الشيخ الجليل التي هي على بلوغه أقصى درجات الكمال أكبر شاهدٍ ودليلٍ كثرة ما ذكره ﷺ للاسم الأعظم من الفضائل والخصائص والأسرار مما لم ينقل مثلُه عن أحد من الكبار.

وقد نصَّ الشيخ جلال الدين السيوطي ﷺ في تأليفه الذي سماه «الدرّ المنظم في الاسم الأعظم» وكذا الشعراني ﷺ في «لطائف المنن والأخلاق» وغيرهما من الشيوخ ﷺ أجمعين أنه قد اختُلِف في هذا الاسم اختلافاً كثيراً، فقيل: إنه لا وجود له، بمعنى أن أسماء الله تعالى

كلها عظيمة لا يجوز تفضيلُ بعضها على بعض. قال الشيخ جلال الدين وسيدي محمد بن محمد البكري الصديقي في كتابه «لوامع الأسرار» في الكلام عليه ما نصّه. وذهبت شرذمةٌ إلى أنه لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض، لأن الموصوف واحد. قال: ومن جملة من اختار ذلك أبو جعفر الطبري وأبو الحسن الأشعري وابن حبان والقاضي أبو بكر الباقلاني. قال: ونحوه قول مالك وطائفة: لا يجوز تفضيل بعض القرآن على بعض، وحمل هؤلاء ما وَرَد من ذكر الاسم الأعظم على أن المراد به العظيم اهـ. ومثله حكاه السيوطي ﷺ في كتابه المذكور، ثم قال: وعبارة الطبري[1]: اختلفت الآثار في تبيين الاسم الأعظم على أن المراد به: العظيم اهـ. ومثله حكاه السيوطي ﷺ في كتابه المذكور ثم قال: وعبارة الطبري: اختلفت الآثار في تبيين الاسم الأعظم، والذي عندي أن الأقوال كلّها صحيحة، ولم يرِدْ في خبر منها أنه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه، فكأنه يقول كل اسمٍ من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم، فيرجع إلى معنى عظيم. ثم قال السيوطي رحمه الله تعالى: وقال ابن حبان الأعظمِيَّةُ الواردة في الأخبار المراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك كما أُطلق ذلك في القرآن، والمراد به مزيد ثواب القارىء اهـ ما ذكره السيوطي رحمه الله تعالى.

وقال الشيخ البكري عقِبَ حكايته ما تقدَّم: وقوله: «وحمل هؤلاء» إلخ ما نصّه: وهذا لا يتمُّ لهم، فإنه لا مانع أن تختلفَ الدوالُّ على الله تعالى بحسب وضعها، وهذا بديهي أو في حكمه. ثم قال: ولما تعدَّدت الصفات الإلٓهية وتفاوتت نظراً إلى صفة الذات وصفات الأفعال، ولهما من نسب الكمال ولم يوهم ذلك تعدُّد الموصوف فضلاً عن اقتضائه، وثبت تفضيل بعض القرآن على بعض، وثبت إطلاق الأعظم في الأسماء الإلٓهية، ولم نجد أدنى مخرج إلى صرف الكلام عن ظاهره تعيَّنَ الجزمُ بقول الجمهور وهو إثبات الاسم الأعظم في حقيقته والمتبادر من إطلاقه اهـ الغرض منه هنا. وقيل وهو قول الجمهور حسبما سبق التصريح به في قول الشيخ البكري ﷺ: إنه موجودٌ ثابت وجودُه بالأخبار المروية وإن إطلاق الأعظم في جميعها إنما هو على حقيقته والمتبادر منه، وأن أسماء الله تعالى بعضها أعظمُ من بعض.

---

(1) الطبري: محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، المؤرخ المفسر الإمام، ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها، وعرض عليه القضاء فامتنع. له «أخبار الرسل والملوك» يعرف بتاريخ الطبري، و«جامع البيان في تفسير القرآن» ويعرف بتفسير الطبري وغيرهما. مات سنة (310هـ).
انظر إرشاد الأريب: 6/ 423، وتذكرة الحفاظ: 2/ 351، والوفيات: 1/ 456، وطبقات السبكي؛ 2/ 135، والنهاية: 11/ 145.

حكى الشيخ البكري إجماع أكثر العلماء عليه، ثم اختلف بعد في تعيينه على أقوال عديدة، قال بعضهم نحو الأربعين قولاً، ذكر جلَّها السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه المذكور، وكذا الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني في منته رضي الله عنه. منها: أنه مما استأثرَ الله به ولم يطَّلع عليه أحدٌ من خلْقِه كما قيل بذلك في ليلة القدر وساعة الجمعة والصلاة الوسطى. ومنها: أنه «الله» لأنه لا يطلَقُ على غيره سبحانه، ولأنه أصلٌ في الأسماء الحسنى، ومن ثم أضيفت إليه اهـ. وسنذكر ما للشيخ رضي الله عنه فيه. ومنها: أنه «هو» قال السيوطي: نقله الفخر الرازي عن بعض أهل الكشف، واحتجّ له بأن من أراد مخاطبة معظم بحضرته لا يخاطبه إلا بضمير الغيبة تأدُّباً معه. ومنها: أنه «بسم الله الرحمٰن الرحيم» لما أخرجه الحاكم في المستدرك وصحَّحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن عثمان بن عفّان رضي الله عنه سأل النبيّ ﷺ عن بسم الله الرحمٰن الرحيم فقال: «**هو اسمٌ من أسماء الله تعالى، وما بينه وبين الاسْمِ الأكْبَرِ إلاّ كما بين سَوَادِ العَيْنِ وبَياضِها مِنَ القُرْبِ**». ومنها: أنه «الحيُّ القيُّوم» ونقل السيوطي رحمه الله تعالى تقويته عن الفخر الرَّازي قائلاً، يعني الفخر: لأنهما يدلاَّن من صفة عظمة الربوبية ما لا يدلُّ على ذلك غيرُهما كدلالتهما. ومنها: أنه «الحنان المنان بديع السَّمٰوات والأرض ذو الجلال والإكرام» لحديث أنس رضي الله عنه: أنه كان جالساً مع رسول الله ﷺ ورجلٌ يصلِّي ثم دعا: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّ لك الحمْد لا إلَه إلاّ أنت الحنَّان المنَّان بديع السمٰوات والأرض ذو الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه العَظيمِ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أجابَ، وإذا سُئِلَ بِهِ أعْطَى**»[1]. ومنها أنه: «يا ذا الجلالِ والإكرام» لما وَرَد: أنه ﷺ سمع رجلاً يقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: «**قد اسْتُجِيبَ لكَ فَسَلْ**».

ونقل السيوطي رحمه الله تعالى عن الإمام الفخر رحمه الله تعالى أنه احتجَّ له بأنه يشمل جميعَ الصفات المعتبرة في الألوهية، لأن في الجلال إشارةً لجميع السلوب، وفي الإكرام إشارة لجميع الإضافات. ومنها: أنه «اللهمَّ إنِّي أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إلَه إلاّ أنت الأحدُ الصَّمَد الذي لم يلدْ ولم يولدْ ولم يكن له كفواً أحد» لما وَرَد عن أبي هريرة: أنه ﷺ سمع رجلاً يقولُ ذلك فقال: «**لقد سألْت الله بالاسم الذي إذا سُئِل به أعطى وإذا دُعِي به أجابَ**» وفي لفظ: «**لقد سَألَ الله باسمِه الأعظم**» قال الحافظ ابن حجر: وهو أرجحُ من حيث السند من جميع ما وَرَد في ذلك اهـ نقله السيوطي رحمه الله تعالى.

---

(1) رواه أبو داود في (الوتر: 23، 25)، والترمذي في (الدعوات: 63)، والنسائي في (السهو: 58)، والدارمي في (فضائل القرآن: 15).

ومنها: أنه «ربِّ رب» لما أخرجه الحاكم عن أبي الدَّرداء وابن عباس رضي الله عنهما قال: «اسم الله الأكبر ربّ رب». وعن مولاتنا عائشة ﵂: «إذا قالَ العبدُ يا ربِّ يا رب قال الله تعالى: لبَّيك عبدي سَلْ تُعْطَ» ومنها: أنه في هذه الآية من آل عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عِمرَان: الآية 26] إلى قوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عِمرَان: الآية 27] . ومنها: أنه «دعوة ذي النون» ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية 87] . ومنها: أنه «اللّهمَّ» نَقلَه السيوطي ﵀ تعالى عن الزركشي ﵁، ومعناه عند بعضهم أن الميم من علاماتِ الجمع، فزيدَتْ هنا لتشعِرَ بأن هذا الاسم اجتمعت فيه أسماءُ الله كلُّها، قال ابن السيد: ولهذا ذهبَ من ذهب إلى أنه اسم الله الأعظم اهـ إلى غير ذلك مما ذكروه في تعيينه.

وقد صرَّح الشيخ عبد الوهاب الشعراني ﵁ أن جملة الأقوال فيه لا تفيدُ الجزمَ بمعرفته. وقال جعفر الصادق والجنيد رضي الله عنهما: كلُّ اسمٍ من أسماء الله تعالى دعا به العبدُ ربَّه مستغرِقاً بحيث لا يكون في فكره حينئذٍ غير الله تعالى فإن من تأتّى له ذلك استجيب له اهـ نقله السيوطي ﵀ تعالى: وحكي نحوه عن الشيخ أبي يزيد البسطامي ﵁ جواباً لمن سأله عنه، والظاهر أن مثلَ هذا مما يجيب به أمثال الشيخ أبي يزيد ﵁، إنَّما هو بحسب أحوال السائلين، وإلا فبعيد خفاء الاسم الأكبر الذي هو متعارَفٌ بين العارفين بالله تعالى عن أمثالهم، فافهم والله تعالى أعلم.

وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنهما يفيد بالتصريح أنه، أعني الاسم الأعظم، غير ما دلَّت عليه جملة الأقوال المتقدِّمة وأنه خاصٌّ بالخواصِّ ولا يدرَكُ إلا من طريق الكشف.

ونصَّ كلامه ﵁ فيه: مما مَنَّ الله تعالى به على معرفتي باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، ولكن لا أعلمه لكلِّ الناس إلا إن وثِقْتُ بدينه وبخوفه من الله تعالى وشفقته على خلقه، فإنِّي أخاف أن يدعو به على من لم يستحقَّ الدعاء فيهلك، قال: ولولا أن غيري من الفقراء سبقني إلى كتمانه لذكرتُه لك معيناً في هذا الكتاب، ثم قال: ولا بأسَ بذكر جملةٍ من الأقوال في تعيينه وإن كانت لا تفيد الجزم بمعرفته، وذكر بعضَ الأقوال المتقدمة ثم قال ﵁ في آخر كلامه ما نصّه: وبالجملةِ فلا يطَّلع عليه أحدٌ إلا من طريقِ الكشف، والحمدُ لله وحده اهـ. وقوله: «ولولا أن غيري من الفقراء سبقني إلى كتمانه» إلخ يشيرُ إلى أنَّهم متَّفقون على كتمانه.

وقد نصَّ الشيخ سيدي محمد البكري على ذلك، وذكر أنهم من شدَّة غيرتهم عليه

يقطعونَ حروفه إذا كتبوه ويدخلونَ معها غيرها، أو يوقِعُون حروفَه على غيرِ صورتها بأن يجعلوا مكان كلِّ حرفٍ منها غيره من الحروف على طريقٍ لا يفهمُها من عداهم ممن يقف عليه، يفعلون ذلك كلَّه إيثاراً لكَتْم سرِّه الأعظم، مكتفين بنيَّاتهم في كلماتهم وكتابتهم.

ونصَّ أيضاً ﷺ أنهم يتعارفون فيما بينهم رموزاً تدلُّ عليه وإشارات قدسية تومىء إليه، وبهذا تعرف أنه غيرُ ما أشارت إليه الأقوالُ السابقة، نعم يصحُّ أن يكون فيما استدلُّوا له بها من الآثار الثابتة بعض الإشارة إليه أو الدلالة ببعض الاعتبارات عليه، والله أعلم. وقد ذكر فيه صاحب «الذهب الإبريز» عن شيخه القطب سيدي عبد العزيز رضي الله عنهما يؤيِّد ما ذكرناه، فليراجع كلامه فيه من أراد ذلك.

وأما سيدنا ﷺ فلَهُ من الكلام الدالّ على كمال معرفته به وبجميع تراكيبه وكيفياتها وما اختصَّ به كلّ تركيب منها من الفضيلة وغير ذلك مما يتعلَّق به مما يبهر العقول ويعجز عن تفصيله المقول.

وقد صرَّح ﷺ بأنه تلقَّى جميعَ ذلك من حضرة سيد الوجود ﷺ يقظةً لا مناماً، وكلامُه ﷺ صريحٌ في أنه غير ما أشارت إليه الأقوال السابقة وأنه غير الأسماء الحسنى أيضاً.

قال في «جواهر المعاني» أثناء ما ذكره عن سيدنا الشيخ ﷺ من الكلام في هذا الاسم الأعظم ما نصّه: وقال ﷺ: إن الاسم الأعظم هو الخاصُّ بالذات لا غيره وهو اسم الإحاطة ولا يتحقَّق بجميع ما فيه إلا واحدٌ في الدهر وهو الفرد الجامع. ثم قال ﷺ: هذا هو الاسم الباطن، وأما الاسم الأعظم الظاهر: فهو اسم المرتبة الجامع لمرتبة الألوهية من أوصاف الإلّه ومألوهاته وتحيَّته مرتبة أسماء التشتيت ومن هذه الأسماء فيوضُ الأولياء، فمن تحقَّق بوصفٍ كان فيضُه بحسب ذلك الاسم، ومن أجل هذا كانت مقاماتُهم مختلفةً وأحوالُهم كذلك وجميع فيوض المرتبة بعضٌ من فيوض اسم الذات الأكبر اهـ بلفظه ﷺ.

فأفاد ﷺ أنهما اسمان أعظمان: الاسم الأعظمُ الظاهر وهو «الله» جلَّ وعلا إذ هو عينُ المرتبة التي هي الألوهية، كما صرَّح بذلك المحققون والاسم الأعظم الباطن وهو الاسم المخزون المكنون الذي لعزَّته كما قاله العارف بالله البكري[1] أخفاه الله تعالى في

(1) ليست هذه النسبة «البكري» قاصرة على سلالة أبي بكر الصديق كما قد يتوهم بعض الناس، وإنما هي=

أسمائه الحسنى وضمَّنه كتبه المنزلة على الوجْهِ الأجلِّ الأسنى، ولم يطلع عليه إلا أفذاذ أفراد في الأزمنة المتطاولة اهـ ملخصاً؛ وهذا هو الاسم الأعظم المتكلّم فيه هنا، وهو غير الأسماء الحسنى. وقول البكري ﷺ أخفاه الله في أسمائه الحسنى مراده أن الأسماء الحسنى متضمّنه لحروفه التي يتركب منها ومشتملةٌ عليها، فافهم والله تعالى أعلم.

وقد أفاد في «جواهر المعاني» فيما ذكره عن سيدنا الشيخ ﷺ مما تلقاه من حضرة سيد الوجود ﷺ أن لهذا الاسم الأعظم صِيَغاً متعددة بتعدُّد تراكيب حروفه واختلافها في الترتيب وأن هذه الصيغ تتفاوتُ في الفضل بمعنى أنه يثاب على ذكر بعضِها أكثرَ مما يثابُ على غيره من الصيغ بأضعافٍ كثيرة، وأن أعظم الصيغ فضلاً هي الصيغةُ الخاصَّة بمقامه ﷺ.

وأخبرَ ﷺ أنه تلقى من الحضرةِ المحمدية ﷺ صيغاً عديدة في هذا الاسم، وأنه تلقَّى منها أيضاً كيفيةً يستخرج بها ما أحبَّ من تراكيبه. ثم أخبر ﷺ أنه تلقَّى من الحضرة المصطفوية أيضاً عليه أزكى الصلاة والسلام الصيغة الخاصة بمقامه ﷺ وكذا الصيغة الخاصة بمقام مولانا علي كرم الله وجهه، وهذه الصيغة الخاصة بمقام مولانا علي ﷺ لا يعثرُ عليها إلا من سَبَق عند الله تعالى في الأزل أنه يصيرُ قطباً. وأخبر ﷺ أنه تلقَّى من الحضرة الشريفة أيضاً صلوات الله وسلامه عليه خواصَّ هذا الاسم وكيفية الدعاء به وكيفية سلوكه، كما تلقى منه أيضاً ﷺ ما أعدَّ الله تعالى لذاكره من الفضل العظيم الذي لا حدَّ له ولا حصر.

وذكر في «جواهر المعاني» من تفاصيل ذلك الفضل العظيم الذي أعطيه سيدنا ﷺ خصوصاً والذي أعطيه غيره من الذاكرين له عموماً على اختلاف مراتبهم وتباين استعداداتهم ما يحيِّر الأذهان ويعجزُ عن تقريره التبيان، فليطالعه من أراده في «جواهر المعاني» بمحلِّه ليتعرَّف منه ما خصَّ الله به خواصّ أوليائه من كراماته وفضله. ثم قال في «الجواهر» بعد ذكره الفضل العظيم الخاصّ ما نصّه: وقال ﷺ: إن الفضل المذكور خاص بالصيغة الخاصة به ﷺ ولا يلقِّنها ولا يأذَنُ فيها إلا القطب الجامع. قال ﷺ: وأما غيرها من صيغ الاسم ففيها النصف من ثواب الكبير. ثم قال ﷺ: هذا الفضلُ لمن

= كما في أنساب السمعاني ولباب ابن الأثير وغيرهما نسبة إلى «أبي بكر الصديق» أو «بكر بن وائل» أو «بكر بن عبد مناة» أو «بكر بن عوف» النخعي، أو «بكر بن كلاب»، ولكل من هؤلاء نسل اشتهر بعض رجاله بالبكري. انظر اللباب: 1/ 138.

أخذ صيغةً من صيغ الاسم بسند متَّصل، وأما من عثر عليه في كتاب أو غيره، وذكره من غير إذنٍ فثوابُ كلِّ حرف بعشر حسناتٍ لا غير. ثم قال ﷺ: ومن خواصِّه أن من عرَفَ لفظه دون أسراره كان مأموناً من السلب لا يقدرُ عليه أحدٌ، وإن كان لم يفتحْ عليه بالولاية ولا يقدر على سلبه إلا القطب اهـ. وذكر في «الجواهر» أيضاً عنه ﷺ أن الفضل الخاصَّ خاصٌّ بمن عرف أن هذا الاسم هو اسم الذات المقدَّسة، وأنه ليس للذاتِ إلا هذا الاسم، وأما من لم يعرف ذلك فليس له ذلك الفضل الخاص، وإنما له فضلُ ختمةٍ من القرآن فقط، يعني إذا ذكره بإذن، وأما إن ذكره بغير إذنٍ فكلُّ حرف بعشر حسنات كما تقدَّم. وقد أشار سيدنا الشيخ ﷺ إلى مثل ما تقدم عن الشعراني ﷺ مما يفيد اتفاق العارفين بالله تعالى على كتْمِه مع بيان الأصل في ذلك وتحقيق الوجه فيه، وذلك فيما ذكره في «الجواهر» عنه ﷺ من أن من جملة ما تلقَّاه من الحضرة الشريفة صلوات الله وسلامه عليه أن هذا الاسم الأعظم مضروبٌ عليه حجابٌ ولا يُطْلِعُ الله تعالى عليه إلا من اختصَّه بالمحبة، ولو عرَفَه الناس لاشتغلوا به، وتركوا غيره، ومن عرفه وتركَ القرآنَ والصلاة علي لما يَرَى فيه من كثرة الفضل، فإنه يخاف على نفسه اهـ. وذكر أيضاً، أعني صاحب «الجواهر» عن الشيخ ﷺ في محل آخر بعد ذكره لبعض فضل الاسم ما نصه: وهذا لا يعرفه النساءُ بل هو خاص بالرجال، لأنها مرتبةٌ عظيمة فلا تعطى إلا لمن سبق أنه محبوبٌ عند الله تعالى، جعلنا الله منهم بمحْضِ فضله وكرمه آمين اهـ.

وفي هذا والذي قبله إشارة إلى أن هذا الاسم إنما ينالُ بمحْضِ المحبوبية من الله تعالى لا غير، فافهم والله تعالى أعلم.

وبلغني أيضاً أن بعض أصحاب سيدنا الشيخ ﷺ الذين كانوا بالصحراء وهم جماعةٌ، اطلعوا على الاسم الأعظم في بعض كنانيش[1] الشيخ ﷺ وذلك بعد سفره من بلده الفاس، فلما قفَلَ ﷺ إلى الصحراء أخبر بذلك، فأمرَ بحضورهم لديه فخاطبَ كلَّ واحدٍ منهم بما لم يخاطبْ به الآخر. فقال لبعضهم إن ذكرته لأحدٍ تموت كافراً والعياذ بالله تعالى. واختلى بآخر منهم وأذِنَ له فيه في خاصَّة نفسه بشرط أن لا يذكره لأحدٍ فضلاً عن أن يأذن فيه. وقال لآخر: اتركْه عنكَ لا حاجة لك به. وقال لآخر: إن أحببته في الأموالِ والأولاد. وقال لآخر: اذكره مرَّةً واحدةً بين اللَّيل والنَّهار وقال لآخر: يكفيك من

(1) الكنانيش: جمع الكُنَّاشة، وهو لفظ مولد يعني الأوراق التي تجعل كالدفتر تقيَّد فيها الفوائد والشوارد.

فضله أن من عرف لفظه فقط يكون مأموناً من السلب، وإذا دخل إلى مسجد من المساجد تقولُ الملائكة هذا فلانٌ يعرف اسم الله الخاص بالذات العلية فيحصل له ثواب من ذكره بسبب ذكر الملائكة له بذلك اهـ.

وهذه القضية وحدَها تنبىءُ عما اختصَّ به سيدنا ﷺ من سعة الدائرة في التربية ﷺ وأرضاه وأدامنا وجميعَ الأحبة دنيا وأخرى في حماه آمين.

(فائدة) رأيتُ في بعض الكنانيش بخط بعض أصحاب الشيخ ﷺ: من داوم على قراءة قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: الآية 44] أربعينَ ليلةً في كلِّ ليلةٍ أربعينَ مرَّةً قيَّضَ الله تعالى له بفضله من يعلِّمه الاسمَ الأعظمَ يقظةً أو مناماً اهـ.

(تتميم) ما تقدَّم من أنه ورد في هذا الاسم الأعظم أنه إذا دُعِي الله به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى، وقيل: معناه إن الداعي به يعطى نفس المسؤول بخلافِ الدعاء بغيرِه، فإنه وإن كان لا يرد فإنه بين إحدى ثلاث كما ورد: إما أن تعجل له الإجابة فيعطى نفس المسؤول، وإما أن يدفع عنه من الشرِّ مثلها أي مثل مسألته، وإما أن يدَّخر له من الأجرِ خير مما سأل. ثم قال رحمه الله:

(وكَمْ قَرافِرٍ لَهُ قَدْ طُوِيتْ ... وكَمْ جماداتٍ لَهُ تَكَلَّمتْ
وكَمْ يُكاشِفُ بِها مِمَّا يرى ... مُطابِقاً لِما بِهِ قَدْ أُخْبِرا
وكَمْ تَصرُّفٍ لِهذا الوَليِّ ... في العالمِ العُلويِّ والسُّفليِّ
وكَمْ عَلِمْنا لَهُ مِن إبراءِ ... حليفِ أمراضٍ بِلا دَواءِ
وكَمْ لَهُ مِن دَفعِ خَطبٍ هائِلِ ... ونَصرِ مَظلومٍ ورَدعِ صائِلِ
وكَمْ إغاثَةٍ لِذي أسفارِ ... في الضَّنكِ في البِحارِ والبَراري
وكَمْ مِنَ الوُلاةِ عَن مَرتبتِهْ ... لِظُلْمِهِ عَزلُهُ بِهِمَّتِهْ
وكَمْ لَهُ مِن نصرِ والٍ لَم يَكُن ... مِن قَبلِ ذاكَ والِياً حتَّى يمَن
وكَمْ إغاثَةٍ بِغَيثٍ وابِلِ ... لِغَوثِنا في عامِ جَدبٍ ماحِلِ
وعَدِّ تَكثيرِ طعامِ النَّزرِ ... مِنَ الكَراماتِ لِهذا الحَبرِ
دُعاؤُه كَصارمٍ بَتَّارِ ... مَدَدُه كَصَيِّبٍ مِدرارِ
فإن دَعا عَلَيكَ فالخُسرُ وإن ... لكَ دَعا فأنتَ بالخَيرِ قَمِن)

(كم) هنا للخبر، وهي التي يخفض ما بعدها كـ«رُبَّ»، وقد يرفعُ تقول: كم رجل

كريم قد أتانا [1]، **(الفدافد)** المراد بها: المسافات البعيدة، ومعنى **(طويت)** قطعت في أسرع وقت على طريق خرْق العادة، و **(الجمادات)** جمع جماد، وهو ما لا روح له، و **(التصرف)** في الأصل: الحُكْم وكذا التصريف، وفرق بينهما بأن التصرُّف يختصُّ بالقهر والتصريف بالأمر، فمقتضى الأول الاستسلام، ومقتضى الثاني الامتثال؛ والمراد هنا: التمكُّن والاقتدار، بمعنى أن يمكِّن الله تعالى بعضَ خواصِّ عباده بانقياد الكون إليه وانفعال الأشياء عن هِمَّته **(وحليف الأمراض)** هو من صارت الأمراض لازمةً له لا تفارقه كما لا يفارق الحليفُ، أي المعاهد والمعاقد حليفَه، و **(الخطب)** الأمر الشديد ينزل، و **(هائل)** من هالَهُ الأمرُ يهوله إذا أفزعه فهو هائل، ولا يقال «مُهْوِل» إلا في المفعول، و **(الردع)** الزجر، و **(صائل)** من صَالَ عليه إذا استطال، فهو صائل، و **(إغاثة)** من أغاثه يغيثه إذا نَصَره وأعانه، وأغاثهم الله برحمته كَشَف شدتهم، و **(الولاة)** جمع والٍ من وليتُ البلدَ وعليه، فأنا والٍ، و **(يمن)** مِن: مَنَّ عليه يَمُنُّ إذا أنعم، و **(الغيث)** المطر، و **(وابل)** من وَبَلَت السماءُ وَبْلاً من باب وعد ووُبولاً اشتدَّ مطرُها، والأصل وبل مطر السماء، فحذف للعلم به، ولهذا وصف المطر به فقيل: مطرٌ وابل، و **(الجدب)** بالمهملة المَحلُ وزناً ومعنى، و **(ماحل)** من مَحِلَ البلد يمحَل من باب تعب، فهو ماحِلٌ إذا أجدب، ويقال: أمحلَ بالألف، واسم الفاعل منه ماحل أيضاً على تداخل اللغتين، وربما قيل في الشعر مُمْحِل على القياس، و **(النزر)** القليل، و **(الحبر)** بالكسر العالم، ويجمع على أحبار مثل حِمْل وأحمال، والحَبْر بالفتح لغةٌ فيه وجمعُه حبور كفلس وفلوس؛ واقتصر ثعلب على الفتح وبعضُهم أنكر الكسر اهـ، و **(الصارم)** القاطع من صرم السيف احتدَّ، و **(بتار)** فعَّال من بَترهُ إذا قَطَعه، و **(دعا)** في الشرِّ يتعدى بعلى وفي الخير باللاَّم.

يقول: لهذا الشيخ من الكرامات التي أجراها له وعلى يده ربُّ العباد أنه كثيراً ما طويت له المسافات البعاد، وكثيراً ما كلَّمَتْه بالنطق الفصيح أصنافُ الجماد، وكثيراً ما كُوشِف بالمغيَّبات، وأنبأ بظهور ما سيظهر، فكان ظهورُ ذلك المخبر به على وفق ما به أخبر، وكثيراً ما انقادتْ لتصرُّفه العوالم الكونية، وكثيراً ما حصَلَ لأصحاب الأمراض المعْضِلة الشفاء ببركة همَّتِه السنية؛ وكثيراً ما صرف الله تعالى على يده الخطوبَ الهائلة،

---

(1) «كم» التي يأتي بعدها مجرور هي خبرية يكنى بها عن العدد الكثير في مقام الافتخار والتعظيم، والكلام معها خبري.

أما تلك التي يأتي بعدها منصوب فهي استفهامية، والكلام معها إنشائي، وقد يأتي بعد الاستفهامية مرفوع بتقدير تمييز منصوب محذوف.

وكثيراً ما نصر الله تعالى به المظلوم، فردت عنه إذاية الأيدي المستطيلة الصائلة، وكثيراً ما أغاثَ الله من أشفى على البوار[1] في مضايق الأسفار التي تعرض في البراري والبحار، وكثيراً من الولاة الجائرين المعتدين عَزَله عن ولايتِه بهمَّته العالية في الحِين، وكثيراً ما ارتفَعَ به سافلٌ وعزَّ به خاملٌ، وكثيراً ما أغيثت بدعوتهِ البلادُ فسُقِيَتْ بعد المَحْلِ الشديدِ وابلَ الغيثِ وصوب العهاد[2]. إلى غير ذلك مما عدَّ له من كراماته الباهرة، كتكثير الطعام القليل بدعوته أو ملمس يده الطاهرة، وكاستجابة دعوته التي هي كالصارم البتَّار، وفيضان مَدَدِه الذي هو كالغيث الصيِّب المدرار.

ويحتمل أن يكون النَّاظمُ ﷺ تعالى عقَدَ في هذه الأبيات ما هو مذكور في «جواهر المعاني» على طريق الإجمال جَرْياً على طريقة مؤلفه ﷺ تعالى من عدم الاحتفال بتفضيل ما ضمنته الأبيات من أنواع الخوارق وأصناف الكرامات.

ونصَّ ما عقده على هذا الاحتمال مما في «جواهر المعاني» بعد كلام في المعنى، وقد شاهدنا من سيدنا ما لا يُحصى ولا يستقصى من الخوارق العظام والكرامات الجسام ففي الغيبة والحضور، وفي السفر والإقامة، وفي جلِّ الأمور وهي على أصناف مختلفة الأوصاف ما بين تصريفاتٍ من رفع خطوب، ونصر مظلوم، وتكثيرِ طعام، وإبراء عاهة، وبين مكاشفات، وإجابة دعوات إلخ، وانظر كلامه بتمامه في هذا المحل.

ويحتمل أن يكون قصد الإشارة إلى قضايا معلومة عنده في ذلك مما تلقَّاه من ثقات أصحاب سيدنا ﷺ، بناءً على ما قدمناه من أنه يكون رأى النهي عن تدوينِ الكرامات الحسية، إنما كان حيث كان ﷺ لا زالَ في قيد الحياة.

وعليه، فأما ما أشار إليه في البيت الأول من هذه الأبيات من طيِّ الأرض، فلم يبلغنا فيه إلا ما تقدَّم من كون القطبانية نزلَتْ عليه ﷺ بجبل عرفات من مكة المشرفة، وأنه كان في التاريخ المذكور لذلك بفاس لم يَبْرح منها، وهذا يحتملُ ما وجَّهناه به فيما تقدَّم من أن القطبانية نزلت على الذات التي بمكة لا تبرح منها، فيكون من باب تعدُّد الصورِ بالتمثل والتشكُّل كما يقع ذلك للجان، وهو أحدُ الوجوه التي وجَّه بها المشايخ تطوّر الولي.

---

(1) أشفى: أشرف، والبوار: الهلاك.

(2) العهاد: مطر أول السنة، مفرده: عَهْدَة. والصوب: الغزير.

ويحتمل أن يكونَ من باب طيِّ المسافة وزَوْي الأرض[1] من غير تعدُّد صور، بل بطيِّ الأرض ورَفْع الحجب الحائلة بحيث يتراءى في مكانين أو أمكنةٍ متعدِّدة وهو في مكان واحد قالوا: وهذا أحسنُ ما يُحْمَل عليه حديث رفع بيتِ المقدس حتى رآه النبي ﷺ حال وصْفِه إياه لقريش صبيحة الإسراء، وهذا ثاني الوجوه التي وجّه بها تطور الولي أيضاً، وهو صريحٌ في معنى ما أشار إليه النَّاظم ﷺ تعالى، ومن هذا أيضاً ما قدَّمناه من دخول سيدنا ﷺ على الرجل المتقدِّم في خلوته التي أذن له في الدخول فيها، وهي ببلد الرجل وبين بلده وفاس مراحلُ متعدِّدة، والشيخ ﷺ إذ ذاك بفاس.

ويحتمل الوجهين السابقين، وثانيهما صريحُ كلام الناظم أيضاً، ومن ذلك دخولُه على بعض خاصة أصحابه المشهود لهم ببلوغِ مقام المعرفة بالله تعالى، وهو في منزله يطالع كتاباً لبعض الأكابر، فصدر منه تعظيمٌ زائد لذلك الكبير كادَ أن يفضي به إلى الالتفات المضرِّ بالمريد الصادق في طريق التربية، فزَجَره ﷺ وأخذ بيده وأقامَه وقال له: يا فلان أنت تجاني، أو كذا، وذكر له النسبة إلى ذلك الكبير، ويقع في وهمي أن الصاحب المذكور كان بفاس والشيخ ﷺ بالصحراء، وعلى كل حالٍ فهي من قبيل ما قبلها.

ومما بلغنا مما اتفق لسيدنا ﷺ من هذا النوع أيضاً أن رجلين من خاصَّة أصحابه ﷺ كلاهما مشهودٌ له بالفتح كانا سافرا والشيخُ ﷺ في قيد الحياة إلى الحج لبيت الله الحرام، فوقع بينهما ذاتَ يومٍ شيء من المخالفة، فأساء أحدُهما لصاحبه بما تغير باطنه عليه، فانتهيا في ذلك اليوم أو في الذي بعده إلى بئر ماء وقد أضرَّ بالناس وبالإبل العطش، فنَزَل السيد الذي كانت صدرتْ منه إساءةٌ لصاحبه إلى البئر من طريق ينزل إليها منها وإذا جَمَل قد توهَّم أثرَ الماء، فأسرع إلى البئر وحَمَله على ظهرِه وقد أضرَّ به الظمأ، فرفع ذلك الصاحبُ رأسه فلم يشكَّ في سقوطه عليه فتداركه الله بلطفه بأن خَطَر ذِكْر الشيخ والاستغاثة به بباله، وإذا هو الشيخ ﷺ بينه وبين الجملِ فردَّه عنه وأقبل ﷺ بوجهه على الصاحب المذكور وقال له: الله في أصحابي، يريد ﷺ، أتؤذي أصحابي؟ ثم غاب عنه الشيخ ﷺ، فعرفَ أنه إنما أتى عليه في تلك المصيبة التي خلَّصه الله منها على يد الشيخ ﷺ من جهة إساءته إلى صاحبه، فأتاه من حينه وتحلَّل منه وترضَّاه حتى رضي.

وهذا أيضاً صريحٌ في طيّ الأرض على ما تقدَّم توجيهه، وهو أيضاً من إغاثته ﷺ لمن استغاثَ به في الشدة والضنك، فافهم والله تعالى أعلم، وهذا كافٍ في شرح ما أشار

---

(1) زوى الشيء يزويه زَياً: جمعه أو قبضه.

إليه النَّاظمُ رحمه الله تعالى واقتصرنا عليه لثبوته عندنا الثبوتَ الصحيح بطريق التواتر لبعضه، وبنقل الثقة الضابط عن مثله في بعضه، ونعوذ بالله تعالى أن تجري على ألسنتنا أو أقلامنا في هذا المقام ما هو شبيهٌ بالخرافات التي لا مستند لها إلا التخيُّلات والأوهام، ولولا أن بعض من يتأكَّد على الامتثال لإشارته من فضلاء الإخوان أكد عليّ مراراً في التعرض لمثل هذا مما يرجى عَوْد نفعِه على عامة الفقراء ما ذكرت منه شيئاً سدًّا للذريعة في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

وأما كلام الجمادات فلم يبلغْنا فيه شيء نسطِّره، ولعلَّ النَّاظم رحمه الله تعالى حفظ في ذلك شيئاً، ولا غرابة فيه في الجملة، والله تعالى أعلم.

وأما مكاشفته رضي الله عنه بمعنى إخباره بالأمر قبلَ وقوعِه فيَقَع على وفق ما أخبر به، فلا يكادُ ينحصِرُ ما حدَّث به الثقاتُ عنه رضي الله عنه. وقد ذكر في «الجامع» أنه رضي الله عنه كان كثيراً ما يسترُه بقوله: قلبي يحدثني بكذا، أو وَقَع في خاطري كذا، فيخرج كما قال. وذكر فيه أيضاً ما يفيد أنه رضي الله عنه كان يخبرُ بقدومِ الغائب قبل أن يقدم، فيكون ذلك وفقَ ما أخبر به. وذكر من ذلك أنه أخبرَه مرةً وهو معه في بلادِ الصحراء بقدوم الأمير الظالم إذ ذاك فكان ذلك، وأنه رضي الله عنه كان أخبره مرةً أخرى بخرابِ قريةٍ قبل وقوعه فوقع، وأنه رضي الله عنه أخبره مرةً أخرى أيضاً بقدوم بعض أصحابه، فكان كما قال اهـ. ومن معنى ما ذكره صاحب «الجامع» رحمه الله تعالى من أنه رضي الله عنه كان يستر هذا النوع من الكشف بقوله: قلبي يحدثني إلخ، ما بلغنا عنه رضي الله عنه من أنه كان كثيراً ما يتمثَّل بقول بعض أهل الأحوال من مشاهير رجال الصحراء، ونصّه: وهو من الكلام الملْحُون ثوبي شين ورمتي ما تملأ العين، قلبي زين يحب الخير البعيد اهـ، وقوله: رمتي يريد جثتي.

ومن هذا الباب إخبارُه عن استيلاء أعداء الدين على بلد الجزائر وعملها. وقد كان رضي الله عنه على ما تلقَّيناه من فضلاء أصحابه رضي الله عنهم كثيراً ما يشير إليه بما يفيد تحقق وقوعه تارةً تصريحاً وتارةً تلويحاً.

وذكر رضي الله عنه حكامها يوماً، وقال فيهم: إنهم كفارٌ لنَبْذِهم الأحكام الشرعية وتقديمهم القوانين الفرنجية عليها واكتفائهم بذلك، ثم دعا عليهم بأن يسدّ الله أبواب الرحمة في وجوههم كما سدَّت في وجوه أهلِ البلد العلانية، وذكر بلاداً استولى عليها أعداء الدين والعياذ بالله تعالى، ودعاؤه عليهم بهذا في بساط الشريعة وجهه الغيرة الإيمانية، وفي بساط الحقيقة مجاراة ما كُوشِف به في سرِّه من نفوذ الأقدار الربانية. ولا يقال على مثل هذا مما يصدر من أمثال هذا الشيخ الكبير رضي الله عنه لو دعا لهم بالهداية مثلاً لكان أولى، لأنهم رضي الله عنهم

غَرْقى في بحار المشاهدة وجميعُ حركاتهم وسكناتهم في جميع أفعالهم وأقوالهم جاريةٌ على حكم ما يتجلَّى الحقُّ به على قلوبهم، وأيضاً قد روي في بعض الأخبار: إذا أرادَ الله بقومٍ سوءاً يوحي إلى قلوبِ أوليائه لا تسألُوني في أمرِ القوم فإنِّي عليهم غضبان، فيجيبونه بطلبِ النجاةِ لأنفسهم: «اللَّهُمَّ سلِّمْ سَلِّم».

ومن تلويحاتِ سيدنا الشيخ ﷺ إلى الاستيلاء المذكور ما حدثنا به فضلاء أصحابه أنهم كانوا معه ذاتَ يومٍ فاجتاز بهم ولدُه سيدي محمد الكبير قدَّس الله سرَّه، فنظروا إلى الشيخ ﷺ وقد أتبعه بصَره كالمتفكِّر فيه حتى غاب عنه، ثم قال الهواري ما اجتاز ولده، وأشار إلى قضية الهواري[1] الولي الصالح مع أهل وَهْران[2] وانتصار الله تعالى له بما انتصر له به مما هو معلومٌ من قضيته، وفي ذلك إيماءٌ إلى قضية ولده المذكور مع أهل تلك البلد المذكورة، وفيه إشارة إلى أن الواقع بها هو من انتصار الله تعالى لأهل خصوصيته، فكان الأمر كذلك. وقد قال بعضُ الكبار: إذا أرادَ الله صلاحَ زمانٍ وأهله كان انتصاره لأولياء ذلك الزمان فيما يصدرُ لهم من العامة ظاهراً في الأموال والأبدان، وإذا أراد الله فساد زمان وأهله كان انتصارُه لهم باطناً في الأديان ليمتدَّ ضلال أهل العصيان اهـ، من «ابتهاج القلوب» مختصراً ولسنا بصدد بسط القضايا التي هي من قبيل ما أشرنا إليه لاستدعاء ذلك التطويل والخروج عن الغرض، فافهم.

ومن أخبارِه بالغيب من طريق كشْفِه ﷺ إخبارُه بأمور لم تقَعْ إلا بعد وفاته إما بالتصريح أو بالتلويح، فأخبرَ بالفتنِ التي وقعتْ بالقربِ من وفاته في الغرب، فكان الأمرُ وفقَ ما أخبر به، وأخبرَ بالمسغَبَةِ العظيمة[3]، أعاذَنا الله منها التي كانت بعد وفاته بنحو تسع سنين، وذلك على ما أخبرني به بعضُ خاصَّة أصحابه ﷺ بطريق التلويح، قال المخبر: كنتُ معه ﷺ ببابِ داره ذاتَ يومٍ فأمر بإخراج القمح للرحى على العادة،

---

(1) الهواري: محمد بن عمر الهواري، أبو عبد الله، متصوف، فقيه، مالكي، عالي الشهرة في المغرب، له أخبار كثيرة. ولد في معزاوة، وتعلم بباجة وأقام بفاس، ورحل إلى المشرق رحلة واسعة ثم استقر وتوفي في وهران سنة (843هـ). وكان زاهداً متقشفاً، متباعداً عن الملوك والأمراء. وقال أحد الفرنسيين عنه «كان يقرأ الأفكار فيحدث كلاً بما في نفسه». انظر نيل الابتهاج: 303، والبستان: 228.

(2) وهران: مدينة على البر الأعظم من المغرب بينها وبين تلمسان ليلة، وهي مدينة صغيرة على ضفة البحر وأكثر أهلها تجار.
انظر معجم البلدان: 5/ 385.

(3) المَسْغبة: المجاعة والجائحة.

والوقتُ وقت خصبٍ ورخاء، قال: فالتفت إليّ وقال لي: يا فلان ادعُ العبيد ليصحبوا هذا القمحَ إلى الرحى، قال: فقلت له: يا سيدي الرحى قريبةٌ ولا حاجة بنا إلى العبيد، قال: ادعُ العبيد ومُرْهم أن يصحبوه لئلا يُنهبَ في الطريق. وحدثني المخبر أيضاً أنه فعل مثل ذلك في تلك الأيام مرَّةً أخرى في الخبز وقد أخرجوه من دارِه ليحمل إلى الفرن، قال: فلمْ نفقَهْ ذلك حتى وقَعَ الغلاءُ الكبير عام أربعين ومائتين وألف فصار الناس يحتاجون إلى مثل ما أمرَ به الشيخ ﷺ.

ومن هذا المعنى أيضاً ما حدثني به الخاصّ المذكور، وهو أن الخليفة المعظم سيدي علي حرازم ﷺ كان حين أرادَ التوجُّه لبيتِ الله الحرام يذكر لبعض الخاصَّة ممن يسارُّه بالأمور أنَّ النبيّ ﷺ زوَّجه ببنتٍ بتونس، وكان يصفُها وربما ذكر اسمها واسم أبيها ثم لما سافر ووصل تونس حَرَسها الله كان ما أخبر به، قال المحدث: فلم نلبَثْ أن جاءنا الخبر بأنه طلَّقها، قال: فكان يقَعُ في باطني شيءٌ من جهة تطليقه إياها، وهو أخبر أن النبي ﷺ زوَّجه بها، قال: وكان الشيطانُ لعنه الله كثيراً ما يكدِّرُ عليه وقته بالوسوسة في ذلك، وخصوصاً حين يطيب وقته، قال لي: فجلست يوماً مع الشيخ ﷺ ولم يحضرْ معنا ثالث، فطاب لي الوقتُ بمحادثة الشيخ ﷺ ولانَ القلبُ وخشعت الجوارحُ، فلم أشعرْ حتى ألقى ذلك الخاطر ببالي واشتغل به فكري وكدَّر عليَّ صفوي فرفع ﷺ بصرَه إليّ وأدنى رأسَه مني وقال لي: كانت لا تصلِّي، ولم يزدْ ﷺ على ذلك شيئاً؛ قال: فعلمتُ أن ذلك موجبٌ لطلاقهِ إيَّاها وأن النبي ﷺ لم يقرَّه معها على ذلك اهـ.

قلت: ثم بعدما حدَّثني هذا السيد ﷺ تعالى بهذه الكرامة بمدَّةٍ وَقَع بيدي ورقات بخط سيدي علي حرازم ﷺ فإذا هي مشتمِلةٌ على مطالب عديدة لنفسِه ولخاصته وأقاربه، وإذا من جملتها الدعاءُ لتلك الزوجة بأن تحبَّب إليها الصلاة، وهذا موافِقٌ لما أجاب به الشيخ ﷺ من طريق الكشف، وهذا بابٌ واسع جدًّا لا يمكن استيفاء نزرِ النزر منه، وانظر في «جواهر المعاني» ما ذكره مؤلفه ﷺ تعالى فيه من نفوذ بصيرته وصدق فراسته في صحابه وجلسائه ومعرفته جميع ما اشتملت عليه ضمائرهم على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم، وأنه ﷺ كان كثيراً ما يجالِسُه الإنسانُ فيتكلَّم له على ما أشغل باطنه من الهوى والأمور الدنيوية، ويعين النوع الذي شَغَله منها بطريق الإشارة العامة والإجمال ونوع من ضرب الأمثال من غير تعيين يعرفُ به صاحب ذلك، وذلك مثل أن يقولَ: ما بالُ أقوامٍ يفعلون كذا يقولون كذا، أو أن يذكُرَ ذلك الفعلَ من غيرِ أن يعيِّنَ صاحبَه ويقول: حق من يفعلُ كذا وكذا اتباعاً للسنة في جميع ذلك، ومن هذا المعنى ما كان عليه أمره في الإشارة

على من استشاره، فإنه لا يشيرُ عليه إلا بما فيه نجاحُ حالِهِ وفلاحُ مآله، وكان من المعلوم عند أصحابه ﷺ في الاستشارة أن المعتَبَر عندهم الذي عليه المعوَّل هو ما نَطَقَ به في الكلام الأول، فإن الْتَقَطه المستشيرُ عَثَر على حكمةِ الإشارةِ، وانقلب بغنيمة وتجارةٍ، وإن لم يقبَلْ منه وراجَعَه في الكلام جاراه في كلامه حتى ينصرِفَ من غير أن يعثر على المراد، ولا أن يحصلَ على ثمرةِ الكلام إلى آخر ما ذَكَره في «الجواهر» في هذا المحلِّ فراجعه إن شئت.

وقد حدَّث بعض أصحابه ﷺ أنه أتى ذاتَ مرَّة بصوفٍ من البادية إلى فاس ليتَّجر فيها، فلما وصل إلى فاس وَجَد سوقها كاسدة، فاهتمَّ لذلك. ثم إنه أتى الشيخ ﷺ قاصداً استشارته في ذلك، فوجَدَ أصحابه قد أحاطُوا به ﷺ، فسلَّم على الشيخ ﷺ وجَلَس، فلم يلبَثْ أن سألَ الشيخ بعضَ أصحابه عن سِعْر الزيت فقال: كذا، ثم سأل عن السمن ثم عن اللَّحم وغير ذلك حتى انتهى إلى الصوفِ فقيل له: إن سوقها كاسدةٌ، فقال ﷺ الصوفُ من الأمورِ المهمَّة التي لا يستغني عنها الناس، فلا بد أن يرتفع سُوقُها، فمن كانت له صوف ينبغي له أن لا يضجر منها بسببِ ما عرض من رخْصها بل يجعلها في محلٍّ يحفَظُها فلا يمضي عليه نحو كذا وذَكَر ﷺ عدَّةً من الأيام إلا وقد ارتفعَ سوقُها، فأخذ الرجلُ جوابه عن مسألتِه من ذلك من غير أن يشعرَ بذلك أحدٌ من الحاضرين، فقامَ من حينِهِ واكْتَرى لها محلاً، وجَعَلها فيه مطمئناً طيِّبَ النفسِ، فلما كان في آخر المدة التي عيَّنها الشيخ ﷺ إذا هو بأناس يطلبونه، فاشْتَرُوها منه ورَبِحَ فيها ربحاً معتبراً ببركة إشارة الشيخ ﷺ.

وأما تصرُّفه ﷺ فمما لا يحتاج إلى تفصيلٍ وما هو إلا من حديث البحر، وكأن النَّاظم أشار بالبيت إلى ما ذكره في «جواهر المعاني» من قوله ومن كماله ﷺ وعلوّ منصبه الشريف، ما أوتيه من مقام الخلافة وخطة التصريف، ووليّه من النيابة والتحكيم، والأمر النافذ العميم، إلى آخر كلامه. وقد تقدَّم الكلامُ في مبايعة جميع المخلوقات للقطب، الأرواحُ وغيرها، كما تقدَّم أيضاً عن الشيخ مولانا عبد القادر الجيلاني ﷺ من قوله: إن للقطبِ ستة عَشَرَ عالماً إحاطياً، الدنيا والآخرة ومن فيها عالمٌ واحد من هذه العوالم، كما تقدم عن سيدنا ﷺ أن القطبية هي الخلافةُ العظمى عن الحق تبارك وتعالى مطلقاً في جميع الوجودِ جملةً وتفصيلاً، حيثما كان الربُّ إلَهاً كان هو خليفةً في تصريف الحكم وتنفيذه في كلّ من عليه ألوهيةٌ لله تعالى إلى آخرِ كلامه المبين. معنى قول النَّاظم في العالم العلوي إلخ.

وذكر في «الجامع» صاحبه رحمه الله تعالى ما نصّه: ومنها، أي من مناقبه رضي الله عنه، أننا كنا يوماً نذكر بين يديه ما يشاهدُ الأولياءُ من الخوارقِ، فقال لنا رضي الله عنه: ما وَقَعَ لي هذا إلاّ مرَّةً كنتُ سكِرْتُ من أول النَّهار إلى بعد العصر، فشاهدتُ عوالمَ لا مثالَ لها في هذا العالم ولا مما يصوِّره الفكرُ، وكأنِّي ملكٌ عليها أتصرَّف فيها اهـ. ومثل هذا كان يصدرُ عنه في أول أمره كما ذكَره صاحبُ «الجامع» في غير هذا المحل، وكذا صاحبُ «الجواهر» وفيه على كلِّ حال شاهد لكلام النَّاظم رحمه الله تعالى.

وأما حصولُ البُرْءِ والشفاء من الله تعالى لمن توجَّه إليه واستشفى من أدوائه المعضلة بتقديم همَّته، فهو مما لا يأتي الحصرُ على تفصيلاته في حياته وبعد مماته، وذلك بمجرَّد التهمُّم بذلك بين يديه قيدَ حياتِه أو نحو ذلك، كالاستغاثة به والقصْد إلى ضريحه الأنور بعد وفاته، وقد كانَ بعضُ علماءِ فاس يعتريه ألمٌ نحو المسمى عند الأطباء بماليخوليا، فكان من عادته إذا أحسَّ بمبدأ ذلك الألم، أعاذنا الله منه، يأمرُ بحمْلِ فراشِه إلى زاوية الشيخ رضي الله عنه ويقصدُ مجاورته بنيَّةِ الاستشفاء، فكانَ يحصلُ له مرادُه ببركةِ الشيخ رضي الله عنه، ولذلك حضَّ على ملازمةِ حِمَى الشيخ رضي الله عنه في قوله في أبياتٍ أنشأها في مدح سيدنا رضي الله عنه يقولُ فيها:

إنَّ التجانيَّ تاجٌ لا نَظيرَ لَهُ	الله صرَّفَه فينا وولاَّهُ
لَهُ ضريحٌ سَمَتْ بِهِ بُلَيْدَتُنا	فلم تَزَلْ دورُها بعينِ مَرْآهُ
من عينِ ماضٍ أتَى فجاه كلّ فتى	من بحرِه يَسْتقي إذا طابَ سُقْياهُ[1]

ومنها:

فأسْرُدْ مناقِبَه فإنَّها دُرَرٌ	والْزَمْ حِماهُ تَنَلْ مَعِينَ سُقْياهُ

وعلى قوله: «سمت به بليدتنا» يعني البليدة الحومة المعروفة بفاس التي بها زاوية سيدنا رضي الله عنه، يأتي ما بلغنا متواتراً عن أصحاب سيدنا رضي الله عنه، من أن بعض أرباب الأحوال كان يشيرُ إلى تشرُّف هذه الحومة بمزية مدفن الشيخ رضي الله عنه بها، فكان يقول تحصَّنت فاس وخصوصاً الدرداس، يعني الحومة المذكورة لأنها يقالُ لها الدرداس أيضاً وعلى قوله: «فلم تزل دورها» إلخ ما بلغنا من قول سيدنا رضي الله عنه في قضية معروفة: جيراني ما تجوزُهم في الدنيا ولا في الآخرة، يعني بغيتهم ويشفعُ لهم ويأخذ بأيدي العاثرِ منهم في الدنيا والآخرة.

---

(1) ظاهر أن هذه الأبيات مختلة الوزن، ويبدو أن اللهجة الشعبية طغت عليها.

وأما ما ذكره عن الشيخ ﷺ من دفعِ الخطوب الهائلة ونصر المظلوم ودفع الأيدي الجائرة الصائلة فمن الشائع المعلوم الذي يضيقُ القولُ عن حصرِ ما اتفق منه للخصوص والعموم.

وقد حدَّثني بعض الشرفاء الأفاضل الأخيار ممن أخَذَ عن سيدنا الشيخ ﷺ أنه كان قاطناً ببلاد البربر بأهله، فلما كانت السنةُ التي جَمَع فيها الفتانُ الشهير بأمهاوش جميع قبائل البربر وتحزَّبوا على أن يتَّبعوه إلى أن يدخلَ فاساً ويفسدَ مُلْكَها ويعيث في أرضها، فوافقوه على ذلك وساروا بما لا يُحصى كثرةً من الخيل والرجَّالة، قاصدين إلى فاس، قال المحدِّث: فسِرْت معهم مختفياً وقصدي الاجتياز إلى فاس، فلما نزلوا بأقربِ الجبال من فاس تركتُهم ومضيتُ إلى فاس، وكان من أهمِّ الأمور عندي بفاس الانخراطُ في سلك سلسلة أهل الله تعالى، فاتفقَ أن ذُكِر لي الشيخ ﷺ وطريقته وبعض فضائلها فسألت عنه، ثم قصدتُ إليه في الحين فأذِن لي في الدخول عليه بباب داره، فألفَيْتُه مشتغِلاً بالذِّكْر وهو قائمٌ يذهب ويجيءُ، فأشير علي بالجلوسِ حتى يفرغَ، فجلست حتى إذا فرغ قمتُ إليه وسلَّمت عليه فسألني من أين أقبلت؟ وعن نسبي وأحوالي ومقصدي؟ فأخبرته ثم طلبتُ منه تلقينَ وِرْدِه فلقَّنني، ثم استشرتُه في الانتقال من بلاد البربر إلى بعض المدن، فقال لي: نساؤهم يصلِّين؟ مستفهماً مني عن ذلك، فقلت: يا سيدي بعضهنَّ يصلِّي. فأشار إلي بعدم الانتقال في ذلك الوقت، وحين أردتُ توديعه سألني عن الفتان المذكور ومن معه وماذا يريدُ فأخبرتُه بما هو عليه هو ومن معه من القوة والشدة وبما يريدون، فالتفتَ ﷺ إلى ناحيتهم ومدَّ كفَّه وقال فيها: «أف» ثم توادَعْتُ معه ودعا لي بخير، فتوجَّهت من حيني وخرجتُ وفي صبيحة الغدِ وصلْتُ إلى المحلِّ الذي تركتُ به أمهاوش ومن معه، فسألت عنهم، فقيل: انهزَمُوا بالأمس وقت كذا، وساروا لا يلوي أحدٌ منهم على أحدٍ، ولم يدرِ أحدٌ ما سبب ذلك، قال: فلم أشكَّ في أنهم هُزِموا في الساعة التي نفخ الشيخ ﷺ نحو ناحيتهم، وأن الله تعالى ألقى في قلوبهم الرعبَ ببركةِ همَّةِ الشيخ ﷺ.

وأما إغاثتُه ﷺ لمن استغاثَ به من المسافرين في البر والبحر فهو شيء لا يأتي عليه الحصر، ومن ذلك ما تقدَّم قريباً في شأن الرجل الذي أغاثه، وهو في البئر وخلَّصه من سقوطِ الجمل عليه، ومنها غير ذلك.

وقد حدَّثني من أثِقُ به من أهل العلم وشرف النسب أن بعض فقهاء تلمسان أعادها الله دارَ إسلامٍ ممن استوطن حضرة فاس، وكان من جملة المدرِّسين بالقرويين أنه حدَّثه فقال له: إني كنت في حال شبيبتي ارتحلتُ من بلدنا تلمسان إلى فاس بقصدِ قراءة العلم،

فكان من جملة من قرأتُ عليه من العلماء بها فلان، وذكر له صاحب سيدنا ﷺ سيدي محمد بن المشري رحمه الله تعالى، قال: وحين أزمعتُ السفرَ من فاس والرجوع إلى بلدي أتيت مشايخي بقصد توديعهم وطلب صالح الأدعية منهم، والوصية لي بما ينفعني الله تعالى به على العادة في ذلك، ومن جملة من أتيتُه من المشايخ بذلك القصْدِ السيد المذكور آنفاً، فكانَ من وصيته لي أن قال لي: إذا كنتَ في شدَّةٍ وضيق فاستغثْ بهذا الرجل يعني الشيخ ﷺ، وأكَّد عليّ في ذلك، قال: فسافرت إلى بلدي، ثم سافرت من بلدي بعد ذلك قاصداً حجَّ بيت الله الحرام فركبتُ البحرَ، فكانَ من قَدَرِ الله تعالى أن تكسَّرتْ بنا السفينةُ التي كنا بها، قال: فبقيت أنا ونحوٌ من السبعة يحملنا بعض ألواح السفينة حتى ارتفعتْ لنا جزيرة بوسط البحر، فتحامَلْنا إليها وجلسنا ننتظرُ الموتَ لا يكلِّم أحدٌ منا أحداً، فبينا أنا أفكِّر إذ ألقى الله تعالى ببالي مدينة فاس والفقهاء الذين كنت أقرأُ عليهم، فوقعتْ الوصيةُ ببالي فاستغثت بالشيخ ﷺ، وأنا في تلك الحال، فأخذني شبه سنةٍ[1] وإذا بالشيخ ﷺ وقَفَ أمامي وقال لي قل: يا عليماً بالألْطافِ نجِّنا مما نخاف، قال: فانتبهتُ وأنا أقولها، فلم نلبثْ إلا قليلاً وإذا بسفينة ظهرتْ لنا فظهرت أشخاصنا لرئيسها فقصَدَ الجزيرة وحَمَلنا وسارَ بنا حتى أنزلنا حيث الأمنُ من البر، قال: فأرَّختُ ذلك اليوم ولما رجعتُ إلى فاس سألتُ عن الشيخ ﷺ فقيل لي: مات، فسألتُ عن تاريخ وفاتِه ﷺ فألفيتُ اليوم الذي وَقَع لنا فيه ما وقَع وشاهدتُ فيه تلك الكرامة العظيمة هو اليوم السابع من يوم وفاته ﷺ.

وأما عَزْلُه الولاة الجائرين بتوجُّه همَّتِهِ العالية في ذلك، فقد تواتر منه قضايا متعددة منها: أن بعضَ ولاةِ فاس، وكان من المتمرِّدين العتاة[2]، كان حين سمِعَ بما يؤثر عن الشيخ ﷺ من المناقب وما يتحدَّث به عنه من بلوغه أسنى المراتب كأنه استغربَ أن يكون مثل ذلك في هذا الزمان، فحَمَله ذلك على أن أتى الشيخ ﷺ مظهراً أنه أتاه متبركاً زائراً، وهو إنَّما أتى مختبراً، فلما رجَعَ لمحلِّه وجلس مع من يعظِّمه ويشايعه تناولَ دار الشيخ ﷺ بشيء من الذمِّ من حيث أنه لم يرَ بها ما يؤذن بالرفاهية، لتباعد الشيخ ﷺ عما يشير إلى ذلك إلى الغاية، فبلغَ ذلك الشيخ ﷺ فقال: أما دارنا فهي دارُ الخير، وأما دارُه فها أنا أراها قفراء خاليةً، فعُزِل ذلك الولي عن قريب وسُلِب ونكب وخلتْ دارُه وانمحقت آثاره، ولم يبقَ له ذكرٌ والعياذ بالله تعالى.

---

(1) السِّنة: النعاس.

(2) العتاة: المعتدون الظالمون.

ومن ذلك أيضاً أن والياً آخرَ اتفق أن رُفِعتْ إليه شكايةٌ ببعض مماليكِ الشيخ ﷺ فقبض عليه، ولما كلِّم فيه تجاهل وقال: إني لا أعرفُ سيدي فلاناً، يعني الشيخ ﷺ، فلما سمِعَها ﷺ قال: اليوم يعرفني، فاتفقَ أن أتاه الخبرُ في ذلك اليوم أن بعض قبائل البربر أتوا ليغزوا قبيلته وقصدُهم نهبَ دارِه التي هي بالبادية بوسط قبيلته، فخرج من الغدِ فوجَدَ الغزوَ على وجْهِه، فلما التقى الجمعان أُصِيب برصاصةٍ خرجَتْ معها روحُه فسقط عن فرسه ميتاً وانهزَم مَنْ معه ونُهِبت داره وبقيت جثتُه بلا دفنٍ نحو الأربعة أيام حتى أمن على أقاربه أعداؤهم، فحَمَلوه على شرِّ حالٍ، وكان بعضُ أقارِبه فيمن حملها وله محبة في جانب الشيخ ﷺ يخاطبُ تلك الجثة ويقول: هل عرفته أم لم تعرفه؟ يكررها، وقريبه هذا هو أحدُ من حدثني بهذه الكرامة، وحديثُه أوعبُ ما سمعتُه فيها لحضوره الأمرَ من أوَّله إلى آخره، وولي مكانَ هذا الوالي رجلٌ كان والياً للسلطان في أول أمره ببعض البلاد، ثم عُزِل وصارتْ حالتُه من الكسوفِ إلى أحطِّ المراتب، فصار بعد الولاية بواباً لبعض أقارب السلطان، فاتفقَ له قربُ موتِ الوالي المذكور أن اجتازَ به بعضُ الخاصة من أصحاب سيدنا الشيخ ﷺ، فقام إليه وتعلَّق به وقال له: يا سيدي أما تنظرُ ما صارَ إليه حالي؟ أما تستعطفُ لي هذا الشيخ، لعلَّ الله تعالى أن يجبر كسري، فأمره ذلك الخاصّ أن يرافقه إلى دار سيدنا الشيخ ﷺ، فدَخَل معه واستعطف له قلبه فأقبلَ عليه ودعا له، فبعد ذلك بأيامٍ يسيرة وَرَد على السلطان خبرُ موتِ الوالي المتقدِّم، فأوقعه الله تعالى بباله، فدعا به من حينه وولاّه مكانه وحسنت سيرتُه، ولم تزلْ حالته مرضيةً إلى أن توفي رحمة الله تعالى عليه، والخاصُّ المذكور هو الذي حدَّثني بهذه الكرامة مراراً، وتولية هذا الثاني ببركة دعوى سيدنا ﷺ شاهدةٌ لما أشار إليه النَّاظم في قوله: وكم له من نصر والٍ لم يكن، إلى آخر البيت السابق، والله تعالى أعلم.

وأما ما تضمنته الأبياتُ الأربعة الباقية فكلُّه من الشائع المعلوم الذي لا تحتاج قضاياه إلى تفصيلٍ لشهرتها بين الخصوص والعموم.

وفي هذا القدر مما قصدنا ذكره في هذا المحلِّ كفاية، ولعلَّنا نتعرَّض لغير هذا من الكرامات في غير هذا الموضع إن شاء الله تعالى، والله المستعان وعليه التكلان.

ثم قال ﷺ تعالى ورضي عنه:

(ولَـمْ يَـواجِـهْـه بِـمَـكْـروهٍ أحـدْ	مِـنَ الـخَـلائِـقِ عَـلـى طُـولِ الأبـدْ
وكـانَ مَـحْـفـوظـاً مِـنَ الأعـداءِ	جَـمِـيـعِـهـا مِـنْ غَـيْـرِ مـا مِـراءِ)

(**الأبد**) الدهر، ويقال: الدهر الطويل الذي ليس بمحدود، والمراد هنا: إلى آخر العمر. و(**المراء**) الجدال، يقال: ماريتُه، إذا جادلته، ويقال أيضاً: ماريته: طعنت في قوله تزييفاً للقول وتصغيراً للقائل، ولا يكون المراءُ إلا اعتراضاً بخلاف الجدال.

ويقول: ومن كرامات هذا الشيخ الجليل على مولاه أنه لم يواجهه طولَ عمره بمكروه أحدٌ من خلق الله. ومن كراماته أيضاً التي لا مراء فيها ولا جدال أنه كان محفوظاً من أن تصِلَ إليه أيدي أعدائه بسوءٍ من فضل الرب المتعال. وأشار بالبيت الأول إلى ما بلغنا عن سيدنا الشيخ ﷺ من أنه كان يقول في معرض ذكره ما منَّ الله تعالى به عليه بسابق فضله: من فضل الله تعالى عليّ لم يواجهني أحدٌ بما أكرَهُه من قوله. وأشار بالبيت الثاني إلى ما بلغنا عنه أيضاً ﷺ من أنه كان يقول: سمعت من الحضرةِ أنه لا تصِلُ إلي يدُ أحدٍ بسوء اهـ. ومثل هذا من قول الكمل: سمعتُ من الحضرة أو قيل لي شائع معروف، ووجهه ظاهر عند كل من هو بالإنصاف والتصديق موصوف، ولا عبرة بمن عداه من كلِّ جاهل أو معاند متحامل، وقد تقدَّم كلام الشيخ زروق ﷺ في هذا فراجعه إن شئت.

ومن جملة ما اتفق لسيدنا الشيخ ﷺ مما هو مصداقُ هذا الذي ذكر ما حدثنا به غير واحد من فضلاء أصحابه ﷺ، من أهل فاس وغيرهم، أن بعضَ حكام فاس ومَنْ شايَعَه في فعله ألزموا الشيخ ﷺ في كلمةٍ قالها ما ليس بلازمٍ، وكتبوا شهادتَهم بمقتضى إلزامِهم ولم يقصِّروا في التشنيع والتهويل، وبَعثُوا برَسْم الشهادة إلى حضرة السلطان مولانا سليمان قدَّس الله ضريحه، وكان إذ ذاك برباط الفتحِ، فاشتدَّ ذلك على أصحابه ﷺ، فلما رأى ذلك منهم سكَّنَ رُوعَهم[1] بأن قال لهم في شأن ذلك الرسم: بعدما يقرؤه يعني السلطان يطرَحه ولا يتكلَّم فيه، فكان الأمر كما ذكر ﷺ.

واعلم أن هذه الكرامات الحسية عند القوم، إما أن تظهر للولي في نفسه، والمراد بها تعريفه بقدرةِ الله تعالى وفرديته وأحديته، ولهذا قد يجدُها أهلُ البدايات في بدايتهم دونَ أهل النهايات في نهايتهم لاستغنائهم عنها بما هم عليه من الرسوخ في مقامات اليقين، وإما أن تظهر فيه لغيره، فالمرادُ بها تعريفُ من شاهدها بصحَّةِ طريق من ظهرت عليه.

ومن هذا القبيل غالبُ ما يؤثر عن سيدنا الشيخ ﷺ منها، وإلا فالمقرَّر من حاله ﷺ وهو عدم الاحتفال[2] بها والاكترات بذِكْرها كما هو مشهورٌ معروف، ومن هنا لم

---

(1) رُوعهم: قلبهم.

(2) عدم الاحتفال: عدم الاهتمام.

يحتفلْ أحد بتدوينها من أصحابه ﵁، ومن تصدَّى لشيءٍ من ذلك نهاه وزجره وأمره بتمزيق ما جَمَع منه أو تحريقه.

ولما كان من جملة الكرامات الحسية الدالَّة على ما للمشايخ من كمال الخصوصية ظهور صورة الفتح على أيديهم في اتباعهم أشارَ النَّاظم إلى ذلك، فذكر بعض من ظهر عليه ممن كان من أصحاب الشيخ ﵁ يعرف بالولاية ويشار بذلك إليه فقال:

(وكَمْ مُرِيدٍ نَالَ فَوقَ مُنيتِهْ	مِنَ الوِلايةِ لأجلِ صُحبتِهْ
كحُبِّ طهَ المُصطفى ابنِ العَربي	مَنْ نالَ مِنَ مَزْلاهُ أعلى الرُّتَبِ
وكخريمهِ الرضيِّ عَلي	حرازمَ ذِي المَنصبِ العَليّ
وكالفَقيهِ العالِم ابنِ المَشرِي	صَاحبِ شيخِنا رَفيعِ الذِّكرِ
والتونسي سيدِي مَحمودِ	صَفيِّ شيخِنا كَثيرِ الجُودِ
والعَلَوي الوَارثِ الرَّبانِي	سيدِنا الحافِظِ ذِي العِرفانِ
وكالشَّريفِ ذِي المزايا الغالِي	والسّيدِ المُفضَّلِ المِفضالِ
وغوثِ نَضرِنا التماسِنيِّ	قُطبِ الوَرى سيدِنا عَليّ
والغَيرِ مِمّن أدرك الوِلايَهْ	مِن صَحبهِ وَفازَ بالعِنايَهْ)

معاني مفردات الأبيات التسعة واضحةٌ، وسبكُها أيضاً ظاهر.

وذكر فيها ﵀ تعالى ثمانية رجالٍ من أصحاب سيدنا الشيخ ﵁ كلّهم من أهل الولاية الكبرى، والخصوصية العظمى.

فأما (ابن العربي) بفتح الراء، فالمرادُ به العارف بالله تعالى خزانةُ الأسرار ومظهر الأنوار، الواسطة المعظم أبو عبد الله سيدي محمد بن العربي الدمراوي التازي ﵁، وقد تقدَّم لنا عند قول النَّاظم ﵀ تعالى، «كذاكَ سافرَ إلى ابن العربي» إلخ البيتين، أن الشيخ ﵁ كان له مزيد اعتناء به، وأنه كان يزورُه في حياته وبعد مماته، لأن النبي ﷺ أوصاه به، وتوفي بشهيرات قبلَ أن يرتحلَ سيدنا ﵁ إلى فاس، وذلك سنة أربع ومائتين وألف، وقبرُه بعين ماض مشهورٌ يقْصَدُ للزيارة والتبرك، وله مناقب عديدة، ويكفي أن النبي ﷺ صرَّح له بأنه يحبُّه، ولذلك وصَفَه النَّاظم بذلك في قوله: (كحب طٰه المصطفى ﷺ)، وأنه كان يتوسَّط بين النبي ﷺ وبين الشيخ ﵁، وذلك بإذْنٍ منه ﷺ للشيخ ﵁.

وأما سيدي (علي حرازم)، فالمرادُ به خليفة الشيخ ﵁ في حياته، حسبما صرَّح بذلك ﵁ عن إذْنِ الحضرة المحمدية صلوات الله وسلامه عليه. وهو العارفُ بالله تعالى

أبو الحسن سيدي علي حرازم بن العربي برادة القاسي[1] ﷺ، وقد تقدَّم لقيه بالشيخ بوجدة وما خاطبه أولَ ملاقاتِه معه، مما يدلُّ على كمال خصوصيته وعناية الله به، وهو مؤلف «جواهر المعاني» مع كونه لا يدَ له في العلوم الرسمية.

وله مناقب كثيرة: منها: أن الشيخ ﷺ أخبرَ بأن النبي ﷺ يحبه محبةً خاصَّةً تفوق محبة الأولاد. ومنها: أنه ﷺ قال فيه كلّ ما قاله فأنا قلتُه. ومنها: وهي من أعظمها أن الشيخ ﷺ قال: لا يصلُ إلى أحد مني بشيءٍ إلا على سيدي الحاج حرازم. ورأيت بعض أهل البصائر بل كافة الأصحاب المعتبرين في أذواق أسرار الطريق يعتقدون أن ذلك في حياته وبعد مماته، وكان بعضُ أهل الفتح من أصحاب الشيخ ﷺ ربما أشارَ إلى نفسه بهذه الخصوصية، ويذكر ما يفهمُ منه أنه أقيم مقام سيدي الحاج علي في ذلك بعد مماته، ويمكن التوفيق بأن المدد الجاري من حضرة الشيخ ﷺ عموماً وخصوصاً لا يتلقى إلا بواسطة سيدي علي حرازم غيباً، وأن السيد المذكور نابَ مَنَابَهُ في عالم الشهادة والحسِّ بعد وفاته، وعليه فلا مانع من أن يخلف هذا السيد غيره أيضاً، فافهمْ والله أعلم، وبهذا يحصل الاعتقاد الكاملُ فيهما معاً، ويتضح بملاحظة وساطة الأول غيباً والثاني أو غيره ممن عسى أن يقام ذلك المقام مشهداً، وفضل الله واسع والله أعلم. والأخبار المتعلِّقة بهذا السيد الجليل لا يمكن استيفاؤها هنا.

وممَّا حدَّثني به بعضُ العلماء الأفاضل أن امرأةً من أرباب الصرف كانت بمكناسة الزيتون[2]، وكانت ولايتُها وتصرُّفها بين الخاصِّ والعام مما لا يرتاب فيه، فاتفق أن قدم سيدي علي حرازم ﷺ مكناسة، فسأل عنها وعن المحلِّ الذي تكون فيه، فرافقه بعض الخاصة إلى محلها، فلما قربوا منها قامت من محلها وجعلتْ تستغيثُ بالشرع منه، وتسميه بولد لآل فلانة يعني سيدتي فلانة، وكان الحاضرون معه لا يعرفون اسمَ أمِّه فسألوه أهي

---

(1) علي حرازم بن العربي برادة: فاضل مغربي من أهل فاس، له كتاب «جواهر المعاني» في أخبار أبي العباس أحمد التجاني، مات سنة (1218هـ).
انظر دليل النشر: 12، ودار الكتب: 5/ 155.

(2) مكناسة: مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو الشرق، أكثر شجرها الزيتون. قال أبو الإصبع سعد الخير الأندلسي: مكناسة حصن بالأندلس من أعمال ماردة. قال: وبالمغرب بلدة أخرى مشهورة يقال لها: مكناسة الزيتون، حصينة مكينة في طريق المار من فاس إلى سلا على شاطئ البحر.
انظر معجم البلدان: 5/ 181.

التي تعني؟ فقال: نعم، ثم انصرفَ عنها وخلَّى سبيلَها، رَحِمَهُ اللهُ تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركاته آمين.

وأما الفقيه العالم سيدي **(محمد بن المشري)** فهو صاحبُ سيدنا وخازن أسراره، وقد تقدَّم بعض التعريف به، وشهرتُه كافية، وهو الذي ألَّف «نصرة الشرفاء في الردّ على أهل الجفاء» وغيره حسبما تقدَّمت الإشارة إليه، وكان قوي الحالِ في المحبة. ومما يؤثر عنه في ذلك أنه مرَّ وهو راكبٌ على فرس أنثى بضريحٍ بعض أهل التصرُّف بالصحراء وهو من أجداده رَحِمَهُ اللهُ تعالى فساخَتْ بعض قوائم فرسه[1]، فالتفتَ إلى ذلك الضريح وقال له: والله حتى تسرح فرسي أو أشكوكَ إلى الشيخ يتصرَّف فيك، فسرحت الفرسُ كأن لم يكن بها شيء، وهذا من غريب أوصاف المحبة. توفي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالصحراء سنة أربع وعشرين ومائتين وألف.

وأما العارف بالله تعالى سيدي **(محمود التونسي)** فهو من خاصة أصحاب سيدنا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومن المشهورين بالولاية والفتح الأكبر. وسمعتُ بعضَ الخاصة من أصحاب سيدنا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: إنه أحدُ من وَرِث بعض أسرار الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأنه نزل به عندَ وفاة الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حالٌ عظيم أثَّر في ذاته حرارةً خارقة للعادة، كانوا يرون أن ذلك من أثرِ ما تحملُه من الأسرار، وبقي على تلك الحالة إلى أن ألحق بالشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بنحو شهر وثمانية عشر يوماً. وكان ممَّن شهد له الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالأمانة، وذلك لقضية قال فيها رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كلُّ من تصرَّف لي في شيء من المال ظهرتْ عليه خيانة أو ريبة إلا سيدي محمود، وكان ذلك من الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في معرض تحذير المريد من خيانة شيخه، ومعلومٌ أنه من أعظم ذنوب المريدين مع أشياخهم عند أهل الطريق.

وحدَّثني الثقةُ أن سيدي محموداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو بفاس في جميع ماله الذي بالصحراء فكان يأتيه في كلِّ مرة بمالٍ له بال مما يجمعه من أثمان صوفٍ وسمنٍ وأكباش وثمر وغير ذلك، وهذا القدرُ من المال تستغرب السلامة من الوقوع في شيء منه في هذا الزمان ومع ذلك شهد له الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بما شهد من الأمانة، ومناقبه كثيرة.

وكانت وفاته حسبما رأيته بخطِّ الفقيه العالم سيدي التهامي بن محمد السقاط الفاسي نصف ليلة الثلاثاء الخامس من ذي الحجة متمِّم سنة ثلاثين ومائتين وألف اهـ، وهو موافق لما قدمت أني كنتُ أسمعُه من الخاص المتقدِّم الذكر من أنه لم يعشْ بعد سيدنا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلا

---

(1) ساخت قوائم الفرس: خاضت في رخو من الأرض وغرزت فيها.

نحوَ شهر وثمانية عشر يوماً، ودفن بمقبرة باب الفتوح، أحدِ أبواب فاس، وهي معروفة، وقبرُه معروفٌ يتبرَّكُ به، ودفن بإزائه ضجيعاً له الشريفُ الأجل البركة المبجَّل مقدم سيدنا الشيخ ﷺ سيدي عبد الواحد أبو غالب بإيصاءٍ منه على ذلك، ويذكر الأصحابُ أنهما كانا تواعدا ذلك وتعاهدا عليه، ودُفن إليهما السيد الجليل الناسك ولي الله تعالى سيدي الحاج عبد الوهاب بن التاودي عرف بابن الأحمر الفاسي، رحمهم الله تعالى، ورضي عنهم أجمعين.

وأما قوله: (العلوي) فالمراد به الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام، أحد ورثة أسرار الشيخ ﷺ بلا ريب سيدي محمد الحافظ العلوي الشنجيطي قدس الله ثراه، ويأتي في نسبه ما تقدَّم في نسب النَّاظم ﷺ تعالى، فهو من قرابته، وهذا السيد هو الذي انتشرت على يديه هذه الطريقة الأحمدية بالمغرب الأقصى، وله مآثرُ لا يمكن فيها الحصرُ والاستقصاء.

وقد تجاذبتُ أطرافَ الحديث في أخباره مع النَّاظم ﷺ ذات يومٍ فطلبت منه أن يضعَ له ترجمةً يجمع فيها ما يحفظُه من أخبارِه، فأعظمَ ذلك بما ظهر على وجْهِهِ أثرُه وقال لي: أمثلي يترجمُ للشيخ محمد الحافظ؟ وجعل يكرِّرها مراراً، فقلت له: إني لم أرد الإحاطة بما يتعلّق بمقامِه وأحوالِه، وإنَّما أردتُ شيئاً يسيراً من خبرِه في الجملة أتعلَّق به. فقال لي: إن كان ذلك فاكتبْ عني ما أمليه عليك، فذكر لي ما حاصله وملخصه: أن الشيخ الحافظ هذا ﷺ لما حصَّلَ من العلوم الرسمية ما حصل، وصار إماماً يُرْجَع إليه فيها، عَزَم على الحج لبيت الله الحرام وزيارة قبر نبيِّه عليه الصلاة والسلام، وجعل من أهمِّ مقاصدِه التي يطلبها في رحلته لتلك ملاقاة شيخ كامل من أهل الله تعالى، فاتَّفق أن رافقَه في الركب الذي توجّه فيه رجلٌ من أهل سجلماسة لأنه توجَّه في الركب السجلماسي، فلما حصلت بينهما الألفةُ أفضى كلٌّ منهما لصاحبه بسرِّه، وكان مطلبُ الرجل السجلماسي كمطلب الشيخ الحافظ، فتعاهدا على أن يخبرَ من عثر على المرادِ في ذلك صاحبَه، فلمَّا وَصَلا مكَّة جعل الشيخ الحافظ ﷺ تعالى لا يألُو جهداً في طلب ذلك من الله تعالى في جميع أماكن الإجابة، فبينا هو ذاتَ يومٍ في الطواف إذ لقِيَه رجلٌ فأسرَّ إليه: شيخُك هو فلان، وذكر له اسم الشيخ ﷺ، ولم يكُنْ طرَقَ سمعه قبلُ، فأتى صاحبه وأخبره ثم جعلا يسألان عن الاسم الذي ذُكر لهما حتى انتهيا إلى أهل الغرب، فقال لهم بعضُ الناس: انظروا أهل فاس، فأتيا جماعةً من سوقةِ أهل فاس فسألاهم، فقال لهم بعضهم: هناك عندنا بفاس رجلٌ فقيهٌ يعمل كذا وكذا ووصَفَه بالحكمة وعلم الكيمياء، وكأنه يريدُ بذلك تنقيصه، وتابعه

على ذلك جماعةٌ إلا واحداً منهم، قال لهما: انظرا تلك الجماعة، فإنهم مظنةٌ لتحقيق خبره أكثر منا. فأتَيا تلك الجماعة فألفيا عليهم سيما الخير، فسألاهم فأثنوا خيراً وعظَّموا الجانبَ، وذكروا العلمَ والولاية ونحو ذلك وقالوا لهما: إنّ هٰهنا رجلاً هو أخصُّ الخاصة من أصحابه، يعنون سيدي علي حرازم ﷺ، فنعتوا لهما محلَّه فأتياه فأخبرَهما خبرَه، فأخذ بمجامع قلب الشيخ الحافظ، فعَزَم على التوجُّه لفاس بعد قضاء حجِّه وزيارته، فدعا لذلك رفيقَه فلم يستطعْ مفارقة الركبِ السجلماسي حيث لم يقسم له من الله تعالى شيءٌ عند الشيخ ﷺ:

حكم نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بيد المنتسج

ثم بعد قضاء حجِّه وزيارته توجَّه إلى فاس، فأقام عند الشيخ ﷺ في زاويته المعروفة يربِّيه مدةً، وحين أزمعَ السفر إلى بلده أجاز له الشيخ ﷺ في طريقه بالإجازة المطلقة، ولم يقيِّد له بشيء إلا في التقديم فقط، فلا يزيدُ فيه على عشرة. وهذا القيد خاصٌّ بهذا السند الحافظي، كما خصّ السند الغالي بالتقييد بأربعةٍ في مرتبتين فقط على ما تلقيناه عن بعض الخاصة ممن هو أحد أربعة المرتبة الثانية، وأهل مكة أدْرَى بشعابها[1]، وعند موادعته للشيخ ﷺ قال له: أوصني، فكانت وصيةُ الشيخ ﷺ له أن قالَ له: لا تظهرْ بنفسِك حتى يكونَ الله تعالى هو الذي يظهِرُك. فتوجَّه لبلدِه وأقام بها مدةً يدرِّس العلمَ للطلبة ولا يدعو أحداً إلى طريقٍ ولا غيرَ ذلك عملاً على وصيَّةِ الشيخ ﷺ، فاتفق أن رجلاً ممن كان يشار إليه بالصلاح وملاقاة الخضر عليه السلام أتاهُ ذاتَ يومٍ بعد أن صلَّى العصر بتلامذته، وجَلَس إليهم يذاكِرُهم، فلما دنا الرجلُ من المجلس قيل له: هذا فلان، فقال: سبحان الله، ثم قامَ إليه ورحَّب به وأجْلَسه إلى جنْبه، فامتنعَ الرجلُ أن يجلس إلا بين يَدَيْه، ثم قال له: أتدري لماذا أتيتك؟ قال: لا، قال: أتيتك بإذن لتعطيني الأمانة التي أتيتَ بها من التل، فقال له: يا سيدي وأيُّ شيء أتيتَ به من التل، إنَّما أوتيت ببعض الكتب، فإن كان لك غرضٌ في بعضها جئتك به وهو لك، فقال له الرجل: دعني يا سيدي من هذا، وإنما أتيتك لتعطيني وِرْدَ الشيخ التجاني ﷺ الذي أتيتُ بالإذن فيه، فعندَ ذلك أنْعَمَ له، وأذِنَ له في الوِرْد، فقام جميعُ من حضر ذلك المجلس ورغِبَ إليه في تلقينه إياه، وسار كل واحد منهم إلى أهله وعشيرته، فقصَّ عليهم خبرَ السيد المذكور، فلم يبتْ في بيتٍ تلك الليلة من البيوت القريبة من منزل الشيخ الحافظ إلا وبات فيه ذكرُ الشيخ ﷺ،

(1) الشِّعاب: جمع شِعب، وهو الطريق الوعر في الجبل.

ومن الغدِ أتاه الناسُ أفواجاً للأخذِ عنه، ثم تواصَلَ ذلك وتراسل، فانتشرت الطريقُ على يدِه أي انتشار، وتخرَّج على يده ما لا يكاد يُحصى من الرجال في هاتيك الأقطار، ولو لم يكن إلا العلم الأشهر الذي تضرب بولايته في ذلك الصقع إلا مثال الولي الصالح الناسك الفاضل سيدي مولود قال لكان كافياً في هذا المجال، ولو لم يتخرَّج على يد سيدي مولود المذكور من سراة الأخيار إلا الجهبذ الكبير الحبر الشهير سيدي بانم المعروف بولد حم ختار لكان أيضاً كافياً في هذا المضمار. والشيخ بانم هذا كان في أولِ أمْرِه أخَذَ الوردَ الكنتي، وتقيَّد بالطريقة الكنتية، ثم بدا له الانتقالُ إلى الطريقة التجانية، فتخلَّى عن الأولى وأخذها فذكر أنه بعدما أخذها رأى النبيّ ﷺ في المنام، والشيخ ﷺ هو والشيخ سيدي المختار الكنتي جالسان بين يديه ﷺ. قال: فجَعَل الشيخ سيدي المختار يعاتبني على ترْكِ ورِدِه وانتقالي إلى وردِ الشيخ وطريقته، وأنا أنظرُ إلى الشيخ عساه أن يجيبه عني، فإذا هو ﷺ مطرِقٌ رأسَه غاضٌّ بصرَه بين يديه ﷺ، متأدِّب غاية الأدب لا يلتفتُ ولا يطرفُ، فلما أكثر على العتب الشيخ سيدي المختار التفت إليه النبي ﷺ وقال له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الانعَام: الآية 90] فانقطَعَ وسكت عني حينئذٍ اهـ.

وهذا الشيخ الرائي ﷺ من مشاهيرِ أهلِ العلم والصلاح، وحدثنا بهذه الرؤيا عنه أمثاله العدول الثقات، وفيها اعتبار ما بين مقامي الشيخين بين حاليهما بين يدي سيد الكونين ﷺ. وممن تخرَّج على يد الشيخ بانم المذكور الشيخ سيدي محمد بن الصغير مؤلف «الجيش الكبير» وناهيك به ﷺ تعالى ورضي عنه.

(وممن) تخرَّج على يد سيدي محمد بن الصغير أخوه العالم الكبير العارف بالله تعالى سيدي عبيدة مؤلف كتاب «ميزاب الرحمة الربانية» وغيره، وهو الذي أذِن لنا وأجاز بهذا السند وكتب لنا بخط يده ﷺ تعالى ورضي عنه.

(وممن) تخرج على يد الشيخ الحافظ ﷺ أيضاً ابنُ عمه وحموه العلامة القدوة سيدي محمد بن سيدي عبد الله بن الفغ الفقكي سيدي أحمد وهو المدعو بالخليفة، وعنه أخذ النَّاظم حسبما تقدَّم.

(وممن) تخرَّج على يد الشيخ الحافظ أيضاً زوجُه فاطمة أخت الخليفة المذكور، وقد كانت من الصَّالحات، وتؤثرُ عنها كراماتٌ كثيرة لا يسعُنا الآن تقييد شيء منها.

(وأما) الشريفُ الأجلُّ العارف بالله تعالى سيدي (محمد الغالي) ابن سيدي محمد أبي طالب الحسني ﷺ فهو أحدُ أركان طريقتنا، وممن انتشرتْ على أيديهم بالمغرب والمشرق، وعنه انتقلتْ إلى السوادين.

وقد كان سيدنا الشيخ ﷺ أجازَ له في الطريق وأمره أن يقدِّم أربعةً، وكل واحد من أولئك الأربعة يأمرُه بتقديم أربعة ليس إلا، وهذا كان له قيد حياة الشيخ ﷺ وبعد وفاته أيضاً قبل أن ينتقل إلى الحرمين الشريفين. وأما بعد حلوله بالحرمين الشريفين فالذي يظهر من عمله الإطلاق، ولا شك أنه حصَلَ له الإذن فيه، إما من بعض من لقيه في البلاد المشرقية من المقدمين، وإما من غيرهم بطريق الاستفاضة من روحانيات الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام وورثتهم كما هو معلوم، وليس من نسب مثل هذه المزية لهذا الفاضل بمؤنب ولا مَلُوم.

وقد كان له في الجد والاجتهاد في طاعة ربِّ العباد أحوالٌ خارقة للعادة.

من ذلك ما اتفق له ذاتَ يومٍ، وهو أنه كان جالساً قرب باب بيته من داره بمكناسة الزيتون يذكر أورادَه، مستقبلاً مستغرِقاً في حضوره انسقطتْ بنيةٌ له من أعلى حلقةِ الدارِ فلم يلتفتْ لذلك ولا تغيرتْ جلستُه ولا شيء من حالته التي كان عليها، بل بقي على ما كان عليه حتى كمل أوْرادَه، وكان يرتِّل العبادة صلاةً كانت أو غيرَها ترتيلاً لم نسمَعْ بمثله عن أحد. فأخبرني الثِّقةُ أنه كان يسبِّح في السجدة الواحدة خلفه نحواً من سبع وعشرين مرة. وأخبرني آخرُ أنه صلى العشاء أربعَ ركعاتٍ وذكر بعدَها الوِرْدَ اللازم لا غير في نحو ساعتين من كثرة ترتيله واستغراقِه في الحضور ﷺ، وكان يرى النبيّ ﷺ وكذلك الشيخ ﷺ بعد وفاته فيسألهُما عما أشكلَ عليه كحال اليقظة.

وأخبر الثقاتُ عنه أنه أخبر عن نفسِه ﷺ بأنه رأى النبيَّ ﷺ في المنام فقال له: أنت ابن الحبيب وأخذت طريقةَ الحبيب.

وحدثني بعض الخاصة من أصحاب سيدنا ﷺ أنه حدَّثه أنه رأى سيدنا الشيخ ﷺ بعد وفاته وقال له: سيدي، سرتَ عنّا وتركتنا، أو كلاماً من هذا، فأجابه ﷺ بقوله: لم أغبْ عنكم ولم أترُكْكُم وإنَّما هي نقلةٌ من دارٍ ترابية إلى دارٍ نورانية.

وحدَّثني بعضُ الخاصة من ملازميه أنه كان اتَّخذ خلوةً يختلي فيها في وقتٍ مخصوص لذكر مخصوص، فكان يأمرُه إن أخَذَه الحالُ أن يقف بباب الخلوة إلى وقتِ فراغه من الذكر، قال: فكنتُ إذا فرغ من الذكر دعاني فأدخل عليه فأجده كأنّه كان في حمامٍ شديدِ الحرِّ، حتى إنِّي كلَّمته في ذلك مرَّة فتبسَّم وقال لي: ضَعْ أصبعك هاهنا، وأشار إلى ظاهر كفِّه، قال: فوضعت أصبعي فكأني وضعتُها على جمرةٍ فرفعتها بسرعةٍ وقد أثَّر ذلك فيها كما تؤثر الجمرة تحقيقاً. ومثل هذا لا غرابة فيه من الصادقين فيما يذكرونه

بالإذن الخاص، ومنهم من كان يحترق لسانُه إذا ذكرَ اسمَ الجلالة، ومنهم من كان يجدُ غيرَ ذلك من الأثر حسبما ذكره الشيخ محيي الدِّين ﷺ.

ويذكر عن بعض صلحاء سجلماسة القرباء العهد أنه كان يكثرُ من الصلاة على النبي ﷺ فكان يجدُ لفَمِه وشفتيه حلاوةً محسوسة، وهذا لا ينكره إلا ضعيف الاعتقاد في أسرار الولاية وآثار الأذكار والله أعلم.

وأما **(السيد المفضل)** فالظاهرُ أنه أراد به السيد المفضل السقاط الفاسي، وكان من أفراد أصحاب الشيخ ﷺ، فامتحن في قضيةٍ معروفة فظهرت منه مخالفة للشيخ ﷺ فأخبر ﷺ أنه رَفَع عنه الإذن، ولما سافر إلى المشرق وآل أمرُه في سفره بعد حَجِّه إلى أن استوطن بأقتنى فلم يشعرُ الإخوانُ ذات يوم إلا وقد أخبر سيدنا الشيخ ﷺ أنه جدَّد له الإذنَ وأجازَ له في الطريق بالإجازة العامة والإذن المطلق.

وقوله: **(وغوث عصرنا)** إلخ أرادَ به العارفَ الكبير قطب أوانِه وحامل راية التربية والترقية بهذه الطريقة الأحمدية في زمانه أبو الحسن سيدنا الحاج علي بن الحاج عيسى التماسني، نسبة إلى تماسين من أرض الجريد، وشهرتُه كافية. كان ﷺ من خاصة الخاصة من أصحاب سيدنا ﷺ، وممن شهد له الشيخ ﷺ بالفتْحِ الأكبر في حياته، حتى أنه كان إذا قدم عليه زائراً بفاس يقدِّمه للإمامة بالزاوية مع كثرة من بها إذ ذاك من أكابر العلماء والفضلاء.

وقد اتفق له يوماً في الصلاة شيء مما يخلُّ بها، فذكر ذلك للشيخ ﷺ وكأن ذاكر ذلك يستفهمُه: هل يؤثر ذلك خللاً في صحتها؟ فأعرضَ الشيخ عن جوابه على وفق ما أراد، وقال: ذلك رجلٌ مفتوح عليه، والصلاةُ خلفَ المفتوح عليه مقبولةٌ، وناهيك بهذا شهادةً من الشيخ ﷺ لهذا السيد وتنويهاً بقدره.

وحدَّثني الشريف الأجلُّ المقدم البركة المبجَّل، خديم سيدنا ﷺ سيدي الطيب بن محمد السفياني، أنه في المدة التي ولاّه سيدنا ﷺ النيابة في الإنفاق على داره وقضاء حوائجه سأله الشيخ ﷺ ذات يوم عن بعض إمائه، وكانتْ مريضةً، فقال له: هل اشتريتَ لها الدواء؟ قال: فقلت له: يا سيدي قد اشترينا لها عدةً من الأدوية فلم يظهرْ لها أثرٌ، ولعلَّ الأوفق لها هو الكتابة، يعني الرقية، قال: فقال لي ﷺ: ومن يكتب لها؟ ثم قال ﷺ: ما رأيتُ من هو أهلٌ لذلك إلا سيدي الحاج علي التماسني لو كان حاضراً، قال فقلت له: وأنا أريد أن تأذَنَ لي في ذلك يا سيدي، كل من أذنت له فهو سيدي الحاج

علي، قال: فلم يقبل مني ذلك، وجعل ﷺ يقول: وأين مثل سيدي الحاج علي يا فلان وكرَّرها منكراً عليّ ما قلته حتى ودِدْت أني ما ذكرتُ له ذلك، وكفاه هذا من شهادة الشيخ ﷺ بالخير والبركة.

ومن المتواترِ عن هذا السيد صاحب الترجمة ﷺ، أنه كان بعد استيطان الشيخ ﷺ مدينة فاس يأتي إلى زيارته بطريق الخطوة حتى زَجَره ﷺ عن ذلك ونهاه عنه وقال له: إن كنتَ تريدُ مواصلتي لله فلا تأتِ إلا كهيئة عامَّةِ الناس بنعلَيْن وعكَّازه مع رفقةٍ تذوقُ جميعَ ما يذوقونه في الطريق من العطش والإعياء والخوف وغير ذلك.

وحدَّثني بعضُ الخاصة من أصحاب سيدنا الشيخ ﷺ أن سيدنا الشيخ ﷺ صلى العصر ذات يوم بباب داره وصلى معه جماعةٌ نحو الثمانية من أصحابه، وحين الْتفتَ من صلاتهِ وأقبلَ بوجْهه على من صلَّى معه لم يشعروا أنْ سقَط بينهم عرجون[1] تمر فنظرَ إليه الحاضرونَ ولم يعرفوا من أين سقطَ عليهم وتحيَّرتْ عقولُهم، فلما رأى الشيخ ﷺ ذلك من حالهم قال لهم: هذا فعل ذلك الرجل ووَصَفه بالبهلولِ أو نحو ذلك ثم سماه لهم، وذكر أنه اجتمعَ بالشيخ ﷺ بعد ذلك فذكر له ذلك وقال له: ما حَمَلَك عليه؟ فقال: يا سيدي اعذْرني فإني كنت في ذلك الوقت في حائط لي والخدام يجنون التمر فرأيتُ ذلك العرجونَ فأعجبني فتمنَّيْت أن يصِلَ إلى دارك على حالته، فحملني ذلك على أن رمَيْتُ به وقلت له سِرْ حتى تنزلَ بين يدي سيدي، فزَجَره الشيخ ﷺ ونهاه عن مثل ذلك، وبعد وفاة الشيخ ﷺ ظهرت عليه آثارُ الفتح الكبير وتصدَّى للتربية في الطريق، وظهرَ عليه فَيَضانٌ وجداني لا يوجد مثلُه إلا في كمل المشايخ، فصار الناسُ يأتونه من سائر الآفاق للأخذ عنه والتبرُّك به، فأخبرني ثقةٌ أنه كان أتاه في زاويته زائراً، فاتفق أن اجتمعَ عنده في مدةِ إقامته لديه نحو مائتي رجل كلُّهم يطلبون التقديم أي الإذنَ منه ﷺ في إعطاء الورد وكلُّهم من الآفاق البعيدة. وما وصفته به من التربية وَصَفه به غير واحد من أهل البصائر.

وذكر لي بعض الأفاضل من أصحابنا أنه كان حين حجَّ اجتمعَ ببعض المقدمين من قبل الشيخ ﷺ فأذِنَ له في إعطاء الورْدِ قال لي: فلما رجعت اجتزت بسيدي الحاج علي يعني صاحب الترجمة، فطلبتُ منه الإذنَ في بعض الأذكار فقال لي: وهل عندكَ إذنٌ في تلقين الأورادِ لمن طلَبها منك؟ قال: فلم أهتدِ لما هو الصوابُ فقلت له: عندي، قد أذن لي في ذلك المقدم سيدي فلان، قال: فقال لي: هو مربٌّ يستفهمني وكرَّرها، فلم أدْرِ ما

---

(1) العُرجون: العِذْق، وهو من النخل كالعنقود من العنب.

أجيبه به ولم يتفطَّن هذا الإنسان إلى أنه يشير له إلى أنه هو من أهل التربية حتى فارقه. وأخبارُه كثيرة وكراماته أوضحُ من شمس الظهيرة. وفي هذا القدر كفايةٌ مما تبرَّكنا به في هذا التقييد من أخبار هؤلاء السادات، الذين تعرَّض النَّاظم لذكرِهم هنا على طريق التمثيل، وإن كانوا بالنسبة لمن لم يذكره أقل القليل.

ثم ذكر النَّاظمُ ﷺ تعالى جماعةً ممن اشتُهروا بالعلم والصلاح ممن أخذوا عن سيدنا ﷺ على طريق التمثيل بهم أيضاً، كما تقدَّم، وإن كانوا لا يأتي عليهم الحصر فقال:

(وكَمْ إمامٍ عالِمٍ عَلاَّمةْ ... نَقَّاوةٍ وَرَّاكةٍ فَهَّامَةْ
مِنْ وِرْدِ شيخِنا الإمامِ قَدْ وَرَدْ ... حتَّى تَضَلَّعَ وفازَ بالمَدَدْ
كَتُرجُمانِ العِلْمِ والقرآنِ ... السَّالكِ العَلاَّمةِ الوَدَّانِي
والعُمَرِيِّ السَّيِّدِ الحفيانِ ... ذِي العِلْمِ والصَّلاحِ والعِرفانِ
والعَلَوِيِّ حَبْرِ شنجيطَ العَلَمْ ... الطَّالِبِ العلاَّمةِ البَحرِ الخِضَمْ
والتُّونُسيِّ العَالِمِ الرِّياحِي ... جَامعٍ بينَ العِلْمِ والصَّلاحِ
وغيرِهِمْ مِنْ عُلماءِ السُّنَّةْ ... أهلِ الفَضائِلِ وأهلِ المِنَّةْ)

هذا الذي أشار إليه في هذه الأبيات هو من قبيل الكرامات أيضاً، لما فيه من ظهور صورة الفتح على يد الشيخ ﷺ فيمن ذكر من هؤلاء الأعلام، الذين مثّل النَّاظم بهم في هذا المقام، وألفاظُ الأبياتِ وسبكها مما لا يحتاج إلى التطويلِ به، وقد اشتملتْ على أربعةٍ من أعيان الصدور وصدور الأعيان، وما هم في هذه الطريقة السنية إلا من أشْهَدِ الأركان.

فأوّلهم: هو العلاَّمة الأوحد، الإمام المبرِّز الفاضلُ الأمجد، سيدي (محمد المدعو السالك ابن الإمام)، ولم يحضرنا الآن من تفاصيل أخبارٍ ما نثبتُه في هذا الديوان، وكفاه تحلية النَّاظم إياه بترجمان العلم والقرآن.

و (الوداني) نسبة إلى ودّان: بلدة بصحراء شنجيط معروفة، ولم تزل كونها دارَ علمٍ ومقرّ خيرٍ وصلاحٍ إلى الآن موصوفة[1].

---

(1) ودّان: في معجم البلدان: 5/ 365 ثلاثة مواضع: أحدها بين مكة والمدينة، وأخرى جبل طويل بين فيد والجبلين، وودان (هذه) مدينة بإفريقية افتتحها عقبة بن عامر في سنة (46هـ) أيام معاوية.

ثانيهم: هو العلاَّمة الأستاذ المقري المشارك الفاضل **(أبو عبد الله سيدي محمد بالفتح المدعو الحفيان)** آل الشيخ الكبير والقطب الشهير سيدي محمد الشرقي العمري رحمه الله تعالى ورضي عنه، رحل من بلده في طلب العلم إلى مراكش[1] فأخذ القراءات وأحكامها عن ابن عمه الولي الصالح الزاهد الورع الأستاذ المبرز سيدي محمد بن عبد السلام الشرقي دفين روضة القطب الأكبر سيدي محمد بن سليمان الجزولي[2] رضي الله عنه، وسمع بها شيئاً من الحديث، ثم رحل إلى فاس فأقام بها مدَّةً وقرأ بها على غير واحد من مشايخها، وفي هذه المدة لقي الشيخ رضي الله عنه وأخذ عنه وِرْدَه وصحِبَه وانتفع بصحبته نفعاً ظاهراً.

وحدَّثني قدَّس الله سرَّه عن سبب اجتماعه بالشيخ وأخذه عنه، فقال: كان لي رفيق من الطلبة من أولاد أبي السباع، وكان من أنجب طلبةِ الوقت وأشدِّهم عنايةً بأخْذِ العلم والقيام بالديانة، وكان قد أخذَ عن الشيخ رضي الله عنه وِرْدَه وانخرطَ في سلك أهل طريقته، فكنتُ إذا وجدْتُه يذكر أورادَه وهو على غاية ما يكون من الخشوعِ والحضور وغضِّ الطرف والاستغراق في الذكر أهزَأُ به كالمداعبِ له، وأقول له: أيّ شيء تصنعُ وما هذا الشغل الذي أنت فيه؟ فكان يصبرُ لي ويستمرُّ على عمله، فإذا قضى غرضَه من ذلك أقبل عليّ وذكرني وتلطَّف معي في الوعظ والتنفير عن الاستهزاء بأهل نسبة الله تعالى، وربما ذكر لي الشيخ رضي الله عنه بما يرغبني في الأخذ عنه، فلما كان ذاتَ ليلةٍ وقد فعلت معه مثل ذلك وبالغْتُ فيه التفتَ إلي بعدما قضى ذِكْره وكلَّمني في ذلك وذكرني بجِدٍّ وبعض تعنيف على وجه النصيحة لي، فلم أشعرْ أن قلت له: إن أردتَ أن أدخلَ معك في هذا الأمر فأرني كرامةً يطمئنّ بها قلبي لما تقوله، فقال لي: وهل أنت فاعلٌ إن رأيتَ كرامة؟ فقلت: نعم إن شاء الله، وقد كان مضى من الليل القدرُ الذي ينامُ فيه الناس وتسدُّ أبوابُ السكك بحيث لا يفتح الموكَّلونَ بغَلْقِها إلا لمن عرفوا أنه من أهل الحوْمَةِ مثلاً بعد مشقةٍ تلحَقُه معهم في ذلك، كما هو معلوم، قال: فتوافقت مع الرفيق المذكورِ على أننا إن قصَدْنا دار الشيخ

---

(1) مراكش: أعظم مدينة بالمغرب وأجلها، وبها سرير ملك بني عبد المؤمن، وهي في البر الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر، وكان أول من اختطها يوسف بن تاشفين من الملثمين نحو سنة (470هـ). انظر معجم البلدان: 5/ 94.

(2) محمد بن سليمان بن داود بن بشر الجزولي السملالي الشاذلي، من أهل سوس المراكشية، تفقه بفاس وحفظ «المدوَّنة» في فقه مالك وغيرها، وحج وقام بسياحة طويلة ثم استقر بفاس وبها ألف كتابه «دلائل الخيرات». وكان له أتباع يسمون «الجزولية» من الشاذلية. ومات مسموماً سنة (870هـ).
انظر جذوة الاقتباس: 3، والضوء اللامع: 11/ 196، وجامع كرامات الأولياء: 1/ 165، و الخزانة التيمورية: 3/ 59.

ﷺ في ذلك الوقت ولم يتعذَّرْ لنا فتحُ الأبواب التي بين المدرسة التي نحن نازلون بها وبين داره، وهي كثيرة، ولا يتعذّر علينا أيضاً لقى الشيخ في ذلك الوقت فإن ذلك يكفيني كرامةً ولا أرجعُ حتى آخذ عنه ﷺ، فنهضَ الرفيقُ بشدَّة عزمٍ وقال لي: قم بنا، ففتحنا المدرسة وخرَجْنا قاصدين دار الشيخ ﷺ، فكلَّما أقبلْنا على بابِ دربٍ أو سوقٍ وجدْناه مفتوحاً، وكذلك حوانيتُ أهل الأسواق مفتوحةً، والمصابيح موقدة بها، وأنا لا أشكّ أن ذلك ليس من عادة أهل البلد، وأن ذلك خرقَ عادةٍ، فأخذني من ذلك رعبٌ عظيم ولم نزلْ كذلك حتى أقبلنا على باب دار الشيخ ﷺ، فإذا الضوءُ يظهرُ لنا ببابها، فلما انتهينا إلى الباب استأذنَ الرفيقُ فإذا الشيخ ﷺ جالس كالمتهيِّىء للقينا المنتظر لنا، فأدَّينا الواجبَ من التسليم عليه وجلسنا بين يديه، فرحَّب بنا وأقبل بكليته علينا، ثم طلبت منه التلقينَ، فمنَّ الله تعالى عليّ بمساعدته لي علي أحسن ما ينبغي في الحين، ثم رجعنا والأبوابُ على حالها وكذلك الحوانيت، فلما دخلْنا المدرسة سمِعْنا بعضَ المؤذنين بالقرويين ممن عادته أن لا يؤذِّن إلا بعد مضي ثلثِ اللَّيل. قال صاحبُ الترجمة قدَّس الله ثراه: وهذا أولُ خارقٍ اتفقَ لي مع الشيخ ﷺ، ثم شاهدتُ بعد ذلك ما لا يكاد ينحصر. قلت: وقد حدثني من ذلك بشيءٍ كثير، وقد أثبتُّ بعضه في هذا التقييد، ولا يمكنني استيفاء ترجمته تفصيلاً الآن، والله المستعان.

وأما ثالثهم: فهو إمام جيلِهِ والعالم المشارُ إليه بين أهل جلدته وقبيلته **(أبو عبد الله سيدي محمد الطالب المدعو الطالب)** جد الشنجيطي العلوي من قبيلة الناظم رحمه الله، وقد ذكره هو والسيد السالك المتقدِّم ذكره في كتاب «الجيش الكبير»، ووصفهما بالإمامةِ والجلالة والقدر الخطير، ويكفي هذا السيد الجليل القدر تحليةُ الناظم له بالحبر والبحر، ﷺ أجمعين ونفعنا بمحبَّتهم آمين.

وأما رابعهم: فهو شيخ الإسلام وقدوة الأنام حاملُ لواء العلم والعرفان، المخصوص حياً وميتاً برحمةِ الصريخ وإغاثة اللهفان، ناصرُ هذه الطريقة الأحمدية وحامي ذمارها ومطلع شُموسِها وأقمارها، الشيخ **(أبو إسحاق سيدنا إبراهيم الرياحي التونسي)**، ﷺ وأرضاه ونفعنا بمحبّته ورضاه، وشهرتُه بالتبريز في مدائن العلم والعمل والولاية الكبرى في سائر الآفاق كافيةٌ عن التعرض لتفصيل مجمل ذلك في هذه الأوراق، وحسب مثلي عند ذكر مآثرِه الإطراقُ، هيبةً لجلالة ذلك المقام، وأن يكون قصارى أمره في ذلك العيّ والإفحام. اللهمَّ إنِّي أسألك يا مولاي يا رب يا ذا الجلال والإكرام بجاهِ ما لهذا السيد عندك من أكيدِ الذمَّة، وما لشيخه لديك من عظيم الحرمة، أن تجعلني وإخواني

وأحبابي في حمى حمايتهم وأن لا تخرجني دنيا وأخرى عن ظلال عنايتهم آمين، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

وقول النَّاظم رحمه الله تعالى: **(وغيرهم من علماء السنة)** إلخ أشارَ به إلى ما قدمناه من أنه إنما قصد بمن ذكرَه من هؤلاء السادات التمثيل لا غير، ولا تقصير يلزمه في ذلك ولا لوم ولا ضير. ومن هذا «الغير» الذي أشار إليه رحمه الله تعالى العالم العلامة الإمام الفاضل المبرز الهمام **(أبو محمد سيدي عبد السلام)** ابن الشيخ الكبير العلم الشهير أبي عبد الله سيدنا المعطي بن صالح الشرقي، مؤلف «ذخيرةِ المحتاج» رضي الله عنه، فإنه وَرَدَ على الشيخ رضي الله عنه لما حلَّ بفاس ولم يشخصْه من بلدِه إلا ذلك، وذلك بعد أن كان يراسله حين كان بالصحراء، فلقِيَه بجامع الديوان من محروسة فاس، وأخذ عنه وِرْدَه.

وحدَّث عنه بعض من حضر لقيه وأخذه عن الشيخ رضي الله عنه وهو من أعيان أهل فاس ورؤسائهم ومن خدام الشيخ المعطي ومحبيه أنه رأى سيدي عبد السلام حين قام من بين يدي الشيخ رضي الله عنه قد أخذته الرُّحَضاء[1] وهو مصفرُّ الوجه يكرِّر قوله: «الحمد لله هذا هو الشيخ الذي كنت أترقَّبه في الغيب منذ زمان». توفي هذا السيد بفاس وصلى عليه الشيخ رضي الله عنه، ودُفِن بزاوية أبيه المعروفة بحومة النواعريين، وقبره بها مشهورٌ يتبرَّكُ به رحمه الله تعالى.

ومنهم شيخ الشيوخ: العالم العلاَّمة **(أبو زيد سيدي عبد الرحمٰن بن أحمد الشنجيطي)** المذكور في طالعة هذا التقييد، كان إماماً جليلاً في سائر العلوم، وكان يدرِّس بفاس العليا وكان جميعُ نجباء وقْته يأتونَ من فاس الإدريسية على أرجلهم لحضورِ مجلسِه، وتخرج منهم على يدِه جماعةٌ حسبما هو مصرَّح به في بعض الفهارس لبعضهم. كان هذا السيد قدَّس الله سرَّه قبل أن يأخذ عن الشيخ رضي الله عنه مبجَّلاً له معترفاً له بالخصوصية الكبرى مسلماً أن علمه من علوم العارفين الكبار أهل الكشف الصحيح.

حدَّثني سيدي محمد الحفيان المتقدم ذكرُه قدَّس الله سرَّه عن رفيقه السيد السباعي المذكور، أنه كان قبل أخْذِه عن الشيخ رضي الله عنه يقرأ على هذا الشيخ صاحب الترجمة بالمسجد الأعظم بفاس العليا، فلم يلبثوا ذاتَ يومٍ أن دخل الشيخ رضي الله عنه عليهم ومعه بعضُ أصحابه، فقام رضي الله عنه إلى سارية يصلي تحية المسجدِ والشيخ سيدي عبد الرحمٰن ينظر إليه وربما شغل بالنظرِ إليه عن بعضِ ما يقرِّره لهم، فلما رأى الشيخ رضي الله عنه سلم من صلاته وقطع القراءة وقال لتلاميذته: قوموا بنا نتبرَّكْ بهذا الشيخ، فقاموا مسرعين له وهم يعتقدون

---

(1) الرُّحضاء: العَرَق الكثير يغسل الجلد، والعَرَق إثر الحمَّى، والحُمَّى بعَرَق.

أنه لا أحدَ يبلغ درجته في العمل والعلم، فجلس بين يدي الشيخ ﷺ بأدبٍ ووقار، وطلب منه الدعاء له ولتلامذته فأسعفه بذلك، ثم سأله عن بعض ما كان أهمَّه من المسائل فأجابه سيدنا الشيخ ﷺ بما تبيَّن له به الحق والصواب، ثم أمَرَه أن يرجع إلى محلِّ درْسِه ويكمل نصابه، ولما انصرف الشيخ ﷺ وقضى الفقيهُ درسَه قال له السيد السباعي: يا سيدي والله ما اتخذناك شيخاً وقصرنا النظر عليك إلا لتيقُّننا أنه لا أحد أعلم منك في مغربنا، ثمّ إنك قمتَ إلى هذا الرجل الصحراوي المعصّب رأسه بخيط وبرِ الإبل، فسألته عن تلك المسائل ثم أذعنت لجوابه فقال له: اسكت يا بني فوالله الذي لا إلّه إلاّ هو ما أعلمُ على وجْهِ الأرض أعلمَ منه، وهذه المقالةُ كانت سببَ تعلق قلبِ السيد السباعي بجانب الشيخ ﷺ حتى أخذ عنه ﷺ، وقد قدمنا تاريخَ وفاتِه في طالعة الكتاب.

وحدَّثني بعضُ الأصحاب من المبرزين في العلم والفضل أن سبب مرض هذا السيد الذي توفي منه أن بعضَ أهل فاس كانت عنده دعوةٌ فدعاه من جملةٍ من دعاه من العلماء والأماثل فباتوا عندَه، فلما كانوا في أثناء الليل أخذوا يتذاكرون أخبارَ صلحاء الوقت فتناولَ بعضُهم جانبَ الشيخ ﷺ بشيء من الإنكار وساعَدَه بعضُ الحاضرين على ذلك وهذا السيد سيدي عبد الرحمٰن مستحضر للجواب عن ذلك فلم يردّ عليهم بشيء فأخذته سنة في تلك الحال فرأى الشيخ ﷺ وكأنه انقضَّ عليه من الهواء، فقال له ما لكَ لم تتكلّم وما تصنع هٰهنا؟ ثم أخذَه بقوةٍ وصعِدَ به في الهواء فانتبه مرعوباً وأحسَّ بألم في ذاته من حينه، فكان ذلك سبب مرَضِه الذي توفِّي منه، ولما احتُضِر كان يحدث بذلك تنبيهاً للغير وتنويهاً بشأن الشيخ ﷺ، وفي هذا القدر الذي ذكرناه على قوله وغيرهم من علماء السنة إلخ كفاية، والله المستعان.

ثم قال ﷺ تعالى مجملاً لبعض ما فصَّله في الأبيات قبل هذه ومتمماً للكلام في الكرامات:

(لا شكَّ أنَّ شيخنا التِّجاني	مَمَرُّ كلِّ عارفٍ صمداني
يعطي ويمنعُ ويسلبُ فمَنْ	كمثلهِ مِنَ الورَى في ذا الزَّمنْ
ومعْ ما ترى مِنَ الخَوارقِ	على يدَيْ هذا الإمامِ الفائقِ
يَخفي الخَوارقَ خفاءَ غايه	ويبغضُ المدَّعي الوَلايه
وكانَ ينهى النَّاسَ مِنْ دَعواها	مخافة السُّقوطِ في بَلواها)

(الإمداد) هنا إفاضة المدد على الغير، و(المعرفة) تقدَّم ما يشير إلى حقيقتها عند أهل

الطريق. و(الصمدانية) درجة في المعرفة معروفة عندهم، والموصوف بها من العارفين هو الصمداني: أي الذي يصمدُ إليه في طريق الإرادة ويرجع إلى علْمِه وهممِه في التسليك. والإفادة، وباقي ألفاظ الأبيات واضح.

يقول: إنَّما ذكرت من ذكرته ممن اشتهر من تلامذة شيخنا ﷺ بالولاية والصلاح والعلم والعمل والرشد والفلاح، قصداً للتمثيل فيما رُمْتُه وانتحيت مَنْحاه، من بيان ثبوتِ هذه الكرامة التي هي ظهورُ صورة الفتح في الغير على يد سيدنا ﷺ وأرضاه، وإلا فلا شكَّ عندنا أنه ﷺ مُمِدُّ العارفين وغوثُ الأولياء والصالحين، لما أُوليه من خطَّة الخلافة والتصريف؛ وما أُوتيه من خصوصية الكمال في مقامِ الكَتْم الشامخ المنيف، فلا جَرْم أن الله تعالى ملَّكه زمامَ المنَحِ والأسرار العرفانية، وجعلَ بيدِه الأعطاء والمنعَ بحكم المشيئة الربانية، وهذا مع ما أجراه الله تعالى على يد هذا الشيخ الكامل الهمام مما ذُكِر ومما لم يذكرْ من الخوارق العظام، فقد كان يخفي ما اتفق له منها غاية ولا يقبل من غيره التظاهر بقولٍ أو فعل يشير إلى الولاية، وكان ﷺ ينهى عن دعوى الفقر والاختصاص ولا يقرُّ على ذلك أحداً لا من العوامِّ ولا من الخواص، وذلك مخافة التردِّي في مهواة بلواها التي لا يمكن منها الخلاص، نسألُ الله تعالى العصمة الكاملة والعافية الدائمة والنعمة الشاملة بمحضِ كرمه وجوده آمين.

وكأن النَّاظم رحمه الله تعالى لاحَظَ فيما عقده في البيت الأول والذي بعده من هذه الأبيات قوله في «الجواهر» بعد وصفه لسيدنا ﷺ بالخلافة الكبرى والنيابة العظمى ما نصّه: فهو ﷺ يجلبُ بربِّه ويدفع، ويضعُ بهمَّته ويرفع، ويرقى بإذن الله وينزل، ويولي بأمرِ الله سبحانه ويعزل اهـ.

وأما الأبيات الثلاثة فظاهرٌ أنه عقد فيها ما وَصَفه به في الجواهر من تبرُّئِهِ ﷺ من الدعوى أتمَّ براءة وتنصُّله منها غاية التنصُّل وأنه لم يكن يقبلُ من أحدٍ ما يشير إليها، وإذا حكى شيئاً مما اتفق له من الكرامات أو ما يشيرُ إليها نسبه إلى مجهولٍ فيقول: وقع لبعض الناس أو نحو ذلك، وربما اتفق الاجتماع بمن حضر ذلك فيخبر بأنه شاهدَ ذلك منه وحَضَره، وأنه كان يشدِّد النكير في دعوى الفقر ويقول: إلى الآن ما حصلت لنا التوبة والإيمان الكامل، وأنه ﷺ كان كثيراً ما يستعيذ بالله من الدعوى ويقول: إن عقوبتها الموتُ على سوء الخاتمة، والعياذ بالله تعالى، انظر «الجواهر».

وقول النَّاظم «مخافة السقوط» إلخ محتمل لا يكون أشارَ به إلى هذا الوعيد الشديد،

بل ربما تعيَّن حملُه عليه بقرينة تعبيره بالسقوط الذي هو التردِّي من أعلى إلى أسفل والعياذ بالله تعالى.

وهنا انتهى ما قصد النَّاظم رحمه الله تعالى ذكره من التعريف بسنده قدَّس الله سره ويليه ما قصد ذكره من سند وِرْدِه الشريف وبعض ما اختصَّ به آخذه من الفضل المفخم المنيف مع استطراد بعض ما أكرم به من يحب هذا الإمام الأعظم والملاذ الأعز الأكرم رضي الله عنه وأرضاه، ومتَّعنا وسائرَ الإخوان بمحبته ورضاه.

وإلى ما قصد ذكره من ذلك أشارَ رحمه الله تعالى فقال:

* * *

سند الوِرْدِ وبعض فضائله

أي هذا مبحث سند الورد ومبحث بعض فضائله أو باب أو فصل إلخ.

والسند في الطريق وكذا في الحديث: هو مأخوذٌ في الأصل من السند، أي المرتفع من سَفْح الجبل، ومن قولهم: فلان سندٌ، أي معتَمَدٌ. وهو في اصطلاحِ أهل الطريق رَفْعُ الإذن في ذكر أو لبس خرقةٍ أو نحو ذلك إلى من أظهره الله على يدِه أو إلى النبيّ ﷺ. وأما في اصطلاح أهل الحديث: فهو ما وَصَل به المتْنُ المرويُّ المرفوع إلى قائله.

والوِردُ: الوظيفةُ من قراءةٍ ونحو ذلك، يجمَعُ على أورادٍ كحِمْل وأحمال اهـ قاله في المصباح. وقال ابن عباد: الوردُ عبارةٌ عما يقَعُ بكَسْبِ العبد من عبادةٍ ظاهرة أو باطنة اهـ. والمراد هنا الوردُ المتقدِّم الذكر من الاستغفار والصلاة على النبيّ ﷺ والكلمة المشرفة الذي رتبه سيِّد الوجود ﷺ لسيدنا ﵁، وأمَرَه بتلقينه لكافة الخلْقِ يقظةً ومشافهةً حسبما تقدَّم، وسيأتي لنا ذكر أركانه القائم منها مفصّلاً مبيناً عند تعرُّض الناظم لذلك، إن شاء الله.

والفضائلُ: جمعُ فضيلة، وهي الخصلةُ الشريفة في المتَّصف بها، وأراد النَّاظم بهذه الترجمة الشروعَ فيما قصَدَه بهذا النظم وهو ذِكْر هذا الورد الشريف وما يتعلَّق به، وبدأ من ذلك ببيان سندِه ثم بيان بعض فضائله.

أما السند فبدَأ به وقدَّمه على غيره من فصول هذا المبحث، لأنه أهمُّها بلا إشكال وذلك لما نصَّ عليه أئمَّةُ الطريق ﵃ من أن الذكْر، وإن كان حسناً على اختلاف أنواعه لا يتَّخذ منه وردٌ أو وظيفة إلا بإذْن شيخٍ، ومن اتَّخذ وِرْداً بغير إذنٍ فهو غارٌّ مغرورٌ اهـ ولما ذكره غيرُ واحد من الأئمَّة من أن الاعتناء بالسند من خصائص هذه الأمة، ولأنه نسبُ الإنسان في الدين، ومن أقبحِ الجهل أن يجهلَ الإنسان نسَبَه ولأنه أصل هذا الشأن وسائر ما عداه متفرِّع عنه، ومن لا سند له في الطريق فهو دَعِيٌّ فيها على التحقيق. قال ابن المبارك: لولا السندُ لقالَ من شاء ما شاء، ولا زالَ الأفاضلُ قديماً وحديثاً يتغالون أشدَّ التغالي في طلب علوه، أي قربه من النبي ﷺ. قال ابن معين: علوُّ السند قربة إلى الله

ورسوله، ولا يقالُ: إن هذا في رواية الحديث خاصَّةً. لأنا نقولُ هو في باب التربية وأخذ الأسرار المخصوصة بالخاصَّة كذلك أيضاً وآكد، ولهذا كان يتبجَّح من حَصَل له علوُّ السند في الطريق برؤيةِ النبيّ ﷺ يقظةً، كما تقدَّم لنا ذكره.

ومما اتفق للشيخ عبد الوهاب الشعراني وذكره من جملة المِنَن التي امتنَّ الله بها عليه وهو قوله: أدركتُ بحمد الله جماعةً ممن رأى النبيّ ﷺ في اليقظة واجتمع به وعدَّ منهم شيخه الخوَّاص والسيوطي وغيرهما، وكما تقدَّم لنا عن الشيخ إبراهيم المتبولي من أنه كان يقول: نحن في الدنيا خمسة لا شيخ لنا إلا رسولُ الله ﷺ، وعدَّهم. ومن التبجُّح بقرب السند وعلوّه على الوجه المذكور، قولُ الشعراني أيضاً ﷺ: لا أعلمُ أحداً في مصرَ الآن أقربَ سنداً إلى رسول الله ﷺ مني، فإن بيني وبينه رجلَيْن سيدي علي الخوّاص وسيدي إبراهيم المتبولي[1] فقط اهـ. يريدُ أنه أخذ عن الخواص وهو عن المتبولي ﷺ، ولعلَّ هذا كان قبل أن يحصلَ الاجتماع بالنبي ﷺ يقظةً لشيخه الخواص. وقد صرَّح في كلامٍ آخرَ له بأن شيخه الخواص لم يمتْ حتى صار يجتمعُ به ﷺ يقظةً إلى غير هذا مما هو مذكور من كلامهم في معرض التبجُّح بعلوِّ السند على الوجه المذكور، ولا أعلى من سند طريقنا على وجه الأرض في هذه الأزمنة، والحمد لله تعالى فإن أطولَ أهلها اليومَ سنداً من بينه وبين النبي ﷺ أربعُ وسائط أو خمس، ومنهم أفذاذٌ ليس بينهم وبينه ﷺ الآن إلا واسطتان، لأن بينهم وبين سيدنا الشيخ ﷺ واسطة واحدة، وقد حصَلَ لنا ذلك من بعض الطرق والحمد لله حمداً كثيراً لا نحصي ثناءً عليه كما هو أثنى على نفسِه سبحانه، فظَهَر من هذا أن السند آكدُ ما يُعتنى به في هذا الشأن، فلذلك قدمه النَّاظم ﷺ تعالى عما عداه.

وأما تقديمُه لذكر فضائل الوِرْد على ذكر ما عداها فلأن معرفة فضائل الأعمال مما يحثُّ على الاجتهاد فيها بغاية الدؤوب ودوام الإقبال. قال بعض العارفين: من لم يعرف ثوابَ الأعمالِ ثقلتْ عليه في جميع الأحوال، إذ لا يحمل النفوسَ على الأعمالِ وملازمة قرع الباب إلا معرفةُ ما لها من الثواب.

---

(1) هو إبراهيم بن علي بن عمر، برهان الدين الأنصاري المتبولي، صالح مصري، للعامة فيه اعتقاد وغلو، وكانت شفاعته عند السلطان والأمراء لا ترد، وله بر ومعروف، وأنشأ أماكن منها جامع كبير بطنطا وبرج بدمياط. قال ابن إياس: كان نادرة عصره وصوفي وقته، توفي سنة (877هـ) عن نحو ثمانين عاماً.

انظر بدائع الزهور: 2/ 145، والضوء اللامع: 1/ 85.

والإشارة إلى هذا المعنى موجودةٌ في عدة أحاديث. قال ﷺ: «لَوْ لَمْ يَعْلَمِ النَّاسُ مَا في النِّداءِ والصَّفِّ الأوَّلِ ثُمَّ لم يَجِدوا إلاّ أنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا عَلَيْه، وَلَوْ يَعلَمُونَ ما في التَّهجيرِ لاسْتَبَقُوا إلَيْهِ وَلَوْ يَعلَمُونَ مَا فِي العَتْمَةِ والصُّبْحِ لأتَوهُما وَلَوْ حَبْواً»[1] إلى غير ذلك.

قال: ثم لا يقدحُ في إخلاصِ العبدِ أن يريدَ بعمله حظوظَ نفسِه من النعيم الموعود به في الجنة، ولا يغير صحَّة نيته، لأن الله تعالى مدحَ ذلك ورغَّب فيه في كتابه الحكيم، وسنّة نبيِّه الكريم اهـ من بعض التقاييد بخط بعض العلماء ونسبه لتحفة العباد، وما ذكره ظاهر.

فإن قلت: العبادة من حيث هي لها مراتبُ ثلاث: **أعلاها** أن تكونَ لتعظيم الله ومحبّته، **وأوسطُها** امتثالُ الأمر، **وأدناها** أن تكون بقصد الأجر والثواب، وإنَّما كانت هذه أدناها لما فيها من حظِّ النفس، وذلك يلامُ صاحبه عند المحققين لأنه عاملٌ على مقتضى حظِّ نفسه، ولم يقمْ بحق أوصافِ ربِّه، وما وجهت به من تقديم ذكر الفضائل مآله إلى هذه المرتبة الملوم صاحبُها وما آل أمرُه إلى مثل هذا لا يحسن أن يتقدَّم غيره.

قلنا: الأمر على ما ذكرتُه من التقسيم إلا أن العملَ للثواب لا تكون مرتبتُه أدنى على العموم في حق كل فردٍ من أفراد العالمين، وإنّما تكون أدنى في حقِّ العامة فقط، وهم الذين لا يصحُّ منهم إخلاص إلا مع التجرُّد التام عن ملاحظة الثواب، وباعتبارهم جاء التقسيم المذكور في المراتب.

وأمَّا الخاصَّةُ الَّذين لا يقدحُ في إخلاصهم ملاحظةُ الثواب بالعمل، فإنَّهم لا يدخلون في المرتبة الثالثة، بل هم من أهل المرتبة الأولى بلا شكّ، لأنهم يعملون على التعظيم والمحبّة وشهود المِنَّة مصدِّقين في حال تعظيمهم ومحبّتهم بما وُعِدوا به من الأجر العظيم، ولا محالة أن تصديقَهم بذلك لا يقدحُ في تعظيمهم ومحبّتهم، بل هو مما يتقوَّى به ذلك كما يتقوى به شهود المنة أيضاً، ولا يخفى أن هذا هو حال الكمال، لأنه حالُ أهل الصحْو التام من أقوياء الرجال.

وقد قال بعض أهل التحقيق والتحرير وكلامه هو الحكمُ العدْلُ فيما أشرنا إليه في هذا التقرير ما نصّه: اعلمْ أن العملَ للثواب محمودٌ جدًّا حيث قصد به مجاراة الحقِّ في تنزله، يعني لعبده من حضرة الإطلاق إلى حضرة التقييد، مع أن أفعالَه تبارك وتعالى لا تُعلَّل، وعطاياه سبحانه ليست لغرضٍ، فالأدبُ التنزُّل لما رغِبَ فيه، فلا تكون العبادة

---

(1) رواه البخاري في (الأذان: 9، 32، 73)، وفي (الشهادات: 30)، ومسلم في (الصلاة: 129)، والنسائي في (المواقيت: 22)، وفي (الأذان: 31)، ومالك في (الجماعة: 6)، وفي (النداء: 3).

حينئذٍ للثواب، بل صارتْ ملاحظة الثواب عبادةً ثانية، مع أن وصْفَك الفقرَ والاحتياج إلى ما كان من سيدك، والمذمومُ الالتفاتُ لغرض نفسي اهـ. فبان لك أن ما سَلَكه النَّاظم رَحِمَهُ اللهُ تعالى في تقديمه لذكر فضْلِ هذه الطريقة الشريفة من المقاصد العالية المنيفة، واندفَع ما يتوهَّم ببادىء الرأي من أن العمل على ما يذكره من الفضل داخلٌ في حيِّز المرتبة الثالثة الناقصة، فكلامُه رَحِمَهُ اللهُ في ذلك تبعاً للشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في ذكره ذلك جارٍ على حال أهل الكمال التي هي مطمَحُ نظرِ كلٍّ من دَخَل في هذا العهد المحمدي الشريف، فإن كل من تقلَّد هذا العهدَ إن لم يتَّصف بتلك الحالة الموصوفة فهو بصدد الاتِّصاف بها من فضل الله تعالى، والخطاب في هذا الباب واردٌ من سيدنا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وممن تابعه على ذكر ذلك كالنَّاظم رَحِمَهُ اللهُ بحسب ذلك، فافهم والله تعالى أعلم.

وهنا وجه آخر لتقديم النَّاظم مبحثَ الفضائل على غيرها، وهو ما تقرَّر عند أئمة هذا الشأن، وذكره سيدنا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أن من لم يعرف الفضلَ الخاصَّ لا يحصل له، وإنَّما يحصل له العامُّ فقط، فحسن تقديم ذكرِ الفضل من هذه الحيثية أيضاً.

(دقيقة) ذكر في «نصرة الشرفاء» قاعدةً لأهل السرِّ، وهي أن من دَفَع بخصوصية أو فضيلة ومجّها قلبه[1] ولم يقبلْها، فذلك دليلٌ على أنه ليس من أهلها، ومن سمع ذلك وفرِحَ به قلبُه وانشرح للتصديق به صدرُه فذلك دليلٌ على أنه من أهله اهـ بمعناه. ويستأنس لهذه القاعدة بقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: الآية 125] الآية، وفي هذا القدر الغنية إن شاء الله والكفاية.

قال النَّاظم رَحِمَهُ اللهُ تعالى:

(أخذَ هذا الوِردَ شيخُنا الإمامْ ... عنِ الرّسولِ المصطفى خيرِ الأنامْ
يقظةً وكلُّ ما سيذكُرُ ... مِنَ المآثرِ فعنهُ ينشُرُ)

(الأخذ) هنا: معناه التلقِّي والتقيُّد بالعهد، و(اليقظة) ضد المنام، و(المآثر) المراد بها الفضائل والخصائص، و(النشر) الإشاعة، والمراد هنا: الرواية، أي فعَنْه يروي ومنه يتلقَّى ﷺ، وآثر التعبيرَ بالمضارع قصداً منه إلى التنبيه على أن هذا الفضل يدوم ذكرُه ونشره إلى آخر الدهر بدوام هذه الطريق بوعدٍ من النبي ﷺ صادقٍ لا خلفَ له، حسبما هو مبسوط في محله.

---

(1) مَجَّها: لفظها، ولم يقبلها.

يقول: وأما إن سألتَ عن سند سيدنا ﷺ في هذا الورد المحمدي الأسمىٰ فقد أخَذه ﷺ عن سيد الوجود ﷺ يقظةً ومشافهةً فليس له فيه سندٌ ولا قدوة إلا هذا السند الأقوى والقدوة العظمى، وكل ما سيذكر لك من فضائل هذا الورد وأهله في هذا النظام فهو مما تلقَّاه سيدنا ﷺ منه ﷺ في حالِ اليقظة كذلك أيضاً لا حال المنام، وقد صرَّح الشيخ ﷺ بهذا الذي عقده النَّاظم رحمه الله تعالى هنا غير ما مرَّة فيما نقل عنه من كلامه في هذا المقام وأفصح بأن عمدته في هذا الورد هو سيد الأنام، وذلك بعد أن أخَذَ عن عدَّةِ مشايخ، وتقيد بكثير من طرقهم المشهورة شرقاً وغرباً في بلاد الإسلام، فلم يقضِ الله له على أيديهم بوصول المرام، وأبت العنايةُ الربانية أن يكون لأحدٍ عليه مِنّة إلا لسيد الوجود عليه الصلاة والسلام.

ومن جملة عباراته ﷺ في ذلك قوله: «قد أخذنا عن مشايخ عدَّةٍ فلم يقضِ الله بتحصيل المقصود، وإنَّما سندنا وأستاذنا في هذه الطريق هو سيد الوجود ﷺ قد قضى الله بفتحنا ووصولنا على يديه ليس لغيرِه من الشيوخ فينا تصرُّف». وقال ﷺ في بعض رسائله التي أجاب بها بعضَ من كاتَبَه في ذلك وسأله عنه: سندنا في الورد المعلوم النبيّ ﷺ.

وأما المسبعات العشر فأخذناها مشافهةً عن شيخنا الشيخ محمود الكردي المصري ﷺ، وهو أخَذَها عن الخضر مشافهة.

وأما أحزاب الشاذلي، ووظيفة الشيخ زروق، ودلائلُ الخيراتِ والدور الأعلى، فكلُّها أخذناها بالإجازة عن شيخنا سيدي محمد بن عبد الكريم السمان[1] قاطن المدينة المنورة على ساكنها أفضلُ الصَّلاة والسلام، ولا يلتفتُ إلى من ينكِرُ الأَخْذَ عن النبيّ ﷺ مشافهةً، لأن إنكاره إنما هو لجهله بما تقدَّم من ثبوتِ جواز ذلك على وجه الكرامة الجائزة في حقِّ أهل الله تعالى باتِّفاق أهل السنة على ذلك، فإن كان ممن ينفي الكرامة كالمعتزلة ومن في معناهم فلا كلامَ معه، وليترك هو وعماه، وليستعذْ بالله من بلواه، وإن كان ممن يصدِّق بالكرامة إلا أنه استثقل ذلك بعدم مطابقته لهواه من غير دليلٍ اعتمده في ذلك واقتفاه، فهو ممن سجل عليه بالحرمان، ومن جملة من استَحْوذ عليه الشيطان، فأنساه ذكرَ الرحمٰن، إذ لا أقلَّ في حقِّ الموفق من التسليم لما لم يبلغه علمه ولم يصِلْ إليه إدراكُ عقله

---

(1) محمد بن عبد الكريم المدني الشافعي، الشهير بالسمان، صوفي، فاضل، من أهل المدينة، مولده ووفاته فيها (1130 ـ 1189هـ). من كتبه «الفتوحات الإلهية في التوجهات الروحية».
انظر سلك الدرر: 4/60.

ونهاه، وإن كان إنما يستثقلُ قول الشيخ ﷺ وأرضاه، ليس لغيره ﷺ فينا تصرُّف ومثله مما نحا مَنْحاه، مما يشير إلى الاستغناء عن المشايخ الذين كان أخَذَ عنهم قبل ذلك، فذلك لقصوره في علوم الطريق وعدم عثوره على شيء من أنفاس أهل الأذواق والتحقيق. وقد تقدَّم آنفاً قولُ سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ: نحن في الدنيا خمسة لا شيخَ لنا إلا النبيُّ ﷺ ثم عدَّهم، وهو صريحٌ أو كالصريح في أنه لا يتصرَّف فيه وفيمن عدَّهم من تلك الجماعة إلا النبيّ ﷺ.

وأصرحُ منه ما نقله الشعراني ﷺ عن الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر ﷺ من قوله: كنت أزورُ شيخي أبا العباس وغيره من صلحاء مصر، فلما فتح الله عليّ لم يكنْ لي شيخٌ إلا النبيّ ﷺ، وذكر أنه كان يصافحه ﷺ عقب كلِّ صلاة اهـ. وقول هذا السيد صريحٌ في الاستغناء عن شيخه وغيره، لأنه ترك حتى زيارة شيخه لما فتَحَ الله عليه.

ونقل عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ التصريحُ بنفي الانتساب لشيخه لما فَتَح الله عليه بالاجتماع به ﷺ وهو في كتب من ألف فيه شهير.

ونقل عن الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ أيضاً مثل ذلك، وكذا العارف بالله تعالى الشيخ أبو الشتاء الشهير بالخمَّار، فإنه سُئِل عن شيخه فقال: قال عبد الله الغزواني إلى غير ذلك، وهل الاستثقالُ لما نقل عن سيدنا ﷺ من مثل هذا مع عدم الاشتغال بشيء مما ذكر إلا محض عنادٍ واتباع لهوى إن وَقَع ممن اطَّلع على كتبِ الطريق أو قصور ممن صدَرَ منه عن الاطلاع على مسالك التحقيق. اللهمَّ أرِنا الحقَّ حقًّا وألهِمْنا بفضلك في اتباعه إيماناً وصدقاً آمين.

ثم أخذ النَّاظم في ذكر ما قصد ذكره من فضائل هذا الوِرْد وخصائصه فقال:

(آخِذه سَكْناهُ عِلِّيُّون في	جوار سيِّد الورى المُشرَّفِ
ويغفِرُ اللهُ له الكبائرا	مِنْ ذَنْبِه ويغفرُ الصَّغائرا
والتَّبِعاتِ مِن خزائِنِ المجيد	أداؤُها لا حسناتَ ذا المريدِ
لِذاكَ كانَ آمِناً في الحَشرِ	مِنْ هوله ومِنْ عَذابِ القبرِ
وزَوجه ونجله لا الحفَدَة	فيما مضى كذاكَ عَن تَدْ ولَدَهْ
إنْ لَمْ يَكُنْ مِنهم للشَّيخِ صدَرْ	بُغضٌ وإلَّا ما لَهمْ وما غَبَرْ)

(الأخذ) هنا يراد به ما تقدَّم أيضاً من التلقِّي والتقييد بالعهد، والمراد عن الشيخ ﷺ مشافهةً أو عمن وَصَله الإذنُ الصحيح منه ﷺ في ذلك ولو بالواسطة وإن تعدَّدت،

و(السكنى) المستقرُّ. و(عليون) الجنَّة الثامنة، وهي فوق الفردوس ينزلها الأنبياء وأكابرُ الأولياء من هذه الأمة، ومن اهتدى من الأمم السابقة من غير نبوَّةٍ لا من عداهم اهـ انظر «الجواهر»، و(الكبائر) جمع كبيرة، وهي الذنب العظيم.

واختُلِف في تعيينها في كتب الفقه ومثَّلوها بالسرقة والشرب ونحو ذلك. و(الصغائر) جمع صغيرة وهي صغار الذنوب وتكفَّر باجتناب الكبائر، و(التبعات) جمع تَبِعَةٍ، والمراد الحقوق الخلقية المتعلّقة بالمال والعرض، و(النجل) الولد، وأفرَدَه هو والذي قبله باعتبار الجنس و(الحفدة) جمع حفيد: وهو ابن الابن وكذا ابن البنت، و(البغضُ). ضد الحب، و(غبر) سلَفَ ومضى، وقوله: (وزوجه) مبتدأ خبره (فيما مضى)، أي: وزوجه ونجله إلخ داخلون فيما مضى من الفضل، أي فيما ذكر قبل من الفضل، وقوله: (وإلا ما لهم) إلخ أي وإن صدَرَ منهم بغض فما لهم وما غبر أي ما سلَفَ ذكره من الفضل.

يقول: إن من جملة ما ذكره سيدنا ﷺ من فضل هذا الوِرْد العظيم، عن نبينا المصطفى الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم أن كلَّ من أخَذَه عن الشيخ أو عمن عنده الإذنُ الصحيح في التلقين يكون مقامُه ومستقرُّه من فضل الله تعالى في أعلى عليين، بجوار سيد المرسلين وإمام المتقين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ويغفر الله له تعالى بفضله من ذنوبه الكبائر والصغائر، وتؤدى عنه التبعاتُ من خزائن الربِّ المجيد القادر، ولذلك كان آمناً من أن يروِّعه هولُ المحشر، أو يُؤلمه ضنكُ القبرِ، وأزواجه وأولاده المنفصلون عنه دنيا، وكذا أبواه داخلون معه في هذا الخير الجزيل، بفضل الله بشرط أن لا يصدر بغضٌ من الجميع في هذا الشيخ الجليل وجانبه الأعز المنيع.

ولم يذكر الناظم ﷺ والدي الأزواج، وقد تلقينا عمَّن أدركنا من أصحاب سيدنا ﷺ أنه كان يذكرهم أيضاً فيمن يعمُّه الفضلُ المذكور، وذيَّلنا كلام النَّاظم هنا ببيت يتضمَّن ذلك لمن أراد أن يلحِقَه به بعد قوله: «وزوجه ونجله» إلى آخر البيت وهو أعني البيت المذيل به:

وَوَالِــدُ الأزْواجِ أيــضــاً نَكَــرَهْ عــن شَـيْـخِـنـا قَـوْمٌ ثِـقَـاتٌ بَـرَرَهْ

واعتمدت في نظم هذا البيت سماعي من ثقات أصحابه ﷺ، وهو أيضاً فيما ألحقه مؤلفُ «جواهر المعاني» بهامش نسخته التي كتب له سيدنا عليها حسبما رأيناه بخطه فيها وعليه علامة الأصل، فأدخلناه في النسخة التي كتبناها من نسخته المذكورة، وهي الآن وقفٌ على زاوية سيدنا ﷺ التي بمكناسة، وقد كتب منها والحمد لله عدَّة نسخ وتفرَّقت في سائر الآفاق ونسخة الأصل المذكورة الآن بزاوية عين ماضي عمرُها الآن بذكره آمين.

وذكر المؤلف رحمه الله تعالى أنه بعدما كتب ما في الأصل من إملاءِ الشيخ رضي الله عنه عليه اطلع على ما رَسَمه من الإلحاق المذكور بخط يده، فليراجعْ ففيه التصريحُ بوالدَيْ الأزواج في جملة من طلب لهم الشيخ رضي الله عنه الفضل المذكور من النبي ﷺ وضمنه له.

قال في «جواهر المعاني» بعد إيراده لهذا الفضل ما نصّه: قلت: وهذه الكرامةُ العظيمة المقدار وهي دخول الجنَّة بلا حساب ولا عقاب لمن أخذ وِرْده ودخول والديه وأزواجه وأولاده لم تقعْ لأحدٍ من الأولياء فيما بلغنا، وإن وَقَع لهم أن من رأى من رآهم يدخل الجنَّة كالشيخ مولانا عبد القادر الجيلاني وسيدي عبد الرحمٰن الثعالبي ومولانا التهامي رضي الله عنهم، لم ينقلْ عن واحدٍ منهم أنه ذكر عدم الحساب والعقاب كما وقع لشيخنا رضي الله عنه، فهي خصوصية ومَزِية له ولأصحابه رضي الله عنهم اهـ.

وحاصل ما ذكره في هذه الأبيات من الفضائل خمس: **الأولى**: الاستقرارُ مع الشيخ رضي الله عنه بجوار النبي ﷺ في أعلى عليين بلا حساب ولا عقاب لمن أخَذَ هذ الوردَ ولوالديه وأزواجه وأولاده دنيا ووالدَيْ أزواجه كذلك، ولو لم يكنْ لواحد من هؤلاء المذكورين تعلُّق بالشيخ أصلاً، وإنَّما ذلك بسبب الأخذ للورد. **الثانية**: مغفرة الذنوب الكبائر والصغائر ما تقدَّم منها وما تأخَّر للآخذِ ولمن ذكره معه بسببه. **الثالثة**: أداء تَبِعات الأخذ للوِرْد، أعني ما عليه من الحقوق الخلقية من خزائن فضل الله تعالى لا من حسناته، وكذلك من ذكر معه تؤدّى عنهم تبعتُهم من خزائن فضل الله لا من حسناتهم بسببه. **الرابعة**: تأمينُه من هولِ الموقف، وكذا من ذكر معه بسببه. **الخامسة**: تأمينه من عذاب القبر، ومن ذُكِر معه كذلك أيضاً بسببه، وهذا كلّه بشرط أن لا يصدر من أحدٍ من المذكورين بغضٌ للشيخ رضي الله عنه ولا إذايةٌ لجانبه، لأنه رضي الله عنه استثنى المبغض في طلبه حين طلب ضمانَ ما ذكر من النبي ﷺ. ويشارك المذكورين في هذه الفضائل من تعلق بالشيخ رضي الله عنه بوجْهٍ من التعلُّقات، كمن أحسنَ إليه بشيء، أو أطعَمَه طعامه، أو كانت له عليه مشيخةٌ في قراءةٍ أو علم، أو قَضَى له حاجةً ونحو ذلك.

وأما من رآه فقط فغايتُه يدخلُ الجنَّة بلا حساب ولا عقاب ولم يضمَنْ له الاستقرار في عليين وراجع «جواهر المعاني» فقد بسط فيه مؤلفُه الكلامَ في ذلك بما كفى وشفى.

ثم أشار النَّاظم رحمه الله إلى بعض ما ينال المحب للشيخ رضي الله عنه من الفضل من غير أخْذِ للورد، بل بالمحبة فقط، وإلى ما تؤول إليه عاقبةُ مبغضِه، والعياذ بالله تعالى فقال:

(ولَن يَموتَ مَن يحِبُّ شَيخَنا إلَّا إذا نالَ وِلايةَ المُنى

كُفرٍ أعاذَنا الإلهُ ذو العُلا)	مَن لم يتبْ مِن بُغضِه ماتَ على

(الولاية) معروفة، و(المنى) جمع مُنْية، وأضاف إليها الولاية لأنها غايةُ ما يتمنَّاه العبدُ المؤمن، وباقي الألفاظ واضح.

يقول: إن من فضائل التعلّق بسيدنا ﷺ أن من أكرمه الله تعالى بمحبته ووداده لا يموتُ حتى يكونَ من أولياء الله تعالى وخاصته من عباده، ومن كان على الأخرى والعياذ بالله مما ابتُلي به فقد سجل عليه بالكفر ويا بؤس مُنْقَلَبه، ولا غرابة في الأول فإن: «مَنْ أحَبَّ قَوماً حُشِرَ مَعَهُم» و«المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[1] كما أنه لا بعد في الثاني كذلك: «مَنْ عادىٰ لي وَلِيًّا مِنْ أوْليائي فَقَدْ بارَزْتُه بالمُحَاربَةِ»[2] ومن حاربه الحقُّ تبارك وتعالى فقد هوتْ به الضلالة في مكان سحيق.

ثم عاد الناظم رَحِمَهُ اللهُ إلى تتميم الكلام في فضائل الوردِ بعد أن ذكر ما هو كالتتمة للكلام قبله فقال:

رُتبتَهم مِن طِيبه قد طابوا	(وصحبُه لا تُدرِك الأقطابُ
فرضاً ونفلاً وقَبولُه حصل	وكلُّ مَن عمِل لله عمَلْ
وهُم رُقودٌ وقتَ ذاك الفِعلِ	يُعطيهمُ عليه مُعطِي الفضل
ما أُعطيَ العامِلَ دونَ خُلفِ	أكثرَ مِن مائةِ ألفِ ضِعفِ
نبيُّنا لهم وذا مُفتخَرُ	لَدى المماتِ والسُّؤالِ يَحضُر
لطفٌ عن الأنامِ قد خصَّهمُ	يَسوءهُ ما ساءَهم ولهمُ
ربُّ الورى أسرعَ مِنَ طرفةِ عَين	يُجيزهَم على الصِّراط دون مَين
وتحتَ ظلِّ العَرش واقفونْ	مِنْ حوضِ خيرِ الناسِ يشربونْ
أعدَّ خالقُ الورى تكرُّما	ولو رأتْ أكابرُ الأقطابِ ما
واستنقصوا ما ركَنوا إليهِ	لِهؤلاءِ لبكَوا عليه
ذاكرِنا من غيرِ شكٍّ قد وقَع	سَبعونَ ألفَ مَلَك تذكُرُ مع
وذا لأجل قُطبِنا النَّدبِ الأبَر	وأجرُ ذاك كلُّه لِمَن ذكَر
نبيَّنا في الليلِ والنَّهارِ	يُجالسونَ سيِّدَ الأبرارِ

(1) رواه عن أنس البخاري في (الأدب: 96)، ومسلم في (البر: 165)، والترمذي في (الزهد: 5)، وفي (الدعوات: 98)، والدارمي في (الرقاق: 71).

(2) رواه ابن ماجه في (الفتن: 16) وفيه «فقد بارز الله بالمحاربة».

ونسبةَ المذكورِ للذي انكتَمْ ... كنسبةِ النُّقطةِ للبَحرِ الخِضَمْ
جَعَلنا الإلهُ مِن ذي النَّاسِ ... بِجاهِ شيخِنا أبي العباسِ

(الصحب) تقدَّم أن المراد بهم من تقيَّد بعهد الشيخ ﷺ من غير اشتراطِ لُقيَ ولا معاصرة على حدِّ ما قيل في أصحاب الأئمة أرباب المذاهب. و(الرتب) جمع رتبة والمراد الدرجة التي تنال بالعمل الصالح في الدار الآخرة، و(رقود) جمع راقد، من رَقَد يرقُد رَقْداً ورُقُوداً ورُقاداً: إذا نام في ليل أو نهار، وبعضهم يخصُّه بالليل، والأول أصحُّ بشهادة مطابقته للآية الكريمة: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: الآية 18] . (الضعف) المثل وقد تقدَّم، و(خلف) هنا: بمعنى إخلاف، أي دون إخلاف للوعد بذلك من النبي ﷺ لأن وعْدَ الكرام لا يتخلّف، وأرادَ بقوله: (لدى الممات) عند الاحتضار، وأراد بـ(السؤال) سؤالَ القبر، و(المفتخر). ما يفتخر به، و(ساء) ضد سرّ، و(اللطف) تقدَّم معناه في تفسير الاسم اللطيف، و(الصراط) و(الحوض) و(العرش) معلوم جميعها من السنة، و(استنقصوا) رأوه ناقصاً بالنسبة لغيره، وباقي الألفاظ واضح.

يقول: ومن فضائل أصحاب سيدنا ﷺ ومآثر أهل طريقه التي اختصَّهم بها مولاهم ومزاياهم التي تفضَّل بها عليهم بجوده وكرمه وأولاهم، ما أخبر به سيدنا ﷺ تبشيراً لهم وترجيةً وتأكيداً لنور إيمانهم، وتقوية من أن مراتبهم يوم القيامة عند ربهم الملك القادر الفاعل بالاختيار أكبر من مقامات من عداهم من الأولياء المقربين الأبرار، وذلك لما لحِقَهُم بفضلِ الله تعالى وسابق عنايته من بركة أستاذهم الذي طابوا من طيبه وشرفوا بولايته.

ومن ذلك الذي اختصُّوا به أيضاً أن كلَّ من عمل لله عملاً وتُقُبِّل منه نفلاً كان أو فرضاً يعطيهم الله على ذلك العمل وهم رقودٌ أكثر من مائة ألف ضعف مما يعطيه لصاحبه بمحضِ الفضل والجود والكرم الذي لا يدخل تحت محيطاتِ الأقيسة والحدود.

ومن ذلك الذي أكرم به أيضاً من عميم النوال حضورُ النبي ﷺ لهم عند الممات والسؤال.

ومن ذلك الذي نالوه أيضاً من الاختصاص بين الأنام أن إذايتهم إذايةٌ لجَنابه الأكرم عليه الصلاة والسلام.

ومن ذلك الذي أتحفهم به أيضاً مولاهم المتفضِّل المنان أن لهم لطفاً من الله يخصُّهم به في السر والإعلان.

ومن ذلك جوازُهم على الصراط أسرعَ من لحْظِ العين، وورودُهم الحوض على النبي ﷺ ورودَ الكرامة دون مَيْن.

ومن ذلك أيضاً استظلالُهم في الحشْرِ بظلِّ عرش الرحمٰن، وفوزُهم بما يغبِطُهم به هناك الأكابر من أهل العرفان.

ومن ذلك أيضاً ما خصُّوا به من أجل هذا الإمام من ذكر سبعين ألف ملك مع كل ذاكرٍ منهم مهما ذكر في كل منزل ومقام.

ومن ذلك أيضاً، وهو غاية كلِّ مقصَدٍ ومرام مجالستُهم لحبيب الله وصفوته من الأنام عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى السلام، ومع هذا كلِّه فنسبةُ هذا الذي ذكر مما لم يذكر من الفضائل والأسرار كنسبة نقطة للبحر الهائل الزخار.

نسألُ الله ربَّنا المولى الكريم الرؤوف الرحيم بجاه هذا الشيخ العظيم ونبيه المصطفى الكريم أن يجعلنا من جملةِ من شمِلَتْه هذه الدائرة الفضلية وعمته هذه النفحة الوهبية آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.

وهذه اثنا عشر فضيلةً اشتملتْ عليها هذه الأبياتُ الخمسة عشَر من هذه الأرجوزة الجليلة.

منها ما هو مذكورٌ في كتاب «الجواهر» ومنها ما في «الجامع» وغيره من المؤلفات والمجاميع المشتملة على كلام سيدنا رضي الله عنه الثابت عنه المشهور المتواتر، وسنبيّن جميع ذلك الآن إن شاء الله تعالى أتمَّ بيان، والله المستعان وعليه التكلان.

فأما الفضيلة الأولى فهي في «الجامع»، وعدَّها مؤلفه رحمه الله من مناقب سيدنا رضي الله عنه فقال: ومن مناقبه أن أصحابه الداخلين في طريقته لهم مراتبُ يومَ القيامة أكبر من مراتب الأولياء اهـ.

وتعبير النَّاظم بالأقطاب تبِعَ فيه ما في بعض الوجادات لمن لازم سيدنا رضي الله عنه من خاصَّة الأصحاب على أن ما في الجامع يتناوله بعمومه، لأن لفظ الأولياء عند الإطلاق يصدق عليه بمفهومه. وقول النَّاظم هنا **(من طيبه قد طابوا)** كالتعليل لهذه الفضيلة السنية ومعناه أنهم، أعني أصحابه الداخلين في طريقته رضي الله عنه، إنَّما نالوا هذه الخصوصية على أكابر الأولياء من أجل مقامه الأرفع الذي لا مطْمَع فيه لغيره من كمل العارفين الأتقياء، وكأن النَّاظم رمَزَ به إلى ما ثبتَ عن بعضِ الخاصة من الأصحاب المشار إليهم بالفتح بين

الإخوان والأحباب من أنه تلقَّى عن بعض أهل الاختصاص ممن كان يرى النبيّ ﷺ وكان إذ ذاك بالمدينة المنوّرة، على مشرِّفها أفضل الصلاة والسلام، أن مما أكرم الله به سيدنا ﷺ وتفضَّل به عليه من الخصوصية التي يعزُّ مثلها ووجودُها لغيرِه إلحاقُ أصحابه بدرجته ورتبته في جميع مقاماته التي لا يزال مترقياً فيها إلى أبد الآباد، فلا يرتقي من مقام من المقامات حتى يحصل المقام الذي قبله بمزية الإلحاق لاتباعه ﷺ، ولا يزال كذلك من فضل الله تعالى كلما ترقَّى من مقام إلى ما فوقه خلفه فيه أصحابُه وأتباعه دائماً أبداً، ومزيةُ الإلحاق التي أشرْنا إليها هي المستأنس لها عندهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطُور: الآية 21] الآية، قالوا: فكما أن الله تعالى يلحِقُ بالمؤمنين ذريَّتهم المؤمنين في الفضل، وإن لم يساووهم في الأعمال الصالحة، فكذلك يلحقُ من شاءَ من الأتباع لمتبوعِهم في الفضل، وإن لم يدرِكُوا درجته في العمل. ويشيرُ إلى هذا الإلحاق ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من رواية ثابت البناني عن أنس ﷺ قال: «جاءَ رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: وما أعدَدْتَ لها؟ قال: حُبَّ الله ورسولِه، قال: فإنَّكَ مَعَ مَنْ احْبَبْتَ»[1] قال: قال أنس: فما فرِحْنا بعد الإسلام فرحاً أشدَّ من قول النبي ﷺ: «فإنَّك مع مَنْ أحببت». [قال][2] أنس: «فأنا أحبُّ الله ورسوله وأبا بكر وعمر فأرجو أن أكونَ معهُم وإن لم أعمل بأعمالهم»، فتأمَّلْ قوله: «وإن لم أعمل بأعمالهم» تتضح لك هذه الإشارة. ثم إنه لا يلزم من هذا أن تكون منزلة الملحقِ وجزاؤه مثل منزلة الملحَق به من كلِّ وجهٍ، فافهم والله تعالى أعلم.

قلت: وهذه من أعظمِ الكرامات لسيدنا ﷺ وإن كان يعزبُ[3] فهمُها عن كثير من الناس كغيرِها من جل كراماته ﷺ وكرامات طريقه المباركة السنية. والسر في ذلك أن هذه الطريقة لما كانت أذواق من يسلك عليها غريبة، لأنها تفاضُ عليهم بحسب مقام شيخهم وأستاذهم لا بحسب مراتبهم وما هم عليه في استعدادهم كانت كراماتها في غاية ما يكون من الدقة حتى يكون إدراكُها كرامةً أخرى في حق من أدركها، لأنها لا تدرك إلا بالصفاء التام، والفتح والإلهام، وبهذا تكون كرامةً دائمة لسيدنا ﷺ بدوام من يفتح له في إدراكها من أصحابه وأتباعه وراثة محمدية وخصوصية أحمدية، والله تعالى أعلم وأحكم.

---

(1) رواه البخاري في (فضائل الصحابة: 6)، وفي (الأدب: 95)، والدارمي في (الرقاق: 71)، وأحمد: 5/ 156، 166.

(2) ما بين معقوفين زيادة من عندنا ليتم المعنى.

(3) يعزب: يبعد.

وأما الفضيلة الثانية فهي مما ثبَتَ عن سيدنا ﷺ على ألسنة الثقات من أصحابه ومن المتواتر المشهور أيضاً بين أتباعه وأحبابه. وسببُها ما حدَّثني به بعض الفضلاء من أصحابه وملازميه ﷺ أن رجلاً أجنبياً عن فقرائه باتَ معه ليلةً من الليالي التي كان يبيت فيها بالزاوية المباركة مع الفقراء الكرام، فلما أصبحوا ذهبَ ذلك الأجنبيّ وجعل يتحدَّث مع العوام على عادة المتهوِّرين القاصري الأفهام ويقول: كنت أظنُّ أن هذا الشيخ وأصحابه يبيتون في حال اجتهاد من أنواع العبادة، فإذا هم يبيتون كما يبيت غيرهم من الناس لا يزيدون على المحادثة بينهم فيما يتحدَّث فيه كلُّ الناس، فتناقل خبرَ ذلك الإنسان، فبلغ الشيخ ﷺ فقال ﷺ مبشراً ومثبتاً لأصحابه الذين طرق أسماعهم ذلك: كلُّ من عمل عملاً لله تعالى فرضاً أو نفلاً وتقبّل منه يعطينا الله على ذلك العمل أزيدَ مما يعطيه لعاملِهِ بأكثرَ من مائةِ ألف ضعفٍ ونحن رقود اهـ.

وأدخلَ نفسَه ﷺ في عموم الكلام مع أصحابه إشارةً إلى ما تقدَّم من مزية الإلحاقِ فافهم. وفي ذلك إيماءٌ إلى أنهم إنما نالوا تلك المزية من أجله ﷺ، ويؤيده ما في «الجامع» من التصريح بذلك مثل هذا، وذلك أن مؤلفه أخبرَ أن سيدنا ﷺ قال: يعطي الله لأصحابنا ثوابَ كذا، قال: فقلت له: ثواب الأعمال أو ثواب المرتبة؟ فقال لي ﷺ: ثواب الأعمال والمرتبة، قلت له: وهذا الفضل العظيم حصلَ لهم بسبب الفاتح لما أغلق أو بغير ذلك؟ فقال: فسكت هنيهة، ثم قال: من أجلنا لله الحمد والمنة. قال: ثم سألتُه ﷺ عن الفرق بين ثواب العمل والمرتبة. فأجابَ بقول إمام الطريقة الجنيد ﷺ: من أقبَلَ على الله ألفَ سنة، ثم أعرَضَ عنه لحظةً كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر مما فاته في ألف سنة، قال: قلت له: ما معنى كلامه؟ قال: أهل التجلي يعطي الله للواحد في كلِّ نفس كذا وكذا من التجليات في كل تجلٍّ قدر ما يعطيه لجميع الخلقِ وفي النفس الثاني كذلك، وفي النفس الثالث كذلك، وهكذا ما دام عمر الدنيا والآخرة، ونسبةُ كل تجلٍّ لما بعدَه كنقطةٍ في بحر ويقومُ بوظائفها وآدابها كلّها، فهذا هو ثواب المرتبة. قال: ثم قال ﷺ: ويعطي ثواب المرتبة لأصحابنا وإن كانوا أصحاب حجاب، قال المؤلف، أعني مؤلف «الجامع» رحمه الله: وهذه خصوصيةٌ عظيمة، جعلنا الله من أهلها دنيا وأخرى آمين.

وإذا عرفت هذا فقد اتَّضح لك أوجه في هذه الفضيلة بحمد الله تعالى، وقد كان يتبادر لي في حال المذاكرة مع الأصحاب في هذه الفضيلة قبل أن أرى ما ذكره في «الجامع» هنا أن الوجه الذي من أجله اختصَّ بها أهل هذه الطريقة هو ذكرُهم لصلاةِ الفاتح لما أغلق وهو إن كان يظهرُ فيه ذلك لما فيه من تضعيف صلوات المصلين على

النبيّ ﷺ وذكرهم وتسبيحهم فهذا الذي ذكره في «الجامع» عن سيدنا رضي الله عنه أوضح وأبلغ وأصرح، كيف وقد أعطى فيه القوسَ باريها[1] وأسكن الدار بانيها، نفعنا الله بعلوم سيدنا وأسراره وعمر ظواهرنا وبواطننا بمشرقات أنواره آمين.

وأما الفضيلة الثالثة فهي من المشهور المتواتر بين أصحابه رضي الله عنهم ومن بعدهم من الأتباع وحدَّثني بها بعض العلماء الأجلاء من خاصَّة أصحابه رضي الله عنه ومشاهير أعيانهم نفعنا الله ببركاتهم، قال لي قدَّس الله سره: حضرتُ مع والدي، وكان ممن أخذ الطريقة في أول ظهورِها عن سيدنا الشيخ جعلنا الله في حماه، وكان قد طال عهدُه رضي الله عنه برؤيته، يعني والده المذكور، فسألَه الشيخُ: من أنت؟ فقال له: إن المشايخ يعرفون تلامذتهم بظهْرِ الغيب، ويحضرون معهم عند الموتِ، في كلامٍ ينحو مَنْحَى هذا، فقال سيدنا رضي الله عنه مجيباً له عند ذلك: هو ﷺ كفاني الحضورَ مع أصحابي عند الموتِ وعند سؤالِ الملكين في القبر، ففرِحَ الحاضرون بهذه البشارة العظيمة وعدُّوها من بركات السيد المحدِّث بها ومن مآثرِه الجسيمة، لأنه هو الذي أتى بوالدِه المذكور ليجدِّد العهدَ بالأخْذِ عن الشيخ رضي الله عنه لما كان حصَلَ له من الفتور حسبما يظهرُ ذلك من خطابه للشيخ رضي الله عنه بما تقدَّم، فجدَّد العهد وزال ما كان اعتراه من الفتور، وظهرت هذه الكرامةُ العظيمة والبشارة العميمة بسبب صدق نيته وأثرِ همَّةِ ولده السيد المحدث بالقصة رحمه الله تعالى.

وقد ظهر، والحمد لله، مصداقُ هذه البشارة العظمى بين الأصحاب في سائر البلاد حتى شهِدَ بها غيرُ ما مرة من حضرها من أهل الانتقاد، فكثيراً ما أخبر بذلك المحتضرون من الرجال والنساء والعبيد والإماء من أهل هذه الطريقة المباركة في ذلك الموطن العظيم، وكثيراً ما ظهرت آثار ذلك في الشواهد الحالية على من لم يفصحْ بالإخبار به، جعلنا الله من المتعلِّقين بأذياله والثابتين على حُبِّه وحب من يحبه بجاه سيدنا ومولانا محمد خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وعلى آله آمين آمين آمين، والحمد لله ربّ العالمين.

وأما الفضيلة الرابعة وهي حضورُ النبيّ ﷺ لأهل هذه الطريقة عند سؤال الملكَيْن، فنصُّ كلام الشيخ رضي الله عنه فيها ما تقدَّم، ولا محالة أن هذا الحضور حضورٌ مخصوصٌ فهو غير الحضور العام المشار إليه في حديث سؤال القبر بقوله فيه: «ما عِلْمُكَ بهذا الرجل؟»

---

(1) «أعطِ القوسَ باريها» مثل في مجمع الأمثال: 2/ 345، أي استعن على عملك بأهل المعرفة والحذق فيه، ويُنشد:

يا باريَ القوس بَرْياً لست تحسنها ... لا تفسِدَنْها وأعطِ القوس باريها.

على ما ذكره العلماء فيه، لأن في هذا الحضور، كما يدلُّ له سياق الكلام، مزيد تأنيسٍ وكرامة لهم مع كفايتهم ذلك بحصول شفاعته ﷺ لهم، ومآل ذلك إلى ما هو مذكور في «الجواهر»، وكذا في «الجامع» من ضمان النبيّ ﷺ للشيخ رضي الله عنه تأمينهم من كلّ مخوفٍ ومكروه من الموت إلى الاستقرار في عليين.

[تنبيه] قال ابن أبي جمرة[1] رحمه الله: لما تكلَّم على فتنة القبرِ ما حاصلُه قوله عليه الصلاة والسلام: «يقالُ ما عِلْمُكَ بِهٰذا الرَّجُلِ؟» المرادُ به ذاتُ النبي ﷺ ورؤيته بالعين. في هذا دليلٌ على عِظَم قدْرَةِ الله تعالى، فإن الناس يموتون في الزمن الفرد في أقطار الأرض على اختلافها وبعدها، وكلّهم يراه قريباً منه، ثم قال: وفيه ردٌّ على من يقول: إن رؤيته ﷺ في الزمن الفرد في أقطار مختلفة على صور مختلفة لا تمكن، لأن القدرة صالحة لما نحن بسبيله.

وأما الفضيلة الخامسة وهي أنه يسوءه ﷺ ما يسوءُ أهلَ هذه الطريقة فهي من التواتر عن سيدنا رضي الله عنه أيضاً، وذلك أنه وَقَع بين رجلين من أصحابه رضي الله عنه مناقضةٌ توجبُ مجافاةً، فأمرَ رضي الله عنه أن يصلح بينهما، وقال: إن النبيّ ﷺ أمَرَه بذلك، وقال: قال لي ﷺ: قل لأصحابكَ لا يؤذي بعضُهم بعضاً، فإنه ما يؤذيني يؤذيهم، ووجْهُ هذا ظاهرٌ بيِّن، لأن طريقة الشيخ رضي الله عنه طريقة المحبوبية، والمحبوبية درجةٌ يلتحِقُ صاحبها بالأولاد والذرية عند من وقعت عليه منهم من نبي أو ولي كامل، كما يشير إليه حديث: «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ»[2] وكما وَقَعَ لسلطانِ العاشقين الشيخ أبي حفص عمر بن الفارض[3] رضي الله عنه حيث

---

(1) ابن أبي جمرة: محمد بن أحمد بن عبد الملك، ابن أبي جمرة الأموي بالولاء، أبو بكر، فقيه مالكي، من أعيان الأندلس، ولد بمرسية، وتفقَّه، وولي خطة الشورى، إرثاً عن آبائه وهو في نحو الحادية والعشرين، وتقلَّد القضاء في مرسية وبلنسية وشاطبة في مدد مختلفة، وامتُحن في امتناعه عن قضاء مرسية فأقام بها إلى أن توفي سنة (559هـ). ومن كتبه «نتائج الأبكار ومناهج النظار في معاني الآثار».

انظر شذرات الذهب: 4/ 342، والتكملة: 276.

(2) سلمان: هو سلمان الفارسي، الصحابي الجليل، وقد تقدمت ترجمتنا له، أما الحديث ففي أسد الغابة: 2/ 269، وفيه: «وهو الذي أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق لما جاءت الأحزاب، فلما أمر رسول الله ﷺ بحفره احتج المهاجرون والأنصار في سلمان، وكان رجلاً قوياً، فقال المهاجرون: سلمان منا، وقال الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: سلمان من أهل البيت».

(3) ابن الفارض: عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، شرف الدين، أشعر المتصوفين، يلقب بسلطان العاشقين. في شعره فلسفة تتصل بما يسمى «وحدة=

أَلْحَقَه ﷺ ببنيه وذريّته، وهو من بني سعد، قبيلة سيدتنا حليمة السعدية[1] شرَّف الله قدرَها، وقد قال ﷺ في مولاتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها: «فاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي»[2] الحديث، ولا مانعَ أن يلتحقَ بها في ذلك من وَقَع عليه سهم المحبوبية الخاصة منه ﷺ مزية له وخصوصية وكرامة من الله تعالى.

ويؤيِّد ما ذكرناه من ثبوت المحبوبية منه ﷺ لأهل هذه الطريقة من أجل شيخهم وأستاذهم رضي الله عنه، بسابق الفضل الإلٓهي والاختصاص الرباني، ما ثبت عن سيدنا رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال له: أنت حبيبي، وكلُّ من أحبَّكَ حبيبي. ذَكَره في «الجواهر» وكذا في «الجامع» أيضاً، وفيما وقفتُ عليه من كلام صاحب الرماح أن من خصائص أصحاب سيدنا رضي الله عنه الداخلين في طريقه محبة النبي ﷺ لهم محبةً خاصة غير التي تشملهم وتشمل من ذكر معهم من المتعلِّقين به رضي الله عنه. وفيه أيضاً أن بعض الخاصة من أصحاب سيدنا رضي الله عنه الوارثين لأسراره وأنواره حدّثه وهو معه بالمدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام أنه رأى النبيّ ﷺ فقالَ له: أنت ابنُ الحبيب، وأخذتَ طريقة الحبيب، إلى غير ذلك مما يتأيّد به ما ذكرناه.

وأما الفضيلة السادسة، وهي أنَّ لأهل هذه الطريقة لطفَيْن: اللطف العام واللطف الخاص بهم، فهي مما هو متواتر بين الأصحاب والأتباع، وقد حدَّثني بها بعض العلماء من أصحابه رضي الله عنه، قال لي رحمه الله تعالى: سمعته رضي الله عنه يقول: اللطف لطفان: اللطف الممتزِجُ بالمشيئة الإلٓهية، وهو الذي أشارتْ إليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: الآية 100] وهو المشار إليه في قول صاحب الحكم: مَنْ ظنَّ انفِكَاك لطْفِه عن قدرِه فذلك لقصور نظره. ولطْفٌ خاصٌ يختصُّ الله تعالى به أهلَ الخصوصية من عباده، وهو لازم

= الوجود». وكان جميلاً نبيلاً، حسن الهيئة والملبس، حسن الصحبة والعشرة، رقيق الطبع، سخياً جواداً، وكان يعشق مطلق الجمال. توفي سنة (632هـ).
انظر وفيات الأعيان: 1/ 383، وميزان الاعتدال: 2/ 266، وشذرات الذهب: 5/ 149، ولسان الميزان: 4/ 317.

(1) هي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر السعدي البكري الهوازني، من أمهات النبي ﷺ في الرضاع، قدمت مع زوجها بعد النبوة فأسلما، وجاءت إلى النبي ﷺ يوم حنين وهو على الجعرانة، فقام إليها وبسط لها رداءه، فجلست عليه. ماتت بعد سنة (8هـ).
انظر تاريخ أبي الفداء: 1/ 112، والاستيعاب، وأسد الغابة.

(2) رواه البخاري في (فضائل الصحابة: 12، 16)، ومسلم في (فضائل الصحابة: 93، 94)، وأبو داود (في النكاح: 12)، والترمذي في (المناقب: 60).

بفضل الله تعالى لأصحابي، لا ينفك عنهم في سائر تقلباتهم، ولا ينفك اللطف العامّ عن المشيئة الربانية. وكان بعض الفضلاء من أصحاب سيدنا ﷺ الملازمين له يقول لنا عند المذاكرة في هذه الفضيلة: قد شُوهِد جَرَيانُ الألطافِ الخاصة في أمورٍ، والذي من سبق في علم الله أنه سيكون من أهل هذه الطريقة بحيث تحسُّ بذلك أمُّه وهو في بطنها، وكذلك في إبان رضاعه وغيره من أطوار طفوليته، ولا بعد في هذا الذي ذكره هذا السيد رحمه الله، فإن المشايخ الكمل لا يزالون يربّون تلامذتهم في سائر أطوارهم قبل الأخذ عنهم بلا شك، كما هو مصرَّح به عن غير واحد منهم، ﷺ أجمعين.

وأما الفضيلة السابعة وهي جوازُ أهل هذه الطريقة على الصراط أسرعَ من طرفة العين على كواهلِ الملائكة، فهي مما هو داخل في ضمانِ النبيّ ﷺ للشيخ ﷺ حسبما في «الجواهر» و«الجامع».

وأما الفضيلة الثامنة وهي وُرودُهم الحوضَ إلخ، فهي كالتي قبلها أيضاً مضمونة لهم مذكورة في الكتابين معاً.

وأما الفضيلة التاسعة وهي وقوفُهم تحت ظلّ العرشِ في المحشر، فهي كذلك في الكتابين أيضاً ورأيتُ فيما وقفتُ عليه من كلام صاحب الرماح نفعنا الله ببركاته ما نصّه: وقال سيدنا ﷺ إن أصحابي لا يحضرون الموقفَ ولا يرون صواعقَه ولا زلازله، بل يكونون مع الآمنين عند باب الجنة حتى يدخلوا مع المصطفى ﷺ في الزمرة الأولى مع أصحابه، ويكون مستقرّهم في جوارِهِ ﷺ اهـ بلفظه، فلهم مع وقوفهم تحت ظلّ العرش زيادة هذه الكرامة أيضاً.

وأما الفضيلة العاشرة وهي غبطةُ أكابرِ الأقطاب لهم لما يرون من مكانتهم وما لهم من الفضل عند الله تعالى، فهي من المتواتر المشهور على ألسنة الأتباع روايةً عن ثقات أصحابه ﷺ.

وأما الفضيلة الحادية عشرةَ وهي ذكر سبعين ألف ملك مع الذاكر من أهل هذه الطريقة مهما ذكر ذكراً كيفما كان على الإطلاق، فهي في «الجواهر»، وهي مما خصَّ به سيدنا ﷺ عن سيد الأولياء ثم التحقَ به فيه أتباعُه من فضل الله تعالى حسبما هو مذكورٌ في «الجواهر» أثناء الكلام في فضل اسم الله العظيم الأعظم، فليراجِعْه هنالك من أراد ذلك.

وأما الفضيلة الثانية عشرةَ وهي مجالسة سيد البشر ﷺ فهي في «الجواهر» أيضاً من

جملة فضائل جوهرة الكمال، وذلك من الشائع الذائع بين الأصحاب وغيرهم، وهنا من الأسرار ما لا تستقلّ بحمله الأسفار[1]، ولا تتسع له العقول والأفكار، فلسان حال الشيخ ينشد في مثلها تعزيةً منه ﷺ فيها لمن ليس من أهلها وإغراءً لأهلها بإدراكها ونيلها:

وفي السِّرِّ أسْرارٌ دِقاقٌ لطيفةٌ تُباحُ بِمانا جَهْرةً لوْ بها بُحْنا

وبقي من فضائل أهل هذه الطريقة الشريفة، وخصائصهم السامية المنيفة، ما لم يذكره النَّاظم رحمه الله تعالى في هذا المحلِّ من هذه القصيدة، ولعلَّه استغنى عنه بما سيذكره قريباً من فضائل الياقوتة الفريدة، وجل ذلك مستوفى في الكتابين «الجواهر» و«الجامع» فليراجعهما من أراد أن يقفَ من ذلك على ما تقرُّ به الأعينُ وتقرط به المسامع، وقد كنت أردتُ أن أذكر من ذلك غير ما هو في الكتابين مذكور ومعلوم فأحجمَ القلمُ عنه خشية أن يكون عند الشيخ ﷺ من الأمر المكتوم، إذ قد أفصحَ ﷺ حسبما تقدَّم، بأن نسبة ما ذكر مما لم يذكر من هذه الفضائل كنسبة النقطةِ من البحر الزاخر الخضم، ثم في هذا القدر الغنية والكفاية لمن ألهمه الله التصديق والهداية.

ولما كانت هذه الفضائلُ كلُّها مشروطاً في نَيْلها عدم الأمن من مَكْر الله تعالى والإصرار على المخالفة اتكالاً على ما سمع من فضلها أشار النَّاظم إلى ما ذكره الشيخ ﷺ في التحذير من ذلك فقال:

(تحذير) أي هذا تحذيرٌ وتخويف وإنذارٌ لمن سمِعَ ما ذكرناه من الفضل، ثم رَكَن بسببه إلى أمنِ المكْرِ وأخْلَدَ إلى التمادي على العصيان والمخالفة بطريق الإصرار والانهماك والاغترار. ثم قال رحمه الله:

(ومَن رأى ذَا الفضلَ ثُم اتَّكلا عليْه فاعلاً لِما قد حَظلا
يَسبُّ غوثَ العالِم التِّجاني شيخ الشيوخِ العارفِ الرَّباني
فعِنْد ذاكَ لا يموتُ إلّا إذا بحِليةِ الشّقا تحلّى
انظُره في جَواهر المعاني في فيضِ قُطبِ العالِم التجاني
ومَن لِمكْرِ الله ربِّنا أمِنْ فذاكَ بالخُسرانِ والطَّردِ قمِنْ
وجاءَ ذا الوعيدَ في القرآنِ أعاذَنا الله مِن الخُسرانِ
فالأنبياءُ على عليِّ رُتَبِهم لم يأمنوا بِذاكَ مَكْرَ ربِّهم)

---

(1) الأسفار: جمع السِّفْر، وهو الكتاب العظيم الضخم.

(رأى) بمعنى علم[1]، و (حظل) هنا: بمعنى منع في حكم الشرع، و (يسب) من سبَّه يسبُّه إذا شَتَمه ووقع فيه بلسانه، و (الشقا) ضد السعادة، و (قمن) حقيق، وباقي الألفاظ واضح.

يقول: إن من سمعَ بهذه الفضائل السنية الفخار، ثم اتَّكل على ذلك وانهمك في ارتكاب المخالفة والتمادي على الإصرار، فإن الله تعالى يلبس قلبَه، والعياذ بالله، بغضَ هذا الإمام الأعظم حتى يقع في جانبه بالسبِّ والشتم، فعند ذلك يسجل عليه بالشقاء والخذلان فيبوءُ بالهلاك والخسران، والارتطام في مهواة الكفران، والعياذ بالله تعالى، وذلك لأمْنهِ مكْرَ المولى الجبار ذي البطش الشديد، وقد جاء في القرآن العظيم ما جاء في ذلك من الوعيد[2] والأنبياء عليهم السلام مع ما لهم عند الله تعالى من الجاه الخطير، لم يأمنوا مكْرَ ربِّهم القدير.

وعقد النَّاظم رحمه الله تعالى في هذه الأبيات ما في «جواهر المعاني» وغيره من قول سيدنا رضي الله عنه على وجه التحذير لأصحابه والإرشاد لهم.

أقول لكم: إن سيد الوجود ﷺ ضمِنَ لنا أن من سبَّنا ودامَ على ذلك ولم يتبْ لا يموتُ إلا كافراً.

وأقولُ للإخوان: إن من أخذَ وِرْدنا وسمِعَ ما فيه من دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب، وأنه لا تضرُّه معصية فطرحَ نفسَه في معاصي الله واتخذ ذلك حبالةً إلى الأمان من عقوبة الله في معاصيه ألبس الله قلبه بغضنا حتى يسبّنا، فإذا سبَّنا أماته الله كافراً، فاحذروا من معاصي الله ومن عقوبته، ومن قَضى الله عليه منكم بذنب - والعبد غير معصوم - فلا يقربنَّه إلا وهو باكي القلبِ خائفٌ من عقوبته، والسلام اهـ.

وفي معنى قوله رضي الله عنه «باكي القلب» إلخ قول القائل:

الله يعلَمُ ما إثمٌ هَمَمْتُ بهِ ... إلاَّ ونقَّصَه خَوْفي مِنَ النَّارِ
وأنَّ نَفْسي ما هَمَّتْ بمعْصِيةٍ ... إلا وقَلْبي عليها عاتِبٌ زَاري[3]

---

(1) «رأى» بمعنيين: بصرية، هي تفيد المشاهدة بالعين، وقلبية تفيد معنى العلم بالشيء علماً ينتسب إلى البصيرة لا البصر.

(2) لعل المراد الآية ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99]، والآية ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: 12].

(3) زاري: اسم فاعل من الفعل «زرى» بمعنى احتقر.

وقول النَّاظم: (فالأنبياء على عليّ رتبهم البيت) أتى به تأكيداً لما قبله، فكأنه يقول: وإذا كان الأنبياءُ عليهم الصَّلاة والسَّلام على ما اختصُّوا به من كمال العصمة وعلوِّ الرتب بين الأنام، لحِقَهم الخوفُ من الرب الكبير المتعال، ولم يأمنوا مكرَه، لكمال معرفتهم في حالٍ من الأحوال، فما بالك بمن عداهم؟ وأشار بهذا إلى نحو ما حكاه الله تعالى في القرآن عن الكليم عليه السلام في قوله جل وعلا: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ [طه: الآية 67] وذلك بعد أن قال له تبارك وتعالى في وقت الرسالة: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: الآية 35] حيث لحِقَه الخوفُ مع كمال عصمته بعدما سمع في وقت الرسالة ما سمع، وما ذلك إلا لعدم أمْنِه مكر الله تعالى في حال من الأحوال، ومثل هذا ما وقَع لنبينا ﷺ يومَ بدرٍ[1]، فإنه ﷺ كان وعده ربُّه عز وجل النصر على قريش والظفر بهم وأراه مَصارِعهم، ومع ذلك لما رآها تصوب من كثيب الرمل آتيةً لبدرٍ قال: «**اللهمَّ هذه قريشٌ جاءَتْ بفَخْرِها وخُيَلائِها تُحادُّكَ**[2] **وتكذِّبُ رسولَكَ، اللهمَّ نَصْرَكَ الذي وعَدْتَني**»[3] ثم لما سوى الصفوفَ للقتالِ انعزلَ ناحيةً وحدَه في العريش[4] يستغيث بالله وأبو بكر قائمٌ على رأسِه يحرسُه ويقول: دَعْ مناشدتكَ ربَّك، فإن الله منجزٌ لك ما وعدَكَ به وهو ﷺ لا يقلع عن المناشدة والاستغاثة، إلى غير هذا مما أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مما يدلُّ على عظيم خوفهم من الله تعالى الذي لم يكن يزايلُهم في حال من الأحوال، وذلك لأن خوفهم على قدْرِ معرفتهم.

وقد ورد في حق الصحابة ﷺ مما يدلُّ على عدم أمنهم من مكر الله تعالى مع كمال فضيلتهم وثبوتِ خصوصيتهم التي لم يسبقْهم فيها أحدٌ من العالمين ما عدا الأنبياء والمرسلين، وكذلك في حق كبار التابعين مع قوة إيمانهم وشدَّة متابعتهم وكثرة مجاهدتهم التي اختصُّوا بها عمَّنْ عداهم ممن بعدهم.

---

(1) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار ليلة، وبها كانت الوقعة المباركة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام وفرق بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة (2 هـ). وانظر معجم البلدان: 1/ 357.

(2) تحادّك: تعاديك.

(3) الحديث في السيرة النبوية لابن هشام: 2/ 224.

(4) العريش: مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل. انظر معجم البلدان: 4/ 113.

وبالجملة فقد قال العلماء: التحقيقُ هو أن الوعد لا يمنع الدهشة وخوف الصدمة، كما سيقع للأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام يوم القيامة، والعشرة المبشَّرون[1] بالجنة كانوا يخافونَ سوءَ العاقبة لاحتمالات، وانظر «نسيم الرياض». ولو تتبعنا ما وَرَد في ذلك لأفضى بنا إلى التطويل، وخرَجَ بنا عن المقصود، وانظر صحيح الإمام البخاري في باب «خوف المؤمن من أن يحبط عمله» إلخ من كتاب الإيمان مع ما ذكره شراحه في هذا المحل أيضاً ففيه كفاية، والله ولي التوفيق.

وقد كان سيدنا ﷺ كثيراً ما يحذّر أصحابه منه ويتلوّ في كلٍّ مرةٍ قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الاعراف: الآية 99] وخصوصاً إذا ذكر ما له ولأصحابه من الخصوصيات على وجْهِ التبشير لهم والتحدُّث بالنعم، فإنه ما ذكر شيئاً من ذلك إلا وقيده بقوله: هذا إن سلمنا من مكْرِ الله تعالى، هذا دأبه مدة حياته ﷺ، وكان كثيراً ما يقول متبرِّئاً من كلٍّ ما يوجب أماناً من مكر الله تعالى له ولأصحابه: ما عندنا إلا فضل الله تعالى وشفاعة رسوله ﷺ.

ثم لما أنهى الناظم الكلام في التعريف بالشيخ ﷺ، وبيان سند هذا الورد الشريف وما لأخذِهِ من الفضل وكان الوردُ إنما يؤْخَذُ عن الشيخ ﷺ أو عمن وَصَله الإذْنُ في إعطائه منه من طريق الصحَّةِ مع مراعاة الأهلية المشروطة في ذلك أتبع النَّاظم ما تقدَّم ببيان صفة المقدم المأذون له في الإعطاء فقال:

* * *

---

(1) العشرة المبشرون بالجنة هم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح.

صفة المقدم

أي هذا بحث صفة المقدّم أو فصل ذكر صفة المقدم أو نحو ذلك قال:

(يعطيه من قدّمه الشيخ ولا ... يقدّم الغير سوى من حصلا
ذاك له من شيخه ويجري ... ذا في المقدم ممرّ الدهر
وليس يخلو الدهر من مقدّم ... ملقّن أوراد هذا العلم)

الضمير في (يعطيه) للورد، ومعنى يعطيه هنا: يلقنه ويأذنُ فيه، ومعنى (قدمه) هنا: أمَره أن يلقِّنه الناس بأن قال له: قد أذنتُ لك وأجزتُ لك أن تلقِّن الناسَ هذا الورد، و(الشيخ) الأول: المراد به سيدنا ﷺ، والثاني: يحتمل أن يراد به سيدنا أيضاً ويكون المراد من حصل له الإذن في ذلك، وإن بواسطة ولو تعددت إلى آخر الدهر، ويحتمل أن يراد به المقدم الذي أذن له، فإنه يطلق عليه شيخاً أيضاً باعتبار تقديمه على غيره ممن يأخذ عنه، وقوله: (ويجري ذا في المقدم) إلخ. أي يستمرُّ العمل في المقدم للإعطاء على هذا بأن لا يلقِّن أحدٌ هذا الورد إلا من حصلَ له الإذن الصحيح في ذلك، و(الدهر) الزمان، و(ملقن) اسم فاعل لقَّنه الشيءَ فتلقَّنه. إذا أخذَه من فيه مشافهة.

يقول: وإنَّما يعطى هذا الورد المحمدي الشريف، ويلقن هذا السرّ الأحمدي المنيف من حصل له الإذنُ الصحيح باللفظ الصريح، من سيدنا الشيخ ﷺ أو ممن حصَّلَ له ذلك منه ولو بواسطة أو وسائط تجدَّدت إلى آخر الدهر، وإن تكاثرت وتعددت لأن الدهر لا يخلو ما دامت الدنيا عمن يلقن أورادَ هذا الإمام، لضمان النبي ﷺ له بقاءَ طريقه ببقاء الليالي والأيام، ثم إن الإذنَ في التقديم أي في تلقين الورد تشترط فيه الأهلية على السنن المعروف والنهج المألوف، فليس الإذنُ عندنا في تلقين الوِرْد جرياً على نهج الإذن في ذكرِه فقط كما يفهمه من لا علم عنده، فإن الإذن في ذكر الورْدِ لا يشترط فيه عندنا إلا عرض الشروط المشروطة فيه على مُريد الدخول في الطريق ويقررها له حتى يتعقَّلها، فإذا قَبِلها أذِنَ له في الورد أيًا كان من المسلمين، ذكراً أو أنثى، كبيراً أو صغيراً، حرًّا أو عبداً، طائعاً أو عاصياً، من غير توقف في شيء ولا نظر إلى شيء، إلا إلى ما ذكر من قبوله الشروط فقط.

وأما الإذن في تلقينه فتشترط فيه مراعاةُ الأهلية، فلا يؤذن ذلك إلا لمن ظهر عليه من الشواهد الحالية ما يفيد غلبة الظن في تأهيله لذلك، وقد صرَّح سيدنا رضي الله عنه بهذا فيما وقفنا عليه من الإجازات بخط يده المباركة، وهو من المتفق عليه من جميع أئمة الطريق قديماً وحديثاً واستأنسوا رضي الله عنهم فيما استندوا إليه فيه بنحو قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: الآية 26] الآية، ونحو قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: الآية 125] الآية، ونحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: الآية 108] وغير ذلك، فاتباع الحق وترْكُ اتباع الهوى والدعاء إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وعلى بصيرة: هو معنى الأهلية المشروطة عند أهل الطريق. والنَّاظم رحمه الله تعالى إنَّما ترجم هذا الفصل بقوله: (**صفة المقدم**) قصداً منه إلى التنبيه على أن الأهلية في التقديم لا بد من مراعاتها، لكنه لضيق النظم اكتفى باشتراطه وصول الإذن الصحيح من الآذن للمأذونِ له، يعني في التلقين، لأن الإذن فيه لزوم الأهلية وفرع عنها فلا يوجد إلا حيث توجد الأهلية ولا ينشأ إلا عنها ولا ينبني إلا عليها، فهو بلا هي في حيز المستحيل الوجود بالنسبة للمتعارف عند أهل الطريق المتفق عليه فيما بينهم في القديم والحديث، ومعنى الأهلية عندنا تقريباً معرفة ما لا بد منه مما يتعلَّق بالوِرْد كأركانه التي لا يقومُ إلا منها، ومعرفة وقته الاختياري والضروري، ومعرفة شروطه التي لا يصحُّ إلا معها، وكذا الكمالية منها أيضاً، ولا أقل من معرفة شروط الصحَّة، ثم معرفة ما يبطله وما يدخله من النقص والخلل وما ينجبر به ذلك، ثم ما يلزم مريد الدخول في الطريق عند إرادة الدخول وبعده، ثم معرفة الأذكار اللازمة بلزوم الورد الأصلي، وما لها من الأوقات، وما يقضي منها كالورد وما لا يقضي إذا فات وقْتُه. فبمعرفة هذه الأمور يصحُّ رجوعُ إخوانه إليه فيما يشكل عليهم أو يعرض لهم في أمر طريقهم، ثم بعد هذا معرفةُ ما يراد من الدخول في طرق المشايخ وفي أي شيء ولأيّ شيء يصحبون؟

وإن النفع في صحبتهم مقصورٌ على شهود أمرين: الأول أن يعلم أن الشيخ المراد صحبته والدخول في طريقه وليٌّ لله تعالى، فيصحبه ويدخل في طريقه، لتجذبه موالاتُه لموالاة الله تعالى. والأمر الثاني أن يعلم أنه من عبيد الحضرة الإلَٰهية، وأنه عارفٌ من طريق التعريف الإلَٰهي مكاشفةً ومنازلة بما للحضرة من الآداب، فيصحبه ليدلَّه على ذلك، ومن صحِبَ المشايخ ودخل في طرقهم بغير هذين الأمرين فقد خسر الدنيا والآخرة، قاله سيدنا رضي الله عنه.

فهذا أقلّ ما يُراعى فيمن يريد التقديم من العلم والمعرفة لما هو بصدده زيادةً على معرفة أحكام الطهارة استبراءً ووضوءاً وغسلاً وتيمماً، وكذا معرفة ما لا تصحُّ الصلاة إلا به، ومن نقصَ عن هذا القدر في العلم لا يصلحُ للتقديم، لأنه لم يحصل على حقيقة ما هو بصدد أن ينقلَه لغيره كميةً وكيفية ووقتاً، وغير ذلك مما يتعلّق بالوِرْد، لأنه لم يعرف المراد والمقصود من هذا الأمر الذي يريد أن يدخل غيره إليه ويدلّه عليه، وربما دلَّه على غير المراد، وسلك به في مقصده غير طريق السداد، بل ربما أوقعه في مهواة الطرد والبعاد، وقد شُوهد في بعض من ينتحلُ طريق الإرشاد والدلالة على الله تعالى من غير معرفة، بل ولا حقّ ولا حقيقة ما هو مباين صورةً ومعنًى غاية المباينة لمناهج الشريعة والطريقة، وذلك أنه يقول لمن يريد استمالته إليه وإلى حزبه أن من أخَذَ عنا وانحازَ إلى جانبنا يدركُ الكلمة الرئاسية في الأمور المخزنية كفُلان وفلان، ويذكر له بعض من اتفق له شيء من ذلك، فيتعاون عليه هو وشيطانه وهواه، فيضلُّه عن طريق الهدى، وهو يظنُّ أنه انخرط في سلك أهل الله، وهذه، والعياذ بالله، من أعظم الفِتن الموعود بها في آخر الزمن، ولهذا احذروا من صحبة المتصوِّفة الجاهلين.

وإذا عرفت القدرَ الذي هو أقلّ ما يراعى في حصول الأهلية للتقديم من جهة العلم، فينبغي أن تعرفَ أنه لا بد في حصول ذلك من أن يكون من يريد ذلك بعد تحصيله للقدر المذكور من العلم ذا ديانة وعقل وحلم وأمانة ورفع همَّة عن الخلق ثقةً بالملك الحق، ومن نقص في شيء من هذه المذكورات وكان محصّلاً للقدر المذكور من العلم والمعرفة بحسب ذلك، فأصل أركان الأهلية وأساسها هو تحصيلُ القدر المذكور من العلم بما تقدَّم، وباقي الأركان تدورُ على مركز مكارم الأخلاق وحُسْنِ المعاشرة بقدر الاستطاعة، وميزان ذلك كلّه هو رفعُ الهمَّةِ عن التشوُّف لما في أيدي إخوانه من العرض الفاني وعن تكليفهم بما فيه حظٌّ له كيفما كان، وإنما كان هذا الأخير ميزاناً لما عداه من أركان الأهلية ليزن به الموفق حالَ نفسه، فكلَّما وجدَ فيها رائحةً من الطمع في رفق يأتيه من قبل إخوانه الذين يلقِّنهم عرَفَ أنه ليس بأهلٍ لذلك ولا مراداً، فيكون اشتغالُه بالإقبال على إصلاح أمر نفسه أهم الأشياء إليه، فلا يقبل التقدم على أحدٍ، وأحرى أن لا يتعرَّض له بطلب أو استجلاب شيء، فإن فعل فقد أخْسَر الميزان، والعياذ بالله تعالى من أسباب الخسران.

وقد جمع سيدنا ﷺ في بعض وصاياه معظم هذه الأركان فقال ﷺ: وأوصى من كان مقدماً على إعطاء الورد، أن يعفو الإخوانُ عن الزللِ، وأن يبسطَ رداءَ عفْوِه على كل خلل، وأن يجتنب ما يوجبُ في قلوبهم ضغينةً أو شيئاً أو حقداً وأن يسعى في إصلاح

ذات بينهم وفي إزالة كلِّ ما يوجب بغضاً في قلوب بعضهم لبعض، وإن اشتعلت نارٌ بينهم سارع في إطفائها؛ وليكنْ سعيُه في ذلك طلباً لمرضاة الله تعالى لا لحظٍّ زائد على ذلك، وأن ينهى من يراه يسعى بالنميمة بينهم، وأن يزجره برفقٍ وكلام لينٍ وعليه أن يعاملهم بالرفق والتيسير، والبعد عن التنفير والتعسير، في كل ما يأمرُهم به وينهاهم عنه من حقوق الله وحقوق الإخوان، ويراعي في ذلك قوله ﷺ: «يسِّرُوا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا»[1] وعليه أن يتباعد عن تغريم دنياهم، وأن لا يلتفت إلى ما في أيديهم معتقداً أن الله تعالى هو المعطي والمانع، والخافض والرافع، وليجعل همَّته في تحرير دنياهم من التشتيت والتبذير، وأن لا يطلبهم بإعطاءِ شيءٍ، لا من القليل ولا من الكثير، إلا ما سمحتْ به نفوسُهم من غير طلب، فإن عقولَ الناس حول هذا المطاف تدورُ، وعلى هذا المقدار تجري بهم جميع الأمور اهـ.

وهذه الوصية من سيدنا ﷺ كافية في الإشارة إلى الأهلية المشروطة في هذا الباب، كما أنها كفيلة بجميع معظم ما يطلبُ من المقدم التمسك به من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وذلك لأن العفوَ عن الزلل والصفح عن الخَلَلِ هو أعظمُ ما ترسخُ به المودة في القلوب ويستنزل به أرواح الرضا من خزائن الغيوب.

ومن لطيف آدابهم السنية الجارية على مناهج السنة المحمدية أن المقدم إذا رأى من بعض إخوانه مكْروهاً، أو علِمَ من حاله اعوجاجاً، أو أحسَّ منه بدعوى، أو رأى أنه داخَلَه عُجْبٌ أن لا يصرِّح له بالمكروه، بل يتكلَّم على رؤوس الأصحاب كأنه غير قاصدٍ لمعين، ويشير إلى ذلك المكروه على وجه الاستطراد في الكلام، ويكشف عن وجه المذمة فيه كشفاً بيِّناً، لكن على وجه الإجمال حتى لا يتفطَّن أحدٌ لمقصوده بحال، ولا شك أن الفائدة تحصلُ بذلك للجماعة، ولذلك المعنى عنده خصوصاً، وهذا أقربُ إلى المداراة وأكثر أثراً لتأليف القلوب، وفيه غايةُ التلطيف في الأخذ بالعفو والستر.

وبالجملة فوجوه الأخذ بالعفوِ كثيرةٌ، وكلُّها محمودة مرغَّب فيها، لكن أحسنُها ما ضمَّ إليه الإرشاد إلى الأصلح والأحسن من غير شعورٍ من المعنى بذلك بالعفو ولا بالإرشاد ولا بغير ذلك، ورووا في الإكثار من العفو حديثاً عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله كم أعفُو عن

---

(1) رواه البخاري في (العلم: 11) وفي (المغازي: 60)، وفي (الأدب: 80)، ومسلم في (الجهاد: 4)، وأبو داود في (الأدب: 17)، وأحمد: 1/ 239، 283.

الخادمِ؟ قال: «كلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»[1] اهـ.

وأما اجتنابُ المقدم ما يوجب في قلوب إخوانه ضغينة أو شيئاً أو حقداً، فهو أيضاً من وجوه أهليته، فيستحقّ التقدم على غيره بحسب زيادته في ذلك عليه، ويكون الاجتنابُ لما ذكر بالتحلّي بالأخلاق الحميدة، وهي أخلاقُ النبيّ ﷺ من التواضع والحلم والصبر والإيثار والكرم ونحوها، وهي مبسوطةٌ مشروحة معانيها في شروح الحديث، وجُمَّاعُ ذلك كلِّه في إنصافِهم من نفسِه وترك الانتصاف منهم، وذلك بأن يرى لهم عليه من الحقوق ما لا يقدرُ على القيام بنزر النزر منه، ولا يرى لنفسِه عليهم حقًّا في شيء مما قلَّ أو كثُرَ كحال الوالد الشفيق مع أولاده الصغار، فيتعطَّف عليهم ويقضي حوائجهم في حال الصحة والمرض، ولا يترك شيئاً من حقِّهم اعتماداً على ما يعلمه ظاهراً من صحة إرادتهم وكمال صِدْقهم. قال بعضهم: لا تضيِّعْ حقَّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه من المودّة.

(ومن الحكايات) في تعطُّف الأكابر على غيرهم وقيامهم بحقِّهم وعدم رؤيتهم لأنفسهم حقًّا عليهم ما ذكر أن الجديدي قال: قدمتُ من الحجِّ فابتدأتُ بالجنيد فأتيته وسلَّمت عليه وقلت حتى لا يَتعنَّى، ثم أتيتُ منزلي، فلما صليتُ الغداة التفتُّ فإذا الجنيد ﷺ خلفي، فقلت: يا سيدي إنما ابتدأتُ بالسلام عليك لكي لا تتعنَّى إلى هٰهنا، فقال لي: يا أبا محمد هذا حقُّك وذلك فضلك اهـ. فانظر كيف رأى الإمام الجنيد ﷺ لصاحبه الحقَّ عليه ولم يرَ لنفسِه على صاحبه حقًّا، فجعل ابتداءه بالتسليم عليه من فضله، والكلام في هذا الباب طويلٌ، والحكاياتُ فيه كثيرة، وفي هذا القدر كفاية لما قصدنا إيرادَه هنا على وجه التمثيل.

وأما قولُ سيدنا ﷺ: «وأن يسعى في إصلاح ذات بينهم» إلخ فهو أيضاً من آكد آداب المقدم مع إخوانه، فيراعى فيه ما يدلُّ على ذلك، وهو مما أفصحَ به القرآن العظيم ورغبتْ فيه السنة الطاهرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: الآية 10] وفي الخبر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ألا أُخْبِرُكم بخَيْرٍ منْ كثيرٍ من الصَّلاةِ والصَّدَقةِ؟ قالوا: وما هو؟ قال: صَلاَحُ ذاتِ البَيْنِ**»[2].

وأما قوله ﷺ: «وعليه أن يعاملهم بالرفق والتيسير» إلخ فهو أيضاً من وظيف المقدم مع إخوانه، فيطلب منه النزول إلى حالهم من الرفق بهم وبسطهم، قال بعضهم: إذا رأيتَ

---

(1) رواه أبو داود في (الأدب: 124).

(2) انظر باب إصلاح ذات البين عند البخاري في (الصلح: 1)، وأبي داود في (الأدب: 50).

الفقيرَ فالْقَه بالرفْقِ ولا تلقَه بالعِلْم، فإن الرفق يؤنِسُه والعلم يُوحِشُه. فإذا فعل الداعي إلى الله تعالى المرشد إلى طريق معرفته مع الفقير بهذا الخلُقِ الذي هو الرفق، فإنه يتدرَّج بذلك إلى الانتفاع بالعلم، فيعامل حينئذٍ بصريح العلم، ويطلب منه أيضاً النزول إلى إخوانه عن حقِّه فيما يجب له من التبجيل والتعظيم، فيستعملُ التواضعَ معهم، فلا يثبتُ لنفسه قدراً ولا مَزِيةً عليهم.

وممَّا حكي في هذا الباب أن الأستاذ أبا علي الدقاق ﷺ دخل على جماعة من الفقراء بمصر وهم جلوسٌ بالمسجد، فقام إلى أسطوانة، فقالوا: يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلِّم عليه، فلما فرغَ جاء إليهم مبادِراً وسلَّم عليهم، فقالوا: كنا أولى بهذا منك يا سيدي، فقال ﷺ: ما عذب الله قلبي بهذا قط، يعني: ما تقيدتُ بأن أحترم وأقصد قط، وهذا كلّه ما لم يخرجْ فيه إلى حدِّ المداهنة بأن يتجاوزَ فيه حدَّ المداراة إلا صار فتنةً على التابع والمتبوع، ولا بد من إقامة ميزان الاعتدال فيما ذكر من التأويل والانبساط للإخوان، لأنه إنما وضع للحاجة، والشيء إذا وُضِع للحاجة يتقدَّر بقدرها من غير إفراط ولا تفريط. هذا والناس في هذا الميدان باعتبار ما يتجلَّى لقلوبهم من آثار الجلال والجمال فلا كلام مع واحدٍ من الفريقين فيما اقتضاه حالُه في ذلك، ويحمل كلٌّ على ما اعتيد منه وغلب عليه.

وروي عن بعضهم قال: كنا نتذاكرُ الشعرَ عند محمد بن سيرين[1] وكان يقوله ويمزح عنده.ويمازحنا فيما نحن عليه، فكنا نخرجُ من عنده ونحن نضحك، وكنا نخرج من عند الحسن ونحن نكاد نبكي.

وبالجملة فلا يقفُ على حدِّ الاعتدال في هذا الانبساط إلاَّ من قَهَر نفسَه وكان عالماً بأخلاقها وطبائعها، سائساً لها بوفور العلم حتى يقفَ على حدِّ الاعتدال فيه، قالوا: ولا يصلحُ النزول والانبساط بالمداعبة للإخوان لمن لم يرتقِ في باطنه عن حالهم في الصفاء ورسوخ القدم في الإقبال على الله تعالى، بأن صارت العزيمةُ غالبَ أوقاته، لئلا تجرَّه ممازجة طبعه لطبعهم إلى الإخلاد إلى الرخصة وعدم التشوُّف لطلبِ الحقِّ، وبسط القول

---

(1) هو محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، أبو بكر، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي من أشراف الكتاب. مولده ووفاته بالبصرة. نشأ بزازاً في أذنه صمم، وتفقَّه وروى الحديث، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا، واستكتبه أنس بن مالك بفارس، وكان أبوه مولى أنس. مات سنة (110هـ).
انظر تهذيب التهذيب: 9/ 214، والمحبر: 379، ووفيات الأعيان 1/ 453، وحلية الأولياء: 2/ 263.

في هذا وتحقيقه يطولُ بنا وقد أشرْنا إلى محل الحاجة لمن يفهم ذلك، والله الموفق.
وعلى هذا القانون يجري الحكم أيضاً فيما تقدم أنه يطلب من المقدم من النزول عما يجب له من التبجيل بالتواضع، فلا يخرج في ذلك النزول أيضاً عن حدِّ التواضع المحمود بأن يتجاوزه إلى حدِّ الصفة المذمومة، والكشف عن حقيقة التواضع أنه رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة، فالكبر رفْعُ الإنسان نفسَه فوق قدْرِه، والضعةُ وضع الإنسان نفسه مكاناً يزري به[1]، وكلٌّ منهما مذموم، والتواضُع مرتبةٌ بين مرتبتين، وحقيقته أن يرضى الإنسان بمنزلة دوين ما يستحقُّه، قالوا: ولو أمِنَ المرءُ جُموحَ النفس لأوقفها عن حدِّ ما تستحقُّه من غير زيادة ولا نقصان، ولكن لما كانت مجبولةً على الجموح احتاجتْ إلى التداوي بإيقافها دوين ما تستحقّه لئلا يتطرَّق إليها الكبر. فالتواضع والضعةُ مشتبهان بالصورةِ متباينانِ بالحقيقة، ولذلك يلتبسان كما يلتبسُ الكِبْر المذمومُ بالعزلة المحمودة لاتِّحادهما بالصورة وتباينهما بالحقيقة أيضاً. فالكِبْر جهلُ الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها. والعزلةُ معرفة الإنسان بحقيقة نفسِه، وبما خلقت له وإكرامها أن يضعها لحظ دنيوي خسيس سريع الزوال، وهي من سماةِ المؤمنين الموقنين، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية 8] وذكروا عن الحسن البصري ﷺ أن العزلة كانت وصْفَه، فقال له بعض الناس يوماً ما أعظمَكَ في نفسِك، فقال: لستُ بعظيم ولكنّي عزيز.

ولما كانت العزلةُ محمودةً، وبينها وبين الكبر المذموم مشاكلةٌ قال الله تعالى: ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146] قالوا: فيها إشارةٌ إلى إثبات العزَّة بالحقِّ والوقوف على حدِّ التواضع من غير انحرافٍ إلى الضعة اهـ. ثم ما يوجد من كلام الأئمة في التواضع مما يلحقه بحد الضعة وهو كثير قصدوا به ﷺ المبالغة في تنفير المريد والأخذ بحجزه عن الوقوع في الكبر لا غير، والحقُّ إن شاء الله تعالى ما تقرَّر من الميزان في ذلك، والله أعلم.

وأما قول سيدنا ﷺ: «وعليه أن يتباعدَ عن تغريم دنياهم» فقد تقدَّم آنفاً أن ميزانَ طريق الإرشاد والدعوة إلى الله هو الاستغناءُ عما في أيدي المدعوين، وهذا أعظم الأركان عندهم، فالواجبُ التنزُّه عن الطمع فيما في أيديهم بحيث يعدُّ التشوُّفَ إلى ذلك أن ابتُلي به في باطنه بلية عظيمةً وعقوبة معجَّلة من الله تعالى، فيلجأ إلى الله ويتضرَّع إليه في رفعها عنه، ويجتهد في صرف ذلك عنه بمجاهدة نفسه وتذكيرها بما أشار إليه سيدنا ﷺ بقوله

(1) يزري به: يسبب له المهانة والذل والاحتقار.

معتقداً أن الله هو المعطي والمانع إلخ، فإن غلبته نفسُه وخرَجَ إلى حد السؤال لذلك منهم فليعلمْ أنه قد أخسَرَ الميزانَ، وطغىٰ فيه غايةَ الطغيان، وهو الناجي إن سَلِم له رأسُ مالِه ولم يعاقب بالحرمان، لأنه خرج إلى التلبُّس بالدعاوى الكاذبة، ومعلوم ما هو الجزاء على ذلك، والعياذ بالله تعالى.

وكان سيدنا ﵁ أومأ في قوله: «فإن عقول الناس حول هذا المطاف يدور» إلى آخر ما قاله قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ * إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ﴾ [محمد: الآيتان 36 ـ 37] الآية، أعلمنا الله تعالى في هذه الآية أن في خروج المال إخراجَ الأضغان، وهذا تأديبٌ من الله الكريم جلَّ وعلا، والأدبُ أدبُ الله تعالى.

وقول سيدنا ﵁: «إلا ما سمحت به نفوسهم من غير طلب» يحقق ما أشرنا إليه من أن المذمومَ هو التشوُّف والطمع، فإن انتهى الحال إلى السؤال، أعني سؤال المقدم من إخوانه، فقد أفضى إلى بلاءٍ عظيم وفتنة كبيرة في الدين، نسأل الله العافية من كل بلية بمنه وكرمه. فقام من هذا ميزانٌ قويم وقسطاسٌ مستقيمٌ فيما يجريه الله تعالى من الإرفاق للإخوان على أيدي بعضِهم لبعض، فكلُّ ما أتى من الأخ لأخيه على وجْهِ الهدية والمواصلة لله من غير طمَعٍ ولا استشراف نفسٍ، فضلاً عن السؤال فهو لا بأس به شريعةً وطريقة، وذلك لأن الهدية مباحةٌ في الجملة، بل هي محسوبةٌ في الفقه من وجوه الحلال، فإن عرض عارضٌ في المعطي أو في وجْهِ الإعطاء، فالآخذُ أعرَف بما يأتي وما يذَرُ، وهذا بالنسبة لمطلق الإخوان، وبحسب أحوال العامة منهم. وأما أهل التمكين فأحوالُهم في الأخذ مختلفة تبعاً لما اقتضته الوارداتُ والتحفُّظ عن الآفات، وهي في كلٍّ من الأخذ والترك، كما قاله الأستاذ السري السقطي ﵁ للإمام أحمد بن حنبل ﵁: احذرْ آفة الردِّ كما تحذَرُ آفة الأخْذِ.

والحاصلُ أن كلَّ من عُرِف بصحَّة العلم والعمل ومتانة الديانة فأمرُه موكولٌ إلى دينه ولا سبيل للانتقاد عليه، قاله العلامة اليوسي ﵁، ومثلُ الحكم فيما سمحت به نفوسُ الإخوان لإخوانهم كالمقدم ومن في معناه من غير طلب الحكم فيما إذا اضطر المقدم ونحوه فله الأخذُ من مال إخوانه ولو بالتعرُّض لذلك، ويتصرَّف فيه بحكم الصدقة على الوجه الذي أُبيحَ له من أجْلِه بقدرِه في وقتِ الاحتياج لا غير، ثم إن هذا أيضاً في غير المشايخ الكاملين. وأما هم[1] ﵃ فهم بحُكم ما يرِدُ عليهم من الله تعالى في ذلك، فقد يظهرُ لهم قبولُ الرفق من المريد لصلاحٍ يتراءى لهم في ذلك من الله تعالى لذلك المريد

---

(1) قوله «وأما هم» فأراد المشايخ الكاملين.

فيكون أخذُهم لماله والارتفاقُ بخدمته مثلاً لمصلحةٍ تعود عليه منهم مأمونة الغائلة من جانبهم، وقد يظهر للواحد منهم أن يقبلَ من بعض المريدين خروجَه عن جميع ماله، وذلك إذا علم أن خروجَه عنه يكسبُه حالاً لا يطَّلع معها إلى مالٍ ولا غيره، وذلك في ذلك مقتفياً لأثر النبيّ ﷺ في قبوله من الصدِّيق الأكبرِ ﷺ جميع ماله[1].

وقد يظهرُ له قبولُ البعض منه دونَ البعض، وقد يظهرُ له عدم القبول في الكلِّ معاملة منه لكل بما فيه صلاحُه، لأنهم أساة[2] النفوسِ وأطبَّاء القلوبِ ﷺ، وهذا إنَّما ذكرناه تتميماً لتقرير هذه المسألة حتى لا يرد علينا ما اتفق لكمل المشايخ ﷺ وإلا فالمدارُ فيما نحن بصدده على ما ذكره سيدنا ﷺ في وصيته السابقة آنفاً، فوقوفنا عنده لازم، ألهمنا الله رشدَنا ووفقنا لما فيه رضاه بمنه وكرمه آمين.

وقول الناظم: **(وليس يخلو من مقدم)** إلى آخره، أراد به الناظم ﷺ دفْعَ ما قد يتوهَّم من انقطاع التربية بهذه الطريقة بوفاة الشيخ ﷺ، أو بتطاول العَهْدِ والردِّ على من يقولُ إن الشيخَ الميت لا تنفعُ صحبتُه لانقطاع مددِه بموته كما قيل بذلك، ويريد أن يسحبَ الحكم بذلك على شيخنا أيضاً ﷺ، وقد تقدَّم أن هذه الطريقة المحمدية لا يزالُ مددُها جارياً مدى الدهور والأعصار على أيدي من يصلُه الإذنُ الصحيح فيها في سائر البلاد والأقطار بضمانٍ من نبينا المصطفى المختار، وسابق عناية من ربِّنا الفاعل المختار ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ **[الجُمُعَة: الآية 4]**.

وتقدَّم أيضاً أن من المقدمين من يكون في مرتبة التربية والترقية بحصول الإذن له في ذلك من الله تعالى له في سرِّه من طريق الإلهام المعروف عند أهل هذا الشأن، أو من حَضْرة رسوله ﷺ، أو على يد بعض أهل الفتح الأكبر من الإخوان الكرام، إلا أن أهلَ هذه الطريق لا يتظاهرون بالتصدِّي للتربية والانتصاب للمشيخة أدباً مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ ومع سيدنا الشيخ ﷺ، ولذلك جرى اصطلاحُهم في غالب البلاد على تسمية المرشِدِ مقدماً فقط، وفي بعض البلاد الجنوبية وصحارى المغرب الأقصى تلقيبُ من تأهَّل للتربية منهم بالشيخ، ومن دونه بالمقدم، جَرْياً على اصطلاح الأقدمين من أهل الطريق المشهورة بالمغرب، ولا مشاحَة في الاصطلاح بعد معرفة مؤقعِ الإشارات منه، فافهمْ والله تعالى أعلم.

ثم قال ﷺ تعالى:

---

(1) كذا في أسد الغابة في ترجمة أبي بكر رضي الله عنه أنه تصدَّق بجميع ماله في سبيل جيش العسرة.

(2) الأساة: جمع آسٍ، وهو الطبيب.

ما يلزم من أراد أخذ الورد وما يلزمه بعد أخذه

هذه ترجمة أيضاً، فيأتي فيها من التقرير مثل ما تقدَّم في نظائرها، وعبر باللزوم خلاف ما فعَلَه غيرُه من التعبير بالشروط، لأنه وضَع نظمَه هذا فيما يتعلَّق بالورد، والوردُ حقيقةً هو الذكر القائمُ على الأركانِ الثلاثة الآتي ذكرها، وشروطُه هي الآتي ذكرها أيضاً في ترجمتها المخصوصة بها، وهذه الأمورُ التي ذكره في هذه الترجمة هي اللازمة لمريد الدخول في هذه الطريق حين الإرادة واللازمة له بعد الدخول فيها، بمعنى أنه يلزم بها، فإن التَزَمَها تأتّى له الدخولُ، وإن لم يلزَمْها لم يتأتَّ له الدخول، وهذا في الأولى اللازمة حين الدخول، والأخرى يلزم بها كذلك، فإن التَزَمها كان آتياً بما عليه، وإن لم يلتزمْها بأن أخلَّ بشيءٍ منها فقد أخلف الوعدَ ولم يوفِّ بالعقد، وفي ذلك ما يلزمه منه تجديد التقيد بالعهد لا بد من ذلك، لأنه يؤذن بانفصام عقدته التي كان عقَدَها من أصلها، وفيه ما يلزمه منه التوبة والاستغفار فقط كما سيبين ذلك في النظم، ومن عبّر عن هذه بالشروط راعى أنها شروطُ الطريق، فلذلك عدَّ منها ذِكْرَ الورد دواماً، إذ الشرط ما خرج عن الماهية والمثال فيما اعتبره النَّاظمُ مع ما اعتبره غيرُ واحد، لأن الدخول في الطريق هو ذكرُ الوردِ وأما بشروطه ولوازمه وأخذ الورد بعد التزام لوازمه التي منها ذكره دواماً، وأما بشروطه المشروطة فيه هو معنى الدخول في الطريق، وعلى هذا فلا إشكال، والله تعالى أعلم.

وبدأ من اللوازم بأهمِّها الذي لا يتأتى الدخولُ في الطريق بدونه ويستمرُّ لزومُه بعد الدخول أيضاً، فإن أخلَّ به وجَبَ التجديدُ للتقيد بالعهد لانفصام العقدة بالإحلال به فقال:

(يُعطى لِكُلِّ مسلم تحمّلا	عدمَ زَوْر الأُولياءِ مُسجّلا
سَواءَ الأمواتَ والأحياءَ	وتخرجَ الصَّحبَ والأُنبياءَ
لا بأسَ أن يزورَ بعضَ الفُقرا	بَعضاً وذاكَ حسنٌ إذا جرى
وكُلُّ من أخذَ عن شيخٍ وزارْ	سِواهُ لم ينفعْ بِه ولا المَزارْ
ونحنُ ما لنا بزورِهم غرضْ	لِما نهانا عنهُ خيرُ من فرضْ
ومعْ ذلكَ لنا مِنه عِوضْ	صحيحُ الأسنادِ بلا شكٍّ عرضْ
فمن تلا جوهرةَ الكمالِ	في عدِّها وبها ذا التالي

لحضرة النبيّ ذي المعالي | زيارة لسيّد الأرسالِ
كانت له تعدلُ زوارَ الرُّسلِ | والأنبياءِ وكلّ قطبٍ ووَلي
لأنهُ كأنهُ قد زارا | نبيّنا فيا لهُ فَخَارا
فافعل فِداً لكَ أبي وأمّي | ما قلته تظفر بخيرٍ جمّي
وليسَ ذا منّا تكبُّراً على | ساداتِنا ذوي المزايا والعُلا
كلا جنابهم لدينا محترَمْ | لِمَ لا وهُمْ أهلُ المعالي والكرمْ

(يعطى) يلقَّن، والمراد بـ(المسلم) هنا: ما يشمل الذكرَ والأنثى والصغير والكبير والحرَّ والعبد والطائعَ والعاصي، ومعنى (تحملا) التزم و(الزور) الزيارة، والمراد بها هنا قصدُ الولي للاستمداد منه، و(مسجلا) مطلقاً، وقوله: (سواء الأموات والأحياء) تفسير للإطلاق وقوله: (وتخرج) إلخ. استثناءٌ من الحكم السابق، و(خير من فرض) النبي ﷺ، و(العوض) البدل، و(عرض) منع، يعني من صحة الإسناد وحال دون ذلك، والضمير في ناويها للجوهرة، و(لحضرة النبي) يتعلق بناويها، و(الظفر) الفوز، و(الجم) الكثير، و(التكبر) من الكِبْر، والكبر ظنُّ الإنسان أنه أكبرُ من غيره، و(التكبر) إظهاره ذلك فهو أثره، و(المزايا) الخصال من الفضل والسودد التي يفوق الإنسان بها غيره، و(العلا) يصحُّ ضبطُه بالضم جمع عَلياء، وبالفتح ممدوداً الشَّرَف، وباقي الألفاظ واضح.

يقول: إنما يعطى ويلقَّن هذا الورد المحمديّ الشريف لمن رغب في فضله الباهر وسرِّه المنيف، إذا تحمَّل والتزم أن لا يزورَ واحداً من الأولياء الأحياء أو الأموات بأسرهم ما عدا أصحابَ النبي ﷺ المخصوصين بفضيلة السبق التي لا مطمعَ فيها لغيرهم، وأحرى الأنبياء الكرام عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، وكذا زيارةُ إخوانهم في الطريق بل أمرُها عندنا حسنٌ مندوب إليه على التحقيق، وقد قيل: إن من أخَذَ عن شيخٍ وزارَ مَنْ عداه لم ينتفِعْ بالأول ولا بالثاني فيما قصده ونواه، هذا ونحن على كلِّ حال ما لنا في زيارتهم من نفْعٍ لقصر وجهتنا بالإذن الخاصِّ على سيد الأنبياء والأرسال مع ما عوضنا من ذلك من فضيلة جوهرة الكمال، فإنَّ من قرأها في عدد مبلغه اثنتا عشرة مرةً بشروطها إلخ المعلومة ناوياً زيارة سيِّد الرجالِ، حصل له مثل ما يحصلُ لمن زاره ﷺ في روضته الشريفة، وزارَ جميع الأنبياء والمرسلين والأقطاب والأولياء وسائر أهل الكمال، فاعملْ على هذا السرِّ الباهرِ فدتْكَ أبي وأمي أيها الأخ الصادق تظفرْ بالفضل العظيم والخير العميم الفائق، وليس منع الزيارة في طريقتنا هذه المحمدية تكبراً على ساداتنا الأولياء الكرام أهل المراتب العلية، والمقامات الفاخرة السنية كلا، ومعاذ الله أن يصدرَ ذلك منا في جانبهم الأعزِّ

الرفيع، بل هو عندنا محترمٌ غاية الاحترام، عزيز منيع، والله حسيبُ من يشنع علينا[1] هجرانهم وقِلاهم[2]، ويشيع أننا نستهزئ بهم أو بمن والاهُم، هذا ما تيسَّر هنا في سبك هذه الأبيات الثلاثة عشر، والقصدُ إنما هو الاقتفاء لأنفاس هذا السيد الجليل والتبرُّك بما لَهُ من الأثر.

وقد عقد فيها مسألة منعِ المريد من زيارة غير أستاذه وإمامه كما عليه جلُّ جهابذة هذا الشأن، وجمهور أعلامه، إلاَ أنه رتَّب الكلامَ فيها على حسب ما سمح به النظمُ، وأبرزه في قوالب الردِّ على المتقد المولع بالتشنيع على أهل الله تعالى، والأخذ عليه بالكظم، وترتيب الكلام فيها باعتبارِ ما ينفعُ المريد الصادق الذي أهَّله الله تعالى للانخراط في هذا السلك النوراني الفائق، أن يقال: إن مما اختصَّتْ به هذه الطريقة المحمدية، المنوطة بأنوار العناية الربانية، والأسرار الرحمانية الوهبية أن جعلَ الله تعالى فتح أستاذِها وإمامها الأعظم على يد القدوةِ العظمى، أستاذِ الكلِّ وإمام الكل وعين مادة مددِ الكل ﷺ وذلك بعد أن أنفدَ الوُسْعَ ﷺ في السلوك على طرائق المشايخ الكاملين، ولم يألُ جَهْداً في التعلّق بالأولياء المقربين الواصلين، فلم يأنسْ من جانب تلك الجوانب لما أرتقيه ناراً ولم يشمَّ من تلك الآفاق برقاً للوصول إلى ما رامه، ولا استنشقَ من شميم تلك الأندية رَنْداً ولا عراراً[3]، وما ذاك إلا لما أرادته به الغيرةُ الإلّهية، واختارتْه له سوابق المشيئة الربانية، من غرفهِ من منبع الإمداد الاختصاصية، وتضلُّعه من منهل الأسرار الاصطفائية، بطريق المشاهدة العيانية، والمشافهة الكفاحية.

إذا اصْـطَـفَـاكَ لأمْـرٍ هـيَّـأتْـكَ لَـهُ يَـدُ الـعـنـايـةِ حـتَّـى تَـبْـلُـغَ الأرَبـا

ولما كان فتحه ووصوله إلى حضرة المشاهدة والعرفان، على يدِه ﷺ من غير أن يتحمَّل في ذلك منه لمخلوق كائناً من كان، وصرَّح له بذلك ﷺ تصريحاً لا يقبلُ بحالٍ وجهاً من وجوه التأويل، لم يكنْ له ﷺ في شيء مما يختصّ به أو بأتباعه إلا على جاهه العظيم عند الله تعالى الاعتماد والتعويل، فلم تبقَ له ﷺ دلالةٌ إلا عليه ولا استمدادٌ إلا منه ﷺ، ولا إشارة إلا إليه، فجعل المركز الذي عليه مدارُ دلالته، وتربيته الوقوفُ ببابه ﷺ، والاكتفاء بالاستمداد من فيوضات حضرته، اغتناماً لبركة ما تفضَّل به ﷺ في ذلك من

---

(1) يشنِّع: يقبِّح، وشنَّع على فلان: فَضَحه وشوَّه سمعته.

(2) قَلاَهم: أبغضهم وهجرهم، والقِلا: مصدره.

(3) الرَّنْد: شجر طيب الرائحة من الفصيلة الغارية، ينبت في سواحل الشام والغور والجبال الساحلية. والعَرار: نبات طيب الرائحة، الواحدة: عرارة.

الإذن الخاصِّ، واقتصاراً على ما يتعيَّن الاقتصار عليه مما لا ينال إلا بمحض الاختصاص
ويرحم الله تعالى إمامَ دار هجرته ﷺ إمامنا وإمامَ الأئمَّة الأعلام في قوله للخليفة العباسي:
وأين تصرِفُ وجهَكَ عنه وهو وسيلتُكَ ووسيلة أبيكَ آدم عليه السلام. ومن المتفق عليه
الشائع المعلومُ، أن من استغنى بالاتصال حيث أمكنَ عن الانفصال غير مرتَّب ولا ملوم،
بإجماع العقلاء، بل لا شكَّ أن من قيَّض الله له من يسلك به على هذا السبيل الأقوم،
حتى أوقفه بهذا الباب الأعظم، وأناخ به بهذا الجناب الأفخم، ثم تطلع له بالالتفات إلى
غيره من الأبواب، روماً للدخول منه إلى حضرة معرفة ربِّ الأرباب فقد أساءَ الأدب،
وتعرَّض لحلول الغضب، وربما خشي عليه سلبُ كلِّ شيء حتى نور الإيمان، وأعظم به.
والعياذ بالله تعالى من وبال وخسران.

فإذا عرفتَ موقع الإشارة من هذا الكلام ظهرَ لك الوجهُ الأجلى والسبب الأقوى،
في نهي سيدنا رضي الله عنه لأصحابه عن الالتفات إلى غيره من الأولياء الكرام والمشايخ العظام،
وأن الالتفات عنه رضي الله عنه إنما هو التفات عن جنابه الأعظم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان
من المقرَّر عند أهل الطريق أن الالتفات عن المشايخ مطلقاً من أكبر القواطع عنهم على
التحقيق، فما بالكَ بالالتفاتِ عن حَضْرتِهِ ﷺ التي هي مجمع الأنوار ومنبع الأسرار، بل
هي المركزُ الذي عليه مدار جميع المقامات والأحوال والكعبة التي بها مطافُ أرواحِ
المحبِّين والمحبوبين في سائر حضرات الكمال.

ثم إذا ظهرَ لك أن الوجْهَ والسبب في اشتراطنا على المريد من أهل طريقنا ترك
الالتفات إلى الغير، هو ما اختصَّت به هذه الطريقة المحمدية عن غيرها من سابقة الفضل
والخير بما أحازته من النسبة الخاصة بها لسيد الوجود ﷺ، على ما تقدَّم إيضاحُه في
المقدمة من أنها محمديةٌ بالوجْهِ الأخصِّ لا بالأعم، فلنتبعْ ذلك بما يفيد توجيه منع الزيارة
والنهي عن الالتفات عند القوم، حتى يعلم أن مانع ذلك مطلقاً لا عتب عليه في بساط
التربية الخاصة ولا لوم، فنقول ومن الله تعالى نرجو التسديد في المقول: الزيارة في اللغة:
القصدُ إلى المزورِ في محلِّه. وهي في الاصطلاح: قصدُ المزور إكراماً له وتأنيساً، ومنها
زيارة الإخوان بعضهم بعضاً، وقد تقدَّم بعض ما يتعلَّق بها في المقدمة، وسيأتي بعض ذلك
قريباً أيضاً إن شاء الله تعالى، ومنها زيارة القبور مطلقاً، وهي مرغَّب فيها لما فيها من
صلاح القلب بشرط الاشتغال بالاعتبار والتأمل والتفكر في أحوال الآخرة، والسلامة من
الوقوع في شيء مما يخالف الشريعة الطاهرة، والكلام فيها مبسوط في كتب الفقه، وليس
القول فيها ولا فيما قبلها من غرضنا في هذا المحل، وإنما كلامنا هنا في زيارة الأولياء،

أعني الأكابر الذين يعتقد فيهم ويتعلق بهم. وحقيقتها قصد الولي للانتفاع به والاستمداد منه، وهذه هي التي منع منها المريد في بساط التربية الكاملة لتحقق المضرة له بها فيما هو بصدده، وذلك لأنهم نصوا على أن المريد مهما مالَ عن قدوته بظاهره أو باطنه ولو لمحة فإن ذلك وبال عليه ونقصان، وأن صحبته لا تصفو له ولا يستعد باطنه لسراية حال القدوة اهـ انظر «بغية الطالب» للشاذلي ﷺ.

ومن كلام الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ: ما سامحَ مريده في الاجتماع بغيره إلا حصلَ له تردُّد في أي الشيخين أعلى من الآخر حتى يتلمذ له، وإذا حصل له ذلك رفضه قلب الاثنين، فلم ينتفِعْ بأحد منهما، لأن شرط الانتفاع جزمَ التلميذ بأنه لا يخرج من دائرة شيخه حتى يحصل له الكمال اهـ. وفيما قيده في «الذهب الإبريز» من إملاء شيخه القطب سيدي عبد العزيز ﷺ على قول الشريشي ﷺ تعالى في رائيته: ولا تقدمنَّ قبل اعتقادك، إلى آخر البيتين ما نصّه أي ولا تقدمن على شيخ بقصْدِ الدخول في محبته حتى تعتقد أنه من أهل التربية، وأنه لا أحد أولى بها منه في زمانه، قال: وإنما وجب عليه ذلك، لأن الشيخ الذي يرى من مريده الالتفات إلى شيخ غيره يقطعُ عنه المادة، والمريدُ الذي يدخل في صحبة شيخه وهو يرى أن في الوجود شيخاً مثل شيخه أو أكمل يبقى متشوقاً لذلك الأكمل في اعتقاده، فيراه شيخه متشوِّقاً إلى غيره فيقطع عنه المادة، فلا يكون بالأول ولا بالثاني. قال: وقد رأينا مثل هذا في زماننا كثيراً والله يكون لنا ولياً ونصيراً. وقد رأيت تصريح هذا القطب الكبير بقطع المادة عن المريد بسبب التفاته وتشوفه إلى غير شيخه، وأعظم بقطع المادة مضرة ووبالاً على المريد، ومثل هذا ما في شرح الرائية للفاسي ﷺ تعالى، فإنه قال فيه على قوله: «فإن رقيب الالتفات» إلخ أي أن مراقبتك لغير شيخك والتفاتك إلى ذلك الغير يقطع عنك السراية المحبوبة: أي المدد الساري إليك من شيخك، حيث كنت مجموعاً بكليتك عليه قبلَ مراقبتك الالتفات إلى الغير.

قال الشيخ زروق: ولا تلتفت عنه، ولو رأيتَ من هو أعلى منه، فتُحْرَم البركة من الأول والثاني. قال: ولذا كان المشايخ يمنعون أصحابَهم من صحبةِ غيرهم، بل ومن زيارتهم، وهذا مما ينكره المتوسِّمون الجاهلون بأحوال أهل الله اهـ المراد منه. وفيه التصريحُ بانقطاع المددِ من الشيخ عن مريده بسبب التفاته إلى غيره، وهذه القصيدة أعني الرائية التي منها هذا البيت، قال فيها صاحب «إثمد العينين»: هي حجةٌ عند أهل الطريق، ولم يزل المشايخ ﷺ يحضون عليها ويوصون تلامذتهم بالعمل بها، وتسمَّى بسرائر الأنوار وأنوار السرائر قاله المسناوي اهـ بنقل صاحب «الجيش» ﷺ تعالى. ومن تأمل هذا البيت

رآه في غاية الحسن والبلاغة لتشبيهه فيه المدد الساري من الشيخ إلى المريد بالمحبوب، والمريد بالمحب، والالتفات بالرقيب الذي يكدر على المحب صفو مشروبه، ويسعى دائماً فيما يعوقه عن الاتصال بمرغوبه، والظفر بمحبوبه، وفي إفراغه الكلام على هذه المسألة في قالب هذا التشبيه العجيب، وإتيانه على هذا الأسلوب الغريب إشارةٌ لطيفة إلى أن هذا الشرط في الطريق من آكَدِ ما يهتمُّ به السالك الأريب.

فإذا عرفتَ من كلام هؤلاء السادات الذين هم لا محالة من أفراد أئمة هذا الشأن وأعلامه ما يحصلُ من المضرَّة للمريد بسبب الْتفاتِه عن قدوته وإمامه عرفت الوجْه في منْعِ المشايخ الكاملين لأصحابهم من زيارة غيرهم من العارفين الواصلين، وعرفت خطأ المنكر عليهم في ذلك، وما وَقَع فيه، والعياذ بالله من نسبة أكابر الرجال إلى المنافسة والحسد، مع اعتقاده أنه على الحقِّ وهم على الضلال، وهلْ هذا إلا محضُ سوءِ ظنٍّ بمنصبهم الرفيع، ووقيعة في جانبهم المنيع.

وقد ذكر الشعراني ﷺ في طبقاته عن بعض رجالها أنه كان يقول: من وقع في أولياء الله تعالى ابتلاه الله بانعقادِ لسانه عن النطق بالشهادتين اهـ. اللهمَّ إنَّا نسألك العافية من كلِّ بليَّةٍ بفضلك وكَرَمك يا ربّنا، ولو أن المنكِر تثبَّتَ وعلم أن أهلَ الله تعالى منزَّهون عن رذيلة اتباع الهوى، وأن منعَهُم لتلامذتهم من صحبة غيرهم، وزيارته لمصلحةٍ محققة عندهم لهم في ذلك لسلم من سوء الظنِّ بهم والوقيعة في أعراضهم. وكان سيدي علي الخوّاص ﷺ يقول: إذا رأيتم أحداً من المشايخ تغيَّر على من زار من أتباعه أحداً من أقرانه فاحملوه على أنه ما تغيَّر عليه إلا لمصلحته، كأن اطلع من طريق كشفه على أن فتحه لا يكون إلا على يديه، فأظهر له التكدُّرَ ليلازمه مصلحة له لا لعلَّة أخرى من حظوظ النفوس اهـ.

ثم إن مما استأنس به المشايخ المانعون لأصحابهم من زيارة غيرهم في أخْذِهم العهدَ على المريد بذلك قوله ﷺ: «**لاَ يَأْمَنْ اَحَدُكُم حتَّى اكُونَ احبَّ إلَيْهِ مِنْ اهْلِه ووَلَدِه والنَّاسِ اجْمَعين**»[1]. ومن المعلوم عند كلِّ من له أدنى ذوق في علوم الرجال أن المحبة الصادقة لا تقبل الشركة بحال وفي «البحر المورود» أخذ عليه العهود أن لا نأخذ على فقيرٍ بالسمع والطاعة لما نأمره به من الخير، إلاّ إن كنا نعلم يقيناً أنه لا يقدمُ علينا في المحبة أحداً من الخلق مطلقاً، حتى أهلَه وولده وراثة نبوية لا استقلالاً.

(1) رواه البخاري في (الإيمان: 8)، ومسلم في (الإيمان: 69، 70)، والنسائي في (الإيمان: 19)، وابن ماجه في (المقدمة: 9).

واعلم أنه لولا علمُ رسول الله ﷺ أن لمحبة الناصح مدخلاً في حصول الهداية والانقياد بسرعة دون بطء ما قاله: «لاَ يُؤْمِنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليه» الحديث، ومن المعلوم أن جميعَ الدعاة إلى الله تعالى في هذه الأمة إنَّما هم نوَّابٌ له ﷺ، وذلك ليحصلَ للمريد كمالُ الانقياد، ويعتقد في شيخه أنه أشفق عليه من نفسه، كما كان النبيُّ ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الاحزاب: الآية 6] اهـ الغرض منه هنا بلفظه، وفي قوله: «وراثة نبوية لا استقلالاً» نفي لما ينسبه الجاهلون إلى المشايخ الذين يأخذون العهْدَ على المريدين بهذا الشرط من المنافسة واتباع الهوى في ذلك، وغير خافٍ أن المحبة الكاملة التي هذا وصفُها لا تخلص للمحبِّ في محبوبه حتى يستغرقَ فيها استغراقاً يستحيل معه خطور غير محبوبه في باله، فضلاً عن الالتفات والتشوف له، وهذا أمرٌ ضروري في المحبة الكاملة، ولا شكَّ أن المريد إذا استغرق في محبة شيخه الاستغراق الموصوفَ لا يقدِرُ أن يلتفت إلى غيره، وكيف يلتفتُ إلى من لا يخطرُ بباله ولا يتصوَّر في وهْمِه وخياله، فمن لازمَ الاتِّصافَ بهذه المحبة التجرُّد عن كل علاقة، والتجرد عن العلائق كلها من آكدِ الشروط في طريق أهل الله تعالى. قال الأستاذ أبو القاسم القشيري في الرسالة: وما لم يتجرَّد المريدُ عن كل علاقة فلا يجوز لشيخه أن يلقِّنه شيئاً من الأذكار اهـ.

وفي «البحر المورود» نقلاً عن بعض أركان الطريق الجنيدية ما نصّه: السابع ربْطُ القلب بالشيخ بالاعتقاد والاستمداد على وصف التسليم والمحبة والتحكيم، فيكون اعتقادُه أن هذا المظهر هو الذي عينه الحقُّ سبحانه للإفاضة عليه، وأنه لا يحصل له الفيضُ إلا بواسطته دون غيره، ولو كانت الدنيا مملوءة بالمشايخ، ومتى ما يكون في باطن المريد تطلع إلى غير شيخه لم يفتحْ باطنه إلى الحضرة الواحدية، فالإنسانُ في الجهة وله بدنٌ وروح، والله تعالى منزَّهٌ عن الجهة، فحكمته اقتضت الاستفاضة ممن في الجهة عن الفياض الحقِّ الذي ليس في الجهة، وذلك أنه سبحانه وتعالى عين للبدن الإنساني المركَّب من الكثرات الكثيرة جهةً واحدة يكون من تلك الجهة توجُّهه إلى الله، وتلك الجهة هي نورانية رسول الله ﷺ في عالم الأرواح، فكما لا يقبلُ الصلاة إلا بالتوجُّه إلى الكعبة كذلك لا يحصلُ التوجُّه إلى الله تعالى إلا باتباع رسول الله ﷺ، والتسليم وربْطِ القلب بنبوّته، وأنه هو الواسطة بينه وبين الله دون غيره من الأنبياء، وأنهم وإن كانوا أنبياءَ الله تعالى وكلُّهم على الحق، ولكنْ لا يحصلُ من الله فيضٌ إلا من ارتباط القلب بمحمد ﷺ، فبتوجّه البدنُ إلى الجهة الواحدة، وتوجه الروح إلى الجهة الواحدة حصَلَ للإنسان استعدادٌ للإفاضة عليه من الحضرة الواحدة، ومن هنا يعرف أن المناسبة بين المفيض والمستفيض فيما يتعلَّق

بالاستفاضة شرط، وقد وَرَد في بعض الأحاديث على ما أثبتَ المشايخ في كتبهم أن الشيخ في قومه كالنبيّ في أمته، فلا بد للمريد أن يتوجَّه إلى شيخه بربْطِ قلبه معه، ويتحقَّق أن الفيض لا يجيء إلا بواسطته وإن كان الأولياء كلُّهم هادين مهتدين يعتقدُ كلَّهم ويدعو لهم، لكن استمداده الخاص واستفاضته تكونُ من روحانية شيخه وحده، ويعلم أن استمدادَه من شيخه استمدادٌ من النبي ﷺ، فإن شيخَه متعلّق مستمِدّ من شيخه، وشيخه من شيخه أيضاً، وهكذا إلى رسول الله ﷺ، فهو مستمدٌّ بالحقيقة من رسول الله ﷺ وهو من الحقّ جلّ وعلا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: الآية 23] فربْطُ القلبِ بالشيخ أصلٌ كبيرٌ في الاستفاضة، بل هو أصلُ الأصول، ولهذا قال المشايخ رضي الله عنهم برعاية هذا الشرط اهـ.

ولنذكرْ شيئاً من عباراتهم وأقوالهم الدالَّة على تأكيدهم على رعاية هذا الشرط، فمن ذلك ما ذكَره الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه في طبقاته، وكذا في «البحر المورود» عن الأستاذ الكبير سيدي علي بن وفا رضي الله عنه أنه كان يقول: اعلمْ أن قلوبَ الرجالِ أمثالُ الجبال، فكما أن الجبالَ لا يزيلُها عن أماكِنها إلا الشِّرْكُ بالله تعالى كما قال عز وجل: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: 90 ـ 91] فكذلك الوليُّ لا يزيلُ همَّته عن قلبِ من آولى إليه إلا شرك موضع خالص المحبة من قلبه لغير وليِّه وربِّه، فلا يلتفتُ للولي قلب مريده سوى الشرك لا تقصيره في الخدمة ولا غير ذلك اهـ.

ومن كلام الأستاذ ابن وفا رضي الله عنه: المريدُ الصادق عرشٌ لاستواءِ رحمانية أستاذِه، كتبَ على نفسِه أن لا يدخلَ بيتاً فيه سواه، ولا يظهرُ لعينِ رأتْ غيره في مرآه اهـ.

ومن كلامه أيضاً رضي الله عنه: مرتبةُ السيادة لا تقبلُ الشركة ولا تحملُها، فهي تدفعها عن نفسها لغيرةٍ من أصابته تركته كالرميم اهـ.

ومن كلامه رضي الله عنه: لما كان الحقُّ سبحانه وتعالى لا يغفرُ أن يشركَ به فكذا مظاهره لا يغفرون أن يشرَكَ بهم، لأنه حقيقتهم الظاهرة المتمثّلةُ بهم، فهو هُمْ وهو قوامُهم وأمورُهم كلّها أموره. فإذا رأيت أحداً منهم يكرهُ ممن يتعيَّن عليه حبُّه أو تعظيمه أن يحبَّ سواه كحُبِّه، ويعظِّمه كتعظيمه، فاعلمْ أن ذلك شأنُ الله الذي لا يغفرُ أن يشرَكَ به ظهر به في مظهره، فافهمْ واعرفْ والزم اهـ.

ومن كلامه أيضاً رضي الله عنه: الأستاذ مظهر سرِّ الربوبية لمريده، فعلى المريد أن يقفَ عند أمر أستاذه، وأن لا يلتفتَ عن أستاذه يميناً ولا شمالاً، وأطالَ في ذلك، فراجعه بتمامه في ترجمته من «الطبقات» إن شئت.

ومن كلام الشيخ الكبير سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ: رأسُ مالِ المريدِ المحبَّةُ والتَّسليم، إلى أن قال: فإذا كانَ المريدُ كلَّ يومٍ في زيادةِ محبةٍ وتسليم سَلِمَ من القَطْع، فإن عوارضَ الطريقِ وعقبات الالتفات والإراداتِ هي التي تقطعُ عن الإمدادِ وتحجبُ عن الوصول اهـ.

وفي «العهود المحمدية» أن بعض المريدين شاوَرَ شيخَه في زيارة شخص من مشايخ عصره وسمَّاهما فقال الشيخ: يا محمدُ لا ينبغي لمريدٍ أن يأخُذَ عن شيخ إلا إذا علِمَ أنه يكفِيه عن جميعِ الناس، فإن كنتُ لا أكفيكَ تقيدت على من شئت. وقال في «جنة المريد» بعدما ذكر وظائف الشيخ: ثم لا يتركُ أصحابه يزورونَ شيخاً آخر، ولا يصلح ذلك بالمريدين، إذ المضرَّةُ لهم بذلك محقَّقة الوقوع، إذ لكلّ شيخٍ طريقةٌ تخصَّه لا يتعدَّاها ولا يخلطها بغيرها، فيسمع المريدُ تلك الطريقة ويرى منها ما هو خلافُ طريقته، فيختلفُ عليه الأمرُ ويقفُ في سلوكه، وقلَّما يجيءُ منه شيء. وعلى الشيخ سدُّ هذا البابِ على المريدين، ولا يمنعه تخيُّلُ من لا عِلْمَ عنده، ولا صدق أن ذلك من جهة الاستبداد بالرئاسة والحسد، فمقام الشيخوخة منزَّه عن ذلك. ثم قال: والقطبُ الذي عليه مدارُ هذا الباب هو حسن التعلُّق بالشيخ، وحسن الاقتداء به، وصدق التحكيم، وكمال الاستسلام له من غير منازعة ولا اعتراض، وقد قالوا: لا عقوبة لعقوق المشايخ إلا سوء الخاتمة، والعياذ بالله تعالى اهـ.

وقال في «الذهب الإبريز» حاكياً عن نفسه ﷺ تعالى ما نصّه: وكنتُ أتكلَّم معه، يعني شيخه القطب سيدي عبد العزيز الدباغ ﷺ، ونحن في جزاء ابن عامر بمحروسة فاس، أمنها الله، فقال لي: إن سيدي منصوراً في رأسِ الدرب، أتحبُّ أن تتلاقى معه وتعرفَه؟ فقلت: يا سيدي نعم وحباً وكرامة، وكيف لا أحبُّ أن ألتقي مع القطب؟ فقال ﷺ: أما أنا فلو قدرنا أن أباك وأمك وَلَدا من يماثِلُكَ في شكلِكَ وصِفَتِك وعلمك وجميع ما عليه ذاتك باطناً وظاهراً عدد مائة ما نظرت إلى واحدٍ منهم، أنت حظِّي وقسمتي وهم عندي كسائر الناس، فاستيقظتُ من غفلتي، وعلمتُ أني ما جئت بشيء، فإن المحبة لا تقبلُ الشركة اهـ.

وفيه من الحكايات الحائمة حولَ هذا المرْمَى غيرَ هذه، فليراجعه من أرادَ الوقوفَ على ذلك إن شاء. وسمعت بعض أصحابنا يقول: وقد جرى ذكر هذه الحكاية أن هذه الحكاية تدلُّ على أن المؤلّف ﷺ تعالى كان محبوباً حيث لم يطردْ بسبب جوابه هذا للشيخ عن هذا الامتحان العظيم الذي امتحنه به والله أعلم. وهذه العباراتُ السنيةُ من هؤلاء

السادات الكبار أهل المراتب العَلِيَّة كلّها دلائلُ قطعية، وبراهينُ جلية، على أن رعاية هذا الشرط عنهم ﷺ من أهمِّ المهِمَّات، وآكدِها في طريق التربية، ومن هنا يعلم أن المشايخ الذين يسدون على المريدين هذا الباب، قد سَلَكوا في نصحهم وإرشادِهم لهم جادَّة الصواب، وكيف لا وهم في جميع حركاتهم وسكناتهم على هدًى من ربِّهم وبينة ونور، عاملون في كل ذلك على ما يتلقَّونه عن الحضرة القدسية، من طريق الإلهامات الصحيحة، التي تثلج لها الصدور، ومنهم من يتلقَّى ذلك في اليقظة أو المنام، عن أستاذ الأسانيد وسيد السادات بأسرهم عليه الصلاة والسلام.

ومن الأول ما ذَكَره في «ممتع الأسماع» عن الشيخ الكبير العارف الشهير سيدي محمد بن سليمان الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» ﷺ من قوله: قيل لي قلْ لأصحابك لا تُذْنبوا بالأسرارِ، فقلت: وما ذنب الأسرار؟ فقيل لي: الالتفات، فقلت: الالتفاتُ عمَّن؟ فقيل لي: الالتفات عنك اهـ.

ومن الثاني ما ثبت عن سيدنا ﷺ من أمرِه ﷺ له يقظةً أن ينهى أصحابه عن زيارة غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وغير الصحابة الكرام، ﷺ أجمعين.

(وما حكي) عن القطب الجزولي ﷺ في قوله: «لا تذنبوا بالأسرار» تصريحٌ بأن المريدين يؤاخذون بأمورٍ تحدث في سرهم، وإنما تسمَّى ذنوباً في حقِّهم، فإن الأسرار في كلامه جمع سِرّ، والمراد به هنا باطن الإنسان. ومن تلك الذنوب في حق المريدين المتقيدين بعهود الشيوخ الكاملين الالتفات، والتشوُّف والتطلع بالقلب والسر. ومنها انقباضُ قلبِ المريد من ظهور بشرية الشيخ والعياذ بالله تعالى. ومنها غير ذلك مما لسنا بصدد بسْطِ القول فيه في هذا المحل، وأعظمُ الذنوب الالتفاتُ لغير شيخِه لما فيه من صورة المكر الخفيِّ بالمريد، فإنه لا يظنُّ أنه يبلغ به ذلك فيسترسل فيه، ولهذا اعتنى المشايخ بالتحذير منه والتنبيه عليه، وخصوصاً لمن تفرَّسوا فيه النجابة وأنه من المرادين بحمل سرِّهم، فإنهم لا يسامحونه في ذلك أصلاً.

ومن أعجب الأمور في هذا الباب ما ذكره الشيخ الإمام المتفنِّن أبو زيد سيدي عبد الرحمٰن ابن شيخ الإسلام سيدي عبد القادر الفاسي رضي الله عنهما في كتابه «ابتهاج القلوب» عن الشيخ الشهير العارف بالله سيدي محمد بن عبد الله الشهير بابن معن الأندلسي ﷺ أنه منع بعض مريديه من مجالسة أخيه العارف بالله سيدي عبد الرحمٰن، وذلك حين ظهرتْ على أخيه المذكور آثارُ الفتح، وأنه أعني الشيخ أبا المحاسن قال لذلك المريد: يا فلان رُدَّ روحَك لجهةٍ واحدة، خوفاً عليه من الشتات وجمعاً له عن الالتفات، وراجع

«ابتهاج القلوب» إن شئت، وهذا مع كون أخيه العارف بالله معه في دائرةٍ واحدة، تجمعهما طريقةٌ واحدة وسلسلة واحدة، بحيث لا يكونُ الالتفاتُ عن أحدهما التفاتاً عن الآخر، ولهذا قلتُ في هذه الحكاية إنها من أعجب الأمور في هذا الباب فافهمْ، فتحصل من مجموع ما ذكرناه عن هؤلاء الأعلام، أن تشوُّفَ المريد لغير شيخِه والتفاته إليه مُضِرٌّ به إضراراً يفضي به إلى انقطاعِه عما هو البغيةُ والمرام، فما بالك بما إذا انضمَّ لذلك أعمال الحركة الظاهرة بالسعي ونقلِ الأقدام، وبه يعرَفُ أن لا لومَ على أحدٍ من أهل الكمال في نهيه أصحابه عن زيارة من عداه من الرجال، ويعرف أيضاً أن المنكر عليهم في ذلك قد عرضَ نفسَه بسوءِ ظنّه بهم ونسبته إياهم إلى الضلال لعقوبة الله مولاهم الحق الشديد المحال، اللهمَّ سلِّمْ سلم، بفضلِك وكرمك يا ربّنا.

[تنبيه] كثيراً ما يسمعُ بعض المنتسبين إلى العلم أو إلى طريق أهل الله تعالى ممن لا اطّلاع لهم على هذا الشرط نهيَ سيدنا ﵁ لأصحابه عن هذه الزيارة، فيقول: إن ذلك في حق من لم يقفْ عند ما حدَّ الشرعُ فيها، وقد علِمْت مما سلف من توجيه المنْعِ عندهم أن الكلام فيما إذا أدَّيتَ على الوجْهِ المحمود شرعاً.

وأما إذا أدّى الأمرَ فيها إلى فعل منهيٌّ عنه فهي بحسبه، مكروهةٌ أو محرمة، بلا نزاع كما إذا وقعَ من الزائر مثلاً سجودٌ على الأرض بين يدي قبور الصالحين، كما يفعلُه كثيرٌ من الجهال، وهذا مما لا يقولُ بجوازِه مسلم، لأنَّ السجودَ لا يكون إلا لربِّ العالمين، فليحذر المؤمنُ كلّ الحذرِ من فعل الجاهلين.

وأما تقبيلُه قبْرَ الوليّ، فيجري فيه الحكمُ عند المالكية على الأصْلِ عندَهم من الكراهة في غير ما وَرَد به الشرعُ، كتقبيل الحجر الأسود، لكن نَقلوا عن التوضيح أن بعضَهم استنبطَ من تقبيل الحجر تقبيلَ المصحفِ والمنبر النبوي والقبر الشريف وقبور الصالحين وأجزاء الحديث، وممن قال بذلك ابن أبي الصيف اليمني من الشافعية، ذكره الشيخ جسوس ﵀ تعالى.

وملخَّص هذا الذي أوردناه هنا في هذه المسألة أن زيارة الأولياء، بمعنى قصْدِهم للانتفاع بهم والاستمداد منهم، ممنوعةٌ في طريقتنا هذه المحمدية.

أما أولاً فلِما اختصَّتْ به من نسبتها بالوجْهِ الأخصِّ إليه ﷺ حسبما تقدَّم بيانه، فيكون الالتفاتُ عن أستاذها ﵁ التفاتاً عن حضرة سيد الوجود ﷺ، والملتفتُ عن حضرته ﷺ لا يجدُ باباً يدخلُ منه، وإذ كان كما ذكَره الشيخ جسوس ﵀ تعالى من الأدب

عند بعض العارفين في حقِّ من زار وليًّا من أولياء الله تعالى: أي قصَدَه للاستمداد منه أن يستحضِرَ في استمدادِه منه استمدادَه من حضرته ﷺ، فيكون في الحقيقة زائراً له ﷺ ومستمدًّا من حضرته الشريفة، زادها الله عزًّا وشرفاً، فكيف يصحُّ لمن أُخِذ عليه العهد بالاستمداد من حضرته ﷺ أن يلتفتَ إلى غيرها، وإن فعلَ فما وجْهُ العذر عنده في ذلك، وما المخلِّص له مما أوقَعَ نفسَه فيه من سوء الأدب المفضي إلى دَرْكِ الشقاءِ والمهالك، أعاذنا الله من بلائه بمنِّه.

وأما ثانياً فلأنَّ الانتفاع بالشيخ مشروطٌ في حقِّ المريد بربْطِ القلب به بكمال المحبة والتسليم، على الحدِّ الذي تقدَّم ذكرُه في نصوص الكمل من الشيوخ، أهل التمكين والرسوخ، فربْطُ القلب بالمحبة الكاملة هو الذي يُطوى به البعدُ بين حقيقة المريد وحقيقة شيخه وتُقْطَعُ المسافات، ولا تتمُّ للمريد المحبةُ الكاملة في شيخه إلا بقطْعِ عقباتِ الإرادات والالتفاتات على الحدِّ الذي أفادَه ما تقدَّم للأئمة في ذلك من جليِّ العبارات وسنيِّ الإشارات.

وإنَّما أطلْتُ النفسَ في هذه المسألة أداءً للنصيحة الواجبة لإخواننا المتقيدين بهذا العهد المحمدي، المنخرطين في هذا السلك الأحمدي، حتى يظهرَ توجيه المنْعِ من الزيارة بالمعنى السابق لكلِّ واحد منهم، فيكونُ على بيِّنةٍ من أمرِه، وعلى بصيرةٍ فيما يدعو إليه إن كان مستتبِعاً لغيره، فيُقبِل على شأنه غاية الإقبال، ويرفضُ عنه ما أولعَ به بعض من لا حقيقة عنده في هذا المحال، من الخرافات الباطلة، والتأويلات البعيدة، التي لا طائلَ تحتها إلا التشدُّق بشقاشق المقال[1].

ثم إن من تمام النصيحة للإخوان في الله تعالى أن يعلموا أن الممنوعَ عندنا هو قصْدُ الولي للانتفاع به والاستمداد منه لا غير، وليحْذَروا أن يفضيَ بهم الحالُ إلى الاستهانة والاستهزاء بالأولياء والصَّالحين أهلِ الفضل والخير، فإنَّ وبالَ ذلك عظيمٌ، والعياذ بالله، ومرتعُه وخيم.

وقد قال سيدنا ﷺ ونفعنا ببركاته في رسالة التحدُّث بالنعم المشهورة بين أتباعه، بعد أن عدَّد فيها بعضَ ما أنعم الله به عليه من الخصوصيات، وبعضَ فضائل أصحابه ما نصّه: ومع هذا كلِّه فلسْنا نستهزِئُ بحُرْمة ساداتنا الأولياءِ ﷺ، ولا نتهاونُ بتعظيمهم،

---

(1) الشقاشق: جمع الشِّقشقة، وهي شيء كالرئة يخرجه الجمل من فيه إذا هاج وهدر. ويقال: هدرت شِقْشقة فلان: ثار، أو أفصح في كلام.

فعظِّموا حرمة الأولياء الأحياء والأموات، فإنَّ من عظَّم حرمَتَهم عظَّم الله حرمته، ومن أهانهم أذلَّه الله وغضِبَ عليه، فلا تستهينوا بحرمة الأولياء اهـ كلامه ﷺ.

وكفى بقوله: «فإن من عظَّم حرمتهم» إلخ تأكيداً على تعظيمهم واحترامهم، وتحذيراً من الاستهزاء بهم، وعدم مراعاة حقوق مقامهم. وقوله ﷺ في حق من أهان العباد المكرمين «أذله الله وغضب عليه» يحتمل أنه إخبارٌ، ويحتمل أنه إنشاءٌ، فعلى كلٍّ فهو صريحٌ في أن إهانتهم والاستخفاف بأقدارهم من أسباب الطرْدِ في طريقه ﷺ، وقد شُوهد مصداقُه في بعض من ابتُلي بذلك عياذاً بالله تعالى، فقد أخبرنا بعض العلماء الفضلاء من أصحابه ﷺ عن بعض الطلبة أنه وَرَد عليه من بلده إلى فاس، فأخَذَ عنه ولقَّنه بعض الأسرار، فرَجَع إلى بلده وهو على مسيرة نحو السبعة الأيام من فاس، فاختلى للذكر الذي لقَّنه إياه، فاستَحْلى ما فتح به عليه في خلوتِه، فزادَ على المدَّة التي حدَّ له الشيخ ﷺ من الأيام فحلَّ به أمرٌ كادَ أن يكون سببَ حَتْفه في خُلْوته، فلم يشعرْ أن وجَدَ الشيخ ﷺ في الخلوةِ فمدَّ يدَه إليه، وأقامه من صرعته، وقال له: ما حَمَلك على مجاوزة الحد؟ أو كلاماً من هذا المعنى، ثم خرج وقد ظهر عليه أثرُ الفتح، فكان من قدرِ الله أن اشتغلَ بإذاية بعض الصالحين الأحياء من أهل بلده، وكان والدُ هذا الصالح من مشاهير العارفين بالله، ومن المستغرقين في محبة رسول الله ﷺ، فاتفق أن قدِمَ هذا الطالب على الشيخ ﷺ زائراً، فلمَّا دخل عليه بباب دارِه من فاس أشار إليه بيده ﷺ بمجرَّد وقوعِ بصره عليه «أن اذْهَبْ» ثم قال له بلسانه: رُحْ عنِّي فإنَّك تؤذي ولد الحبيب، وطرَدَه، فبقي يتردَّد إلى بابه، فلم يقبله بَعْد، والعياذ بالله تعالى.

وأراد ﷺ بقوله: «ولد الحبيب» أن ولدَ الصالح المذكور كان حبيباً للنبيِّ ﷺ، ويدلُّ لقول الشيخ رضي الله عنهما قدَّمناه عنه من أنه كان مستغرِقاً في محبة الرسول عليه الصَّلاة والسلام مشهوراً بذلك بين الخاص والعام، وتعظيم حرمة الأولياء يكون باعتقاد خصوصياتهم وعلوِّ منازلهم عند الله تعالى، والتصديقِ بما منَحَهم الله وخصَّهم به من الفتوحات والأنوار والبركات والأسرار، والجزمِ بأن فضائلهم وخصائصهم لا تُحَدُّ بمقياس ولا تتقدَّر بمقدار، لأنهم عبيدُه المصطفون الأخيار، وأرفعُ من هذا وأعلى وأعزّ وأغلى أن ينظمَّ إلى هذا الاعتقاد الاستحضار، لأن جميع ذلك مفاضٌ عليهم من حضرة سيد الوجود، ومصطفى الحقِّ من العباد، فبذلك يصيرُ التعظيم الموصوف خدمةً لجانب سيد كلِّ شريف ومشروف، ﷺ، وشرف وكرم ومجد وعظم.

واستثني من المنْعِ من الالتفات الأنبياءُ عليهم الصَّلاة والسلام، وكذا الصَّحابة

الكرام، لأن الالتفاتَ إليهم لا يعدُّ الْتفاتاً عنه ﷺ، واستثني أيضاً من ذلك زيارةُ من كان من أهل هذه الطريقة الشريفة والسلسلة السامية المنيفة، لأن الأنوارَ المفاضة عليه هي المفاضةُ على الشيخ من الحضرة المحمدية صلوات الله وسلامه عليها بعينها، لأن أصحابَها المستفيضين منه مظاهر أنوارِه بلا شك، فللمُريد من أهل هذه الطريق أن يقصدَ قبورَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقَصْد الانتفاع بهم، وكذلك قبور الصَّحابة الكرام ﷺ أجمعين، وكذلك من كان من أهل هذه السلسلة الفاخرة حيًّا كان أو ميتاً، وأما الغيرُ فلا، وما في «جواهر المعاني» من أن المريد له أن يزور الأولياء الأموات، بشرطِ أن يقصدَ بذلك مواصلتهم لله، ويطلب عندهم رضا الله ورسوله ورضا شيخه عنه لا غير صحيح، لأن المنْعَ محطُّه قصدُ الانتفاع بالمرور، وهو في هذه الصورة منتفٍ بلا شك، لأن القصْدَ هو المواصلة لله تعالى، لكن هذا إنما يصحّ ممن تحقق بمنزل الإخلاص، وبَلَغ في تصفية النفس وتزكيتها إلى أن صارَ بحيث لا يلتبسُ عليه شيءٌ من دسائسها وخداعها.

وأما من كان مرتهناً في أسْرِ شهوته، محبوساً في سجنِ هواه وغفلته، فإنه لا يعرفُ المواصلة لله، وإن ادَّعتْ نفسُه ذلك فهو من مكْرِها وخداعها لا غير. وقد كان سيدنا ﷺ يقول: العامةُ لا تعرفُ العملَ لله اهـ، فالخيرُ كله مجموعٌ لنا معشرَ الضعفاء وأهل الحجاب في اتهام أنفُسِنا وعدم الاغترار بشيء مما تدعو إليه وتشرئِبُّ إلى فعلِه والحرْص عليه، ولهذا آلَ الأمرُ من سيدنا ﷺ في آخر عمره إلى سدِّ هذا الباب وحَسْم هذه المادة من أصلها، وعلى ذلك استمرَّ العمل بعده من جمهور أصحابه المعتبرين، على أن الخطبَ في هذا سهلٌ عند من أنصف، فإن فضل المواصلة لله لا لعلَّة زائدة يحصل بالاعتقاد والتعظيم القلبي، بل ربما كان ذلك أفضل لسلامته مما يتوقَّع في القصد إلى الأولياء بأعمال الحركة الظاهرة من التصنُّع والرياء والعجب ونحو ذلك، فالاقتصار على التعظيم القلبي في حقِّ المريد أوْلىٰ له من ارتكاب ما يتوقَّع بارتكابه الإخلال بهذا الأصل الذي قال فيه الشيوخ إنه أصلُ الأصول حسبما تقدَّم، وخصوصاً في طريقنا هذه، فإن سيدنا ﷺ جعلَ مدارَ التربية فيها عليه، وقد تقدَّم توجيه ذلك.

وفي هذا القدر الذي أتينا به هنا كفايةٌ لمن سلك سبيلَ الإنصاف، وتجنَّب طريق الاعتساف، وسيأتي لنا قريباً إن شاء الله تعالى مزيدُ كلام في هذا الباب، والله الموفق للصواب. ثم قال رحمه الله تعالى:

(وتَــرْكِ غَــيــرِهِ مِــنَ الأَورادِ وعَــدمَ الــتَّــرْكِ إلــى الــمَــعــادِ)

الضمير في (غيره) لوِرْد سيدنا ﷺ، والمرادُ بـ(الأوراد) هنا: أورادُ المشايخ اللازمة

لمن دخلَ طريقهم، وفي قوله: **(وعدم الترك)** حذفُ الصلة: أي وعدم الترك له، يعني هذا الورد الشريف، وأراد بـ **(المعاد)** الممات.

يقول: ويُعطى هذا الوردُ ويلقَّن أيضاً لمن رغِبَ فيه من العباد إذا تحمَّل والتزمَ وترَكَ غيرَه من الأوراد، بأن ينسلِخَ عنها إن كان وجده الحال متقيّداً بها، ويلتزم عدم أخذها بعدُ عن مشايخها وأربابها، وكذلك يُعطى ويلقَّن أيضاً لمن رغِبَ فيه من الأنام إذا تحمل والتزم أن لا يتركه إلى أن ينزل به محتومُ الحِمام[1].

وعقد في الشطر الأول ما صرَّح به في «جواهر المعاني» من أن هذا الوردَ العظيم لا يلقن لمن كان له وردٌ من أورادِ المشايخ ﷺ، إلا إذا تَركه وانسلخَ عنه والتزم عدمَ العَوْد إليه وأخذ عليه العهدَ بذلك من له الإذنُ الخاصُّ من الشيخ ﷺ، وإن لم ينسلخْ عنه فلا يلقِّنه إياه ولا شيء عليه، لأن أورادَ المشايخ كلّها على هدًى وبيِّنةٍ من الله، وكلّها مسلكة وموصلةٌ إلى الله تعالى، فإن خالفَ المقدم لإعطاءِ الورد ولقَّنه قبل أن يلتزمَ عدمَ التشريك له مع وردٍ آخر سابقاً كان أو لاحقاً فإن الوردَ يرتفعُ عنه هو في نفسه فلا ينفعُه ولا من لقَّنه إياه، فليحكم هذا الشرط وليعمل عليه اهـ. راجع «جواهر المعاني».

وعقد في الشطر الثاني ما هو مصرَّح به في كثير من الإجازات، وهو مستفادٌ من كلام صاحب «الجواهر» أيضاً من أنه لا يلقَّن إلا لمن التزم المداومة عليه إلى الممات، فإن فاته لعُذْرٍ فليتداركْه على ممرِّ الدهر، وما أشارَ إليه في الشطر الأول قد تقدَّم ما يشهد له في النصوص التي جلبناها في الأبيات قبله. وقال الشيخ محيي الدين بن عربي ﷺ في الباب الحادي والثمانين والمائة في «معرفة مقام احترام المشايخ» من فتوحاته المكية: واعلمْ كما أنه لم يكنْ وجودُ العالم بين إلَهين، ولا المكلّف بين رسولين مختلفَيْ الشريعة ولا امرأة بين زوجين، كذلك لا يكونُ المريدُ بين شيخين إذا كان مريد تربية، فإن كان صحبتُه بلا تربية فلا يبالِ بصحبة الشيوخ كلِّهم، لأنه ليس تحتَ حكمِهم، وهذه تسمَّى صحبة البركةِ، غير أنه لا يجيءُ منها رجلٌ في طريق أهل الله، والحرمة أصلٌ في الفلاح اهـ بنقل الشعراني ﷺ.

وقال ابن حجر: من يريدُ التبرُّكَ يجوزُ له الأخذُ عن مشايخ متعدِّدين، ومن يريد السلوكَ والتربية يحرمُ عليه الخروجُ عن شيخه اهـ المراد من كلامه بنقل صاحب «الجيش الكبير»، وكأنه مأخوذٌ من قول الشيخ محيي الدِّين السابق آنفاً.

---

(1) الحمام: الموت.

قلت: وليس في طريقنا إلا صحبةُ السلوك والتربية، لما تقدَّم لنا في المقدمة من أن أهل هذه الطريقة كلهم مرادون لحمْلِ سرِّ الشيخ ﷺ، وإذا كان المحبُّ للشيخ ﷺ دونَ أخذ ذكر عنه لا يموتُ إلا وليًا، فما بالك بأخْذِ الوردِ عنه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البَقَرَة: الآية 105] .

وبالجملة فمن المقرَّر عند أئمَّة الطريق وأركانها أن من شرْطِ أخذ العهد على المريد انسلاخُه عن جميع العلائق. قال الأستاذ أبو القاسم القشيري ﷺ حسبما سبق قريباً: وما لم يتجرَّد المريدُ عن كل علاقة فلا يجوزُ لشيخه أن يلقِّنه شيئاً من الأذكار اهـ. وقد علمت مما قدمناه عن الأئمة أن من أعظمِ العوائقِ علامةُ التعلُّقِ بغير الشيخ، بل والالتفات إليه بالسرِّ فقط. وقد اتفق لبعض الفقهاء من أهل مكناسة الزيتون أن صَدَر منه التفاتٌ بعد التقيُّدِ بعهد سيدنا ﷺ فأحسَّ بانكسافِ أحواله الظاهرة والباطنة فقصَدَ الشيخ ﷺ بفاس، فطلَبَ منه تجديدَ الإذْنِ في وِرْدِه فلم يجبه ﷺ لذلك حتى أقام مدةً بفاس يلازم في كلِّ يوم منها باب دارِه ﷺ واستعطفَ خاطره بمديح أنشأه هنالك، وكانت له قدرةٌ على ذلك فلم يجبْه لمراده، ثم لما طالَ به الأمرُ طلب من بعض من كان يتوسَّط له في الكلام مع الشيخ ﷺ أن ينهى إليه ﷺ أنَّ هذا الرجلَ له بناتٌ صغار بمكناسة، وليس لهنَّ من ينوبُ عنه، فإن أنت يا سيدي أقبلتَ عليه وجدَّدتَ له الإذنَ رجَع إليهنَّ وإلا فيتركهنَّ للضياع. وهذا قبرُه ببابِ دارك. فلما بلغَ ذلك سيدنا ﷺ دعا به، فلمَّا أُدخِلَ عليه جعلَ يتحدَّث على عادته ﷺ، فقال بعض المشايخ أتاهُ رجلٌ يأخذُ عنه فقال له: حتى تخرج عن جميع ما تملك ففعل، فقال له: حتى تفارقَ زوجتَكَ ففارقَها، فلما انسلخَ عن المال والزوجة وكلِّ شيء يملكُه قال له: لا شيءَ لك عندنا اذهَبْ وانظر حاجَتك عند غيرِنا، فساح في طلبِ من يأخذ عنه فلم يتيسَّر له أحدٌ يأخذُ بيدِه حتى قصَّ أمرَه على بعضِ من لقِيَه في سياحته، فقال له: ارجعْ إلى ذلك الشيخ الأول الذي أمرَكَ أن تخرج عن جميعِ متعلِّقاتِك ولا تظنّ أن أحداً ينفعُك غيره، فعند ذلك رجَع إليه، فقال له: قطعناك عن سائرِ العلاقات فانقطعت، وبقيت فيك علاقةُ التعلُّق بالغيرِ فتركناكَ حتى انقطعت عنها، ثم أقبلَ عليه ولقَّنه، فأكَّد سيدنا ﷺ بذِكْر هذه الحكاية ما فعَلَه من التربية مع هذا الفقيه حتى لا يبقى عندَه خاطر شبهة في الأمر، وجدَّد له الإذنَ ﷺ، وهذه كانت عادتُه ﷺ مع من صدَرَ منه إخلالٌ بهذا الشرط، إذ أتاه طالباً لتجديد الإذْنِ لا يجدِّد له حتى يأنسَ منه الصدقَ التام في الجزم بعدم العَوْد إلى ذلك. ومن الناس من طلب ذلك فلم يجبْهُ إليه بعدُ أبداً، ولا تظنَّ أن للمشايخ في ذلك هوى نفسانياً أو حظًا شهوانياً فتخسرَ صفقتُك في حسن الظن بهم ﷺ، ثم قال رحمه الله تعالى:

(ومَن لبَعض ما تقدّم نَبذ	يَخسَر في الدّارين إن كانَ أخذ
وذا الوَعيدَ قالَه خَيرُ الورَى	لِشَيخِنا يَقظَةً بِلا مِرا
ومَن يتبْ مِنْ فِعلهِ وينْدَمِ	ثُمَّ يُجدِّدَ الطَّريقَ يَسْلَمِ)

(ما تقدم) هو ترك الزيارة، أي قصدُ الأولياء للانتفاع بهم والاستمداد منهم، وترك ما عداه من الأوراد الموجبِ أخذُها للدخول في طرق المشايخ، والمداومة على الوِرْد إلى الممات، بأن لا يتركَه تركاً كليًّا على جهة الطَّرْحِ له بالمرَّة لتهاوُنٍ أو استهزاء أو نحو ذلك، وإن لم يأخذْ غيره. وألفاظُ الأبياتِ كلُّها واضحة.

يقول: وإذا وقَع من المريد الآخذ لهذا الورد نَبْذ لبعض ما تقدَّم وأحرى إذا نبذ الجميع بعدَ التقيد بالعَهْد، فإنه يخسرُ في الدارَيْن، وتحلُّ به العقوبة فيهما بلا شك ولا مين، وذلك بنصٍّ من سيد الوجود عليه الصلاة والسلام لشيخنا ﷺ مشافهةً في حال اليقظةِ لا حالَ المنامِ، إلا أن تدرِكَه عنايةٌ إلَهية بسبْقِ مشيئة ربانية فيتوب من فِعْله ويستأنف التقيد بالعهد على يد مَنْ عنده الإذنُ الصحيح من أرباب هذا الشأن وأهله. ولفظه ﷺ في هذا الوعيد المشار إليه مذكورٌ في «جواهر المعاني» لمن أراد أن يقفَ عليه، وقد سبق آنفاً ما يستفاد منه توجيهُ ذلك، ويظهر به السبب فيما هنالك.

اللهمَّ إنا نسألك الثبات في الأمر، ونعوذُ بك من لباسِ حلَّة الأمان من المكْرِ بفضلك وكرمك يا أرحمَ الراحمين آمين.

ولما أنهى الكلامَ فيما يجبُ منه تجديد الإذن في الورد لكَوْنِ من نبذه كُلاً أو بعضاً استهزاءً وتهاوناً ينلسخُ عن عُهدةِ أهل الطريق أردَفَه بما تجب منه التوبةُ فقط كلَّما وقع فيه المريدُ ولا يوجبُ انقطاعاً عن الشيخ ﷺ، ولا سدًّا لأبواب المريد فقال:

(كذاكَ فِعلُ ما به الهَاوي أمر	وتَركُ ما عَنهُ نَهانَا وزَجر
تحذيرُه كانَ مِنَ القَلبيّه	للنّاس أكثرَ مِنَ الجَليّه
لكَونِها مِنْ فِعلِهِمْ خَفيّه	مَع زَجْرِه عَن كُلِّ ما مَعصيَة
وشَرُّ التّحذيرَ في الّذي انتَقل	عَن النّبي كونَه يَحبطُ العَمَلْ
وكانَ يَغري بِفروضِ العينِ	لِكَونِها هِي أساسَ الدّينِ
مع كونه يَغرِي بكلِّ أمرِ	أتى عنِ النبيِّ أو في الذِّكرِ
وبالمُكفِّراتِ للذُّنوبِ	وبالمُطهِّراتِ للقُلوبِ
ومَن عَليهِ كَتبَ المَجيدَ	فلَيسَ لازِماً لهُ التّجديد)

الإشارة بذا من قوله: (كذاك) إلى ما تضمنته الترجمة: أي ما يلزمُ من أراد الوِرْدَ إلخ. و(الهادي) من أسمائه ﷺ، والمناسبة في الإتيان به هنا دونَ غيرِه من أسمائه ﷺ ظاهرة، والضميرُ في (تحذيره) راجع للشيخ رضي الله عنه بقرينة المقام ويدلُّ عليه أيضاً الأصلُ المعقود من كلام صاحبِ «جواهر المعاني»، وهو في فصل الدلالة منه و(القلبية) صفة لمحذوف تقديره: المعاصي، كما يدلُّ عليه السياق، وكذا قوله: (الجلية) أيضاً، و(انتقل) المراد به هنا روى أو ثبتَ أو صحَّ، اعتباراً بمراتب الأخبار الواردة في ذلك صحةً أو حسناً أو ضعفاً وانتقل يعمُّ جميعَها، ولذلك عبَّر به، والله أعلم.

و(فروض العين) الواجبات العينية، كالصلاة والصوم والزكاة وسائر المفروضات العينية، و(الذكر) القرآن العظيم، و(المكفرات للذنوب) المراد بها: الخصالُ التي وَرَد الخبرُ بأنها تكفِّر الذنوب، وهي معلومة، و(كتب) معناه هنا قُدِّر، وهو فعلٌ ماضٍ فاعلُه (المجيد)، وهو اسمٌ من أسمائه تبارك وتعالى، ومفعول كتب محذوف للعلمِ به تقديره ذنباً، أي مخالفة للشرع، و(التجديد) المراد به هنا: تجديد الإذن في الوِرْد من الآذِنِ لا تجديد التوبة، فإنَّ التمادي على الإصرار يفضي بصاحبه إلى البوار[1].

يقول رحمه الله تعالى: وكما يلزمُ الأخذ للورد لجميع ما تقدَّم، فكذلك يلزمُه أيضاً الأخذ بما أتانا الرسولُ الهادي الأكرم، والترك لما نهانا عنه ﷺ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: الآية 7] الآية، والمرادُ تركُ المخالفة فعلاً وتركاً للأوامر الشرعية بالمحافظة في السر والعلانية على الوقوف عند حدودِها المرعيَّة لكثرة تحذير الشيخ رضي الله عنه في بساط الدلالة والتربية من وخامة مرْتَعِ المعصية الظاهرة منها والخفية.

وتحذيرُه رضي الله عنه كان من الباطنة أكثرَ من تحذيره من الظاهرة الجلية، فقد كان رضي الله عنه يكثر التحذير من المعاصي بأسرها ويبالغُ في القلبية منها أكثرَ من غيرها، وكذلك كانَ رضي الله عنه يشدِّد الزجرَ والتنفير، ويبالغ في التخويف والتحذير من فعل ما وَرَد عن سيد الأرسال ﷺ أن فعله يحبطُ الأعمال، وكذلك أيضاً كان رضي الله عنه يرغِّبُ أتمَّ ترغيب في كلِّ وقت وحين في المحافظة على المفروضات العينية التي هي أساسُ الدين، مع كونه رضي الله عنه يرغِّب دائماً على سبيل الإطلاق، والتعميم في كلِّ أمر أتى به الذكر الحكيم، أو وَرَد في سنة نبيّنا المصطفى الكريم، عليه وعلى آله أفضلُ الصَّلاة وأزكى التسليم وكذلك كان يرغبُ أيضاً مع ذلك كله في الإتيان بالخصال التي وردتْ عن نبينا ﷺ أنها تكفِّر الذنوب، وتطهِّر القلوبَ من الرَّان

(1) البوار: الهلاك.

وسائر أدران العيوب [1].

هذا ومن قُدِّر عليه ذنب في الأزل، فليس عليه بعد الوقوع والنزول إلا المبادرة للتوبة والإقبال على صالح العمل، وليس عليه تجديدُ التلقين للوِرْد ولا إعادة التقيد بالعهد.

والأصلُ فيما عقَدَه الناظم رحمه الله تعالى في البيت الأول من هذه الأبيات ما هو مذكور في غير ما رسالة من رسائل سيدنا رضي الله عنه، وخصوصاً في الرسالة الأولى من الرسائل المشتمل عليها «جواهر المعاني»، فإن لفظ الشيخ رضي الله عنه فيها صريحٌ في اشتراط المحافظة على الأوامر الشرعية في الورد، ونصّه فيها: وشرطُ الوردِ المحافظةُ على الصلاة والأوامر الشرعية، إلخ، يريدُ رضي الله عنه بقدرِ الاستطاعة، كما شرَحَه رضي الله عنه في الرسالة التي تلي هذه بقوله [في] صدرها: وبعد، فأُوصِيكم بما أوصاكم الله به وأمَرَكم به من حِفْظ الحدود ومراعاةِ أمرِ الله، على حسب جهدِكم واستطاعتكم، فإنَّ هذا زمانٌ انهدمتْ فيه قواعدُ الأمر الإلَهي جملةً وتفصيلاً وانهمكَ النَّاسُ فيما يضرُّهم دنيا وأخرى، بحيث لا رجوع ولا يقظة لما يصرفُ القلوب إلى الله والوقوف عند حدوده أمراً ونهياً، ولا طاقة لأحدٍ بتوفية أمر الله في هذا الوقت، إلا لمن لبس حلة المعرفة أو قارَبَها، ولكن حيث كان الأمرُ كما ذكر ولم يجد العبدُ مَصْرفاً عما أقامه الله فيه، فالأبقع [2] خيرٌ من الأسود كله، فاتركُوا مخالفة الله ما استطعتم، وقوموا بأمرِه على حسب الطاقة اهـ.

إلا أن الناظم عبَّر عن الشرط هنا باللازم وقد تقدَّم بيان الوجهِ في صنيعه رحمه الله تعالى، والأصلُ فيما عقَدَه في قوله: «تحذيره» إلخ ما هو مذكور في فصول سيرة سيدنا رضي الله عنه ودلالته على الله تعالى من «جواهر المعاني» والأصلُ فيما عَقَده في قوله: **(وشدد النكير في الذي انتقل)**[3] إلخ مذكور في بعض أجوبة الشيخ رضي الله عنه عن بعض الآي القرآنية من الكتاب المذكور، والأصلُ فيما عقده في قوله: **(وكان يغري بفروض العين)** إلخ مذكورٌ في الشافية وفي غيرها من الرسائل، وكذا فيما عقدَه في قوله: **(وبالمكفرات للذنوب)** إلخ مذكور في جلِّ رسائله كالشافية وغيرها، وأما قوله: **(ومن عليه كتب المجيد)** إلخ فالأصل فيه ما ثبتَ متواتراً عن الشيخ رضي الله عنه من أنه كان لا يأمرُ بالتجديد من الوقوع في شيء من المخالفة

---

(1) الرَّان: الغطاء والحجاب الكثير، وهو كذلك ما غطّى القلب و ركبه من القسوة للذنب بعد الذنب.
والدَّرَن: من الفعل «دَرِن يدرَنُ دَرَناً»: وسخ وتلطّخ، والدَّرَن: من أمراض الرئتين.

(2) الأبقع: ما خالط لونَه لون آخر.

(3) الذي ورد في الأبيات «وشدَّد التحذير. . . إلخ».

كائنةً ما كانت، أي تجديد الإذن، وإنما كان يأمرُ من بَلَغه عنه شيءٌ من ذلك أو شَكَا إليه شيئاً صدَرَ منه بالتوبة بشروطها وترك الإصرار، وعدم الأمن من مَكْر الله تعالى لا غير.

وجميع ما اشتملتْ عليه الأبيات السبعة بعد البيت الأول هو من تفصيلات ما دلَّ عليه ومتعلّقاته، وإنَّما خصَّت المعاصي القلبية بالذكر في بساط السلوك عندنا والتربية، لأن كلَّها أو جُلَّها من الأسباب القاطعة للمريد عما هو بصدده من الوصول إلى حضرة الربِّ المجيد. وقد كان سيدنا الشيخ ﷺ يبالغ في التنفير عن العُجْبِ والكبر ويقول: إن صاحبهما، والعياذُ بالله تعالى، ممقوتٌ وإنهما من أعظمِ الذنوب القاطعة عن الله تعالى، ويستشهد لذلك بقصَّة سيدنا آدم عليه السلام حين أمرَ اللعين بالسجودِ له فأبى واستَكْبر، فطُرِد عن رحمة الله وكتبتْ عليه اللعنة إلى يوم الدين، انظر «جواهر المعاني»[1].

وإنَّما خصتْ أيضاً محبطاتُ الأعمال، لما عليه كثيرٌ من الناس في شأنها من الإهمال والإغفال، مع كونها من أكبر الدواهي المعضلات، التي يجب التحرُّز منها في عموم الأحوال وسائر الأوقات، وهي متعدِّدة، وعدُّوا منها قذفَ المحصناتِ لحديث مسلم: «مَنْ قَذَفَ مُحْصَنَةً مُؤْمِنَةً أَحْبَطَ الله لَهُ عَمَلَهُ مائة سَنة» وعدُّوا منها أيضاً تركَ صلاة العصر حتى تغربَ الشمسُ من غير عذرٍ من نسيان أو نوم لحديث: «مَنْ تَرَكَ صلاة العَصْرِ فقدْ حُبِطَ عَمَلُه»[2]. وفي رواية: «كأنَّما أُوْتَرَ مالهُ وأهْلَه ووَلَدَه» وهي في صحيح البخاري، وعدوا منها ظلم الأجير بعدم إعطائه أجرته لحديث: «مَنْ ظَلَمَ أَجيراً أُجْرَته أَحْبَطَ الله عَمَلَه وحَرَّمَ عليه رِيحَ الجنَّة وريحُها يُوجَدُ من خمسمائةِ عام» وهو من أحاديث خطبة الوداع، وعدُّوا منها سبَّ الصَّحابة الأكرمين ﷺ لما في الحديث: «مَنْ سَبَّ أصحابي فَعَلَيْهِ لعْنَةُ الله والملائِكَةِ والنَّاسِ أجمَعين ولا يُقْبلُ منهُ صِرْفٌ ولا عدلٌ» اهـ إلى غير ذلك. ونسأل الله تعالى الحفظ من سائر المهلكات بجاه أحبِّ الخلقِ إليه، نبينا المعلوم ﷺ.

وخُصَّت المفروضاتُ العينية بالذكر أيضاً لكونها أساس الديانات التي لا تبنى إلا عليها قوائمها، ولا يستند إلا عليها دعائمها ولكونها كثيرةً، فمن ينتسب لطريق أهل الخير ممن لا يعثر على من يأخذ بيدِه يعتني بغيرها من الفضائل والرغائب أكثر مما يعتني بها، وتزين له نفسُه وهواه ذلك، ويتخيَّل أنه على الجادَّةِ، نسألُ الله العافية والسلامة من كل آفة وبلية.

---

(1) وفي القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 34].

(2) رواه البخاري في (المواقيت: 15)، والنسائي في (الصلاة: 15).

وخصَّتْ مكفِّراتُ الذنوب من الشيخ ﷺ بمزيد الترغيب فيها، والتأكيد في الحضِّ عليها، لشدَّة الاحتياج إليها في الوقت، وكثرة مناسبتها لأحكامه وأحوال أهله حسبما يشير إليه سياقُ كلامه ﷺ في الترغيب فيها والحضِّ على العمل بها في رسائله ونصائحه كقوله في «الشافية» بعد إخباره بهَيَجان بحر الذنوبِ في هذا الزمان وعظم أمواجه وتراكم ظلماته وعَجْز الناس عن الخروج من الذنوب إلا صديقٌ أو من قارَبَ مقامَه ما نصّه: فحيثُ كانَ الأمرُ هكذا فليشتغل العاقلُ بعد تصحيح صلاةِ فرْضِه بمكفِّراتِ الذنوب، إلى آخر كلامه فيها ﷺ. وكذلك في غيرها من الرسائل، فإنه يشيرُ إلى ما ذكرناه من شدة احتياج الناس إليها عموماً، وخصوصاً المريدين الصادقين لمناسبة العمل عليها لحكم الزمان وأحوال أهلِه كما لا يخفى.

وحاصلُ ما أشارَ إليه كلامُ الناظم في هذه الأبيات الإخبارُ بأن من اللازم للداخل في هذه الطريقة الأحمدية الشريفة المحافظة على الأوامر الشرعية، والمحافظةُ عليها تكون بامتثال جميع ما أمَرَ به الشرعُ ولو على جهة النذْبِ، ويتأكَّد الأمرُ في الواجبات العينية لتحتُّم الأمر بها، ولكونها هي أساس المعاملات الدينية، وتكون أيضاً باجتناب جميع ما نهى عنه الشرعُ ولو على جهة الكراهة، ويتأكّد الأمرُ في المحرمات منها جسديةً كانت أو قلبية، ثم يتأكَّد الأمرُ في القلبية من أجلِ كونها خفيةً قد لا يعبأ بها والأخرى جلية، مع كون القلبية أيضاً مفسدةً للقلب، وإذا فسد فسدَ الجسدُ كلّه كما في الحديث عنه ﷺ: «إنَّ في الجَسَدِ مُضْغةً» الحديث[1]، وهذا هو حقيقةُ التقوى، ولا شك أن التقوى في السرِّ والعلانية أصلُ منهاجِ الوصول إلى الحضرة العرفانية.

ومراتبُ التقوى ثلاثةٌ: أولاها: تقوى الشِّرْك، وعليها قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: الآية 26] أي الشهادتين، كما فُسِّر به. ثانيتها: تركُ ما يؤثر من فعلٍ، وترك حتى الصغائر عند قوم وعلى هذه المرتبة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ [الأعراف: الآية 96] الآية. ثالثتها: تنزُّه سرِّه عما يشغلُه عن الحق، وعليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عِمران: الآية 102] والواجبُ منها في هذا البساط بذلُ الوسعِ في الامتثال والاجتناب وعليه قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية 16] قال المفسرون: إنها مخصَّصة للتي قبلَها أو ناسخةٌ لها، والله أعلم.

---

(1) انظر الحديث في رواية البخاري في (الإيمان: 39)، ومسلم في (المساقاة: 107) وابن ماجه في (الفتن: 14)، والدارمي في (البيوع: 1).

ثم إن المحافظة على الأوامر الشرعية لا تتأتَّى إلا بالمبادرة إلى التوبة من كلِّ مخالفةٍ تصدرُ من المريد، وبترْكِ الإصرار على الذنوب، بأن يحدث لكل ذنبٍ صدَرَ منه توبةً، فإن أصرَّ فليحدِث لإصراره توبة، ولو تكرَّر الفعلُ منه مراراً، إذ ليس لنا داء لا دواء له، وفي الحديث: «ما أصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ ولو عادَ في اليومِ سَبْعينَ مرَّةً»[1] وقد قيل للحسن[2]: الرجلُ يذنِبُ ثم يتوبُ ثم يذنب ثم يتوب إلى متى؟ قال: ما أرى هذا إلا من أخْلاقِ المؤمنين.

وقال حجةُ الإسلام رحمه الله تعالى: وكما اتخذت العودَ إلى الذنبِ حرفةً فاتخِذ العَوْدَ إلى التوبةِ حرفةً، فإنَّك تكفِّر بالتوبة ذنبَكَ الماضي، ولعلَّك أن تموتَ وأنتَ تائبٌ اهـ الغرض منه هنا.

فتحصَّل أن هذا اللاَّزم هو الامتثال والاجتناب في السر والعلانية، والمراد بذلُ الوسع والطاقة في ذلك على ما عليه قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية 16] وهذا القدرُ من المحافظة على الامتثال والاجتناب لا يتأتَّى إلا بالمحافظة على التوبة من كل ذنبٍ يحدث من العبد، ولو جَرَى عليه القدرُ النافذ بالعود إليه في اليوم أو الليلة مراراً، فلا يؤمر المريدُ إلا بتجديد التوبة من الذنبِ، أو من الإصرارِ عليه إن صَدَر منه، لأنه ذنبٌ تجبُ منه التوبةُ لا غير، ولا يؤمَرُ بتجديد التقيُّد بالعَهْدِ لأنه لا تنفسخ عقدةُ عهدِه بارتكاب الذنب كما قد يتوهَّم، وهذه طريقةُ الكُمَّل من العارفين، فقد رأيت في النزهة للشيخ أبي العباس التستاوتي رحمه الله تعالى أن بعض إخوانه عهِدَ إليه مرَّةً عند إرادته الوفادة على شيخه الشيخ ابن ناصر رضي الله عنه أن يبلِّغَه سلامه، وأن يذكُرَ له عنه أنه يقَعُ في الذنب الفلاني، قال: وهو مما يقتلُ فاعله ثم يتوب ثم يعود، وقد تعذَّر عليه أمرُ التوبة منه، يعني بحيث لا يعودُ إليه أصلاً. قال: فأجابني الشيخ بأن قال لي: قلْ له ليس عليه إلا أن يجدد التوبة منه كلما جَرى عليه القدرُ به، والحبل متَّصلٌ بيني وبينه، انتهى بمعناه مع طولِ عهدٍ به.

وحدَّثني بعضُ الخاصة من أصحاب سيدنا رضي الله عنه أن بعض أصحابه رضي الله عنه وَقَع في كبيرة، ثم أتى سيدنا رضي الله عنه خائفاً مذعوراً، فذكر ذلك له رضي الله عنه فقال له: ليس عليك إلا أن تتوبَ إلى الله تعالى وأنت مني وأنا منك اهـ. والتوبةُ: الندم، أي توجع القلب وتحزُّنه على ما صدَرَ منه إعظاماً لمخالفة الله تعالى، وحَذَراً من عقوبته وسخطه، مع العزم على أن لا

---

(1) رواه أبو داود في (الوتر: 26)، والترمذي في (الدعوات: 106)..

(2) المراد «الحسن البصري»، وقد تقدمت ترجمته.

يعود عزماً قوياً جازماً، لكن لا ينتهي فيه إلى أن يعطي الله عهداً أن لا يعصيه أبداً، فقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني في طبقاته أن رجلاً قال لبعض الشيوخ: أرأيتَ إن أعطيتُ الله تعالى عهداً أو ميثاقاً أن لا أعصيه أبداً، فقال له: فمن حينئذٍ أعظمُ منك جرماً؟ وأنت تتألّى على الله تعالى أن لا ينفِّذَ فيكَ أمرَه اهـ. ويجب الاستحلالُ من حقوق العباد وردُّ ما أمكن من مظالمهم، لا بدَّ من ذلك مع الإمكان، والمسألة شهيرةٌ مقررة في كتب الفقهاء.

(فائدة) ذكر الشيخ أبو الفيض سيدي زروق ﷺ عن بعض العلماء أن من استغفر لمظلومه دُبُر كلّ صلاة خمساً وفَّى حقَّه. قال: وأظنه في العرض، والله تعالى أعلم اهـ. قلت: وقد صرَّح الشيخ الشعراني ﷺ في «الأنوار القدسية» بما إذا كان الحق مالياً أيضاً. ونصّه: تنبيه: ينبغي لمن يعلم من نفسِه أن عليه للناس حقوقاً في المال والعرض وتعذَّر رضاهُم أن يقرأ مع حضور قلبٍ سورة الإخلاص اثنتي عشرة مرةً، والمعوِّذتين كل ليلة ويهدي ثوابهنَّ في صحائف أربابِ الحقوقِ، ويقول بعد القراءة: اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ على نبيِّك وحبيبك سيدنا محمّد وعلى آله وأثِبْني على ما قرأتُه واجعلْه في صحائف من له علي تِبعةٌ من عبادكَ في مالٍ أو عرض اهـ.

ونقل عن الزواوي ﷺ تعالى ما هو قريبٌ من هذا، وقد علمت أن هذا كله مع تعذُّر الإمكان، أي إمكان الاستحلال وردّ المظالم، وفضل الله واسعٌ ومع خروجه عن صحبة قُرناء السوء الذين كان إلفُهم على المعاصي والمخالفات وإضرارهم بالتائب مشاهد، عافانا الله من شرِّ كل شرٍّ بمنّه.

(فائدة) ذكر الشيخ زروق ﷺ أن من كان له قرناءُ سوءٍ خرَجَ عنهم وأرادَ أن لا يرجعَ إليهم فليشخصْهم وليصلِّ عليهم صلاة الجنازة أخذاً من تكبيره ﷺ أربعاً على قوم لم يغزوا معه اهـ ومع الاستغفار باللسان من الذنب حين التوبة فقد عدُّوه من شروطها أيضاً، وكثيراً ما وَرَد إطلاقُه عليها كما في الحديث السابق: «ما أصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ» الحديث رواه الترمذي من حديث أبي بكر ﷺ.

وروى الإمام أحمد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «**وَيْلٌ للمُصرِّينَ الذين يُصِرُّونَ على ما فَعَلُوا وهم يَعْلَمُون**»[1] قال القسطلاني ﷺ: أي يعلمون أنَّ من تابَ تابَ الله عليه ثم لا يستغفرون، قال: قاله مجاهد وغيره اهـ. ولا يترك الاستغفار لعدمِ

(1) رواه أحمد: 2/ 165، 219.

مواطأة القلب للسان فيه، لأن اللسانَ إذا أَلِفَ ذِكْراً أوشك أن يأْلَفه القلبُ فيواطئه، وبالجملة فالمضرُّ بالمريد هو الإصرارُ، لأن من الذنوب ما يقطعُ الإصرارُ عليها المَدَد من حضرة الشيوخ حسبما نصُّوا على ذلك، عياذاً بالله تعالى.

(تنبيه) حدَّ بعضُهم زمنَ الإصرار بأن لا يدخلَ عليه وقتُ صلاةٍ أخرى، وهو لم يتبْ، وقيل في حدِّه غير ذلك. ووَرَد: «إنَّ الملائِكَة أعني الكِرام الكاتبين ينتظِرُونَ العاصي ساعةً» قال الشيخ محيي الدين بن عربي في «الفتوحات المكية»: وما عرفنا مقدارَ هذه الساعة هل هي الفلكية أو غيرها اهـ. ونقل عن السمرقندي أن الملكَ ينتظرُ ستَّ ساعاتٍ أو سبع ساعات، فإن استغفرَ الله فيها لم يكتبْ عليه شيئاً وإلا كُتِب عليه سيئةٌ واحدة اهـ. وانظر هذه السوائغَ في كلام السمرقندي أيضاً، هل المرادُ الفلكية أو غيرها؟ والأقربُ أنها الفلكية لأن الذي يظهرُ أنه بيانٌ لقدر الساعة التي ينتظر فيها الملك، وإلا كان مناقضاً للحديث إن لم يثبتْ روايةً، والله تعالى أعلم.

مسألة: اختُلِف في قبولِ التوبة، هل هو قطعيٌّ أو ظنِّي؟ والمشهورُ الأول. واختلف أيضاً على المشهور، هل يعودُ ذنبُه إذا عادَ للذنب أم لا؟ والصحيح الثاني، فتجبُ التوبةُ بشروطها من عَوْدِه للذنب، وكذا من عزمِه على العود قولاً واحداً. واختلف أيضاً هل تصحُّ من ذنبٍ دون ذنب أم لا؟ والصحيحُ الأول، ولو كانَ صغيراً مع الإصرار على غيره، ولو كثيراً.

مسألة أخرى: اختُلِف هل تجب التوبةُ بتذكُّر الذنبِ مطلقاً، أو لا تجبُ بل تندب إلا مع الفرح به والرضا بوقوعه؟ والظاهرُ ترجيح الثاني، لقول الشيخ زروق في النصيحة: وذكر الذنبِ لا يوجبُ التوبة منه بل ندبُها على الصحيح إن لم يكنْ فرحاً بذكرِه، فتجب التوبةُ من فَرَحه به ورضاه بوقوعه اهـ.

فائدة: من عَسُرَتْ عليه التوبةُ فليكثرْ من قراءة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النّصر: الآية 1] ومن عَسُرَ عليه قيادُ نفسِه فليكثِر من قوله: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 173] ذكره الشيخ زروق رحمه الله تعالى ورضي عنه.

(تكميل) قد ذكر الناظمُ رحمه الله تعالى مكفِّراتِ الذنوب، وقد ذكرنا حضَّ الشيخ رضي الله عنه عليها وترغيبه فيها وسوقَه الكلام في ذلك مَساق المبالغة في النصيحةِ والإرشاد التام، وهي ـ أعني الخصالَ المكفرة للذنوب ـ كثيرةٌ وردتْ بها أحاديث شهيرة، وقد ذكر سيدنا رضي الله عنه عدةً منها في نصائحه ورسائله وأفردَ أحاديثها بالتأليف غيرُ واحدٍ من الحفاظ والفقهاء

كالحافظ ابن حجر والإمام الخطاب شارح مختصر الشيخ خليل وغيرهما كالحافظ المنذري والجلال السيوطي، رضي الله عنهم وجزاهُم خيراً آمين.

واعلم أن هذه المكفِّرات متفاوتةٌ في الفضل وعظم الفائدة: فمنها: ما وَرَد النصُّ فيه بأنه يكفِّر الكبائر والصغائر، ومنها: ما وَرَد أنه ما تقدَّم وما تأخَّر، ومنها: ما وَرَد أنه يكفِّر ذنوبَ العبدِ على الإطلاق، ولم يذكُر كبيرةً ولا صغيرةً ولا ما تقدَّم ولا ما تأخر، وعلى هذا فيتأكَّد العملُ بما صرَّح فيه بغفران الكبائر والصغائر، ثم بما صرَّح فيه بما تقدم وما تأخر، وكذا بما جيءَ فيه بالإطلاق ثم بما صرَّح فيه بما تقدم فقط، فما صرَّح فيه بتكفير الصغائر والكبائر صلاة التسبيح، لقوله ﷺ لعمِّه العباس[1] رضي الله عنه حين علمه إياها: «يا عمَّاه **ألاَ أُعْطيكَ ألا أمْنَحُكَ ألا أحْبوكَ ألا أفعلُ بِكَ عَشْرَ خِصال؟ إذا أنتَ فعَلْتَ ذلكَ غَفَرَ الله لكَ ذَنْبَكَ أوَّلَه وآخِرَه، قدِيمَهُ وحدِيثَه، خطأَه وعَمْدَه، صَغِيرَه وكبيرَه، سرَّه وعلانيته**»[2] الحديث، خرّجه جماعة منهم أبو داود وابن حبان والحاكم في المستدرك، انظر «الحِصن» وشرحه، وزاد بعض من ألَّف فيها والترمذي وابن ماجه والنسائي، ونقل عن ابن الصلاح أنه قال في حديث صلاة التسبيح: إنه حسنٌ معتمد معمول به لا سيما في العبادة والفضائل، والمنكِرُ لها غيرُ مصيب، وقد رغَّب فيها سيدنا الشيخ رضي الله عنه في رسائله غاية الترغيب، وكنتُ حين تلقيتها بالإذنِ عن بعض خاصة أصحابه وخزائن أسراره رضي الله عنه قال لي بعد أن بالَغَ في الحضِّ عليها: لو وجدت لألزمتُ كلّ واحدٍ من الأصحاب أن يصليها في كلِّ يوم، فعلمتُ أنها من مُهمَّات الأمور المعمول بها في طريقنا. قال بعضُ من ألَّف في هذه الخصال المكفرة للذنوب: وقد استمرَّ على فعلها يعني صلاة التسبيح عمل القديم والحديث من الصالحين كعبد الله بن المبارك، فإنه كان يواظبُ عليها وهلم جراً، ثم قال: قال السبطي: فمن سمع ما وَرَد فيها ثم تغافَلَ عنها فهو متهاوِنٌ في الدين، غيرُ مكترثٍ بأعمال الصالحين، لا ينبغي أن يعدَّ من أهل الخير في شيء.

ومما عُدَّ من هذا الباب الحجُّ لبيت الله الحرام، فقد نصُّوا على أنه مكفِّرٌ للصغائر

---

(1) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الفضل، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وجد الخلفاء العباسيين، وهو عم النبي ﷺ، وكان محسناً لقومه، سديد الرأي، واسع العقل، مولعاً بإعتاق العبيد، كارهاً للرق، اشترى 70 عبداً وأعتقهم، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. أسلم قبل الهجرة، وكتم إسلامه. مات سنة (32هـ).
انظر صفة الصفوة: 1/203، وابن عساكر: 7/226، والمحبر: 63، وأسد الغابة، والإصابة.

(2) رواه أبو داود في (التطوع: 14)، والترمذي في (الوتر: 19)، وابن ماجه في (الإقامة: 190).

اتفاقاً، وللكبائر على الصحيح حتى التبعات عند بعضهم، ثم إن ما وَرَد بالإطلاق أو بما تقدَّم وما تأخَّر حيث لم ينصّ فيها على إدخال الكبائر ولا إخراجها مختلَفٌ فيه بين العلماء، فقيل: يحمَلُ على التعميم للكبائر والصغائر، وقيل: لا يحملُ إلا على الصغائر. وأما الكبائر فلا تكفَّر إلا بالتوبة، أو بفضل الله ورحمته حملاً لمطلقِ الأخبار على ما قيدها، وهو قوله ﷺ في الصلاة: «ما اجْتُنِبَتِ الكَبائِرُ»[1] واحتجَّ القائل بالتعميم بآية: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: الآية 114] وغيرها من الآيات والأحاديث الظاهرة في ذلك، ولأن الله غفرَ لأهل عرفات وضمِنَ لهم التبعات، وهو حديث صحيح، ولحديث الترمذي وغيره: «مَنْ قالَ أسْتَغْفِرُ الله الذي لا إِلَهَ إلاَّ هُو الحيُّ القيُّومُ وأتوبُ إِلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وإن كانَ فرَّ مِنَ الزَّحْفِ»[2] إلى غير ذلك مما احتجَّ به لهذا القول، وعلى القول بالتخصيص بالصغائر إذا لم يصادف العمل صغيرةً ولا كبيرة كتبت به حسناتٌ ورُفعت درجات قاله النووي، ثم قال: وإن صادفَ كبيرة أو كبائر ولم يصادِفْ صغائر رجونا أن يخفّف عنه من الكبائر اهـ، ولعلّنا نبسط القول في هذه المكفرات في غير هذا إن شاء الله تعالى، وبالله التوفيق. ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

(كذا الصَّلاةُ بِشروطِها الَّتي	قد قُرِرَت في كُتبِ أَهلِ السُّنةِ
إِيَّاكَ إِيَّاكَ ونَقرَ الدِّيكِ لا	تفعَلْ لِكونِه الصَّلاةَ مُبطِلا
وصلِّ مع جَماعةٍ سُنِّيَّةِ	إِيَّاكَ إِيَّاكَ مَعَ البِدعيَّةِ
فلا تُصلِّ قالَ خَلفَ مُنكِرِ	إِنكارَه أَعظِمْ بِهِ مِن مُنكَرِ)

(الصلاة) اختلف في اشتقاقها، فقيل: من الصِّلةِ، لأنّها صلةٌ بين العبد وربِّه، وقيل: من قولهم: صلَّيْتُ العود بالنّار، بالتشديد إذا ليّنته وقوَّمته، لأنها تلينُ القلب وتقوِّمه كما يليِّن العودُ وتقوَّم بعرضه على النار، واقتصر في «عوارف المعارف» عليه وبيَّن وجهه، وهو أن العبدَ فيه اعوجاجٌ لوجود نفسه الأمارة بالسوء، فإذا قامَ إلى الصَّلاة وأقامَها على الوجه المشروع واجهه من وهْجِ السطوة الإلَهية والعظمة الربانية ما يزولُ به اعوجاجه، بل يتحقَّق به معراجه اهـ بمعناه وبعض لفظه، و(الشروطُ) جمع شرط، ويقال أيضاً: شريطة، وهي بمعناه وتجمعُ على شَرائِط، وقد شرَطَ عليه كذا يشرُطه ويشرِطه بكسر الراء وضمها لغتان. والشرطُ ما يلزمُ من عدمه العدم ولا يلزمُ من وجودِه وجودٌ ولا عدم لذاته.

---

(1) انظر الحديث الوارد عند مسلم في (الطهارة: 16)، والترمذي في (الدعوات: 126).

(2) رواه الترمذي في (الدعوات؛ 117)، وأبو داود في (الوتر: 26).

وتنقسم شروطُ الصلاة من حيث الجملة إلى ثلاثة أقسام: شرط وجوب فقط، شرط صحة فقط، شرطهما معاً. وأراد الناظمُ هنا شروطَ الصحة، بل ما يشملُ جميعَ الأركان الفعلية والقولية بل ما يشملُ جميعَ ما يحصلُ به تحسين هيئتها على الوجه الأكمل في الشرع. و(أهل السنة) المرادُ بهم هنا علماء الشريعة المطهرة، و(نقر الديك) كنايةٌ عن الإسراع المفرِط في الصلاة المفضي إلى ترك الطمأنينة الواجبة في الصلاة جميعها، و(الجماعة السنية) المراد بها: السالمة العقائد من الزيغ والضلال، ويقابلها (البدعية) والمرادُ بها: أهل الأهواء كالقدرية وغيرهم من الفرق الفاسدة العقائد، و(المنكر) المراد به: والله أعلم، منكرُ الولاية أو منكر الكرامات، فهو تخصيصٌ من التعميم في هذه البِدَع قبله.

يقول: وكذا يلزمُ الآخِذ لهذا الوردِ الشريف المتقيِّد بهذا العهْدِ المحمدي المنيف المحافظة بغايةِ جهْدِه على إقامة أركان الصلاة المكتوبة بتكميل هيئتها الشرعية المعروفة، واستيفاء شروطها التي هي في كتب الفقهاء محدودة وموصوفة، ومن تكميل هيئتها وإقامة أركانها إتمام الطمأنينة في الركوع والسجود، وإتمام الاعتدال كذلك في القيام بين يدي الملك المعبود، فلا ينقرُها نقرَ الديكة للحَبِّ، فإن ذلك مبطِلٌ لها ومبْعِد لفاعله عن حضرة القرب.

ومن تكميل هيئتها أيضاً أداؤها في الجماعة مع الإمكان، لكن بشرطِ كونِ الإمام مستوفياً من أوصاف الإمامة لجميع الأركان، غيرَ متَّسم ببدعة أو ضلال أو فسوق أو عصيان، كأن يكون ممن ينكِرُ الولاية أو الكرامة، لأن ذلك فسقٌ وأيّ فسق يتوجَّه لصاحبه الذمُّ والملامة لخروجه به عن مناهج أهل الاستقامة، وقد قالَ جمعٌ من أهل السنة والجماعة: أعدلُ المذاهبِ أن لا يتقدَّم فاسقٌ للإمامة والشفاعة.

وخصَّت المحافظةُ على إقامة الصلاة بالذكر هنا مع دخولها في اشتراط المحافظة على الأوامر الشرعية لمزيد الاعتناء بها، لكونها أهمَّ ما يحافظ عليه من أمور الدين، وقد قال ﷺ: «الصَّلاةُ عِمادُ الدِّين فَمَنْ تَرَكَ الصَّلاة فَقَدْ كَفَر» ومن وصية لمولانا عمر الفاروق رضي الله عنه: فإن أهمَّ أمورِكم عندي الصلاة، فمن حَفِظَها وحافَظَ عليها فهو لما سواها أحفظُ، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيعُ اهـ.

وقد نصَّ المحققون على أن سائر العبادات وسائل إلى تحقيق سرِّ الصلاة اهـ. فالمحافظة عليها آكدُ وأهم، والواقع من الناس خلافُه، جَبر الله حالنا جميعاً وقديماً. قال مولانا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وهو على المنبر: إنَّ الرجل ليشيبُ عارضاه في الإسلام وما

أكملَ لله صلاةً، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتمُّ خشوعَها وتواضُعَها وإقبالَه على الله فيها اهـ ذكره في «العوارف». ونقل بعضهم عن القاضي أبي بكر بن العربي أنه قال: ولقد رأيتُ ممن لا يحافظ عليها من لا أحْصيه، فأما من يحفظها فلا أعد منهم خمسة اهـ.

وقد كان شيخنا ﷺ يشترطُ المحافظةَ عليها على المريد عند الأخذ عنه قبل كلِّ شيء، وكذلك جميعُ نوَّابه ﷺ أجمعين. ومن طالَعَ إجازتهم على كثرتهم علم ذلك عِلْمَ يقينٍ لا يمتارُ فيه، وطالع رسائل الشيخ ﷺ ونصائحه تقفْ من ذلك على ما يقضي بتقديم ذكر هذا اللأزم على كل لازم من لوازم الطريق، ويكفي ما في «النصيحة الشافية» من قوله فيها بعد أن صرَّح ﷺ: بأن آكد ما يحافظ عليه من أمر الله تعالى الصلواتُ الخمس، وأن الواجبَ لها تكميل شروطها وتنقيل هيئتها في الركوع والسجود على الحد الذي حدَّه ﷺ في خبر المسيء في صلاته الذي قال له ﷺ: «ارجعْ فصَلِّ فإنَّكَ لم تُصَلِّ»[1] الحديث الثابت في الصحيح ما نصّه: فالحذرَ الحذرَ من وقوع الخلل في الصلاة، فإن الصلاة في الإيمان، وأعمالُ الإيمان بمنزلة الروح في الجسد، إذا وجدت الروحُ وجدتْ حياة الجسدِ، وإن فقدت الروح منه فقدت الحياة اهـ، إلى غير ذلك من كلامه ﷺ الدائر على أن الصلاة أعني المحافظة عليها على الوجه الأكمل شرعاً هي الشرط الآكَدُ والأهمُّ في طريقه، فهو أجدرُ أن يقدم في الذكر على كلِّ شرط.

وقد أدركنا من أدركناه من خاصَّة أصحاب سيدنا ﷺ الذين كانوا يلقِّنون أورادَه إذا أتاهم من يأخذُ عنهم اشترطوا عليه هذا الشرط قبل كل شيء، وأمروا غيره من التلاميذ أهل الصدق في الإرادة أن يعلمه الطهارة قبل كلِّ شيء، بأن يرشدوه إلى آداب قضاء الحاجة ويعلِّموه كيفية الاستبراء والاستنجاء على ما ينبغي شرعاً، ثم كيفية الوضوء كذلك،

---

(1) خبر هذا الرجل والحديث، أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال: «ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ».

فرجع فصلى كما صلَّى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال: «ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ» ثلاثاً.

فقال: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلِّمني.

فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبِّر، ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، وافعل ذلك في صلاتك كلها».

روى الحديث البخاري في (الإيمان: 15)، والترمذي في (الصلاة: 110)، وفي (الاستئذان: 4)، والنسائي في (الاستفتاح: 7)، وفي (التطبيق: 15)، وفي (السهو: 67)، وابن ماجه في (الإقامة: 72).

بعد أن يعرفوه الفروض والسنن والمندوبات في ذلك، ثم كيفية الغسل من الجنابة كذلك ومفروضاته ومسنوناته، ثم كيفية الصلاة أيضاً على الوجه الأكمل من إتمام أركانها وتحسين هيئتها على الحدِّ المحدود في ذلك، ولا يزالون ﷺ يتعاهدون المريدين بالمذاكرة في ذلك والحضِّ عليها بغاية الجهد، كما لا يزالون يمدحون المعتني بذلك ويثنون عليه ويحسِّنون فعله، ليقَعَ التنافسُ في الخير ويبرؤوا من عُهدة النصيحة الواجبة في ذلك، فجزاهم الله خيراً، وقدَّس أسرارَهم، وأبقى في الأتباع بركاتهم وأنوارَهم آمين.

وبالجملة فمن تتبَّع كلامَ شيخنا ﷺ في هذا الشرط، وتأمَّل أحواله المنقولة عنه في العمل به، وكذلك أحوال الخاصة من أصحابه، الثابتين على قَدَمه، علمَ عِلْمَ يقينٍ أن معظم مدار التربية في طريقته ﷺ على هذا الشرط، ورحم الله الشيخ الإمام العارف بالله تعالى أبا عبد الله سيدي محمد بن الصغير التشيتي مؤلف «الجيش الكبير»، فقد ذَكَر عنه أخوه المحقِّق المتفنِّن المدقق سيدي عبيدة في كتابه «ميزاب الرحمة الربانية» أنه كان إذا سأله عن مدار التربية في هذه الطريق على ماذا؟ يقول له: هو في الصلاة، ولم يعرفْ ذلك حتى فتح الله عليه في موضع مؤلفه المذكور، فكُشِف له الحجابُ عما كان منهمًّا عنه من ذلك السرِّ المستور، فوضع الطريقة الثانية في هذا اللازم الأهمِّ، وعرفنا لما اتُّخِذت السلاليم في هذا السفر الأعظم.

وفي كلام أئمة الطريق وفحولها ما يشيرُ إلى أن إقامة هذا الشرط في طريق السلوك والتربية من أعظم أصولها. قال التاج ابن عطاء الله في حكمه ﷺ: ليكنْ همُّك إقامة الصَّلاة لا وجودَ الصلاة، فما كلُّ مصلٍّ مقيم، الصلاةُ طهارةٌ للقلوب واستفتاحُ أبواب الغيوب، الصلاة محلُّ المناجاة، ومعدن المصافاة، تتَّسع فيها ميادينُ الأسرار، وتُشرِقُ فيها شوارِقُ الأنوار اهـ وقال الشيخ محيي الدين ﷺ: إنه ليس في العبادات ما يلحقُ العبدَ بمقامات المقرَّبين من ملكٍ ورسولٍ ونبيٍّ وولي ومؤمن إلا الصلاة، قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: الآية 19] فإن الله تعالى في هذه الحالة يباهي به المقربين من ملائكته، ويقولُ لهم: يا ملائكتي أنا قرَّبتكم ابتداءً، وجعلتُكم من خواصِّ ملائكتي، وهذا عبدي جعلتُ بينه وبين مقام القربة حُجباً كثيرةً وموانعَ عظيمة، من أغراض نفسية وشهوات حسية، وتدبير أهلٍ ومال وولد وخدم وصحب وأهوال عظام، فقَطَع كل ذلك وجاهَد حتى سَجَد واقتربَ وكان من المقرَّبين، فانظروا ما خصَّصتم به يا ملائكتي من شرف المقام حيث لم أبتلِكُم بهذه الموانع ولا كلَّفتكم مشاقَّها، فاعرفوا قدر هذا العبد وراعوا له الحقَّ ما قاساه في طريقه من أجلي اهـ الغرض منه.

وللأستاذ السهروردي في عوارفه كلام نفيس في المعنى خلَّل به الكلام في أبواب الصلاة من كتابه المذكور، فليراجعه من أرادَه، ولعلنا ننقل بعضه في غير هذا إن شاء الله تعالى. وقولُ الناظم ﷺ تعالى: «وصلِّ مع جماعة سنية» إلى آخر البيت: أرادَ بالجماعة الإمامَ، لأن الجماعة لما كانت في هذا المقام لا تسمى جماعةً إلا بوجودِ إمامٍ، كأن الإمام كأنه هو الجماعةُ كلُّها، فصحَّ إطلاقُ اسم الجماعة عليه من هذه الحيثية، وانظر الأصل الذي عَقَده ﷺ في هذا البيت، فإنا لم نقفْ عليه في شيء من كلام الشيخ ﷺ الثابت رواية، ولا سمعناه من أحدٍ ممَّن نعتدُّ به من أصحابه، ولعلَّ الناظم وقَفَ على ذلك أو سمِعَه ممن يعتدُّ بالسماع منه إذ لا يظنُّ به الإقدام على تقوُّل مثلِ هذا في الطريق، ووجْهُه إن صحَّ عن الشيخ ﷺ أنه مبني على القول بمَنْع إمامة الفاسق بالاعتقاد، والمسألةُ معروفة. وهي إن كانت خلافيةً فمعلوم أن أهلَ الطريق ﷺ يأخذون بالاحتياط في الدين بغاية الجهد، فيجتنبون المكروه حتى كأنه حرامٌ، ويؤكِّدون العملَ بالمندوب حتى كأنه واجبٌ، فلا بدعَ إذاً أن يأمر الشيخ ﷺ بترك الصلاة خلفَ الفاسق بالاعتقاد، أخذاً بالاحتياط في العمل على القول بذلك، والله تعالى أعلم.

وأما قوله ﷺ في البيت قبل: (إياك إياك ونقر الديك)، فالأصلُ فيه ما في الشافية مع ما نقل متواتراً عن الشيخ ﷺ من تشديد النهي عن تخفيف الركوع والسجود وعدم الإتيان بالطمأنينة على الوجه الأكمل فيهما، وكذا بالاعتدال مع الاطمئنان في الرفع منهما، قال: قال ﷺ: وحقيقة الطمأنينة في الشرع أنَّ الراكعَ والساجد إذا بلَغَ حدَّ الركوع والسجود يتراخى فيهما قدرَ ما يسبِّح الله تعالى ثلاث تسبيحاتٍ، وفي الحديث: «وذلكَ أدْنى الرُّكوعِ والسُّجود» وفي «عوارف المعارف» أن هذا القدرَ هو أدنى الكمال، والكمالُ أن يمكثَ قدرَ ما يسبِّح الله تعالى عشراً اهـ بمعناه. وليس هذا من التحديد المصادم لمذهب إمامنا مالك ﷺ تعالى بل تمثيل للقدرِ الذي تحصلُ منه الطمأنينة بحقيتها الشرعية، وقد أسار في «تحقيق المباني» إلى نحو هذا، واستدلَّ بالحديث المشار إليه سابقاً فانظره إن شئت، وراجعْ ما أجابَ به في «الجيش» عن مقال المشنِّعين علينا في هذه المسألة لما ابتُلوا به من الاعتساف[1] والانحراف عن مَحَجَّةِ[2] الإنصاف، فقد شفى فيه وكفى، ﷺ تعالى ورضي عنه، ونفعنا ببركاته آمين.

---

(1) الاعتساف: الظلم، واعتسف الطريق وعن الطريق: سار فيه على غير هدى، مثل «عَسَفَ».

(2) المَحَجَّة: الطريق المستقيم، جمعه: مَحاجّ.

(تنبيه) قد كان سيدنا ﷺ إذا حضَّ على إيقاع الصلاة في الجماعة يرغب فيها غايةَ الترغيب ويؤكِّد الأمرَ فيها أشدَّ التأكيد، لكن لا بد أن يقيدَ كلامه بقوله: إذا كان الإمام يستكملُ الركوع والسجود وإلا فلا تحلُّ الصلاةُ خلفَه، وهذا لفظه بعينه في «الشافية»، وذلك لأن الإخلالَ بالطمأنينة مبطِلٌ لصلاة الإمام، فيسري البطلان لصلاة المأموم، ولو قدَّرنا أنه يأتي هو بالطمأنينة، لأن صلاته مرتبطة بصلاته كما هو معروف في كتب الفروع، وقول سيدنا ﷺ: «وإلا فلا تحلُّ الصلاة» إلخ إنَّما عدل عن نفي الصحَّة إلى نفي الحلية، لأن نفي الصحة في المسألة من البين الذي لا يكاد يتوهَّم، بخلاف الحلية، فإن كثيراً من الناس ربما قال: أصلِّي خلفه لأحضرَ الجماعة، ثم أعيدُ وحدي مثلاً، والإقدامُ على ذلك بعد العلم به ولا سيما مع المداومة على ذلك تلاعُبٌ في الدين، والإقدام على التلاعُب في الدين لا يحلُّ لأنه من اتخاذ الدين هزواً ولعباً، فافهمْ ذلك وتنبَّه له، ولا يحملنَّكَ على التساهُلِ في هذا ما في الحديث من قوله ﷺ: «يُصَلُّونَ لَكُم فإنْ أصابوا فلَكُم ولهم وإنْ أخْطَاوا فلَكُم وعَلَيْهِم»[1] الحديث المروي في الصحيح، وذلك بأن تتوهَّم أن الخطأ المذكورُ هو عدمُ الإتيان بالطمأنينة أو ارتكاب ما تبطلُ به الصلاة، بل المراد بالخطأ الذي يكون على الإمام دون المأموم هو أن تخرجَ الصلاة كلها بلا حضور مثلاً أو يكون الإمام ملاحظاً للعطاء على الإمامة غير مخلص عمله لله تعالى أو غير ذلك مما حمل شراح الحديث الخطأ المضرَّ بالإمام دون المأموم، وفي ذلك أن يدعو لنفسِه ولا يدعو للمأمومين فافهم، والله تعالى أعلم وأحكم.

واعلم أرشدني الله وإياك إلى سلوك مناهج التحقيق، وهدانا جميعاً بفضله وكرمه لأقْوَمِ طريق، أن الناظم جدَّد الله عليه سحائبَ رحماته، وأعاد علينا من عميم بركاته، قد أتى في هذا المحلِّ بأبيات خمسة[2] عقدَ فيها مسألتَيْن أجنبيتين مما ترجَم له: المسألة الأولى مسألة تورُّع سيدنا الشيخ ﷺ إنما هو لما كان عليه من التحقُّق بمقام الورع، وما سمع منه ﷺ فيه من الذمِّ خارجٌ مخرجَ الزجر والتغليظ لمن كان يراوِدُه على التساهل فيه بعد الخروج عنه لله تعالى، وغيرُ خافٍ أن هذه حالُ من رسخت قدمُه في مقام الورع، وإذا كان لا ينكر على الشيوخ الكاملين والعلماء العاملين تورُّعهم عن المباح البين الذي لا شبهة تطرق إليه بحال فكيف ينكر على سيدنا ﷺ تورُّعه عما كثر فيه في ذلك الوقت بين عامة الناس وخاصَّتهم القِيل والقال.

---

(1) رواه البخاري في (الأذان: 55)، وأحمد: 2/ 355.

(2) لم تأت هذه الأبيات في الأصل، فلعل الشارح حذفها لما ذكره، فتأمل.

وقد ذكر في «العوارف» عن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ أنه تركَ أكْلَ البطيخ لأنه لم تبلُغه الكيفية التي عليها كان أكَله ﷺ له. وأما السكر فقد وَقَع فيه بين علماءِ ذلك الوقت نزاعٌ كبيرٌ إلى أن ألف كلٌ بما ظهر له، وكاد الخلافُ بينهم فيه أن يكون كالخلاف في الجبن الرومي قبل هذه الأزمنة، وبسبب ذلك تورَّع عنه الشيخ ﷺ، هذا الذي عندنا في هذه المسألة. وأما المسألة الثانية فهي أن الشيخ ﷺ كان في مرضِ موته يتكلم مع أصحابه ويذكِّرهم على عادته عظمة أمرِ الله تعالى وأمر رسوله، فجرى ذِكْر الرقيق، فقال ﷺ: من يملك أمةً من غير أن يتسرَّى بها[1] أو يزوِّجها من غيره أو يبيعها على هذين الشرطين فليطرَحْ سبحتي من يده اهـ. ولا شك عندنا أن هذا خروجٌ منه ﷺ مخرجَ الزجر والتغليظ لما بلغه تساهلُ الناس في ذلك مع ما فيه من تضييع الحق الشرعي ومصادمة الوارد في قوله ﷺ: «لا ضَرَرَ ولا ضِرار»[2] والمسألة داخلةٌ في اللازم المتقدِّم في قول الناظم رحمه الله تعالى:

كذلك فِعْلُ ما بهِ الهادي أَمَرْ وتَرْكُ ما عَنْه نَهانَا وزَجَرْ

كما لا يخفى، إلا أن بعضَ من حَضَر المقالة فهم منها غيرَ المقصودِ كما فهم مثل ذلك من ذمِّ الشيخ ﷺ للسكر، فصار يشترطُ ذلك في الطريق ويدخله في جملة ما ينقطع به المريد عن الشيخ، ولعلَّ ذلك هو الذي اعتمدَه الناظم رحمه الله هنا، ولو تفطن لما ذكرته لما تعرض لهذين المسألتين في هذا المجال، ولكلٍّ مقامٍ مقال.

(لطيفة) سمعت بعض خاصة أصحاب سيدنا ﷺ وأفاضلهم يقول في مسألة الأمة هذه: إن سيدنا ﷺ ذكر ذلك في مرض موته حسبما سبق قريباً، فهو نعْيٌ نعَىٰ به نفسه لأصحابه ﷺ، أخْذاً من الوارد عنه ﷺ، من أنه كان آخرُ ما أوصى به «الصَّلاة وما مَلَكتْ أيمانُكم» وللوارث قسطٌ مما لموروثه؛ ولله دَرُّ هذا السيد فيما فهمه في هذه المسألة، ولا محالة أنه عثر على السرِّ فيها بلا ريب عند من أنصف وعقل ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية 43] .

ثم قال الناظم رحمه الله تعالى:

(ومَنْ يُجالِس مُبغِضَ الشَّيخِ هَلَكْ وضَلَّ في تِهامِهِ وفي حَلَكْ
وشَدَّدَ النَّهي لنَا الرَّسولُ في ذَاكَ فلْنَعمَلْ بِمَا يَقولُ

---

(1) تسرَّى بها: تزوَّجها لكثرة ماله وقلة مالها.

(2) رواه ابن ماجه في (الأحكام: 17)، ومالك في (الأقضية: 31)، وأحمد: 5/ 327.

اخْـتـرْ لـنَـفْـسِـكَ الَّـذِي أَطَـاعَـا	إِنَّ الـطِّـبَـاعَ تَـسْـرِقُ الـطِّـبَـاعِ
والـشَّـيْـخُ قَـالَ هُـوَ سَـمٌّ يَـسْـرِي	يَـحِـلُّ مَـنْ فَـعَـلَـهُ فِـي خُـسْـرِ
وَهْـوَ عِـنْـدَ الـصَّـادِقِـيـنَ قَـدْ وَضَـحْ	نَـعَـمْ وَقَـدْ جُـرِبَ ذَلِـكَ نَـصَـحْ
فَـالْـهَـرَبَ الْـهَـرَبَ عَـمَّـا قُـلْـتُ لَـكْ	نَـصِـيـحَـةً وَلَـوْ يَـكُـونَ وَلَـدَكْ)

(المجالسة) اتِّخاذ الغير جليساً؛ و(المبغض) المنتقِد؛ و(الحلك) الظلام؛ و(السم) مثلث السين؛ و(الخسر) الخسران؛ والمراد به هنا: القطيعة والعياذ بالله تعالى.

يقول: ومن اللوازم أيضاً لآخذ هذا الوِرْد الشريف؛ المتقيد بهذا العهد المنيف. أن لا يجالس أحداً من المنتقدين؛ ولا يركنُ إليه في أمر من أمور الدنيا ولا من أمور الدين وقد شدَّد النهي لنا في ذلك سيد المرسلين، فيما تلقَّاه عنه أستاذنا المعظم الأمين، فلتعمل بما يلقيه إليك هذا الإمامُ عن حضرة سيد الوجود عليه الصلاة والسلام، وقديماً قيل: اختر لصُحْبتِكَ مَنْ أطاعَ، فإن الطباعَ تسرِقُ الطباع[1]، وثبتَ عن سيدنا ﷺ فيما روي عنه من صحيح الأقوال أن الجلوس مع المنتقدين سمٌّ يسري لجليسهم، والعياذ بالله تعالى من هذا الداء العضال، وقد شُوهد ذلك في كثير ممن ابتُلي بذلك، فالهرَبَ الهربَ ممن قامَ به ذلك الوصفُ ولو كان من أخصِّ قرابتك وعيالك.

وعقد الناظم ﷺ تعالى في هذه الأبيات ما في «الجامع» ونصّه: ومن الشروط المؤكَّدة مجانبةُ المنتقدين على الشيخ ﷺ، فإن سيدنا ﷺ كان يحذِّر كثيراً من مخالطة المبغضين ومحبَّتهم، وأكْلِ طعامهم والجلوس معهم، ويقول: إن بغضَهم يسري في قلب من جالَسَهم كالسمِّ، وقد شاهدناه في بعض الأصحاب إلى آخر كلامه، أعاذنا الله من بلائه بمنِّه ورضاه.

وقد تلقينا مثل ما في «الجامع» عن بعض الخاصة مشافهةً، وفيه التصريحُ بأن ذلك يقطع المادة من الشيخ على المريد، وهو الذي عبَّر عنه الناظمُ بالهلاك والضلال والخسران.

وفي الحلية لأبي نعيم عن بعضهم أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هُود: الآية 113] إن النار في الآية نارُ القطيعة اهـ بمعناه، وهذا

(1) معنى هذا القول أن على الإنسان أن يحسن اختيار صحبته حتى لا يختلف طبعه بطبع صاحبه بالتأثر والتأثير، وكما ورد في الحديث «الرجل على دين خليله».

على طريق أهل الإشارات والله أعلم، وقد تقدَّم لنا في المقدمة الكلام في آداب الصحبة وأن الصحبة يتوقَّع فيها الفساد كما يتوقَّع فيها الصلاح، وقد قيل: ما فسد من فسد إلا بصحبة من فسد، وقيل: اصحَبْ من شئتَ فأنت على دينه، ورحِمَ الله الأليبري حيث يقول في المعنى:

مَن حادَ عن نَهْجِ الهُدَىٰ ... فاضَلَّ قَصْدَ سَبيلِهِ
فَتَوَقَّ خِلَّتَه فدِيـ ... ـنُ المرْءِ دِينُ خَليلِهِ[1]

وقال بعضهم: خيرُ المجالس من تهديك كلماته وترشدك إشاراته، وتنهضك حالاته وذلك أستاذك أو أخوك من أستاذك اهـ. وقيل: لا تجالسْ من لا تجانس، وفي ذلك قيل:

من لم تجانِسْه فاحذرْ أن تجالِسَه ... فالشمعُ آفتُه من صُحْبَةِ القطْنِ

وفي الحكم: لا تصحبْ من لا ينهضك حالُه، ولا يدلُّك على الله مقالُه. وبالجملة فالكلام في التحرُّز في الصحبة كثيرٌ، وتوقُّع الصلاح والفساد فيها شهير، والله يعصمنا من الزَّلل، ويوفِّقنا بمنِّه لصالح القول والعمل، آمين.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى:

(والحذرَ الحذرَ[2] أنْ تؤذِيَ مَنْ ... كانَ أخاكَ في الطَّريقةِ اخزَنْ
لأنَّها عَنْ شيخِنا التِّجاني ... إذايةٌ للمصطفى العدنانِ
وسيِّدُ الوُجودِ في ذَا شدَّدا ... مُصرِّحاً بنَهيِنا مؤكِّدا
وقالَ إنَّ مَنْ يكونُ يَفعلُهْ ... صارَ هَباءً في هواءٍ عَملُهْ
وذَا لِحبِّ سيِّدِ الوجودِ ... حبيبُ حِبِّهِ الكثيرِ الجُودِ
أعوذُ بالمصوِّرِ العَليِّ ... ممَّا غدا إذايةَ النَّبيّ)

هذا الذي تضمَّنته هذه الأبيات من لوازم الطريق أيضاً، وقد تقدَّم شرحُ ذلك في ذكر فضائل أهل هذه الطريقة عند قول الناظم: «يسوءه ما ساءهم»، وبيَّن وجْه ذلك هنالك بما يكفي، فراجعه هنالك، والله الموفق.

---

(1) هذا إشارة إلى حديث النبي ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل». رواه الترمذي في (الزهد: 45).

(2) قوله «الحذَر الحذرَ»: صيغة تفيد التحذير، وهو من المكرر، وهما منصوبان بفعل محذوف تقديره «الزم».

ثم أتى الناظم ﷺ تعالى بما هو كالتحصيل لما تضمنته هذه الأبيات والأبيات قبلها التي أولها: «ومن يجالس مبغض الشيخ» إلخ فقال:

(حاصِلهُ باغِضْ وحابِبْ فِيهِ ودَعْ مَقالَ النَّاعِقِ السَّفِيهِ
وزُرْه واسْتَمِدَّ مِنْه واتَّبِعْ جَمِيعَ ما صَحَّحتَ عَنهُ وسَمِعْ
لأنهُ حِبٌّ وقَفْوٌ لِلنَّبِي وصَحْبِه يا فَوزَ مَن بِهِ حُبِي
ولتَنسُبنْ إليه رغمَ مُنكِرِه في وَجهِ مَنْ أَحَبَّه ومَن كَرِه)

(باغض) من المباغضة، والمراد: قابلْ مبغضَه بالبغض، و(حابِبْ فيه) أي قابلْ مُحِبَّه بالمحبة ولا تقصرْ في حقِّه بكل ما تستجلب به مودَّته، و(الناعق السفيه) المنكِرُ للطريق المنتقد على أهلها محبتهم لبعضهم بعضاً وتألفهم، (وزره) أمرٌ من الزيارة، والمراد بها هنا: القصْدُ للانتفاع بقرينة عطفِهِ عليه قوله: (واستمد منه)، وقوله: (حب) معناه حبيب؛ وتقدَّم الكلام فيه، وقول النبيّ ﷺ: أنت حبيبي وكل من أحبَّك حبيبي، وقوله: (قفو للنبي وصحبه): أي تابع للنبي وصحبه في الأقوال والأفعال، ومعلومٌ شدةُ متابعة سيدنا ﷺ للنبي ﷺ؛ وعضُّه على سنَّته بالنواجذِ، وأمره بذلك، وأيضاً إن تربيته ﷺ كانت على يده ﷺ حسبما تقدَّم شرح ذلك، فلذلك قال الناظم رحمه الله: (يا فوزُ من به حُبي)، وقوله: (ولتنسبن إليه) أي انسب إليه جميع ما تقدَّم من المآثر والمناقب والمفاخر على رغم المنتقد، وبمحْضَرِ من المبغض والمعتقد.

يقول: وحاصلُ ما ذكرته لك في الأبيات قبلَه أيها المريد الصادق والمحب الوامق[1]، أن تبغض مبغِضَ الشيخ ﷺ كلَّ البغض بقلبك، وتختصَّ مُحِبَّه بإمحاضِ ودِّك وخالص حبِّك، ولا تعبأنَّ في ذلك بقيلٍ ولا قال، كلُّ ناعقٍ أو منتقد سفيهٌ بطال، وأدِمْ زيارته والاستمداد منه والاتباع له في جميع ما صحَّحته من أقواله، لأنه حبيبُ النبيِّ ﷺ، ومن شأن الحبيبِ كمالُ المتابعة لمحبوبه في جميع أفعاله. وانسب إليه جميع ما ثبتَ لديك من المناقب والمآثر والمفاخر من غير أن تكترثَ في ذلك بأحد، فسواءٌ عليك الصديق والمصدِّق والمنكر المكابر.

هذا، ومن تأمل ما تضمنته هذه الأبيات عَلِمَ أنها نتيجةُ سَوْرة الحال[2]، ونفثةِ

(1) المحبُّ الوامق: المحب المخلص بغير ريبة.

(2) سورة الشيء: حدَّته.

مصدورٍ حملته الغيرةُ الإيمانية على أن قال ما قال، وإلا فلا بدَّ فيما أشار إليه من المباغضة والموادة من إقامة ميزان العدْلِ؛ وسلوك سنن الرشد والحلم والسداد وغير ذلك من شِيَم الفضل، مع الملاحظة لنحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: الآية 90] الآية، وقوله جلَّ وعلا: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعراف: الآية 199] الآية، وقوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [النساء: الآية 148] الآية، وقوله عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠﴾ [الأحزاب: الآية 70] الآية، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ﴾ [فصلت: الآية 34] الآية؛ وبالجملة فإن العامل على ما أشار إليه الناظم ﵀ تعالى يحتاج إلى ميزانٍ قويم وقسطاسٍ مستقيم، والتعرُّض الآن لبعض ما في ذلك من الأنقال، لا يسَعُه الوقت والحال، وقصدنا بهذا الذي ذكرناه التنبيه على التشبث في الأمر، والأخذ بما لا تأنيبَ فيه ولا وزر، ومن كان ذا حالٍ فليسلم له حاله، ولا كلام لنا معه ولا مع أمثاله، لاستغنائه عن كلِّ أحدٍ بتأييد مولاه، حيث نهضَ فيما نهض إليه لله وبالله، ومن تتبَّع كلام سيدنا ﵁ في رسائله وأجوبته عثر على شرح ما أشرنا إليه وحصل على الميزان الأقوم الذي يكون سيرُه وعمله عليه، والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، ثم قال:

(واتَّخِذِ السُّبحةَ للإعانةِ وعملَ الإمامِ ذي الديانةِ)

(السبحة) معروفة، وسمَّاها بعضُهم المذاكرة، وبعضهم: حَبْلَ الوصول، وبعضُهم: رابطة القلوبِ. وقوله: (للإعانة) أي لكونها تعينُ على ضبْطِ العددِ الموظف الذي يقصد الذاكر الانتهاء إليه، والمراد بالإمام في قوله: (وعمل الإمام) الجنيد ﵁، لما نقله السيوطي عن ابن خلكان من أنه رأى في يده، يعني إمام الطريقة الجنيد بن محمد ﵀ تعالى، سبحةً، فقيل له: أنتَ مع شَرَفك تأخذُ السبحة؟ قال: طريق وصلتُ به إلى ربِّي لا أفارقُه اهـ، وقوله: (ذي الديانة) وصفٌ للإمام وصَفَه به لشدة تديُّنه، ومتابعته للسنة، ووقوفه مع الكتاب والسنة، وتحرير طريقه على الشريعة تحرير الجوهر.

يقول: ومما يلتحقُ باللوازم المتقدمة اتخاذُ المريد المتمسِّك بهذا الورد لضبْطِ عددِه سبحة يستعين بها على ذلك، وتذكُّره ما هو بصددِه، وذلك لتواطؤ السلف والخلف عليها فيما مضى وحضر من الأزمان، وخصوصاً إمام الطريقة أبا القاسم الجنيد بن محمد سيد هذه الطائفة إمام أهل هذا الشأن، وخصَّ الإمام الجنيد بالذكر في مثل هذا المقام لمزيَّةِ تقديم طريقِه على غيرها عند المشايخ الكُمَّل والعلماء الأعلام، قالوا: وهي أقدمُ الطرق كلها، لتحريرها على الكتاب والسنة تحريرَ الذهب، ومن هنا كان كل من سَلَكها نجا.

وكان ﷺ يقول: علمنا هذا مؤيدٌ بالكتاب والسنة اهـ. وفي بعض الروايات عنه ﷺ «مشيد» بدل «مؤيد» وقد تقدَّم لنا في المقدمة شرح ذلك.

وغرضُ الناظم رحمه الله تعالى فيما أشار إليه في هذا البيت الإخبارُ بأن اتِّخاذَ السبحة عليه عملُ سيدنا الشيخ ﷺ، وكذا سائر أتباعه وأهلُ طريقه، وهو من عمل أئمَّة السلفِ، وعليه عملُ إمام الطائفة الجنيد ﷺ. وفائدته ظاهرةٌ وهي الإعانة على ضبط عددِ الوِرْد وعلى نهوضِ الهمَّةِ للذكر، لأنها مذكِّرة لذلك ومنبِّهة عليه، فقوله: «**وعمل الإمام**» إلخ البيت أتى به كالدليل، لأن اتخاذَ السبحة من عمل أهل الدين والسنة، ولبيان أن اتخاذَها له أصلٌ.

وقد ألفَ الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى ورضي عنه في أصل اتخاذها جزءاً سمَّاه «المنحة في السبحة» تتبَّع فيه ما ورَدَ فيها من الأحاديث والآثار. منها حديث الطبراني عن صفيَّة أم المؤمنين[1] رضي الله عنها: «**دخَلَ عليَّ النبيّ ﷺ وبينَ يدي أربعةُ آلاف نوًى أسبِّحُ بهِنَّ**» الحديث. ومنها حديث الحاكم عن سعد بن أبي وقاص[2]: «**أنه دخَلَ مع النبيّ على امرأة بين يدَيْها نوًى أو حصى تسبِّح بهنَّ**»[3] الحديث، ومنها ما في معجم الصحابة للبغوي وتاريخ ابن عساكر عن أبي صفية[4] مولى النبي ﷺ: «**أنه كان يوضَعُ له نطْعٌ[5] ويجاءُ**

---

(1) هي صفية بنت حيي بن أخطب، من الخزرج، من أزواج النبي ﷺ، كانت في الجاهلية من ذوات الشرف، تدين باليهودية، من أهل المدينة. تزوَّجها سلام بن مشكم القرظي، ثم فارقها، فتزوجها كنانة بن الربيع النضري، وقتل عنها يوم خيبر، وأسلمت فتزوجها رسول الله ﷺ. لها في كتب الأحاديث (10 أحاديث). توفيت بالمدينة سنة (50هـ).

انظر الإصابة: النساء ت(647)، وطبقات ابن سعد: 8/ 85، وصفة الصفوة: 2/ 27، وحلية الأولياء: 2/ 54، وأسد الغابة.

(2) هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، أبو إسحاق، صحابي أمير، فاتح العراق ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ويقال له فارس الإسلام. أسلم وهو ابن (17 سنة) وشهد بدراً وافتتح القادسية ونزل أرض الكوفة وابتنى بها داراً وظل والياً عليها مدة عمر بن الخطاب. مات سنة (55هـ).

انظر التهذيب: 3/ 483، وحلية الأولياء 1/ 92، وتهذيب ابن عساكر: 6/ 93، وطبقات ابن سعد: 6/ 6، والإصابة: ت (3187)، وأسد الغابة.

(3) رواه أبو داود في (الوتر: 24)، والترمذي في (الدعوات: 113).

(4) انظر أسد الغابة: 5/ 175 وفيه «كان من المهاجرين».

(5) النِّطع: بساط من الجلد.

بزِنبيل[1] فيه حصىً فيسبِّح به إلى نصفِ النهار، ثم يرفعُ فإذا صلى الأولى أتي به فيسبِّح حتى يمسي». وذكر عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يسبِّح بالحصى أو النوى، وعن فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب: أنها كانت تسبِّح بخيط معقود في يدها، وعن أبي الدّرداء أنه كان له نوًى من العجوة في كيسٍ، فإذا صلى الغداة أخرجَهُنَّ واحدةً واحدة يسبِّح بهنَّ، وعن أبي هريرة ﷺ أنه كان له كيسٌ فيه حصًى أو نوى يسبِّح به، وذُكر عن مولانا علي كرم الله وجهه أنه قال: نِعْمَ الذكرُ السبحة. وذُكِر عن زاذان أنه قال: أخذتُ من أم يعفور تسابيحَ، فلما أتيت عليًا قال: ارددْ على أم يعفور تسابيحها، إلى غير ذلك بما يعرف بمراجعة المؤلف المذكور، وقال فيه: وقد رأيت في ذلك، يعني اتخاذ السبحة، حديثاً مسلسلاً ولم يذكره.

وذكر الشيخ أبو الفضل العقباني في جواب له مسلسل للقاضي عياض بسنده إلى أبي عمران بن علوان عن الجنيد بسنده إلى الحسن البصري كل واحد يقول: رأيتُ فلاناً وفي يده سبحة فسألتُه عما سألتني عنه إلى الحسن البصري، فقال للسائل: يا بني هذا شيءٌ استعملناه في البداية ما كنا لنترُكه في النهاية، إنِّي أحبُّ أن أذكرَ الله بقلبي ولساني ويدي اهـ انظر «الدرر المكنونة في نوازل مازونة» وممن روى هذا المسلسلَ أيضاً خاتمة العلماء المحققين الشيخ أبو العباس الهلالي رحمه الله تعالى، فقد رأيتُ في فهرسته روايته له عن شيخه العجيمي بسنده إلى أبي الحسن المالكي، عن الجنيد، عن السري، عن معروف الكرخي[2] عن محمد المكي يقول كلُّ واحد: سألتُ أستاذي فلاناً وفي يده سبحة إلخ. قال محمد المكي: رأيت أستاذي الحسن البصري وفي يده سبحة فقلت: يا أستاذي مع عِظَمِ شأنك وحسن عبادتك وأنت مع السبحة، فقال: هذا شيء كنا استعملناه في البدايات، إلى آخر ما تقدَّم في سلسلة القاضي عياض.

قال الهلالي رحمه الله تعالى: وبهذا الأثر يستدلُّ على أن السبحة كانت على عهد الصحابة رضي الله عنهم، لأن الحسن البصري كما عند ابن خلكان وُلد في خلافة سيدنا عمر لسنتين بقيتا

---

(1) الزنبيل: القُفَّة، وعاء.

(2) هو معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ، أحد أعلام الزهاد والمتصوفين. كان من موالي الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم. ولد في كرخ بغداد، ونشأ وتوفي ببغداد. اشتهر بالصلاح، وقصده الناس للتبرك به حتى كان الإمام أحمد بن حنبل في جملة من يختلف إليه. مات سنة (200هـ).
انظر طبقات الصوفية: 83، ووفيات الأعيان: 2/ 104، وصفة الصفوة: 2/ 179، وتاريخ بغداد: 13/ 199.

منها، فتكونُ بدايته والصحابة متوافرون اهـ. يريد وقد صرَّح أنه اتخذها في بدايته. قال السيوطي بعد نقله لما تقدَّم عنه: فلو لم يكن في اتخاذ السبحةِ إلا موافقة هؤلاء السادات والدخول في سلكهم لصارتْ بهذا الاعتبار من أهمِّ الأمور وآكدها اهـ الغرض. ولا شك أنها آلةٌ مباركة شريفةٌ، كيف وهي سبب موصِلٌ إلى دوام ذكر الله تعالى وقد شُوهد فيها، ولها بركاتٌ عظيمة. منها ما في المنحة عن أبي مسلم الخولاني ﷺ أنه كان له تسبيحةٌ، فقام ليلةً والسبحةُ في يده قال: فاستدارت السبحةُ والتفَّتْ على ذراعه وهي تقول: سبحانَكَ يا منبتَ النباتِ، ويا دائمَ الثباتِ، قال: هلمِّي يا أم سلمة فانظري إلى أعجبِ الأعاجيب، قال: فجاءتْ أم سلمة والسبحة تدورُ وتسبِّح، فلما جلست سكتَتْ، قال السيوطي رحمه الله تعالى: ذكره أبو القاسم عبد الله بن الحسن الطبري في كتاب «الكرامات».

وفي المنحة أيضاً أن سبحة الشيخ أبي الوفاء التي أعطاها الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ كانت إذا وضَعها على الأرض تدورُ وحدَها حبةً حبة. وفيها أيضاً ما نصّه: أخبرني من أثِقُ بقوله أنه كان مع قافلة في دربِ بيت المقدس، فقامَ عليهم سرية عرب فجرَّدوا أهل القافلةِ كلَّهم وجردوني معهم، فلما أخذوا عمامتي سقطت سبحةٌ من رأسي فلما رأوها قالوا: هذا صاحبُ سبحةٍ فردُّوا عليّ ما كان أُخِذ لي وانصرفتُ سالماً منهم، قال: فانظرْ يا أخي إلى هذه الآلة المباركة الزاهرة، وما جمع فيها من خير الدنيا والآخرة اهـ. ولهذا تجد الصادقين من أهل الطريق يتحفَّظون بها عن القاذورات وكلِّ ما فيه امتهان لها ويتبرَّكون بها، فيضعونها على الآلام بقَصْدِ الاستشفاء بها. وقد رأيتُ الناظم رحمه الله تعالى يعظِّمها أشدَّ التعظيم ويصونُها عن الأقذارِ ووضعها بمحلٍّ يكون مظنةً للامتهان حتى إنه كان إذا أصابَ بيده بصاقاً أو نخامةً يغسلُها لأجلِ أن يأخذَ بها السبحة، وربما كلم في ذلك فيجيب بما حاصله ما تقدَّم من عمل الصادقين من أهل الطريق، ثم بعد ذلك رأيت كلاماً للشيخ أبي الفضل العقباني رحمه الله تعالى صرَّح فيه بذلك ونصّه: وقد بلغني أن هؤلاء الذاكرين بهذه السبحة يتحفَّظون بها عن القذرِ وعن كلِّ ما يظن به أذًى، تكريماً وتشريفاً لها، وإن فعلَهم لسداد، لأن ما أعدّ لذِكْر الله تعالى من تكبير وتسبيح وتحميد وتمجيد والصلاة على النبي ﷺ جديرٌ بأن يُصان عن الأخباث والأدران، وأن يتبرَّك بلمْسِه ويستشفى به ويرفَع غاية، قال: ومن ثم وضَعَها سحنون[1] ﷺ في عنقِه إلى آخر كلامه، فليراجعه من أراد ذلك في

---

(1) سحنون: هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقب بسحنون، قاض فقيه، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب. كان زاهداً لا يهاب سلطاناً في حق يقوله، أصله شامي من حمص، ومولده=

«النوازل المازونية» وقد ذكر فيه قبل هذا الكلام عن مدارك القاضي عياض أن بعضهم قال: دخلتُ على سحنون وفي عنقه تسبيح يسبح به قال: وأنت تعلمُ من سحنون علماً وورعاً، وهل يقدِمُ على هذا إلا بدليل اهـ.

قلت: فيؤخذ من هذا أن جَعْلَ السبحة في العنق لا بأسَ به، بل هو حسن، لما فيه من رفْع هذه الآلة المباركة حسبما صرَّح به العقباني من فعل الإمام سحنون ﷺ، وعلى هذا فيُطْلبُ حسبما نصَّ عليه بعض من شرح المباحثَ الأصلية من فعل ذلك إخفاؤها وجعلُها تحت الثياب تجافياً عن المباهاة والتظاهُر بدعوى الفقر وأسباب الشهرة، وهذه طريقةُ المحقِّقين من أهل الطريق، وأما جعلُها في العنق فوقَ الثياب ظاهراً فهو جارٍ على طريقة أهل الزيِّ والشهرة كالقلندرية ومن يشاكِلُهم من طوائف الصوفية، وقد تقدَّم بعضُ ما يشير إلى هذا المعنى في المقدمة، وهذه الطريقة الأخيرة ليس عليها عملُ أهل طريقتنا فلا ينبغي أن يقرَّ على ذلك من فعله، لأن ربح المريد إنما هو في متابعة أستاذه متابعة الظلِّ شاخِصه، وليسلم لأهل الطرق ما أخذوه عن أساتيذهم؛ وبالجملة فطريقُنا أن لا نجعل السبحة في العنق إلا بقصْدِ رفْعها وصونها تكريماً وتشريعاً لها، وعليه يحمل عملُ أصحابنا الذين بالصحراء ومن يتابعهم على ذلك، وما عدا ذلك فليس من طريقنا في شيء والله الموفق.

وحاصل ما أشارت إليه هذه الأنقالُ التي شرحنا بها قول الناظم وعمل الإمام ذي الديانة أنَّ اتخاذَ السبحة من شِعار أهل الدين، وطريقِ الأئمَّة المهتدين، وعملِ السلف الصالح من الصحابة والتابعين ﷺ أجمعين. قال في «المنحة»: ولم ينقلْ عن أحد من السلف ولا من الخلف المنعُ من عدِّ الذكْرِ بالسبحة، بل كان أكثرُهم يعدُّونَه بها ولا يرون ذلك مكروهاً اهـ.

وأما ما نُقِلَ عن بعضِهم من أن عدَّ الذكر بالأنامل أفضلُ للحديث الوارد في ذلك عن ابن عمر ﷺ فهو مقيَّد بما إذا أمن من الغلط في العدد. وقد قيل: إن أكثرَ الذكر المعدود الذي جاءت به السنة الشريفة لا ينحصرُ بالأنامل غالباً، ولو أمكن حصرُه لكان الاشتغالُ بذلك يذهبُ الخشوع والسبحة يؤمن معها ذهاب الخشوع، فهي معينةٌ على الحضور أيضاً. ويرحم الله القائل فيها ونسبه في المنحة لعماد الدين المنوي ﷺ:

= في القيروان. ولي القضاء بها سنة (234هـ) واستمر إلى أن مات سنة (240هـ). وكان رفيع القدر، عفيفاً، أبي النفس.
انظر الوفيات: 1/ 291، وقضاة الأندلس: 28، ومعالم الإيمان: 2/ 49.

ومنظومةُ الشملِ يلهو بها الـ	لبيب فتجمَعُ مِنْ همَّتهْ
إذا ذَكَر الله جلَّ اسمُه	عليها تفرَّقَ مِنْ هَيْبَتِهْ

ثم قال الناظم رحمه الله تعالى:

(فصل)

ضمَّن هذا الفصل مسألةً تتعلَّق بما ترجم له من اللوازم، وذلك قوله: «وترك غيره من الأوراد وعدم الترك» الخ فقال رحمه الله تعالى:

(ومن يكنْ لِمَا سِواهُ طرحا	لأجلِ وِرْدِنا فَذا قدْ أفلحا
يا فوزَه وَحَلَّ في ضمانِ	خيرِ الورى نبيِّنا العدنانِ
والعكسَ إنْ تابَ وجدَّدَ فَقدْ	نَجا مِنَ الرَّدى وفازَ بالرَّشَدْ
لكنَّه إنْ لمْ يَتبْ مِمَّا فَعلْ	خسِرَ ثُمَّ ليسَ يُنجيهِ عَمَلْ
وليسَ شيخُه لهُ بنافِعِ	لكنَّه يتيهُ في البلاقعِ
أعاذَنا الله مِنَ البَلاءِ	والكُفرِ والخُسرانِ والشَّقاءِ)

«ما» من قوله: **(لما سواه)** واقعةٌ على «ورد» منكراً، و**(سواه)** صفته: أي ومن يكن لورد من نعته وصفته سواه، والضميرُ في «سواه» للورد المترجم له، وهو وردُنا الشريف، أدامنا الله عليه في عافية تامَّة بمنِّه، فقوله: **(لأجل وردنا)** إظهارٌ في محلِّ الإضمار، وقوله: **(والعكس)** أرادَ به من طرَحَ وردَنا وأخذَ غيره، والمراد بقوله: **(وجدد)** تجديدُ التقيُّد بالعهد والإذن ممن عنده الإذنُ في ذلك، والمراد بالشيخ في قوله: **(وليس شيخه له بنافع)** الشيخ الذي أخذ ورده بعدما أخذ هذا، عياذاً بالله تعالى.

يريد الناظم ولا غير ذلك الشيخ أياً كان ولذلك قال: **(لكنه يتيه في البلاقع)** كنى بالتيه في المهامه والقفار عن كونه لا يجدُ من يأخذُ بيده، ولا يقدر له أحدٌ بشيء لكونه أعرَضَ عن هذا الباب الأعظم، وهو بابُه ﷺ، حسبما تقدَّم بسطُه قريباً.

يقول: ومن كان عنده وردٌ من أوراد مشايخ الطريق، فتركُه لأجل أخذِ وِرْدِنا هذا والانخراط في سلك هذا الحزب وهذا الفريق، فإنه لا خوفَ عليه من ذلك الشيخ الذي ترك وردَه ولا ملام، فإنه قد أفلحَ به فعله ودخلَ في ضمان خير الأنام، لانْحياشِه إلى بابه الأعظم عليه الصلاة والسلام، وهذا بخلاف من أخذ هذا الورد الشريف، ثم عدل عنه إلى غيره بنبذِه إياه وإعراضِه عن هذا الجناب الأعزِّ المنيف، فهذا إن لم يتبْ من زلته، ولم ينهضْ من عثرتِه، فقد تردَّى في مهواة المهالك والخسران، وليس ينفعُه شيخُه الذي انتقلَ

إلى طريقه ولا غيره أيًّا كان، ونعوذُ بجلال الله تعالى الملك الديان، من كلِّ ما يوقع في الهلاك ويجرُّ إلى أسباب الخسران.

وعَقَد ﷺ تعالى في هذه الأبيات ما في «جواهر المعاني» ونصّه: واعلم أن هذا الوردَ الشريف لا يلقَّن لمن كان له وردٌ من أوراد المشايخ ﷺ إلاّ إذا تركَه وانسلخَ منه على أن لا يعود إليه أبداً، وعاهد الله على ذلك، فعند ذلك يلقِّنه من له الإذنُ الخاص من الشيخ ﷺ وإلا فلا، فيتركُه ووردَه، لأن أورادَ المشايخ كلها على هدًى وبينة من الله، وهذا ليس تكبراً منا على المشايخ، حاشا ومعاذ الله، بل هو شرطٌ في طريقتنا لا غير، فمن أراد الدخول فيها فلا بد له من هذا الشرط، ولا خوفَ عليه من صاحبه ولا من غيره أيًّا كان في الدنيا والآخرة، وهو آمِنٌ من كلِّ ضرر يلحقُه في الدارين بوعْدٍ صادق لا خلفَ له، ومن أراد البقاءَ على وِرْدِه الذي بيدِه فيمكث عليه، فقد قلنا: أورادُ المشايخ كلها على هدًى من الله اهـ الغرضُ منه هنا ببعض اختصار.

وقول الناظم: **(أعوذ بالله من البلاء والكفر)** إلخ لعلَّه لمَّح بذكْرِ الكفر إلى ما ذكره سيدنا الشيخ ﷺ على قول القطب سيدي عبد العزيز الدباغ ﷺ فيما حكاه عنه في الإبريز: لا ينالُ العبدُ معرفة الله حتى يعرف النبيّ ﷺ، ولا يعرف النبيّ ﷺ حتى يعرفَ شيخَه، ولا يعرف شيخَه حتى يموت الناسُ في نظرِهِ فيصلي عليهم صلاة الجنازة وينتزعُ من قلبه التشوُّفَ إليهم. ونص ما ذكره سيدنا ﷺ عن كلام هذا القطب: إن لكلّ شيخٍ شروطاً وحدوداً وموارد، وله أيضاً ثلاثة دوائر بعيدة وقريبة ومتوسطة، إذا دخلَ المريد في دائرته القريبة يقول له: إن خالفتني بعد اليوم تموتُ كافراً. اللهمَّ إنا نسألك العافية والالتحافَ بأردية السترِ والألطاف الخفية، بجاه صفيِّك المحبوبِ ﷺ وآله آمين.

ولما انتهى الكلام في لوازمِ الوردِ انتقل إلى بيان وقْتهِ فقال: **(وقتا الورد)** أي هذا مبحث وقْتِ الورد، وضمَّن ﷺ تعالى في هذه الترجمة وقتي الوردِ مختارهما وضروريهما وما يتعلَّق بذلك فقال:

(مُختار وِردِ الصُّبحِ جاءَ مُصحَّحا	**مِن بَعدِ ما صَلاتُه إلى الضُّحَى**
أمّا الضَّروري فَمِنْ ذَاكَ إلى	**مَغرِبِنا وهُو لِمَن قَدْ شُغِلا**
مُختارُ وِردِ العَصرِ بَعدَ العَصرِ	**إلى العِشا وغَيرُه لِلفَجرِ)**

(المختار) و**(الضروري)** كلاهما وقت أداء، والقضاءُ من ورائهما، وأداء الوردين في وقتهما المختار أولى وأفضلُ، إلا لمن كان له شغلٌ في ذلك الوقت فيشتغل إلى الضروري.

فإن فات فيهما فالقضاء، و(ما) من قوله: (من بعدما) إلخ، زائدة، والمراد من بعد صلاته، والضمير للصبح والمراد بالضحى الضحى الأعلى، والإشارة بذا من قوله: (أما الضروري فمن ذاك) إلخ، إلى الضحى الأعلى والمغرب والعشاء الأولى، وقوله: (وهو لمن قد شغلا) أشار به إلى بيان معنى الضروري وورد العصر، أي ورد المساء، وقوله: (بعد العصر) أي صلاة العصر، فالعصر الأولى: أراد بها الوقت؛ والثانية أراد بها الصلاة و(العشاء) العشاء الأخيرة، و(غيره) الضمير لمختار ورد العصر، والغير الضروري، وقوله: (للفجر) أي لطلوع الفجر، وأشار بهذا الذي ضمنه هذه الأبيات إلى ما في «الجواهر» وغيره من أن الورد في طريقنا وردان ورد الصبح وورد المساء، ولكلٍّ واحد، من الوردَيْن وقتٌ مختار ووقت ضروري، فالمختار لورد الصبح وهو لمن لم يكن له شغلٌ ولا عذرٌ من بعد صلاة الصبح إلى الضحى الأعلى، والوقت الضروري له أي لورد الصبح من الضحى الأعلى إلى غروب الشمس، وهو أي الضروري لمن كان له شغل فما بعد صلاة الصبح إلى الغروب كله أداء لورد الصبح والقضاء من وراء ذلك.

وأما مختار ورد المساء فمن بعد صلاة العصر إلى العشاء الأخيرة وهو أيضاً لمن لم يشغلْ عنه، والضروري له من العشاء أي من مغيب الشفق إلى طلوع الفجر بعد صلاة العصر إلى انشقاق الفجر كله أداء لورد المساء، والقضاء من وراء ذلك، هذا ملخَّص ما أشارَ إليه الناظم رحمه الله، وهو المنقول عن الشيخ وعليه عملُ جميع أصحابه قولاً واحداً وما وقع لصاحب «الجيش الكبير» من عدم التقييد بالصلاة في الوقتين، فهو ذهول رحمه الله تعالى عن الأمر الخاص بطريقتنا الخاصة فلا يلتفت إليه، وإن كان عليه أهلُ طرق أخرى لاعتبارهم في ذلك الوقت مجرداً، ومن تأمَّل ما عليه طريق شيخنا رضي الله عنه علم أنه الكمال لأنه الجاري على ما أشارت إليه الأخبار الواردة بالترغيب في الذكر في الوقتين والله يجازيه عنا خيرَ جزاء.

ثم لما بيَّن الناظم رحمه الله تعالى وقتَ الوردِ مختارَه وضروريَّه عقَّبه بذكر ما يجوز من تقديم ذكرِه على الوقت وما لا يجوز فقال:

(وَلاَ تُقدِّمَنَّ فِي النَّهارِ	ذَا الوِرْدَ لِلعُذْرِ عَلى المُخْتارِ
وجائِزٌ تَقْدِيمُهُ لِلْعُذْرِ	مِنْ بَعْدِ مَا تَقْرَأُ وِرْدَ الفَجْرِ
فِي اللَّيلِ ثُمَّ لَيسَ مِنْ إشْكالِ	لِفَضْلِ ذِكْرِ اللهِ فِي اللَّيالِي
ووِرْدَ صُبْحٍ أَنْ تُقدِّمَهُ عَلى	مُخْتارِهِ بَعْدَ العِشاءِ نُقِلا
بِقَدْرِ مَا يُتْلَى مِنَ القُرآنِ	خَمْسَةِ أَحْزابٍ بِلاَ تَوانِ)

(النهار) المراد به هنا: ما بعد ذِكْر وردِ الصبح إلى أن تصلِّي العصر، والإشارة بذا من قوله: (ذا الورد) راجعةٌ لورد المساء، وقوله: (للعذر) أتى به لإفادة أن تقديم الورد، أي ورد المساء في النهار، أحرى بالمنع، وقوله: (على المختار) يعطي بظاهره أن هنالك قولاً آخر مروياً عن الشيخ ﷺ مقابلاً لهذا وليس كذلك، فلم يبلغْنا عنه ﷺ شيء من ذلك، فالظاهر أنه أراد ما اختارَه الشيخ ﷺ في طريقه من بين طرق المشايخ ﷺ أجمعين.

ووجْه اختياره له هو ما سيذكره في البيتين بعد هذا، والله أعلم. وانظر ما وقع في «الرماح» هنا، فإن ثبتَ له أصلٌ فهو قول مقابلٌ للقول المختار، ولعلَّ الناظم ﷺ اطَّلع على شيء، فلذلك قال على المختار، والذي نحفظُه وهو المتواتر بين أصحاب الشيخ ﷺ هو ما اقتصرنا عليه ووجهه بيِّن، والله تعالى أعلم. وقوله: (وجائز) أي وصحيحٌ، والضمير في تقديمه لورد المساء، وقوله: (للعذر) أي المتوقع حصوله في وقته المختار، بأن يغلبَ على الظنِّ أنه يكون في مساء اليوم الذي بعد اليوم الذي هو فيه مشغولاً، وقوله: (ورد الفجر) أي ورد الصبح، يريد وردَ صباح اليوم الذي هو فيه، أي فيقدمهما معاً على الترتيب.

وقوله: (في الليل) أي في التقديم المذكور يكون في الليل لا في النهار، لكن ورد الصباح ولو بلا عذر، وفي ورد المساء للعذر المتوقَّع في وقته المختار. وقوله: (ثم ليس من إشكال) إرادته لا يشكل حينئذٍ منع تقديم ورْدِ المساء في النهار مع جواز تقديمه في الليل لمكان الفعل، أي تضعيف الأعمال في الليل على النهار كما هو معلوم. وقوله: (ورد صبح) أي ورد الصباح، وقوله: (على مختاره) أي على وقته المختار، وقوله: (نقلاً) مبني للمفعول والنائب عن الفاعل محذوف للعلم به، أي نقل جوازه وصحَّته عن الشيخ ﷺ، فنقل هو جواب الشرط، و(الحزب) من القرآن: معروف، وقوله: (بلا توان) أي من غير تأخير زائد على ما ذكر، كما قد يتوهم.

وملخَّص ما أشار إليه في هذه الأبيات ما ثبت متواتراً عن الشيخ ﷺ من أن وردَ المساء لا يقدم نهاراً يعني لمن أرادَ أن يقدِّمه على وقته المختار بعد ورد الصباح وسواء قبل دخول وقت العصر أو بعد دخوله وقبل صلاة العصر كما تقدم، وهذا إذا كان له عذرٌ يتوقع حصولُه وأحرى إذا لم يكنْ له عذرٌ، نعم من أراد أن يقدِّمه ليلاً فله ذلك لكن بقيد توقع العذر في وقته المختار، وذلك بعد أن يقدِّم وِردَ الصباح لمكان الترتيب، وإنَّما رخَّص الشيخ ﷺ في التقديم في الليل دون النهار لما اختص به الليل من تضعيف الأعمال فيه

بأضعاف كثيرة، وقد ذكر في «الجواهر» عن سيدنا الشيخ ﷺ في كلامه على فضل صلاة الفاتح لما أغلق أن أعمالَ الليل تضاعَفُ على أعمال النهار بخمسمائة ضعف، وعلى هذا فلا إشكال في تخصيص التقديم المذكور بالليل دون النهار، وأما ورد الصباح فيصحُّ تقديمهُ لمن أراده ولو بلا عذر ليلاً، والمراد بالليل هنا ما بعد صلاة العشاء بقدر ما يقرأ القارىء خمسة أحزابٍ من القرآن وينام الناس، بهذا قدَّر سيدنا ﷺ وقت التضعيف المذكور، فليس المرادُ جوفَ الليلِ ولا السحر، أي ثلث الليل الأخير، كما قد يتبادر.

(تنبيه) ما ذكَرَه في «الجواهر» عن الشيخ ﷺ من التضعيف يشهدُ له في الجملة ما في الرقاق من صحيح الإمام البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «كتَبَ الله عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبعمائةِ ضعْفٍ من أضعافٍ كَثِيرةٍ»[1] وهو يردُّ على من أخذ بظاهرِ الحديث الآخر: «بعَشْرِ أمثالها إلى سَبْعمائةِ ضعْفٍ»[2] حيث زعَمَ أن التضعيف لا يتجاوزُ هذه الغاية، وانظر «الإرشاد» وغيره من الشروح في باب حسن المرء في الكلام على حديث أبي سعيد الخدري ﷺ ، ثم قال الناظم رحمه الله تعالى:

فصل

وجْه كون هذا الفصل من الترجمة ظاهرٌ لا يحتاج إلى بيان، قال رحمه الله:

(تخييرَ ذاتِ الحيضِ والمريضِ قدْ ... ثَبتَ في الذكرِ فلَيس يُنتقدْ
وقِصّةُ الديكِ على الندبِ دليلْ ... وحُجةٌ لِذكرِ من كانَ عليلْ)

المراد بـ(**ذات الحيض**) ما يعمُّ ذات النفاس أيضاً، لأنها كهي في حكم قراءة القرآن على المعتمد في مذهبنا، و(**المريض**) المراد به من ضعفت قواه ووقع انحرافٌ ما في مزاجه لا ذو المرض الخفيف، وقوله: (**ثبت**) يعني عن الشيخ ﷺ، وقوله: (**في الذكر**) يتعلق بتخيير، والمراد في أداء الورد وتركه لا في القضاء. إن حمل عليه عند بعض الأصحاب، و(**ينتقد**) ينكر، و(**الديك**) ذكر الدجاج، وقصتُه معروفة، وسنذكرها إن شاء الله تعالى.

وملخَّص ما أشار إليه رحمه الله تعالى ما ثبتَ عن سيدنا الشيخ ﷺ من أن المريض والحائض مخيَّران في ذكر الورد: أي أدائه، فإن أتيا به في حال المرض وحال الحيض

(1) رواه مسلم في (الإيمان: 207)، والدارمي في (الرقاق: 70).

(2) رواه البخاري في (الإيمان: 31)، ومسلم في (الإيمان: 204)، والترمذي في (فضائل الجهاد: 4).

فذلك، وإلا فلا شيء عليهما ولا يقضيانه بعد، هذا هو الثابت عنه ﷺ ووجهُه أي وجه تركه في حق المريض أن الله تعالى بفضله يقيم من ينوبُ عنه فيه، فيكتب له عمله كما ورد بذلك الخبر، وأما في الحائض ما هو معلوم من إسقاطِ التكليف عنها في الصلاة مدة الحيض وعدم مطالبتها بالقضاء فيها، ووجْه الإتيان به في حقِّ المريض أن ذكْرَ الله مرغَّب فيه على كلِّ الأحيان ما دام الإنسانُ ممكناً من فسحةِ الإمكان، وأما في الحائض فبالقياسُ على قراءة القرآن فافهم.

وقد علمت أن الثابت عن الشيخ ﷺ إنما هو التخيير فقط، وليس فيه ما يشير إلى أرجحيةٍ في الفعل في حق المريض من قصة الديك، والظاهر أن ذلك لا يتم له، والله أعلم، لأن قصة الديك التي أشار إليها هي أن رجلاً تخلَّفَ عن حضورِ الوظيفة مع الإخوان على عهْدِ الشيخ ﷺ ليلةً من الليالي، فلما حضَرَ من الغدِ قال له الشيخ ﷺ: ما بالك تخلَّفْتَ البارحة عن الوظيفة؟ فقال: يا سيدي كان برأسي وجَعٌ، وكان من عادة الشيخ ﷺ أن يؤدِّب أصحابَه بذكر الحكايات المناسبة لأحوالهم مبالغةً منه ﷺ في الإرشاد على طريق السياسة واللين، فقال ﷺ حين اعتذرَ الرجلُ بما اعتذَر به: كان لبعضِهم ديكٌ يُوقِظُه صراخه بالليل فكتَّفه ذاتَ ليلةٍ فلم يصرُخْ، فلما أصبَحَ دعا بالديكِ وبصَقَ في وجْهِه وقال له: بئس الديك أنت كتَّفناكَ ليلة فلم تذكُرْ ربَّكَ اهـ القصة وهي قضيةُ عين، وعلى أنها عامةٌ فالتخييرُ إنما هو حقُّ المريض الذي حصَلَ له العجز لضعفه عن استيفاء الورد إلا بالمشقَّة، وليست قضية الرجل الذي حكى الشيخ ﷺ من أجله الحكاية المذكورة مما يذكر في بساط الكلام على المريض الذي هذا وصفه، فلذلك استظهرنا آنفاً أن ما ذكره الناظم رحمه الله تعالى لا يتم له، أما أولاً فلمباينة حال الرجل الذي حكيت من أجله الحكاية لحال المريض المخير حسبما عرفته، وأما ثانياً فلأن الذكر وإن كان أوْلى في الأحوالِ كلّها وعلى الأحيان جميعها فقد يكون استيفاءُ الورد بشروطه من ضبط عددِهِ وغيره مما يضرُّ بالمريض فلا يكون الذكر في حقه أولى إلا بحسب طاقته، فلا تظهر أرجحيةُ الذكر للورد في حقِّه فافهم، ويبين لك هذا الوجه أنهم كانوا إذا أرادوا الذكر في حال المرض يبدلون من صلاة الفاتح لما أغلق غيرها من الصلوات المختصرة نحو: اللهمَّ صلِّ على سيدنا محمد وآله وسلم، وبه كانوا يأمرون غيرَهم ممن أراد الذكر على الحالة الموصوفة من المرض، والله المستعان، ثم قال رحمه الله تعالى:

فصل

وجه إدخال هذا في الترجمة أيضاً بين:

(ويَلزَمَ القَضاءُ لِلْوِرْدَينِ مَنْ   يَفوتُه وقتُهما مِنَ الزَّمن)

قوله: (القضاء) يعني أبداً في غير مَنْ خُيِّر من المريض والحائض، وقوله: (للوردين) ورد الصباح وورد المساء، وقوله: (وقتهما) أي المختار والضروري إذ القضاء من ورائهما وأشار بهذا إلى ما ثبت عن الشيخ ﷺ وهو في «جواهر المعاني» وغيره من أن مَنْ فاتَه وردُه يلزمه قضاؤه على ممرِّ الدهر، ووجهُه أن الورد صار واجباً بالالتزام كالنذر فالقضاء على بابه، وليس منه التدارُك لما فاتَ من العبادة المتطوع بها ليعتاد الملازمة عليها وهذا إنما يجري عندنا في الأوراد الزائدة على الورد الأصلي مما ليس بلازم للدخول في الطريق، فافهمْ والله تعالى أعلم. وفي خبرٍ عن مولاتنا عائشة تشديدُ الوعيد في حق من ترك عبادةً لله ملالةً، ذكره في الإحياء فراجِعْه إن شئت، ثم قال ﷺ:

شروطه وما يلحق بها

لما ذكر لوازمَ الداخل في الطريق المتعلق بهذا الورد المحمدي المنتظم في سلك هذا الفريق، وأتبعه بذِكْر وقتِ الورد وما يتعلَّق به، أتبعه بذكرِ شروط الصحَّة للورد وما يلحق بها فقال:

(شُروطُ ذَا الوِرْدِ طهارةُ الحَدَث   بماءٍ أو تيمُّم مَع الخَبَث

مِن جَسَدٍ أو ثَوبٍ أو مَكانِ   وستْرَ عَورةٍ عَنِ الأعيانِ

وعدمُ النُّطقِ لِغيرِ عُذرِ   وليكُنِ النُّطقُ لهُ بالنَّذرِ

ونيةٌ لدَى شُروعِكَ وتِي   هِيَ الَّتي تُدعى شُروطَ الصِّحَّةِ)

ألفاظ الأبيات كلّها ظاهرةٌ، وتقدَّم تفسيرُ بعضها، وأشار به إلى أن شروط الصحة للورد خمسة:

الأول: طهارة الحدثِ إما بالماء أو بالتيمُّم بموجبه على الحد الشرعي في ذلك.

والثاني: طهارة الخبثِ من الجسد والثوب والمكان على الحدِّ المشروع في ذلك للصلاة.

والثالث: سترُ العورة على الحدِّ المحدود فيه في الصلاة شرعاً أيضاً في حق الرجل والمرأة.

والرابع: تركُ الكلام من ابتداء ذكْرِ الورد إلى انتهائه إلا لعُذرٍ، فلا يضرُّه الكلام

القليل كالكلمة والكلمتين، هكذا ذكر الناظم ﷺ تعالى، وهو الذي عند صاحب «الجيش الكبير»، وهو الذي كان عليه كافة من أدركناه من أصحاب سيدنا الشيخ ﷺ، فيترك الكلام إلا لعذر، فيشيرُ برأسه أو يدِه ونحو ذلك فقط. وينبغي أن يكون العملُ عليه إلا حيث لم تفد الإشارةُ فيعمل على الآخر، فيأتي بالقليل كالكلمة والكلمتين ويستثنى من هذا ما إذا خاطبه والدُه أو والدتُه فإنه يجيبهما من غير توقُّف، لما في السكوت عنهما من العقوق وقد علم ما فيه، والبرور[1] من لوازم الطريق. وقد كان سيدنا ﷺ يقول: من لم يبرَّ والديه لا يتيسَّر له سلوكُ هذه الطريق. وقد رأيتُ المعتبرين من المقدمين إذا أتاهم أحدٌ يطلبُ منهم تلقينَ الوردِ يسألونَه هل لك والدٌ ووالدة؟ فيشترطون عليه البرور بهما إذا كانا أو أحدهما، وكانوا إذا اشترطوا ترْكَ الكلام في ذكر الورد يستثنون منه الوالدين وكذا الزوجة إذا خاطبها زوجُها أو ناداها، فقد كانوا يستثنونه من هذا الشرط أيضاً، ولا يبطلون الوردَ بإجابة الوالدين، وكذا الزوج.

والخامس: من شروط صحَّة الوردِ النية، وهي القصدُ إلى ذكر ما التزمَه من الورد فيقصد وردَ الصباح أو ورد المساء، ولا يكفيه القصد إلى مطلق الذكر؛ ولا بد مع قصْدِه للورد من قصده مع الفعل كونه مطلوباً للرب، وبه تحصل عبودية القلب، وقد قيل: النية عبودية القلبِ، والعملُ عبوديةُ الجوارحِ، وقد علم كما في الإرشاد وغيره أن الطاعات في أصلِ صحَّتها وتضاعفها مرتبطةٌ بالنيات، وبها ترتفع إلى خالقِ البريات، قال السبكي في طبقاته: وإنما يصيرُ الفعل عبادةً بالنية، قال: والنية فيها أمران: أحدُهما قصدُ الناوي. والثاني كون الفعل واقعاً على وجْهِ الامتثال، وذلك ناشيءٌ عن القصد، وهذا الناشيء ركنٌ بلا شك، وهو مع الفعل كالروح مع البدن اهـ المراد منه.

فتحصل أن في النية أمران: أحدُهما القصدُ إلى الفعل وهو قائم بذات الناوي. وثانيهما أي الأمرين كونُ الفعل واقعاً على وجه الامتثال، وهذا الثاني ناشيءٌ من الأول ولا بد منه اتفاقاً، والخلافُ معلومٌ في جعل النية شرطاً أو ركناً، فمن اعتبر الأمرَ الأول قال هي شرط، ومن اعتبر الثاني قال هي ركنٌ، فافهم والله تعالى أعلم.

ثم لما ذكر شروط الصحَّةِ بيَّن الوجه الذي من أجله أفردَها عن اللوازم وخصَّها باسم الشرط بما يترتَّب عليها، فقال ﷺ تعالى:

(وتَـارِكٌ لِـبَـعْـضِ ذَا الَّـذِي مَـضَـى   عَلَـيْـهِ فِـي الـوَقْـتِ وبَـعـدَهُ القَضَـا)

---

(1) البرور، هنا: اسم من البِرِّ، وهو التوسُّع في الإحسان.

أراد ﵀ تعالى أن من ترك بعض ما تقدَّم من الشروط يعني شروط الصحة الخمسة المتقدمة فعليه القضاء أبداً، وأحرى إذا تركها كلها، وإنَّما لم تُقَسِ الأورادُ على الصلاة هنا لعظم خطرِ الصلاة، فإن الصلاة لتأكيد أمرِها وتحتُّمه في الشرع كانت تؤدَّى في الوقت بما أمكن ولو مع العجز عن بعض شروطها، بخلاف الورْدِ فإنه لسعة الأمر فيه كان يأتي به متى ما قدِرَ على استيفاء الشروط إلا في حقِّ من كان فرضه التيمُّم، فإنه يتيمَّم له ويفعله ولا يؤخِّره عن وقْته فافهم، ويحتملُ أن يكون أراد بالبيت الإشارة إلى ما يفعله من ترْكِ الشروط أو بعضها عمداً، فيكون من تتمة الكلام في البيت قبله: أعني في قوله: **(وتي هي التي تدعى شروط الصحة)** وهذا الاحتمال أجودُ، والاحتمال السابق أفيدُ، والله تعالى أعلم.

ثم قال ﵀ تعالى مشيراً إلى شروط الكمال:

(وَمِنْ شُرُوطِهِ عَلَى مَنْ قَدرا ... عَلَيْهِ لا سِواهُ أَنْ يَسْتَحْضِرا
صُورةَ شَيخِهِ وِيَنْوِي المَدَدَا ... وأَنَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ قَاعِدا)

ألفاظ البيتين واضحة المعنى، وأشار بهما إلى ما في «الجواهر» من أن من شروط الورد لمن قدر عليه استحضار صورة القدوة، يعني سيدنا الشيخ ﷺ، وأنه جالسٌ بين يديه يستمدُّ منه اهـ والمطلوبُ أن يكون ذلك دواماً من ابتداء ذكر الورد إلى انتهائه، فإن لم يقدر فليكنْ في ابتدائه عند إرادة الشروع، ثم يلاحظ ذلك مرةً مرة بقدْرِ قوة استعدادِه وضعفه. والاستحضارُ المذكور يكون لصورةِ ذاتِ الشيخ ﷺ، أعني لخلقته الظاهرة التي كان عليها إن كان ممن يعرفُها ولو بالنقل وإلا فيستحضرُ صورةً كمالية مكسوَّةً بالهيبة والوقار، ويستعمل عند ذلك ما قدِرَ عليه من الأدب والإجلال والإكبار، وبالله التوفيق.

ولما كانت رتبةُ صاحب هذا الاستحضار قاصرةً بالنسبة لمن ترقَّى عليها إلى استحضار صورة سيد الوجود ﷺ أشار إلى ذلك فقال:

(لكِن مِنَ الذِي ذَكَرتُ أَنفَعُ ... وَمِنهُ أَكمَلُ وَمِنهُ أَرفَعُ
وأَعظَمُ استِحضار صورةِ النبي ... أَفضَلِ أَبناءِ نِساءِ العَرَبِ
نَاوِياً اقتِبَاسَهُ الأَنوارا ... وأَنَّهُ بَينَ يَدَيهِ صَارا
عَلَيكَ بالهَيبَةِ والوَقارِ ... إِذْ ذاكَ والتَّعظِيمِ والإِكبارِ)

قوله: **(أنفع)** أي أعظم منفعةً في الاستمداد، إذ هو ﷺ لمن أكرمه الله تعالى بالتوجُّه إليه والاستفاضة من حقيقة مادة الإمداد الذي يستمدُّ منه الكل، وإليه يرجع الكلُّ ﷺ.

وقوله: **(أكمل)** وما عطف عليه، يريد أن درجة صاحب هذا الاستحضار أكملُ وأرفع

وأعظم من صاحب الاستحضار السابق، وقوله في وصفه ﷺ: **(أفضل أبناء نساء العرب)** يعني وغيرهن من باب أولى، لأن العرب أفضل بني آدم كما في حديث: «**إن الله خَلَقَ الخلْقَ فاختارَ منهُمْ بني آدَمَ، واختارَ مِنْ بني آدمَ العَرَب**» الحديث، وباقي ألفاظ الأبيات وتراكيبها ظاهرٌ. وأشار بما تضمَّنته الأبيات إلى ما في «الجواهر» من أن الأفضل والأكمل في حق ذاكرِ الورد استحضار صورة النبي ﷺ وأنه بين يديه يستمدُّ من أسراره، ويقتبسُ من أنواره ويستعملُ في ذلك ما يقدرُ عليه من التعظيم التام، وما ينبغي من التأدب في الظاهر والباطن بين يدي سيد الأنام ﷺ، ومن هذا الشرط استخرجَ صاحب الميزاب الطريقة الأولى من الطرق الثلاثة التي جعل عليها مدار التربية في كتابه المذكور، ثم قال رحمه الله تعالى:

(ومَعَ ذا استحضارَ معنى الذِّكْرِ	في القلبِ مَن كانَ لذاكَ يَدري
ومَن يكنْ لَمْ يَدرِه فليَستمِعْ	لفظَ لِسانِه لِكَيلا يَنتفِعْ
ومَن يكُنْ يرتِّلَ الأورادا	ينلْ بما ذكرتُه المُرادا
ولتحذرَنَّ اللحنَ في الأورادِ	لِكَي تنالَ غايةَ المُرادِ)

(استحضار) هنا مصدر مضاف لمفعوله وهو معنى الذكر، و«من» في قوله: **(من كان لذاك يدري)** هو فاعله و«لا» من قوله: **(لكيلا ينتفع)** زائدة: أي لكي ينتفع، وباقي ألفاظ الأبيات وتركيبها ظاهرة.

وأشار بهذا إلى ما في «الجواهر» وغيره من أنه يشترط في حقِّ ذاكر الورد اسحضار ما قدر عليه من معاني الذكر إن كانت له قدرةٌ على فهم معانيه وإلا فليسمِعْ نفسَه ألفاظ الذكر وينتصت بغايةِ جهدِه لما يتلفَّظ به، ليحصلَ له النفع بذلك. ومن تمام هذا الشرط ترتيلُ الذكر، وعدم الهزِّ فيه، وكذلك تجنُّب اللحن بغاية جهده، ليحصلَ من فائدة الذكر على غاية بغيه ومنتهى قصده.

فإن قيل: من لم يقدِرْ على الجمع بين استحضار صورة القدوة مثلاً والاستحضار لمعاني الذكر هل يشتغلُ بالاستحضار الأول ويلغي الآخر، أو العكس؟ قلنا: ليستحضر عند الشروع أنه جالسٌ بين يدي القدوة يستمدُّ منه، ثم بعد الشروع يستعملُ ما يقدِرُ عليه من استحضار معاني الذكر دواماً إن كانت له قدرةٌ على فهم المعاني وإلا استعملَ ما يقدر عليه من الإنصاتِ لألفاظِ الذكرِ مع الملاحظة لاستحضار القدوة مرةً مرة إن قدِرَ وإلا فيكفيه الاستحضارُ عند الشروع، وبالمداومة على هذا وسريان أنوار ألفاظ الذكر ومعانيه في

ذاته يصير يقوى على الملاحظة لاستحضار صورة القدوة مرةً مرة، ثم على الجمع بين الاستحضارين معاً، ثم يترقَّى من استحضار صورة القدوة إلى استحضار صورة النبيّ ﷺ، ثم إلى ما هو أعلى من ذلك من دوامِ مشاهدة الصورة الشريفة ﷺ يعني قلبه، ثم إلى ما هو أقوى من ذلك.

ورأيت للشيخ محيي الدين رضي الله عنهما يؤخذ منه أن الذاكرَ لا يكلَّف بين الجمع بين الاستحضارين، وذلك أنه قال ﷺ في الباب التاسع والستين من «الفتوحات» على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ [الماعون: الآية 5] ما نصّه: اعلمْ أن الحقَّ تعالى لم يعلِّق الوعيدَ إلا بمن سَهَا عنها لا فيها، وذلك أن العبد في صلاته بين مُناجٍ ومشاهِدٍ، فقد يسهو عن مناجاته باستغراقه في مشاهدته، وقد يسهو عن مشاهدته باستغراقه فيما يناجيه به ربّه من أحكام وقصص وحكايات ووعد ووعيد حال الخاطر في الكلام لدلالة الكلام عليها، وهو مأمورٌ بالتدبُّر في التلاوة اهـ. وقد عرفت أنه يؤخذ منه ما ذكرناه، وليس فيه مصادمةٌ لما أشرنا إليه من الترقي إلى درجة الجمع بين الاستحضارين لأنه عام، وما أشرنا إليه خاصٌ بدرجة الخاصة من أهل الصفاء فاعلم ذلك.

(تنبيه) يؤخذ من جعل الشيخ ﷺ الانتصات لألفاظ الذكر شرطان: المطلوب في الذكر إسماعُ المرءِ نفسَه لا حركة اللسان فقط، وعليه النووي في الأذكار حسبما نقله عنه غيرُ واحد، وبالله التوفيق.

ثم لما كانت الوظيفة المعروفة في طريقنا تشتركُ مع الوردِ في الشروط المتقدمة كلها ويختص الوردُ عنها بغيرها أشار إلى المشاركة المذكورة فقال:

(وَهـذِهِ الشُّـروطُ لِلْوَظِيفَـةْ | وَهْيَ الَّتِي فِي وِرْدِنَا مَعْرُوفَةْ)

(الوظيفة) ما يقدَّر من عملٍ وغيره، وظَّفت عليه العمل توظيفاً: قدَّرته، (وهي في وردنا) أي طريقتنا معروفة، وسيأتي قريباً ذكرُ أركانها القائمة منها وما يتعلَّق بها، ومرادُ الناظم هنا الإخبار بأن الشروط المتقدمة للورد هي شروطٌ أيضاً للوظيفة ثم يختصُّ كلُّ واحدٍ منهما من الشروط بما لا يشاركه فيه الآخر، فمما اختصَّ به الوردُ عنها ما أشار إليه بقوله:

(واستَقبِلِ القِبلَةَ إلَّا لِضَرَرْ | مِثلَ مُسافِرٍ عَلَى ظَهرِ السَّفَرْ
وتَركُكَ الجَهرَ عَلَيهِ عَمَلَ | أصحابِ شَيخِنَا وذَاكَ الأَمثَلَ
كَذا جُلوسَكَ إذا استَطعتَا | تَفعَلُهُ وعَنهُ مَا شُغِلتَا

قوله: (إلا لضرر) أي ضرورة، يعني: مشقة، وقوله: (مثل مسافر) هو على حذف مضاف أي مثل مشقَّة مسافر، وقوله: (على ظهر السفر) أي راكب على دابة في السفر، وباقي الألفاظ والتراكيب في الأبيات واضح بين.

وأشار رحمه الله تعالى في هذه الأبيات إلى شروط الكمال وهي ثلاثة:

الأول: استقبالُ القبلة بجميع بدنهِ كالصلاة من حين الشروع في الذكرِ إلى أن يختم، ويستثنى من هذا المسافرُ إذا كان راكباً على دابته، فإنه يذكره حيثما توجَّهت به دابته كالحكم في النفل، فتشترطُ طهارةُ السرجِ والبرذعة[1] مثلاً، وإن كان ذلك لا يشترطُ في الفرض لأنه جبري والنفل اختياري، وتشترطُ الدابة أيضاً حسبما مرَّ، بخلاف السفينة، فيدور معها إلى القبلة لكن إن أمكنَ ذلك، وإلا فهي كالدابة أيضاً، وانظرْ هل يشترط كون السفر سفر قصر قياساً على النفل أو لا. والظاهرُ أنه لا يشترطُ ذلك، إذ لو اشترطَ لنقل، ولم ينقلْ لنا فيه شيءٌ، والله تعالى أعلم.

ثم إن في تعبير الناظم بقوله: (إلا لضرر) تجوّزٌ، إلا أنه يتبادرُ منه أن المراد هنا من أقسام القبلة المعروفة عند الفقهاء قبلة الضرورة، وهي قبلةُ من مُنِع من الاستقبال لشدَّة الخوف وليس هذا هو المراد هنا، بل المرادُ هو أن استقبال القبلة في الورد شرطُ كمال ويترخَّص في تركه إذا كان لا يحصلُ إلا بتكلُّف ما ومشقة ما، ولو في النفس؛ فالصوابُ أن المراد هنا القسم المسمَّى عند الفقهاء قبلة الترخيص، وحينئذٍ يكون دخولُ من منع من الاستقبال لشدة خوفٍ أخروياً، فافهم. هذا، والذي أدركنا عليه عمل الصادقين، وأهل الجد والاجتهاد من المريدين المحققين، هو تأكيدُ أمر الاستقبال حتى كأنه شرطُ صحَّةٍ عندهم، ولا يخفى أن عملهم في ذلك هو الأليَقُ والأنسب، بل هو المطلوبُ في بساط التربية والسلوك. وقد قال بعضُهم: ما فتح الله على وليٍّ إلا وهو مستقبلُ القبلة. وذكر أن رجلاً علّم ولدين القرآنَ على السواء فكان أحدُهما يقرأ وهو مستقبلُ القبلةِ فحفِظَ القرآنَ قبل صاحبه بسنةٍ. وفي الخبر: «لكلِّ شيءٍ زينةٌ، وزينةُ المجالِسِ استِقْبالُ القِبْلَةِ» وفيه: «إنَّ لكلِّ شيءٍ شَرَفاً وإن شرفَ المجالِس ما استُقْبِلَ به القبلة» وفيه: «إن لكلِّ شيءٍ سيِّداً، وإن سيدَ المجالسِ قبالةُ القبلة». واعلم أن ما تقدَّم من الترغيب في استقبال القبلة هو في حقِّ

---

(1) البرذعة: ما يوضع على الحمار أو البغل ليركب عليه، كالسرج للفرس.

من كان في غير مسجد النبيّ ﷺ، فقد نصَّ العلماءُ على أن استقبالَ القبر الشريف في الذكر والدعاء لمن كان في مسجده ﷺ أفضل له من استقبال القبلة، ونذكرُ ما تقدَّم لنا في قول إمام الأئمة مالك رضي الله عنه للخليفة العباسي: وأين تصرِفُ وجهَكَ عنه؟ وهو قبلتُكَ وقبلةُ أبيكَ آدم ﷺ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آل كلٍّ.

الشرط الثاني: من شروط الكمال **الإسرارُ** في ذلك الورد من أوّله إلى آخره، لما كان عليه عملُ أصحاب الشيخ رضي الله عنه، وإنما قال الناظم: **(وذاك الأمثلُ)** لأنّ من آكَدِ آدابِ المريد عند أهل الطريق أن يكتمَ المريدُ وِرْدَه، فلا يخبرُ بحقيقتِه من لم يكنْ أخاً له في طريقه، ويرونَ ذلك من كتمان السرِّ الذي هو مركزٌ لحصول النتيجة. وقد رأيتُ السلَفَ من الأصحاب يتواصَوْن بذلك فيما بينهم؛ وبالجملة فهو من أهمِّ الأمور في الطريق، فافهم ذلك، والله يتولّى هُدانا جميعاً بمنِّه آمين.

الشرط الثالث: من شروطِ الكمال **الجلوسُ**، فلا يذكرْه مضطجعاً مثلاً، إلا إذا لم يستطِع الجلوس، ولا قائماً إلا إذا شُغِل عن الجلوس، كأن يكونَ مسافراً جادًّا في السير راجلاً، فيذكره حيثما توجَّه بشرط أن لا يطأ نجاسةً، وأن لا يلابسَ نجِساً مع الإمكان، هكذا ذكر الناظم رحمه الله تعالى، وهو من آداب المريدين السالكين، لكن المحفوظ عندنا من عمل أصحاب الشيخ رضي الله عنه يدلُّ على أن الأمرَ في ذكره مضطجعاً أو قائماً أخفُّ مطلقاً، وخصوصاً للاستراحة في الاضطجاع من النوم ونحوه في القيام، ولا شك أن ما استحسَنه الناظمُ رحمه الله تعالى من الإتيان به في مثل جلسة الصلاة أمرٌ حسنٌ، ولا سيما في بساط التربية والسلوك الخاصّ، ولا مفهوم لجلسة الصلاة، بل كذلك التربُّع والإقعاء بمعنى الجلوس على العقبَيْن حسبما نصُّوا عليه في كلامهم في بيان كيفية الجلوس في الخلوة، أعني الأربعينية ونحوها، وقوله: **(عندي)** يعني بما استفادَه من العلم لا بمجرَّدِ التخمين والحدْس من غير استناد إلى أقوال علماء الطريق وسيرهم، فاعرفْ ذلك، والله المستعان.
ثم قال الناظم رحمه الله:

(واقرا قبيلَ الذكر ما رَوَيتُه ... عن شيخنا وذاك قد صحّحته)

أراد بهذا الذي رواه عن الشيخ رضي الله عنه من طريق الصِّحة مقاصد الورد المعروفة عند أهل الطريق، وهي أن يقرأ على قلبه قبل الشروع في كلِّ ذكر من الأذكار التي هي أركانُ الورد التي بني منها آيةً من القرآن العظيم متضمِّنةً للأمر بذلك الذكر، ليستشعر هيبة الأمر بمعرفته بمَنْ صَدَر منه وذكره له، على ما سيتبيَّن لك كيفيةُ العملِ فيه شرح هذا البيت إن

شاء الله تعالى، فتعبير الناظم بقوله: **(واقرا)** رمزٌ منه إلى المقاصد لأنها قراءةُ آياتٍ قرآنية متضمِّنة للأمر بالمقصود **(وقبيل الذكر)** صُغِّر «قبل» إشارةً إلى أن كل مقصدٍ يقرأ متَّصلاً بالذكر المقصودِ من غير فاصلٍ بينهما، و**(الذكر)** «أل» فيه للعهد: أي ذكرُ الوردِ المتكلم فيه وبيان «ما» من قوله: **(ما رويته)** هو ما ذكرناه من مقاصد الورد، ولا خفاء أن عبارته ﷺ في هذا البيت غير موفية بقصدِه إلا من طريق الرمز والتلميح، بحيث لا يعثر على مرادِه في كلامه إلا من كان عارفاً بمنحىٰ مرامِه، ولو قال:

وافْـتَـتِـحِ الـذِّكْـرَ بـمـا قَـدْ عُـهِـدا مِـنَ الـمـقـاصِـدِ تَـكُـنْ مُـسَـدِّدا

لوفى بالمراد، ولا يضرُّه عدمُ التصريح بالرواية عن الشيخ ﷺ، إذ مِن المعلوم أنه لا يذكرُ في هذا النظم وخصوصاً فيما يتعلَّق بالشروط ونحوها إلا ما ثبتتْ به الرواية عنه ﷺ، وقد عرفتَ مما تقدَّم ما هو عليه الأمرُ عندنا في هذه المقاصد وما أجابَ به الشيخ ﷺ من سأله عن ذلك من قوله له قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمٰن الرحيم، واشرَعْ في وردك، فالعملُ عليه من الآداب الكماليات حسبما يقتضيه كلامُ الناظم أيضاً، حيث ساقه سياقَ الملحقِ بالشروط الكمالية، ومن كان له مرشدٌ من شيخ أو أخٍ من شيخه قد أسلم قيادَه إليه، فهو بحكم ما يأمرُه به مرشدُهم ورداً لهم على طريق الوصول إلى حضرة معرفة الله تعالى.

وكيفيةُ العمل على المقاصد في وردنا أن يتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمّل: الآية 20] وليستعملْ حالَ قراءتها ما يقدرُ عليه من الحضور والتدبر، ليستشعر قبلَه عظمة المولى الآمر وحقارة العبد المأمور، حيث تفضَّل سيده عليه فجَعَله محلاً لحظاته وأمره بما فيه طهارةُ قلبه من أدران مخالفته لسيده ومولاه، ولا يخفى ما ينتجه هذا الاستشعار من الحياء من المولى الملك المقتدرِ الحليم الغفار. ثم بعد الفراغِ من تلاوةِ الآية على ما يمكنُ من الصفة المذكورة يقول: لبيك اللهمَّ ربِّي وسعدَيْك، والخيرُ كلُّه في يديك وها أنا ذا عبدُك الضعيفُ الذَّليلُ الحقيرُ قائمٌ لك بين يديك، أقول مستعيناً بحَوْلك وقوّتك امتثالاً لأمرك وتعظيماً وإجلالاً لك، أستغفرُ الله إلخ، ثم بعد الختم للاستغفار على ما سنبيّنه قريباً يتعوذ كما مرّ ويتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ [الأحزاب: الآية 56] الآية على نحو ما سبق، ثم يقول: «لبيك اللهم ربي وسعديك» إلى قوله: «وها أنا ذا عبدك الضعيف الذليل الحقير قائم لك بين يديك، أقول مستعيناً بحولك وقوتك امتثالاً لأمرك وتعظيماً وإجلالاً لك ولرسولك ﷺ: اللهمَّ صلِّ على سيدنا محمد إلخ»، وبعد الختم تتعوَّذ

ثالث مرة، وتتلو قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 152] الآية، ثم يقول مثل ما سبق إلى قوله: وها أنا ذا عبدك الضعيف الذليل الحقير قائمٌ لك بين يديك، أقول مستعيناً بحولك وقوتك مخلصاً لك من قلبي بما ألهمتني إليه بسابق فضلك ومنتك ذاكراً لك، امتثالاً لأمرك، تعظيماً وإجلالاً لك لا إلّه إلاّ الله إلى أن يختم فهذه مقاصد الورد، وربما وَقَع بين الأصحاب مخالفة في الآي المتلوَّة وبعض الألفاظ المقررة، والكلُّ صحيحٌ والخطب فيه سهلٌ، والمدارُ على ما تقدم من استشعارِ الهيبة والحضور في الذكر، والله الموفق، ثم قال الناظم رَحِمَهُ اللهُ تعالى:

* * *

أركانه

أي هذا مبحث بيان أركان هذا الورد الشريف، والمرادُ بالأركان الأذكارُ التي قام منها، وهي الاستغفار المزيل للأذرانِ[1]، والصلاةُ على سيد معدٍّ وعدنان، والتوحيد والتهليل لمولانا العظيم الملك والسلطان، قال ﷺ تعالى:

(أركانُهُ أستغفِرُ اللهَ مِائهْ	وصَلِّ مِثلَها على خيرِ الفِئهْ
وكونَ ذِي الصَّلاةِ بالفريدة	تفضُلُ بِرُتَبٍ عديدة
وغيرُها يكفيهمُ والعجبُ	مِمّن رأى الفضلَ وعنهُ يرغبُ
وهلِّلَنْ مِائةً ولتختمِ	بنسبةِ الأُرسالِ للمُعظَّمِ)

الضميرُ في (أركانه) للورد اللازم لكلِّ من دَخَل الطريقة بحيث لا يصحُّ الدخول فيها، ونسبتُه إلى أهلها بدونه، و(الفئة) الجماعة، وأراد به هنا جماعة الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إذ هم فئةٌ وحزبُهم ﷺ، و(الفريدة) هي صلاة الفاتح لما أغلق، سمَّاها سيدنا ﷺ الياقوتة الفريدة، والضمير في قوله: (وغيرها) للفريدة، أي وغيرها من صيغ الصلوات عليه ﷺ، و(يرغب) هنا: من رغِبَ عن الشيء بمعنى تركَه وزَهِدَ فيه، و(التهليل) قوله لا إلَه إلاَّ الله، و(المعظم): المراد به ﷺ، فالكلامُ على تقدير موصوفٍ أي للرسول المعظَّم على سائر الأنبياء والمرسلين، صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

وأراد ﷺ تعالى بما أشار إليه في هذه الأبيات بيان حقيقة هذا الورد الشريف، فبيَّن ﷺ تعالى أنه مبنيٌّ من ثلاثة أركان (أولها) الاستغفارُ مائة مرةٍ، وصيغتُه اللازمة فيه هي هذه: «أستغفرُ الله» فقط ومعناه أقلني يا ألله اهـ قاله الفضيل بن عياض عن نقل بعضهم، والمراد طلبُ المغفرة من الله تعالى لما علم وما لم يعلم من الذنوب كبيرها وصغيرها، جليِّها وخَفِيها، ولا شكَّ أن الاقتصار في مثل هذا المقام على هذه الصيغة أنسبُ بحال

(1) الأدران: الأوساخ.

العبد الفارِّ من سوءِ كسْبِه ولوازم ذاته الترابية وصفاته البهيمية، إلى الله تعالى متعلقاً به جلَّ وعلا في الظاهر والباطن، ومعوِّلاً عليه في إقالة عثرته وغفرانِ خطيئته، دونَ غيره سبحانه أيًا كان، وذلك لاختصارها حتى لا يتشعَّب فكرُه في مدلولات ألفاظها، فيشغَلُه ذلك عن الاستغراق اللائق بحاله فيما ذكر من التعلُّق بالله تعالى، ولاشتمالها على الاسم «الله» الذي هو جامع للذات والصفات والأفعال، فينمحي من قلبه باستغراقه في تعلُّقه كلُّ ما سوى الله تعالى من الذوات والصفات والأفعال، وقد قدمنا أن حظَّ العبد من هذا الاسم الأعظم المتعلِّق به في الظاهر والباطن، الغني به عن كل ما سواه، فافهمْ من الإشارة ما يغنيك عن تردُّد الفكر فيما انطوى تحت العبارة، والله ولي التوفيق والتفهيم، وهو سبحانه الفتاح العليم.

(الثاني) من الأركان التي ابتني منها هذا الورد الشريف الصلاة على النبيّ ﷺ مائة مرةٍ أيضاً بأي صيغةٍ من صيغ الصلواتِ، لكن كونها بالياقوتة الفريدة وهي صلاح الفاتحِ لما أغلق أفضلُ بما لا يكاد ينحصرُ من الرتب العديدة، وسيأتي بيانُ ما يشير إلى بعض فضلها الباهر قريباً إن شاء الله تعالى، ولهذا تعجَّب الناظم ﷺ تعالى ممن يرغَبُ عنها[1] إلى غيرها بعد علمه بذلك الفضل العظيم، ولهذا أيضاً صارَ المتأهِّلون لتلقين هذا الورد الشريف لا يعرجون على ذكرِ غيرِها من الصلوات لمن لقَّنوه، بل يلقِّنوه صلاة الفاتح فقط، مقتصرينَ له عليها، حتى إن كثيراً من الناس يعتقدون أن غيرها لا يجزىء عنها، وليس ذلك مما يفعلُه من المقدمين افتياتاً[2] على الشيخ ﷺ، وإنَّما هو من كمال الإيمان والتصديق بفضلها العظيم الذي من أجله صار غيرُها من حَيِّزِ ما لا يخطرُ ببالهم حالَ التلقين، وإن كان الأحسنُ تبيين الأمر على ما هو عليه على حسب ما في «جواهر المعاني» من الترتيب.

ومن بركات الشيخ ﷺ الظاهرة، وآثار أسرار همَّته الباهرةِ، لا تجد أحداً من الآخذين للورد تسخُو نفسُه بأن يعوض عنها غيرها في كلِّ حال، ولو في حال المرض وتزاحم الأشغال. وكثيراً ما نذكر لبعض المرضى والمسافرين ما في بعض الإجازات الموجودة بأيدينا الآن بخطِّ الخليفة المعظم سيدي أبي الحسن علي حرازم[3]، فلا يقنعه

---

(1) رَغِبَ عن الشيء: زهد فيه وابتعد عنه، وضدُّه: رغب في الشيء: إذا أقبل عليه.

(2) افتياتاً: مصدر الفعل: افتاتَ في الأمر: استَبدَّ به ولم يستشر من له الرأي فيه، و افتات الكلام: اختلقه، ويقال: افتات عليه القول: افتراه عليه. وفعله الثلاثي: فات.

(3) علي حرازم هو تلميذ التجاني، وتقدمت ترجمته.

ذلك ونعلم من حاله أنه لا يتركُها بحال، وذلك لا محالة من سريان سرِّ الإذن من الآذن للمأذون له، وقد قدمنا عن بعض الخاصة من أصحاب سيدنا ﷺ أنه كان يقول فيها: هذه الصلاةُ فيها سرُّ الطريق اهـ. وبالتحقيق أنه لا يعدلُ عنها إلى غيرِها إلا في حقّ من لم يحفظها أو لعارضِ شغلٍ، ونحوه مما يلجىء إلى التخفيف. ونص ما في الإجازة السابق ذكرها: وصلاة الفاتح لمن يحفظها ومن لم يحفظ فليقل: اللهمَّ صلِّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله. ومن كان له شغل وأراد التخفيف في الورد فليجعلْ مكانَ صلاة الفاتح لما أغلق: اللهمَّ صلِّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله، وإلا فصلاةُ الفاتح لما أغلق لا معدلَ عنها اهـ بلفظه من خط السيد المذكور مباشرة. وفي «جواهر المعاني» أن ذلك باجتهاد الملقِّن، يعني أنه يلقِّن كلّ واحدٍ ما يناسب استعدادَه من صيغ الصلوات، فراجعْ لفظه فيه ومنه أخذ صاحب «ميزاب الرحمة الربانية» ما اعتمده في ذلك في كتابه المذكور شكر الله سعيه في ذلك، وجزاه خيراً على ما أفاده هنالك وإن كان قد يقال: إنَّ صلاة الفاتح مناسبةٌ لحالِ المريد في سائر المقامات والمنازل، وقد قدمنا الإلمام بما يفيد ذلك، وربما ألمَّ به صاحبُ «الميزاب» نفسه وذلك في الطريقة الثالثة، والله أعلم. وبالجملة فلا يعدل عن هذه الصلاة إلى غيرها من المنتسبين إلى طريقتنا هذه بعد العلم بما فيها إلا من كان ناقصَ العقل غيرَ مكترث بالدين والفضل، والله يلهمنا رشدنا جميعاً بمنه وكرمه آمين.

الركن الثالث من هذه الأركان التي ابتني عليها هذا الوردُ العظيم الشأن «لا إلَه إلاّ الله» مائة مرةٍ يقول في الموفية للمائة سيدنا «محمد رسول الله» ﷺ وعلى آله، وهو معنى قوله وليختم بنسبة الأرسال للمعظَّم ﷺ، ولا بدَّ من الختم بهذا وإن زاد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: الآية 56] الآية، وختم بالصلاةِ عليه ﷺ فهو أحسنُ وأحسن، وعليه عملُ جلٍّ من نعرِفُه من الأصحاب.

وقد نصَّ أهل التحقيق على أنه ينبغي للمؤمن في كل ذكرٍ من أذكار الله تعالى أن لا يغفلَ فيه عن ذكر النبيّ ﷺ، إما بأن يصلِّي عليه أثره، أو يقرَّ برسالته مع الصلاة عليه ﷺ، أو يأتي بنحو ذلك مما يؤذن بتعظيمه والتمسُّك بأذياله إذ هو ﷺ الباب الأعظم، والدليلُ الأكرم، فمَنْ غفِلَ عنه فقد أخطأ الطريق المستقيم، والنهجَ الواضحَ القويم، ولا بدَّ من التحفُّظ والتحرُّز عما يجري على ألسنة العامة من اللحن[1] في هذه الكلمة المشرفة بغاية الجهد، فيظهر مدلاً بقدْرِ ما يتحقق فيها معنى النفي، من غير أن يخرج في ذلك عن القدر

---

(1) اللحْنُ في الكلام: الغلط فيه، وتحريفه.

المضبوط في ذلك عند المقرئين، وكذلك يظهر أيضاً همزة القطع من «إلّه»، وكذلك أيضاً همزة «إلاّ» وتشديد «لام الألف» منها، وتفخيم اسم الجلالة الأعظم، والله الموفق سبحانه.

ولما كانت هذه الأركانُ الثلاثة هي الوردُ الأصليُّ في طريقنا، بمعنى أنه الأصلُ في الدخول في الطريق، فلا يمكن الدخول فيها بدونه، وغيره من الأذكار اللازمة وغيرها تابعة له أتى الناظم بما يفيد ذلك، فقال:

(فـهـذِهِ الـثَّـلاثـةَ الأرْكـانَ لا بُـدَّ أنْ يَـقـرأهـا الإنْـسـانَ)

أفاد أن هذه الثلاثة الأركان لا بد أن يتلزم قراءتها كلُّ من تقيَّد بهذا العهْدِ أيًّا كان، فسواء في ذلك الكبيرُ والصغير، والعالم والجاهل، والذكر والأنثى، والحرُّ والعبد، ولذلك عبَّر ﷺ تعالى بالإنسان، فهذه الأركان الثلاثة هي المسماة بالورد عندنا، فإذا أطلقَ لفظُ الورد لا يتصرَّف إلا إليها، وهي المؤقتة بالوقت الذي تقدَّم الكلام في تقسيمه وضبطه قريباً، وهي المشروطُ فيها ما تقدَّم من الشروط، بل هي الموضوع فيها هذا النظم ولا بد في قراءتها من ترتيبها على نحو ترتيب الناظم لسرْدِها، وكان من حقِّه ﷺ تعالى أن لا يهمِلَ ذكرَ ما يفيدُ ذلك ولا يكتفى بالترتيب الذكري، فيقدم الاستغفار، بالصيغة السابق بيانها، ثم الصلاة على النبي ﷺ بصلاة الفاتح لما أغلق، على ما هو الآكَدُ والأفضل والأكمل، إلا في حق من لم يحفظْ أو من كان له شغلٌ وأراد التخفيف في بعض الأحيان، وإلا فلا معدلَ عنها حسبما تقدَّم التنصيصُ عليه في لفظ الإجازة السابق ثم الكلمة المشرفة، فإن عَكَس في الترتيب بأن نكس مثلاً فسيذكر الناظمُ ما عليه في ذلك بعد هذه الأبيات.

والوجه في هذا الترتيب هو مناسبةُ حال السالك، وذلك لأن تقديم الاستغفار تطهيرُ الباطن من أدرانِ المعاصي وسائر المخالفات، ليتهيَّأ للتحلية بما ينتجه له غير الاستغفار هو الصلاة على النبيّ ﷺ، والهيللة الشريفة. وفي تقديم الصلاة على النبي ﷺ استنارة الباطن وكنس بقايا الأدران ومَحْو ظلمها ليتهيأ لحمل ما يرد عليه من أسرار الحقائق التوحيدية، وأنوارِ المعارف المفاضة عليه من الحضرة الفردية الصمدية. وبالجملة فتقديمُ الاستغفار ثم إردافُه بالصلاة عليه ﷺ لأحكام غسْلِ الباطن وتنويره، ليتهيَّأ للتحلي بحُلَل الأنوار القدسية المفاضةِ عليه حالَ الذكر للكلمة المعظمة السنية. هذا، وقد عرفت مما تقدَّم في الكلام على الشروط أن حصولَ النتيجة في الأذكار بفَهْم معانيها منوطٌ إلا في حق من ليست له قدرةٌ على إدراك المعنى فيكتفي بالانتصات لما

يتلفَّظ به والاقتباس مما يلوح من نور المبنى، ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطَّلَاق: الآية 7] وقد تقدَّم ما يكفي في معنى: أستغفر الله، أعني الركن الأول من هذه الأركان الثلاثة. وأما معنى «صلاة الفاتح لما أغلق» فيكفي بما ينبغي أن يستحضره الذاكر من معانيها أن «اللهمَّ» بمعنى يا ألله الذي له الأسماء الحسنى، وذلك لما قيل إن أصل «اللهم» يا ألله، وأن الميم المفتوحة المشدَّدة زِيدَت لتشعرَ بأن هذا الاسم الأعظم اجتمعتْ فيه أسماءُ الله كلها[1]، فالاسم الأعظم «الله» هو المستغرِقُ لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى، والميم مشعِرَةٌ ومعينة على كمال استحضارِ ذلك الاستغراق، لأنها هي المستغرقة لجميع الأسماء فافهم. ومعنى الصلاة المطلوبة من الله تعالى زيادة تكرمة منه سبحانه وتعالى لحبيبه ﷺ، إذ أصلُ التكرمة حاصلٌ بلا ريب، والمطلوب زيادة ذلك. ويلاحظ الذاكر هنا عجزه الذاتي على أن يصلي عليه ﷺ مع كونه في غاية الشرف والرفعة التي لا مطمَعَ فيها لغيره من جميع المخلوقات، والعبد العاجز في غاية ما يكون من الانحطاط والضعة والعيب والنقص، وأنه من أجل ذلك أمر أولاً بالصلاة عليه ﷺ، ثم أمرَ ثانياً على وجه التعليم له كيفية ما أمرَ به أن يطلب من الله تعالى أن يتولَّى الصلاةَ بنفسِه جلَّ وعلا حتى تكون مناسبةً لعظيم قدر حبيبه ومصطفاه من خلقه، إذ لا يعلم قدره حقيقة غيرُه سبحانه وتعالى كما وَرَد عنه عليه الصلاة والسلام: «لا يعرِفُني حَقِيقةً غَيْرُ رَبِّي» ويلاحظ عند تلفّظه بالسيادة في قوله على سيدنا أنه ﷺ سيد المخلوقات كلها وجميع العوالم بأسْرِها، حسبما حكي عليه الإجماع واستثني من الخلاف في التفضيل بين الملك والبشر، فيدخل الذاكر في قول سيدنا جميع المخلوقات من الأنبياء والرسل والملائكة، ويلاحظ في الاسم الشريف محمد ﷺ حمدُ أهل السمٰوات وأهل الأرضين له، حمداً كثيراً مضاعفاً بتضعيف ما خصَّه به مولاه جلَّ وعلا من المحامد الكثيرة. ومعنى «الفاتح لما أغلق» أنه ﷺ هو السببُ في وجود جميع الكائنات وإبرازها من العدم إلى الوجود، فهو الذي فتح به ما كان منغلقاً من الوجود على كلّ موجود، إذ لولاه ﷺ ما وجد موجود ولا أُخرج من بطون العدم إلى ظهور الوجود، وكما أنه ﷺ سببٌ في وجود الكائنات هو أيضاً سببٌ في إفاضة الرحمة عليها، فلولا وجودُه ﷺ ما رُحِم موجودٌ، فهذا الذي فتح الأغلاقَ وجودُه إيجاداً وإمداداً؛ ومعنى «الخاتم لما سبق»: أنه ﷺ

---

(1) أما النحاة، فيعدُّون الميم المشددة في (اللَّهمَّ) بدلَ (يا) النداء في قولهم «يا ألله» لأن هذه الأداة لا تدخل على المعرف بـ(ال) إلا في لفظ الجلالة (الله).

خاتم النبوة والرسالة، فإليه انتهت كمالاتها، وعليها انختمت بلا شك؛ ويكفي هذا القدر مما يلاحظه الذاكر في معنى الاسمين المحمدين الشريفين، ولعلَّنا نتعرَّض للزيادة على هذا في غير هذا إن شاء الله تعالى.

ومعنى «**ناصر الحق بالحق**»: أنه ﷺ هو القائم بنصر الله تعالى بالله غير مكترث بسواه، وهو الناصرُ لدين الله تعالى الملك العدل، بالحق والجد لا بالباطل والهزل؛ ومعنى «**الهادي إلى صراطك المستقيم**» أنه ﷺ الهادي إلى طريق الفلاح والمرشِدُ إلى سبيل النجاح، و(**الآلُ**) في مقام الدعاء جميعُ أمَّته، لكن لا بد من لحْظِ آله ﷺ بمزيدِ تعظيم وتشريفٍ وتكريم، كما لا يخفى على ذي العقل السليم، إذ المقامُ مقام تعلُّق به ﷺ وتشبُّثٌ بأذيالِه، فلا بد فيه بعد التعميم بجميع أمته من التخصيص لآلِه، رزَقَنا الله محبَّتهم، وأعظمَ في قلوبنا حرمتهم بمنِّه وكرمه آمين.

وقوله: «**حق قدره ومقداره العظيم**» معناه أن المصلي طلبَ من الله تعالى أن يصلي على حبيبه الأعظم وصفِيِّه الأكرم، الصلاة التي يستحقُّها ما خصَّه به من عظم القدر والمقدار ولديه، إذ لا يعرفُ ذلك ولا يعلمه حقيقةً أحدٌ ممن توجَّه الأمرُ له بالصلاة والسلام عليه فهو كما في بعض الروايات عدد كذا، وكما في قولنا: «سبحان الله ملء كذا وزنة كذا» وقد علمتَ قولَ أهل التحقيق في مثل ذلك أن اللاَّئق بالفضْلِ والكرم الذاتي هو أن يضاعَفَ لذاكرِ تلك الأذكار الثوابُ على وفق ذلك، وبه تعرف أن فضل هذه الصلاة لا يتقدَّر بمقدارٍ، إذ لا يحيطُ علماً بقدر هذا النبيّ المصطفى المختار، إلا المولى الكريم الذي يخلقُ ما يشاء ويختار، فهي من الأذكار الجامعة، بل من غُرَرِها اللاَّمعة.

وقد قال ابن عطاء ﷺ في «تاج العروس»: من قصر عمرُه فإنه يذكر بالأذكار الجامعة مثل: «**سُبحان الله وبحمده عَدَدَ خلقه**» إلخ[1] ونحو ذلك، إذ قد صَحَّ أن له أعظم من ثوابِ من أفردَ، وإن كان قد اختلفَ هل يكتبُ له الثوابُ المذكورُ وهو أولى بالكرم؟ أو إنما يكتب له دون تضعيفٍ، وهو الأظهرُ في الاعتبار؟ ثم قال: وقد يقال: إن ذلك

(1) عن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: «ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟». قالت: نعم. فقال النبي ﷺ «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهنَّ: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته». رواه مسلم برقم (2726).
وثمة روايات مختلفة للحديث.

يختلفُ باختلاف الأحوال والأشخاص؛ فالذي يمنعُه العجزُ والضرر ليس كالذي يمنعُه الشغلُ والعمل، والذي يمنعُه ذلك ليس كالمؤثر للراحةِ على نعت الغفلة المجردة اهـ. وانظر قوله وهو أظهر في الاعتبار مع ما قالوه في حديث: «سبحان الله عدد خلقه» من أنه لا محالة يدلُّ على أن للتسبيح بهذا اللفظ مزيةً زائدة، وإلا لم تكنْ له فائدة. وقال بعضهم مؤيداً للقول الأول: الذي قيل فيه إنه الأولى بالكرم ما نصّه: ومما يشهدُ لإثباته بقدْرِ ذلك العددِ من طلق ثلاثاً فإنه تلزمه الأعدادُ الثلاث اهـ وعلى قوله. وقد يقال: إن ذلك يختلفُ باختلافِ الأحوال إلخ. تقول الرجاء قويٌّ أن نعامل نحن وجميع إخواننا بذلك من أجلِ قدوتنا وأستاذنا ثقةً بما كان يقول ﷺ إذا بُشّر بشيء من الفضل، وهذا لهم من أجلي اهـ، وقد أسلفنا بيان الوجْه في مثله فراجِعْه إن شئت، والله المستعان. وإذا عرفتَ معنى حقّ قدْرِه ومقداره العظيم عرفتَ ما قاله سيدنا ﷺ في الجواب عن قول من قال: لماذا أخَّر هذا الفضل إلى آخر الأزمان، ولم يبيِّنْ لأهل الصدر الأول مع كونهم أفضل، وهو أن الله تعالى علم ضعفَ أهل هذا الزمان فتفضَّل عليهم بهذا الأجر الجزيل، في مقابلة هذا العمل القليل: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الانبياء: الآية 23] سبحانه ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: الآية 4] اهـ بمعناه.

[تنبيه] في قوله «حق قدْرِه ومقداره العظيم» إشعارٌ بما تقدَّم أنه يلاحظ المصلي عليه ﷺ، من أنه إنَّما طلبَ الصلاة من الله تعالى على نبيِّه ﷺ لعِلْمِه بعجْزه عن استيفاء ما يجبُ له ﷺ في ذلك، إذ لا يعلمُه حقيقةً غيرُ ربِّه جلَّ وعلا حسبما يفيده تعليمُه لنا ﷺ كيف نصلّي عليه، وهذا أحدُ أوجه التربية المندرجة في هذه الصلاة، فهي لمن تأمَّلها بعين بصيرةٍ ذكرٌ للربِّ الجليل الأكرم، وصلاةٌ على حبيبه الأعظم، ومدحٌ لجنابه الأعزِّ الأفخم، وتربيةٌ وإرشاد للطريق الواضح الأقوم، فقرَّ عيناً بما مَنَحك فيها مولاك، واسْأله مع الأنفاس واللحظات أن يتولّى عنك بفضله وكرمه أداء الشكر على ما أولاك. اللهمَّ لك الحمدُ يا مولانا، لا نحصي ثناءً عليكَ ولا يوافي نعمك ويكافي مزيدَكَ إلا ما كان منك إليك[1].

وأما معنى الركن الثالث وهو الكلمةُ المشرَّفة، فلا بدّ أن نختمَ بما تيسَّر من الكلام فيه القول في معاني هذه الأركان، رجاءَ أن يختم الله لنا بها ويبهجُ بأنوارِها وجُوهنا في

---

(1) انظر حديث «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».
رواه مسلم في (الصلاة: 222)، وأبو داود في (الصلاة: 148)، والترمذي في (الدعوات: 75)، وابن ماجه في (الدعاء: 3)، عن عائشة رضي الله عنها.

عَرَصات[1] القيامة وحظائرِ الجنان، مع جميع الأحباب والعشائر والإخوان؛ فإنّه المتفضّل المنان الواسع الجود والإحسان، فنقولُ، وعلى الله قصد السبيل، وهو المستعان:

قد علمتَ ممّا تقدَّم أن من الشروطِ الكمالية الغوالي التي تتعلّق بها أهلُ الهمم العوالي التدبير لمعنى الذكْرِ بقدْرِ الإمكان، إذ بذلك تُجتنى الثمرةُ المقصودةُ في هذا الميدان، ويتأكّد الأمرُ في هذه الكلمة الشريفة بخصوصها أكثر. أما في حقِّ الخاصَّة وهم السالكون الصادقون المصدِّقون فلأن ثمرتها المقصودة منها في هذا البساط هو التحلي والتخلي، وأما في حق العامة فلما نصَّ عليه العلماء من أن من لم يفهمْ معناها لا ينتفع بها في الإنقاذ من الخلود في النار اهـ. وذلك، أعني فهم معناها، متوقِّفٌ على فهم معنى ألفاظ الذكر، ورسوخه في الذهن وجعله نصبَ عينِ الفكر، ولا بد في ذلك من التعليم وأخذه عن أهليه من طريق المذاكرة والتفهيم، والاستعانة في ذلك بهمَّةِ الشيخ المُلْقَى إليه قيادُ التسليم[2]، مع اللجأ في ذلك، والاضطرار فيه إلى فضل المولى الكريم، البر الرؤوف الرحيم.

فأما تفسير معنى هذه الكلمة فلنا فيه مسلكان:

المسلك الأولُ هو الذي عليه أهل السنة من محققي المتكلمين ﷺ. وحاصلُ معناها عندنا على هذا المسلك إثبات الألوهية واستحقاق العبودية لمولانا عزَّ وجل، ونفي ذلك عمن سواه تبارك وتعالى؛ فإذا قال العبد: «لا إلَه إلا الله» فقد نفى الألوهية واستحقاق العبودية عن غير الله تعالى، وأثبتها له وحدَه جلَّ وعلا، فكأنه قال: لا مسْتحِقّ للعبودية له موجوداً وفي الوجود إلا الله الفرد، الذي هو خالق العالم تبارك وتعالى؛ ويلاحِظُ الذاكرُ بعد رسوخ هذا المعنى في ذهنه أن الإلَه الحقّ المستحقُّ لأن يعبَدَ دونَ غيرِه لا يكون إلاَّ مستغنياً عن كلِّ ما سواه، مفتقراً إليه كلّ ما عداه، ومن كان كذلك لا يكونُ إلا متَّصفاً بالكمال منزَّهاً عن النقص ولا إشكال حسبما يعطيه النظر الصحيح. ومن هنا تندرجُ جميعُ العقائد السنية في الكلمة المشرفة على ما هو مبسوطٌ في محله من كتب أصول الدين، فالمرادُ من هذا التفسير إبطالُ الشرك الجلي لا غير، ويتمكَّن الذاكر من ملاحظة ذلك بالتفسير الأول الذي هو نفي الألوهية واستحقاق العبودية عن غير الله تعالى، وإثبات ذلك له وحده جلَّ وعلا، وإن قدرَ مع ذلك على ملاحظة الكمالات المفصلة المندرجة في الكلمة المشرفة فهو الكمال.

---

(1) العَرَصات: الساحات.

(2) الكلام كناية عن الطاعة والولاء.

(المسلك الثاني) مسلك العارفين ﷺ، ومما ذكروه ﷺ في تفسير هذه الكلمة ما ذكره في «منهاج الخلاص» ونصّه: قال في «مفتاح الفلاح»: ذكر العارفون في تفسير «لا إلَه إلاّ الله» وجوهاً: أحدُها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا إلَه إلا الله معناها: لا نافِعَ ولا ضارَّ ولا معزَّ ولا مذِلَّ ولا معطي ولا مانع إلا الله. ثانيها: لا إلَه يُرْجى ثوابُه، ويخاف عقابُه، ويؤمَنُ جَوْره، ويؤكل رزقُه، وينزلُ أمرُه، ويسألُ عفوُه، ولا يحرم فضله إلا الله. قال: وأيضاً لا إلَه إلاّ الله إشارةٌ إلى المعرفة والتوحيد، بلسان الحمد والتحميد للملك الحميد، إذا قال العبد «لا إلَه إلاّ الله»؛ فمعناه الآلاءُ والنعماء[1]، والتعالي والبقاء، والعظمة والسناء، والعزُّ والثناء، والسخط والرضاء، الله الذي هو رب العالمين، وخالق الأولين والآخرين، وديان يوم الدين اهـ.

والحاصلُ أن المتكلِّم يعتقد في الكلمة الطيبة أنها سِيقَتْ لإثبات الألوهية واستحقاق العبودية لله تعالى، ولنفي ذلك عن كلٍّ ما سواه سبحانه ويعتقد الكمالات المفصّلة المندرجة فيها بحسب ما أداه إليه النظر والاستدلال. وأما العارفُ فهو مع اعتقاده ما مرَّ فيها ومع اعتقاده تلك الكمالات المفصلة أيضاً يزيدُ على ذلك، بأن يستنشق ذلك في الكلمة الطيبة عندما يذكرها، ويجعل ذلك معناها الأصلي، لا أنه يعتقده من خارج، بما يؤدي إليه الاستدلال كالمتكلم ثم يوسع الدائرة، أعني العارف، لما خصَّ به من سعة النظر وانشراح الصدر ومزيد الحضور واليقظة، فإذا قال: «لا إلَه إلا الله» فهو يقول: لا مستحق للعبادة، ولا خالق ولا رازق، ولا نافع ولا ضار، ولا مثيب ولا معاقب، ولا معين ولا هادي إلا الله تعالى، وبذلك يحصلُ له التوحيد المطلق ويذهب عنه الشركُ الخفيُّ والجلي لأنه يثبت بها أن المستحق للعبادة هو الله تعالى لا غير، وأنه لا نافع ولا ضار ولا رازق ولا معين ولا ناصر غير الله تعالى، لأنه يتحقق أن ما يبرزُ من نفع أو ضر في الأكوان كالعطاء والنصرة، والإعانة من الناس، والري من الماء، والشبع من الطعام، والتوقي باللباس، وسائر أنواع المنافع الموجودة في الظاهر من الأكوان، وكل ما يقابلُ ذلك من المضارِّ والآلام، جميع ذلك من الله تعالى، وإنما تلك الأشياء الموجودة منها ذلك ظروفٌ وأسباب عادية يبرز الله تعالى ما شاء من ذلك عندها لا بها، إلى آخر ما قرَّروه في هذا البساط، وحرروه في هذا المناط[2].

---

(1) آلاء الله: أنعامه.

(2) المناط: من الفعل (ناط) بمعنى: علَّق.

وإذ قد لاحَ لك مما أومأنا إليه في المسلكَيْن من تفسير الكلمة الطيبة عند أهل الحقِّ، من علماء السنة والعارفين، ما يشيرُ إلى معناها فلا يصعبُ عليك ملاحظته حالَ الذكر بحول الله تعالى؛ ثم إن عَسُر عليك الجمعُ بين ملاحظة معنى المسلكين معاً فاقتصِرْ على أيِّهما رسَخَ في ذهنك، إذ كل منهما بالمداومة على العمل عليه يوصلُ إلى الآخر بلا شك، وإنَّما أومأتُ لك في المسلكين إلى طريق كل من الفريقين لتحرصَ بعد العلم بأن الجميع على هدى من ربِّهم، على أن تحصل الكمالات التوحيدية عندك حصول تصديق وعلم وفق ما هو حال المتكلمين، ثم تحصل عندك حصول ذَوْقٍ وحالٍ كما هو حالُ العارفين، وهذا الثاني ثمرةُ الأول، لقول أهل الطريق: العلم مقدِّمة نتيجتها الحالُ، والحالُ مقدِّمة نتيجتها العمل، والكلامُ في هذا المقام واسعُ الذيلِ[1] وغرضُنا الإيماءُ إلى معنى هذه الكلمة الطيبة، ويكفي المريدَ أن يتعلَّق من ذلك بهذا القدر ليستحضرَ منه ما قدِرَ عليه حالَ الذكر، ومن كان ذا مَلكةٍ وقابلية فقد فتَحْنا له الباب وهو بملكته إن وفَّقه الله تعالى يرفَع عن وجوهِ مخبئاته الجلبابَ، ويصلُ أسانيدَ الأخبار ولا يكون له مع غيرِ الغاية قرار، والله يسلكُ بنا مسالكَ من سبقتْ له من ربه الغاية، ويعرف الحق حق صراحةٍ لا كناية، ويأخذ بأيدينا جميعاً أخْذَ الحنان والعطف، ويلحقنا في الأحوال كلِّها أردية الستر والعفو واللطف، بمنِّه وكرمه آمين.

ثم قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

(ولتقرأن آخر اليقطين — من بعد كل مائة في الحين)

آخر سورة اليقطين هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: 180 - 182] وأشار بهذا إلى ما عليه عملُ بعض الأصحاب وهو ختمُ كل مائةٍ من المئين الثلاثة بالآية الكريمة، وهذا على طريق الندْبِ والكمال وليس بلازمٍ، وإن كان عليه أهلُ الصحراء الشرقية، فليس عليه فاس وما والاها، وغاية الأمر فيه أنه عندنا بمنزلة المقاصد، فكما أن المقاصدَ فيها ما تقدَّم من الاستشعار، فكذلك هذا فيه استشعار إقرارٍ بفضل الله تعالى وإنعامه عليه حيث ارتضاه لهذا العمل، ووفَّقه إليه وأعانَه على الإتيان به، ولا يخفى ما فيه وخصوصاً في هذه الطريق التي هي طريقُ شكر كما علم ذلك. ثم قال رحمه الله:

---

(1) واسع الذيل: كناية عن طوله، وأنه يحتمل الكثير من الإسهاب والشرح.

(وابنِ علَى اليَقينِ إن شَكَكتَ | واستَغفِرن مائَةً إن كَمَلتَ
بِنيَّةِ الجَبرِ لِذلكَ الخَللْ | ويَجبرُ الحضُورَ مِنْ كلِّ عَملْ
في الكَونِ مِن جَوهَرةِ الكَمالِ | ثَلاثَ مَرَّاتٍ لِكُلِّ تالِ
ومَن يَنكُسْ فيهِ سَهواً جَبَرا | كَمَن يَزِدْ سَهواً وإلا خَسِرا)

المراد بـ(الشك) هنا: الشكُّ الحاصل في بعض الأعداد كأن يشكَّ في عددِ استغفار مثلاً هل كمل المائة أو بقي له واحدة أو اثنتان أو نحو ذلك وقوله: **(إن كملتْ)** أي فرغتَ من ذكر الأركان الثلاثة. وقوله: **(بنية الجبر)** يتعلّق باستغفرن، والمراد بـ**(الخلل)**: الشك المذكور و**(الحضور)** معروف. والمراد: ما يجبره إن أخلَّ به، وقوله: **(من كلِّ عمل)** العمل هنا يشمل الذكر وغيره كالصلاة فريضة أو نافلة، وقوله: **(في الكون)** نعت لعمل: أي من كل عمل واقع في الكون، و**(الكون)** الوجود، و**(ثلاث مرات)** هو فاعل يجبر، ومفعوله الحضور، والمراد بـ**(التالي)** التابع، والمراد لكل تابع لطريق الشيخ ﷺ، فلا يدخل هنا غيره، لأن البساط بساطُ اختصاص، وهو مختصٌّ بالخواص فافهم.

وأشار في هذه الأبيات إلى أربع مسائل:

(الأولى) مسألةُ من شكَّ في بعض الأعداد هل استوفاه أم لا؟ فأخبرَ ﷺ تعالى أن عليه أن يبني على اليقين، ثم يستغفرُ الله تعالى يعني بصيغة الوِرْدِ مائة مرَّةٍ بنية الجبْرِ لذلك وذلك بعد أن يكمل الورد، يعني المئين الثلاث برمتها.

(المسألة الثانية) مسألة من ترَكَ الحضور في الورد أو غيرِه من أعمال الطاعات فرضاً كانت أو نفلاً، فأخبرَ ﷺ تعالى أن عليه أن يذكر بعده أي بأثره «جوهرة الكمال» ثلاث مرَّات بنية الجبْرِ، لما أخلَّ به من استعمال الحضور الذي هو روحُ الأعمال كلها، يعني ويكون ذكر الجوهرة بالحضور: أي يستعملُ فيه ما يقدِرُ عليه من الحضور، هكذا بلغنا عن الشيخ ﷺ، وهذا الأمرُ الذي هو جبرُ الحضور بالجوهرة خاصٌّ بأهلِ هذه الطريق، إذ لا يوجدُ الإذنُ في الجوهرة من غيرها وهو معنى قوله: «الكلِّ تالٍ» حسبما سبق.

(المسألة الثالثة) من ينكس في الأركان سهواً، بأن يقدم الصلاة على النبيّ ﷺ مثلاً، فأخبرَ أنه يجبر ذلك، يعني بأن يلغي ما أتى به من الصلاة على النبيّ ﷺ مثلاً، ثم يأتي بالاستغفار، ثم بالصلاة عليه ﷺ، ثم يكمل ويستغفرُ الله مائة مرَّة بعد أن يكمل بصيغةِ الوِرْدِ بقية الجبْرِ لذلك، كما مرَّ في المسألة الأولى، فإن كان نكس عمداً لا سهواً فقد أبْطَلَ عليه الورد.

(المسألة الرابعة) مسألة من يزيدُ في الورد شيئاً بأن يزيد في بعض الأركان أو كلّها على المائة، فأخبرَ أن عليه أن يجبرَ الخللَ الواقعَ بالزيادة إن كانت سهواً، بأن يأتي بمائة من الاستغفار كما تقدَّم بنية الجبْرِ لذلك، فإنْ كانت الزيادة عمداً فقد بطلَ عليه الوردُ، فقوله: (كمن يزدْ سهواً) مشبه في الحكم بمنِ ينكس سهواً، يعني فإن كل واحدٍ منهما يجبر خللَه بما ذكر، وقوله: (وإلا خسرا) راجع إليهما معاً فألف «خسرا» ألف تثنية لا أنها لإطلاق القافية فافهم، ولعدم فهْمِ بعض النساخ المسائل المشار إليها في هذه الأبيات تصرّف فيها فحرَّفها عن قصدِ الناظم، والله أعلم.

ثم لما أكملَ الكلام فيما قصدَه مما يتعلَّق بالوردِ، وكانت الوظيفةُ من لوازم الورْدِ أتبعَ ذلك بالكلام فيما يتعلَّق بها، فقال:

* * *

وقت الوظيفة

أي هذا مبحث وقت الوظيفة، وتقدَّم معنى الوظيفة وسيأتي قريباً بيان حقيقتها عندنا، قال رحمه الله تعالى:

(ومرَّةً يلزمُ فعلُها المُريدْ ... من بين ليلٍ ونهارٍ لا تزيدْ
ومن يخصُّ ليلَه بغيرِ ما ... ليومِه فذاك للحسنِ انتمى)

ألفاظ البيتين واضحة، وقوله: (ومن يخص ليله بغير ما. ليومه) إلخ. أرادَ ومن يخص قراءتها باللَّيل دون النَّهار فهو حسَنٌ، ولا تخلو عبارتُه في هذا البيت عن قلقٍ كما ترى، وأشار بهذا إلى أن الوظيفة المعلومة موقتة أيضاً كالورد، ووقْتها أن تذكر مرَّتين مرة في النهارِ ومرَّة في اللَّيل، فإن خصَّ بها أحدُ الوقتين أجزأه ذلك عن الإتيان بها في الوقتين معاً، ثم إن خصَّ اللَّيل بقراءتها حيث اقتصرَ على مرةٍ واحدةٍ فهو حسن، لاستمرار عمل الشيخ رضي الله عنه عليه آخر عمرِه، ولا يزالُ العملُ على ذلك بفاس وما بإزائها إلى الآن. ثم قال رحمه الله تعالى:

(ولازمٌ قضاؤُها مثلَ الذي ... سبق في الوِرْدِ وغيرَ ذا انبذِ)

أشار بهذا إلى أن الوظيفة لازمٌ قضاؤها على من فاتته ولو مرَّةً من الدَّهر أبداً مثل الذي سبق في الورد، وأن ما يوجد في بعض نسخ «الجواهر» وبعض الإجازات من عدمِ لزوم قضائها ينبذُ ويطرَحُ لعدم استقرارِ عمل الشيخ رضي الله عنه عمل أصحابه عليه، هذا معنى كلامه، ولا شك أن أمر الوظيفة كان في أولِ الأمر خفيفاً، ثم أكِّد على عهْدِ الشيخ رضي الله عنه فمن أجلِ ذلك أصلحَ مؤلفُ «جواهر المعاني» هذا المحلَّ من النسخة التي كانت لا زالت بيدِه، وزادَ فيها ما هو صريحٌ في لزوم القضاءِ في الوظيفة كالورد، وهذا الذي اعتمدَه النَّاظم رحمه الله تعالى ومع هذا لم يزلْ بعضُ من أدركناه من خاصَّة أصحابِ سيدنا رضي الله عنه يصرِّح بأن أمرَها أخف من الورْدِ، وأن التأكيد لأمرِها إنَّما هو للترغيب في تحصيل فضلها العظيم الذي لا يكاد يحصر، والله أعلم، ثم قال:

(ومـا تـقـدَّم لـنـا فـي الـجَـبـرِ في ذِي الـوظـيـفـةِ كذاكَ يَـجـرِي)

أشار بهذا إلى أن الخللَ في هذه الوظيفة ينجبرُ بما ينجبرُ به الخلل في الورد، وهذا إنَّما يظهر في المنفرد، وأما من ذكرَ مع الجماعة فإن إمامه يحملُ عنه كما في الصلاة، والله أعلم، ثم قال رحمه الله:

(ومَـنْ يَـفـتْـه بـعـضَـهـا ويـأتـي يـفـعـلْ كـمـا يَـفـعـلَ فـي الـصَّـلاةِ)

أراد بهذا أن المسبوق يذكر الوظيفة بحسب أعداد الذكر من حيث أدرك، فإذا كمل الجماعة قضى ما عليه: أي ما سبق به من الأعداد حتى ينتهي إلى حيث ابتدأ معهم: أي حيث أدركهم ففعلُ المسبوقِ هنا كلُّه قضاء لا بناءَ فيه، لأنها أقوالٌ كلُّها، وهذا معنى قوله: **(يفعل كما يفعل في الصلاة)**، رأينا بعضَ الإخوان إذا سبقوا يفتتحون الوظيفة من أولها، ثم يستمرُّون على ذكر ما فاتهم مسرعين فيه إلى أن يلحقُوا بمن سبَقَهم ولم نذْرِ من أين لهم ذلك، وعلى فرض وجود المستند فيه فلا يخفى ما فيه من التشويش والشغل المتكلَّف المنافي للحضور، والله المستعان، ثم قال ﷺ تعالى:

* * *

بقية شروطها الزائدة على ما تقدم

أي هذا مبحث ذكر شروطِ الوظيفة الزائدة على ما اشتركت فيه مع الورد، فقال رحمه الله تعالى:

(مِن ذلِكَ الجُلوسُ والجمع لِمَنْ | كانَ لَهُ أَخٌ صحيحٌ في الوَطَنْ
وشَرطُه التَّحليقُ والجَهرُ كذا | عَدمُ تخليطٍ فَراعِ المأخذا)

أشار بهذا إلى أن من شروط الوظيفة (الجلوس) إلا لعذرٍ كالمسافر الجادّ في السير راجلاً أو راكباً، إلا أنه يترجَّل عند ذكر «جوهرة الكمال» كما سيأتي قريباً. ومن شروطها أيضاً (الجمعُ) لقراءتها مع الإخوان إن كان ثم إخوان ليس لهم عذرٌ يمنعُهم من الاجتماع من مرضٍ ونحوه، ثم إن هذا الجمع للوظيفة له شروطٌ (التحليق)، وليس المراد عقد دائرةٍ كالحلقة، بل المراد التراصُّ وسدّ الفُرجِ سواء كان جلوسُهم على هيئةِ الدائرة أو على أن يقابِلَ كلُّ صفٍّ الصفَّ الذي قبالته من الجهات الأربع كما عليه عملُ فاس وغيرِها من الحواضر. ومن آداب المريد في هذا التحقيق أن لا يقصدَ بجلوسِه أعلى المجلس ولا أسفلَه لما في ذلك من رؤية النفس حسبما هو ظاهرٌ في قصد الأعلى ولا إشكال، وأما قصدُ الأسفل فقد يكونُ من دسائس النفس حيث تظهرُ أنها اختارت الأدنى، وهو أعلى في الحقيقة من حيثية أخرى كما لا يخفى، لأنها تثبتُ بلسان حالها لنفسها مزية بقصدها الأسفل.

وبالجملة فحبُّ العلوِّ ظاهرٌ في القصدين معاً إلا أنه في الأول جليٌّ وفي الثاني خفي، ولهذا تلا سيدنا رضي الله عنه بعد نهيه عن القصدين معاً قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القَصَص: الآية 83] الآية، فقيل له رضي الله عنه: أهذا علوٌّ؟ قال رضي الله عنه: وأيُّ علوٍّ؟ وقد تقدَّم لنا مزيدُ بسط في هذا الأدب في المقدمة، فليراجعه هنالك من أرادَه.

ومن شروطِ الجمْعِ للوظيفة أيضاً (الجهرُ)، فلا معنى للاجتماع وذكر كلٍّ واحدٍ على حدته سرًّا مثلاً، وفائدة ذلك وجَدْواه شهيرةٌ عند أهل الطريق حتى كادتْ أن تكون من

الأمر الضروري عندهم، وهذا في حقِّ الرجالِ فقط، وأما النساءُ فلا يجهرنَ بالذكر في وظيفة ولا في غيرها.

فقد ذكر العلماءُ في الجهْرِ المطلوب في حق المرأة أن تُسْمِعَ نفسَها خاصةً، وكذلك الحكم في تلبيتها في الحجِّ، ووجّهوه بأن صوتها عورةٌ، وربما كان فتنةً، ولذلك لا تؤذَنُ اتفاقاً، حكاه في شرح الحصن وقال بعده ما نصّه: وعلى هذا فلا يكونُ ذكرُها إلا سرًّا في الأحزابِ المرتبة والوظائف وغيرِ ذلك اهـ راجع «شرح الحصن».

ومن شروط ذلك أيضاً **(عدمُ التخليطِ في الذكر)** لما في ذلك من سوء الأدب المنافي لما هو المطلوبُ في المقام والكلام في هذه الشروط مبسوط في كتب الطريق، وقوله: **(فراعِ المآخذا)**: أراد به فاحكم هذه الشروط مراعياً في أحكامك لها مآخِذَها، وهي الأحاديث الواردةُ بالترغيب في الجهر بالذكر جماعةً، فإنَّك بمراعاتها تعرفُ أنه لا بد من جميع الشروط المذكورة، وذلك لأن أحاديث الترغيب في الجمع للذكر يؤخَذُ منها أنه لا بدَّ من الجهر وإلا فلا فائدة في الجمع، ويؤخَذُ من الجمع والذكر جهراً أنه لا بدَّ من ذكرهم بلسان واحد وصيغة واحدة، وإلا بأن كانوا يجتمعونَ ويجهرون بالذكرِ والفرض أن كلّ واحدٍ يذكرُ وحدَه، فذلك يؤدي إلى التخليط الفادحِ وتشويشِ البعض على البعض، وذلك منافٍ لنعْتِ العبادة، وأعمالِ الطَّاعات فافهم.

(تنبيه) اعلمْ أني كثيراً ما كنتُ أرى النَّاظم ﷺ تعالى يعيبُ على من يكملِ البيت من النظم بلفظٍ أو لفظين لا فائدة تحتهما إلا التوصُّل إلى القافية، ويعد ذلك فهاهة[1]، فلذلك تجدني أتتبَّعُ شرْحَ مثل ذلك من كلامه نحو قوله هنا: «فراع المأخذا»، فإنه قصَدَ به الإشارة إلى ما شرحناهُ به، لا أنه كمل به البيت فقط، فتأمل ذلك، ثم قال ﷺ تعالى:

(وتـركُـه لـغـيـرِ عـذرٍ شـرعـي أوْ كـلَّ الأوْقـاتِ لَـهُ ذَو مـنـعِ)

أرادَ بهذا أن ترْكَ الجمْعِ للوظيفة لغير عذرٍ شرعي يعرض في الوقت، وكذلك تركُها كل الأوقاتِ للعذر الشرعي ممنوعٌ عندنا في الطريق، بمعنى أن فاعلَ ذلك ترك ما هو لازم له لزوماً مؤكداً في الطريق، فيُعدّ متهاوناً بها، ولا يخفى وخامةُ مرْتع التهاونِ، والعياذ بالله تعالى. ثم إن قوله: **(أو كل الأوقات له)** أي للعذر الشرعي فيه وقفة، لأنه كما يعذر بحصولِ العذر الشرعي في بعض الأوقات يعذرُ في كلِّها إذا استمرَّ عارضُ العذر الشرعي

---

(1) الفهاهة: العِيُّ، وفعله: فَهَّ يَفَهُّ فَهَهاً وفهاهةً، عَيِيَ، وزلَّ من عي أو غيره.

لا يستطاع معه الفعل، ووجهُ المخرج من هذه الوقفة هو أن النَّاظم ﷺ تعالى عقد في هذا البيت نص «جواهر المعاني»، وما في «الجواهر» خرج مخرج الترغيب وتأكيده في الخير، فبنى الكلام فيه على الغالب مع قطع النظر عن النادر، حتى كأنه لا وجودَ له كما هو الشأن في مثل ذلك، وبيانه أنه قلَّما يكون عذرٌ يغرضُ سائرَ الأوقات، إذ الغالبُ أن الأعذارَ لا تعمُّ الأوقاتِ كلّها، فإن وجد فهو نادرٌ، والنادرُ لا يعتبر في مثل هذا المقام، والله أعلم وأحكم، ثم قال ﷺ تعالى:

(ونَشـرنـا لـلـثّـوبِ لَـيـسَ يَـجـبُ ... عَـلـى الَّـذِي يَـذكُـرهـا بَـلْ يَـنـدبُ
وشَـيـخُـنـا فَـعـلَ ذَا بـمَـحـضَـرِهْ ... فَـرْغ مَـقـالـة جَـهـولٍ مُـنـكِـره)

قوله: **(للثوب)** أي للفراش المحقق الطهارة، وإن كانت البقعةُ طاهرةً حكماً، وقوله: **(ليس يجب)** أي ليس يلزم عندنا بحيث لا يسوغ لنا أن نقرأ جوهرة الكمال إلا إذا نشرناه وإن كان المحلُّ طاهراً حكماً، بل الحكم فيه الاستحبابُ كما صرَّح، والضميرُ في **(يذكرها)** للوظيفة؛ ويريد عند قراءة جوهرة الكمال لا كل الوظيفة، وقوله: **(بل يندب)** أي ينبغي للذاكر لجوهرة الكمال نشره مبالغة في تحقيق الطهارة، رعياً للأدب المطلوب في هذا المقام بالخصوص للخاصيَّة الشهيرة في هذه الصلاة الشريفة على ما سيبين؛ وباقي ألفاظ البيتين واضحٌ، وأشارَ بهذا إلى أن ما استمرَّ عليه عملُ أصحاب سيدنا الشيخ ﷺ من نشر ثوب محقق الطهارة عند قراءة جوهرة الكمال في الوظيفة من عهْدِ الشيخ ﷺ إلى الآن ليس بلازمٍ في الطريق، بحيث لا يسوغ ذكرُها إلا معه، وإن كان المحلُّ طاهراً حكماً، لكنه مما ينبغي ويستحبُّ، لمكان الخاصية التي اختصَّتْ بها هذه الصلاة الشريفة عن غيرها من الأذكار، وهي حضورُ النبيّ ﷺ، والخلفاء الأربعة على ما سيوصف قريباً إن شاء الله تعالى لا غير.

والأصلُ فيه عندنا خصوصاً على ما حدَّثني به السيد الجليل الحاج الأبرّ الفاضل الناسك سيدي عبد الوهاب بن التاودي، أحدُ خاصةِ أصحابِ سيدنا ﷺ، وخزانة أسراره، وورثة أنواره، قدَّس الله سرَّه وأعاد علينا من بركاتِه وهو أنهم كانوا يقرُّون الوظيفة في أولِ الأمر قبل إنشاء الزاوية بفاس بباب دار الشيخ ﷺ، وهو حاضرٌ معهم ﷺ، وكانت البقعةُ طاهرةً حكماً يصلي ﷺ بها مع جماعةٍ من أصحابه، لكن حيث كان المحلُّ محلَّ توارُدِ الناسِ عليه للزيارة وممرّ الداخل للدار والخارج منها أمرَ ﷺ بنَشْر ثوبٍ يعمُّ البقعة كلّها، أعني وسَطَ الحلقة، ويكون محقق الطهارة غيرَ مكتفًى فيه بالطهارة الحكمية بحيث لا ينشَرُ إلا عند قراءة الأصحاب لجوهرة الكمال، ثم يُطوى ويُصان إلى مثل ذلك

الوقت، ثم بعد نَشْءِ الزاوية استمرَّ الإخوان على ذلك العمل بمرأى ومسمع من الشيخ ﷺ، لاستحسانهم له لما فيه من الأدب الخاصِّ مع هذا الحضور الخاص، ولأنه مشعِرٌ به ومُعين على الحضور والتأدب الواجب فيه، ثم تتابَعَ الناسُ في سائر أقطاب الأرضِ على هذا العمل، إلا النادرَ منهم ممن لم يتبينْ وجهه، ومن أجل هذا تعسَّف[1] بعضُ من ينتسبُ للعلم في البحث فيه، وأفرغَ ذلك في قوالب من الألفاظ بشيعة تنادي عليه عند كلِّ مؤمن منصف بالفضيحة الفظيعة، وتَسِمُه بكلِّ ذميمة شنيعةٍ، لأن كلَّ مؤمن منصفٍ بمجرَّد ما يسمعُ ذلك المقال يعلم تحقيقاً أنه مقالٌ من قطع الحسدُ منه الأحشاءَ والأوصال، والحسودُ لا يسود أبداً، ولا يموتُ من كثرة الغمِّ الداخل عليه إلا كَمداً، والعياذُ بالله تعالى منه ومن كلِّ داءٍ عُضال، يعود على من ابتُلي به بوَخَامة الحالِ وسوء المآل. هذا وقد عرف ما قاله العلماء حسبما في «عدة الحصن الحصين» وشرحه، من أنه ينبغي أن يكون المكانُ الذي يذكر الله فيه نظيفاً خالياً، قالوا: فإنه أعظمُ في احترام الذكر والمذكور، ولهذا مُدِح الذكر في المساجد والمواضع الشريفة ولا معنى للنظافة إلا المبالغة في التطهير وتحصيل القدر الزائد على الطهارة الحكمية كما لا يخفى.

قال في «شرح الحصن»: وجاءَ عن الإمام الجليل أبي مَيْسَرة ﷺ قال: لا يُذكَر الله تعالى إلا في مكان طيب اهـ. ونُقل عن صاحب «تهذيب الأذكار»: ينبغي تطييبُ المجلس بالرائحة الطيبة لأجل الملائكة والجنِّ، وقطعِ العلائق المشوشة إلخ. يشيرُ إلى معنى قولهم «خالياً»، إذ الذي ينبغي أن يراد هنا من معاني الخلوة عندهم البعدُ عما يشوِّشُ البالَ ويشتِّت الفكر، والله أعلم.

فأنت ترى ما قاله العلماءُ ﷺ في آداب الذكر على الإطلاق، فكيف ينكرُ على من أكَّد هذه الآداب أو بعضها في ذكر مشتملٍ على ذكر الله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته العلى؟ وذكر الحبيب الأعظم ﷺ، ومدْحِه والثَّناءِ عليه ببعض أوصافه الكمالية، ونُعُوته الجمالية والجلالية، وخصوصاً مع وجود الخاصية العظمى فيه كما مرّ، وسيأتي أيضاً، وهل لنَشْر الثوب المذكور معنًى إلا المبالغة في النظافة التي نصَّ العلماء على أنها مستحبَّةٌ، وأنها أعظم في احترامِ الذِّكْر والمذكور. وهل المتعسِّف بالبحث في ذلك بعدما تقرَّر عن العلماء فيه من الاستحباب إلا من أكبر الجهلة الأغمار[2]، وممن سجّل عليه بالشقاء لمحاربته مولاه جلَّ وعلا بمعاداة أوليائه الأبرار.

---

(1) تعسَّف: سار على غير هدًى.

(2) الأغمار: جمع الغِمْر، وهو قليل التجربة والخبرة.

(تنبيه) قد وَقَع لصاحب «الجيش الكبير» في كتابه هذا وكذا في سريته، أن الشيخ ﷺ لم ينشر الثوبَ في قيد حياته، وأنه مما استحسن فعله أصحابه ﷺ بعد وفاته، وذلك لأنه لم يحفظْ ما تقدَّم مما ثبتَ عن الشيخ ﷺ، ولم يُغْنِه الأمرُ على ما هو عليه في ذلك، لبعد ما بين بلده وبلد الشيخ ﷺ، ولذلك احتاج النَّاظم إلى التنصيص على ذلك بعينه في قوله: (**وشيخنا فعل ذا بمحضره**)، فافهم والله تعالى أعلم، ثم قال ﷺ تعالى:

* * *

فضلها

أي هذا مبحثُ فضل الوظيفة جملةً: أي وفضل الجوهرة التي هي معظم أركانها، قال رحمه الله:

(تَكْفيرُها ما بَينَ وقتيها اشتَهر ... عَنْ شَيخِنا غيثِ البرا، غَوْثِ البَشَرْ)

قوله: **(غيث البرا)** أراد غيثَ البرايا فرخَّمه للوزن[1]، وأشار بهذا البيت إلى ما اشتُهر وتواتر عن شيخنا ﷺ، من أن الوظيفة تكفِّر عن صاحبها جميعَ ما ارتكبه يومَه بل صرَّح ﷺ بأنه تحصُلُ له شفاعةٌ خاصة من النبيّ ﷺ في جميع ما ارتكبَه عامة يومه مما استحقَّ به العقوبات العظيمة في الظاهر والباطن، وأكَّد ذلك ﷺ بأنه وعَدَ به من الحضرة المصطفوية عليه أزكى الصلاة والتسليم ويؤيِّده ما ذكره الشيخ جلال الدين السيوطي ﷺ عن الإمام أحمد بن حنبل في كتاب «الزهد» عن ثابت البناني قال: إن أهلَ ذِكْرِ الله تعالى ليجلسونَ إلى ذكر الله وإن عليهم من الآثام أمثالَ الجبال، وإنهم ليقومون من ذكر الله وما عليهم شيءٌ اهـ.

ثم قال ﷺ تعالى:

(ومَن تَلا جوْهَرةَ الكَمالِ ... سَبعاً يَكونُ سيِّدَ الأَرسالِ
والخُلَفاءُ الرَّاشِدينَ الأربَعة ... ما دامَ ذاكراً لَها بَعدَ سَبعة
وذاكَ بالأرواحِ والذَّواتِ ... ولَيسَ لِلمُنكِرِ مِنْ نَجاةِ)

(تلا) قرأ، و**(جوهرة الكمال)** في مدح سيد الأرسال ﷺ، هي الصلاة المعروفة من أركان الوظيفة على ما سيتَّضح قريباً إن شاء الله تعالى، والمراد بـ**(الذوات)** الصور التي تظهرُ فيها الأرواح في الدنيا، كما هو معلومٌ من تطور الأولياء، أو في البرزخ[2] كما هو الأمرُ

(1) الترخيم: حذف الحرف الأخير من الاسم المنادى، وقد يحذف حرفان ولذلك شروط لا مجال لذكرها هنا.

(2) البرزخ: ما بين الموت والبعث.

هنا، والله تعالى أعلم. وأراد رحمه الله تعالى الإخبار بما ثبت عن الشيخ رضي الله عنه حسبما هو في «جواهر المعاني» وغيره، من أن هذه الصلاة الشريفة المسماة بجوهرة الكمال التي هي أحد أركان الوظيفة إذا قرأها الواحدُ من أهل هذه الطريقة المباركة منفرداً أو في جماعة كما هو الشأن في الوظيفة بسبعَ مرات يحضره النبيّ ﷺ ويستمرُّ حضورُه معه هو والخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ما دام يذكرُها إلى أن يفرغَ منها، وهي كما عرفته تقرأ اثنتي عشرة مرَّةً في الوظيفة، فيكون حضورُه ﷺ هو وأصحابه الأربعة رضي الله عنهم من السابعة إلى ختم الوظيفة بلا شك.

وقد حدَّثني بعضُ العلماء الأفاضل رحمه الله تعالى أنه ذكر لشيخنا رضي الله عنه استمرار حضورِه ﷺ من السابعة إلى أن يفرغَ، وكأنه، أعني هذا العالم، يتثبَّت في حقيقة هذا الأمر، قال: فقال لي رضي الله عنه مؤكداً قوله بالقسم: والله لو أنك دُمْتَ على ذكرها طولَ عمرِكَ من غير فترةٍ ما فارقَك ﷺ في جميع مدَّةِ عمرك اهـ. وقوله: **(بالأرواح) إلخ**، في بعض الروايات عن الشيخ رضي الله عنه التصريح بأن الحضورَ المذكور هو بالأرواح فقط، ووقَع في بعضها بالأرواح والذوات، وهي التي اعتمدَها النَّاظم رحمه الله تعالى، وعلى هذا فلو كُشِفَ الحجاب عن الذاكرين أو بعضهم لشاهدوه ﷺ على صورته التي قَبَضَه الله عليها، يعني بذاته الحقيقية، وكذا الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم. وهذا كلُّه مما لا يمتارُ فيه إلا جاهلٌ أو حَسودٌ متحاملٌ، أما في النبيّ ﷺ فلما تقدَّم لنا مما حصَّله الشيخ جلال الدين السيوطي رضي الله عنه من مجموع الأحاديث والنقول التي جلبناها في هذا الكتاب، وهو أنه ﷺ حيٌّ بجسدِه وروحه، وأنه يتصرَّف ويسيرُ حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبلَ وفاته لم يتبدَّلْ منه شيءٌ إلا أنه غُيِّبَ عن الأبصار كما غُيِّبت الملائكةُ مع كونهم أحياء بأجسامهم، فإذا أراد الله تعالى رفْعَ الحجابِ عمَّن أرادَ الله كرامته برؤيته رآه على هيئته التي هو عليها لا مانع من ذلك ولا داعي إلى التخصيص برؤية المثال اهـ ما حصله الشيخ جلال الدِّين السيوطي رضي الله عنه، وهو كافٍ شافٍ لمن أنصف.

وأما في حقِّ الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم فلما صرَّح به المحققون من صحَّة سؤالِ الحاجات منه ﷺ، قالوا: إنه حيٌّ يعلم سؤالَ من سَأله، وكذلك الشهداء والأولياء. وفي جوابٍ لسيدي علي الخوّاص حسبما في «الدرر» التصريح بأن الأولياء لهم الإطلاقُ والسراح في البرزخ، فليسوا كغيرهم، ولا محالة أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم هم ساداتُ الأولياء وأئمّتهم، وخصوصاً الخلفاء المفضَّلين بالنص الصريح، رضي الله عن جميعهم ونفعنا بمحبتهم آمين. ولا يشكلُ عليك هذا الذي نقلناه في هذه المسألة بكون الحضور المذكور يكون في ساعة واحدة في الأقطار المتباعدة، فتحتاج إلى تكييف ذلك، فإن هذا من باب خرْقِ العوائد،

فلا يحتملُ التكييف قال في المواهب اللدنية: ولقد أحسنَ من سُئل كيف يرد النبيُّ ﷺ على من يسلِّم عليه في مشارقِ الأرض ومغاربها في آنٍ واحدٍ، فأنشأ يقول:

كالشَّمْسِ في وسَطِ السَّماءِ ونُورُها … يَغْشَىٰ البِلادَ مَشَارِقاً ومَغَارِبا

ثم قال، يعني صاحب «المواهب»: ولا ريبَ أن حاله ﷺ في البرزخ أفضلُ وأكملُ من حال الملائكة، وهذا سيدنا عزرائيل عليه السلام يقبضُ مائة ألف روحٍ في وقتٍ واحد لا يشغلُه قبضٌ عن قبض، وهو مع ذلك مشغولٌ بعبادة ربِّه، مقبل على التسبيح والتقديس، فنبيّنا ﷺ أولى اهـ، وغاية الأمر أن هذا الذي أشارتْ إليه هذه الأبيات هو من كرامات الأولياء الثابتة نقلاً، الجائزة عقلاً على ما عليه أهل السنة ﷺ حسبما تقدَّم، وأيضاً هو إخبارٌ بما هو جائز في قدرة الله تعالى من عدل رضًى، وعلى هذا فإنكاره إنكارٌ لكرامات الأولياء.

وقد نقل الشيخ زروق عن العقباني رحمهما الله تعالى أن التكذيبَ بكرامات الأولياء كالتكذيب بمعجزات الأنبياء، لأن كلَّ كرامة لوليٍّ فهي تصديق لنبيِّه الذي اتبعه، وهو أيضاً، أعني الإنكار لهذه الكرامات، جهلٌ بقدرة القادر جلَّ وعلا، وتعجيزٌ لها؛ وكفى بهذين الأمرين الخطيرين خسارةً وتعرضاً للشقاء، والعياذ بالله تعالى، وإليه أشار قول النَّاظم ﷺ تعالى: **(وليس للمنكر من نجاة)**، فليحذرْ ذلك المؤمنُ المشفِق على دينه ونفسه. وفي «البحر المورود»: أخذ علينا العهود أن لا نكذِّبَ الصالحين إذا أخبرونا بشيء تحيلُه عقولنا إلا إذا عارَضَ نصًّا شرعياً، وذلك أن غاية الواحد منهم أن يخبرنا عن القدرةِ الإلَهية أنها فعلتْ ممكناً لا غير، والله على كلِّ شيءٍ قدير، ثم قال النَّاظم رحمه الله:

(فمَن يكُن عَجزَ عَن تَطهيرِ ما … يَلبَسُه أو حُكمُهُ التَّيمُّما
أوْ كانَ قد عَجزَ عَن تطهيرِ … بَدنِهِ الكَثيرِ واليَسيرِ
أوْ عَن طَهارةِ مَكانٍ وَسعَه … مَع النَّبي والخُلفاءِ الأربعَه
فحُكمُ هذا جَعلُه مِنها بَدلْ … عِشرينَ مِنْ فَريدةٍ كما انْتقلْ)

أشار بهذا الذي تضمنته الأبيات الأربعة إلى ما تواترَ عن سيدنا الشيخ ﷺ، وأن من عجز عن الطهارة الكاملة شرعاً في الثواب والمكان والبدن، أو كان فرضُه التيمم فإنه يعوِّض عن جوهرة الكمال في الوظيفة عشرينَ من صلاة الفاتح لما أغلق، وقوله: **(أو عن طهارة مكان وسعه)** إلى آخر البيت. أراد به تحريرَ البقعة التي يطلب تطهيرها في حق ذاكر هذه الصلاة الشريفة، أعني جوهرة الكمال، وما صرَّح به ﷺ من ذكر النبيّ ﷺ والخلفاء

الأربعة في هذا التحديد لا نحفظُه عن الشيخ ﷺ، والمحفوظ عندنا من الرواية الثابتة عن الثقات الأثبات عنه ﷺ في هذا التحديد أن يسعَ المكان الذي تطلب طهارتُه ستةً من الناس اهـ وهو كما ترى غيرُ صريحٍ فيما ذكره، ولعلَّه تبعَ فيه فهمَ غيره من لم يحقق القضية.

والصوابُ عندي أن لو تجنَّب ﷺ تعالى هذه العبارة إذ الحضورُ الموصوف هو من باب خرْقِ العوائد، فلا يتقيَّد بالقيود الحسيّة، والحقُّ ما قدمناه من التعبير في تحديد البقعة التي يطلب تطهيرها هنا بأنها مكانٌ يسعُ ستةً من الناس، والمراد أن الذاكرَ إذا كان في مكانٍ متَّسع مثلاً وأراد قراءة الجوهرة فيه فإنه ينظرُ؛ فإن كان محلُّ جلوسه طاهراً وما اتَّصل به كذلك طاهراً بقدر ما يسعُ ستة نفرٍ على فرض جلوسهم معه، فإنه يذكرها ولا عليه فيما زاد على ذلك إن لم يكن طاهراً، وإن نقص محلُّ الطهارة عن ذلك كأن يكون الطاهرُ من البقعة بقدر ما يسعُ المصلِّي لسجوده مثلاً، فإنه يصلي به، ويذكر الوظيفة ويبدل مكان جوهرةِ الكمال عشرينَ من صلاة الفاتح لما أغلق، لأن جوهرة الكمال مشروطٌ في قراءتها طهارةُ المكان المقدَّر بما ذكر، وغير خافٍ أنه شرط أدبي في بساط خاصٍّ فافهم، فالتقديرُ بما يسع ستةً من الناس لذات البقعة التي تطلب طهارتها، لا لأجل من يحضر بها، والقصدُ من هذا القدر في البقعة التباعُد عن محلِّ النجاسة، أعني تباعد أنفاس الذاكرِ عن النجاسة. ألا ترى أن من كان في بيت صغير كالبيت المطلوب في الخلوة بحيث لا يسع إلا واحداً لسجوده فقط، والغرضُ أنه طاهرٌ له أن يذكر الجوهرة، بل هو مطالب بقراءتها في الوظيفة بلا شك، والحضور من النبيّ ﷺ والخلفاء الأربعة حاصلٌ له قطعاً، ولا يبحثُ عن الكيفية في ذلك لأنه من باب خرْقِ العادة، ولو كان التطهير المشروط لأجل جلوس من يخطرُ لما صحَّ ذلك الحضور في بيت الخلوة مثلاً الذي لا يسع إلا رجلاً واحداً، فتأمل ذلك منصِفاً، والله يتولَّى هدانا جميعاً بمنِّه، ثم قال ﷺ:

(ولْتَتْرُكَنْ هَذِي الصَّلاةَ راحِلا	لا راكِباً إذا تَكُونُ راحِلا
واشْتَرِطُوا طَهارةَ الأرضِ كَما	تَفْهَمُهُ مِنَ الَّذِي تَقَدَّما
هَذا الَّذِي لِسَيِّدِي عَلِيِّ	قُطْبِ زمانِنا التَّماسِينِيِّ)

الإشارة بـ(هذه الصلاة) إلى جوهرة الكمال، و(الراحل) المسافر، وقوله: **(كما تفهمه من الذي تقدما)** يعني في قوله: «فمن يكن عجز عن تطهير ما» إلى آخر الأبيات قبل هذه، وسيدنا علي التماسيني ﷺ تقدَّم بعض ما يتعلّق بأخباره في ترجمته، وأشار بهذا إلى

أن المسافر له أن يقرأ الوظيفة كالورد على ظهر دابته، فإذا وصل إلى جوهرة الكمال ترجَّل وذكَرها راجلاً، بشرْطِ أن تكون الأرضُ التي يطؤها طاهرةً حسبما يعرف ذلك من تأكيد الشيخ ﷺ أمر الطهارة فيها، حتى إنه تسقطُ في قراءتها عمَّن لم يمكنْه تكميلُ التطهير أو الطهارة المائية، بأنِ كانَ فرضُه التيمم على ما مرَّ، وقوله: **(هذا الذي لسيدي علي) إلخ** يعني الأمر بالترجُّل عند قراءة جوهرة الكَمال. قلتُ: وهذا الذي تلقيناه عن جماعة من أصحاب سيدنا ﷺ، فإن الذي نحفظه من مذاكرتهم ﷺ أن هذه الصلاة، أي جوهرة الكمال، لا تذكَرُ على ظهر دابة ولا على سفينة أيضاً.

وسمعت بعضَ الأصحاب يقول: يكتفى من المسافر بالترجُّل المذكور، بل يترجل ويذكرها، فإذا وصلَ السابعة جلس حتى يختم الوظيفة، وهذا عندي حسنٌ إلا لضرورة خوفٍ ونحوه، كفوات رفعة، والله تعالى أعلم. قال ﷺ تعالى:

* * *

أركانها

أي هذا مبحثُ أركان الوظيفة، بمعنى أذكارها التي ابتُنِيت منها على الترتيب، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

(أركانُها استِغفارُ ربِّ العِزَّةِ ... مائةَ مرَّةٍ بأيِّ صيغةِ
أوْ زِدْ هنا التَّعظيمَ قبلَ نَفْيِ ... سِواهُ والقَيُّومَ بعدَ الحيِّ
وإن تَرِدْ فاتِلَ ثَلاثينَ ولا ... يَزيدُ مَنْ لِذا الأخيرِ قدْ تَلا
وصَلِّ بالفاتِحِ خمسينَ ومَنْ ... لِمِثْلِها يَزِدْ فَفِعْلُهُ حَسَنْ
وهَلِّلَنْ مائةً ومَنْ يَزِدْ ... ثانِيةً فَفِعْلُهُ لا تَنْتَقِدْ
ويَعِدُ ذا جَوْهرةَ الكَمالِ ... تَقْرأُ إحدى عَشْرةً في الحالِ
وفي حياةِ شيخِنا قدْ زادُوا ... واحِدةً فَزيدُها سَدادُ)

قوله: **(بأي صيغة)** هذا التخيير هنا لا نحفظُه، والمحفوظُ عندي المائة أنها بصيغة الورد، أعني «أستغفر الله» فقط، وفي الثلاثين أنها «أستغفر الله العظيم الذي لا إلٓه إلا هو الحيّ القيوم» وهو قوله: **(وإن ترد فاتل ثلاثين)** أي وإن ترد العظيم إلخ فاتلُ ثلاثينَ ولا تزدْ عليها، وهو قوله: **(ولا. يزيد من لذا الأخير. وصلّ بالفاتح خمسين)** يعني مع الإتيان بالثلاثين فقط من الاستغفار وقوله: **(ومن لمثلها)** أي الخمسين يزد إلخ يعني مع المائة من الاستغفار لا مع الثلاثين، وقوله: **(وهللن مائة)** يعني مع الثلاثين من الاستغفار والخمسين من صلاة الفاتح، وقوله: **(ومن يزد ثانية)** أي مائة ثانية من التهليل يعني مع المائة من الاستغفار ومثلها من صلاة الفاتح، ولا يخفى مافي كلامه في هذا التفصيل من القلق المفضي إلى التخليط والحيرة، وسنذكر الثابت في ذلك عن الشيخ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقوله: **(وفي حياة شيخنا)** إلخ، أشار إلى أن زيادة هذه الواحدة تقريرٌ من الشيخ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولذلك قال: **(فزيدها سداد)** أي غيرُ خطأ.

وملخَّص ما أشار إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى على ما ثبتَ عن الشيخ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في ذلك حسبما في «جواهر المعاني» وغيره أن أركان الوظيفة التي تبنى منها: الاستغفارُ بصيغة الوردِ فقط مائة

مرة، ثم صلاة الفاتح لما أغلق مائة مرة، ثم الهيللة بصيغة الورد أيضاً مائتي مرة بالتثنية، ثم جوهرة الكمال اثنتي عشرة مرة، وهذا لم يستقرَّ عليه عملُ الأصحاب إلا في بعض بلاد الصحراء الشرقية.

فقد بلغني أن عملَهم ما زالَ عليه إلى الآن؛ والذي عليه العملُ في جُلِّ البلاد المغربية والمشرقية والأمصار الكبار هي: أستغفر الله العظيم الذي لا إلّه إلا هو الحي القيوم فقط ثلاثين مرة، ثم صلاة الفاتح خمسين مرة، ثم الهيللة مائة مرة، ثم جوهرة الكمال اثنتي عشرة مرة، ولا بد لها من استفتاح فاتحة الكتاب بعد التعوُّذ؛ وكان من حقِّ النَّاظم أن ينص عليه وكذلك الختم للهيللة بقولنا: «محمد رسول الله عليه سلام الله» مرة لا بدَّ منه أيضاً لما تقدَّم لنا في الكلام في الورد، والظاهر أن المأمور به أولاً في الوظيفة، أعني في ابتداء الأمر في الطريق، هذا الوجه الأول، ثم خُفِّف ذلك لقول سيدنا الشيخ ﷺ في بعض رسائله ما نصّه: وخففوا من وِرْدها، يعني الوظيفة إن ثقلَ عليكم واجعلوها إلى آخر ما استقرَّ عليه العمل في الوجه الثاني، فاعرف ذلك.

(تنبيه) قد علمْتَ أن صيغة الاستغفار في الطريقة الثانية في الوظيفة يقتصرُ فيها على اللفظ السابق إلى «القيوم» وليس فيها «وأتوب إليه»، وكلا اللَّفظين وردتْ به الأخبار الثابتة عنه ﷺ، ولعلَّ اختيار الشيخ ﷺ للأول لأن الاستغفار إذا أتى به العبدُ لا يكون كاذباً فيه، بخلافِ التوبةِ، فإنه إذا قال: «وأتوب إليه» وليس بتائبٍ فهو كاذبٌ بأن التوبة الرجوع والندم، وإن كان اللائقُ بالاستغفار، هو أن يكون مقروناً بالإقرارِ بالذنب، والنَّدمِ عليه، والعزْمِ على عدم العودِ؛ فمرجعُه إلى التوبة، لكن صورة الغافلِ في الإتيان به مجرداً عن ذكر التوبة ليست كصورته في الإتيان به مقروناً بها لما في الثانية من ظهور الكذب والاستهزاء، بخلاف الصورة الأولى، فإنَّما فيها طلب المغفرة، ذكره الفخر الرازي ﷺ في تفسيره، وفيه دقيقةٌ سنية كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

ثم قال ﷺ تعالى:

(تَسْبِيحُنَا مِنْ بَعْدِ كُلِّ ذِكْرِ ... بِمَا تَقَدَّمَ لِوِرْدٍ يَجْرِي)

قوله: (تسبيحنا) أي قراءتنا، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصافات: الآية 180] الآية، وقوله: (من بعد كل ذكر) يعني من الأذكار التي ابتنيت منها الوظيفة، وقوله: (بما تقدم) أي الآية الشريفة على حسب ما جرى عليه العمل في الورد، وأراد أن الذاكر للوظيفة منفرداً كان أو في جماعة يختم كلّ ذِكْر من الأذكار التي قامت منها بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ

﴿رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ [الصافات: الآية 180] الآية إلى آخر السورة، وعليه العملُ في الصحارى. وأما أهل فاس وما بإزائها، فإنهم لا يأتونَ به عقبَ الاستغفارِ ولا عقبَ الهيللة أيضاً، ووجْهُه عندَ من يفعله ما ذكرناه في اختتام أذكار الورْد به وهو استشعارُ الحمد على ما أنعم الله به عليه وأهَّلِه له من هذا التوجه الخاص الذي حظرَه على كثيرٍ، ولا شك أنه فعلٌ حسنٌ ووجه مستحسن وخصوصاً مع الحضور فيه، والله الموفق.

(تنبيه) قد علمت أن من أركان الوظيفة صلاة الفاتح لما أغلق، وأنه لا يجزي في الوظيفة غيرها من الصلوات بدلها، وعليه فتسقطُ الوظيفة عمَّن لم يحفظْها حسبما هو مصرَّح به في «جواهر المعاني»، وكان من حق الناظم أن لا يهمِلَه، وبه تعرفُ أن أمر الوظيفة أخفُّ من الورد كما مرَّ، والله تعالى أعلم. ثم قال ﷺ تعالى متمماً الكلام في الأذكار اللازمة للطريق، وهي الورد والوظيفة وذكر الهيللة بعد صلاة العصر من يوم الجمعة لا غير، والأول: أي الورد لازمٌ لذاته، بمعنى أنه لا يمكن الدخول في الطريق إلا به، والأخيران لازمان له بمعنى أنهما إنما يلزمان بالتبعية له، أعني بعد الدخول في الطريق، فلذا لما ذكر النَّاظم ﷺ تعالى ما يتعلق بالورد والوظيفة أتبعه بذكْرِ الهيللة بعد عصر يوم الجمعة فقال:

* * *

حضرة يوم الجمعة

أي هذا مبحثُ يوم الجمعة؛ وعبَّر بالحضرة لأن المطلوبَ في ذكرِ الهيللة بعد عصر يوم الجمعة أن يكونَ في جماعةٍ إلا لعذر، أو حيث لم يكنْ إخوانٌ في البلد الذي هو فيه حسبما سيظهرُ من كلام النَّاظم رحمه الله تعالى، قال:

(بَعدَ صَلاةِ عَصرِ يَوم الجُمعة	يَلزم مَنْ يَكونَ ذا الذِّكرِ مَعَهْ
هيللةٌ لمَغرِب ولا تعد	وشَرطُ الاجتِماع فِيها مُعتَمد
لِمَنْ لَهُ أخٌ وإلا فَعَلا	مُنفرِداً ومَن يَكُنْ قد شَغِلا
جازَ لهُ التَّركُ إلى قبلِ الغُروبْ	بِساعةٍ ونِصفِها يأتي الوُجوب
ومَن يَشَا الْتزم ذِكراً عَددا	أُلفاً فَصاعِداً بِلا حَصر بَدَا
وفِعلُها كحضرةِ الخَلوتي	تَحسينُه يَنمى إلى الثُّبوتِ)

أشار بهذه الأبيات إلى ما ثبتَ عن سيدنا رضي الله عنه وهو في «جواهر المعاني» وغيره من أن الآخذَ لهذا الورد الشريف يلزمه لزوماً محتماً أن يذكر بعد صلاة العصر من يوم الجمعة الكلمة الشريفة «لا إلّه إلاّ الله» وينتهي وقتُها إلى الغروب، ولا لها عددٌ ينتهي إليه الذاكر كما قال: **(ولا تعد)** وشرطُ هذا الذكر الاجتماعُ، يعني والجهرَ والتحليقَ إن كان للذاكر إخوان في البلاد، وإلا فيذكرُ وحده الهيللة من صلاة العصر إلى الغروب من غير عدد، وإن كانَ له شغلٌ أخَّر إلى قبل الغروب بنحو ساعةٍ ونصف ثم يذكر إلى الغروب وإن شاء جعلَ عدداً معلوماً يلتزمه لنفسه ألفاً فما فوق من غير حصرٍ، يعني في الزائد على الألف على ما قاله النَّاظم رحمه الله تعالى واعتمد فيه، والله أعلم، قول صاحب «الجامع» في تعيين هذا العدد خمسَ عشرة مائة أو أكثر.

وقد روي عن بعض أركان الطريق ألفاً وستمائة. وعن بعضهم، وهو الذي اعتمدَه صاحب «الجيش الكبير» ألفاً ومائتان، وعن السيد الجليل الماجد الأصيل مولانا محمد بن أبي النصر قدَّس الله سرَّه ألف فقط، وكلام النَّاظم رحمه الله شاملٌ لهذه الروايات كلها، إلا أن الزيادة على ألف وستمائة لم تحفظ عن أحد ولا بلغنا أن عليها عملَ أحد، وهذا كلُّه إنما

هو في ذكر الهيللة فقط على الكيفية التي في الوظيفة. وفي «جواهر المعاني» ما هو صريحٌ في أن من الكيفيات في ذكر الهيللة كونها على قاعدة الطريقة الخلوتية، بل فيه ما يؤخذُ منه أن هذه الكيفية، أعني الجارية على قاعدة الطريقة الخلوتية مقدمةً على غيرها حيث اصطلح عليها أهلُ بلد، فإنه لما قال في هذه الحضرة إنها تكون على قاعدة الطريقة الخلوتية قال: وإلا فبحسب كلّ ما اصطلحت عليه البلد التي هو فيها هذا نصُّه، وهو مشعرٌ بتقديم الكيفية المذكورة لدى من اصطلح عليها، ولهذا قال النَّاظم رحمه الله: **(تحسينُه ينهى إلى الثبوت)**، وكأنه رحمه الله تعالى لم يجملْ ما في «جواهر المعاني» على ما يفيد تقديم الكيفية المذكورة وتحسينها لكونه غير صريحٍ في ذلك، ولأن الأصل هو ذكر الهيللة سرداً، كما عليه العمل في الوظيفة، والكيفيةُ المذكورة، إنما هي لمن اصطلح عليها وعرفَ طريقها التي عليه أهلها، وإلا فالعملُ على السرد أولى، لما يؤدي إليه العملُ مع عدم الإتقان لطريقته من الحركات المنافية لحال الذاكرين الخاشعين ولا يوجد ما ذكر من المعرفة والإتقان إلا في أهل الحواضر ومن في معناهم، وأما غيرهم من أهل الصحارى ومن في معناهم من أهل البادية فتجنُّب العملِ عن تلك الطريقة أولى في حقهم، بل الحقُّ منْعُ ذلك إلا على أهل الحواضر، نعم دعوى تقديم الكيفية التي عليها أهل فاس، بل وأحسنيتها مسلمة عند كلِّ ذي ذوقٍ سليم بلا شك حسبما يشهد به الوجدان الذي هو أقوى من العيان.

(وإذا لم تر الهلالَ فسلِّمْ ... لأُناسٍ رأَوْه بالأبصارِ
وإذا لم تذُقْ ما ذاقت الناسُ في الهوى ... فبالله يا خالي المشك لا تعنفنا)[1]

واعلم أن الذكر على الكيفية المذكورة **قد تواصَلَ عليه عملُ المشايخ الكبار، في سائر المدن والأمصار، ووَقَع الإجماع عليه بعد الاختلاف الكثير، فجازَ اليوم عند من يعتد به من علماء الأمصار من غير خلف ولا نكير.**

وقد ألّف في جوازِه غيرُ واحد من العلماء الأعلام، **منهم عالم عصرِه وحافظ قطره الشيخ الإمام سيدي أبو العباس أحمد بن الشيخ الكبير والقطب الشهير سيدي أبي المحاسن الفاسي شارح رائية الشريشي، رحم الله جميعهم ورضي عنهم؛ وقد أفاد في تأليفه في ذلك وأجاد وفصَّل القول فيه تفصيلاً شافياً أفصحَ به عن الحقيقة وبيَّن المراد، وكذلك ألَّف فيه أيضاً بعده بعض السادات الفاسيين تأليفاً حسناً سلك فيه في تحرير الأدلّة وبيان وجوهها شريعة وطريقة مسلكاً واضحاً مستحسناً، وقد منَّ الله تعالى بمطالعتهما معاً.**

---

(1) كذا ورد البيت في الأصل، وفيه خلل ظاهر.

ورأيت على ظاهر الثاني، وهو بخطِّ مؤلفه، عدة خطوط لعلماء الوقت كلّهم أجازوه وأقروه وقالوا بمضمنه. ومن جملة ما رأيت إجازته لهم بخطِّ يدِ خاتمة المحققين، وراية العلماء المتفننين المدققين الشيخ أبي العباس الهلال العمري ﷺ. وفي «شرح الحصن» للشيخ الإمام المتفنن المتقي سيدي محمد بن شيخ الإسلام سيدي أبي محمد عبد القادر الفاسي ما يوافق ما اشتملَ عليه المؤلفان المذكوران، فليراجعْه جميعُ من أراده ليزدادَ تبصرةً إن كان مسلماً، أو يتحقّق الأمر على ما هو عليه، عساه أن يكون سبباً لتسليمه ورجوعه إن كان منكراً أو جاهلاً متعلماً، وفي أمر سيدنا الشيخ ﷺ وفعله بحضرته كفاية لنا في جوازه وثبوت طريقته.

ومما يجب أن يعلم منها أن سيدنا الشيخ ﷺ كان يحبُّ الوقوف عند الحدود المحدودة فيه عند السادات الخلوتية، من الافتتاح بشيءٍ من القرآن كفاتحة الكتاب والختم بشيءٍ منه أيضاً، ولو كآخر سورة اليقطين[1].

وينبغي أن يقصد المفتتح لإخوانه في قراءته ذلك الافتتاح بالقرآن العظيم، والاختتام به كذلك، ومن ذلك أن لا يشغلَ عن فريضةٍ حتى يخرج وقتها المختار، فإن ذلك والعياذ بالله تعالى من عمل أهل الغرور من المتلاعبين المستهزئين، ومآلُهم بلا شك إلى الخسرانِ المبين.

ومن ذلك اتِّحاد الجنس، فلا يختلطُ أهلُ اللغات والنغمات العجمية مع أهل اللغات والنغمات العربية مثلاً، بل يجبُ أن يكون الذاكرون جنساً واحداً حتى لا يقع تخليط وتشويش يشغلُ عن الحضور والاستغراق المطلوب في الذكر، فإذا ألجأ الحالُ واحداً من العجم مثلاً إلى أن يذكر مع العرب أو العكس، فإنه يجبُ عليه أن يستعمل ما يقدِرُ عليه من المتابعة لهم والموافقة بحركته وصوته لحركاتهم وأصواتهم بما أمكن، وهو أفضل له من ترْكِ الذكر جملةً؛ وكذا يفعلُ من كان من جنس بعض الفقراء ممن ليست طريقته في الذكر طريقة الجماعة التي أراد الدخول معهم بأن يتابعهم على طريقتهم بما أمكن.

قال في «البحر المورود»: أخذ علينا العهود أن نكون هينين لينين في إخواننا المسلمين ما لم يدْعُونا إلى مذموم شرعاً. وفي الحديث الوارد في تسوية الصوفِ: «ولِينُوا في أيدي إِخْوانِكُم»[2].

---

(1) آخر سورة اليقطين هو قوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: 180-182]..

(2) رواه أبو داود (الصلاة: 93)، وأحمد: 2/ 98 ـ 5/ 262.

واعلم يا أخي أن من جملة اللِّين أنك إذا دخلتَ على جماعة يذكرون الله تعالى على طريقة المغاربة أو العجم وغيرهم أن تذكر كأحدهم في النغمة والصوت، ولا تخالفهم فتشوش عليهم، ولا تسكتْ فيفوتَكَ أجرُ الذكر، وهذا في حق فقراء لم يكن شيخُهم يمنعُهم من صحبة من ليس علي طريقتهم، وإلا فيجب على مريده الوقوفُ عند إشارته وعدم التعدِّي لما أمره به، علماً بأنه لم يأمره بذلك إلا لمصلحة لا علة أخرى، لأنهم المبرَّؤون من دسائس النفس والهوى ﷺ.

وقد بلغنا عن بعض الأصحاب أنه دخَلَ مع جماعة من فقراء الوقت في حلقةِ ذكْرٍ فبمجرَّد دخوله تثاءَبَ فانقضَّ حنَكُه الأعلى على الأسفل فأعيى الناس علاجُه، فكان ذلك سببَ موته، أعاذَنا الله من المخالفة بمنِّه ورضاه آمين.

ومن ذلك عدمُ التمطيط في الذكر، بحيث يخرجُ فيه إلى حدِّ الغناء المنافي للخشوع، أو إلى اللَّحن الذي لا يسوغ، وقد كان أصحابُ سيدنا ﷺ يذكرون على الكيفية المذكورة بالقرب منه فسمِعَهم مرةً فعلوا شيئاً من ذلك فزَجَرهم ونادى بأعلى صوته: أي شيء في هذا؟ أي شيء في هذا؟ «لا إلَه إلاّ الله لا إلَه إلاّ الله».

(تنبيه) كثيراً ما يقعُ من الفقراء مدُّ هاء «لا إلَه إلاّ الله» أعني الهاء من إلَه، وكثيراً ما ينكر عليهم في ذلك. وقد سُئل عن ذلك بعض العلماء فأجابَ بما حاصلُه أن مدة هذه الهاء في تلاوة القرآن كقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محَمَّد: الآية 19] ونحوه لا يسوغ، لأن القراءة سنةٌ متَّبعة، وأما في غير التلاوة فالأمرُ واسع في ذلك، لأن له وجوهاً في العربية تقتضيه: منها أن «لا» تعمل عمل «إن» وإلَه: اسمها فهو منصوب منوَّن، فيجوز إشباعُ هائهِ وصلاً، إعطاءً للوصل ما للوقف:

وربما أُعْطي لفْظُ الوَصْلِ ما   للوَقْفِ نَثْراً وَفَشا مُنْتَظما

انظر شروح الألفية[1]: وذكر في الجواب وجوهاً أخرى لا نطيلُ بها، ثم قال: والذاكر فيما وافق لغة العرب في وجه ولو على وجه القلَّة والندور عند ذاكرٍ أو مأجور، أو

(1) البيت في ألفية ابن مالك برقم (899)، وقال ابن عقيل في شرحه: «قد يُعطى الوصل حكم الوقف، وذلك كثير في النظم، قليل في النثر، ومنه في النثر قوله تعالى ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ﴾ [البقرة: 259]، ومن النظم قوله:

مثل الحريقِ وافقَ القَصَبّا.

فضعف الباء وهي موصولة بحرف الإطلاق، وهو الألف.

وانظر حاشية الخضري على ابن عقيل على ألفية ابن مالك: 2/ 278.

لا يعترض عليه فيما أتى به لأن العرب كلّهم فصحاء بلغاء، وانظر إلى قوله ﷺ: «ليس من امبرامصيام في امسفر»[1] وهو ﷺ منزَّه عن اللحن اهـ باختصار. ومن ذلك لما كان الشيخ ﷺ يحبُّ الوقوفَ عنده[2] من حدود الذكر عدم رفع الأقدام من الأرض وركض الأرض بها حالَ القيام في الذكر، وهي طريق السادات الخلوتيين خلافاً لمن خالفهم في ذلك.

وقد كان سيدنا ﷺ لا يقبلُه، يعني رفع الأقدام وركض الأرض بها، ويشدِّد الزجرَ لمن صدرَ منه، تابعه على ذلك جميعُ أصحابه، فهو عندهم من الأمر الشنيع في طريقتنا ومثله التصفيق، يعني في الذمِّ والشناعة في طريقتنا. ومن ذلك تفعُّل شيء من الحركات التي تسقطُ العمامة أو الرداء أو نحو ذلك، فإن وقعَ شيءٌ من ذلك عن غلبة وجدٍ فلا بأس به حينئذٍ، ومن التحرُّز من زعقة وغيرها أثناء الذكر إلا عن غلبة وجدٍ أيضاً. وقد نقل عن السري السقطي ﷺ أنه قال: شرط الواجدِ في زعقته أن يبلغَ إلى حدٍّ لو ضربَ وجهُه بالسيفِ لا يشعرُ به. قال في «عوارف المعارف»: وقد لا يبلغ وجد هذه الرتبة من الغيبة، ولكن تكون زعقتُه كالنفس بنوع إرادة ممزوجة بالاضطرار.

وأما القيام أثناءَ هذه الحضرة فلا بأس به ولا إنكارَ على فاعله، سواء كان باختيار أم لا، وقد سُئل عنه الشيخ جلال الدين السيوطي ﷺ تعالى. فأجاب بقوله: لا إنكارَ عليه في ذلك. ثم قال في جوابه: وقد سئل هذا السؤال شيخ الإسلام البلقيني، فأجاب بمثل ذلك وزاد أن صاحب الحال مغلوبٌ، والمنكِرُ محرومٌ، ما ذاق لذة التواجُدِ ولا صفا له المشروب، قال إلى أن قال في آخر جوابه: وبالجملة فالسلامة في تسليم حالِ القومِ، ثم قال: وأجاب أيضاً بمثل ذلك بعضُ أئمة الحنفية والمالكية، كلُّهم أجابوا بالموافقة من غير مخالفة ثم قال: أقولُ وكيف ينكرُ الذكر قائماً والقيام ذاكراً وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾ [آل عِمرَان: الآية 191] الآية.

وقالت عائشة ﷺ: «كان رسولُ الله ﷺ يذكرُ الله في كلِّ أحيانِه»[3]، وإن انضمَّ إلى

---

(1) قاله النبي ﷺ على لغة أهل اليمن الذين يستعملون (ام) بدل (ال) التعريف، فيصبح الحديث «ليس من البر الصيام في السفر».
ورواه البخاري في (الصوم: 36)، ومسلم في (الصيام: 92)، وأبو داود في (الصوم: 43)، والترمذي في (الصوم: 18).

(2) كذا بالأصل.

(3) رواه البخاري في (الحيض: 7)، وفي (الأذان: 19)، ومسلم في (الحيض: 117)، وأبو داود في (الطهارة: 9)، وابن ماجه في (الطهارة: 11)، وأحمد: 6/ 70، 153.

هذا القيام رقصٌ أو نحوه فلا إنكارَ عليهم في ذلك، لأنهم من لذة الشهودِ والمواجيد، وقد ورَدَ حديثُ رقص جعفر بن أبي طالب[1] بين يدي رسول الله ﷺ لما قال له: «أشبَهْتَ خُلُقي وخَلْقي»[2] وذلك من لذة هذا الخطاب ولم ينكِر ﷺ، فكان هذا أصلاً في رقص الصوفية لما يدركُونه من لذة المواجيد.

قال: وقد صحَّ القيام والرقص في مجالس الذكر والاستماع عن جماعة من كبار الأئمّة، منهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام اهـ بلفظه، والمراد بالرقص التمايلُ يميناً وشمالاً، وهو الذي عليه السادات الخلوتية. وفي رسالة ألَّفها في آداب الذكر الأستاذ الحفني أحد أركان الطريقة الخلوتية ﷺ، وقد جَرَى له ذكر القيام في الذكر ما نصّه: وينبغي للذاكر أن يكون في غاية الخشوع والأدب ملاحظاً للمذكور كأنه واقفٌ بين يدَيْه ولا يضرُّه التمايلُ يميناً وشمالاً، إلى أن قال: ولا عبرة بما أنكرَ به بعض الناس على القوم في التمايل، وقالوا: لم يَرِدْ بذلك نصٌّ، وإنَّما ورد الحثُّ على ذكر الله من غير تمايل، قال: والجوابُ أن الحافظ أبا نعيم روى عن الفضيل بن عياض أنه قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا ذكروا الله تعالى تمايلُوا يميناً وشمالاً، كما تتمايل الشجرةُ في الريح العاصف، إلى قدام، ثم ترجع إلى وراء، ثم قال: فاغتنمْ يا أخي ذلك، وإن كنتَ منكِراً ولا بد فأنْكِر على أهل المحرَّمات بالنص اهـ.

وذكر في هذه الرسالة من فوائد التمايل المذكور أنه يزيد في النشاط للذكر. ومما يجب أن يلتحق بالأمور التي يجب التحرُّز منها في الذكر على هذه الطريقة حضور الأحداث ديناً وسناً؛ أما الحدث ديناً فكالمتزهِّد الذي لا ذوق عنده، وشأنه أن ينكِر ما لا ينكَرُ، أو كصاحب دنيا مستغرق قلبه وفكره في حبِّها، وشأن هذا أن يحوِجَ غيره إلى المداراة الكثيرة الخارجة إلى حدِّ التكليف أو كمتكلِّف للوجد، وشأنه أن يشوِّش الوقت على الحاضرين وهؤلاء الأصناف الثلاثة في صحبتهم عناءٌ كبير على أهل الصدق والإرادة،

---

(1) جعفر بن أبي طالب (عبد مناف) بن عبد المطلب بن هاشم، صحابي هاشمي، من شجعانهم، يقال له «جعفر الطيار»، وهو أخو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وكان أسن من علي بعشر سنين، وهو من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل أن يدخل النبي ﷺ دار الأرقم، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية. استشهد في وقعة مؤتة سنة (8هـ).
انظر الإصابة: 1/237، وصفة الصفوة: 1/205، ومقاتل الطالبيين: 3، وحلية الأولياء: 1/114، وأسد الغابة.

(2) رواه البخاري في (الصلح: 6)، وفي (فضائل الصحابة: 10)، والترمذي في (المناقب: 29).

ما لم تتطهرْ نفوسُهم مما شأنهم من الشؤون المذكورة اللازمة لهم ما داموا أحداثاً في الطريق. وقد كره القومُ حضور أمثالهم في الذكر بالسماع بأنهم غيرُ جنسهم، وقد تقدَّمت الإشارة إلى أن الجنسية في هذا الباب مشترطةٌ عند أهل الطريق، وهي صادقة عندهم بما تقدم وبهذا أيضاً، فافهم ذلك.

وأما الحدثُ سناً فإنه مظنةٌ للفتنة، ولا سيما إن كان ذا وضاءةٍ وصوتٍ حسنٍ، واتخذ حادياً للقوم، فإنَّ الأمر فيه خطر جدًّا، وتجنب مثل هذا في كل مجلس ومجتمع واجب ولا سيما في مجالس الذكر التي يتعرَّض فيها لما يردُ على القلب من الفتح والسرّ، وقولنا: «فإنه مظنة للفتنة». قال ابن الصلاح: ليس المرادُ بخوفِ الفتنة غلبة الظنّ لوقوعها، بل يكفي أن يكون ذلك نذيراً.

قلت: وكيف يكون نذيراً، وقد قال الشيخ مولانا عبد القادر الجيلاني ﷺ: أما النظر إليه، أعني الحدث، كله شرٌّ ما فيه ذرةٌ من خير اهـ. قال بعضهم: وكثير من الناس لا يقدمون على الفاحشة ويقتصرون على مجرَّد النظر والمحبة، ويعتقدون أنهم سالمون من الإثم وليسوا سالمين اهـ. وذُكِر عن رجل من الصالحين أنه نظرَ إلى صبيٍّ حسنِ الوجه وقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فجاءه سهمٌ فقَلَع عينَه، فبات تلك الليلة وهو مهمومٌ بسبب ذلك، فرأى الحقَّ سبحانه وتعالى في المنام وهو جلَّ وعلا يعاتبه بسببِ نظره فقال: يا ربّ إنما نظرتُ بعين الاعتبار والتفكُّر في خلقك، فقال له الحق تبارك وتعالى: نظرتَ بعين الاعتبار فرميناكَ بسهمِ الأدبِ، ولو نظرت بعين الشهوة رميناك بسهم الحرمان اهـ انظر الرسالة وشروحها.

ومن ذلك أيضاً حضورُ النساء بالقرب من حِلَقِ الذكر بحيث يسمعنَ نغمة الحادي وينظرنَ إلى الرجال الذاكرين لما في ذلك من المفسدة المحقّقة عند كلِّ لبيب نبيل، ولا سيما في هذا الزمان الرذيل، الذي تراكمتْ فيه الفتن، وعظمتْ فيه المحن، فلا يقرُّ على هذا الفعل إلا من لم يشفقْ على نفسه ودينه، والعياذ بالله تعالى.

وفي الحديث: «باعِدُوا بَيْنَ انفاسِ الرِّجالِ وأنْفاسِ النِّساء» أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وقال بعض العارفين: «ما أيِسَ الشَّيطانُ من إنسيٍّ قط إلا أتاه من قِبَلِ النِّساء». وقال سفيان[1]: قال إبليس لعنه الله: سهمي الذي إذا رميتُ به لم أخطىء النساءُ، والعجب ممن يقرُّهن على الحضور بالزاوية وجلوسهن بحيث يتوسَّمن وجوهَ الداخلين والخارجين

---

(1) المراد سفيان بن عيينة، وقد تقدمت ترجمته.

منها، وبحيث يسمعْنَ صوت الحادي وهو يعلم ما في ذلك من المفسدة المحققة مع ما يعلمُه من سيرة سيدنا الشيخ ﷺ ولو لم يكن إلا ما ثبتَ عنه ﷺ من أنه أقرَّ القيم على مآربه في الليلة التي توفي ﷺ صبيحتها أن يدعو ثمانية نفرٍ من خاصَّة أصحابه الأتقياء الأبرياء ليبيتوا معه، ثم بعد أن خرج في طلبهم دعا بالقيم فقال له: إنِّي فكرت فيما كنت أمرتُك به من إعلام أصحابنا للمبيت معنا، فعلمتُ أني لا أستغني عن الخدم، والرجال والنساء لا يمكنُ اجتماعُهم بمكان واحد، ويغلب على الظنِّ أنه ﷺ قال له وقد قال ﷺ: «باعِدُوا بين أنفاسِ الرجال» الحديث السابق لكان كافياً، هذا مع ما ترى عنه ﷺ من أن يدَه لم تصافِحْ يَد امرأةٍ قطُّ عند التلقين للوِرْد، وكان يأمر ذوي محارمهن أن يلقنهن وربما لقن بعضهنَّ بالكلام فقط. ومن المتواترِ أنه كان لا يتركهنَّ أن يواجهْنَه عند زيارتهنَّ له وطلبهنَّ الدعاء منه، وإنَّما كان يأمرهنَّ أن يقفْنَ خلفه من بعدُ، فيعلمه القائمُ بين يديه من أصحابه الأخيار الأتقياء الأبرار بهنَّ وبمطالبهنَّ، فيدعو لهن، كلُّ ذلك كان يفعلُه ﷺ متابعةً للسنة وسدًّا للذريعة في هذه المفْسَدة التي هي لا محالة أشد بلية وأعظم فتنة ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: الآية 63] وما ذكرت هذا إلا أداءً للنصيحة الواجبة في الدين، وخصوصاً لإخواننا وأصحابنا وأهل طريقنا الذين لهم الحقُّ الأكيد علينا، ولا أظنّ أن أحداً ممن يقفُ عليه يكابرُ فيه أو تشرئبُّ نفسه إلى البحث فيما تضمَّنه واشتملَ عليه، لأنه الصراط المستقيم، المأمورُ باتباعه دون السبل التي تتفرَّق بمتبعيها على سبيل الحق والهدى القويم.

ونَـهْـجُ سَـبـيـلـي واضِـحٌ لـمـنِ اهْـتَـدىٰ ولٰـكـنَّـمـا الأهْـواءُ عَـمَّـتْ فـأَعْـمَـتِ

[تتمة] تزيد المستفيد فائدة في هذه النازلة المهمة. رأيتُ في جوابٍ لسيدي أبي القاسم بن خجوا فيما يتعلّق بهذه المسألة قال فيه بعد أن صدَّره بقوله قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: الآية 8] ما نصّه: هذا الفعلُ، يعني مخالطة النساء الأجنبيات للرجال، لا يحلّ ولا يسوَّغُ لمن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر، إذ مخالطةُ النساء الأجنبيات لا يتعاطاها مع السلامة من الخلوة ذو عقلٍ سليم، إلى آخر كلامه الذي قال فيه: ولا ينبغي أن يتَّخذ شيئاً إلا عالماً سنياً عالماً بالعلم الظاهر والباطن، عالماً بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، متنزِّهاً عن الطمع وهوى النفس والأهواء المضلَّة كسيدي عبد الله الهبطي ومن ضارَعه من السادات الأخيار الملازمين لسنة النبيّ المختار.

ومن كان يدعو إلى الله تعالى ويتعاطى غيرَ سنة رسولِ الله ﷺ فهو محمودٌ في دعائه إلى الدين، مذمومٌ وملوم في تعاطيه ما يخالف سنة رسول الله ﷺ، فينبغي أن يؤمر بالتوبة

والاتباع، وينهى عن المخالفة والابتداع، ثم قال: وخلوةُ النساء أفضلُ لهنَّ، يعني أفضل وجوه العبادات في حقهنَّ. قال: فمن أرادتْ أن تزورَ سيدي فلاناً وسيدي فلاناً، وذكَرَ جماعةً من الصالحين فلتزرْه في بيتها تدعو له وتهدي فهو أفضل لها؛ فالعاقلةُ الدينة تزورُ جميعَ الأنبياء والملائكة والأولياء في بيتها، والحمقاءُ الجاهلة المستخفَّة في دينها تطاوِعُ هواها ويأخذُ الشيطان بناصيتها ويقودُها إلى المهالك والبِدَع المحرَّمة. ثم قال في آخر الجواب: وقيل لسودة أم المؤمنين[1] ﵂ لِمَ لا تحجِّينَ ولا تعتمرينَ؟ فقالت: قد حجَجْتُ واعتمرتُ، أمرني الله أن أحجَّ في بيتي. قال: قال الراوي: والله ما خرجتْ من باب حجرتها حتى خرجتْ جنازتها ﵂. وقولها: «أمرني الله تعالى أن أحج في بيتي» أشارتْ به ﵂ إلى قوله تعالى لهن: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: الآية 33] والله تعالى أعلم.

وفي هذا القدر مما قيدناه على كلام الناظم هنا كفاية عميمة إن شاء الله تعالى. ثم تمَّم النَّاظم الكلام فيما يتعلَّق بهذه الوظيفة، أعني وظيفة الجمعة التي هي آخر الأذكار اللازمة في الطريق، فقال:

(ومَن يَفتْه وقتُها لا يَلزَمَه ... قضاؤُها بلا خِلافٍ أُعلِمَه
وتَركُها يُفيتُ خيراً جمّا ... إلا لعُذرٍ عارضٍ أَلمّا
يكفيكَ في الفضلِ حضورُ المصطفى ... صلى عليهِ ربُّنا وشرَّفا)

أراد أنه لا قضاء عندنا في هذا الذكر، أعني ذكر الهيللة بعد عصر يوم الجمعة، إذا فاتَ وقتُه، وهو كما عرفته من صلاة العصر يومَ الجمعة إلى غروب الشمس، ثم إن كان فاتَه لعذر عرضَ له في الوقت فلا بأسَ من أن يكتب له أجرُه بفضل الله تعالى: «**إنَّما الأعْمالُ بالنِّياتِ. ونيَّةُ المؤْمِن خَيْرٌ مِنْ عَمَلِه**»[2] وإن فوَّته بغير عذرٍ فقد فوَّتَ على نفسِه خيراً كثيراً، وضيَّع نفسَه في فضل كثير، ولو لم يكن إلا الاستمداد من الحضرة المصطفوية ﷺ

---

(1) هي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس، من لؤي، من قريش، إحدى أزواج النبي ﷺ، كانت في الجاهلية زوجة السكران بن عمرو بن عبد شمس، وأسلمت، ثم أسلم زوجها، وهاجرا إلى الحبشة في الهجرة الثانية، ثم عادا إلى مكة، فتوفي السكران، فتزوجها النبي ﷺ بعد خديجة، وتوفيت بالمدينة سنة (54هـ).
انظر طبقات ابن سعد: 8/35، والإصابة: النساء ت(603)، وأسد الغابة.

(2) رواه البخاري في (بدء الوحي: 1)، وفي (النكاح: 5)، وفي (العتق: 6)، وفي (الحيل: 1)، ومسلم في (الإمارة: 155)، وأبو داود في (الطلاق: 11)، والترمذي في (فضائل الجهاد: 16) والنسائي في (الطهارة: 59).

وشرف وكرم، لأنه ثبتَ عن سيدنا الشيخ ﷺ أن من فضائل هذه الحضرة حضور المصطفى ﷺ فيها، وهو الذي عقد في هذه الأبيات الثلاث هو غالب لفظة في «الجامع»، فإياه اعتمدَ في ذكره الحضورَ المذكور، إذ لم يذكرْه في «جواهر المعاني» ولعلَّ مؤلف «الجامع» سمعه من الشيخ ﷺ بعد وفاة مؤلف «الجواهر» والله أعلم.

وعلى كل حالٍ فهو مما لا يقولُه أحدٌ من عنديته، وخصوصاً من كان مثل صاحب «الجامع» من خاصة أهل الخير والصلاح، ﷺ تعالى ونفعنا ببركاته آمين.

(دقيقة) قد عرفت تواطؤ جُلِّ مشايخ التحقيق في مشارق الأرض ومغاربها على اختيار يوم الجمعة لهذه الحضرةِ، وقد علمتُ أن المقصودَ الأهمَّ من هذه الحضرة وخصوصاً على الكيفية المخصوصة بإسماع استجلابِ الوجْدِ وإثارة كامنِ أنوار العرفان، فكأنهم ﷺ أرادوا أن يسير السالك بذلك أحواله وأقواله في ذلك الأسبوع، فتجنى ثمرةُ أقواله وأفعاله من أحواله في الأسبوع كلِّه يوم الجمعة باستغراقه في الحضرة على قدر استعداده، وذلك لأن يوم الجمعة يومُ المزيد لكل صادق، وقد ذكروا عن بعضهم أنه كان يجعل ما يجده عند الجمعة محكاً يعير به أحواله في سائر الأسبوع الذي مضى، فإنه إذا كان الأسبوع سالماً يكون له يوم الجمعة مزيد الأنوار، وإذا كان الأسبوع على عكس كان الأمرُ بخلاف ذلك، مما يجده السالك، من ظلمة القلب، وسآمة النفس، وقلَّة انشراح الصدر يوم الجمعة، فهو مما ضيعه في الأسبوع، والرجاء قوي أنه إذا جاهد نفسه في سآمتها ودخلَ الحضرة واستعملَ ما أمكنه من الحضور وانجبر حالُه فيما ضيعه في الأسبوع ببركة الذكر والذاكرين وشفاعة الشافعين، والله تعالى أعلم وأحكم. ثم قال النَّاظم ﷺ تعالى ورضي عنه:

* * *

خاتمة: في فضل الياقوتة الفريدة وجوهرة الكمال في مدح سيد الرجال

لا يخفى على من خُصَّ بمزيد العقل والفهم وجْه جَعْلِ النَّاظم رحمه الله تعالى الكلام في هذا الغرض الأهم خاتمةً لما اعتمدَه من الفصول والمسائل في هذا النظم، ومن ذلك التفاؤلُ بأن تكونَ خاتمةُ أمرِه في عمره كلِّه إفاضةَ الفضل عليه من واسع الفضل بمحض فضله، وفي افتتاحه الكلام في فصول الطريقة بعد ذكر سندها بفضل فضلها على الإجمال، وختم ذلك بالكلام في فضل ما اختصَّت به من الأذكار التي لا تنال إلا بمحض الامتنان والإفضال، إشارة إلى أن دائرة أهل هذه الطريقة السنية، دائرةُ الفضل المحْض الذي لا سبب له إلا العناية الأزلية، فأما الياقوتة الفريدة فهي صلاةُ الفاتح لما أغلقَ وسمَّاها بذلك سيدنا الشيخ رضي الله عنه كما تقدَّم؛ وأما جوهرة الكمال في مدح سيد الرجال ﷺ، فهي الصلاة المعروفة عند أهل هذه الطريقة، وهي أحدُ أركان الوظيفة حسبما تقدَّمت الإشارة إليه، ثم الصلاتان الشريفتان، كلتاهما من جملة الأسرار التي يتلقَّاها الكمل من العارفين الكبار في مقاماتهم الخاصَّة الشهودية إما من الحضرة القدسية كتلقي القطب سيدي محمد البكري للأولى على ما سيتَّضح قريباً إن شاء الله تعالى، أو من الحضرة المحمدية عليه الصلاة والسلام في حالة اليقظة أو حال المنام، كتلقِّي سيدنا الشيخ رضي الله عنه للثانية على ما سينصّ قريباً أيضاً هنا بحول الله تعالى، والكلُّ من الثابت المعروف عند أربابه، ومن الحق المعمول به في بابه.

والفضل المذكورُ هنا للصلاتين معاً كله مما تلقَّاه الشيخ رضي الله عنه من الحضرة المحمدية ﷺ، ومن المقرَّر عند العلماء الأعلام أنه يعملُ بجميع ما يتلقاه العارفون منه عليه الصلاة والسلام، سواءٌ في اليقظة أو المنام، ما لم يصادم شيئاً من النصوص القطعية أو يؤدي إلى انخرام قاعدة شرعية، والقاعدة الشرعية في هذا الباب حسبما ذكره الشيخ رضي الله عنه جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في فتاويه أنه ليس لأحدٍ أن يحكم على ذكر أو دعاءٍ لم يردْ بمقدار معيَّن من الأجر، قال: لأن ذلك مرجعه إلى النبي ﷺ، وقد علم أن إخباراته ﷺ على قسمين: قسمٍ عام وهو ما أمرَ ﷺ أن يخاطبَ به عامةُ الناس، وذلك كتشريع الشرائع

وتحديد الأحكام، وتبيين الفرْضِ من النفل، والحلالِ من الحرام، وهذا القسم انقطع بوفاته ﷺ. والقسم الثاني خاصٌ وهو ما أمرَ ﷺ أن لا يخاطب به إلا الخواصّ، وهذا لم ينقطعْ بوفاته ﷺ، فلا يزالُ يلقيه إلى آخر الدهر لمن أهَّله الله لذلك لحكم الاختصاص.

قال سيدنا الشيخ ﷺ بعد أن أجاب عن سؤال سائلٍ عن المسألة بمثل التفصيل المذكور ما نصّه: ومن توهَّم أنه ﷺ انقطع جميعُ مددِه عن أمّته ﷺ كسائر الأموات فقد جهِلَ رتبة النبيّ ﷺ وأساءَ الأدبَ معه، ويخشى عليه أن يموت كافراً إن لم يتبْ من هذا الاعتقاد، وقد عرفتُ أن جميعَ ما هو مذكور عن شيخنا ﷺ مما تلقَّاه من الحضرة المحمدية ﷺ في فضل هاتين الصلاتين ليس فيه مصادمةٌ للنصوص القطعية، ولا ما يؤدي إلى انخرام القواعد الشرعية، إذ غايته أنه إخبار عدل عنه ﷺ، بذكر غير خارج عن معنى ما أتى به، ولا منحرف عن أصول دينه القويم، وبتضعيف الأجر الثابت أصلُه في الكتاب والسنة ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: الآية 261] وفي الحديث: «بِعَشْرِ أمْثالها إلى سَبْعمائة ضِعْفٍ إلى أضْعافٍ كثيرة» وقد تقدَّمت الإشارة إليه[1]، فافهم، والله يتولَّى هدانا جميعاً بمنِّه.

قال الناظم ﷺ تعالى:

(أمّا صَلاةُ الفاتحِ الحسنى الّتي ... يَدْعونَ باليَاقوتَةِ الفَريدَةْ
نَفَضْلُها على مَراتبَ انْقسمْ ... وجُلُّها عَنِ الخَلائِقِ انْكتمْ)

وصَفَ (صلاة الفاتح) بالحسنى لما اشتملت عليه من وجوهِ الحسنى والحسية والمعنوية التي لا تكاد تنحصر، ويكفي ما أبداه من ذلك في كتاب «ميزاب الرحمة الربانية»، وقوله: (التي يدعون) إلخ، قد قدمنا أن الشيخ ﷺ هو الذي سمَّاها بذلك، ووجه التسمية في غاية الوضوح، ومراتب الفضل المذكور سبع أو ثمان، وقوله: (وجلها) إلخ، إنما انكتم لأنه مما لا ينال إلا بالذوق والتعريف الإلَهي، ومن كان سبيلُه ذلك لا يفشيه من فتح عليه فيه إلا بإذنٍ لا غير. وأشار النَّاظمُ بهذا إلى ما ذكره سيدنا ﷺ في فضل هذه الصلاة وهو أن لها من الفضل سبع مراتب أو ثمان مراتب، وأن الذي ذكر من فضلها هو جزء من المرتبة الأولى، وغير ذلك كلُّه مكتوم.

ثم قال ﷺ تعالى:

---

(1) انظر ما تقدم ص 390، من هذا الكتاب.

(ومن سِوَى المَكْتومِ أن مَن تَلا ... مِنْ هذِهِ الصَّلاةِ عَشراً حصَلا
ما لَمْ يَحصُلْهُ وليّ سامِ ... قدراً وعاشَ ألفَ ألفِ عامِ)

أشار بهذا إلى بعض فضل الياقوتة الفريدة، في مرتبتها الظاهرة، وهو أن سيدنا ﷺ سُئِل عن فضلها فقال: من ذكرها عشرَ مرَّاتٍ لو عاشَ العارف ألف ألف سنة كان ذاكرها عشراً أكثر منه ثواباً، يعني العارف الذي لم يذكرها اهـ ذكره في «الجامع» وهو من باب تضعيف الأعمال بالأضعاف الكثيرة.

واعلم أن من المقرَّر عند العلماء في التضعيف أنه يكون تارةً باعتبار لفظه كاشتماله على جميع الأوصاف السلبية والذاتية والفعلية، ومثلوا ذلك بنحو: ذي الجلال والإكرام ونحوه، قالوا: ولا شك أن الثناء بالأتمّ أبلغُ من الأخصّ والخاص، وكاشتماله على ما يؤذن بالتضعيف نحو: «سُبْحان الله عَدَدَ خَلْقِهِ»[1] ونحو ذلك كقوله في هذه الصلاة حق قدره، وهو ظاهرٌ وخصوصاً على رأي من أخذ بظاهره عملاً على ما هو اللائق بالكرم، وقد تقدَّم بعضُ ما يوضِّحه، وتارةً يكون باعتبار الأشخاص فإنَّ عبادة أهل المراتب ليست كعبادة غيرهم في الفضل، وهم أيضاً متفاوتون بحسب تفاوتِ مراتبهم، فمنهم مَنْ يومُه كَليلةِ القدْرِ، ومنهم من يومُه بألفِ سنة، ومنهم من يومُه كيومِ المعارجِ بخمسين ألف سنة قاله سيدنا ﷺ، وأشار إليه الشيخ زروق ﷺ، وكذا ابن عطاء الله.

وقد يعظِّم فضلُ الله تعالى على أهل المراتب فيسري سرُّ التضعيف في المذكورين لاتباعهم بسبب إذنهم لهم، فيحصلُ للمأذون له قسطٌ مما للآذن وإن لم يجاهدْ مجاهدته، وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: أنا تحملتُ التعبَ عن أتباعي، ومثله قول سيدنا في حق أصحابه. وهذا لهم من أجلي، وذلك لما خُصُّوا به من الفضل، وتارةً يكون باعتبار الأزمان، وتارةً باعتبار الأمكنة كالعمل في الحرمين الشريفين على ما ورد في ذلك.

وإذا عرفتَ هذا فاعلمْ أن هذه الصلاة الشريفة، أعني صلاة الفاتح لما أغلق، قد اشتملت من الوجوه التي تكون سبباً للضعف المذكور على ما لا يخفى، فإنها اشتملت على نداء الله تعالى بالاسم الجامع للذات والصفات والأفعال على ما مرَّ بيانه، وهو يتضمَّن الثناء عليه سبحانه بما هو أعمُّ وجوه الثناء، واشتملتْ من الثناء على حبيبه الأعظم ورسوله الأكرم على أبلغ الثناء وأعمِّ المدح حسبما يفيده فيما يشير إلى معناها على جهة الاختصار

(1) كذلك تقدم ص: 407.

مع ما اشتمل عليه قوله فيها: «حق قدره ومقداره العظيم»، وهذا باعتبار لفظها. وأما باعتبار الأشخاص فيكفي ما مرَّ عن الشيخ ﷺ من الفضائل التي أعطاها الله تعالى لأهل هذه الطريق من المحبوبية المفاضة عليهم من الحضرة المحمدية عليه الصلاة والسلام مع ما انضاف إلى ذلك من المزايا العظام، والخصوصيات الجسام، هذا مع حصول الإذن في الصلاة المذكورة من أستاذ هذه الطريقة الذي هو الختمُ الأكبر المحمدي، وهو عن سيد الوجود بلا واسطةٍ حسبما تقدَّم بيانه. وأما باعتبار الأزمان فمن حيثيةِ كونهم في آخر الأزمان الذي ورَدَ الخبرُ بأن القابضَ فيه على دِينهِ كالقابضِ على الجمر[1]، وأن للعامل من أهل هذا الزمان أجرَ الخمسين منا أو منهم، قال ﷺ: «**مِنكُم لأنَّكُم تجدُونَ على الخيرِ أعْواناً وهم لا يجدونَ عليه أعواناً**» فتأمل ما ذكرناه ولا تظنَّ أننا أردْنا به التسور على إدراك ما انبهم عنا من سبب التضعيف المذكور، بل الذي نعتقد وندين الله به أن الله تعالى تفضَّل بذلك بمحْضِ جُودهِ وكرمه، إما بلا سبب أو بسبب لا يدركه أمثالُنا إلا بتعريف من الله تعالى، وإنَّما ذكرنا شيئاً مما يتعقّل في ذلك ظاهراً ليستأنس به أمثالنا الضعفاء فيما يرونه هنا من فضل هذه الصلاة لا غير، والله تعالى أعلم، ثم قال:

(وعَدمَ الإحباطِ للَّذِي فَعلْ ... ما هُو في سِواهَا يَحبِطُ العَملْ)

أشار بهذا إلى أن من فضائل هذه الصلاة الشريفة وخصوصيتها السامية المنيفة أنه إذا صدر من المصلي بها بعضُ ما يحبطُ الأعمال، فإنّها لا تحبطُ هي في جملة ما يحبط بفضلِ الله تعالى. ذكره في «الجامع» عن سيدنا ﷺ، ثم قال ﷺ تعالى:

(ومرّةً واحِدةً تُقرأُ مِن ... هذا تُكفِّرُ الذُّنوبَ وتَزِن
مِنْ كُلِّ تَسبيحٍ وذِكرٍ وَقَعا ... سِتةَ آلافٍ ومِنْ كُلِّ دُعا)

أشار بهذا إلى ما ثبت عن سيدنا الشيخ ﷺ من أن المرة الواحدة من صلاة الفاتح لما أغلق الخ تكفّر ذنوبَ العبدِ؛ ولفظه ﷺ في الرسالة الأولى من رسائله ووصاياه: واعلموا أن الذنوبَ في هذا الزمان لا قدرة لأحدٍ على الانفصالِ عنها، فإنها تنصبُّ على الناس كالمطر الغزير، ولكن أكثِرُوا من مكفِّرات الذنوب، وآكدُ ذلك صلاةُ الفاتح لما أغلق، فإنها لا تتركُ من الذنوب شاذةً ولا فاذةً[2]، هذا معنى قوله (**مرةً واحدة**) إلخ،

---

(1) انظر ما رواه الترمذي في (الفتن: 73)، وأحمد: 2/ 390.
(2) الكلمة الفاذَّة: الشاذَّة.

وقوله: (تزن من كل تسبيح) إلخ أشارَ به إلى ما ثبتَ عنه ﷺ أيضاً من أن المرة الواحدة من هذه الصلاة الشريفة تعدلُ من كل تسبيح وقع في الكون، ومن كل ذكر ومن كل دعاءٍ كبير أو صغير ستة آلاف مرة، فاقدر إذا قدر ما أعدَّ الله للمصلي بهذه الصلاة، فإن جميعَ ما في الكون جامدِه ومتحرِّكه ذرة ذرة يسبِّح بحمد الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية 44] الآية. ثم قال ﷺ تعالى:

(ومرّةٌ منها بستّ مائةِ ألفٍ من الواقعِ في البريّةِ
من صلواتِهم لوقتِ الذكرِ وهي تضاعفُ بهذا القدرِ)

أشار به إلى ما في «الجواهر» و«الجامع» من بيان تضعيف ثواب صلاة الفاتح لما أغلق، وهي أن المرة الأولى منها إذا أتى بها المصلي تُضاعَف له بستمائة ألف صلاة من صلاة كلِ ملك وإنس وجن من أول خلْقِهم إلى وقتِ تلفُّظ الذاكرِ بها، والمرة الثانيةُ مثلُها وتكتب له الأولى بستمائة ألف صلاة، وهكذا إلى انقطاع ذكر الذاكر لها بالموت، وهذا أمرٌ يبهر العقول ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: الآية 105] فقوله: (البرية) أراد الملائكة، والآدميين والجن، وأما غيرهم من المخلوقات فهو داخلٌ في قوله: (من كل تسبيح وذكر وقع في الكون) إلخ ذكره في الجامع ويدخل في البرية المصلي نفسه، إذ صلاته من جملة الواقع في البرية من الصلوات، كما يدخل في الصلاة الواقعة في البرية صلاة الفاتح إلخ، فيضاعف للمصلي بها جميع الصلوات التي وقعت في البرية حتى صلاة الفاتح نفسها بجميع ما اشتملت عليه من التضعيف في كل مرة من وقت صلاة المصلين بها إلى وقت التلفظ بها ستمائة ألف مرة، وهو معنى قوله: (وهي تضاعفُ بهذا القدر)، وهذا من باب مضاعفةِ أفراد الثواب المجازى به على الحسنة المفعولة، وقد قال العلماء بجوازه، وقد نقلَ بعض شراح الرسالة عن القرطبي في شرح مسلم في حديث: «مَنْ قالَ لا إلَه إلاّ الله وحْدَهُ لا شرِيكَ له»[1] الحديث ما هو صريحٌ في ذلك، ثم قال ومن هذا المعنى ما قاله الحطاب إن الصلاة في جماعةٍ بمائتين وخمسين صلاةً، فإن كانت في مسجد رسول

(1) في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، و كانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي. ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه. ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».

كذلك رواه مالك في الموطأ في (القرآن: 21)، والترمذي في (الدعوات: 59).

الله ﷺ كانتْ بمائتي ألفٍ وخمسين ألفاً ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: الآية 261] وقد بسطنا الكلامَ في بيان هذا التضعيف بأكثرَ من هذا في تقييد لنا في بيان فضل الياقوتة الفريدة وهو بزاوية عين ماضي، ولم يبقَ بأيدينا نظيرٌ منه، ولم نيأسْ من روح الله تعالى أن يجمعنا بنسخةٍ منه بمنّه وطوله، وذكرناه ليبحث عنه من عسى أن تتشوَّفَ إليه نفسه من الإخوان، والله المستعان، ثم قال ﷺ تعالى:

(سَعادَةَ الدّارينِ ضامِنَتُها ... في اليومِ مَرّةً مُداوَمَتُها
ومَنْ يُلازِمْ مرّةً في كُلِّ يَومِ ... مِنها يموتُ مُسلِماً مِنْ غيرِ لَومِ)

أشار بهذا إلى ما ثبتَ عن الشيخ ﷺ في كلام قال فيه: الملازمةُ على الصلاة عليه ﷺ بركتُها تدركُ الرجلَ وأولاده وأولادَ أولاده. ثم قال: وأما صلاة الفاتح لما أغلق إلخ فهي ضامنةٌ لخير الدنيا والآخرة لمن التزمَ دوامَها. ثم بيَّن ﷺ خير الآخرة بقوله: من داوَمَ على الفاتح لما أغلق يموتُ على الإيمان قطعاً، والمداومة عليها في كل يوم مرةً باختصار، ووَقَع في بعض النسخ من هذا النظم من النساخ في هذا المحل فليتنبَّه له. وقد ذكر الشعراني ﷺ أذكاراً من لازَمَها يموتُ مسلماً برواية عن الخضر عليه السلام في ذلك، فينبغي أن يستعملَ المؤمنُ جميعَ ما يقفُ عليه من ذلك مع كثرة اللجأ والاضطرار إلى الله تعالى فيه. ثم قال ﷺ تعالى:

(وفَضلُها يَحصلُ مَعْ شَرطَينِ ... مِنْ ذاكَ إِذْنُ الشَّيخِ دُونَ مَينِ
ثُمَّ اعتِقادُ أنَّها قَد بَرزَتْ ... مِنْ حَضرةِ الغَيبِ لِمَنْ لهُ سَرَتْ)

الضمير في **(فضلها)** لصلاة الفاتح المتكلَّم فيها، والمراد بالفضل في البيت الفضلُ الخاص الذي تلقَّاه سيدنا الشيخ ﷺ تفصيلاً من الحضرة المحمدية، ومنه ما تقدَّم ذكره للناظم في الأبيات السابقة، وأشار بهذا إلى ما ثبت عن سيدنا ﷺ بأن الفضل المذكور، يعني الخاص لا العام، الذي هو مذكور في ورده الجيوب عن القطب سيدي محمد البكري ﷺ لا يحصلُ لذاكرها إلا بشرطين: **الأول الإذنُ الصحيح من الشيخ** ﷺ، إذ هو ﷺ المأذونُ له من الحضرة المحمدية ﷺ في إبرازه. **والشرط الثاني اعتقاد المصلي أنها ليستْ** من تأليف البشر، وذلك لأن القطب البكري المذكور ﷺ توجَّه إلى الله تعالى مدةً يسألُه أن يمنحه صلاةً على النبي ﷺ فيها سرُّ جميع الصلوات، فنزلتْ عليه مكتوبةً بقلم القدرةِ في صحيفةٍ من نور، وهو معنى قوله: **(قد برزت من حضرة الغيب)** إلى آخره، وفي التعبير ببرزت إشارة إلى انكشاف الحجاب للقطب المذكور عما هو من عالم الملكوت والغيب

الذي من شأنه عادةً أن لا يدرَك بالحسّ، فهو من باب خرْق العادة كرامةً لأولياء الله تعالى، وفي قوله: **(سرت)** إشارة إلى أن هذا من الأسرار التي لا يطَّلع عليها الناسُ حتى تظهرَ حيث أظهرها الله تعالى، كما أن الساري لا يطَّلع عليه الناسُ حتى يصبحَ بالمكان الذي يصبح به، فافهم. وقوله: **(دون مين)** أراد به وصف الإذن بالصحَّة كما في عبارة سيدنا الشيخ ﷺ فتحصَّل أن الفضل الخاصَّ الذي تلقاه الشيخ ﷺ من الحضرة المحمدية ﷺ لا يحصلُ إلا مع الإذن الصحيح من الشيخ ﷺ، ولو بواسطةٍ أو وسائط، وكذلك مع اعتقاد المصلي أنها ليست من تأليف القطب البكري أو لا غيره، وأنها وردت من الحضرة القدسية مكتوبةً بقلم القدرة في صحيفة نورانية.

ثم إن بروز الأمرِ من الحضرة القدسية للولي المتمكّن بالكتابة معروف، وقد عدُّوه من أقسام كيفية الإلهام للأولياء، يعني الإلهام الذي يثلج له الصدرُ، وهو معمولٌ به عند المحققين، وهو، أعني الإلهام، وإن كان المعنى الأصلي هو معنى يجده الولي في سرِّه يثلج له صدره من غير تعلُّق حسٍّ ولا خيالٍ من الولي في ذلك، فقد عدُّوا من أقسامه أيضاً ما يكون متلقًّى بالخيال في عالم الخيال وهي المبشرات، ومنه ما يكون خيالاً في حسٍّ على ذي حس، وهو الذي يسمونه الواقعة، ومنه ما يجدونه مكتوباً في ورقة مثلاً، قالوا: وهو الذي كان يقعُ لأبي عبد الله قضيب البان وغيره.

قال في «اليواقيت والجواهر» بعد ذكره لنحو ما تقدم نصّه: فإن قلت: فما علامة كون تلك الكتابة التي في الورقة من عند الله تعالى حتى يجوز للوليِّ عملُ ما بها؟ فالجواب: أن علامتها كما قال الشيخ محيي الدين في الباب 315 من فتوحاته المكية: أن تلك الكتابة تقرأ من كلِّ ناحية على السواء لا تتغيَّر كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها. قال: قال الشيخ محيي الدِّين: وقد رأيتُ ورقةً نزلتْ على فقير في المطافِ بعتقه من النار على هذه الصفة، فلما رآها الناسُ علِموا أنها ليست من كتابة المخلوقين اهـ الغرض منه.

وفي «الجيش الكبير» ما نصّه: **فائدة:** قال الهروشي: سألتُ شيخنا العياشي رحمه الله تعالى عن الثواب المذكور في بعض فضائل الأعمال المروي عن غير النبي ﷺ كقولهم: من صلى على النبيّ ﷺ بالصلاة الفلانية كذا فهي بمثابة فدية، أو الصلاة الفلانية تعدلُ عشرة آلاف أو غير ذلك، فأجابَ بأن ذلك مما يلهِمُه الله تعالى لأوليائه، يرونه مكتوباً بقلم القدرةِ على حجرٍ أو ورق أو شجر أو يسمعون الهاتف[1]، أو يتلقَّونه عن النبيّ ﷺ في

---

(1) الهاتف: صوت يسمع دون أن يُرى شخص الصائح.

النوم أو اليقظة. قلت: أو تخاطبُ به عوالمهم اللطيفة، وهو أصلٌ متينٌ من الأصول المعتمدة عندهم، دليلُه من السنة قوله ﷺ في الصحيح: «إنه كانَ فيمَنْ قَبْلَكُم محدثُون» وفي رواية: «مكلَّمونَ مِنْ غيرِ أن يكونُوا أنبياء وإن كانوا في أمَّتي فعُمَرُ منهم» أو كما قال عليه الصَّلاة والسلام. فإذا عرفت هذا عرفت أن الذي وقع للقطب البكري في هذه الصلاة من هذا الحيز، فهي، يعني الصلاة الشريفة المذكورة، وردتْ من حضرة الحق تبارك وتعالى على طريق التعليم وفقَ ما قالوه في فاتحة الكتاب، يعني من أنها وردتْ على طريق التعليم لنا، فافهم ذلك، وبه تفهم ما وقع في تعبير صاحب «الجامع» من قوله الشرط الثاني اعتقاد أنها من كلام الله تعالى كالأحاديث القدسية، وهذه العبارة هي الدائرة على ألسنة الأصحاب اليوم، وعبارة الناظم التي شرحنا عليها هي الموافقة لعبارة «جواهر المعاني»، ولذلك آثرَ التعبيرَ بها على التعبير بغيرها، وإن كان المآل واحداً، والله تعالى أعلم. ثم قال رحمه الله تعالى:

(ومـرَّةٌ مِـنَ الـجَـحـيـمِ فِـديـةْ　　　يـومَ الـقِـيـامـةِ بِـغَـيـرِ مِـريـةْ)

أشار بهذا إلى ما ذكروه عن القطب البكري رضي الله عنه من قوله: فمن قرأها مرة ودخلَ النار فليقبضْ صاحبُها بين يدي الله تعالى، وهو في روضة الجيوب، فهذا من الفضل العام الذي ذكره فيها غيرُ سيدنا الشيخ رضي الله عنه، ولهذا أردَفَه النَّاظم بقوله:

(وذَا بِـلاَ اشْـتـراطِ مـا تـقـرَّرا　　　سُـبـحـانَ مَـن فـضَّـلـهـا وعظَّـمـا)

أشار بـ(ذا) إلى ما ذكره من كون المرة الواحدة منها فديةٌ من النار، وأخبر أنه حاصلٌ بفضل الله تعالى لكلِّ من صلى بها بنيةِ ذلك مصدِّقاً، وأشار بقوله: **(سبحان من فضلها)** إلخ، إلى أن هذا الفضل وهو كونها فدية من النار من أعظم ما يطلب ويرغب فيه ويعترف بالمنة العظيمة لواهبه ومُسْدِيه[1] حيث كان سبحانه يمنُّ على العبد بعتقِ رقبته من النار بسبب ذكره للمرَّة الواحدة من هذه الصلاة العظيمة المقدار، ثم أتى رحمه الله تعالى بما هو كالتحصيل لما ذكره من فضل هذه الصلاة تفصيلاً على طريق الإجمال، فقال رحمه الله تعالى:

(ومـا عـلَـى الـنـبـيِّ صـلَّـى أحـدٌ　　　بـمـثـلِـهـا سَـمـعْ ذَا ذَا الأوحـدُ)

الضمير في **(مثلها)** لصلاة الفاتح لما أغلق، والإشارة الأولى إلى قوله: **(وما على**

---

(1) مسديه: اسم فاعل من الفعل «أسدى» إليه معروفاً: أعطى.

النبي) إلى آخر الجملة و(**ذا**) الثانية راجعة إلى الشيخ ﷺ أوحد الأولياء علماً وحالاً ومقاماً. وقوله: (**سمع**) يعني من النبي ﷺ، ففيه حذفُ المتعلّق للعلم به، وأشار بهذا إلى ما في «جواهر المعاني» وغيره من قول سيدنا ﷺ قال لي ﷺ: ما صلى عليّ أحدٌ بمثلِ صلاة الفاتح لما أغلق، فقد ظهر من هذا ومن جميع ما تقدَّم من فضلها أن الله تعالى استجاب دعوة القطب البكري ﷺ في سؤاله صلاة على النبي ﷺ فيها سرُّ جميع الصلوات، وقد صرَّح سيدنا ﷺ بذلك فقال: إن جميع ما في الصَّلوات من الخواصّ وغيرها يحصلُ لذاكر الفاتح لما أغلق إلخ.

(تنبيه) قد عرفت أن الصلاة أهدِيَتْ إلى القطب البكري ﷺ على ما تقدَّم بيانُه وأن الفضل الخاصّ لم يتلقَّه القطبُ المذكور، وإنَّما تلقَّاه سيدنا الشيخ ﷺ، وبسبب هذا وقعَ السؤالُ لمقيِّده عفا الله عنه من بعض الإخوان الصادقين حَفِظه الله تعالى عن الحكمة في عدم إظهار هذا الفضل على يدِ من نزلتْ عليه وبرزتْ بسبب توجُّهه إلى الله تعالى، فأجابه سامحه الله تعالى: بأنه يمكن أن تكون الحكمة في ذلك، والله أعلم تقرير فضلها إجمالاً في عصر القطب البكري، وفيما بعده حتى يكون ذلك كالتمهيد لقبول تفاصيله عند وجود من سبق في علم الله تعالى أنه صاحبُ إظهاره، وأنه المخصوصُ بالتربية بهذه الصلاة لمواقيتها لزمان وجوده الذي هو آخرُ الأزمان لما عليه أهله من ضعف الاستعدادات وقلّة الرغب بالجد والاجتهاد في عظيم الإفادات ومن فضلها الإجمالي هو كونها فيها سرُّ جميع الصلوات حسبما عرف والله تعالى أعلم وأحكم، وهو المسؤول بفضله أن يتولّى غفران ذنوبنا وستر عيوبنا بجاه السبب الأعظم لكل خير وسعادة سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. ثم انتقل ﷺ تعالى إلى ما قصدَ ذكرَه هنا من فضل جوهرة الكمال في مدح سيد الرجال فقال:

(جَوهرةُ الكَمالِ مِن إملاءِ	إمامِ الأرسالِ والأنبياءِ
عَلَى حبيبِه الوليِّ العالِم	قُطبِ الورَى أحمَد نجلِ سالمِ
وبَعضُ فضلِها تقدَّمَ ومَن	لازَمَها سبعاً فأكثر تَمَنْ
بأنْ يكونَ خيرَ الأنبياءِ	يُحبُّه ومِن الأولياءِ)

أشار بهذا إلى ما هو مصرَّح به في «جواهر المعاني» وغيره من الإجازات، بل هو مما بلغَ الآن حدَّ التواتر القطعي بين جميع الأصحاب، وهو أن هذه الصلاة التي نحن بصدد ذكر فضلها هي من إملاء سيد الوجود ﷺ على سيدنا الشيخ ﷺ، وإنما قال الناظم

(على حبيبه)لما ثبتَ عن الشيخ ﷺ من أن النبي ﷺ قال له: أنت حبيبي، وكلُّ من أحبَّك حبيبي.

وقد مرَّ لنا الكلام في هذا، ووصفه بالعالم بعد الولي إشارةً إلى جمعِه ﷺ بين العلم والولاية على الوجه الذي انتهت إليه وجوه الكمالات شريعةً ممزوجة بالحقيقة، أتمَّ مزجٍ وأحسنه، فهو ﷺ الوارثُ الأكبر للمقال والحال. ثم أخبرَ ﷺ تعالى بأن بعض فضل هذه الصلاة الشريفة تقدَّم، يعني في قوله: «ومن تلا جوهرة الكمال سبعاً»إلى آخر الأبيات الثلاثة المضمنة للخاصية العظمى وهي وجود النبي ﷺ وكذا الخلفاء الأربعة ﷺ مع الذاكر لها، ما دام يذكرُها من حين يبلغ السابعة منها إلى ما لا نهاية له من الأعداد، ثم أخبر أيضاً ﷺ تعالى أن من فضلها الثابت عن الشيخ ﷺ أن من لازَمَها سبعَ مرات في كلّ يوم يحبّه النبي ﷺ محبةً خالصة، ولا يموتُ حتى يكون من الأولياء. ثم قال النَّاظم ﷺ تعالى:

(ومَرَّة تَعدِلُ تَسبيحَ الوَرَى ... ثلاثَ مراتٍ على ما سَطَرا
ومَن يكُنْ لازَمها سَبعاً لدى ... مَنامِه يرى النَّبيَّ أحمَدا
صلَّى وسلَّمَ عليه اللهُ ... ما اشتاقَ مُؤمِنٌ إلى لقياهُ
وآلِهِ الشُّمِّ المُطَهَّرينَ ... وصَحبِه الغُرِّ المحجَّلينَ)

أراد بـ(الورى) العالم بأسره ملكياً وإنسياً وجنيًّا وغير ذلك، حسبما خرج به في ميدان الفضل والإفضال، وقوله: (على ما سطرا) يريد في «جواهر المعاني» وغيره، ويحتمل أن يكون راجعاً للورد، فيكون المراد «على ما سطرا» في تفسير الورى من أن معناه الخلائق أجمعون، أي فكأنه قال تسبيح الورى أي الخلائق أجمعين حسبما سطرا في تفسيره، وقوله: (لدى منامه) أي عند إرادته النوم، و(يرى) من الرؤيا الحلمية، وأخبر هنا أن من فضل هذه الصلاة الثابت أيضاً أن المرة الواحدة منها تعدلُ تسبيحَ العالم بالمعنى السابق بأسره ثلاثَ مرَّات: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: الآية 4] وراجع ما تقدَّم قريباً في جواب العياشي[1] لتلميذه الهروشي رحمهما الله تعالى لتعلم أن لهذا الفضل أصلاً معمولاً به عند المحققين من العلماء ﷺ.

---

(1) العياشي: عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، أبو سالم، فاضل من أهل فاس، نسبته إلى آية عياش (قبيلة من البربر تتاخم أرضه الصحراء، من أحواز سجلماسة) قام برحلة دوَّنها في كتابه «الرحلة العياشية»، وله كتب أخرى. مات سنة (1090هـ).
انظر اليواقيت الثمينة: 178، وفهرس الفهارس: 2/ 211.

ثم أخبر ﵀ تعالى أن من فضلها الثابت أيضاً أن من لازَمَها سبعَ مرَّات عند النوم، يريدُ على طهارةٍ كاملة، ثم ينام على فراشٍ طاهرٍ كذلك فإنه يرى النبيّ ﷺ في نومه اهـ. قال أخونا في الله تعالى وسيدنا ترجمان المعارف الربانية العلامة أبو الفضل سيدي عبيدة بن محمد الصغير في شرحه لهذه الصلاة الذي ترجمها بميدان الفضل والإفضال بعد حكايته لهذه الخاصية ما نصّه: ولا أقيِّد ذلك برؤية صورته الشريفة، لأنه ﷺ يظهرُ في صور الأولياء والصالحين من هذه الأمة اهـ بلفظه. وهذا الذي ذكره حفِظَه الله ووعاه صحيحٌ، إلا أنهم نصُّوا على أن رؤيته في غير صورته وهيئته التي كان عليها ﷺ في هذه الدار يدخلها التعبير، بخلاف رؤيته على صورته الشريفة ﷺ. وقد حدثني مراراً بعضُ الخاصة من أصحاب سيدنا الشيخ ﵁ أخبره أنه كان يستعملُ لرؤياه ﷺ الصلاة التي كان الواسط المعظم سيدي محمد بن العربي يستعملُها للقيه عليه الصلاة والسلام، فكان يعني الوصيف المذكور إذا رأى النبيّ ﷺ يقول له: أنا محمد بن عبد الله رسولُ الله ﷺ، وذكر لي هذا الفاضل ﵀ تعالى أن أصحاب سيدنا ﵁ كانوا يميلون إلى التقييد لمثل هذا تثبتاً منهم ﵃ خشية الكذب عليه ﷺ والوصيف المذكور كان مشهوراً بالخير معروفاً بالجود والاجتهاد في طاعة الله تعالى، اسمه سيدي الحاج بو جمعة، وقد تأخرتْ وفاتُه عن وفاة سيدنا ﵁ بنحو العشرين سنة، وهذا الذي ذكرتُه عنه كان يحدث قَيْدَ حياة الشيخ ﵁، وكم من واحد من هؤلاء الوصفان مماليك الشيخ ﵁ ومماليك غيره ظهرَ عليهم آثارُ الفتح على يد الشيخ ﵁، ومن فضل هذه الصلاة الشريفة الذي لم يذكره النَّاظمُ هنا، وأشارَ إليه فيما مرَّ عند ذكر اللوازم أن من ذَكَرها اثنتي عشرة مرةً وقال: هذه هدية مني إليك يا رسولَ الله، فكأنما زارَه ﷺ في روضته الشريفة وزارَ أولياءَ الله تعالى والصالحين جميعاً من لدن آدم عليه السلام إلى وقته ذلك، يعني أنه يحصلُ له من الثواب والفضل مثل ما يحصلُ للزائرِ للروضة الشريفة وجميع أولياء الله تعالى في كل عصر، ثم لما جرى ذكر النبي ﷺ في قوله: **(يرى النبي أحمدا)** أتى بالصلاة والسلام عليه وعلى آله وأصحابه ﷺ لتأكيد الأمر بها كلما ذكر.

وقد قال بوجوبها عند ذكره جماعةٌ من العلماء منهم الطحاوي وجماعة من الحنفية والحليمي وجماعة من الشافعية وبه قال اللخمي من المالكية. وقال ابن العربي منهم أيضاً: إنه الأحْوطُ وأبَّد الصلاة والسلام باشتياق المؤمن إلى لقياه ﷺ، لأن اشتياقَ كلِّ مؤمن إليه ﷺ لا ينقطع إلى الأبد، وفيه مع ذلك إشارةٌ إلى الترغيب في العمل على الخاصية المذكورة قبل، وذلك لإفادته أن من صفة المؤمن الكاملِ الإيمانِ الاشتياقُ إلى رؤيته عليه

الصلاة والسلام، وبالتحقيق أن كلَّ مؤمن وإن كان في غاية الغفلة إذا علم أن الاشتياق إلى رؤيته من علامة الإيمان حَمَله ذلك على التعلُّق بهذه العلاقات بحسب قوة استعداده وضعفه على أنك لا ترى والحمد لله تعالى مؤمناً إلا وهو يودُّ رؤيته ﷺ ببذل جميع ما يملك حتى روحه التي بها حياته، هذا هو الأصلُ في كل مؤمن، وهو مصداقُ ما وَرَدَ في ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: «يودُّ أحدُكُم أنْ لوْ رآني بجميعِ ما يمْلِكُ» الحديث.

نعم فللسالكين الصادقين في استعمال الأذكار المعروفة لخاصَّة رؤياه ﷺ طريقتان:

الأولى: الإحجام عند ذلك والتوقف فيه، لاكتنافِ الهيبة والخَجَل للواحد من أهل هذه الطريقة عند إرادته الإقدام على ذلك، وذلك لشدَّة نظره لنفسِه بعين التحقير، فيرى أنه ليس أهلاً لأن يطلبَ رؤياه ﷺ مع كثرة تلطيخِه بالذنوب والمعايب اللازمة له، ويرى أن إقدامه على ذلك وهو على تلك الحال من سوء الأدب الذي يستوجبُ به العطبَ، ويقول لنفسه عندما تدعوه لاستعمال شيء من تلك الأذكار: إن كنتِ صادقةً فيما تدَّعيه من الشوق إلى رؤيته ﷺ، فعليكِ بمتابعتهِ بقدْرِ استطاعتك وتصحيح التوبة من مخالفة شريعته بقدر الإمكان والصدق في ذلك كله في السر والإعلان، ثم بكثرة الصلاة على النبي ﷺ في سائر الأوقات والأزمان على حدِّ ما قاله العارف بالله تعالى البوصيري[1] رضي الله عنه في داليته:

وتَـزَوَّدِ الـتَّـقْـوىٰ فـإنْ لـمْ تَـسْـتَـطِـعْ ... فَـمِـنَ الـصَّـلاةِ عـلـى الـنـبـيِّ تـزوَّدَا

وحينئذٍ أقدمي على ما أردتِ الإقدام عليه. وهذا ربما فاجأه الفتح في هذا المرمى ببركة أدبه ونظره بعين الحقرة لنفسه بمحْضِ الإفضال والإكرام، والأدب لا يأتي إلا بخير.

والطريقة الثانية: الإقدامُ على استعمال كل ما يقفُ عليه من ذلك، والسعي في كلِّ ما ذكروه في تحصيله بغاية الشوق والجد والاجتهاد، من غير نظر إلى تمييز وصف من الأوصاف في نفسه ولا في غيره، لكثرة ما غلبَ عليه من التَّوقان لبغيته العظمى، مع اعتقاده أن من الله عليه بكشْفِ الحجاب بينه وبين حبيبه الأعظم لقد خصَّه من السعادة الكبرى بالحظ الأوفر الأفخم، على حدِّ ما قاله البوصيري رضي الله عنه في همزيته:

لَـيْـتَـه خَـصَّـنـي بـرُؤْيَـةِ وَجْـهٍ ... زَالَ عـن كُـلِّ مَـنْ رآهُ الـشَّـقـاءُ

وهذا جدير بأن يتفضّل عليه مولاه المجيب بفضله وكرمه ووعده الذي لا يخلف دعوة مَنْ دعاه؛ وبالجملة فالكلُّ من أهل الطريقتين مشتاقٌ إلى رؤياه، ويودُّ بجميع ما يملكه لقياه، غير أن أهل الطريقة الأولى منعهم الحياءُ والخجل والحذر والوجل، من أن يكونوا

---

(١) البوصيري الشاعر، تقدمت ترجمته.

أهلاً للتعرُّض لذلك بأعمالهم الناقصة المشوبة بظلمات نفوسهم السيئة، التي هي في ميادين الخير على أعقابها ناكصة[1]؛ وهذا الحال مفضٍ بصاحبه إلى موارد الرضى من الله تعالى والكرامة مع العافية والسلامة، وأهلُ الطريقة الثانية غيَّبتهم المحبة الحالية عن الشعور بما هو منهم جملةً وتفصيلاً، ولم يجعلوا على غير فضل الله تعالى تعويلاً، فجدُّوا حتى وَجَدوا، ووفُّوا الزراعة حقَّها فقرَّتْ أعينُهم بما حَصَدوا ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: الآية 20] اللهمَّ إنِّي أسألك يا مولانا بجاهِ من عظَّمْتَ جاهَه على كلِّ جاه، وأعليته على كل عالٍ من خلقِك مراتب علاه، أن تصلي عليه وعلى آله صلاةً ترضيك وترضيه وأن تلهمنا بفضلِكَ الرشدَ والصوابَ، وتصحبنا اللطف الخفي في الحال والمآب، إنك أنتَ الله الكريم الوهاب، آمين آمين آمين، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(تنبيه) أعمَّ الله نعمه علينا كما أعمّها على آبائنا في الدين، ووَهَب لنا من الإيمان ما يلحقنا بسببه بحزبه المفلحين، قال القسطلاني في «المواهب اللدنية»: رُؤِيت امرأةٌ مسرفةٌ على نفسِها بعد موتها، فقيل لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي. قيل لها: بماذا؟ قالت: بمحبَّتي رسول الله ﷺ وشهوتي النظر إليه، نُوديت: من اشْتهىٰ النظر إلى حبيبنا نستحي أن نذلَّه بعتابِنا، بل نجمعُ بينه وبينَ من يحبُّه اهـ ثم قال ﷺ تعالى:

(قَدِ انتهى بِعينِ ماضي مَسقطِ	رَأسِ إمامِنا الشَّريفِ الأوسطِ
جَعلَهُ إلهنا الرَّحيمُ	القادِرُ المُقتدِرُ الكَريمُ
مِنْ حَوضِ طه المُصطفى نَشربُ بِهِ	لكونهِ تاريخهُ نشربُ بهِ)

(انتهى) كمل، و(مسقط الرأس) محلُّ سقوطه، ويطلقونه ويريدون محلّ الولادة، والمراد هنا زاوية عين ماضي، لأنها البلدة التي وُلد بها الشيخ ﷺ حسبما مرَّ في أول الكتاب و(الأوسط) كالوسط الأفضل ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: الآية 143] والضمير في (نشرب به) راجع للنظم كهو في انتهى.

يقول: قد انتهى وكمل هذا النظم بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه الجميل، وهو إن شاء الله تعالى وفق ما وَعَد به بكشف الحقيقة وفي وردنا المحمدي كفيلٌ، وذلك بزاوية عين ماضي مسقطِ رأس إمامنا وقدوتنا الجليل، ومحل ولادة أستاذنا الشريف الأفضل

---

(1) ناكصة: راجعة إلى الوراء.

الأصيل، جعلنا إلّهنا البرّ الرؤوف الرحيم، القادر المقتدرُ الجوادُ الكريم، نشربُ به، أي بهذا النظم من حوض طٰه المصطفى حبيب الله وخاتم أنبيائه. وفْقَ ما بشَّر به الفأل الحسنُ في حروف تاريخ إنشائه. وقد جرتْ عادة كثير من المؤلفين بذكر البلدة التي ألفوا بها تآليفهم عند ختمِهم، كما فعله النَّاظم ﷺ تعالى هنا ومقاصدُهم في ذلك على ما يظهر متباينة. ومما يمكن أن يقصده الناظم هنا تقوية رجاء مطالع هذا النظم في البركة له، بسبب إنشائه في تلك البقاع المباركة والتفاضل بين البقاع بسبب من وُلِدَ بها أو سكنها أو حلَّ بها ولو مجتازاً مقرَّر معروف، والتبرك بآثار الصالحين بين أهل الدين والخير من السنن المعهود المألوف، ويمكن أن يكون من مقاصده في ذلك مع ضميمة التاريخ إليه إفادة الواقف على هذا النظم إنه عرض مسائله وحررها على من كان موجوداً لذلك العهد بذلك القطر من أصحاب سيدنا ﷺ، الذين أدركوه وتلقوا عنه طريقه، ولا شك أنهم كانوا إذ ذاك متوافرين: والفائدة في ذلك تقديم ما اشتمل عليه نظمه هذا عند وجود الخلاف في بعض مسائله، إذ لا يخفى أن ذلك من أقوى وجوه الترجيح، ويمكن أن يقصد بذلك غير ذلك، والله تعالى أعلم.

ثم إن النَّاظم ﷺ تعالى لما أتى بما يؤذِنُ بانتهاء ما قصدَه في هذا النظم أردفه بالدعاء له ولإخوانه ولأحبابه بما يناسب المقام. وبيان ذلك أنه اختارَ من المطالب الشراب من حوضِ النبيّ ﷺ وقد قال أهل التحقيق: الشريعةُ عِلْمٌ وعَمَلٌ، فالحوض علومها والصراط عملُها، فعلى قدَرِ الشربِ من العلوم الشرعية يكون الشرب من الحوضِ اهـ الغرض.

وقد عرفت أن العلوم التي ضمنها هذا النَّاظم شرعيةٌ، بل هي من أخصِّ علوم الشريعة لأنها من العلم النافع بلا شك حسبما أوضحنا وجْهَه أولَ الشرح، فالجزاءُ الذي طلبه ﷺ تعالى فيه غايةُ المناسبة لعلمه، فافهم ذلك فإنه من لطائف النَّاظم ﷺ تعالى التي أشرنا إلى نظائرها في هذا النظم، وأتى بنون الجمع في «جعلنا إلّهنا» لإدخال إخوانه معه في ذلك رجاء أن تسرعَ إليه الإجابةُ من الله تعالى، إذ الدعاء كلما كان أعمَّ كان إلى الإجابة أقرب وأسند الجعل الذي طلبه إلى الإلّه الحقِّ المعبود بحقٍّ الذي لا يعبَدُ غيرُه ولا يرجى إلا خيرُه، والإضافة فيه لاستشعار التعليم بكماليته الذاتية والصفاتية والأسمائية، إذ الإلّه الحقُّ هو من له كمالُ الذات والصفات والأسماء والأفعال، وأردفه بالاسم **(الرحيم)** إشعاراً بتعيين مطلبه الذي هو مشرَبُه من حوض النبيّ ﷺ، إذ هو دالٌّ على الإنعام الأخروي، وقد عرف أن ذلك من جملة آداب الدعاء عند المحقِّقين، ثم أردَفَه بالاسم

الرافع جلَّ وعلا إشعاراً بعلوّ همّته، إذ حظُّ العبد من هذا الاسم رفْعُ ما رَفَعه الله تعالى في حكمه وشرعه، وذلك يستلزمُ الرغبة في الأمور الأخروية الرفيعة التي من جملتها الورودُ من الحوض ونحو ذلك مما هو آثر رضا الله تعالى الذي لا أرفعَ منه، ثم أتبعَ الاسمين الجليلين بالاسم **(المقتدر)** عزَّ وجل، وهو والاسم **(القادر)** بمعنى واحد، إلا أن في لفظ المقتدر زيادة مبالغة، والمراد من له القدرةُ والإرادة أي المتمكّن بلا معالجة ولا واسطة من إيجاد كلِّ ممكن وإعدامه، وقد يقال: المقتدرُ أخصُّ، فيكون معناه المتمكّن من التأثير والفعل بواسطة الأسباب العادية، وإن لم يكن لتلك الأسباب أثرٌ البتة، وحظُّ العبد منه التحقُّق منه بعجز نفسِه وعجز العوالم كلِّها عن إبداء أمرها والإيواء بكلية القلب إلى المولى القادر المقتدر سبحانه وتعالى؛ ففي إتيان الناظم به هنا استشعارُ التبرّي من رؤية أثر سببٍ من الأسباب بأسْرِها، ومن جملة ذلك ما طلبه هنا من أن يجعلَ الله تعالى هذا النظم سبباً يشرب به من الحوض، فإنه لما طلبَ ذلك من الله تعالى وكان ظاهرُ اللفظ ربما استنشقَ منه رائحة الاعتماد على عمله، أتى بما يؤذن ببراءةِ عقيدته من ملاحظة ذلك فافهم، وهو غايةٌ في الأدب المطلوب في المقام أيضاً كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

ثم أردفَ الأسماء الحسنى المذكورة بالاسم **(الكريم)** عزَّ وجل، وخَتَمها به تحقيقاً لما لاحظه من التعلُّق فيها جميعها، إذ الاسمُ الكريم تبارك وتعالى من أشمل الأسماء حكماً وأثراً، إذ الكرم يجمعُ الشرفَ والسودد الجامعين لإسداء المعروف وإغاثة الملهوف، ويجمعُ مع ذلك عظمَ الخطر ونباهة الشأن[1] والسبق بالإحسان، والعفوَ والصفح والحلم والغفران، وجميع أنواع الخير والبر والنفع والامتنان، وفي خَتْمه هذه الأسماء الكريمة به أيضاً استشعار ما هو حظُّ العبد منه، وهو قصرُ نظرِه وآماله على مولاه الكريم في كلِّ حالٍ وبكل حال، فإن الكريم لا تتخطّاه الآمالُ، ثم ثنى طلبه من الله تعالى فقال:

(والحشرَ أسألُه ربَّ النّاسِ	**في زُمرةِ الشّيخِ أبي العبّاسِ**
أنا ووالدي مع الأحبابِ	**لكيْ يُجيرنا من الحِسابِ)**

(السؤال) طلب الإعطاء، قال بعضهم: السؤالُ والدعاء مترادفان، وعليه فهو أي السؤال من الأدنى للأعلى كالدعاء، والعكس يسمّى أمراً، والطلبُ من المساوي يسمّى التماساً، وقد قدمنا أن أول من سمّى الأمر دعاءَ الإمام محمد بن علي الترمذي ﷺ وأفرد **(الوالد)** باعتبار الجنس فيشمَلُ الأمّ، فكأنه قال: أنا ومن ولدني من أم وأب.

---

(1) نباهة الشأن: علو أمره وانتشار قدره.

يقول: وأسأل الله تعالى ربِّي وربَّ العالمين ورب السَّمٰوات والأرض والناس أجمعين أن يحشرني بفضله وكرمه يوم العرض الأكبر في زمرة شيخي وأستاذي ووسيلتي إلى الله تعالى العلم الأخضر، والقطب المكتوم الأشهر، أنا ومن ولدني من أم وأب وجميعُ الأحباب رجاء أن يحقِّق لنا جميعاً بفضله وكرمهِ الوَعْدَ الصادق في دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب، هذا، والذي يعطيه سياقُ الكلام ويفيده قرينةُ الحال والمقام أن محصِّل طلبته هذه هو أن يختم له بالإيمان، والمحبة لهذا الشيخ العظيم القدْر والشأن، حتى يحشر معه في زمرةِ أتباعه وأحبابه حيث يكتنفُهم ظلُّ عرش الرحمٰن، ويدخلُ معهم الجنة في أول الزمرة الأولى، ويستقرُّ من جملتهم في علِّيين مجاوراً لسيد ولد عدنان، ﷺ وشرف وكرم، وقد تقدَّم هذا مبسوطاً في فضائل أهل هذه الطريق، وتخصيص الله تعالى بالكرامة في موقف الحشر لمن شاء من عباده المؤمنين، وكذا دخولُ الجنة بلا حساب ولا عقاب لمن تفضل الله عليه من المقرَّر عند العلماء المحققين، ووردتْ به الأخبار النبوية والأحاديث المصطفوية كحديث الطبراني وأبي نعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لله عباداً اسْتَخصَّهم بنفسه لقضاءِ حوائج الناس، وآلى على نفسِه أن لا يعذِّبهم في النار، فإذا كان يومُ القيامة جلَسُوا على منابر من نور يحادثون الله تعالى والناس في الحساب**» وكحديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغيرِ حسابٍ ولا عقاب[1]، وهو مذكور في غير ما كتاب. وقد قيل: «إنَّ مع كلِّ واحدٍ من السبعين ألفاً سبعين ألفاً» وقد نصَّ القرطبي وغيرُه على أن أعمالَ من لا يحاسبُ لا توزَنُ، وعليه فيتضمَّن طلب النَّاظم رحمه الله تعالى أن لا توزن أعماله بفضل الله تعالى. ثم ثلَّثَ طلبته فقال:

(وأنْ يَنيلَ مَن تَلا ذَا الرَّجزَا ... أو من سَعى فيهِ الرضا يومَ الجزا)

(ينيل) من النيل: بمعنى العطاء، و**(تلا)** قرأ. و**(الرجز)** بحرٌ معروف من بحور الشعر[2] **(والسعي)**: إعمالُ الحركةِ في طلب الشيء وتحصيله، و**(يوم الجزاء)** يوم القيامة.

يقول: وأسألُ من مولاي ذي الجلال والإكرام أن يعطي كلَّ من تلا هذا النظم بقصد أن يتعبَّد به لمولانا خالق الأنام أو سعى في تحصيله بكتابة أو غيرها بقصد أن ينفع به من إخوانه الخاص والعام الرضا التام، الذي لا غاية لما اشتملَ عليه من الإفضال والإنعام، إذ كلُّ إفضالٍ وإنعام في الآخرة هو أثرٌ للرضا منه تبارك وتعالى، وأجلُّ الإنعام وأعظمه

---

(1) انظر ما رواه البخاري في (اللباس: 18)، ومسلم في (الإيمان: 369).

(2) وهو بحر يقوم على تفعيلة «مستفعلن» ستَّ مرات، وله في النظم انتشار واسع وللشعراء فيه تصريفٌ.

الإنعام بالنظر إلى وجْهِه الكريم، ومصاحبةُ نبيِّه وحبيبه الأعظم في دار النعيم، ولا شك أن كلاً من تعليم العلم النافع للعمل به، ومن سعي المؤمن في نفْعِ إخوانه من موجبات الرضا والكرامة من الله تعالى، ففيه تحريكٌ للهِمَم إلى طلبِ العلم النافع الذي يتعبَّد به لمولانا الملك الديان وبعثٌ لها إلى السعي فيما ينفعُ الخاصّ والعام من الإخوان، فأما فضلُ طلبِ العلم النافع فمن الواضح البيِّن الذي لا يحتاج إلى تقدير. وأما السعي في منافع الإخوان فهو من أخلاق الأولياء والصالحين، وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني ﷺ عن بعض رجال الطبقات أنه كان يقول: سعْيُ الإخوان في الدنيا يكون لإخوانِهم لا لأنفُسِهم اهـ.

قال الشعراني ﷺ: ولما حججْتُ سنة كذا جعلتُ دعائي حولَ البيت وفي البيت وفي مواضع الإجابة كله لإخواني، قال: لأن الفتوَّة أن يقدم الإنسان حظَّ إخوانه ويؤخِّر حظ نفسه ليكونَ الحقُّ تعالى في حاجته بالقضاء والتيسير، والحمد لله رب العالمين اهـ كلام الشيخ الشعراني ﷺ.

ثم جعل النَّاظمُ ﷺ تعالى خاتمة طلباته الصلاة على النبي ﷺ رجاءَ حصولِ الإجابة في ذلك كلِّه، فقال ﷺ تعالى:

(وأَنْ يُصلِّي على مَن خَتما … بهِ الرسالةَ ومَن لهُ انْتمى)

(يصلي) مضارع صلَّى صلاةً لا «تصْلية» حسبما سبق، والصلاةُ من الله تعالى على نبيِّه ﷺ تقدَّم أن معناها زيادةُ التكرمة والإنعام، إذ أصلُ الإنعامِ عليه ﷺ دائمٌ مستمرٌّ من ربِّه عزَّ وجل بلا انقطاع ولا انصرام، والذي ختم الله تعالى به الرسالة هو نبينا سيدنا محمد رسول الله وخاتم النبيين. و **(انتمى)** انتَسَب، فالمراد ممن انتسب له ﷺ آله الأكرمون الطاهرون المطهرون: وهم أقاربه من بني هاشم نفعنا الله بمحبتهم. ويدخل معهم بحسب التبعية في هذا المقام، بالنسبة الدينية جميعُ المؤمنين.

يقول النَّاظم ﷺ تعالى: وأسألُ أيضاً من ربِّنا المنفردِ بصفات الكمال ونعوت الجلالة أن يصلِّي على حبيبه الأعظم ونبيِّه الأكرم الذي خَتَم به النبوة والرسالة، وعلى جميع من انتمى إلى جنابه الأعزِّ الطاهر، ومن ساداتنا وموالينا آله الأكرمين المخصوصين بالسودد الأشمِّ والشرف الأتمِّ والفخر الباهر، وأفردَ الناظم ﷺ تعالى الصلاة عن السلام هنا إشارةً إلى جواز الإفراد، وتنبيهاً على أن الكراهة عند القائل بها في الإفراد، مقيدةٌ بما لم يجمعها مجلسٌ أو كتاب عند أهل السداد، واختار الإتيان في هذه الصلاة التي ختمَ بها طلباته من الأسماء المحمدية والصفات المصطفوية بالخاتم للإشعار بختم نظامه، ففيه عليه

براعةُ الختم لتقوية الرجاء من أن الله تعالى استجابَ بفضله دعاءه في جميع ما طلبه، وقضى له عزَّ وجلَّ بجميع ذلك، وأتمَّه له أحسنَ إتمامٍ، بحيث صارَ القضاءُ له بذلك كالكتاب المختوم عليه، إشارةً إلى تنفيذ الحكم وإبرامه بجميع ما فيه، ولقوّة الرجاءِ أيضاً في أن الله تعالى بفضله وكرمه ينفعُ بنظمه هذا المختوم عليه بذكر حبيبه النبيّ الخاتم، ﷺ ما فيه كفاية.

وأما عطفُه في الصلاة على النبيِّ للآل، فلما هو مقرَّرٌ من حصول الإتمام بذلك للصلاة والإكمال، مع ما في ذلك من الإيذان بفضيلة معرفةِ قدْرِهم ومكانتهم، والتنويه بفخرهم وجلالتهم أداءً لبعض ما يجبُ من إمحاضِ الحب[1] لهم ورجاء الفضل الوارد في ذلك ففي الحديث: «مَعْرِفةُ آلِ محمَّد بَراءَةٌ مِنَ النَّارِ، وحبُّ آل محمَّد جوازٌ علىٰ الصِّراطِ، والولايةُ لآلِ محمد أمانٌ مِنَ العَذابِ» اهـ. قال القاضي عياض عن بعض العلماء: معرفتهم معرفةُ مكانتهم من النبيِّ ﷺ، وإذا عرَفَهم بذلك عرفَ وجوبَ حقِّهم اهـ.

(تتمة: تشمل بعون الله تعالى على فائدةٍ مهمة) نقل العارفُ بالله تعالى سيدي عبد الرحمٰن بن محمد الفاسي ﷺ عن الأستاذ القشيري ﷺ تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: الآية 56] الآية. ما يؤذن بأنه ﷺ ينتفعُ بصلاتنا عليه قائلاً في آخر كلامه على الآية بما يؤذن بما ذكر ما نصّه: وفي هذا إشارة إلى أن العبدَ لا يستغني عن الزيادة من الله تعالى في وقتٍ من الأوقات، إذْ لا رتبة فوق رتبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد احتاج إلى زيادة صلوات الله عليه اهـ، ثم نقل، أعني العارف بالله، عن غيره من الأئمّة المحققين ما يظهرُ منه خلافُه، وأن النفع بصلاتنا عليه ﷺ راجعٌ إلينا لا إليه، ثم قال، أعني العارف بالله: فالظاهرُ الخلافُ، والله أعلم. قال: وقد يقال: لا خلاف وأن أحدهما تنبيهٌ على الأدب في القصد والآخر إخبارٌ عن كرم الله تعالى، وعدم تناهي أفضاله اهـ.

وهذا من العارف بالله ﷺ توفيقٌ حسنٌ وجمع مستحسَنٌ، إذ ردَّ القولين إلى قول واحدٍ، وهذا القول المتضمِّن للتنبيه على الأدب في القصد هو الذي تواطأتْ عليه نصوصُ جماعةٍ من العلماء العاملين والمشايخ الكاملين. قال العارف بالله تعالى سيدي عبد الرحمٰن بن محمد الفاسي ﷺ، إثْرَ التوفيق السابق ما نصّه: وقال في المواهب اللّدنية ما نصّه: قال الحليمي: والمقصودُ بالصلاة عليه ﷺ التقرُّب إلى الله تعالى وقضاء حقِّ النبيّ

(1) إمحاض الحب: إخلاصه.

ﷺ علينا. وتَبِعه ابن عبد السلام فقال في الباب الثامن من كتابه المسمى بـ«شجرة المعارف»: ليستْ صلاتُنا على النبي ﷺ شفاعةً له، فإن مثلَنا لا يشفَعُ في مثله، ولكن الله تعالى أمرَنا بمكافأةِ من أحْسَنَ إلينا، فإن عجزْنا عنها كافأناه بالدُّعاء، فأرشدَنا الله تعالى لما علم عجزنا عن مكافأة نبيّنا ﷺ إلى الصلاة عليه، وذكر نحوه عن الشيخ أبي محمد المرجاني.

وقال ابن العربي: فائدةُ الصلاةِ عليه ﷺ ترجعُ إلى المصلِّي عليه لدلالة ذلك على نصوص العقيدة وخلوصِ النيّة وإظهار المحبة، والمداومة على الطّاعة، والاحترام للواسطة الكريمة، ﷺ اهـ بلفظه.

فهذه النصوصُ كلُّها مشيرة إلى القول الثاني المتضمِّن للتنبيه على الأدب في القصد بالصلاة على النبيﷺ لا شك عند من أنصفَ أن الاقتصارَ على ملاحظة ما أشار إليه هذا القول عند القصد إلى الصلاة عليه ﷺ هو العصمةُ بحول الله تعالى في بساط التربية، فمهما مال المصلِّي عليه ﷺ عن ملاحظة ذلك إلى غيرِه أساءَ الأدب، وزلَّ في مهواة العطبِ والعياذُ بالله تعالى، وقد أوضحَ الحقُّ في هذه المسألة أتمَّ إيضاحٍ وأكمله القطب الكبير سيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه فيما نقلَه عنه تلميذه العالم الكبير سيدي أحمد بن مبارك في «الذهب الإبريز»، فإنه رحمه الله تعالى ذكَر فيه أنه سأله رضي الله عنه هل ينتفعُ النبي ﷺ بصلاتنا عليه أو لا ينتفع؟ وذكَر له خلافَ العلماءِ في هذه المسألة، فأجابه رضي الله عنه بقوله: لم يشرِّعْها الله سبحانه بقصْدِ نفْعِ نبيِّه ﷺ وإنَّما شرَّعها بقصد نفعِنا خاصةً، كمن له عبيدٌ فنَظَر إلى أرْضٍ كريمة لا تبلغُها أرضٌ في الزراعة، فدعا عبيدَه فأعْطاهُم تلكَ الأرضِ على أن يكونَ الزرعُ كلُّه لهم يستبدرون به[1]، فهذا حالُ صلاتنا على النبيّ ﷺ فأجْرُها كلّه لنا، وإذا اشتعلَ نورُ أجرِها في بعض الأحيان واتّصلَ بنورِهِ ﷺ نراه بمنزلة شيءٍ راجعٍ إلى أصله لا غير، لأن الأجورَ الثابتة للمؤمنين قاطبة إنما هو لأجلِ الإيمان الذي فيهم، والإيمان الذي فيهم إنما هو من نورِه ﷺ فصارت الأجورُ الثابتة لنا إنَّما هي منه ﷺ، ولا مثال لذلك في المحسوسات إلا البحر المحيط مع الأمطار، إذا جاءت بمائها السيولُ إلى البحر، فإن ماءَ الأمطارِ من البحر، فإذا رجَعَ إلى البحر فلا يقال إنه زادَ في البحر إلى أن قال رضي الله عنه في جوابه هذا: فترى الرجلَ يقرأ دلائلَ الخيرات، فإذا أراد أن يصلِّي على النبي ﷺ صوّره في فكره وصوّر الأمورَ المطلوبة له كالوسيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود وغير ذلك مما هو مذكورٌ في كل صلاة، وصور

---

(1) يستبدرون: من البِدَر، أي يتخذون من هذا الزرع بِدْراً يعيشون منه.

نفسَه طالباً لها من الله تعالى وقدر في نفسه أن الله تعالى يجيبُه ويعطي ذلك لنبيه ﷺ على يد هذا الطالب، فيقعُ في ظنِّ الطالب أنه حصلَ منه للنبيِّ ﷺ نفعٌ عظيم، فيفرح ويستبشرُ ويزيد في القراءة ويبالغ في الصلاة ويرفعُ بها صوته، ويحس بها خارجة من عروق قلبه ويعتريه خشوعٌ، وتنزلُ به رقَّةٌ عظيمة، ويظنُّ أنه في حالة ما فوقَها حالة، وهو في هذا الظن على خطأ عظيم، فلا يصلُ بصلاته هذه إلى شيء من الله تعالى لأنها متعلِّقة بما ظنه وصوّره في فكره، وظنه باطلٌ لا يتعلَّق بالحق سبحانه، وإنَّما يتَّصل بالحق سبحانه ما هو حق في نفس الأمر، فكلُّ ما كان كذلك فهو متعلِّق بالحق سبحانه.

فليحذر المصلِّي على النبيّ ﷺ من هذه الآفة العظيمة، فإن أكثرَ الناس لا يفطنون لها، ويظنون أن تلك الرقة والحلاوة الحاصلة لهم من الله سبحانه، وإنما هي من الشيطان ليدفعهم بها عن الحقِّ ويزيدهم بها بعداً، وإنَّما ينبغي أن يكون الحامل لهم عليها محبته ﷺ وتعظيمُه لا غير، وحينئذٍ يشتعل نورُها، وأما إن كان الحاملُ عليها نفع العبد نفسه فإنه يكون محجوباً وينقصُ أجرُه، وإن كان الحاملُ عليها نفعَ النبي ﷺ فإن صلاته حينئذٍ لا تتعلق بالحق ولا تبلغُ إليه اهـ، وهو من أجل ما يعتمده المريد في بساط التربية الخاصة.

وقوله ﷺ: «فإن صلاته حينئذٍ لا تتعلّق بالحق» إلخ، يريد والله أعلم لأنه لاحظ فيها أنه يحصلُ النفع للنبيّ ﷺ، وفي هذه الملاحظة سوءُ أدبٍ ظاهر. وانظر عبارة سيدنا ومولانا الشيخ ﷺ في هذه المسألة آخر كتاب «جواهر المعاني»، فإنها الشافيةُ الكافية في الباب، والله الموفق للصواب.

ولنختم هذا التقييدَ المرجوّ من الله تعالى أن ينفعَ به كل محبٍّ ومريد بخاتمة تشتملُ على فصلين، وما هما في الحقيقة غير وصلين: الفصل الأول في التنبيه على أمرين، كان الشيخ ﷺ يدلُّ عليهما بلسان حاله ومقاله حتى كادا أن يكونا في طريقته ركنين وهما، وإن أشارَ إليهما قول النَّاظم ﷺ تعالى «كذا فعل ما به الهادي أمر» بالغ من فصل اللوازم على جهةِ الإجمال، فالتنصيصُ على عينهما هو الأولى والكمال.

(الأمر الأول) منهما هو قيامُ الليل، فقد كان سيدنا الشيخ ﷺ يرغِّب فيه غاية الترغيب، ويرهبُ من عدم المبالاة به أتمَّ ترهيب. والذي عليه العملُ في طريقنا قيامُ ما تيسَّر منه ولو بقدرِ ما يصلي ركعتين يسبقُ بهما الفجر، ويكون بما تيسَّر من تلاوة القرآن داخلَ الصلاة أو خارجه ولو سورة أو آية يردِّدها إن لم يحفظْ غير ذلك، ويذكر الله تعالى من الاستغفار والصلاة على النبيّ ﷺ وذكر الباقيات الصالحات ونحوها ولو لم يكنْ إلا الإتيان بتسبيح «ملء ما علم» و«عدَدَ ما علم» إلخ ثنتي عشرة مرةً وصلاة الفاتح لما أغلق

كذلك أيضاً يسبق بذلك الفجر، وليس في طريقنا تحديد في هذا القيام بركوعات مخصوصة كيفية وعدداً، بل الأمر في ذلك عندنا بحسب ما يتيسَّر، فإن تيسرت الركوعات الواردة في السنة، أعني العدد الذي كان يوتر بعده ﷺ فهو الأولى، وإن زادَ على ذلك فهو خيرٌ، وإن نقصَ بحسب الطاقة فقد أتى بالمطلوب.

قال في «العوارف»: وقد جاء في الخبر: «قمْ من الليلِ ولو قَدْرَ حَلْبِ شاةٍ »وقد أخبرني بعضُ الفضلاءِ الثقاتِ من خاصة سيدنا الشيخ ﷺ وملازميه أن سيدنا ﷺ كان يُوصيه ويؤكِّد عليه في قيام الليل حتى قال له: فإن اعتراك فتورٌ أو مرض أو نحو ذلك فاحرصْ على أن تقوم قبل الفجر ولو بمقدار ما تصلِّي ركعتين خفيفتين، ثم تصلِّي الفجر والصبح، ثم لا عليك إن أخَّرت ذكر الوردِ إلى الضحى مثلاً، وفي هذا تأييدٌ لما قدمناه من عدم التحديد عندنا في هذا القيام بشيءٍ من العبادات كيفيةً وكمًّا، وإن كان بعضُها أفضلَ وأولى بحسب ما دلَّتْ عليه السنة المطهَّرة فافهمْ. وفيه أيضاً ما يشيرُ إلى تأكيد أمر القيام في طريقه ﷺ ولا شك أن قيام الليل من شأن الصادقين، ونعْتِ العارفين، وسمة الناسكين وحلية العابدين، وقد جاء مما يشيرُ إلى فضيلته ما لا يكاد يحصى، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: 17] قيل: عملُهم كان قيامَ الليل، وقيل في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البَقَرَة: الآية 45] استعينوا بصلاة الليل، وفي الخبر: «عَلَيْكُم بقِيامِ اللَّيلِ فإنَّه مَرْضاةٌ لربِّكم ودأبُ الصَّالحين قبلَكم، ومَنْهاةٌ عن الإثم، وملغاةٌ للوِزْرِ، ومذهِبةٌ كيْدَ الشَّيطان ومَطْردة للرائي عن الحسد »ذكره في «العوارف»، وفيها أيضاً، وقد ورَدَ: «من صلَّى باللَّيلِ حَسُنَ وجْهُه بالنهار »قال: ويجوز أن يكون بمعنيين: أحدُهما أن المشكاة تستنير بالمصباح، فإذا صار سراجُ اليقين في القلب يزهر بكثرة زيت العمل بالليل يزدادُ المصباح إشراقاً وتكتسب مشكاة القلب نوراً وضياءً اهـ الغرض من هذا الوجه.

ثم قال: الوجه الثاني لقوله ﷺ: «من صلَّى باللَّيلِ حسُنَ وجهه بالنَّهار »أن وجوه أمورِه التي يتوجَّه إليها تحسنُ وتتداركُه المعونةُ من الله الكريم في تصاريفه، فيكون معاناً في مصدره وموْرِده، فتحسن وجوه مقاصده وأفعاله، وتنتظم في سلوك السداد جميعُ أقواله، لأن القوالبَ تستقيمُ باستقامة القلبِ اهـ.

وفي هذين الخبرين من الفضائل الدينية والمنافع الدنيوية ما لا يهملُ العملُ عليها إلا من لا يكترثُ بالفضل والخير، نسأل الله تعالى أن يعتق رقابنا من رقِّ الأغيار، ويلحِقنا بفضله وكرمه بدرجة الأحرار آمين.

ووراء هذه الفضائل ما يجدُه العارفون بالله تعالى في قيامهم من لذَّة المناجاة وحلاوة التملُّق بين يدي سيدهم ومولاهم ملك الملك ربِّ الأرضين والسَّموات؛ وقد قال بعضُهم: ليس في الدنيا شيءٌ يشبه نعيمَ أهل الجنة إلا ما يجدُه أهل التملُّق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة، فحلاوة المناجاة ثوابٌ عاجل لأهل اللَّيل. وقال بعضهم: إن الله تعالى يطلع على قلوب المستيقظين في الأسحار فيملؤها نوراً فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير، وقد وَرَدَ: «إنّ الله تعالى أوْحىٰ في بعض ما أوحى إلى بعضِ الأنْبِياءِ: إنَّ لي عِباداً يُحبُّونَني وأحبُّهم ويَشْتاقُونَ إليّ واشْتاقُ إلَيهِمْ، ويَذْكرُونني وأذْكُرُهم، ويَنْظُرونَ إليّ وأنظرُ إلَيهم، فإن حذَوْتَ[1] طريقهم أحببتكَ، وإن عدلْت عن ذلك مقتُّك[2]، فقال: يا ربِّ ما علامتهم؟ قال: رياعون[3] الظّلال بالنَّهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنونَ إلى غروبِ الشَّمس كما تحنُّ الطَّير إلى أوكارها، فإذا جنَّهم اللَّيلُ واختلطَ الظَّلام وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه نصبوا إلي أقدامهم وافترشوا لي وجوهَهم وناجُوني بكلامي وتملَّقوا لي بإنعامي، بين صارخٍ وباكٍ وبين متأوِّهٍ وشاكٍ، بعيني ما يتحمَّلُون من أجْلي، وبسمعي ما يشكون من حبِّي، اول ما أعطيهم أن أقذفَ من نوري في قلوبهم فيخبِرُون عنِّي كما أخبرُ عنهم». والثاني: «لو كانت السَّمواتُ السَّبعُ والأرضون السبعُ وما فيها في موازينهم استقلَلْتُها لهم». والثالث: «أُقبِلُ بوجهي عليهم فترى من أقبل بوجهي عليه يعلمُ أحدٌ ما أريدُ أن أعْطيه» اهـ ذكره في «العوارف» أيضاً، وهو كافٍ في بيان فضيلة قيام اللَّيل في بساطِ السلوك، ولهذا كان جماعةٌ من الصَّالحين يقومون الليل كلَّه حتى نُقِل عن أربعين من التابعين أنهم كانوا يصلُّون الغداة بوضوءِ العشاء منهم سعيد بن المسيّب، وفضيل بن عياض، ووهيب بن الوردي وغيرهم، عدَّهم وسماهم بأسمائهم وأنسابهم الشيخ أبو طالب المكي في كتابه «قوت القلوب». وقد كان على هذا القدم جماعةٌ من أصحاب سيدنا الشيخ ﷺ، فكانوا يحيون عامة الليل ومنهم من أدركناه ورافقناه بحمد الله تعالى في المدَدِ الكثير مراراً إلا أنه فيما أحسبُ كان يتوضَّأ بعد صلاةِ العشاء وكنا نصلِّي معه الصبحَ بذلك الوضوء.

وبالجملة فجميعُ أصحاب الشيخ ﷺ الذين أدركناهم لهم الحظُّ الأوفرُ من قيامِ اللَّيل، ولا نتعقّلُ الآن أنا رأينا منهم من ينام اللَّيل كلَّه ولا سمعنا بذلك أيضاً عن أحدٍ منهم، وما ذلك إلا لتأكيد أمرِه عند الشيخ ﷺ.

---

(1) حذا طريقَهم: مشى فيه.

(2) المقْت: البغض والحقد.

(3) كذا بالأصل، ولعل الصواب «يراعون».

وقد أخبرني بعض الفضلاء ممن لازمَ الشيخ ﷺ مدةً طويلة أن رجلاً من أصحابه أتاه فقال له: يا سيدي إنني لا أقدِرُ على القيام قبلَ الفجر، بل كثيراً ما أؤخِّر الصلاة إلى أن تطلعَ الشمسُ، وهذه حالةٌ لازمة لي لا أستطيع الانفكاكَ عنها، وكأنه يريدُ من الشيخ ﷺ أن يرخصَ له في ذلك بشيء مما يُحكى عن بعض أصحاب الأحوال، فلم يساعده ﷺ بشيء له، بل قال له في جوابه: أنت رجلٌ لا تصلُح لطريقتنا، فاطرح سُبْحَتَنا عنك اهـ. وأرادَ بذلك ﷺ زجرَ الرَّجلِ عن الركون إلى الترخُّصات بالتأويلات التي يأباها التقييد بالسنة المطهَّرة، مثل ما حكوه عن بعض أصحاب الأحوال من أنَّهم يرون القيام يفتر داعية الشوق، ويقولون إنه، أعني القيام، وقوفٌ وقصور في مقام الشوق.

وذكر صاحب «عوارف المعارف» رحمه الله تعالى أن هذا محلٌّ غلطٌ هلكَ به خلقٌ كثير، ولهذا شدَّد سيدنا ﷺ الزجر للرجلِ الذي سأله في ذلك حتى أمره بطرحِ سبحته، وهذه كانتْ عادتُه ﷺ، لا يحيدُ عن قانون السنة المطهَّرة ولا يبني في جميعِ أفعاله وأقواله إلا على قواعدها المحرَّرة، لا تستفزُّه ﷺ عن ذلك حالةٌ جماليةٌ، ولا تعرض له فيه شبهةٌ خيالية، فشريعتُه ﷺ ممزوجةٌ بطريقته مزجَ الماء بالماء، ومنطبقة عليها انطباق المسمَّيات على الأسماء، وحقيقته منطويةٌ في مجموعها انطواء النور في النور، فصار يُرى ظاهِرُها من باطنها وباطنُها من ظاهرها، عند من نوَّر الله بصيرته، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له نور، رزَقَنا الله رضا هذا الإمام، وأدامنا وسائر خاصَّتنا في حوزة حماه الذي لا يُضام آمين.

وإذا تقرَّر لديك أمرُ قيام الليل، وعرفتَ أنه من آكدِ الأعمال في طريقتنا هذه الأحمدية فلنذكرْ لك نبذةً من الأمور التي تعينُ عليه مما ذكَره أهلُ هذا الشأن، في كتبهم المتلقَّاة بالقبول في القديم والحديث من الأزمان. فمن ذلك الوضوءُ بعد صلاة العشاء، وقد كان بعضهم يغتسل في ذلك الوقت، وقد صرَّحوا بأن للوضوءِ والغسلِ في هذا الوقت أثراً ظاهراً في تيسير قيام الليل؛ ومن ذلك الإقبالُ على الذكر حتى يغلب عليه النوم، فإنه يعين على سرعة الانتباه؛ ومن ذلك خفّة المعدةِ من الطعام، فإنْ حصَلَ ثقلٌ من الطعام فلا ينمْ حتى يذيبه بالذكر والتلاوة والاستغفار؛ ومن ذلك التحرُّز من ارتكاب الذنوب نهاراً، فإن الذنب يمنعُ من قيام الليل، والتحرز من الذنب يعين عليه.

وذكر أن رجلاً قال لبعضهم: إني أتيتُ معافًى وأحبُّ قيام الليل وأعدُّ طهوري فما بالي لا أقومُ؟ فقال له: ذنوبك قيَّدَتْك. وكان الحسن البصري ﷺ يقول: ما تركَ أحدٌ قيامَ الليل إلا بذنب أذْنَبه فتفقدوا أنفسَكم كلّ ليلة عند الغروب، وتُوبوا إلى ربّكم لتقوموا الليل.

وقال رجلٌ لابن أدهمَ[1]: إني لا أقدِرُ على قيام الليل فصفْ لي دواءً، فقال: لا تَعْصِه بالنهار وهو يقيمُك بين يديه بالليل، فإن الوقوفَ بين يديه بالليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحقُّ ذلك الشرف اهـ ذكره في «تنبيه المغترين».

وذكر في «العوارف» عن الثوري[2] أنه قال: حرمتُ قيامَ اللَّيل سبعة أشهر بسببِ ذنبٍ أذنبتُه، فقيل له: ما كان الذنبُ؟ فقال: رأيتُ رجلاً بكى فقلتُ في نفسي: هذا مُراءٍ اهـ. وكلام المشايخ في هذا كثير، ومن أراد فلينظر «العوارف» و«القوت» وغيرهما.

[فائدة] قد صحَّ أنه: «ما مِن ليلةٍ إلاّ وفيها ساعةٌ لا يُوافِقُها عبدٌ مؤْمِنٌ يسألُ الله شيئاً إلاّ أعطاهُ إيَّاه»[3] وقد قال الشيخ زروق: قال بعض من لقيناه من الشيوخ: ومن شاء القيام فيها فليقرأ ما وَرَد للقيام في أي وقت شاء، كآخر سورة الكهف. ونقل عن البلالي رحمه الله أنه ذكر أن من قرأ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزُّمَر: الآية 42] إلى قوله تعالى: ﴿مُّسَمًّى﴾ [الزمر: الآية 42] يقيمُه الله تعالى متى نوى ويفعلُ ما نوى، وشرطها أن لا يتكلَّم بعدها. قال: وهي مجرَّبة جدًّا اهـ، والله المستعان.

(الأمر الثاني) رفعُ الهمَّة عن الخلق اكتفاءً بالملك الحقّ، **واتصاف سيدنا الشيخ رضي الله عنه بهذا من الواضح الذي لا يحتاج إلى تقرير، وقد سرى ذلك لأصحابه، فاتَّصفوا به بين الخاص والعام، حتى صار النار ينسبونهم إلى الغني، ولو لم يكونوا أغنياء، وكلام المشايخ رضي الله عنهم فيما يشيرُ إلى تأكيد رفع الهمة عن الخلق في الطريق، وكونه من أركانها المعتمدة فيها كثيرة، وغرضنا التنبيه على أنه في طريقنا من الأمر الآكد فيها، بل هو من أوصاف أهلها التي يعرفون بها.**

ورأيت في بعض المؤلفات نقلاً عن «تذكرة المحبين» للرصاع ما نصّه: قال بعض العارفين رفْعُ الهمّة عن الخلق هو ميزانُ الفقراء، وقبيحٌ بالفقراء أن ينزلوا حاجتهم بغير

---

(1) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميمي البلخي، أبو إسحاق، زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقَّه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز، وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة، وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحمل والطحن. مات سنة (161هـ).

انظر تهذيب ابن عساكر: 2/167، وحلية الأولياء: 7/367، وفوات الوفيات: 1/3.

(2) الثوري: هو سفيان الثوري، وقد تقدمت ترجمته.

(3) رواه ابن ماجه في (الإقامة: 196)، وأبو داود في (الصلاة: 201).

مولاهم، ويبذلوا أنفسهم لأرباب الدنيا بالسعي إليهم، وكثرة الوقوف على أبوابهم موافقين لهم على مآربهم، تراهم يتزيَّنون كما يتزيَّن العروس، معتنين بإصلاح ظواهرهم غافلين عن إصلاح سرائرهم، لقد كان حقُّ أحدِهم لو صدَقَ في فقرِه أن يسمَّى: عبد الكبير، فخرج عن هذه الإضافة فصار يضافُ لعدمِ صدقه إلى الذليل الحقير؛ أولئك هم الكاذبون على الله، الصادُّون العبادَ عن محبة أولياء الله. ثم قال: قال ابن عطاء الله: رفْعُ الهمة عن الخلق هي زينةُ أهل الطريق وسمة أهل التحقيق، وقال بعضهم في ذلك:

الله يعلمُ أنني ذو همَّةٍ ... تأبى الدَّنِيَّة عِفَّةً وتظرُّفا
لِمَ لا أصُونُ عن الورى ديباجتي ... وأُريهم عزَّ الملوكِ وأشْرَفا
أأُرِيهُم أني الفقيرُ إليهمُ ... وجَمِيعُهم لا يستطيعُ تَصَرُّفا
أمْ كيفَ أسألُ رِزْقَه مِنْ غيرِه ... هذا لعَمْرِي إن فعلتُ هو الجَفا
شَكْوى الضعيفِ إلى ضعيفٍ مثله ... عجْزٌ أقامَ بحامليه على شَفَا
فاسْترْزِقِ الله الذي إحسانُه ... عمَّ البرِيَّة مِنَّةً وتَلَطُّفا

انتهى ما نقله عن الرصاع. وفي هذا القدر الذي ذكرناه تتميماً لغرض النَّاظم رحمه الله تعالى كفاية والله ولي التوفيق والهداية.

الفصل الثاني

في ذكر نبذة من الفضل العام للأركان القائم منها هذا الورد

فإن النَّاظم رحمه الله تعالى اقتصر في خاتمته على ذكر الفصل الخاص للصلاتين الشريفتين: صلاة الفاتح لما أغلق، وجوهرة الكمال.

ونحن بحول الله نتمُّ الغرضَ المناسب للمقام بالتبرُّك بذكر نبذةٍ من الفضل العام رجاء أن يختم الله لنا بنيله بلا استحقاق منا، بل بفضل مولانا ذي الجلال والإكرام. فأما الاستغفارُ فقد قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: 10 ـ 12] وقال عز من قائل: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: الآية 199] فالآيتان الكريمتان مؤذنتان للمستغفرِ بالمغفرة والرَّحمة وبسط الحال في الحال والمآل، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: الآية 33] وهذه الآية مؤذنة كما صرَّح به الفخر الرازي بأن الاستغفار أمانٌ من العذاب إلى غير ذلك من الآيات القرآنية المعظمة.

وذكر النسفي حديثاً عن النبيّ ﷺ: «ما مِنْ مؤْمِنٍ إلاَّ ولَهُ كلَّ يَوْمٍ صَحِيفةٌ، فإذا طُوِيَتْ وليسَ فيها استِغْفارٌ طوِيَتْ وهي سَوْداءُ مظلِمةٌ، وإذا طوِيَتْ وفيها استغفارٌ طوِيَتْ ولها نورٌ يتلألأ». وروى ابن ماجه عن النبي ﷺ: «طُوبىٰ لمَنْ وَجَد في صحيفته اسْتِغْفاراً كَثِيراً»[1] وعنه ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أنْ تسرَّهُ صَحِيفته فلْيُكْثِر فيها من الاسْتِغفار»[2] رواه البيهقي. وعنه ﷺ: «مَنْ لزِمَ الاستِغْفارَ جعَلَ الله له من كلِّ همٍّ فَرَجاً ومِنْ كلِّ ضيقٍ مخْرَجاً ورزَقَه مِنْ حَيْثُ لا يَحتسِبُ» رواه أبو داود والنسائي[3]. وعنه ﷺ: «ما مِنْ عبدٍ ولا أمة يستغفرُ الله في يومٍ وليلة سبعينَ مرَّةً إلا غفَرَ الله له سبعمائة ذنبٍ، وقد خابَ عبدٌ أو أمة عمِلَ في اليوم أو الليلة أكثرَ من سَبْعمائة ذنْبٍ» رواه البيهقي. وفي هذا القدر كفاية، والله ولي التوفيق والهداية.

وأما الصَّلاةُ على النبيّ ﷺ ففضلُها أشهرُ من كلِّ شهير، ويكفي في بيان فضلها حديث مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النَّبيّ ﷺ قال: «مَنْ صلَّى عليّ واحدةً صلَّى الله عليه عَشْراً». وحديث ابن حبان عن أبي طلحة أن النبيّ ﷺ قال: «أتاني مَلَكٌ فقال: أما يُرْضِيكَ أنه لا يصلِّي عليكَ أحدٌ إلاَّ صلَّيتُ عليه عَشْراً، ولا يسلِّم عليْكَ أحدٌ إلا سلَّمْتُ عليه عَشْراً» قال في «شرح الحصن»: والملك في هذا الحديث هو جبريل عليه السلام كما تبيَّن من رواية النسائي وغيره.

قال: وظاهرُ هذه الرواية أن الضمير في «صليت» للملك وأنه المصلي عشراً، وقد نقل السيوطي الحديث بلفظ: «أتاني جبريلُ فقال: يا محمَّدُ أما يُرْضيكَ أن ربَّكَ عزَّ وجلَّ يقولُ: إنَّه لا يُصلِّي عَلَيْكَ أحَدٌ مِن أمَّتِكَ صَلاةً إلاَّ صليتُ عَلَيْه بِها عَشْراً ولا يُسلِّم عَلَيْكَ أحَدٌ مِن أمَّتِكَ تَسْلِيمَةً إلاَّ سلَّمْتُ عَلَيْهِ بها عَشْراً؟ قلت: بلىٰ إي وربِّي» اهـ.

ووردت أيضاً صلاة الملك في حديثٍ نقلَه السيوطي ﷺ وهو أن جبريل قال للنبي ﷺ: «إنَّ الله تعالى وكَّلَ بِكَ مَلَكاً مِنْ لدُن خَلقكَ إلىٰ أن يَبعثَكَ لا يصلِّي عَلَيْكَ أحَدٌ مِن أُمَّتِكَ إلاَّ قال: وأنتَ صلىٰ الله عَلَيْكَ» اهـ وفي رواية غير مسلم عن النبي ﷺ: «مَنْ صلَّى عليّ واحِدةً صلى الله عليه عَشْرَ صلواتٍ وحُطَّتْ عنهُ عَشْرُ خَطِيئاتٍ، ورُفِعَتْ لهُ عَشْرُ درجاتٍ، وكُتِبتْ لهُ عَشْرُ حَسَناتٍ» قال في «شرح الحصن»: وقد يفهم منه أن صلاة الله على المصلِّي عشرَ صلوات أمرٌ زائد على تضعيف الحسنة بعشر، لأنه جمع في هذا الحديث بينهما معاً.

---

(1) رواه ابن ماجه في (الأدب: 57).
(2) رواه أبو داود في (الوتر: 26).
(3) رواه أبو داود في (الوتر: 26)، والدارمي في (الرقاق: 58)، وأحمد: 3/ 102، 261.

قال: وقال ابن العربي: إن قيل قد قال الله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الانعَام: الآية 160] فما فائدةُ هذا الحديث؛ قلت: أعظم فائدة، وذلك أن القرآن اقتضى أن الحسنةَ بعشرٍ، والصلاة على النبيّ ﷺ حسنة، فمقتضى القرْنِ أن يعطى عشرَ درجاتٍ، فأخبرَ الله تعالى أنّه يصلّي على مَنْ صلّى على رسوله عشراً، وذكر الله للعبد أعظمَ من الحسنةِ مضاعفةً، قال، يعني ابن العربي: وتحقيق ذلك أن الله تعالى لم يجعلْ جزاء ذكره إلا ذكره لمن ذَكَره، وكذلك جعلَ جزاء ذكرِ نبيّه ذكره لمن ذكره، قال العراقي: ولم يقتصر على ذلك حتى زاده كتابة عشر حسنات، وحطَّ عنه عشر سيئاتٍ، كما وَرَد في أحاديث اهـ بنقل السيوطي ﷺ تعالى اهـ من شرح الحصن.

ويكفي العبد المصلي على هذا النبي الكريم ﷺ هذا الذي يحصلُ له في المرة الواحدة من صلاة الله تعالى عليه وذكره إياها، وصلاةُ الملائكة عليه مع ما تفضَّل عليه به مولاه زيادةً على ذلك من رفعِ الدَّرجات ومحْوِ السَّيئات وإثبات الحسناتِ، فكيفَ بما يحصلُ له بالصلوات الكثيرة: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ④﴾ [الجُمُعَة: الآية 4] فالصلاة الواحدة من الله تعالى فيها كما قاله التاج ابن عطاء الله كفاية همّ الدنيا والآخرة، وذلك كما نقَلَه شارح «الحصن» عن الشيخ الحراني بنقل النووي عنه أن معنى صلاة الله على عباده إقبالُه عليهم بعطفه إخراجاً لهم من حال ظلمة إلى رفعة نورٍ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الاحزَاب: الآية 43] فبصلواته عليكم إخراجكم من ظلمات ما أوقعهم في وجوب تلك الابتلاءات اهـ.

وبالجملة فالصلاة على النبيّ المصطفى ﷺ من أسنى الذخائر، وأفضل الأعمال المقرِّبة إلى الله دنيا وأخرى، وفضلُها أظهرُ من أن يذكر، وأكثرُ من أن يسطر وغَرَضنا التبرُّك بما يشيرُ إلى طرفٍ من ذلك على أنه مما لا يقدر قدره ولا ينالُ إلاّ بالتخصيص الإلّهي الذي اقتضاه انبساطُ جاهه العظيم ﷺ، وإلا فمِنْ أين للعبدِ الذليل الحقير أن يصلي عليه ربُّه عزَّ وجلَّ وملائكته لولا انبساطُ جاهه العظيم ﷺ.

وأما كلمةُ الإخلاص «لا إلّه إلاّ الله» فهي أشرفُ الذكر، وكلُّ فضلٍ للذكر على الإطلاق فهو منها، والآي القرآنية المؤذِنةُ بالترغيب في ذكرها كثيرةٌ، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محَمَّد: الآية 19] وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة: الآية 255] وقال عز وجل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑱﴾ [آل عِمرَان: الآية 18] إلى غير ذلك، وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: «قلتُ: يا رسول الله مَن أسعدُ النَّاس بشفاعتِكَ يومَ القِيامةِ؟ قال: لقد ظننْتُ يا

أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أولىٰ منكَ لما رأيتُ من حِرْصكَ على الحديث، أسعدُ النَّاس بشفاعتي يومَ القيامة من قال: لا إلَه إلاّ الله، خالصاً من قلبِه أو نَفْسِهِ»[1]. وعن يعلى بن شداد قال: حدثني أبي شداد بن أوس وعبادة بن الصَّامت حاضر يصدِّقه قال: «كنَّا عند رسول الله ﷺ فقالَ: هلْ فيكم غريبٌ يعني من أهل الكتاب؟ قلنا: لا يا رسولَ الله؟ فأمر بغلْقِ الأبوابِ وقال: ارْفَعوا أيديكُم وقولوا: لا إلَه إلاّ الله، فرفَعْنا أيدينا ساعةً، وقال: الحمد لله، اللهمَّ إنَّك بعثْتَني بهٰذه الكلمةِ وأمرْتَني بها ووعَدْتني عَلَيْها الجنَّة وإنَّكَ لا تخلِفُ الميعاد، ثم قال: ألا أبْشِروا، فإن الله قد غَفَرَ لكم» ذكره في الترغيب والترهيب عن الإمام أحمد والطبراني وغيرهما، وفيه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «جدِّدوا إيمانَكُم، قيل: يا رسولَ الله وكيف نجدِّد إيماننا؟ قال: أكثِرُوا من قول لا إلَه إلا الله»[2] وفيه أيضاً: «إنِّي لأعلمُ كلِمةً لا يقولها عبدٌ حقًّا من قلبه فيموتُ على ذلك إلاّ حرِّم على النار لا إلَه إلا الله». وفيه أيضاً قال رسول الله ﷺ: «أكْثِروا مِنْ شهادةِ أن لا إلَه إلاّ الله قبلَ أن يُحالَ بينكُم وبينها». وفيه أيضاً قال رسول الله ﷺ: «مفاتيحُ الجنَّة لا إلَه إلاّ الله». وفيه أيضاً: «ما مِنْ عَبْدٍ قالَ: لا إلَه إلا الله في ليلٍ أو نهارٍ إلا طُمِسَتْ ما في الصَّحيفة من السيئةِ حتى تُكْسىٰ إلى مِثْلها مِنَ الحَسناتِ». وفيه أيضاً عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله تباركَ وتعالىٰ عموداً من نُورٍ بيْنَ يدي العَرْشِ، فإذا قالَ العبدُ لا إلَه إلاّ الله اهتزَّ ذلِكَ العمودُ، فيقولُ الله تبارك وتعالى: اسْكُن فيقول: كيفَ أسْكُن ولم تغفِرْ لقائِلها؟ فيقول جلَّ وعلا: إنِّي قد غفَرتُ له فيسكنُ عند ذلك». قال راويه البزار: وهو غريب.

وفيه أيضاً: «التسبيح نصفُ الميزانِ، والحمدُ لله تملؤُهُ ولا إلَه إلاّ الله لَيْسَ بينَها وبَيْنَ الله حجابٌ حتى تخلُصَ إلَيْه» وفيه أيضاً: «إن الله يسْتَخلِصُ رَجُلاً مِن أمَّتي على رُؤوس الخلائقِ يومَ القِيامَة فَينشرُ لهُ تِسعةٌ وتسعون سَجْلاً كلُّ سجل[3] مدّ البصر، ثم يقول: أتنكرُ مِن هٰذا شيئاً؟ أظَلَمَك كَتَبَتي الحافِظون؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: أفَلَكَ عذرٌ؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول الله تعالى: بلىٰ إنَّ لكَ عندنا حَسنةً، فإنَّه لا ظُلْم عَلَيْكَ اليوم، فيخرجُ بطاقةٌ فيها: أشهد أن لا إلَه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله، فيقول: احضرْ وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقةُ مع هذه السجلات؟ فقال: إنَّك لا تظلم، فتوضعُ السجلات في كفَّة فطاشَت السجلات وثقلت البطاقةُ ولا يثقلُ مع اسم الله شيء» بنقل العلامة اليوسي في منهاج الخلاص، وفيه: ومن كتاب

(1) رواه البخاري في (العلم: 33)، وفي (الرقاق: 51)، وأحمد: 2/ 373.
(2) رواه أحمد: 2/ 359.
(3) السَّجْل: الدلو العظيمة، مملوءَةً.

«الفوائد التامة» عن علي بن الحسن رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «أخبرني جبريل عليه السلام أن لا إلّه إلا الله أنسٌ للمسلم عند موتهِ وفي قبرِهِ، وحينَ يخرجُ مِنْ قبْرِه، يا محمد لو تراهمُ حِينَ يخرجُونَ من قُبورِهِم ينفضون التُّرابَ عن رؤوسهم، هذا يقول: لا إلّه إلاّ الله، فيبيضُّ وجهُه، وهذا ينادي يا حسرتي على ما فرَّطتُ في جنب الله فيسودُّ وجهه » اهـ. وذكر فيه أيضاً ما نصّه: وفي «مفتاح الفلاح» عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يَفْتحُ الله أبواب الجنَّة فينادي منادٍ من تحت العرْشِ: أيَّتها الجنَّة وكل ما فيك من النَّعيم لمن أنتِ؟ فتنادي الجنَّةُ وما فيها: نحنُ لأهلِ «لا إلّه إلا الله»، ونحن محرمون على من لم يقلْ لا إلّه إلاّ الله ولم يؤمن بلا إلّه إلاّ الله، وعند هذا يقال للنار وكل ما فيها من العذاب: لمن أنتِ؟ فتقولُ: لا يدخلني إلاّ ممَّنْ أنْكَرَ لا إلّه إلا الله، ولا أطلبُ إلا من كذَّب بلا إلّه إلاّ الله، وأنا حرامٌ على من قال لا إلّه إلاّ الله، ولا أمتلىءُ إلاّ من جحد لا إلّه إلا الله، وليس غيظي إلا على من أنكَر لا إلّه إلاّ الله. قال: فتجيء رحمةُ الله ومغفرتُه ويقولان: إنا لأهْلِ لا إلّه إلاّ الله، وناصران لمن قال: لا إلّه إلا الله، ومحبَّان لمن قال: لا إلّه إلا الله، ومتفضِّلان على من قال: لا إلّه إلاّ الله، ويقول الله تبارك وتعالى: أبَحْتُ الجنَّة لمن قال: لا إلّه إلا الله، وما تكونت الجنَّة إلا لأهل لا إلّه إلاّ الله ». والأحاديث في هذا الباب كثيرة، والغرضُ التبرُّك منها بهذه النبذة اليسيرة.

وليكن هذا الذي أتينا به في فضل كلمة التوحيد ختاماً لما يسَّر الله تعالى جمعَه من مسائل هذا التقييد رجاء أن يختم الله لنا ولخاصَّتنا بما ختَمَ به لخاصةِ الخاصَّةِ من كمل الرجال وخُلَّص العبيد، وأن يمتِّعنا وسائرَ الأحباب والإخوان بالنظر إلى وجهه الكريم في دار الكرامة والمزيد، وأن يكرِّمنا بجوار نبيّنا المصطفى الكريم في أعلى الدرجات من أعلى عليين ودار النَّعيم، إنّه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير وصلى الله وسلَّم على حبيبه الفاتح الخاتم سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وعلى آله وصحبه رهبان المحاريب وليوث الملاحم، والحمد لله أولاً وآخراً، حمداً يوافي نعمه ويكافىءُ مزيدَه، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

(انتهى) التقييد المبارك بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه الجميل، ونسأل الله الذي أكملَ به منيتنا أن يُنْجِحَ بفضله وكرمه بغيتنا، وأن ينفعَ به كما نفع بأصوله، ويجعله من أقوى الأسباب إلى ولوج حضرة وصوله، بجاه الواسطة العظمى في كلِّ خير وإفادة، وكل كرامة وسعادة، سيدنا ومولانا محمد حبيب الله ومصطفاه، من بريته وصفوة صفوته وخيرته من خليقته، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الأعراف

الأنفال

التوبة

يونس

هود

35 ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ 335
83 ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ 71
83 ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ 415

العنكبوت

الروم

لقمان

السجدة

الأحزاب

سبأ

فاطر

الصافات

ص

الزمر

غافر

فصلت

الشورى

الزخرف

المجادلة

11	﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾	70

الحشر

7	﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾	363
9	﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾	64
9	﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾	64
9	﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾	66
23	﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾	153

الصف

3	﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)﴾	148

الجمعة

4	﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)﴾	240، 345، 407، 447، 464

المنافقون

8	﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾	343

التغابن

16	﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾	367-366

الطلاق

7	﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾	405

التحريم

6	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾	33

القلم

4	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)﴾	42

نوح

12-10	﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12)﴾	462

الجن

1	﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾	276

فهرس أطراف الأحاديث الشريفة

❊ ❊ ❊

فهرس الأعلام

* * *

فهرس الأماكن والبلدان

* * *

فهرس الأشعار المتفرّقة

وإذا سخر الإله أناساً ... لسعيد فإنهم سعداءُ

بيت واحد ـ ص. 206

ليته خصني برؤية وجه ... زال عن كل من رآه الشقاءُ

بيت واحد ـ ص. 449

وكذا الكريم إذا أقام ببلدة ... سال النضار بها وقام الما

بيت واحد ـ ص. 195

ألا فجيش لا يكتُّ عديده ... سود الجلود من الحديد غضابُ

بيت واحد ـ ص. 243

إن تأملتكم فكلي عيون ... أو تذكرتكم فكلي قلوبُ

بيت واحد ـ ص. 79

ستكفيك من ذاك الجمال إشارة ... ودعه مصوناً بالجلال محجبا

بيت واحد ـ ص. 42

إذا اصطفاك لأمر هيأتك له ... يد العناية حتى تبلغ الأربا

بيت واحد ـ ص. 348

كالشمس في وسط السماء ونورها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

بيت واحد ـ ص. 422

وما عرف الأرجاء إلا رجالها ... وإلا فلا فضلاً لترب على تربِ

بيت واحد ـ ص. 170

لحوم أهل العلم مسمومة ... ومن يعاديهم سريع العطبِ

بيت واحد ـ ص. 27

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب ... إلا ومعناه إن فكرت في لقبِهْ

بيت واحد ـ ص. 119

وغيره من مرتضى الأخيار	يشفع كما قد جاء في الأخبارِ

بيت واحد ـ ص. 240

الله يعلم ما إثم هممت به	إلا ونقّصه خوفي من النارِ

بيتان ـ ص. 334

وكل مسافر يزداد شوقاً	إذا دنت الديار من الديارِ

بيت واحد ـ ص. 162

من أخمل النفس أحياها وروّحها	ولم يبت طاوياً منها على ضجرِ

بيتان ـ ص. 110

ولا تقدمن قبل اعتقادك أنه	مرب ولا أولى بها منه في العصرِ

بيتان ـ ص. 132

ألا إن خير الناس بعد نبيه	مهيمنه التاليه في العرفِ والنكرِ

بيت واحد ـ ص. 153، 221

وبعضهم خصّصها بالناس	وهو ابن عباس بلا التباسِ

بيت واحد ـ ص. 171

وكن صادقاً في جهم ومصدقاً	بأحوالهم واحذر مخالفة الشمسِ

بيت واحد ـ ص. 101

وثم أمور ليس يمكن كشفها	هنا قلدتني عقدهن شرائعُ

بيت واحد ـ ص. 144

ليس التصوف أن يلاقيك الفتى	وعليه من نسج النحوس مرقّعُ

3 أبيات ـ ص. 178

الله يعلم أنني ذو همة	تأبى الدنية عفة وتظرفا

6 أبيات ـ ص. 462

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا	وكلهم قال قولاً غير معروفِ

بيتان ـ ص. 178

ومكثر الصلاة فيه يشرق	في قلبه نور لها يحققُ

7 أبيات ـ ص. 251

فنحن للأزهري المفضال ... أعني الزواوي أخا الكمالِ

بيت واحد - ص. 196

عسى عناية لطف الله تلحقني ... بالسابقين فقد عوقت من كسلي

بيت واحد - ص. 9

من حاد عن نهج الهدى ... فأضلّ قصد سبيلهِ

بيتان - ص. 379

أحب الحمى من أجل من سكن الحمىٰ ... ومن أجل من فيها تحب المنازلُ

بيت واحد - ص. 160

دعاني الغواني عمهن وخلتني ... لي اسم فلا أدعى به وهو أولُ

بيت واحد - ص. 165

أشم منك نسيماً لست أعرفه ... كأن لمياء جرّت فيك أذيالا

بيت واحد - ص. 79

تميز بالوصف الجناني مثل ما ... تميز بالكوني العياني مسجلا

7 أبيات - ص. 172

وقد حفظ القرآن سابع حجة ... مجيداً مجيداً أي طفل بدا طفلا

بيت واحد - ص. 173

فأول من لاقاه والطير غالبا ... على جنسها وقاعة تبتغي الشكلا

3 أبيات - ص. 185

بلا خلوة ربّى وربّوا بخلوة ... فشتان ما بين اليزيدين فهلا

بيت واحد - ص. 35

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسامُ

بيت واحد - ص. 189

وربما أعطي لفظ الوصل ما ... للوقف نشراً وفشا منتظما

بيت واحد - ص. 431

حسبي بهم من غيرهم بدلاً فهم ... روحي وريحاني وبرء سقامي

4 أبيات - ص. 89

فمال نحوه فخصّ بالمرامْ ... وهو من الحفني شيخه الإمامْ

بيت واحد ـ ص. 196

من لم تجانسه فاحذر أن تجالسه ... فالشمع آفته من صحبة القطنِ

بيت واحد ـ ص. 379

ففاز منه ثم بالتلقينِ ... عن شيخه الكردي الرضي الأمينِ

بيت واحد ـ ص. 205

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

بيت واحد ـ ص. 69

وفي السر أسرار دقاق لطيفة ... تباح دمانا جهرة لو بها بحنا

بيت واحد ـ ص. 333

ليس التصوف لبس الصوف ترقعُه ... ولا بكاؤك إن غنى المغنونا

4 أبيات ـ ص. 178

إن التجاني تاج لا نظير له ... الله صرّفه فينا وولاهُ

4 أبيات ـ ص. 295

وما له الأزواج أيضاً ذكره ... عن شيخنا قوم ثقات بررَهْ

بيت واحد ـ ص. 322

أسامياً لم تزده معرفة ... وإنما لذة ذكرناها

بيت واحد ـ ص. 206

وجاءه إذ ذاك سامي القدرِ ... فرد السنا سيدنا ابن المشري

بيت واحد ـ ص. 205

لقد رمت الحصاد بغير زرع ... يغوص البحر من طلب اللآلي

بيت واحد ـ ص. 37

لم أكن للوصال أهلاً ولكن ... أنتم بالوصال أطمعتموني

بيت واحد ـ ص. 77

الشطح دعوى في النفوس بطبعها ... لبقية فيها لآثار الهوى

بيتان ـ ص. 270

فهرس المحتويات

* * *